2020
6.1.2020

الحائزة على جائزة مان بوكر عام 2000

مارغريت آتوود



السفّاح الأعمى

ترجمة إيمان أسعد

"لكنّ قبضتها كانت أقوى من أصابعها"

جائزة مان بوكر عام 2000

مارغريت آتوود

السفّاح الأعمى

ترجمة: إيمان أسعد

السفّاح الأعمى

هذا الكتاب بدعم من:
1001 عنوان
مبادرة 1001 عنوان

السفّاح الأعمى

تأليف: مارغريت آتوود
ترجمة: إيمان أسعد
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-24-174-4

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2019

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

KALIMAT GROUP • مجموعة كلمات

"تخيَّل الملك آغا محمد خان، يأمر بإنزال عقوبة القتل وفَقْءِ الأعين على سائر سكان مدينة كرمان – لا استثناء. أفراد حرسه الملكي يهبّون إلى تنفيذ أمره بحماس. يجبرون أهل المدينة على الاصطفاف، يقطعون رؤوس الكبار، يقتلعون عيون الأطفال من محاجرها... لاحقاً، قوافل الأطفال العميان تهجر المدينة. بعضهم، التائهون في الريف، يضلون طريقهم في الصحراء ويموتون عطشاً. جماعاتٌ أخرى تصل مستوطنات مأهولة ... تردد أغاني عن إبادة أهل كرمان..".

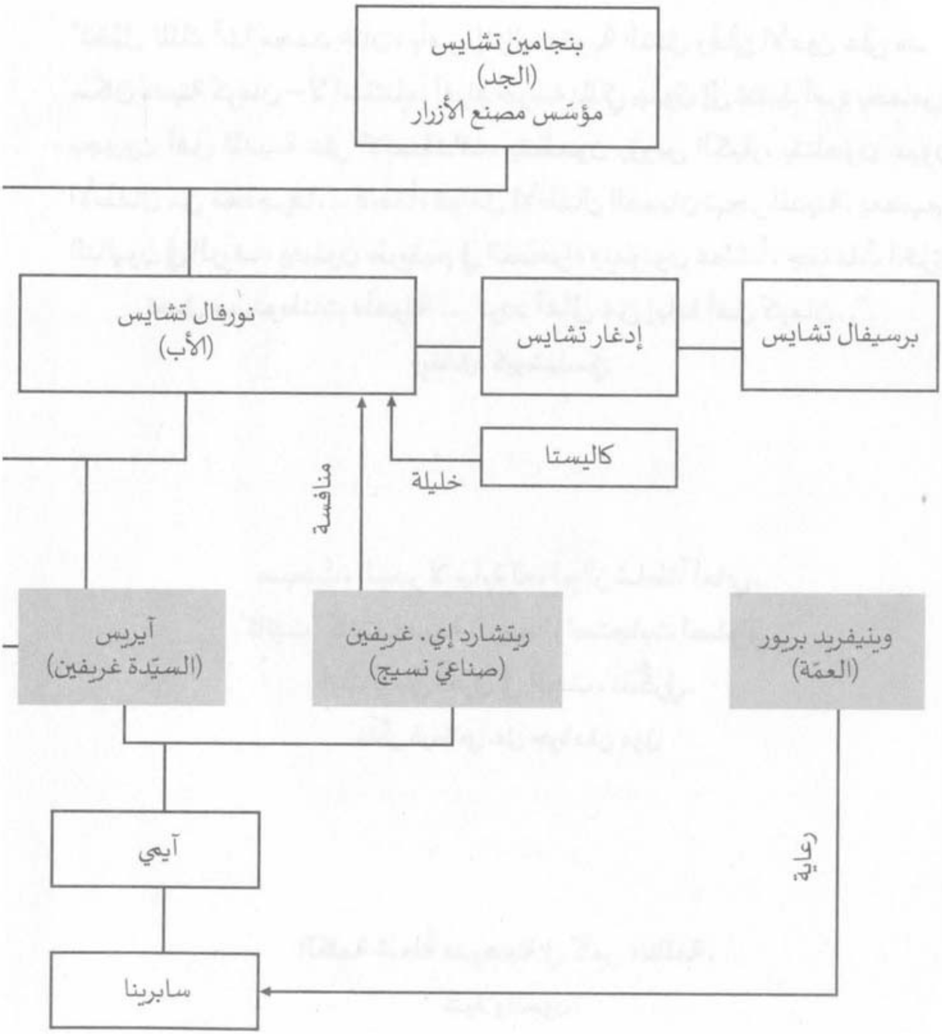
ريتشارد كابوشينسكي

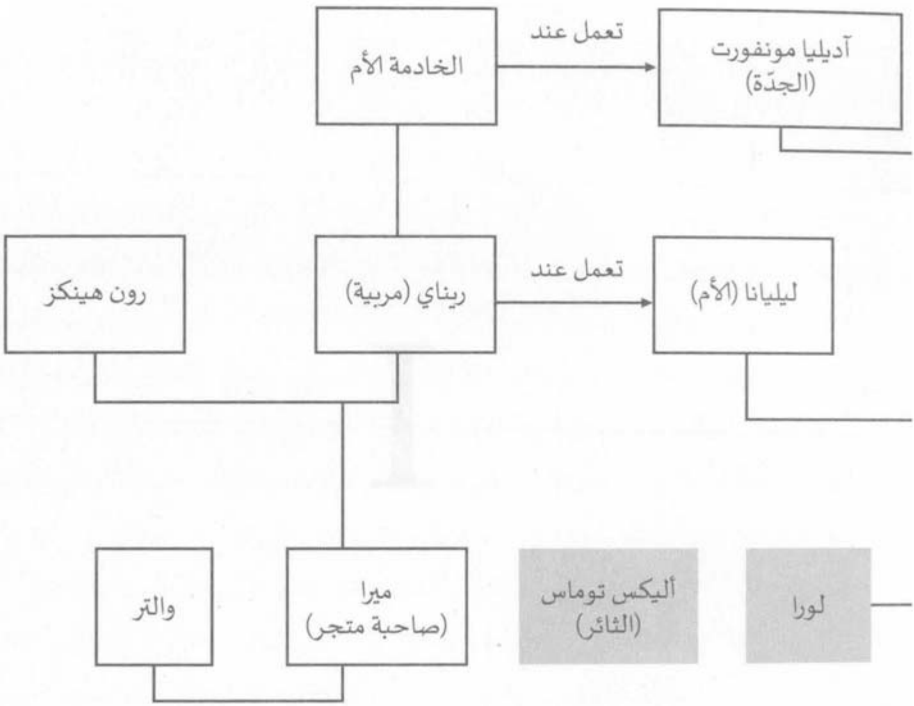
سبحتُ، البحر لا نهاية له، لم أرَ شاطئاً أمامي.
"تانيت" كانت عديمة الرحمة، استجابت لصلواتي.
أنت يا من تغرق في الحب، تذكَّرني.

نقشٌ قرطاجي على جرة دفن موتى

الكلمة شعلةٌ متوهجة في كأسٍ مظلمة.

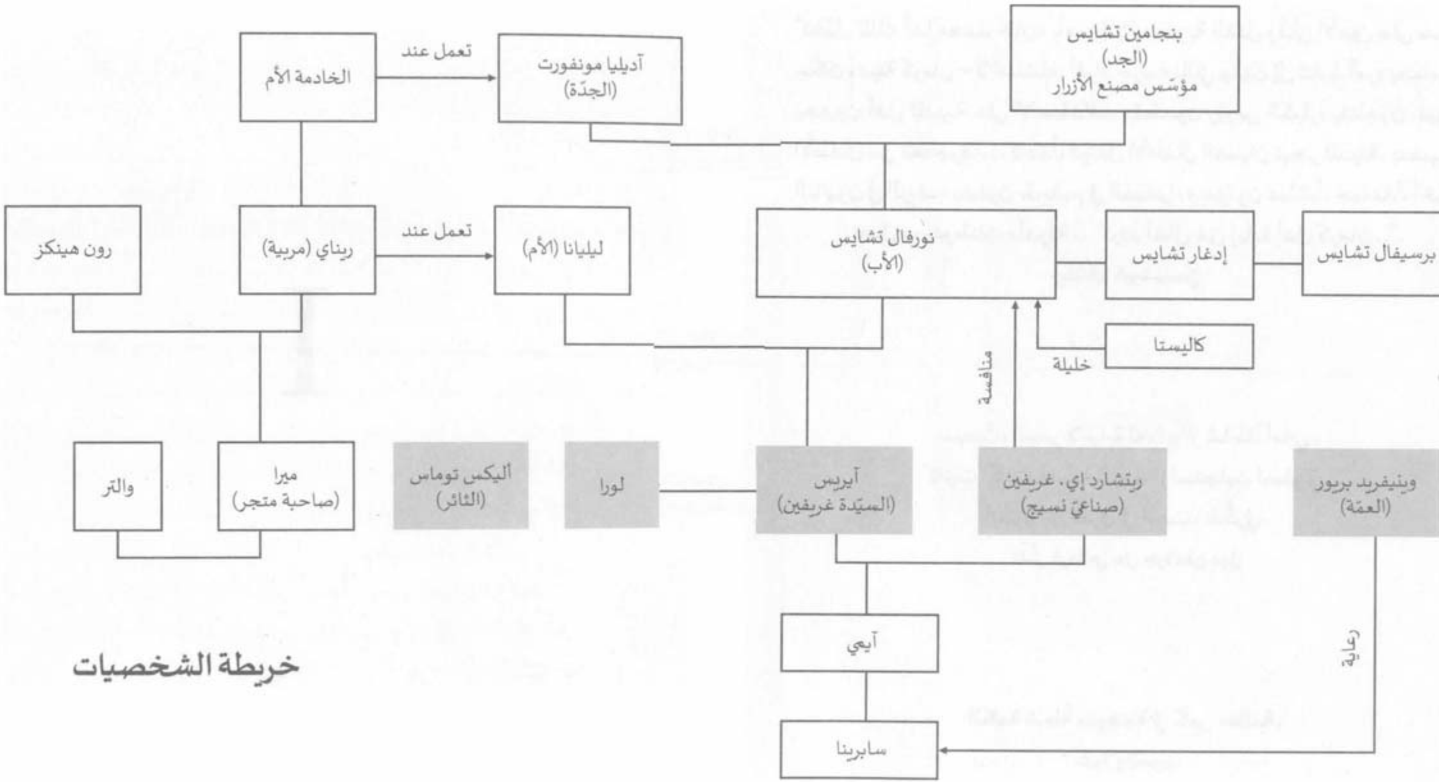
شيلا واتسون


بنجامين تشايس
(الجد)
مؤسّس مصنع الأزرار
نورفال تشايس
(الأب)
إدغار تشايس
برسيفال تشايس
كاليستا
خليلة
منافسة
آيريس
(السيّدة غريفين)
ريتشارد إي. غريفين
(صناعيّ نسيج)
وينيفريد بريور
(العمّة)
آيمي
سابرينا
رعاية



خريطة الشخصيات

خريطة الشخصيات



I

الجسر

بعد مضي عشرة أيام على نهاية الحرب، قادت شقيقتي لورا سيارة وهوت بها عن جسرٍ كان تحت الترميم: عبرته مخترقة لافتة التحذير من الخطر. هوت السيارة مائة قدمٍ في الوهْد، محطمةً قمم الأشجار المكسوة بزغب الأوراق الجديدة، النيران اندلعت فيها بينما تتدحرج حتى بلغت الجدول الضحل في القاع. كتلٌ من الجسر تساقطت فوقها. لم يتبق شيءٌ من شقيقتي سوى شظايا متفحمة.

علمت بالحادث عن طريق شرطي: السيارة تخصني، وقد تتبعوا رقم اللوحة. نبرته نمّت عن احترام: لا شك قد تعرّف على اسم ريتشارد. أخبرني أن العجلات لربما علقت بسكّة الترّام، أو لعلّها المكابح تعطلت، لكن شعر بأنّه ملزمٌ أيضاً بإعلامي بوجود شاهدَين – محامٍ متقاعد وصرّاف بنك، رجلان موثوقٌ بهما – قد ادّعيا رؤيتهما الحادث بأسره. وقد أخبراه أن لورا انعطفت بالسيارة عمداً وبحدة، اندفعت بسرعةٍ بالغة وهوت عن الجسر هكذا بكل ثبات وكأنها تنزل من حافة رصيف. لقد لاحظا حركة يديها على المقود بسبب ارتدائها قفّازين أبيضين.

لم أعتقد أنها المكابح. إنّ لها أسبابها. ليس الأمر أن أسبابها تشابه أسباب أي شخص آخر فعل فعلتها. بل لأنها عديمة الرحمة في هذا الشأن.

"أظنّكَ بحاجة إلى شخصٍ يتعرّف عليها،" قلت له، "سآتي في أقرب وقتٍ ممكن". كان بوسعي سماع الهدوء في صوتي وكأني أسمعه من مسافةٍ بعيدة. لكني في واقع الأمر بالكاد نطقت الكلمات، كان فمي متنمّلاً، ووجهي كله متصلباً من الألم، أحسست وكأني خرجت التوّ من عند طبيب الأسنان. كنت مشتاطة غضباً على

لورا لما فعلته، وكذلك على الشرطي لتلميحه أنها فعلتها عن عمد. ريحٌ حارة أخذت تهب حول رأسي، خصل شعري ترتفع وتلتف في دوامتها، مثل حبرٍ انسكب في الماء. قال لي، "أخشى أنَّ تحقيقًا سيُفتح، سيدة غريفين". فأجبته، "بالطبع، لكن المسألة لا تعدو كونها حادثة، فشقيقتي لم تكن قط بالسائقة الماهرة".

كان بوسعي تصوّر وجه لورا البيضاوي الأملس، الشنيون مثبتٌ بأناقة، الفستان الذي ولا بد كانت ترتديه: فستانٌ مخصر بياقةٍ دائرية صغيرة، هادئ اللون – إمّا كُحليّ أو بلون الرماد الفولاذي أو بلون الطلاء الأخضر على جدران بهو المستشفى. ألوان التّوبة – ليست بالألوان التي كانت ستختار ارتداءها بحريتها بل أقرب إلى الألوان التي كانت ستجبر على ارتدائها لدى حبسها. نصف ابتسامتها الوقورة، رفعة التعجب على حاجبيها، وكأنها تتأمل الإطلالة بإعجاب.

القفازان الأبيضان: تيمناً بيبيلاطس البنطي[1]. كانت تغسل يديها مني. منا جميعاً. ما الذي كانت تفكر فيه لدى إقلاعها بالسيارة عن الجسر، في تلك الهنيهة من الزمن إذ تدلت عالقةً في شمس الأصيل، تلمع مثل اليعسوب، تحبس أنفاسها قبل أن تهوي؟ بأليكس، بريتشارد، بالنوايا الغادرة، بوالدنا وحطامه؛ بالرب ربما، ومساومتها الثلاثية القاتلة معه. أو بكومة كراسات التمارين المدرسية الرخيصة التي ولا بد قد خبأتها ذاك الصباح بالذات في درج البوريه حيث أحتفظ بجواربي الحريرية مدركةً أني من سيعثر عليها.

لدى مغادرة الشرطي صعدت للأعلى لأبدل ملابسي. كي أزور المشرحة سأحتاج إلى قفازين، وقبعة مع خمار. شيءٌ أغطي به العينين. فقد يتواجد صحفيون هناك. كان عليّ أن أتصل بسيارة أجرة. كان عليّ كذلك أن أحذّر ريتشارد، هو في مكتبه: سيرغب بتحضير بيانٍ يعبر فيه عن حزنه. توجهت إلى غرفة الملابس: أحتاج لباساً أسود، ومنديلاً. فتحت الدرج، ورأيت الكراسات. حللت عقدة خيط الطهي الذي ربطت بها الكومة. انتبهت إلى أسناني تصطك، إلى البرد وقد اجتاح سائر جسدي.

---

(1) بيلاطس البنطي: كان الحاكم الروماني لمقاطعة أيوديا في القدس ومن تولى، وفقاً للأناجيل، محاكمة المسيح والأمر بصلبه تحت تهديد اليهود، لكن كي يتنصل من ذنب صلب المسيح، غسل يديه بالماء أمام حشود اليهود صائحاً: أنا بريءٌ من دم هذ البار.

فاستنبطت أني ولا بد أعيش حالة صدمة.

ما تذكرته حينها هي ريناي، منذ أيامنا حين كنا بعد صغاراً. كانت ريناي من تضمد كشوطنا، جروحنا وإصاباتنا البسيطة: بينما أمي كانت تخلد للراحة، أو تؤدي أعمالاً صالحة في مكانٍ آخر. لكن ريناي هي من تواجدت دائماً هناك. كانت تغرفنا من الأرض وتجلسنا على طاولة المطبخ البيضاء المطلية بالمينا، إلى جانب عجينة الفطيرة التي تفردها أو الدجاجة التي تقطع أوصالها أو السمكة التي تنتزع أحشاءها. كانت تعطي الواحدة منا قطعة سكر سمراء حتى تجبرنا على غلق أفواهنا. اعتادت أن تقول: قولي لي أين يؤلمك. كفي عن العواء. اهدئي وأريني أين.

بيد أن هناك أناسًا عاجزون عن الإشارة إلى موضع ألمهم، عاجزون عن الاستكانة إلى الهدوء. عاجزون تماماً عن الكفّ عن العواء.

صحيفة "تورنتو ستار"، 25 مايو، 1945

تساؤلات تحوم حول حادث الوفاة في المدينة

تقرير خاص لصحيفة "ستار"

خلص تحقيق الطب الشرعي إلى أن حادث الوفاة الذي وقع الأسبوع الماضي في جادة سانت كلير هو حادثٌ عرضي. الآنسة لورا تشايس، 25، كانت تقود سيارتها غرباً بعد ظهيرة الثامن عشر من مايو حين انحرفت واصطدمت بحواجز الحماية المحيطة بموقع الترميم على الجسر وهوت في الوهد حيث شبت فيها النيران. الآنسة تشايس قتلت على الفور. شقيقتها، السيدة ريتشارد إي. غريفين، زوجة الصناعي الشهير، أدلت بما يفيد أن الآنسة تشايس قد عانت من نوبات صداعٍ قوية مما أثر على بصرها. وفي ردها على أسئلة المحققين، نفت أي احتمالٍ لوقوع أختها تحت تأثير السكر بدليل أن الآنسة تشايس لا تحتسي الكحول.

وبرأي الشرطة فإن عجلة قد علقت بسكّة التّرام المكشوفة ممّا شكّل عاملاً رئيسياً في الحادث. وأثيرت الأسئلة لاحقاً حول مدى ملاءمة إجراءات الأمن والسلامة التي اتخذتها المدينة، لكن بعد شهادة الخبير التي قدّمها مهندس المدينة غوردون بيركنز فقد تم دحض تلك التساؤلات.

وقد أعاد الحادث موجة الاعتراضات على حال سكة الترام المكشوفة على مدى الطريق الرئيسي. السيد هيرب تي. جولف، ممثل دافعي الضرائب المحليين، كان قد أدلى بتصريح لصحيفة "ستار" يفيد بأن الحادث الذي وقع مؤخراً ليس بالحادث الأول الذي تتسبب به تلك السكة المهملة. على مجلس المدينة أخذ ما جرى في الاعتبار.

السفّاح الأعمى. بقلم لورا تشايس

رينغولد، جاينز، آند مورو. نيويورك، 1947

تمهيد: نباتاتٌ معمّرة لأجل الحديقة الصخرية

تملك صورةً واحدة له. دسّتها في مغلّفٍ بني كتبت على ظهره فصاصات، وخبأت المغلّف طيّ صفحات كتاب نباتات معمرة لأجل الحديقة الصخرية، حيث لن يراه أبداً أي شخصٍ سواها.

احتفظت بتلك الصورة وأولتها منتهى العناية، لأن الصورة تقريباً هي الأثر الوحيد المتبقي لها منه. الصورة بالأبيض والأسود، التُقطت بإحدى الكاميرات الومضيّة المعلّبة الثقيلة التي تعود إلى أيّام ما قبل الحرب، بفوّهتها ذات الطيّات كما منفاخ الأكورديون، بصندوقها الجلدي متقن الصنع الذي يشبه الخطم والمثبت بإحكام بالأشرطة والأبازيم. الصّورة تعود لهما معاً، هي وهذا الرجل، في نزهة. هذا ما كتبَته على ظهر الصورة، نُزهة، بالقلم الرّصاص – لا اسمه ولا اسمها، فقط نزهة. فهي تعرف الاسمين، لا حاجة لها لتدوينهما.

جالسان تحت شجرة؛ قد تكون شجرة تفاح؛ فهي لم تعر الشجرة انتباهها آنذاك. هي ترتدي سترة بيضاء، الكُمّان مشمران حتى مرفقيها، مع تنورةٍ واسعة دستها تحت ركبتيها. لا بد وأن الريح كانت نشطة، فقميصها يهب اتجاهها، أو ربما لم يكن يهب اتجاهها، بل يلتصق بها، فربما الجو كان حاراً يومها. بلى كان حاراً. ما إن تضع يدها على الصورة حتى تجد نفسها لا تزال تشعر بتلك الحرارة تنبعث منها، كما

الحرارة المنبعثة من صخرةٍ لمستها في منتصف الليل بعد أن أدفأتها شمس النهار.

الرجل يرتدي قبعةً فاتحة اللون، حافتها الأمامية مائلة للأسفل وتواري وجهه إلى حدٍّ ما. وجهه يبدو مسفوعاً وأكثر اسمراراً من وجهها. كانت قد التفتت نحوه نصف التفاتة، مبتسمة، ابتسامةً لا تذكر أنّها ابتسَمَتْها لأحدٍ آخر من بعد. تبدو يافعة في تلك الصورة، بل فتيةً جداً، رغم أنها لم تعتبر نفسها فتيةً جداً آنذاك. هو الآخر يبتسم – أسنانه تبرق بياضاً مثل وهج عود ثقاب لدى اشتعاله – بيد أنّ يده مرفوعة، وكأنما يصدها عنه لهواً، أو كي يحمي نفسه من الكاميرا، من الشخص الموجود حتماً هناك، يلتقط له الصورة؛ أو كي يحمي نفسه من أولئك الأشخاص في المستقبل، مَن قد يمعنون النظر فيه، يمعنون النظر فيه عبر تلك النافذة المربعة الساطعة من الورق المصقول. كأنما يحمي نفسه منها. كأنما يحميها. في يده الممتدة الحامية، عقب سيجارة.

تسترجع المغلف البني متى ما تكون وحدها، وتسحب الصورة خلسةً من بين قصاصات الصحف. تسجيها على سطح الطاولة وتحدق أسفلاً فيها، وكأنما تمعن النظر في بركةٍ أو بئر – تبحث خلف انعكاس صورتها عن شيءٍ آخر، شيءٍ لا بد وأنها قد أوقعته أو فقدته، بعيدًا عن متناول يديها لكن ما زال مرئيًا، يترأرأ مثل جوهرةٍ على الرمال. تتفحص كل تفصيل: أصابعه المبيضة إما بتأثير وميض الكاميرا أو وهج الشمس؛ طيات ملابسهما؛ أوراق الشجرة، والأشكال الدائرية الصغيرة المعلقة عليها – هل كانت فعلاً شجرة تفاح؟ العشب الخشن أمامهما. العشب كان أصفرَ لأن الطقس جاف.

على أحد جانبي الصورة – لن تسترعي نظرك في الوهلة الأولى – هناك يد، يدٌ مقطوعة عند الهامش، مقصوصة عند المعصم، متكئة على العشب وكأنها مهملة. متروكة وحيدةً لمصيرها.

أثر الغيوم التي تدفع بها الريح في السماء المشرقة، تبدو كما بقع الآيس كريم على الكروم. أصابعه المبقعة بالدخان. الومضة النائية للماء. كلها غرقت الآن. غرقت، بيد أنها ما تزال تلمع.

II

السفّاح الأعمى: البيضة المسلوقة

"وكيف تودين قضاء وقتنا إذن؟" يسألها، "طقم سهرة ورومانسية، أم حطام سفينة على ساحلٍ مقفر؟ لك أن تختاري: في الأدغال، الجزر الاستوائية، الجبال. أو حتى في بعدٍ آخر في الفضاء، فهذا ملعبي".

"بعدٌ آخر في الفضاء؟ واو حقاً!"

"لا تهزئي بي، فهو عنواني المفضل. أي شيءٍ تتخيلينه له أن يقع هناك. سفنٌ فضائية وبدلاتٌ لصيقة، مسدسات إشعاعية، رجال المريخ بأجسادٍ تماثل الحبار الضخم، أشياء من ذاك القبيل".

"أنت اختَر" قالت له، "فأنت المحترف. وماذا عن الصحراء؟ لطالما وددت زيارة إحدى الصحاري. على أن تضم واحةً بالطبع. وسيكون جميلاً لو أنّ هناك بضعة أشجار نخيل". تنزع القشرة عن أطراف شطيرتها. هي لا تحب القشرة.

"الإمكانيات محدودة مع الصحاري، فهي تفتقر للمعالم، إلا إذا أضفنا بضع معابد. حينها ستحظين بمجموعة نساءٍ عاريات ممن بقين أمواتاً منذ ثلاثة آلاف عام، أجسادهن مرنة وانحناءاتهن مثيرة شهوانية، شفاههن حمراء ياقوتية، شعورهن لازوردية في زبدٍ من العُقَص المُتمَعّجة، أعينهن حفرٌ ملأى بالأفاعي. لكن لا، لا أظنني قادراً على خداعك بقصةٍ كهذه. فتفاصيل مريعة ومثيرة كهذه لا تلائم ذوقك".

"وما أدراك. لعلها تروق لي".

"أشك. تلك التفاصيل هي لحشود العوام. بيد أنّ شعبيتها عالية على الأغلفة – أجسادهن تتلوى على سائر جسد الرجل، لا سبيل لتفريقهن إلا بضربهن

بأعقاب البنادق".
"هل لي أن أحظى إذن ببعدٍ آخر في الفضاء، ومعه المعابد والنسوة الأموات، رجاءً؟"
"تلك قائمة طلباتٍ طويلة، لكني سأرى ما بيدي فعله. بوسعي كذلك أن أرمي بمجموعة قرابين من العذارى، يرتدين دروعاً صدرية معدنية، مقيدات عند الكاحل بسلاسل فضية، في أرديةٍ كهنوتية شفافة. وسأزيد عليهن قطيعاً من الذئاب المفترسة".
"أرى أن خيالك لا حدود له".
"تودين إذن طقم السهرة؟ الرحلات البحرية، البياضات الكتانية، القبل على المعصم وغيره من الوحل الزائف؟"
"لا. حسنٌ. قم بما تراه الأفضل".
"سيجارة؟"
تهز رأسها رافضةً. يشعل هو سيجارته، يحك عود الثقاب بظفر إبهامه.
"يوماً ما ستشعل النار في جسدك".
"لم أفعلها بعد".
تنظر نحو كمي قميصه المرفوعين، باللون الأبيض أو الأزرق الفاتح، ثم نحو معصمه، حيث الجلد أشد اسمراراً. وجهه يشع ضياءً، لا بد وأنه انعكاس الشمس. لم لا يحدق بهم الجميع؟ فهو لا يزال معروفاً جداً كي يكون هنا – هنا في العراء. هناك أناسٌ آخرون حولهم، جالسون على العشب أو يستلقون عليه، يتكئون على مرفقٍ واحد – متنزهون آخرون، في ملابسهم الصيفية الفاتحة. كل شيءٍ من حولها يبدو طبيعياً. ومع ذلك تشعر بأنهما وحدهما في المكان؛ كأن شجرة التفاح التي يجلسان تحتها ليست بشجرة بل خيمة؛ كأنَّ خطاً فاصلاً رُسِم حولهما بالطبشور. داخل تلك الدائرة، هما في الخفاء.
"الفضاء إذن،" يقول لها، "مع المعابد والعذارى والذئاب – لكن على التقسيط. اتفقنا؟"
"التقسيط؟"

"تدرين، مثل الأثاث".

تضحك.

"لا، أنا جاد. فلا يمكنك استعجالي، قد يتطلب الأمر أياماً. وسيتوجب علينا الالتقاء من جديد".

تتردد. "حسنٌ،" تقول له، "إن كان بوسعي. إن تمكنت من ترتيب الأمر".

"حسنٌ،" يجيبها، "الآن عليّ أن أفكر". يظل على نبرة صوته غير المبالية. فقد ينفرها منه إن ألحّ عليها.

"على كوكب – لنرَ. ليس كوكب ساتورن، فهو قريبٌ جداً. على كوكب زكرون، الواقع في بعدٍ آخر في الفضاء، هناك سهلٌ مكسيٌّ بكِسَر الحجارة. على الشمال من السهل هناك المحيط، لونه بنفسجي. وعلى الغرب منه سلسلة جبال، يقال إنّ مصاصات الدماء الشرهات القاطنات في أنقاض المعابد الموجودة هناك يطفن فيها بعد مغيب الشمس. رأيتِ، أضفت المعابد من أول الحكاية".

"أنت رجلٌ دقيقٌ في صنعتك".

"أنا رجلٌ يفي بكلمته. وعلى الجنوب من السهل قفرٌ من الرمال الحارقة، وعلى شرقه عدة وهادٍ شديدة الانحدار يقال إنها ربما كانت فيما مضى أنهاراً".

"وأظن أن هناك قنوات ماء، مثل التي في المريخ؟"

"أوه، قنوات، وكل تلك الأشياء. الأرض وافرة بآثار حضارةٍ قديمة ومتطورة فيما مضى، بيد أن الإقليم لا يقطنه الآن سوى جماعاتٍ بدائية من البدو الرحل. وفي وسط السهل هناك ركامٌ ضخمٌ من الحجارة. الأرض حولها مجدبة، لا شيء فيها عدا شجيرات رثة. ليست بصحراء، لكنها أقرب ما تكون إلى صحراء. هل تبقت شطيرة جبنة؟"

تنقب في الكيس الورقي. "لا،" تجيبه، "لكن يوجد بيضة مسلوقة". لم تشعر قط بمثل تلك السعادة. كل شيءٍ عاد جديداً، مفتوحاً على كل الاحتمالات.

"بالضبط كما أمر الطبيب،" يقول لها. "قنّينة ليمونادة، بيضة مسلوقة، وأنتِ".

يدحرج البيضة بين راحتي يديه، يكسرها، ثم يقشرها. تتأمل هي فمه، فكه، أسنانه.
"جالساً إلى جانبي تغني في الحديقة العامة،" تقول له، "هاك الملح للبيضة".
"شكراً. لقد تذكرت كل شيء".

يعود ويتابع قصته، "ذاك السهل المقفر لم يطالب بملكه أحد، أو بالأحرى خمس قبائل مختلفة تطالب به، ولا واحدة منها قوية بما فيه الكفاية كي تبيد البقيّة. كلها تطوف عابرةً ركام الحجارة هذا من وقتٍ لآخر، إما يقودون قطعان الثلكس – مخلوقاتٍ على هيئة خرافٍ زرقاء وحشية الطباع – أو ينقلون بضائعهم الرخيصة على ظهور دوابهم، بعيرٌ يشبه الجمل لكن بثلاث أعين".
"ركام الحجارة يدعى بلغاتهم المختلفة، البيت المسكون بالأفاعي الطائرة، ركام الأنقاض، مقام الأمهات المولولات، باب النسيان، وحفرة العظام المنخورة. كل قبيلةٍ منها تروي قصةً مشابهة عنها. يقولون أنّ ركام الحجارة قد دفن تحتها ملك – ملكٌ دون اسم. ليس الملك وحسب، بل بقايا الحضارة العظيمة التي حكمها الملك. المدينة كانت قد تدمرت جراء معركة، وقُبِضَ على الملك وجرى شنقه من شجرة نخيل دلالةً على النصر المؤزر. ساعة طلوع القمر، قطعوا حبل المشنقة ودفنوه، وهالوا الحجارة فوقه إشارةً للمكان. أما بقية أهالي المدينة، فقد قتلوا جميعاً. الرجال، النساء، الأطفال، الرضع وحتى الحيوانات، كلهم سفكت دماؤهم. كلهم قتلوا تحت السيف، كلهم تقطعت أجسادهم إرباً أرباً. لم يُعفَ عن كائنٍ حيٍّ واحد".
"هذا فظيع".
"اغرزي رفشاً في الأرض، في أي مكان، وشيءٌ فظيع قد حدث سيخرج للعيان. من صالح مهنتنا، فتجارتنا تزدهر بوفرة العظام؛ فلولاها لما كان من وجودٍ للقصص. ألديك المزيد من الليمونادة؟"
"لا،" تقول له، " قد شربناها كلها. أكمل".
"الاسم الحقيقي للمدينة مسحه الغزاة الفاتحون من الذاكرة، ولهذا السبب – يقول الرواة – فقد بات المكان يحمل وحسب اسم دماره. وبذا غدا ركام الحجارة علامةً

متعمدة لإحياء الذكرى، وكذلك علامة النسيان المقصود. هم مولعون بالمفارقات في ذاك الإقليم. كل قبيلةٍ من القبائل الخمس تدَّعي أنها الغازي المنتصر. كل واحدةٍ منها تستدعي ذكرى المجازر بتلذذ. كل واحدةٍ منها تؤمن أنها تلقت الأمر الإلهي من ربها بإنزال انتقامه الأخلاقي على المدينة عقاباً على الممارسات الآثمة لأهلها. فالشر لا بد وأن يُطهّر بالدم، كذا يقولون. وفي ذاك اليوم سال الدم أنهاراً، لذا ولا بد أن الأرض قد تطهرت جيداً".

"كل راعي قطيع أو تاجر يمر هناك يضيف حجراً على الركام. تلك عادةٌ قديمة – تؤديها إحياءً لذكرى الأموات – أمواتك – لكن بما أنّه لا أحد يعرف هوية الأموات تحت ركام الحجارة، فالكل يترك حجراً على أيّ حال، علّ وعسى. جميعهم يبررون وضعهم الحجر بأن ما جرى للمدينة لا بد وأنه مشيئة الرب، ربهم، وأنَّ بتركهم حجراً فإنما يقدسون مشيئته".

"هناك أيضاً قصةٌ أخرى تدّعي أن المدينة لم تتعرض حقيقةً للدمار. فما حدث فعلاً أن تعويذةً، الملك فقط يعرف بها، نقلت المدينة وأهلها بطرفة عين واستبدلتهم بأطيافٍ تماثلهم، وتلك الأطياف هي التي تعرضت للحرق والذبح. أما المدينة الحقيقية فقد انكمشت إلى حجمٍ بالغ الصغر وأودعت في كهفٍ أسفل ركام الحجارة العظيم. كل ما كان موجوداً من قبل في المدينة لا يزال هناك، القصور والرياض الوافرة بالأشجار والورود، وحتى الناس، أحجامهم لا تتعدى حجم النمل، بيد أنهم يواصلون حياتهم وكأن شيئاً لم يكن – يرتدون ملابسهم الصغيرة جداً، يقيمون ولائمهم الصغيرة جداً، يروون قصصهم الصغيرة جداً، يغنون أغانيهم الصغيرة جداً".

"وحده الملك على دراية بما جرى وكوابيس ذاك اليوم تطارده، أما البقية فتعيش في غفلة. لا تدري أنها باتت بالغة الصغر. لا يدرون أن المفترض بهم أن يكونوا أمواتاً. لا يدرون حتى أنهم أُنقذوا من الهلاك. فالسقف الصخري يبدو لهم سماءً: الضوء ينسل عبر ثقب دبوسٍ بين الحجارة، ويظنونها الشمس".

تسمع حفيف أوراق شجرة التفاح. ترفع عينيها ناظرةً نحو السماء، ثم إلى ساعتها.

"أشعر بالبرد،" تقول له، "وكذلك تأخّرت. هل بإمكانك التخلص من الدليل؟"
تجمع قشور البيض، وتطوي الورق الشمعي.

"ألستِ مستعجلة بعض الشيء؟ فالجو ليس بارداً هنا".

"هناك نسيمٌ آتٍ من جهة الماء،" تقول له، "الريح ولا بد ستغير اتجاهها". تميل للأمام، على استعدادٍ للنهوض.

"لا تذهبي بعد،" يقول لها، "ليس بهذه السرعة".

"لا بد أن أذهب. سيبحثون عني. وإن تأخرت، فسيودون معرفة أين كنت".

تملّس تنورتها، تدثر نفسها بذراعيها، وتستدير بعيداً؛ وكما الأعين، ترقبها التفاحات الخضراء الصغيرة.

"ذا غلوب آند ميل"، الرابع من يونيو، 1947

العثور على غريفين في قاربٍ شراعيّ

تقرير خاص لصحيفة "غلوب آند ميل"

بعد اختفائه الغامض لعدة أيام، تم العثور على جثمان الصناعي ريتشارد إي. غريفين، البالغ من العمر سبعاً وأربعين عاماً، والذي أشيع أنه كان المرشح المفضل لدى الحزب التقدمي المحافظ عن مقعد سانت ديفيد في تورنتو، وذلك قرب محل إقامته الصيفية في آفيليون في بورت تيكونديروغا حيث كان يقضي إجازته. عثر على السيد غريفين في قاربه الشراعي، حورية الماء؛ القارب كان موثقاً برصيفه الخاص على نهر جوغز. على ما يبدو فقد عانى من نزيفٍ في المخ. تقرير الشرطة يفيد بعدم وجود شبهةٍ جنائية.

حظي السيد غريفين بمسيرةٍ مهنية مشرّفة مالكًا امبراطوريّة تجارية ضمّت العديد من الصناعات: الأقمشة والملابس والصناعات الخفيفة، وكان قد نال الثناء على جهوده في تموين جيوش الحلفاء بعتاد الملابس العسكرية وقطع الأسلحة وقت الحرب. كان ضيفاً دائماً في تجمعات الشخصيات النافذة والتي تعقد في بيت الصناعي والقيادي السيد سيروس إيتن والكائن في بغواش، كذلك كان من الشخصيات القيادية في نادي إمباير ونادي جرانيت. كان لاعب غولفٍ ممتاز وشخصيةً مرموقة في نادي اليخوت الملكية الكندي. لدى الاتصال برئيس الوزراء في عزبته في كنغسمير علق قائلاً: " السيد غريفين كان من أكثر الرجال القديرين في هذا البلد. وخسارته ستترك أثراً كبيراً".

السيد غريفين هو صهر المتوفاة لورا تشايس، التي صدرت روايتها الأولى هذا الربيع بعد وفاتها، وقد توفي غريفين عن شقيقته السيدة وينيفريد غريفين بريور، العضوة البارزة في المجتمع، وكذلك عن زوجته، السيدة آيريس تشايس غريفين، وابنته

آيمي البالغة من العمر عشرة أعوام. وستقام الجنازة في تورنتو في كنيسة القديس سايمون الحواريّ يوم الأربعاء.

السفّاح الأعمى: مقعد الحديقة

"لمَ كان هناك أناسٌ على كوكب زكرون؟ أعني بشراً مثلنا. فإن كان بُعداً آخر في الفضاء، أليس الأحرى بقاطنيه أن يكونوا سحالي ناطقة أو شيئاً من هذا القبيل؟"

"فقط في القصص الرديئة،" يقول لها، "وكلها مختلقة. فما حدث في الواقع هو التالي: الأرض استعمرها الزكرونيون، والذين طوروا تقنية السفر من بُعدٍ في الفضاء إلى آخر في فترةٍ تعقب بآلاف الأعوام العصر الذي نتحدث عنه. قد قدموا إلى الأرض قبل ثمانية آلاف عام. وأحضروا معهم بذور العديد من النباتات، لهذا السبب لدينا تفاح وبرتقال، دون أن ننسى الموز– إذ يكفي أن تلقي نظرة واحدة على موزة كي تستنتجي أنها ولا بد قد جُلبَت من الفضاء. كذلك أحضروا معهم الحيوانات – الخيول والكلاب والماعز وغيرها. هم من بنوا أطلانتس. ثم قضوا على أنفسهم بأيديهم بكونهم أذكياء أكثر من اللازم. أما نحن فننحدر من ذرية التائهين".

"أوه،" تقول له، "ها قد فسرت الأمر. كم هو ملائمٌ جداً لك".

"سيفي بالمطلوب. أما غرائب زكرون الأخرى فهي أنها تضم سبعة بحار، خمسة أقمار، وثلاث شموس تتمايز في شدة وهجها وألوانها".

"أي ألوان؟ الشوكولا، الفانيلا، والفراولة؟"

"أراك لا تأخذينني بجدية".

"آسفة". تميل برأسها اتجاهه. "كلي آذانٌ صاغية، أترى؟"

يروي لها: "فقبل هلاكها، أعني المدينة – ودعنا نشر إليها باسمها السابق، ساكيل

نورن، أقرب ترجمةٍ لها هي لؤلؤة القدر – قيل إنها كانت أعجوبة العالم. حتى أولئك الذين يدّعون أن أسلافهم هم من طمسها من الوجود يستمتعون أيما استمتاع بوصف جمالها. الينابيع الطبيعية تتدفق مياهها عبر القنوات المحفورة وتصب في النوافير المنحوتة في الساحات المبلطة بالآجر وفي حدائق قصورها الوافرة. الرياض غنّاء بالزهور والجو عبقٌ بتغريد الطيور. بالقرب منها سهولٌ خصبة حيث ترعى قطعان النار السمينة، وبساتينٌ وأيكٌ وغاباتٌ من أشجارٍ باسقة لم تكن قد قطعت بعد على يد التجار ولا حرقت بعد على أيدي الأعداء الناقمين. الوِهاد الجافة كانت فيما مضى أنهاراً، القنوات التي تنبع منها تسقي الحقول حول المدينة، والتربة كانت خصبة إلى درجةٍ قيل معها إنّ حبة القمح الواحدة بلغ حجمها ثلاث بوصات عرضاً. الطبقة الأرستقراطية في ساكيل نورن تُدعى سنيلفاردز. كانوا حدادين مهرة ومخترعي أدوات ميكانيكية بارعة، والتي حافظوا بحرصٍ شديد على أسرار صناعتها. في ذاك العهد اخترعوا الساعة، النشّاب، والمضخة اليدوية، لم يكونوا قد اخترعوا بعد محرك الاحتراق الداخلي، فظلوا معتمدين في التنقل على الحيوانات.

رجال سنيلفاردز اعتادوا ارتداء أقنعةٍ منسوجة من البلاتينيوم، القناع كان متسقاً في حركته مع جلد الوجه وتعابيره، بيد أنه ستر العاطفة الحقيقية وراء كل حركة. أما النساء فاعتدن حجب وجوههن بخمارٍ شبه حريري منسوجٍ من شرنقة عثة الشاز. الموت كان عقوبة كل من يجرؤ خارج طبقة السنيلفاردز على تغطية وجهه، فعدم التأثر والاحتيال صفتان محفوظتان لأبناء الطبقة النبيلة. وقد اعتاد السنيلفاردز على ارتداء الملابس المترفة وكانوا مولعين بالموسيقى، وأظهروا ولعهم هذا بالعزف على آلات موسيقية لاستعراض مهارتهم وذوقهم. وقد انغمسوا في العلاقات الغرامية غير الشرعية، وأقاموا المآدب العظيمة، ووقعوا مع سبق الإصرار والتعمد في الحب كلٌ مع زوجة الآخر. المبارزات كانت تقام حول تلك الغراميات، وإن كان مقبولاً أكثر اجتماعياً أن يدّعي الزوج عدم معرفته بما يجري.

أما صغار القوم، عبيد الأرض، والرقيق فقد كانوا يدعون إيغنيرودن. ملابسهم أردية إغريقية رثة تكشف كتفاً عارية، أما النسوة فأرديتهن تكشف مع الكتف ثدياً عارياً،

وغنيٌّ عن القول أنَّ نساء الإيغنيرودز كن فريسةً مباحة لرجال السنيلفاردز. وقد كان الإيغنيرودز ممتعضين من نصيبهم من قسمة القدر، لكن أخفوا امتعاضهم هذا تحت قناع الغباء. بين فترةٍ وأخرى يعدون لثورة، لكن سرعان ما تقمع بوحشية. الأقل مرتبةً منهم هم الرقيق، من يباعون ويشترون ويقتلون ساعة يشاء المالك. القراءة محظورة عليهم قانوناً، لكنهم اعتمدوا على شيفرةٍ سرية يخطونها بالحجارة في التراب. وكان السنيلفاردز قد سخّروا الرقيق للحرث والحصاد.

ومتى ما تعرض سنيلفارد للإفلاس فقد يتم إنزال رتبته إلى إيغنيرود. أو قد يتفادى مصيراً كهذا إن باع زوجته وأطفاله كي يسدد ديونه. وكان من النادر أن يرتقي إيغنيرود إلى مرتبة سنيلفارد، فالصعود أشقُّ وأصعب من الهبوط: حتى وإن تمكن من جمع المال المطلوب وحظي لنفسه أو لابنه بزوجةٍ من السنيلفاردز، فهناك قدرٌ من الرشاوي لا بد أن تدفع، وسيمضي حتماً وقتٌ طويل قبل أن يتقبله مجتمع السنيلفاردز واحداً منهم".

"أظنها بولشفيتك التي أراها تتجلى هنا،" تقول له، "كنت واثقة أنك ستصل إليها عاجلاً أم آجلاً".

"على العكس. الثقافة التي أصفها هنا مستوحاة من حضارة بلاد الرافدين. ستجدينها في قوانين حمورابي، وقوانين الحيثيّين وغيرهم. أو على الأقل بعضها. تلك التي تخص الخمار وبيع زوجتك. حتى أني سأذكر لك أي فصل وأي مقطع".

"أرجوك أعفني اليوم من ذكر الفصول والمقاطع، فلا أملك القوة لاستيعابها، فأنا جد واهنة. أكاد أذوي".

شهر أغسطس، الطقس شديد الحرارة. الرطوبة تحوم فوقهما في ضبابٍ خفي. الساعة الرابعة بعد الظهر، وضياء الشمس كما الزبدة الذائبة. يجلسان على مقعد الحديقة، بيد أنهما لا يجلسان متلاصقين، مسافةٌ تفصل بينهما. أعلاهما شجرة القيقب أوراقها مجهدة، من تحت قدميهما التربة متشققة، من حولهما العشب ذابل. كسرة خبزٍ تلتقطها عصافير الدوري، وأوراقٌ مجعّدة. ليست بالمكان المثالي.

نافورة شربٍ يتقطر منها الماء، ثلاثة أطفالٍ قذرين، الفتاة في لباسٍ صيفيٍّ قصير، والولدان يرتديان بنطالَين قصيرَين، الثلاثة يتآمرون معاً.

فستانها بلون الأصفر الفاتح، ذراعاها مكشوفان أسفل مرفقيها، شعراتٌ شاحبة رقيقة عليهما. قد خلعت قفازيها القطنيين، كورتهما، يداها متوترتان. لا يمانع توترها: يروق له معرفة أنه قد كلّفها شيئاً. قبعتها من القش، تحاوط رأسها وكأنها تلميذة؛ شعرها مثبتٌ للوراء، خصلةٌ رطبة تفلت من قبعتها. اعتاد الناس قصَّ خصلٍ من الشعر، النساء يحتفظن بها في مدلاةٍ ويرتدينها؛ أما الرجال فيودعونها في الجيب، عند القلب. لم يفهم أبداً ما الداع لفعل ذلك، ليس قبل الآن.

"أين من المفترض أن تكوني؟" سألها.

"أتسوق. تأمل كيس مشترياتي. اشتريت لنفسي أزواجاً من الجوارب الحريرية، نوعيتها ممتازة – من أجود أنواع الحرير. وكأني لا أرتدي شيئاً". تبتسم ابتسامةً خفيفة. "أمامي خمس عشرة دقيقة وحسب".

أسقطت فردة من قفازيها، وقعت عند قدمها. عينه عليها. إن نسيَتها ورحلت، سيحتفظ بها لنفسه. سيستنشقها، سيتنفسها في غيابها.

"ومتى سأراكِ؟" يقول لها. النسيم الحار يهب فيهيّج الأوراق، الضوء يخترق الأغصان المورقة ويسطع عليها، غبار الطلع يحوم حول رأسها وكأنه سحابةٌ ذهبية. في الواقع هي سحابةٌ من غبار.

"أنت تراني الآن". تجيبه.

"لا تتصرفي هكذا، أخبريني متى". بشرة عنقها حيث الياقة المثلثة لفستانها تتلألأ، سديمٌ رقراقٌ من عرقها.

"لا أدري بعد،" تقول له. تنظر خلف كتفها، تتفحص الحديقة.

"لا أحد هناك،" يقول لها، "لا أحد من معارفك".

"لا تكن واثقاً، فلا تدري متى قد يظهر أي أحد منهم، فليس بوسعك أبداً أن تعرف كل معارفك".

"إذن عليك باقتناء كلب،" يقول لها.

تجيبه ضاحكةً، "كلب؟ ولماذا؟"

"هكذا سيتوفر لك عذر. سيتسنى لك أن تصحبيه في نزهة. أنا والكلب".

"الكلب سيغار منك،" تقول له، "وستظن أني أحببت الكلب أكثر".

"لكنك لن تحبي الكلب أكثر،" يقول لها، "لن تفعلي".

عيناها تتسعان. "ولم لن أفعل؟"

فيقول لها، "لأن الكلاب لا تتكلم".

"تورنتو ستار"، أغسطس 25، 1975

ابنة أخت روائية تقع ضحية حادث سقوط

تقرير خاص لصحيفة "ستار"

آيمي غريفين، في الثامنة والثلاثين، ابنة الصناعي البارز الراحل ريتشارد إي. غريفين، وابنة أخت الروائية الشهيرة لورا تشايس، عثر عليها يوم الأربعاء ميتة في شقتها في سرداب إحدى البنايات على شارع تشيرش مكسورة العنُق إثر حادث سقوط. على ما يبدو فقد توفيت قبل يومٍ من العثور عليها. الجاران جوس وباتريس كانا قد تنبها للحادث عن طريق ابنتها ذات الأربعة أعوام، سابرينا، والتي غالباً ما كانت تأتيهما طلباً للطعام متى ما غابت أمها عن الأنظار.

وقد أشيع عن الآنسة غريفين معاناتها الطويلة مع إدمان الكحول والمخدرات إذ تم إيداعها المستشفى عدة مرات. وسيتم وضع ابنتها تحت رعاية عمتها الكبرى السيدة وينيفريد بريور في انتظار الانتهاء من التحقيق. لا السيدة بريور ولا السيدة آيريس غريفين من بورت تيكونديروغا كانتا متاحتين للتعليق.

هذه الحادثة المؤسفة لهي مثالٌ آخر على الانحلال في نظام الخدمة الاجتماعية، ودليلٌ على الحاجة الماسة إلى سَنّ تشريعات أقوى تؤمن حماية أكبر للأطفال المعرضين للخطر.

السفّاح الأعمى: السجّاد

الخط يئزّ ويطقطق. أتراه صوت الرعد أم أن أحدهم يتنصت؟ لكنه هاتفٌ عمومي، لا يسعهم اقتفاء أثره.

"أين أنت؟" تسأله. "ما كان يجدر بك أن تتصل هنا".

لا يسعه الإصغاء إلى تنفسها، سماع أنفاسها. يريدها أن تضع السماعة على حنجرتها، لكن لن يطلب منها هذا، ليس بعد. "أنا قريبٌ من هنا، على بعد بضع شوارع فقط. بإمكاني أن أتواجد في الحديقة، الحديقة الصغيرة، حيث الساعة الشمسية".

"أوه، لكني لا أظن ..".

"فقط تسللي للخارج. أخبريهم أنك بحاجة لاستنشاق الهواء". ينتظر ردها.

"سأحاول".

على جانبي بوابة الحديقة عمودان حجريان، كل عمودٍ منهما رباعي الأوجه، رأسه مشطوب الحواف، مثل الأعمدة الحجرية المصرية. لكن لا نقوش عليها تمجد الانتصار، ولا نحوت بارزة تصوّر الأعداء راكعين مغلولين بالسلاسل. الكتابة الوحيدة عليها هي: **يُمنع التسكّع، وعلى كلبك أن يبقى موثقاً بالرّسن.**

"تعالي هنا،" يقول لها، "بعيداً عن إنارة الشارع".

"لن أتمكن من البقاء طويلاً".

"أدري. تعالي هنا في الخلف". يمسك بذراعها، يرشدها للمكان، هي ترتجف مثل

سلكٍ في مهب الريح.

"هناك، لا أحد سيرانا. فلا سيدات عجائز في المكان يصطحبن كلابهن البودل في نزهة".

"ولا أفراد شرطة يحملون هراواتهم،" تقول له. تضحك للحظة. ضوء مصباح عمود الإنارة يرشح عبر الأوراق، البياض في عينيها يومض تحته. "ما كان عليّ أن آتي هنا، المجازفة كبيرة".

هناك مقعدٌ صخري مندسٌ بين بضع شجيرات. يسدل سترته على كتفيها. نسيج التويد عتيق، عبق السيجار قديم، الرائحة لاذعة. مسحةٌ واهية من الملح. جلده كان فيها، ملتصقاً بقماشها، حيث جلدها الآن.

"هاكِ، ستبعث فيك الدفء. والآن سنتحدى القانون. سنتسكع".

"وماذا عن قانون إبقاء الكلاب موثقين بالرسن؟"

"سنتحداه أيضاً". لا يطوقها بذراعه. يدري أنها ترغب بذلك. هي تتوقع منه ذلك؛ تستشعر لمسته كما تستشعر الطيور الطيف. قد تناول علبة السجائر. يعرض عليها سيجارة؛ هذه المرة تقْبَلُها. شعلة عود الثقاب تتوهج هنيهةً في يديهما المكوّبتين. أناملهما حمراء.

تقول في نفسها، لو توهجت الشعلة أكثر لكنّا أبصرنا العظام. كما نراها على الأشعة. فما نحن إلا سديم، ماءٌ ملون. والماء يفعل ما يشاء ويريد. دائماً ينحدر نحو سفح التلة. حنجرتها تتعبّق بالدخان.

يقول لها، "والآن سأحكي لك عن الأطفال".

"الأطفال؟ أي أطفال؟"

"الدفعة التالية. كوكب زكرون، ساكيل نورن".

"أوه، نعم".

"هناك أطفالٌ في الحكاية".

"لكن لم نقل أي شيء عن وجود أطفال".

"هم أطفالٌ عبيد. عنصرٌ أساسي، لا يمكنني المواصلة دون وجودهم".

"لا أظنني أرغب بوجود أي أطفالٍ في الحكاية،" تقول له.
"بيدك دائماً أن تطلبي مني التوقف. فلا أحد يجبرك. أنت حرة في الذهاب متى ما شئت، تماماً كما تقول الشرطة متى ما كنتَ محظوظاً". يبقي على نبرة صوته موزونة. هي لا تتزحزح من مكانها.

يروي لها: "ساكيل نورن اليوم ليست سوى ركامٍ من حجارة، لكن فيما مضى كانت سوقاً مزدهرة ومركزاً للتبادل التجاري. كانت تقع على مفترقٍ تتقاطع فيه ثلاث طرق برية – واحدة من الشرق، واحدة من الغرب، وواحدة من الجنوب. أما شمالاً فقد امتدت منها قناةٌ عريضة تصب في البحر ذاته، حيث وقع ميناؤها المنيع. لن تجدي أثراً لتلك الحفريات ولا بقايا الأسوار الحصينة: فمن بعد هلاكها، تولى الأعداء والغرباء حمل كتل الصخور المنحوتة لاستخدامها في بناء حظائر حيواناتهم، أحواض مياههم، وحصونهم البدائية، أو ستجدينها مدفونة تحت الرمال بعد أن غمرتها الرياح والأمواج.
العبيد شيدوا القناة والميناء، وهو ليس بالأمر المفاجئ: فالعبيد هم الأداة التي حققت بها ساكيل نورن عظمتها وقوتها. كما كانت معروفة أيضاً بصناعاتها اليدوية، وعلى الأخص صناعات النسيج. أسرار الأصباغ التي استخدمها الحرفيون حافظوا عليها بأرواحهم: النسيج كان يلمع مثل العسل الذائب، مثل عصير العنب الأرجواني، مثل كأسٍ من دم ثورٍ يُصَبُّ في وهج الشمس. الخُمُر الناعمة أرقُّ من خيط العنكبوت، وقطع السجاد كانت فائقة النعومة والرقة حدّ إحساسكِ بنفسك وكأنك تمشين على الهواء، هواءٍ منسوجٍ من الزهور والماء المنساب".
"شاعريٌ جداً،" تقول له، "شاعريٌ جداً".
"تصوريه متجر سلعٍ كبير،" يقول لها، "فتلك كانت بضائع مترفة تباع وتشترى. متى ما تمعنت في حقيقة الأمر لن تريه شاعرياً إلى تلك الدرجة".
"قطع السجاد كانت تحاك حصراً على يد العبيد الأطفال، لأن أصابع الأطفال وحدها هي الصغيرة كفاية لأداء هكذا عملٍ معقد. لكن قدر الجهد المُضني المطلوب

من الأطفال وعلى نحوٍ متواصل دائماً ما أصابهم بالعمى في سن الثامنة أو التاسعة، وإصابتهم بالعمى كانت المعيار الذي يقيّم فيه الباعة بضائعهم ويطرون نوعيتها لزبائنهم: تلك القطعة أعمت عشرة أطفال، هذا ما اعتاد قوله البائعون. أما هذه فأعمت خمسة عشر، وهذه عشرين. وبما أن السعر يرتفع مع ارتفاع عدد الأطفال العميان، فدائماً ما بالغ الباعة في تقدير العدد. وكان من عادة الشاري أن يدحض ادعاءات البائع. أنا متأكد أنهم سبعة. فقط اثني عشر. فقط ستة عشر، هذا ما اعتاد قوله الشراة كلما أشاروا نحو قطعة سجاد. خشنة كأنها قماشة غسيل أطباق. لا شيء سوى لحاف متسول. لا بد أن حيوان النار حاكها.

ومتى ما أصيبوا بالعمى، يباع الأطفال لأصحاب بيوت الدعارة، الفتيات والفتيان على حدٍ سواء. فالخدمة المقدمة من أطفالٍ كهؤلاء فقدوا البصر وهم يحيكون السجاد تدرّ عليهم مداخيل عالية؛ إذ يقال إنَّ لمسة أنامل الواحد منهم كانت من الرقة والرشاقة حد إحساسك بنفسك وكأن الزهور فيك تتفتح والماء من جلدك ينساب.

كذلك كانوا ماهرين في فتح الأقفال. أما أولئك منهم الذين فروا فقد اعتنقوا مهنة حزّ الأعناق في عتمة الظلام، والطلب عليهم كان عالياً كقتلةٍ مأجورين. فحاسة السمع لديهم حادّة؛ يسيرون وما كان يصدر عنهم حسٌّ ولا صوت، لهم أن يحشروا أنفسهم في أضيق الأماكن؛ بوسعهم شم الفرق بين الغارق في منامه ومَن منامه قلِق. يقتلون برقة حشرة عث تلامس عنقك. يراهم الناس سفاحين دون شفقة. هابَهُم الجميع.

القصص التي همسها الأطفال أحدهم في أذن الآخر – بينما هم جالسون يحيكون دون نهاية قطع السجاد، قبل أن يصابوا بالعمى – كانت عن تلك الحياة المحتملة في مستقبلهم. كانت مقولةً رائجة بينهم أن العميان فقط هم الأحرار.

"القصة حزينة جداً،" تهمس له. "لم تخبرني بقصةٍ حزينة كهذه؟"

كانا قد تواريا في عتمة الظلال. يطوقها بكلتا ذراعيه الآن. تمهل، يقول لنفسه. لا تفاجئها بأي حركة. تركيزه منصبٌ على تنفسه.

"أروي لك القصص التي أجيد حبكها،" يقول لها، "وكذلك ما ستُصدّقينه. فلن تصدّقي أياً من التفاهات اللطيفة، أليس كذلك؟"

"لا. ما كنت لأصدقها".

"عدا أنها ليست بالقصة الحزينة، ليست حزينة تماماً - فبعضهم قد فر".

"لكنهم أضحوا ناحري أعناق".

"لم يكن من خيارٍ آخر أمامهم، أليس كذلك؟ فليس بإمكانهم أن يصبحوا تجار سجاد، أو مالكي بيوت دعارة. لم يملكوا رأس المال. لذا لم يجدوا أمامهم سوى القيام بالعمل القذر. من سوء حظهم".

"إيّاك،" تقول له، "ليس بذنبي".

"ولا ذنبي أنا أيضاً. فلنقل إننا علقنا بذنوب آبائنا".

"لا داع لتلك القسوة،" تقول له ببرود.

"ومذ متى كان هناك داعٍ للقسوة؟" يقول لها، "وما الداعي المقبول لديك الذي يبرر ضرورة القسوة؟ اقرئي الصحف، فأنا لم أخترع العالم. وعلى أي حال، أنا أقف في صف ناحري الأعناق. إن كان لديك خياران لا ثالث لهما، إما أن تنحري عنقاً أو تجوعين، فما خيارك حينها؟ أو قد تعاشرين مقابل المال، فهذا الخيار دائماً متاح". لقد تجاوز حده الآن. أطلق العنان لغضبه كي يظهر. تنسحب بعيداً عنه. "ها هي ستمطر،" تقول له، "لا بد أن أعود". أوراق الشجر من حواليهما تهتز متشنجةً. تمد يدها، تصوّب راحتها للأعلى: قطرات مطرٍ بدأت تتساقط. الرعد يدنو منهما. تزيح سترته عن كتفيها. لم يقبّلها؛ ولن يقبّلها، ليس الليلة. تشعر وكأنه قد وضع القبلة قيد التأجيل.

"قفي عند نافذتك،" يقول لها. "نافذة غرفة نومك. أبقي على المصباح مضاءً. فقط قفي هناك".

روّعها بكلامه. "لم؟ لم بحق السماء؟"

"أريدك أن تفعلي وحسب. أريد أن أطمئن أنك آمنة". بيد أن الاطمئنان لا علاقة له بطلبه.

"سأحاول،" تقول له. "فقط لدقيقة. وأين ستكون؟"

"تحت الشجرة. شجرة الكستناء. لن تريني، لكني سأكون هناك".

تقول في نفسها، هو يعرف أي نافذة هي نافذتها. ويعرف الشجرة في حديقة منزلها. لا بد وأنه قد حام حول بيتها، يراقبها. رعشةٌ خفيفة سرت في جسدها.

"إنها تمطر الآن. سينهال المطر بغزارة. ستتبلل".

"الطقس ليس بارداً،" يقول لها، "سأكون في الانتظار".

"ذا غلوب آند ميل"، فبراير 19، 1998

توفيت بريور، وينيفريد غريفين. في عمر الثانية والتسعين، في بيتها في روزدايل، بعد مرضٍ مزمن. ومع وفاة السيدة بريور، المحسنة المعروفة، فقد فقدت مدينة تورنتو إحدى أكثر الشخصيات الخيرية إخلاصاً وعطاءً. هي شقيقة الصناعي المتوفى ريتشارد غريفين، وأخت صهر الروائية الشهيرة لورا تشايس. وقد شغلت السيدة بريور منصب عضو في مجلس الأوركسترا السيمفونية في تورنتو إبان سنوات التأسيس، وخدمت مؤخراً في اللجنة التطوعية لمعرض الفن في أونتاريو والهيئة الكندية للسرطان. كذلك كانت ناشطة في نادي غرانيت الريفي الرياضي، نادي هيليسونيان النسائي للفنون، ورابطة الصغار التطوعية النسائية. وقد توفيت عن حفيدة أخيها، سابرينا غريفين، والتي تقضي حالياً رحلةً في الهند.

الجنازة ستقام صباح الثلاثاء في كنيسة القديس سايمون الحواريّ، تليها مراسم الدفن في مقبرة ماونت بليزينت. ترسل التبرعات إلى مستشفى الأميرة مارغريت عوضاً عن إرسال الزهور.

السفّاح الأعمى: قلبٌ مرسومٌ بقلم أحمر الشفاه

"كم من الوقت لدينا؟" يسألها.

"وقتٌ طويل. ساعتان أو ثلاث. كلهم في الخارج يقضون نهارهم في مكانٍ ما".

"فيم يقضونه؟"

"وما أدراني. كسب المال. شراء الأشياء. أعمالٌ خيرية. أياً كان ما يفعلونه".

تدس خصلةً من شعرها خلف أذنها، تستقيم أكثر في جلوسها. تشعر وكأنها بغيّ استدعاها إليه بالصفير. إحساسٌ رخيص. "لمن هذه السيارة؟" تسأله.

"لصديق. أنا رجلٌ مهم، لي صديقٌ يملك سيارة".

"أنت تهزأ بي،" تقول له. لا يجيبها. تنزع القفاز عن أصابعها، الواحد تلو الآخر.

"وماذا إن رآنا أحد؟"

"حينها سيرون فقط السيارة. وهذه السيارة خربة، سيارة رجلٍ فقير. حتى وإن نظروا إليك، أعينهم في عينيك، فلن يروك، لأن امرأةً مثلك ليس حرياً بها أن يُعثر عليها حتى ميتةً في سيارةٍ كهذه".

"أحياناً لا أروق لك كثيراً،" تقول له.

"مؤخراً لا شيء آخر يشغل بالي سواك،" يقول لها، "لكن الإعجاب أمرٌ مختلفٌ تماماً. الإعجاب يتطلب وقتاً. وأنا لا أملك الوقت الكافي لأعجب بك. ليس بوسعي التركيز على ذلك".

"لكن ليس هنا!" تقول له، "اقرأ اللافتة".

"اللافتات لبقية الناس،" يقول لها.

"هنا – هنا في الأسفل".

مجاز "اللافتة" لم يكن أكثر من مجرّد أخدود. مناديل ورقية مهملة، أغلفة علكة، واقياتٌ ذكرية مستعملة مرمية تشبه مثانة السمك. قنانٍ وحصى، وحلٌ جاف، متشققٌ وتظهر عليه آثار الدواليب والأقدام. لقد ارتدت حذاءً غير مناسب لهذا المكان، النوع الخاطئ من الكعب العالي. يمسك بذراعها، يوازنها، تتحرك مبتعدةً عنه.

"نحن حرفياً في العراء. أحدهم بالتأكيد سيرانا".

"ومن عساه يرانا؟ نحن أسفل الجسر".

"الشرطة. لا. تمهل. ليس بعد".

"الشرطة لا تتطفل على هذا المكان في وضح النهار" يقول لها، " فقط في الليل، المصابيح الضوئية في أيديهم، يبحثون عن كل منحرفٍ لا يخشى الرب".

"المشردون إذن، المهووسون المجانين".

"هنا، في الأسفل هنا. في الظل".

"أهناك لبلابٌ سام؟"

"لا، على الإطلاق. أعدك. ولا مشردون ولا مهووسون مجانين عداي".

"وما أدراك؟ عن اللبلاب السام. أجئت هنا من قبل؟"

"كفّي عن القلق إلى هذه الدرجة، استلقي هنا".

"إياك. ستمزقه. أمهلني دقيقة".

تسمع صوتها. ليس بصوتها، بل صوتٌ منقطع الأنفاس.

هناك قلبٌ مرسومٌ بقلم أحمر الشفاه على الإسمنت، يحيط بأربعة حروف استهلالية. وفي الوسط حرف "L" يربط بين كل زوجٍ من الحروف: "L" رمزاً عن "*Loves*". فقط أولئك المعنيون سيعرفون إلى من تعود تلك الأحرف – أنهم يوماً ما كانوا هنا، أنهم فعلوها هنا. صرحوا علناً عن حبهم، محتفظين بأمورهم الشخصية لأنفسهم.

وخارج قلب الحب، أربعة حروفٍ أخرى، وكأنها الأحرف الدالة على الجهات الأربعة في البوصلة:

F U

C K

الكلمة ممزقة إرباً، أحرفها منبسطة: الخريطة الطوبوغرافية الأزلية للجنس.

مذاق الدخان في فمه، والملح في فمها؛ وعلى سائر الأنحاء رائحة حشائش مسحوقة وقطة، رائحة الزوايا المهملة. رطوبةٌ وتضخم، الوحل على الركبتين، قذِرٌ وشهوانيّ، سيقان الهندباء البرية النحيلة تبسق نحو الضوء.

في الأسفل حيث يستلقيان، خرير جدولٍ قريب. ومن الأعلى، أغصانٌ مورقة، سيقانٌ رفيعة متعرّشة أزهارها بنفسجية؛ العمد الشاهقة ترفع الجسر، العوارض الحديدية، احتكاك إطارات السيارات على الجسر من فوقهما؛ السماء الزرقاء متشظية. ترابٌ جافٌ تحت ظهرها.

يمسد جبينها، يمرر إصبعه على وجنتها. "إياك وأن تعبديني،" يقول لها، "فلست الرجل الوحيد في العالم الذي يملك قضيباً. يوماً ما ستكتشفين هذا".

"ليس هذا ما يهمني،" تقول له، "وعلى أي حال، فأنا لا أعبدك". منذ الآن يدفع بها بعيداً عنه، نحو المستقبل.

"حسنٌ، أياً كان ما يهمك، ستحظين بالمزيد منه، متى ما خرجتُ من حياتك وما عدت جاثماً على صدرك".

"وما الذي تعنيه بالضبط؟ فأنت لست جاثماً على صدري".

"أنّ هناك حياةً تلي الحياة،" يقول لها، "بعد حياتنا".

"فلنتحدث عن شيءٍ آخر".

"حسنٌ،" يقول لها. "استلقي مرةً أخرى. ألْقي برأسك هنا". يدفع بقميصه الرطب جانباً. يطوقها بذراعه، يده الأخرى تنقب في جيبه عن السيجارة، وبحركةٍ خاطفة يشعل بأظفر إبهامه عود الثقاب. أذنها على تجويف كتفه.

"وأين توقفنا؟"

"عند ناسجي السجاد. الأطفال العميان".

"أوه نعم، تذكرت".

يروي لها: "ثروة ساكيل نورن قامت على أكتاف العبيد، وعلى الأخص أطفال العبيد الذين حاكوا سجادها الشهير. لكنهم رأوا في الحديث عن ذلك نحساً. فقد ادعى السنيلفاردز أن ثرواتهم لم تعتمد على العبيد، بل على فضائلهم وصواب تفكيرهم – أي بمعنى آخر – على القرابين الدينية المقدمة لآلهتهم.

كانت لديهم العديد من الآلهة. فالآلهة دائماً ما تخدم المصالح، تبرر تقريباً فعل أي شيء، وآلهة ساكيل نورن لم تكن باستثناء. آلهتهم جميعها آكلة لحوم؛ أضاحي الحيوانات تروق لهم، لكنهم رأوا في القرابين البشرية تبجيلاً أعظم. ولدى تأسيس المدينة، منذ زمن بعيد أضحت معه القصة أسطورة، تسعة آباءٍ أتقياء قدموا أطفالهم قرباناً كي يدفنوا تحت البوابات التسع حماةً مقدسين لها.

وعلى كل جهةٍ من الجهات الأربع توجد بوابتان من تلك البوابات التسع، واحدة للخروج والأخرى للدخول: إن غادرت من نفس البوابة التي دخلت منها فذلك يعني أن موتك قد أضحى وشيكاً. أما باب البوابة التاسعة فكان عبارة عن لوحٍ رخامي أفقي أعلى تلٍ في مركز المدينة؛ يُفتح دون أن يتحرك، متأرجحاً بين الموت والحياة، بين الجسد والروح. وذاك كان الباب الذي تعبر منه الآلهة جيئةً وذهاباً: لا حاجة لهم ببابين، فعلى عكس البشر الفانين، فلهم أن يكونوا على جانبي الباب في ذات الوقت. هناك مقولةٌ لأنبياء ساكيل نورن: أيهما النفس الحقيقي للإنسان – الخارج منه أم الداخل فيه؟لطالما كانت تلك طبيعة الآلهة.

كذلك فالبوابة التاسعة كانت المذبح الذي تراق عليه الدماء. الأولاد الصغار يُقدّمون قرباناً لإله الشموس الثلاث: ربّ النهار، والأضواء المشرقة، والقصور، والأعياد، والأتون، والحروب، والخمر، والمداخل والكلمات؛ أما الفتيات الصغيرات فكن يقدَّمن قرباناً إلى إلهة الأقمار الخمسة: راعية الليل، والضباب، والظلال، والمجاعة، والكهوف، والولادة، والمخارج والصّمت. الأولاد الصغار تسحق جماجمهم بالهراوة

ويلقى بهم في فم الإله حيث ينتهي مآلهم في أتونٍ مستعر. أما الفتيات الصغيرات تُحَزّ أعناقهن ويتركن حتى تستنزف دمائهن في تغذية الأقمار الخمسة المنمحقة، خشية أن يستمر محاق الأقمار وتختفي للأبد.

تسع فتيات يقدَّمْنَ أضحية كل عام، على شرف الفتيات التسع اللواتي دُفِنَّ تحت بوابات المدينة. تلك الفتيات يدعونهن " عذارى الإلهة " وتقدم لهن الصلوات والزهور والبخور كي يشفعن للأحياء. الأشهر الثلاثة الأخيرة من كل عام تسمّى " الشهور عديمة الوجه"، هي الشهور التي لا تنمو فيها المحاصيل، ويقال إنَّ الإلهة تصوم فيها. وفي غضون ذلك فإله الشمس يدخل في ذهنية الحرب والأفران تفتح أفواهها وأمهات الفتيان يلبسن أولادهن ثياب الفتيات حمايةً لهم.

كان الشرع حينها يلزم العوائل النبيلة من أعلى مراتب طبقة السنيلفاردز بالتضحية بواحدة على الأقل من بناتها. وكانت تعد إهانةً للإلهة التضحية بفتاةٍ مشوهة أو معيبة، ومع مرور الزمن، أخذت عائلات السنيلفاردز تشوه بناتها حتى يعفين من التضحية: فكانوا يبترون إصبعاً أو يجدعون شحمة الأذن أو أي عضوٍ صغيرٍ آخر. وسرعان ما أضحى التشويه رمزياً فقط: وشمٌ مستطيل يستدق على المثلث الغائر من الترقوة. حمل امرأةٍ خارج السنيلفاردز هذا الوشم الطبقي كان جريمةً عقوبتها الموت، لكن أصحاب بيوت الدعارة، المتعطشين دوماً للربح، رسموا الوشم بالحبر على أصغر عاهراتهن سناً ممّن يُتْقِنّ أداء دور شخصية الفتاة المتعجرفة. وقد راق الأمر لزبائنهم ممن يتمنون الإحساس بشعور الاعتداء على أميرةٍ من ذوات الدم الأزرق.

وفي ذات الآن، أخذت عائلات السنيلفاردز تتبنى اللقيطات – في الغالب كنَّ نسل الجواري من أسيادهن – واستغلالهن بديلاً عن بناتهم الشرعيات. كان تدليساً، لكن العائلات النبيلة صاحبة نفوذٍ وسطوة، لذا مرَّ التدليس تحت أنف السلطة التي غضت الطرف.

ومع مرور الزمن باتت العائلات النبيلة أكثر كسلاً. فما عاد لهم من رغبة في تحمل عناء تربية تلك الفتيات في بيوتهم، لذا وبكل بساطة سلموهن إلى معبد الإلهة،

يدفعون المال الكثير مقابل العناية بهن وتأمين أوضاعهن. وبما أن الفتاة تحمل اسم عائلتهم، فسيعزى لهم الفضل في تقديم القربان. بدا الأمر تماماً مثل امتلاك فرس سباق. تلك كانت نسخة منحطة عن الطقوس الأصلية السامية، لكن في ذاك الوقت، كل شيءٍ في مدينة ساكيل نورن قد بات معروضاً للبيع.

كانوا يقفلون على الفتيات الموهوبات في مجمع المعبد، يطعمونهن أجود أنواع الطعام للإبقاء على إمارات الصحة باديةً عليهن، وكانوا يدربونهن بقسوة وصرامة حتى يكن مستعداتٍ لليوم العظيم – قادراتٍ على أداء واجبهنّ باحتشامٍ ولياقة، دون أن يعتريهن الجبن ويفقدن رباطة جأشهن. فالقربان المثالي لا يختلف عن الرقصة، تلك كانت النظرية: رقصة عاطفية وجليلة، متناغمة ورشيقة. هن لسن بحيوانات حتى تسفك دماؤهن بفجاجة؛ فهن سيهبن حياتهن طواعية. كثيراتٌ منهُنّ آمنَّ بما قيل لهن: إنَّ رفاه المملكة بأكملها تعتمد على إيثارهن بأنفسهن. كن يقضين ساعاتٍ عديدة في الصلاة، حتى يتمتعن بالحالة الذهنية المطلوبة؛ تعلمن المشي برؤوسٍ منكسة، الابتسام مع مسحةٍ من السوداوية، إنشاد ترانيم الإلهة، والتي تغنّت بالصمت والغياب، عن الحب الضائع والندم المكبوت، وإنشاد ترانيم دون كلمات تتغنى في استحالة الغناء.

مر زمنٌ أطول. الآن بات قلةٌ من الناس لا تزال تأخذ الآلهة بجدية، وأي شخص ورعٍ أكثر مما ينبغي وممارسٍ للطقوس اعتبروه غريب الأطوار. فالمواطنون ظلوا على طقوسهم القديمة لأنها عاداتٌ لطالما مارسوها، لكنها بالتأكيد لم تكن الشغل الشاغل لأبناء المدينة.

ورغم عزلتهن، بعض الفتيات أدركن أنهن يقتلن فقط في تمثيليةٍ صورية لمبدأ أكل عليه الدهر وشرب. بعضهن حاولن الهرب متى ما وقعت أعينهن على السكين. وأخريات أخذن يزعقن صارخات بينما يجرونهن من شعورهن ويثبتون ظهورهن على المذبح، ومنهن من لعنت الملك نفسه، والذي يخدم ككاهنٍ أعلى في تلك الطقوس. حتى أنَّ إحداهن تجرأت وعضته. تلك الشواهد المتقطعة من الذعر والغضب امتعضها العامة، لأن سوء الحظ سيلحق بالمدينة. أو ربما سيلحق بالمدينة

إن كان هناك من وجودٍ أصلاً للإلهة. على أي حال، فتلك اللحظات من الهيجان تفسد الاحتفالات: وكل الناس استمتعوا بحضور القرابين، حتى الإيغنيرودن، حتى العبيد، فيومها يسمح لهم بأخذ إجازة وقضاء اليوم في الشرب حد الثمالة.

ومن هنا جاء التقليد بقطع ألسنة الفتيات ثلاثة أشهر قبل موعد التضحية بهن. لم يكن تشويهاً، هكذا أفتى الكهنة، بل تحسيناً. فما الذي سيلائم الفتيات خادمات الإلهة أكثر من التزامهن الصمت؟

وهكذا، بلسانٍ مقطوع، مختنقة بكلماتٍ لن يسعها نطقها مرةً أخرى، كل فتاةٍ منهن تساق إلى مصيرها على وقع موسيقى مهيبة، مدثرةً بالأخمرة ومكللة بالزهور، على الدرجات الملتفة للأعلى نحو بوابة المدينة التاسعة. على معايير يومنا هذا تخيلها عروساً مدللة من فتيات المجتمع الراقي.

تستقيم جالسة. "حقاً لم يكن من داعٍ لذلك،" تقول له، "أنت فقط تسعى لمضايقتي. تعشق فكرة قتل تلك الفتيات المسكينات في خمارهن الزفافي. أراهنك أنهن شقراوات".

"لم تكن في نيتي مضايقتك،" يقول لها، "على الأقل ليس لتلك الدرجة. وعلى أي حال أنا لم أختلق كلَّ ما قلت، ما ذكرته لك جذوره ضاربة في التاريخ. فالحيثيون..".

"أدري، لكنك تتلذذ أيما تلذذ في ذكرها. أنت حاقد، لا بل غيور، والرب وحده يعلم لماذا. ما همني الحيثيون، والتاريخ وكل ذلك. كلها أعذارٌ تبرر بها حكايتك".

"على رسلك. أنتِ من وافق على القرابين العذارى، أنت من وضعهن على قائمة الطلبات. أنا تبعت الأوامر وحسب. فما اعتراضك إذن؟ على اختياري للأزياء؟ هل بالغت في استخدام التول؟"

"لن أدخل في عراكٍ معك". تشعر وكأنها على وشك البكاء، تطبق أصابع يديها بإحكام كي تمنع نفسها.

"لم أقصد مضايقتك. تعالي هنا".

تدفع بذراعه بعيداً عنها. "بل تعمدت مضايقتي. ويروق لك أن باستطاعتك

مضايقتي".

"ظننت أني أرفه عنك. تستمعين لي وأنا أؤدي. أتلاعب بالأوصاف. ألعب دور المهرج لك".

تشد تنورتها للأسفل، تدس قميصها. "فتياتٌ منحورات في خُمَر زفافية، كيف لهذا أن يرفه عني؟ وألسنتهن مقطوعة. لا بد أنك تظنني وحشية".

"سأسحبها. سأغيرها. سأعيد كتابة التاريخ من أجلك، هل سيرضيك إن فعلت؟"

"ليس بيدك أن تفعل شيئاً الآن. الكلمة متى ما نطقتها لا تعود. ليس بيدك أن تحذف نصف سطر. سأرحل من هنا". هي على ركبتيها الآن، مستعدة للنهوض.

"لا يزال أمامنا متسعٌ من الوقت. استلقي". يمسك بمعصمها.

"لا. دعني. أنظر للشمس أين هي الآن. سيعودون قريباً. قد أقع في مشكلة، وإن كانت مشكلتي لا تعتبر عندك مشكلة على الإطلاق: مشاكل كهذه لا تحتسب مشكلةً حقيقية. أنت لا تكترث بي، كل ما تبتغيه هو الحصول على متعتك مني وعلى عجل، أن ... أن...".

"هيا، هيا انطقيها".

"أنت تعرف ما أعني،" تقول له بصوتٍ منهك.

"تلك ليست الحقيقة. أنا آسف. أنا الوحشي، وقد بالغت كثيراً. على أي حال هي مجرد حكاية".

تسند جبينها على ركبتيها. بعد دقيقةٍ تقول له، "وما عساي أن أفعل؟ بعد – إن لم تعد موجوداً؟"

"ستتجاوزين الأمر،" يقول لها، "ستواصلين حياتك. هاكِ، سأنفضه عنك".

"لا يزول، لن يزول بالنفض وحسب".

"فلنغلق أزرارك،" يقول لها، "لا تحزني".

المجلة المدرسية المحلية الصادرة عن جمعية خريجي ثانوية الكولونيل هنري باركمان، بورت تيكونديروغا، مايو 1998

تقديم جائزة لورا تشايس التذكارية

ميرا سترغيس، نائب رئيس جمعية الخريجين

تلقت ثانوية الكولونيل هنري باركمان هبةً كريمة تتمثل في جائزةٍ قيمة جديدة أوصت بها الراحلة السيدة وينيفريد غريفين بريور من تورنتو، من سنذكر دوماً شقيقها ريتشارد إي. غريفين، إذ لطالما قضى إجازاته هنا في بورت تيكونديروغا مستمتعاً بالإبحار على نهرنا. الجائزة هي جائزة لورا تشايس التذكارية للكتابة الإبداعية، وقيمتها مئتا دولار، تمنح لأفضل قصةٍ قصيرة يكتبها طالب في صف التخرج، وستقيّم لجنة من ثلاثة أعضاء من جمعية الخريجين الأعمال المقدمة، مع الأخذ بالاعتبار القيمة الأدبية وكذلك الأخلاقية للعمل. ناظر مدرستنا، السيد إيف إيفانز، صرح قائلاً: " نحن ممتنون للسيدة بريور لذِكرِنا ضمن المستفيدين الكثر من إحسانها".

وستقدم النسخة الأولى من الجائزة، التي سميت تيمناً بالكاتبة المحلية الشهيرة لورا تشايس، أثناء احتفال التخرج في يونيو. شقيقتها، السيدة آيريس غريفين سليلة عائلة تشايس التي كانت لها فيما مضى مساهماتها العديدة في بلدتنا، قد منحتنا موافقتها الكريمة على تقديم الجائزة للفائز المحظوظ، ولا يزال أمامنا عدة أسابيع قبل الحفل، لذا قولوا لأولادكم أن يشمروا عن أكمامهم الإبداعية وينطلقوا إلى كتابة قصصهم ببراعة.

وسترعى جمعية الخريجين حفل الشاي في صالة الجمنازيوم والتي ستقام مباشرةً بعد حفل التخرج، التذاكر متوفرة لدى السيدة ميرا سترغيس في بيت الزنجبيل، والعوائد كلها ستوجه لشراء ملابس جديدة لأعضاء فريق كرة القدم فهم في أمس

الحاجة إليها! نرحب بتبرعكم في إعداد المخبوزات، مع رجاء الإشارة بوضوح إلى المخبوزات التي تتضمن مقاديرها اللوز والجوز والبندق.

III

التّقديم

استيقظت هذا الصباح وقد انتابني شيءٌ من الفزع. لم أستطع بدايةً تبين السبب لكني تذكرت. اليوم هو يوم الحفَل.

الشمس أشرقت، والغرفة أضحت دافئة جداً. الضوء كان يرشح عبر الستائر الشبكية، معلّقًا في الهواء، مترسّبًا في بركة. أحسست برأسي وكأنه ملءُ كيسٍ من اللّب. كنت ما أزال في منامتي، متبلّلة من بعد نوبة ذعرٍ دفعت بها جانباً وكأني أدفع عن طريقي غصون شجر، سحبت نفسي واجتثثتها عن فراشي المتداخل، ثم أجبرت نفسي على أداء طقوس الفجر اليومية – تلك الطقوس التي نؤديها كي نصيّر أنفسنا عاقلين ومقبولين لدى الآخرين. فلا بد للشعر المنتصب رعباً من بعد رؤيته لشبحٍ ما في الليل أن يملّس، ولا بد لنظرة التحديق المشدوهة أن تغسل عن أعيننا. الأسنان لا بد وأن تفرش، إن كان ينفعها التفريش. فالرب وحده يعلم أي عظامٍ كنت أقضمها في منامي.

ثم دخلت الدش لأستحم، متشبثةً بالقضيب الذي أرهبتني ميرا كي أستخدمه، حذرةً أيما حذر كي لا أوقع الصابون من يدي: فأنا واعيةٌ لاحتمال انزلاقي. ومع ذلك، فلا بد للجسد أن يرش بالماء كي يتخلص الجلد من رائحة الظلمة الليلية. وأظن أن رائحةً قد باتت تنبعث مني ما عدت حتى أتبينها – الرائحة النتنة للّحم البائت والبول المغبَّش الهرم.

بعد أن تنشفت، ترطبت وتبودرت، مرشوشةً بمسحوق البودرة وكأني فطريات العفن، وجدت نفسي قد بُعثت – إلى حدٍ ما– للحياة من جديد. لكن ما زال يراودني إحساسٌ وكأني أطفو في الهواء، أو بالأحرى كأني أقف على شفا هاوية. كل مرةٍ أضع فيها قدماً على الأرض أضعها بتؤدة وكأن الأرض ستنشق وتبلعني. لا شيء سوى

التوتر السّطحي[2] يبقيني متماسكة.

ارتداء ثيابي ساعدني. فأنا لست بأفضل حالاتي دون السقالات التي تثبتني. (لكن يا ترى ما جرى لملابسي الحقيقية؟ فمن المؤكد تلك الثياب الشاحبة عديمة الشكل وفردتا الحذاء التقويمي تعود إلى شخصٍ آخر. بيد أنَّ كلها تعود لي؛ والأسوأ، أنها باتت تلائمني).

ثم أتى الدور على السلم. أعاني من رهاب التعثر بإحدى درجاته والسقوط عليه – أن ينكسر عنقي وأنبطح مع قدميَّ وذراعيَّ ممدّدتين، مع ثيابي الداخلية مكشوفة للعيان، فأذوب بعدها في بركةٍ موحلة متقرحة قبل أن يفكر أحدهم في المجيء والعثور عليّ. تلك طريقةٌ بشعة وخرقاء تموت فيها. أخذت أثبت قدمي على كل درجة، الواحدة تلو الأخرى، أعانق الدرابزين؛ ثم سرت عبر الرواق نحو المطبخ، أنامل يدي اليسرى تمس برفق الجدار وكأنها شارب قطة. (لا زلت أبصر، معظم الوقت. وما زال بإمكاني المشي. كوني شاكرة للرحمات الصغيرة، ريناي كانت ستقول. ولم علينا أن نكون شاكرين؟ سألتها لورا، ولم هي أصلاً صغيرة؟)

لم أرغب بتناول الإفطار. شربت كأساً من الماء، وقضيت الوقت متململة. في الساعة التاسعة والنصف قدم والتر كي يقلني. "هل يلائمك الحر؟" سألني في افتتاحيته المعتادة. في الشتاء تصبح هل يلائمك البرد؟ رطبٌ وجاف محفوظتان للربيع والخريف.

"كيف حالك اليوم، والتر؟" سألته كما هي عادتي.

"بعيدٌ عن طريق الأذى". أجابني كما هي عادته.

"خير حالٍ يتمناها أيُّ أحد،" قلت له. ابتسم لي ابتسامته المميزة – صدعٌ رقيق على وجهه، مثل صدعٍ تراه في الطين متى ما جف – فتح باب السيارة لي، وأجلسني على مقعد الراكب. "يومٌ كبير، إيه؟" قال لي، "اربطي الحزام، أو قد أتعرض للتوقيف".

---

(2) التوتر السطحي: هو التأثير الذي يجعل الطبقة السطحية لأي سائل تتصرف كورقة مرنة. ذلك التأثير الذي يسمح للحشرات بالسير على الماء، والأشياء المعدنية الصغيرة كالإبر، أو أجزاء ورق القصدير من الطفو على الماء.

قال اربطي الحزام وكأنها مزحة، فهو يبلغ من العمر ما يكفي لتذكّر الأيام الخوالي، أيام راحة البال. فقد كان في شبابه من أولئك الذين يقودون السيارة مع مرفقٍ خارج النافذة، ويدٍ على ركبة صديقته. ولدى تفكيري الآن بالأمر أجده مذهلاً أن تلك الصديقة ما كانت إلا ميرا.

قاد السيارة متمهلاً وبكل كياسة عن حافة الرصيف وقضينا الوقت صامتيْن. هو رجلٌ ضخم، والتر – مربع الحواف مثل الوطيدة، مع عنقٍ ليس بعنق بل أقرب إلى كتفٍ إضافي؛ ينضح برائحةٍ ليست كريهة من مزيج حذاءٍ جلدي بال وبنزين. لدى رؤيته في قميصٍ موشى بالمربعات وقبعة بيسبول استنبطت أنه لم ينوِ حضور حفل التخرج. هو لا يقرأ الكتب، ما يجعل كلينا أكثر ارتياحاً: فما يهمه حقاً أنَّ لورا هي شقيقتي وأنه لمن المؤسف أنها ماتت، وهذا كل ما يعنيه.

كان ينبغي عليَّ الزواج من رجلٍ مثل والتر، بارعٍ في استخدام يديه.

لا: ما كان ينبغي عليّ الزواج من أحدٍ على الإطلاق. لكنت وفرت الكثير من المتاعب. ركن والتر السيارة أمام المدرسة الثانوية. المبنى حديث يعود لما بعد الحرب، مضى عليه خمسون عاماً بيد أنه لا يزال جديداً لي: ليس بوسعي الاعتياد على رتابته، تفاهته، على افتقاده للروح. يبدو مثل قفص شحنٍ بحري. الطلبة اليافعون برفقة أهاليهم كانوا يتدفقون على الرصيف، يترقرقون على العشب الأخضر وعبر البوابات الأمامية في ثيابهم الزاهية بكل ألوان الصيف. ميرا كانت في انتظارنا هناك، تنادي علينا يووو هووو فوق الدرجات، في فستانٍ أبيض موشى بزهورٍ ضخمة حمراء. النساء ذوات الأرداف الكبيرة كأردافها لا يجدر بهن ارتداء فساتين ذات نقشات زهورٍ ضخمة. تلك ميزةٌ تحسب للمشدات، ليس أني أتمنى عودتها. كانت قد صففت شعرها، فبات مشدوداً في عقصاتٍ رمادية موضتها عتيقة وكأنها الشعر المستعار على رأس محامٍ إنجليزي.

" لقد تأخرت،" قالت لوالتر.

" لا، لم أتأخر،" والتر أجابها، "إن رأيتني متأخراً فلأن الجميع قد أتى باكراً، هذا كل ما في الأمر. ولا سبب يجبرها على الانتظار مطولاً". كانا يمارسان عادتهما في

الحديث عني بصفة الغائب، كأني طفلةٌ أو حيوانٌ أليف.

ناول والتر ذراعي إلى ميرا فوضعني تحت وصايتها وذهبنا نتسلق الدرجات الأمامية معاً وكأننا في سباق الثلاث أرجل. يدي حسّت بذات ما كانت تحسّ به يد ميرا: وكأن عظم الكعبرة في يد كل منا قد باتت حلوى قصفة مغطاة بالثريد وخيوط الدبق. كان ينبغي عليّ إحضار عكازي معي، لكن لم أتصور نفسي أجرها معي أثناء صعودي المسرح. أحدهم ولا بد كان سيتعثر بها.

اصطحبتني ميرا وراء الكواليس وسألتني إن كنت في حاجة للتوجه إلى حمام السيدات – هي جيدة في تذكر ذلك – ثم أجلستني في حجرة تغيير الملابس. " البثي هنا،" قالت لي. ثم هرعت خارجاً، ردفاها يتقافزان يمنةً ويسرة، كي تتأكد أن كل شيءٍ في محله.

المصابيح المحيطة بالمرآة في حجرة الملابس كانت لمبات صغيرة مدورة، مثل تلك الموجودة في المسارح؛ ينبعث منها ضوءٌ مُطرٍ، لكني لم أشعر بالإطراء: فقد بدوت مريضة، بشرتي تنضح بالدم، كما اللحم المنقوع في الماء. أكانت أمارات الخوف، أم حقاً كنت مريضة؟ فبالتأكيد لم أشعر أني بكامل صحتي.

وجدت مشطي، ومثلما هي عادتي حملته وطعنت به قمة رأسي. ميرا تظل تهددني باصطحابي إلى "فتاتها"، في المكان الذي لا تزال تشير إليه بصالون التجميل – الاسم الرسمي له هو هيربورت ويخدم زبائنه من الجنسين كحافزٍ إضافي – لكني أظل أقاوم. على الأقل لي أن أزعم أن هذا هو شعري، حتى وإن ظل يتجعد منتصباً للأعلى وكأنهم أعدموني التو على الكرسي الكهربائي. من تحت شعري لمحاتٌ من فروة رأسي بدأت تظهر، وردية رمادية مثل لون قدم الفأر. إذا ما وجدت نفسي عالقةً في مهب الريح فشعري سينفش مثل زغب الهندباء، وكل ما سيراه الناس رأس بثرةٍ وردية صلعاء.

ميرا كانت قد تركت لي إحدى قطع البراوني المميزة، صنعتها بيدها خصيصاً لحفل شاي جمعية الخريجين – شريحة من معجون مغطاة بوحلٍ من الشوكولا – ووعاءً بلاستيكياً – إبريق قهوتها الخاصة بطعم أسيد البطاريات. ما كنت لأشرب أو آكل،

لكن أليس لهذا الغرض منحنا الرب المراحيض؟ تركت أثراً من الفتات البني، من باب المصداقية.

ثم دخلت ميرا مندفعةً وغرفتني من الكرسي وقادتني خارجاً، وجدت يدي يصافحها الناظر، قائلاً لي كم كان رائعاً مني القدوم هنا؛ ثم مرروني إلى نائب الناظر، رئيس جمعية الخريجين، رئيس قسم اللغة الإنجليزية – كانت امرأةً ترتدي بدلةً رسمية – ممثل غرفة التجارة للشباب، وأخيراً عضو البرلمان المحلي، بقدر ما كان كارهاً للأمر ما كان ليضيع على نفسه أي فرصة. لم أكن قد رأيت هذا القدر من الأسنان البراقة منذ أيام ريتشارد في عالم السياسة.

رافقتني ميرا حتى أوصلتني إلى مقعدي، ثم همست،" سأكون جانب المسرح خلف الستارة". أوركسترا المدرسة شرعت بالعزف في مزيجٍ من الصرير الحاد والنغم الخفيض، وأنشدنا " أوه كندا!". النشيد الذي عجزت عن تذكر كلماته لاستمرارهم في تغييرها. هذه الأيام ينشدون بعضاً من أبياته باللغة الفرنسية، في أيامنا ما كنا لنتخيل حتى حدوث أمرٍ كهذا. ثم جلسنا بعد أن أعلنّا فخرنا الجمعيّ عن شيءٍ نعجز حتى عن لفظه.

ثم جاء الدور على قس المدرسة الذي أقام الصلاة، موبخاً الرب على فرضه تلك التحديات غير المسبوقة التي تواجه شباب اليوم. لا بد وأن الرب قد سمع في السابق كلاماً من هذا القبيل، ومن المحتمل أن الملل قد اعتراه مثلما اعترى الجميع. ثم حل الدور على الآخرين كي يصرح كلٌّ منهم عن أفكاره: نهاية القرن العشرين، اطرح العهد القديم، واقرع الأجراس للعهد الجديد، مواطنو المستقبل، من أيادينا الواهنة إلى أياديكم[3] وهكذا دواليك. أطلقت العنان لعقلي كي يسرح؛ فقد كنت مدركة إلى أن الشيء الوحيد المطلوب مني هو ألا أخزي نفسي. وجدت

(3) نمرر الشعلة من أيادينا الواهنة إلى أياديكم، هي لكم كي ترفعوها عالياً: مقتبس عن بيت من أبيات قصيدة في حقول فلاندرز – Flander Fields وهي قصيدة شهيرة نظمها الشاعر الكندي جون ماكريه – John McCrae عام 1915 خلال الحرب العالمية الأولى التي شارك في القتال فيها. القصيدة ترثي الجنود القتلى إبان الحرب العالمية الأولى الذين سقطوا في المعارك المشتعلة في إقليم فلاندرز البلجيكي، وكذلك هي قصيدة عن وجود الأمل حتى في أعتم الأوقات. م.

نفسي وكأني عدت جالسةً جانب منصة الخطابة، أو في إحدى حفلات العشاء اللامتناهية، جالسةً إلى جانب ريتشارد، أبقي على فمي مغلقاً. لو سألني أحدهم، ونادراً ما كان يحدث، لكنت أجبته بأن العناية بالحدائق هي هوايتي. هي نصف حقيقة على أفضل حال، لكنها مملة بما يكفي لأرتقي إلى المعايير المطلوبة في أحاديث حفلات العشاء.

ثم جاء الدور على الخريجين لاستلام شهاداتهم. واندفع الحشد الشاب نحو المسرح، وقوراً مشرقاً، بكل الأحجام، كلهم بدت على سيماهم أمارات الجمال كما هي طبيعة الجمال في عمر الشباب. حتى القبيحون منهم جميلون، المكفهرة وجوههم، البدناء، وحتى المبقعون بالكَلَف. لا أحد منهم يعي ذلك – كم هم جميلون الآن. لكن يظل الشباب يثيرون الأعصاب. وضعية وقوفهم مروعة معظم الوقت، ومما أسمعه من أغانيهم فهم لا يفعلون شيئاً سوى التباكي والتخبط، ابتسم وعض على النواجذ قد اندثرت مع رقصة الفوكستروت. لا يعون كم هم محظوظون اليوم.

بالكاد ألقوا نظرةً علي. لا بد وقد بدوت في أعينهم عتيقةً غريبة الأطوار، لكني أفترض أن مصير كل جيل أن يُحجَّم إلى غرابة الأطوار في عيني الجيل الأصغر منه. إلا إن وُجِد دمٌ مسفوكٌ على الأرض. الحرب، الطاعون، القتل، أي ضربٍ من ضروب البلاء أو العنف، فهذا ما يستدعي احترامهم. فالدم يعني أننا أخذنا حياتنا بجدية.

ثم جاء الدور على الجوائز – علم الحاسب الآلي، الفيزياء، تمتمة، مهارات إدارة الأعمال، الأدب الإنجليزي، شيءٌ ما لم ألتقطه. ثم وقف الرجل من جمعية الخريجين يتنحنح وألقى على مسامعنا بإسهابٍ ورع مناقب وينيفريد غريفين بريور، القديسة على الأرض. يا للأكاذيب التي يلقيها الناس مقابل المال! أراهن أن العجوز الفاجرة قد تصورت الأمر بأكمله حين عمدت إلى كتابة هبتها في الوصية، شعرتُ بنيّتها السامة تلدغني. هي علمت أنهم سيطلبون حضوري؛ هي رغبت بجلوسي أتلوى تحت أعين أهل البلدة تتفرس فيّ بينما يُمَجّد الحفل سخاءها وكرمها. أنفقوا هذه

الهيبة في ذكراي. كرهتُ منحها الرضا، لكن ما كان بوسعي تجنب الحضور دون أن أبدو خائفة أو مذنبة، أو حتى لا مبالية. أو أسوأ: ناسية.

ثم جاء الدور على لورا. والسياسي بذاته هو من حمل على عاتقه شرف تنفيذ المهمة: فالكياسة مطلوبة هنا. ذكر شيئاً عن جذور لورا المحلية في المنطقة، شجاعتها، " تفانيها في سبيل تحقيق هدفها المنشود،" أيًا كان ما يعنيه بهذا. لم يذكر أي شيء عن طريقة موتها، والتي يؤمن جميع أهل البلدة – رغم الحكم الصادر عن التحقيق – أنها أقرب ما تكون إلى انتحار مثلما السباب البذيء هو أقرب ما يكون إلى اللعان. ولا شيء البتة عن كتابها، الذي لا بد وأن الجميع قد ارتأى أن من الأفضل نسيانه. رغم أنه ليس منسيّ، ليس هنا: حتى بعد خمسين عاماً لا يزال يحتفظ بهالةٍ كبريتية محرمة. أجد من الصعب عليّ أن أفهم: فالشهوانية فيه موضته قديمة اندثرت مع القبعات، واللغة البذيئة فيه ليست بشيءٍ لا تسمعه اليوم في نواصي الشوارع، والجنس محتشم مثل احتشام راقصات الريش – أراه نزويًّا حتى، مثل حمالة الجورب الحريري.

لكن آنذاك كان الوضع مختلفًا. فما يذكره الناس ليس الكتاب بحد ذاته، بقدر الضجة التي صاحبته: القساوسة في الكنائس استنكروا العمل واعتبروه فاحشاً، ليس هنا وحسب؛ المكتبة العامة أجبرت على سحب الكتاب من أرففها، متجر الكتب الوحيد في البلدة رفض خزن النسخ لديه. سرت إشاعة بمنعه عن التداول. الناس تسللوا إلى ستراتفورد أو لندن أو حتى تورنتو واقتنوا نسخهم بالخفاء، مثلما كان الحال مع الواقيات الذكرية. ومتى ما عادوا إلى منازلهم أسدلوا الستائر وقرأوا باستهجان، بتلذذ، بشراهة وغبطة – حتى أولئك من لم يفكروا من قبل بفتح رواية. إذ يبدو ألا شيء يشجع على القراءة مثل ملء مجرفةٍ من القذارة.

(طبعاً كان هناك القلة ممن عبروا عن آرائهم بلطف. لم أقو على إكماله، وجدتها تفتقد للحبكة. لكن المسكينة كانت في مقتبل عمرها. لربما كانت ستخرج بكتابٍ أفضل لو لم يختطفها الموت من حياتها باكراً. كان ذلك أفضل تعليقٍ بوسعهم تقديمه).

وما الذي أرادوه فعلاً منه؟ الفسق، المجون، البذاءة، توكيدٌ على أسوأ شكوكهم. لكن ربما ما أراده بعضهم من الكتاب، رغماً عنهم، هو أن يتركوا أنفسهم عرضةً للإغواء. ربما كانوا يسعون وراء الشغف؛ ربما أخذوا ينقبون في صفحات الكتاب وكأنه علبةٌ غامضة – هديةٌ معلبة يكمن في قاعها، في غمرة حفيف طبقات الأوراق المرققة، شيئاً لطالما تاقوا إليه ولم يسعهم أبداً حيازته.

لكنهم رغبوا كذلك في تحديد الأشخاص الحقيقيين – عدا لورا: فواقعيّتها المجسّدة في الرواية أخذوها أمراً مسلماً به. سعوا وراء معرفة الأجساد الحقيقية كي يطابقوها مع الأجساد التي استحضرتها الكلمات لأجلهم. أرادوا الشهوة الحقيقية. وفوق كل ذلك سعوا وراء معرفة الإجابة على سؤالهم الشاغل: من هو الرجل؟ في الفراش مع المرأة اليافعة، المرأة اليافعة الجميلة الميتة؛ في الفراش مع لورا. بالطبع هناك من ظن أنه خمن هوية الرجل. فقد سرت الأقاويل. وبالنسبة لهؤلاء من يملكون الذكاء الكافي لجمع اثنين باثنين، فالصورة اتضحت لهم. تصرفت وكأنها امرأة نقية نقاء الثلج الذائب في الشوارع[4]، وكأن الزبدة لن تذوب في فمها[5] يثبت لك حقيقة أن الكتاب لا يُحكم عليه من رؤية غلافه.

لكن لورا كانت قد نأت بنفسها بعيداً عن متناول أيديهم. أنا من تسنى لهم توجيه سهامهم إليها. الرسائل المجهولة بدأت تتوالى. لم حملت على عاتقي تدبير نشر كتلة القذارة هذه؟ وفي نيويورك من بين كل المدن – سدوم الكبرى. يا له من قذف! ألا أملك ذرة حياء؟ فقد سمحت لعائلتي – المحترمة جداً ذات السمعة الطيبة – أن يلحق بها العار، ومعها البلدة بأكملها. لورا لم تكن أبداً بالعاقلة، الكل شك أنها غير متزنة، والكتاب أكبر دليلٍ على ذلك. أنا من وجب عليّ أن أصون ذكراها. وجب عليّ أن أشعل عود ثقاب في المخطوطة. وبينما أخذت أتأمل الرؤوس الضبابية، هناك

(4) مقتبس عن عبارة أجابت بها الممثلة المسرحية الأمريكية تالولاه بانكهيد – Tallulah Bankhead لدى سؤالها في مقابلة عام 1941 إن كانت تعتبر نفسها امرأةً نقية، فقالت ساخرةً: أنا امرأةٌ نقية نقاء الثلج الذائب في الشوارع.

(5) كأن الزبدة لن تذوب في فمها – As if butter wouldn’t melt in her mouth مقولة إنجليزية تستخدم في الإشارة إلى من يظهر التقوى في تصرفاته فلا يتخيل أحدهم أنه سيرتكب خطيئةً ما.

في الأسفل بين الجمهور – الرؤوس الأكبر سناً – كان لي أن أتخيل الأبخرة الموبوءة من النكاية العتيقة، الحقد العتيق، الإدانة العتيقة، تتصاعد منهم وكأنها تتصاعد من مستنقعٍ راكد.

أما الكتاب بحد ذاته فلا ذكر له على الإطلاق – دفعوه بعيداً عن الأبصار، وكأنه قريبٌ عائلي مخزٍ وخسيس. كتابٌ هزيلٌ كهذا، لا حول له ولا قوة. هو الضيف غير المدعو في هذا العيد الغريب، يذرع جوانب المسرح، يضرب بجناحيه مهتاجاً وكأنه عثة لا قيمة لها.

وبينما كنت سارحةً في أحلام يقظتي إذ بأحدهم يقبض على ذراعي ويرفعني عن مقعدي، المغلف ذو الشرائط الذهبية حيث الشيك أقحموه في يدي. أعلنوا عن الفائز. لم ألتقط اسمها.

سارت نحوي، كعبا حذائها يطقطقان على الخشبة. كانت فارعة الطول؛ كلهن هذه الأيام فارعات الطول، الفتيات اليافعات، لا بد وأنه شيءٌ ما في الطعام الذي يتناولنه. كانت ترتدي فستاناً أسود، كالحاً بين ألوان الصيف الزاهية، هناك خيوط فضية على الفستان، أو ربما خرز – بريقٌ ما يلمع عليها. شعرها طويلٌ وداكن. وجهها بيضاوي، شفتاها ملونتان بأحمر الشفاه الكرزي؛ تقطيبة طفيفة، تسير بكامل تركيزها، بكامل تصميمها. مسحةٌ على بشرتها بلون الأصفر الشاحب أو الأسمر الخافت – أيعقل أنها هندية، أو عربية، أو صينية؟ فحتى في بورت تيكونديروغا مثل تلك الأمور أضحت اعتيادية: فالكل أصبح في كل مكان هذه الأيام.

قلبي مال بشدة: التوق سرى في جسدي مثل مغصٍ حاد. لعلها حفيدتي – ربما هذا ما تبدو عليه سابرينا الآن. ربما، وربما لا، فكيف لي أن أعرف؟ حتى إن رأيتها فلا أظنني سأتعرف عليها. فقد أبقوها بعيداً عني لزمنٍ طويل؛ هي أبقت نفسها بعيدةً عني. فما عساي أن أفعل؟

"سيدة غريفين،" همّس السياسي في أذني.

ترنحت، ثم استعدت توازني. والآن ما الذي كنت أنوي قوله؟

" شقيقتي لورا كانت ستسر جداً". لهثت على الميكروفون. صوتي كان هزيلاً، اعتقدت أني سأغيب عن الوعي. " فقد كانت تحب مساعدة الناس". هذه كانت الحقيقة، فقد أقسمت ألا أقول غير الحقيقة. "كانت مولعة بالقراءة والكتب". أيضاً هي الحقيقة، إلى حدٍ ما. " لكانت تمنت لكم مستقبلاً رائعاً". تلك هي الحقيقة أيضاً.

تدبرت تسليم المغلف؛ كان على الفتاة أن تنحني إليّ. همست في أذنها، أو نويت الهمس في أذنها – بوركتِ. كوني حذرة. فأي شخصٍ ينوي إدخال نفسه في متاهة الكلمات سيحتاج بركةً كهذه، تحذيراً كهذا. هل نطقت بها فعلاً، أو اكتفيت بإغلاق وفتح فمي وكأني سمكة؟

الفتاة ابتسمت، ترترٌ براق أخذ يومض حول سائر وجهها وشعرها. تلك كانت عيناي تخدعاني، ومعها أضواء إنارة المسرح الساطعة جداً. وجب عليّ ارتداء نظارتي المظللة. وقفت هناك، عيناي تطرفان. ثم فعلت الفتاة شيئاً لم أتوقعه: مالت نحوي وقبلتني على وجنتي. وعلى شفتيها شعرت بملمس بشرتي: ناعمٌ مثل جلد قفاز طفل، متجعّد، مُبَوْدَر، وعتيق.

هي بدورها همست في أذني شيئاً، لكني لم أتبينه. أكانت " شكراً " بسيطة، أم تراها كانت رسالة – أيعقل هذا – في لغةٍ أجنبية؟

استدارت وسارت بعيداً. الضوء المتدفق منها كان ساطعاً حد إرغامي على إغلاق عينيّ. ما عدت أسمع، ما عدت أرى. الظلمة أخذت تزحف نحوي، تدنو أقرب وأقرب. التصفيق العالي قصف أذنيّ وكأن الطيور تضرب بأجنحتها فوق رأسي. ترنحت وكدت أقع.

موظفٌ متيقظ التقطني من ذراعي وأعاد وضعي في الكرسي المخصص لي. أعادني إلى الغياب، أسفل الظل الطويل لشقيقتي لورا. بعيداً عن طريق الأذى.

لكن الجرح القديم ما لبث وأن فتق، الدم الخفي يتدفق خارجاً. قريباً سيستنزفني، لن تتبقى فيّ نقطة دمٍ واحدة.

العلبة الفضيّة

زهور التوليب البرتقالية تطلع، متفتّتة ورثة كما الجند المتلكئة في مؤخر ركب جيشٍ عائد. أرتاح لرؤيتهم فأحييهم، وكأني ألوح لهم من مبنى تعرض للقصف والدمار؛ ومع ذلك، فعليهم أن يجهدوا في شق طريقهم، دون اعتماد على أي مساعدة مني. أحياناً أنقب في أطلال الحديقة الخلفية، أزيح عن طريقها السوق الجافة والأوراق المتساقطة، لكن هذا أقصى ما يتسنى لي القيام به. فما عدت أقوى على الركوع، ما عدت قادرة على إقحام يديّ في التراب.

البارحة ذهبت لزيارة الطبيب، لأسأله عن نوبات الدوار. فأخبرني أني أعاني مما يسمونه القلب، وكأن الناس الأصحاء لا يملكون واحداً. يبدو أني وفي النهاية لن أعيش إلى الأبد، بكل بساطة سأظل أنكمش وأنكمش، شعري يشتعل شيباً، وجسدي يغبر، تماماً مثل سيبيل في زجاجتها[6]. كنت قد همست بها منذ زمنٍ بعيد أتمنى أن أموت، لكن الآن فقط أدركت أن أمنيتي ستتحقق. عاجلاً لا آجلاً. ولن يصنع أي فرقٍ كان إن كنت قد بدلت رأيي.

تدثرت بالشال كي أجلس خارجاً، مستظلةً بطُنُف الشّرفة الخلفية، أجلس إلى طاولةٍ خشبية سطحها محزّز كنت قد طلبت من والتر إحضارها لي من المرآب.

---

(6) سيبيل – Sibyl ويقصد بها الكاهنة أو العرافة، في إشارة إلى الأسطورة الإغريقية عن وقوع أبوللو في غرام إحدى العرافات بيد أنها رفضته، لذا عرض عليها تحقيق أي أمنية تتمناها مقابل قبولها به، فتناولت حفنةً من التراب وتمنت أن يهبها عاماً مقابل كل ذرة، فحقق لها أمنيتها لكنها خدعته وظلت على رفضها له، لذا عقاباً لها أبقى على تحقيق أمنيتها بالعمر المديد لكنه حرمها الشباب الدائم، فامتد بها العمر وأخذت تنكمش وتنكمش حتى عاشت في زجاجة، وكلما مر عليها أحدهم وسألها عما تتمناه، أجابت: أتمنى أن أموت.

فالمرآب يحوي كل الأمور المعتادة من بقايا الملاّك السابقين: مجموعة علب الطلاء الجافة، كومة سقائف اسفلتية، جرة ملء نصفها مسامير صدئة، لفة أسلاك تعليق الصور. عصافير الدوري المحنطة، أعشاش الفئران من حشوات المراتب. والتر كان قد غسل المكان بالمبيّض جافيكس، ومع ذلك ظلت رائحة الفئران عالقة. على الطاولة أمامي كوب الشاي، تفاحةٌ مقطعة إلى شرائح، وإضمامة ورق سطورها زرقاء، تشبه منامة الرجال فيما مضى. كذلك كنت قد اشتريت قلماً جديداً، قلماً رخيصاً، قلماً بلاستيكيًا أسود مع رأسٍ مدحرج. وإذ بالذاكرة تعود بي إلى أول قلم حبرٍ سائلٍ اقتنيته، قلم فاونتن، وكيف شعرت به أملساً في يدي، وكيف تصبغت أناملي بالحبر الأزرق. كان قلماً من نوع باكليت ذي ريشةٍ فضية. كان عام 1929. كنت في الثالثة عشر من عمري. لورا كانت قد استعارت القلم مني – دون استئذان، مثلما استعارت كل شيءٍ آخر مني – ثم كسرته، هكذا دون أي عناء. سامحتها، بالطبع. لطالما سامحتها؛ ما كنت إلا لأسامحها، فما كان هناك من أحدٍ غيرنا نحن الاثنتان. كلتانا في جزيرتنا المسورة بالأشواك، في انتظار من ينقذنا، بينما بقية الناس كانوا هناك؛ هناك في اليابسة.

لمن أكتب؟ لنفسي؟ لا أعتقد. فلا أرى بعين خيالي أني سأعيد قراءة ما كتبت في وقتٍ لاحق، فالوقت اللاحق أضحى إشكالية. ربما أكتب لغريبٍ ما، في المستقبل، يقرأ هذا بعد موتي؟ لا أطمح لهذا، ولا حتى آمل به.
لا أحد، ربما هذا مَن أكتب إليه. ربما لنفس الشخص الذي يكتب إليه الأطفال متى ما خربشوا أسماءهم على الثلج.
لم أعد رشيقةً كما كنت. أصابعي متيبسة وخرقاء، القلم يرتعش ويتلوى، يستغرقني وقتٌ طويل كي أشكّل الكلمات. ومع ذلك أثابر، محدودبة الظهر وكأني أخيط في ضوء القمر.

حين أنظر في المرآة أرى امرأةً عجوز، أو بالأحرى ليست عجوزاً، فما عاد مقبولاً أن

نكون عجائز بعد اليوم. أكبر سناً، هأنذا قلتها. وأحياناً امرأة أكبر سناً والتي من المرجح تشبه جدتي التي لم أعرفها أبداً، أو مثل أمي لو تسنى لها أن تبلغ هذا العمر. لكن أحياناً ما أراه هو وجه الفتاة اليافعة التي، فيما مضى، قضيت وقتاً طويلاً أستهجنها وأعيد تشكيلها، أغرقها فتعود وتطفو من تحت وجهي الحالي، وجهي الذي أضحى – بالذات فترة ما بعد الظهيرة حين تميل الشمس بأشعتها – مهلهلاً وشفافاً، لو أردت لنزعته عني وكأني أنزع جورباً حريرياً.

الطبيب أوصاني بضرورة ممارسة المشي – كل يوم، قائلاً إنه سينفع قلبي. أفضل ألا أفعل. ليست ممارسة المشي بحد ذاتها ما تزعجني، بل فكرة الذهاب خارجاً: إذ دائماً ما أشعر أني في عرضٍ ما. هل يخيل لي التحديق، الهمس؟ ربما، وربما لا. فأنا في الواقع معْلمٌ محليٌ راسخ، مثل أرض خلاء مكسوةٍ بالقرميد المتناثر حيث انتصب قائماً فيما مضى مبنىً ذو شأن.

الإغراء يدفعني للبقاء داخلاً: أن أهمد في بيتي وأكون امرأةً معتزلة ينظر إليها أطفال الجيران بعين السخرية مع مسحةٍ من الرهبة؛ أن أدع الوشائع والحشائش تنمو، أن أدع الأبواب المغلقة عليّ تصدأ، أن أستلقي على فراشي في بُرْدَتي وأدع شعري يطول وينبسط على وسادتي وأترك لأظافري حرية التبرعم إلى مخالب، بينما الشمعة الموقدة يتساقط منها الشمع الذائب على سجادتي. لكني أخذت قراري منذ زمنٍ طويل بين الكلاسيكية والرومانسية. أفضّل الحياة محافظةً على استقامتي كابحةً عواطفي – جرة رماد موتى في وضح النهار.

ربما كان من الأفضل لو لم أعد لأعيش هنا. لكن حينها ما كنت لأفكر في مكانٍ آخر أذهب إليه. فكما اعتادت ريناي أن تقول، الشيطان الذي تعرفه خيرٌ من الذي تجهله.

اليوم تعنَّيت. خرجت، مشيت. سرت إلى أن بلغت المقبرة: فالإنسان منا بحاجة إلى وجهةٍ يقصدها كي يكون لهذه النزه الحمقاء أي معنى. ارتديت قبعتي القش واسعة الحواف كي أقي نفسي وهج الشمس، كذلك وضعت نظارتي المظللة، واصطحبت

عكازي معي لأتلمس حواف الرصيف. وكذلك حملت معي كيس تسوق بلاستيكي. سرت في شارع إيري، متجاوزةً المصبغة واستوديو الصور الشخصية، وغيرها من المتاجر القليلة المتبقية على الشارع الرئيسي والتي تمكنت من البقاء في ظل القحط الذي تسبب به وجود المجمعات التجارية على أطراف البلدة. ثم مررت على مَغدى بِتي، وقد أصبح الآن مملوكاً لأشخاصٍ جدد، مرةً أخرى: عاجلاً أم آجلاً ملاكه سيسأمون، أو يموتون، أو ينتقلون إلى فلوريدا. المطعم الآن يتضمن فناءً مرصوفاً حيث يتسنى للسائح الجلوس تحت الشمس فتقليه حد القرمشة؛ الفناء هناك في الخلف، ذاك المربع الصغير من الإسمنت المتصدع حيث اعتادوا وضع حاويات النفاية. يقدمون التورتيلّي والكابتشينو، يعلنون عنها بوقاحة على واجهة المطعم وكأن جميع أهل البلدة يعرف بالفطرة ما هي. على أي حال، باتوا يعرفونها الآن؛ فقد جربوها، وإن كي يحظوا على الأقل بفرصة مشاركة آرائهم الساخرة عنها. لا أرغب بذاك الزغب على قهوتي. يبدو وكأنه كريم معجون الحلاقة. رشفةٌ واحدة وفمك سيرغي.

فطيرة الدجاج كانت طبقهم الخاص فيما مضى، لكنها اندثرت منذ زمنٍ بعيد. الآن هناك شطائر الهمبرغر، لكن ميرا دوماً ما تنصحني بتفادي تناولها. وفق ما قالته لي فإن تلك الشطائر معدّة من أقراص مجمدة من غبار اللحم. غبار اللحم، كما فسّرت لي، هو ما يكشطونه عن الأرض من بعد تقطيعهم للأبقار المجمدة بمنشارٍ كهربائي. ميرا تقرأ الكثير من المجلات لدى وجودها في الصالون.

للمقبرة بوابةٌ من الحديد المطاوع، تعلوها قنطرةٌ مزخرفة بزخارف لولبية معقدة، ومنقوشٌ عليها: إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شرًّا لأنَّكَ معي. نعم، وجود اثنين يمنح إحساساً خادعاً بالأمان؛ لكن أنت شخصيةٌ مراوغة. فكلُّ أنت عرفتُه في حياتي قد وجد طريقةً يختفي بها. فإمّا يهجرون البلدة، أو يغدرون بي، أو يتساقطون موتى كما الذباب، وحينها أين سينتهي بك المآل؟

تماماً ههنا.

ضريح عائلة تشايس لا أحد يتوه عنه: فهو يفوق علوًّا كل ما حوله. هناك ملاكان، من الرخام الأبيض، من الطراز الفكتوري، منحوتةٌ وجدانية وكذلك مصنوعة بإتقان على طراز تلك الأيام، قائمة على قاعدةٍ حجرية مكعبة مع حواف مزخرفة. الملاك الأول واقفة، تحني رأسها جانباً في تعبيرٍ عن الحداد، تضع يدها بحنان على كتف الملاك الأخرى. الملاك الثانية راكعة، تسند رأسها على فخذ الأولى، تنعم النظر أمامها، تستمهد ضمةً من الزنابق. جسداهما محتشمان، كفافهما مدثرة بطياتٍ ناعمة منسدلة من المعدن المنيع، بيد أنك ستخمن أنهما أنثيان. المطر الحمضي بدأ ينال منهما: عيناهما الثاقبتان فيما مضى غدتا مغبّشتين، ملساء ومسامية، وكأنهما مصابتان بالسُّد. لكن ربما هي عيناي، أنا من بدأت تفقد بصرها.

أنا ولورا اعتدنا القدوم إلى هنا. ريناي كانت تحضرنا لأنها ظنت أن زيارة قبور العائلة لها تأثيرٌ محمودٌ على الأطفال، ثمّ أصبحنا أنا وإياها نأتي وحدنا: كان عملاً ورعاً وبالتالي عذراً جيداً للهروب. حين كانت بعد صغيرة، اعتادت لورا أن تقول إن المقصود بالملاكين هما أنا وهي، نحن الاثنتان. أخبرتها أنّ من المستحيل أن تكون تلك هي الحقيقة لأن الملاكين وضعتهما جدتنا قبل أن نولد. لكن لورا لم تعر اهتماماً لهذا النوع من التفكير المنطقي. هي كانت مهتمةً أكثر بالأشكال – في ماهيّتها وكُنهها، لا ما ليست عليه. ما اهتمت به حقاً هو الجوهر.

على مرِّ الأعوام عودت نفسي على القدوم هنا على الأقل مرتين في العام، على الأقل لأرتب المكان، إن ليس لسببٍ آخر. في السابق كنت أقود السيارة إلى هنا، لكن ليس بعد اليوم: فما عاد بصري ملائماً. انحنيت للأسفل متوجعةً وأخذت ألتقط عن الأرض الأزهار الذابلة التي تراكمت هناك، تركها معجبو لورا المجهولون، وكدستها في الكيس البلاستيكي. التقدمات أخذت تقل مع الوقت، بيد أنها لا تزال تتوالى بما يكفي. بعض الزهور التي التقطتها اليوم كانت لا تزال نضرة. بين فترةٍ وأخرى أعثر كذلك على أعواد بخور، وشموع أيضاً، وكأنهم يحاولون استحضار روح لورا.

بعد أن تعاملت مع باقات الزهور أخذت أمشي قليلاً حول الضريح، أقرأ أسماء أموات عائلة تشايس من لائحة أسماء الحضور المنقوشة على حواف المكعب.

بينجامين تشايس وزوجته المحبة آديليا؛ نورفال تشايس وزوجته المحبة ليليانا؛ إدغار وبيرسيفال. لن يتقدم بهما العمر مثلما سيتقدم بنا نحن الأحياء.
ولورا، شبه الموجودة في كل مكان. جوهرها.
غبار اللحم.

كانت هناك صورةٌ لها في الصحيفة المحلية الأسبوع الماضي، مرفقة بمقالٍ عن الجائزة – صورتها المعتمدة، ذاتها الصورة على غلاف مجلد كتابها، الصورة الوحيدة التي طبعت لها على الإطلاق لأني لم أمنحهم سواها. الصورة التقطت في استديو الصور الشخصية، الجزء العلوي من جسدها ملتفٌ بعيداً عن المصور، ثم يلتف الرأس نحو الكاميرا مما أضفى على عنقها انحناءةً رشيقة. أكثر قليلاً، الآن ارفعي عينيك، باتجاهي، تلك هي فتاتي، الآن دعينا نرى ابتسامتك. شعرها الطويل أشقر – مثلما اعتاد شعري أن يكون آنذاك – شاحبٌ، شبه أبيض وكأنَّ مسحة اللون الأحمر قد غسلت عنه تماماً – الحديد، النحاس، وكل المعادن الصلبة. أنفٌ مستقيم؛ وجهٌ على شكل قلب؛ عينان واسعتان مضيئتان، صريحتان وساذجتان؛ الحاجبان مقوسان، مرفوعان للأعلى عند طرفيه الداخليين في حيرةٍ من أمرهما. أثرٌ من عناد ظاهرٌ على فكها، لكن ما كنت لتلاحظ إن لم تعرف به مسبقاً. لا أثر لمستحضرات التجميل حتى أشير إليها، مما يضفي على الوجه هالةً غريبة من العري: إذا ما تأملت الشفتين فستدرك أنك تتأمل لحماً.
جميلة؛ بل فائقة الجمال؛ جمالها في تجردها. إعلانٌ عن الصابون، كل مكوناته عضوية. الوجه يبدو أصماً: في تلك الوضعية المنيعة الخالية من التعبير التي تعلمتها كل فتيات العائلات المرموقة في تلك الأيام. لوحةٌ بيضاء، لا تَكتُب، بل يُكتَب عليها. الكتاب وحده من خلد ذكراها حتى اليوم.

لورا عادت إليّ في علبةٍ فضية اللون، تشبه علبة السجائر. عرفت بالأحاديث التي تناقلها أهل البلدة في هذا الشأن، كما لو كنت بنفسي أسترق السمع. بالطبع

ليست هي. مجرد رماد. ما كنت لتتخيل أن عائلة تشايس ستحرق يوماً جثث أمواتها. فهم لم يفعلوها من قبل. ما كانوا لينحطوا إلى تلك الدرجة في أوج مجدهم. لكن على ما يبدو لا خيار أمامها سوى إنهاء ما بدأ. كونها احترقت تماماً. ومع ذلك، أظنهم رأوا من الأفضل أن تدفن مع عائلتها. يريدونها هناك عند الضريح الضخم ذي الملاكين. لا أحد آخر يملك ملاكين. لكن تلك كانت أياماً ومضت. أيام كانت النقود تحرق ثقوباً في جيوبهم. كم عشقوا استعراض ثرواتهم آنذاك. لفت الأنظار إليهم: تولي القيادة. بسط نفوذهم. وقد بسطوه فعلاً على أرجاء البلدة فيما مضى.

دائماً ما أسمع تلك الأقاويل في مخيلتي بصوت ريناي. فهي كانت مترجمتنا المحلية، لي ولورا. فمن كان لدينا غيرها حتى نعتمد عليه؟

هناك خلف الضريح توجد مساحةٌ شاغرة. أعتبرها مقعدًا محجوزًا – محجوزًا للأبد، مثل المقاعد التي اعتاد ريتشارد تأمينها في مسرح أليكساندرا الملكي. تلك هي بقعتي؛ هناك سأعود إلى الأرض.

مسكينتي آيمي في تورنتو، في مقبرة ماونت بليزينت، مع عائلة غريفين – مع ريتشارد ووينيفريد وذاك المغليث[7] الغرانيتيّ السقيم. وينيفريد كانت قد حرصت على دفنها هناك – طالبت بحقها في ريتشارد وآيمي باقتحامها المكان قبل أن يبرد دمهما وأمرت بإحضار تابوتيهما. فمن يدفع للحانوتي يعزف على هواه. لو ترك الأمر لها لمنعتني حتى من حضور جنازتيهما.

لكن لورا كانت الأولى بينهم، لذا لم يكن الوقت قد أتيح بعد لوينيفريد كي تُتقن روتينها في خطف الأجساد. قلت "ستعود إلى بيتها،" وتقرّر الأمر. نثرت رمادها على أرجاء الضريح، لكني احتفظت بالعلبة الفضية، وخيراً فعلت. فلو كنت دفنتها لنبشها أحد معجبيها من الأرض. فهؤلاء الناس سينتهزون أي فرصة. قبل عام أمسكت بمعجبة مع جرة مربى وبيدها مالج، تكشط التراب عن القبر.

---

(7) المغليث – htilagem: حجرضخم غير منحوت مستخدم في كثير من الآثار الراقية إلى ما قبل التاريخ.

أتساءل ما سيحل بسابرينا – أين سينتهي بها المآل. فهي الأخيرة من عائلتنا. أفترض أنها لا تزال حيّة تجُول هذه الأرض: فأنا لم أسمع أي شيءٍ مخالف لافتراضي. سنرى في المستقبل أي جانبٍ من العائلة ستختار أن تدفن معه، أو إذا ما ستقرر حشر نفسها بعيداً، بعيداً عنا جميعاً. ما كنت لألومها.

المرة الأولى التي فرت فيها من البيت، حين كانت في الثالثة عشر من عمرها، اتصلت بي وينيفريد في نبرة غضبٍ باردة، تتهمني بالتحريض والإعانة، وإن لم تجرؤ على اتهامي بخطفها. طالبتني بالإفصاح لها إن كانت سابرينا قد قدمت إليّ.

" لا أظنني مجبرة على قول أي شيءٍ لك،" قلت لها لأعذبها. هي العدالة: فمعظم فرص التعذيب كانت من نصيبها. كانت تعيد لي بطاقاتي ورسائلي وهداياي لسابرينا في عيد ميلادها، مكتوباً عليها بخطها الغليظ المستبد يعاد للمرسل. "وعلى أي حال فأنا جدتها. بإمكانها القدوم إليّ ساعة تشاء. بيتي دائماً مفتوحٌ لها".

" لا أرى داعٍ لأذكرك بأني وصيتها القانونية".

" إن لم يكن من داعٍ لتذكّريني، فلم تذكّريني الآن؟"

بيد أنّ سابرينا لم تأت إليّ. لم تأتِ أبداً. وليس من الصعب تخمين السبب. فالرب وحده يعلم ما الذي قيل لها عني. ولا كلمةً واحدة طيبة.

مصنع الأزرار

حرٌّ الصيف قد هلّ علينا شديد الوطأة، يجثم على صدر البلدة مثل حساءٍ قشدي. كانت أجواء ملاريا فيما مضى؛ أجواء كوليرا. الأشجار التي أسير تحتها مظلاتٌ ذاوية، الورق تحت أناملي رطب، الكلمات التي أخطها حوافها متعرجة مثل حواف أحمر شفاهٍ على شفتين هرمتين. بمجرد صعودي السلم يشطأ من أعلى فمي شاربٌ هزيلٌ من عرق.

لا يجدر بي أن أمشي في جوٍّ حارٍ كهذا، يزيد من عناء قلبي فيتسارع خفقانه. ألاحظ إرهاقه بخبث. لا يجدر بي أن أعرِّض قلبي لاختبارات صعبة كهذه، ليس بعد الآن وقد أعلموني بعيوبه ونقصانه؛ ومع ذلك تغمرني متعةٌ شريرة في إجباره على التحمل، وكأنني متنمرٌ وقلبي طفلٌ ناحِب أزدري ضعفه.

في المساء السماء ترعُد، أسمع من بعيد قصف ارتطامٍ وتعثر، وكأن الرب منغمسٌ في نوبةٍ من نوبات غضبه. أنهض لأتبول، ثم أعود إلى فراشي، أتلوى مستلقيةً في الشراشف الرطبة، أسمع الصوت الرتيب لأزيز المروحة. ميرا تقول من الأجدر بي أن أحضر جهاز تكييف، لكني لا أريد. وفوق ذلك فلا يسعني تحمل تكلفته. "ومن سيدفع لشيءٍ كهذا؟" أقول لها. لا بد أنها تعتقد أني أخبئ ماسةً في جبيني، مثل عجلومٍ في القصص الخيالية.

وجهة نزهتي اليوم كانت "مصنع الأزرار"، حيث نويت شرب قهوة الصباح. الطبيب كان قد حذرني من القهوة، لكنه في الخمسين من عمره وحسب - يهرول مرتدياً بنطاله القصير مستعرضاً ساقيه المشعرتين. هو لا يعرف كل شيء، وإن كانت هذه

الحقيقة ستفاجئه. إن لم تقتلني القهوة، فشيءٌ آخر سيتولى المهمة.

شارع إيري كان مثقلاً بالسُّياح، معظمهم في منتصف العمر، يقحمون أنوفهم في متاجر الهدايا التذكارية، نيّقون في الشراء داخل متجر الكتب، يجولون في المكان متململين قبل أن يهرعوا بعد الغداء إلى مهرجان المسرح الصيفي لقضاء بضع ساعاتٍ مريحة مع الخيانة، السادية، الزنى، والقتل. ومنهم من كان يقصد ذات الوجهة التي أسير إليها، مصنع الأزرار، كي يروا ما الأغراض الغريبة المبهرجة والرخيصة التي يمكن لهم اقتناؤها تخليداً لذكرى الليلة التي قضوها في إجازة من القرن العشرين. "لاقطاتُ غبار"، كذا كانت ستصف ريناي تلك الأغراض. وأظنها كانت ستستخدم المصطلح ذاته في وصف السياح أنفسهم.

سرت معهم في صحبتهم الباهتة، حيث ينعطف شارع إيري إلى شارع ميل الممتد على نهر لوفتو. هناك نهران في بورت تيكونديروغا، جوغ ولووفيتو[8] – الاسمان ما هما إلا أثر باقٍ من المحطة التجارية الفرنسية التي كانت واقعة فيما مضى عند نقطة التقاء النهرين، فنحن لسنا مولعين بالفرنسية في هذه الأرجاء: في قاموسنا النهران هما جوغز ولوفتو[9]. بتياره المتدفق السريع كان نهر لوفتو مصدر جذبٍ للمعامل الأولى في البلدة، ثم لاحقاً لمصانع توليد الكهرباء. أما نهر جوغز فكان عميقاً وتياره بطيء، ما جعله مناسباً للملاحة والإبحار حتى ثلاثين ميلاً أعلى بحيرة إيري. على مجراه شحنوا الحجر الجيري الذي كان أساس الصناعة الأولى في البلدة بفضل المخزون الضخم منه الذي خلّفه تراجع البحار عن اليابسة. أكان ذلك في العصر البرمي أم الجوراسي؟ اعتدت أن أعرف المعلومة. معظم البيوت في البلدة مشيدة من الحجر الجيري، ومن ضمنها بيتي.

مقالع الحجر المهجورة مترامية على أطراف ضواحي البلدة، مربعاتٌ ومستطيلاتٌ محفورة عميقاً في الصخر وكأن مبانٍ بأكملها رفعوها من هناك تاركةً أطيافها خلفها. أحياناً أتصور البلدة بأكملها تنبعث من أعماق محيطٍ ضحلٍ من عصور

---

(8) Jogue– جوغ، Louveteau – لووفيتو اللفظ الفرنسي لاسمَي النهرين.

(9) Jogs – جوغز، Lovetow – لوفتو اللفظ الإنجليزي لاسمَي النهرين.

ما قبل التاريخ، ثم تنبسط وتتجلى مثل شقائق النعمان أو أصابع قفازٍ مطاطي متى ما نفخت فيه الهواء - تتبرّعم بسرعةٍ متقطعة مثلما يحصل في تلك الأفلام البنية المُبَرْغَلة عن تفتح الأزهار والتي اعتادوا عرضها في صالات السينما - متى كانوا يعرضونها؟ - قبل الفيلم الرئيسي. صائدو الأحافير ينقبون في تلك المقالع بحثاً عن سمكةٍ منقرضة، سعفةٍ أثرية، لفائف مرجان. أما إذا أراد المراهقون قضاء ليلة صاخبة في شرب الخمر، فهناك سيقيمون حفلتهم. سيوقدون نارهم المضطرمة في الهواء الطلق، يسرفون في الشرب وتدخين الحشيش، ويتلمس أحدهم جسد الآخر أسفل ثيابه وكأنهم من اخترع الجنس، ثم يهشمون سيارات آبائهم في طريق عودتهم إلى البلدة.

حديقتي الخلفية تحاذي أخدود لوفتو، حيث يضيق النهر ويغمر. سقوط التيار شديد الانحدار يتصاعد على إثره السديم، قوياً حدَّ إيقاع الرهبة في القلب. في نهايات الأسابيع الصيفية يتجول السياح على مسار الجرف الصخري أو يقفون حتى على حافته، يلتقطون الصور؛ بوسعي رؤية قبعاتهم القنبية البيضاء تمر من جانب حديقتي، كم هي تافهة ومزعجة. الجرف يتفتت وخطير، لكن البلدة لن تنفق المال على سياج، فالرأي السائد هنا لا يزال على ما هو عليه، إن ارتكبت حماقةً ما فأنت تستحق العواقب أياً كانت. الأكواب الورقية من متجر الدّونات تتراكم في الدوامات أسفل الجرف، وبين فترةٍ وأخرى تعلق جثةٌ فيها، من الصعب معرفة إن وقعت أو دُفِعت أو قفزت، إلا إذا بالطبع وجدوا رسالتها الأخيرة.

مصنع الأزرار يقع على الضفة الشرقية من نهر لوفتو، ربع ميلٍ أعلى أخدود النهر. لعقودٍ طويلة تُرك المكان مهجوراً سائباً، نوافذه محطمة، سقفه يرشح، مثوىً للفئران والسكيرين؛ ثم أُنقذَ من الهدم على يد لجنةٍ نشطة محلية من مواطني البلدة، وحُوّلَ إلى متاجر صغيرة. المساكب أعادوا تشكيلها، الواجهة الحجرية أعادوا صقلها وتنظيفها، آثار التخريب على يد الزمن والنهب رُمّمت، لكن تبقى الأجنحة الظلماء للسخام حول النوافذ السفلية ظاهرة للعيان، جراء الحريق

الذي وقع قبل ما يزيد عن ستين عام.

المبنى مشيد من الطابوق البني المحمر، مع العديد من النوافذ الكبيرة المؤطّرة التي اعتادوا استعمالها في المصانع من باب توفير الكهرباء للإضاءة. المبنى أنيقٌ حقاً، مقارنةً بالمصانع: عناقيد ديكوريّة، كل عنقودٍ منها تتوسّطه وردةٌ حجرية، نوافذ مُجمْلَنة، سطحٌ سنديّ مسقف بألواح أردوازية بلوني الأخضر والأرجواني[10]. وخارج المبنى ساحةٌ مرتبة لركن السيارات. "أهلاً بزوار مصنع الأزرار". مكتوبٌ على اللافتة، على طراز ترحيب السيرك؛ وفي أحرف أصغر مكتوبٌ تحتها: الركن ليلاً ممنوع. وأسفل التحذير، مخربشٌ بقلم تعليمٍ أسود ساخط: أنت لست بالرب اللعين والأرض ليست بممر بيتك اللعين. اللمسة المحلية الأصيلة.

المدخل الأمامي وُسِّع، ورُكِّبَ منحدر للمقاعد المتحركة، الأبواب الثقيلة الأصلية استبدلوها بالأبواب الزجاجية: **داخل وخارج، ادفع واسحب**، الرباعي المتسلط للقرن العشرين. في الداخل تعزف الموسيقى، أغانٍ ريفية على صوت الكمان، كذلك ثمة إيقاعاتٌ مفعمة بالحيوية (واحد – اثنان – ثلاثة) لرقصة فالس مفطورة الفؤاد. هناك مِنْور، تسطع عبره الشمس على مركز المساحة المبلطة بحصىً صناعي، مع مقاعد حدائق خضراء حديثة الطلاء وأصائص شجيراتٍ ناقمة. ومن حول المركز تقع المتاجر الصغيرة: لإضفاء تأثير المجمع التجاري.

الجدران القرميدية الجرداء مزينة بصور فوتوغرافية ضخمة قديمة من أرشيف البلدة. أول ما تقع عليه عيناك هو استشهادٌ صحفي – صحيفة مونتريال، لا صحيفة بلدتنا – في عام 1899:

> عليك ألا تتصور عزيزي القارئ المعامل المظلمة الشيطانية في إنجلترا القديمة. فالمصانع في بورت تيكونديروغا تقع في وفرةٍ من الخضرة المشرقة بالأزهار الجميلة، على صوت التيار النهري المتدفق يلطف الأجواء؛ المصانع نظيفة وجيدة التهوية، والعمال مبتهجون وأكفاء.

(10) سطح سندي – mansard roof: سطحٌ له في جميع جوانبه منحدرات أسفلها أشد انحداراً من أعلاها.

إن وقفت ساعة غروب الشمس على جسر جُبيلي الجديد المقنطر كما قوس قزحٍ من حديدٍ مطاوع مخرّم يطل على الشلّالات المتدفقة لنهر لوفتو، فستتأمل أرضاً ساحرة فاتنة حيث أضواء مصنع تشايس للأزرار تومض وينعكس نورها على المياه المتلألئة.

لم تكن كذبةً وقت كتابتها، ليس تماماً على أي حال. فلوقتٍ قصير، عاشت البلدة في ازدهار، والخير كان كافٍ ليعمّ الجميع.

بعدها يأتي جدي، مرتدياً الفراك[11] مع قبعةٍ رسمية وشاربٍ مفتولٍ أبيض، يقف منتظراً برفقة رجلٍ يشاركه المقام المصقول الوجيه للترحيب بدوق يورك أثناء جولته في كندا عام 1901. بعدها ترى أبي يقف مع إكليلٍ بين يديه، أمام النصب الحربي التذكاري أثناء تدشينه – رجلٌ فارع الطول، مهيبٌ وقور الوجه، مع شاربٍ كثيف ورقعة عين؛ عن قرب، أراه مجموعة نقطٍ سوداء. أخطو بعيداً عنه لأرى إن كان بوسعي التركيز بعدسة عيني عليه – أحاول التقاط عينه الصالحة – لكنه لا ينظر إليّ؛ بل ينظر نحو الأفق، مستقيم الجذع كتفاه مدفوعتان للخلف، وكأنه يواجه فرقة الإعدام رمياً بالرصاص. لكنتَ وصفته بالرجل راسخ الإيمان.

ثم صورةٌ أخرى لمصنع الأزرار نفسه، عام 1919، وفقاً للتعليق. مكائن بأذرع مصلصلة مثل سيقان الجنادب، وعجلات فولاذية ودواليب مسنّنة، والمكابس الثاقبة تصعد وتهبط، تخرم الأشكال؛ طاولاتٌ ممتدة تقف على جانبيها صفوف العاملات، منحنياتٍ فوقها، يفعلن أشياء بأيديهن. الآليات يديرها الرجال، في نظاراتٍ واقية وصُدَر، وأكمامهم مشمّرة؛ أما النساء فيعملن على الطاولات، في مآزر وشعورهن مشدودة ومرفوعة حتى قمم رؤوسهن. النساء هن من تولين عدَّ الأزرار وتعليبها، أو خياطتها على البطاقات التي تحمل اسم تشايس مطبوعاً عليها، ستة أو ثمانية أو اثني عشر زراً في البطاقة الواحدة.

---

(11) الفراك – frock coat: سترة رجالية ضيقة طويلة تبلغ الركبتين. القبعة الرسمية: قبعة عالية سوداء يعتمرها الرجال في الحفلات الرسمية.

وفي نهاية الساحة المفتوحة المبلطة بالحصى توجد حانة، هول انشيلادا، تعرض عزفاً حياً للموسيقى أيام السبت، والبيرة المقدمة فيها يقال إنها مصنوعة في معمل بيرة محلي، معملٍ من تلك المشاريع الصغيرة. تصميمها الداخلي أسطح طاولاتٍ موضوعة على براميل، مع مقصوراتٍ من خشب الصنوبر ممتدة على أحد جانبيها استلهموها من الماضي البعيد. وعلى قائمة المأكولات، المعروضة على نافذة الواجهة – إذ لم أدخل أبداً المكان – أطعمةٌ أجدها غريبة: شطائر الهمبرغر بالجبن الذائب، قشور البطاطس المحشية، وناتشوز. أعمدة الغذاء الرئيسية المنقعة بالدهون والذي يتناوله شباب اليوم، سيئو السمعة بينهم، أو كذا قيل لي على لسان ميرا. فقد اختارت لنفسها مقعداً مفضلاً خارج الباب مباشرةً تراقب منه المكان، فإن وقع ما يثير الريب في هول انشلادا فلن يفوتها أبداً. تقول إن قواداً يتوجه هناك لتناول الطعام، وكذلك مروج مخدرات، كلاهما يأتيان في وضح النهار. مرةً أشارت إليهما هامسةً لي في حماس. القواد كان يرتدي بدلة من ثلاث قطع، وبدا أقرب إلى سمسار بورصة. أما مروج المخدرات فله شاربٌ أشيب ويرتدي الدنيم، بدا وكأنه مسؤولٌ نقابي مخضرم.

متجر ميرا يدعى بيت الزنجبيل للهدايا والمقتنيات. تفوح منه رائحةٌ حلوة ومتبّلة – أظنه معطر جو برائحة القرفة – وفيه تعرض الكثير من الأشياء: مرطبانات مربى بأغطيةٍ من القماش القطني الموشى، وسائد على شكل قلب محشوة بأعشاب مجففة تفوح منها رائحة التبن، علبٌ بمفاصل خرقاء نحتها "حرفيون محليون"، ألحفة تدّعي أنها مطرزة على يد أبناء الطائفة المينوناتية، فرش تنظيف مراحيض رؤوسها بطاتٌ تتكلف الابتسام. المتجر يعكس مفهوم ميرا عن منظور أبناء المدينة اتجاه التراث الشعبي للحياة في الريف، تلك الصورة الريفية لأجدادهم الرعاة السذج الذين استوطنوا البلدات – أثرٌ من التاريخ تحمله معك إلى بيتك. لكن التاريخ، على ما أذكر جيداً، لم يكن يوماً فاتناً، ولا حتى بهذه النظافة، لكن التاريخ الحقيقي ما كان ليشتريه أحدٌ أبداً: جل الناس يفضلون ماضٍ لا ينضح بأي رائحة. ميرا تحب أن تهديني أغراضاً من مخبأ كنوزها. أو بالأحرى تلقي عليّ ما لن يشتريه

الزبائن من متجرها. فأنا أملك منها إكليلاً مائلاً من الأملود، طقماً ناقصاً من حلقات المناديل الخشبية مع ثمار أناناس عليها، شمعةً سمينة تفوح منها رائحةٌ تشبه الكيروسين. بمناسبة عيد ميلادي أهدتني زوجاً من قفازات الفرن على صورة مخالب كركند. أنا متأكدة من أنّ نيتها كانت طيبة[12].

أو ربما هي تحاول تليين موقفي: فهي معمدانية، وتتمنى أن أجد المسيح، أو يجدني هو، قبل أن يفوت الأوان. تلك النزعة الدينية لا تسري في دماء عائلتها: والدتها ريناي ما كانت أبداً مولعةً بالرب. يجمعهما احترامٌ متبادل، وإن وقعت في مأزق فمن المؤكد ستلجأ إليه، تماماً كما الحال مع المحامي، لكن ومثلما هي الحال مع المحامي، فلا بد للمأزق أن يكون عويصاً. عدا ذلك فلن ينفعها الاختلاط به كثيراً. وبالتأكيد لم ترغب بوجوده في مطبخها، فيداها كانتا أصلاً مشغولتين بما فيه الكفاية.

وبعد تداولٍ قصير مع نفسي، قرّرتُ شراء بعض الكوكيز من متجر أوتميل غريملين - بالشّوفان وقطع الشوكولا- مع قهوة في كوبٍ فليني، وجلست على أحد مقاعد الحديقة، أحتسي القهوة وألعق أصابعي، أريح قدميّ، وأستمع إلى الموسيقى المسجلة ذات الرنة الإيقاعية الحداديّة.

كان جدي بنجامين من أسس مصنع الأزرار، مستهل عام 1870. فآنذاك كان الطلب كبيراً على الأزرار، للملابس وكل ما يرتبط بها من صناعات – فالتعداد السكاني للقارة بدأ يتعاظم بمعدلٍ عال – والأزرار تصنع بتكلفةٍ خفيضة وتباع بأسعار رخيصة، وهذا كما قالت ريناي كانت التذكرة الرابحة لجدي، فهو رأى الفرصة واستغل عقله الذي منحه إياه الرب.

أسلافه قدموا هنا من بنسلفانيا في العقد الثاني من القرن التاسع عشر لاستغلال ميزة وجود أراضٍ رخيصة وفرص إعادة البناء – فالبلدة كانت قد احترقت بأكملها أثناء حرب عام 1812، وكان لا بد للبلدة أن تنهض وتُشيَّد من جديد. أسلافه ينحدرون من أصول جيرمانية طائفية، يتقاطع نسبها مع الجيل السابع من

(12) وفقاً للتعاليم الإنجيلية، فالكركند يحرم تناوله كونه آكل لحم يقتات على الجيف.

البيوريتانية، مزيجٌ من الحماس الديني والكدح الدنيوي الذي أفرز لنا – إلى جانب المجموعة المعتادة من التقاة، المزارعين المنبوذين، ثلاثة دعاة دينٍ جوّالين – مضاربَيْ أراضٍ غير كفؤين ومختلساً تافهاً – مُنتهزي فُرَصٍ مع سلسلة رؤىً، وعيناً واحدة تتأمل الأفق البعيد. تلك الخصال تجسدت في جدي في لعبه القمار، بيد أن الشيء الوحيد الذي قامر عليه هو نفسه.

والده كان يملك أحد أوائل المعامل في بورت تيكونديروغا، مطحنة قمحٍ متواضعة، أيام كانت المعامل تعتمد في توليد طاقتها على الماء. لدى وفاته جراء سكتة دماغية، أو سكتة نخامية كما اعتادوا تسميتها آنذاك، كان جدي يبلغ من العمر ستًّا وعشرين عاماً. ورث المعمل عن أبيه، اقترض المال، استورد مكائن صنع الأزرار من الولايات المتحدة. الدفعة الأولى من الأزرار صنعت من الخشب والعظام، أما الأنيقة منها فصنعت من قرون الأبقار. المكونان الأخيران كان من السهل الحصول عليهما وتقريباً بالمجان من المسالخ الموجودة في المناطق المجاورة، أما الخشب فكان ممتداً على كل الأرجاء، يعيق بسط الطرق، والناس أخذوا يحرقونه لمجرد التخلص منه. مع مواد خام رخيصة وعمالة رخيصة وسوقٍ متسع، كيف كان لجدي أن يفشل في بناء ثروته؟

الأزرار التي أنتجتها شركة جدي لم تكن بأنواع الأزرار التي راقت لي كفتاةٍ صغيرة. لا أزرار عرق اللؤلؤ، ولا أزرار الكهرمان الأسود الرقيق، ولا الأزرار الجلدية البيضاء التي تزدان بها قفازات النساء. أزرار العائلة كانت بمثابة الجرموق للحذاء – أزرارٌ عملية متبلّدة الحس، أزرار المعاطف والأردية السروالية وقمصان العمل، يشوبها حتى شيءٌ من الفظاظة والفجاجة. إذ لك أن تتخيلها على السراويل الداخلية الطويلة تمسك بحاشية الجيب الخلفي، وعلى السحاب الأمامي للبناطيل الرجالية. ما تستره متهدل، سريع العطب، مخجل، شرٌّ لا بد منه – فئة الأشياء التي يحتاجها العالم لكن يزدريها.

من الصعب عليّ تخيل الرونق الساحر الذي ارتبط بحفيدات رجلٍ يصنع أزراراً كهذه، إلا إن كان الثراء هو السبب. فالثراء أو حتى سمعة الثراء لطالما أعمى الأبصار

بضوئه الساطع، لذا كان من المحتوم أن نكبر أنا وشقيقتي لورا في هالته. وفي بورت تيكونديروغا، لا أحد كان ليرى في أزرار العائلة أمراً تافهاً أو هزليًّا. الأزرار كانت تؤخذ بمنتهى الجدية هناك: فوظائف العديد من الناس اعتمدت عليها ليجرؤ أحدهم ويستهزئ بها.

وعلى مر الأعوام اشترى جدي معامل أخرى وحولها إلى مصانع. أصبح يملك مصنعاً للنسيج ينتج فيه القمصان الداخلية والمسرولة، وآخر للجوارب، وآخر ينتج فيه آنية خزفية صغيرة مثل مِرْمدات السجائر. كان يفاخر نفسه بالأجواء التي وفرها في مصانعه: يستمع لشكاوى العمال متى ما تجرأ أحدهم على الشكوى، أبدى أسفه للإصابات التي تعرض لها عماله متى ما وصله خبرٌ بها. كان يجاري التطور الصناعي، بل يجاري بحق كل التطورات. كان أول مالك مصنع في البلدة يعتمد الإضاءة الكهربائية. رأى في وجود مسابك الأزهار فكرةً جيدة لرفع معنويات العمال – أزهار الزينية وزهور الخطم هي المفضلة لديه، فهي لا تكلف الكثير ومبهرجة وتدوم لأمدٍ طويل. صرّح أن الظروف التي وفرها للعاملات من موظفيه كانت آمنة بقدر الأمان الذي يعشنه في ردهات بيوتهن. هو افترض أنّهن يملكن ردهاتٍ في بيوتهن. افترض أن تلك الردهات آمنة. كان من طبعه أن يظن الخير في الجميع. ما كان ليتسامح أبداً مع الشرب في مكان العمل، ولا الكلام البذيء، ولا الانفلات الأخلاقي.

أو هذا ما قيل عنه في كتاب تاريخ مصانع تشايس، كتابٌ فوَّض جدي بإعداده وطباعته سراً عام 1903، في غلافٍ جلدي أخضر، لا يحوي العنوان وحسب بل كذلك توقيعه النزيه ذا الشأن العظيم ممهوراً في نقشٍ بارزٍ ذهبي. اعتاد جدي إهداء نسخٍ من تلك المذكرات التي لا طائل منها إلى معارفه من رجال الأعمال، الذين ولا بد فوجئوا بتقدمةٍ مثل هذه، وربما لا. لا بد أنهم أخذوها أمراً مسلماً به آنذاك، فإن لم يكن هذا هو الحال، لكان من المستحيل أن تسمح له جدتي آديليا بفعل ذلك.

جلستُ على مقعد الحديقة ورُحت أقضم قطعةً من الكوكيز. كانت ضخمة، بحجم روث بقرة. الطريقة التي يعدّون فيها الكوكيز هذه الأيام – تفهة، متفتتة، دهنيّة –

وجدت نفسي غير قادرةٍ على تناولها. لم تكن بالوجبة الملائمة لطقسٍ حار كهذا. كذلك انتابتني نوبةٌ خفيفة من الدوار، أظن القهوة قد تسببت بها.

وضعت الكوب جانبي وإذ بعكازي يقع عن المقعد ويُقعقع على الأرض. انحنيت جانباً، لكن لم يسعني البلوغ إليه. لحظتها فقدت توازني وأوقعت القهوة. أحسست بها تنساب إلى قماش تنورتي، كانت فاترة. متى ما وقفت ستظهر بقعةٌ بنية، وسيبدو الأمر وكأني أعاني من سلس الغائط. هذا بالتأكيد ما كان سيظنه الناس.

لمَ نفترض دوماً أن أعين الناس جميعًا، في لحظات كهذه، ستكون علينا، تحدّق ملياً بنا؟ ففي العادة لا أحد يرانا. لكن ميرا كانت. لا بد وأنها رأتني لدى قدومي؛ لا بد وأنها أبقت عينيها عليّ. هرعت خارج متجرها. "كم تبدين شاحبة! تبدين مرهقة تماماً،" قالت لي، " فلنمسح عنك تلك البقعة! فليبارك الرب روحك، هل تعنيت المسير كل الطريق إلى هنا؟ لا لن يسعك العودة سيراً! الأجدر بي أن أتصل بوالتر – سيقود بك إلى البيت".

" بإمكاني تدبر أموري،" قلت لها، " فلا أعاني من أي خطب". لكني تركتها على هواها.

آفيليون

عظامي عادت تؤلمني من جديد، كما هي عادتها في الجو الرطب. تؤلمني كما يؤلمنا التاريخ: أمورٌ مضينا عنها قدماً منذ زمنٍ بعيد، بيد أنّ صداها لا ينفك يدوّي فينا وجعاً. متى ما اشتد الألم يجافيني النوم. كل ليلةٍ أتوق إلى النوم، أجاهد لأجله؛ ومع ذلك أظل أراه يصفق مرفرفاً أمامي مثل ستارةٍ سخماء. بالطبع هناك الحبوب المنومة، لكن الطبيب حذّرني منها.

ليلة البارحة، بعدما قضيت دهراً أتقلب مهتاجة في دوامة الرطوبة الخانقة، نهضت عن فراشي وزحفت نزولاً على السلم حافية القدمين، أتلمس طريقي في الشعاع الباهت لإنارة الشارع خارج نافذة بيت السلم. لدى وصولي سالمةً إلى الأسفل، مشيت متثاقلةً باتجاه المطبخ وكما الكلب أخذت أستكشف عن طريدتي وسط ضباب ضوء الثلاجة المبهر. لم أجد ما قد أرغب بتناوله: بقايا رزمة كرفس متوحّلة، رغيف تشوب حوافه مسحة من لونٍ أزرق، وليمونة رخوة. الطرف المتبقي من شريحة جبن، ملفوفة بورقٍ دهني، متيبسة وشبه شفافة مثل أظفر قدم. كنت قد اعتنقت حياة المعتزلة؛ طعامي مختلسٌ وعشوائي. وجباتٌ خفيفة مسلوبة، نزهٌ ووجبات على حساب ضيافة الآخرين. في النهاية تدبرت أمري مع زبدة فول سوداني، غرفتها مباشرةً من المرطبان بسبابتي: فما الداع لتوسيخ ملعقة؟

وبينما كنت أقف هناك مع مرطبان الزبدة في يدي وسبابتي في فمي، تملكني شعورٌ بأن شخصاً آخر على وشك دخول الغرفة – امرأةٌ أخرى، المرأة الخفية، المالكة الشرعية – تسألني ما الذي أفعله بحق الجحيم في مطبخها. هذا الشعور كان قد

تملكني من قبل، هذا الإحساس الذي لا ينفك يراودني حتى وأنا في خضم مجريات حياتي اليومية وأكثرها شرعيةً – أقشر الموز، أفرش أسناني – وكأن بفعلي هذا انتهكت حرمة أحدهم.

في الليل يبدو البيت أكثر ما يكون مثل بيت إنسانٍ غريب. أطوف عبر غرف الجلوس، حجرة الطعام، الردهة، يدي على الجدار كي لا أفقد توازني. أرى ممتلكاتي تطفو في برك ظلالها، منفصلةً عني، تنكر شرعية امتلاكي لها. أتأملها بعين اللص، أقرر مَن مِن بينها يستحق عناء المخاطرة بسرقتها، ومن منها سأترك خلفي. اللصوص سيسرقون البديهي منها – إبريق الشاي الفضي الذي يعود لجدتي، وربما طقم الآنية الصيني المطلي يدوياً. المتبقي من طقم الملاعق الموسومة. جهاز التلفاز. لا شيء أنا حقاً في حاجةٍ إليه.

وعلى أي حال كلها سينبش فيها، أحدهم سيتخلص منها ويرميها، متى ما مت. دون ريب ميرا هي من ستحتكر المهمة لنفسها؛ فهي تعتقد أنها ورثتني عن ريناي. ستستمتع بلعب دور المحامي الموكل عن العائلة. لا أحسدها: فكل حياةٍ ما هي إلا مقلب نفايات حتى بينما نعيشها، وتضحو أكثر هكذا لحظة نتركها وراءنا. لكن إن كانت حياتنا مقلب نفايات، فهي بشكلٍ مفاجئ مقلبٌ صغير؛ لذا متى ما نظفت المكان بعد ميتٍ ما، ستكتشف بنفسك أن ما تركته في حياتك تكفيه أكياس قمامة خضراء معدودات.

كسارة البندق على صورة تمساح، زر عرق لؤلؤ وحيد من زوج وثاق الكفة، المشط الذَّبلي بأسنانه المفقودة. القداحة الفضية المكسورة، الفنجان دون صحنه، إبريق الزيت الزجاجي فاقداً توأمه إبريق الخل. عظام بيتك المبعثرة، أسماله البالية، تذكاراته الباقية. الكسر الأثرية التي تجرفها الأمواج عن حطام سفينة غارقة فترمي بها على مدى شاطئ البحر.

اليوم أقنعتني ميرا بشراء مروحةٍ كهربائية – على مسندٍ طويل، خيرٌ لي من المروحة البالية ذات الصرير التي أعتمد عليها. النوع الذي رأته مناسباً لي معروضٌ في التنزيلات

في المجمع الجديد مقابل جسر نهر جوغز. ستقود بي إلى هناك: فهي ستذهب على أي حال، لا عناء. كم يوقع الكآبة في نفسي أسلوبها المعتاد في التذرع بالحجج.

على طريقنا تجاوزنا آفيليون، أو ما كان يدعى في الماضي آفيليون، قبل أن يتحول بصورةٍ محزنة إلى ما هو عليه الآن. يدعونه اليوم فالهالا(13). ومن هو ذاك البيروقراطي الأحمق الذي وجده اسماً مناسباً يلائم دار عجزة؟ فكما أذكر، فالهالا هي المكان الذي تحط فيه رحالك بعد الممات لا قبله مباشرةً. لكن ربما قصد شيئاً ما باختياره الاسم.

موقع البيت ممتاز – على الضفة الشرقية لنهر لوفتو، تماماً لدى نقطة التقائه بنهر جوغز – جامعاً بذلك بين الإطلالة الرومانسية للأخدود والموقع الآمن لإرساء القوارب الشّراعيّة. البيت كبير لكن يبدو مكتظاً الآن، تحاصره من جانبيه بيوت البنغل المهلهلة المشيدة بعد الحرب. ثلاث نسوةٍ عجائز كن يجلسن في الشرفة الأمامية، إحداهنَّ على كرسي متحرك، تدخن خلسةً، مثل مراهقةٍ شقية في الحمام. أنا موقنة أن يوماً ما سيحرقن المكان.

لم تطأ قدماي آفيليون منذ أن حولوه؛ أتخيله وبلا شك ينضح برائحةٍ قوية من مزيج بودرة الأطفال والبول النتن والبطاطس المسلوقة لأكثر من يوم. أفضّل تذكره مثلما كان، حتى على أيامي حين بدأ البلى يدبُّ فيه – الأروقة الفسيحة بنسائمها المنعشة، المساحة المنفسحة المصقولة للمطبخ، وعاء السيفر(14) الزاخر ببتلات الزهور المجففة موضوعاً على الطاولة الصغيرة الدائرية من خشب الكرز في الرواق الأمامي. وفي الأعلى، في غرفة لورا، هناك أثر كسرةٍ على إطار المستوقد حيث أطاحت بمسند الخشب المشتعل والذي كان على هيئة كلب. تلك كانت طبيعتها. أنا الوحيدة من تعرف بهذا، الوحيدة المتبقية. من يراها – بشرتها الصافية، مظهرها المرن، عنقها الممشوق مثل عنق راقصة الباليه – يخيّل إليه أنها فتاةٌ رشيقة.

آفيليون لم تتبع معيار البلدة في تشييد البيوت من الحجر الجيري. مصممو البيت

(13) فالهالا: مثوى الشهداء أو حجرة الخلود التي تستقبل فيها أرواح الشهداء الذين قتلوا في المعارك في الميثولوجيا الاسكندنافية.

(14) السيفر –Sèvres: خزفٌ نفيس منسوب إلى بلدة سيفر الفرنسية.

سعوا وراء إضفاء ميزةٍ أكثر فرادة، وبذا شُيّدَ البيت من حصى النهر الكبير المخلوط بالإسمنت. من بعيد سترى أنه أضفى تأثيراً ثؤلوليًّا مثل جلد الديناصور أو آبار التمنّي المرسومة في الكتب المصورة. موسوليوم الطموح[15]، هذا ما أراه عليه الآن. لا يسعني أن أصفه بالبيت الأنيق، لكن في وقتٍ ما، في أعين الناس، كان بيتاً مهيباً – قصرَ تاجر، مع دربٍ خاص منحنٍ يقود إليه، بربجٍ قوطي مُجخْدَر، وشرفةٍ واسعة نصف دائرية ملتفة تطل على النهرين، الشرفة التي شهدت حفلات الشاي المقدمة للنساء في قبعاتهن المزينة بالأزهار خلال المساءات الصيفية الفاترة مستهل القرن العشرين. هناك كانت تؤدي فرق العزف الوتري الرباعية مقطوعاتها لدى إحيائها الحفلات: جدتي وصديقاتها استخدمنها كخشبة مسرح، تؤدى عليها فقراتٌ مسرحية للهواة، مع المشاعل منصوبة حولها ساعة الغسق؛ لورا وأنا اعتدنا الاختباء تحتها. أراها بدأت تبلى، تلك الشرفة؛ على أحدهم أن يعيد طلاءها.

كانت هناك سقيفةٌ فيما مضى، وحديقة مطبخٍ مسورة، ومساحات مزروعة بالنبات الزينيّ، وبركة زنابق تسبح فيها أسماكٌ ذهبية، ودفيئةٌ زجاجية قد هدموها، كان يزرع فيها السرخس وأشجار الفوشيّة، وما كان معتاداً آنذاك من أشجار البرتقال الحامض والليمون الحمشاء. كانت هناك حجرة بلياردو، وحجرة رسم وحجرةٌ صباحية، ومكتبة مع ميدوزا رخامية أعلى المستوقد – ميدوزا طراز القرن التاسع عشر، نظرتها المنيعة الفاتنة، الأفاعي تتلوى خارج رأسها كما الأفكار المكروبة. المستوقد صنع في فرنسا: كانوا قد طلبوا مستوقداً بطرازٍ آخر مع ديونيسوس والكرْم، لكن ميدوزا هي من قدِمت، وفرنسا كانت جد بعيدة لإعادة الطرد، لذا استقروا عليها.

كانت لدينا حجرة طعامٍ فسيحة معتمة، وورق جدرانها من تصميم ويليام موريس، نقشة سارق الفراولة[16]، وثريا مجدولة من زنابق الماء البرونزية، وثلاث نوافذ عالية معشّقة، شحنوها من إنجلترا، تصوِّر أحداثاً من قصة تريستان وإيزولت (تقديم

(15) الموسوليوم: ضريحٌ فخم وضخم لدفن الموتى فوق الأرض.

(16) The Strawberry Thief design

جرعة الحب في قدحٍ أحمرٍ قان: العاشقان، تريستان راكعٌ على ركبته، وإيزولت في توقٍ إليه منحنية فوقه مع شعرها الأصفر يتشلشل عليه – من الصعب رسم شعرٍ كشعرها على الزجاج، يبدو أقرب إلى مقشةٍ ذائبة: إيزولت وحدها، موهنة، في أرديتها الأرجوانية الفضفاضة، قيثارٌ على مقربةٍ منها).

تخطيط وتصميم المنزل أشرفت عليه جدتي آديليا. كانت قد توفيت قبل أن أولد، لكن مما سمعته عنها فقد كانت ناعمة كما الحرير وهادئة كما النسيم العليل، لكن مع تصميمٍ قاطع مثل منشار العظام. اهتمامها انصب على "الثقافة"، مما أضفى عليها هالةً من السلطة الأخلاقية. ما كان لينفع الأمر في أيامنا هذه: لكن الناس آمنوا حينذاك أن "الثقافة" لها أن ترفع من شأنك، تخلق منك شخصاً أفضل. آمنوا أن من شأنها أن تسمو بروحك، أو بالأحرى النساء هن من آمنّ بهذا. لم يكن قد رأين هتلر بعد في دار الأوبرا.

اسم آديليا قبل الزواج كان مونفورت. كانت تنتمي إلى عائلةٍ جذورها راسخة – أو ما اعتبر عائلةً ذات جذورٍ راسخة في كندا – الجيل الثاني من انجليز مونتريال يتقاطع مع الهوغونوتي[17] الفرنسي. أبناء مونفورت كانوا ناجحين وأغنياء – جنوا ثروةً هائلة من سكك الحديد – لكن المخاطرة في مضاربة البورصة والكسل والقصور الذاتي كلها دفعت بالعائلة على المنحدر الزلق. لذا بدأ الوقت يمر سريعاً على آديليا ولا زوجَ مقبولٌ في الأفق، هي تزوجت المال – المال الخام، مال الأزرار. كان يتوقع منها أن تهذب المال وتصفيه، مثلما هي الحال مع النفط.

هي لم تتزوج – هي أُجبرت على الزواج، قالت ليريناي ريثما ترقّق عجينة بسكويت الزنجبيل. العائلة دبّرت الأمر. هكذا كانت تجري الأمور في تلك العائلات، ومن منا له أن يحكم بأن الزواج المدبر أسوأ من الزواج بالاختيار؟ على أي حال آديليا مونفورت أدت واجبها، ومن حسن حظها أنها حظيت أصلاً بالفرصة، فقطار الزواج كان قد تجاوزها – لا بد وأنها كانت في الثالثة والعشرين من عمرها، عمرٌ يفوق بأعوام السن المتوقع للزواج.

---

(17) الهوغونوتي: البروتستاني الفرنسي.

لا أزال أحتفظ بصورة جدي وجدتي؛ إطارها فضي موشى بنقوش أزهار اللبلاب، التقطت مباشرةً بعد الزفاف. في الخلفية ستارة مخملية حاشيتها مهدبة ومنضدتان تعلو كل منهما نبتة سرخس. جدتي آديليا تتّكئ على كرسيّ الشيزلونج، جفناها منسدلان، امرأةٌ جميلة، في ثوبٍ ذي طيات فضفاضة يعلوه عقدٌ طويلٌ مزدوج من اللآلئ مع ياقةٍ غائرة حاشيتها مزخرفة بالدانتيل. جدي بنجامين يجلس خلفها مرتدياً طقمه الرسمي، ثريٌّ موسر لكن مُحرَج، وكأنه تورتة حشوها وقدموها بمناسبة الزفاف. كلاهما يبدوان وكأنهما يرتديان مشداً.

حين بلغت العمر المناسب لأحلام اليقظة – الثالثة أو الرابعة عشر – اعتدت إضفاء هالةٍ رومانسية على آديليا. كنت أتأمل الليل من نافذتي، عبر المروج الخضراء ومساكب أزهار الزينة بلون القمر الفضي، فأراها تمشي الهوينا عبر الحديقة، تواقةً حزينة، في ثوب حفل الشاي الأبيض من الدّانتيل. كنت قد رسمتُ على محياها ابتسامةً واهنة ضجرة من الحياة مع لمحة تهكم. ثم سرعان ما أضفت لها عشيقاً. هي ستلتقي بعشيقها خارج الدفيئة الزجاجية، والتي على أيامي باتت مهملة – فأبي لم يكترث البتة لأشجار البرتقال الاستوائية – لكن في خيالي كنت قد بعثت فيها الحياة من جديد، وملأتها بالأزهار المستنبتة المنزلية. تخيلت زهور الأوركيد وبرفقتها الكاميليا. لم أعرف حينها ما زهور الكاميليا، لكني قرأت عنها. جدتي وعشيقها سيدخلان ويتواريان عن الأنظار، ويفعلان ماذا؟ ما كنت لأدري.

في واقع الأمر فاحتمال أن تحظى آديليا بعشيق كان معدوماً. فالبلدة جد صغيرة، ونظامها الأخلاقي قروي ومحدود الأفق، والهاوية التي كانت ستقع فيها جد سحيقة. هي لم تكن بالمرأة الغبية. كذلك هي لم تملك مالها الخاص.

بصفتها المضيفة ومديرة المنزل فقد أدت آديليا واجبها بحق اتجاه بنجامين تشايس. كانت تفاخر نفسها بذوقها، وجدي أذعن لها في تلك الأمور لأن ذوقها من المزايا التي تزوجها لأجلها. كان في الأربعين من عمره آنذاك؛ كان قد جاهد في بناء ثروته، وجاء الوقت لينعم بها، وهو ما يعني الزواج من عروسٍ جديدة تتعامل معه بازدراء حول ذوقه في اختيار ملابسه وتُرهبه على الالتزام بآداب المائدة. بطريقته الخاصة هو

الآخر سعى نحو اكتساب "الثقافة"، أو على الأقل الحصول على دليلٍ دامغ بتمتعه بها. هو أراد الخيار الصحيح لطقم الآنية الصيني.
وقد حصل على مبتغاه، مع الاثني عشر طبقاً المقدمة على مائدة العشاء: يستهل بالكرفس والمكسرات المملحة، ويختم بالشوكولا. وبين الاستهلال والختام تتوالى أطباق مرق العظام، الكفتة، الطُّمبل[18]، السمك، اللحم المشوي، الجبنة، الفاكهة، عناقيد العنب المستنبت في الدفيئة تتدلى على إناء الفاكهة الزجاجي المنقوش وسط المائدة. رؤساء الوزارة اعتادوا القدوم إلى بورت تيكونديروغا – إذ ضمت البلدة آنذاك رجال صناعة بارزين ودعمهم للأحزاب السياسية كان محل تقديرٍ كبير – وآفيليون كانت محل إقامتهم. هناك صورٌ لجدي بنجامين مع ثلاثة رؤساء وزارة مرتبة زمنياً، مؤطرة بالذهب ومعلقة في المكتبة – السير جون سبارو تومبسون، السير ماكينزي بويلو، السير تشارلز تبر. لا بد أنهم فضلوا الطعام هناك على أي عرضٍ آخر.
مهمة آديليا قضت بتصميم وإعداد ولائم العشاء، ثم تجنب التهام الطعام على مرأىً من أعين الضيوف. فالتقاليد قد أملت عليها أن تتلقط الطعام في صحنها دون شهية متى ما كانت في صحبة الآخرين: المضغ والبلع اعتبرا مظاهر شهوانية وقحة. أظنها كانت تأمر بإرسال صينية إلى غرفتها لدى انتهاء الوليمة. وهناك التهمت طعامها بأصابعها العشر.

اكتمل بناء آفيليون عام 1889، وآديليا من عمّدته. استوحت الاسم من قصيدةٍ للشاعر تنيسون[19]:

(18) الطمبل – timbale: مزيجٌ من لحمٍ وخضر يخبز في قالب.
(19) الاقتباس من قصيدة: Morte d'Arthur – موت آرثر ويروي فيها الشاعر الفيكتوري ألفريد تنيسون الساعات الأخيرة من حياة الملك آرثر بعد تعرضه للهزيمة في أرض المعركة وإصابته بجرحٍ مميت، وقراره التوجه إلى جزيرة آفيليون للاستشفاء.

إلى جزيرة الوادي آفيليون
حيث لا الشلالات تنهمر بَرَداً
لا السماء تثلج وتمطر
ولا حتى ريحٌ تعصف.
إنّما تستلقي في قلب مروجها الخضراء
سعيدةً
جميلة
على مدى أشجار بساتينها
حيث الوديان الظليلة بتعاريشها مكللةٌ ببحر الصيف...

كانت تأمر بطباعة هذا الاقتباس على الزاوية الداخلية اليسرى من بطاقات الكريسماس. (كان نجم تنيسون قد بدأ يأفل في سماء الأدب الإنجليزي – وأوسكار وايلد من بدأ نجمه يسطع – لكن آنذاك، بورت تيكونديروغا كانت في مؤخر الركب فيما يتعلق بكل الأشياء).

لا بد وأن الناس – أهل البلدة – قد ضحكوا عليها لدى قراءتهم الاقتباس: حتى أبناء العائلات المدّعية قد أشاروا إليها باستهزاء بصاحبة العصمة أو الدوقة، رغم تألمهم في حال لم تشملهم لائحة دعوات آديليا. لا بد أنهم علقوا على بطاقات الكريسماس قائلين: حسنٌ. لقد خانها الحظ بشأن البَرَد والثلج. ربما ستشكو أمرها للرب. أو لربما عمال المصانع جاءت تعليقاتهم على هذا النحو: هل رأى أحدكم ودياناً ظليلة بتعاريشها في الأرجاء. أي مكان. عدا طبعا أسفل فستانها؟ أعرف أسلوبهم في الكلام وأشك أن تغييراً قد طرأ عليه.

آديليا كانت تستعرض ثقافتها على بطاقة الكريسماس، لكني أؤمن بوجود معنىً أعمق وراء الاقتباس. فآفيليون هي المثوى حيث رحل الملك آرثر كي يموت. لا بد وأن اختيار آديليا للاسم جاء معبراً عن مدى اليأس الذي غمرها ريثما تقضي حياتها فيما اعتبرته منفى: ربما ظنّت أنها بمحض قوة إرادتها ستستحضر صورةً زائفة

طبق الأصل عن الجزيرة السعيدة[20]. لكن مهما جاهدت، تبقى الصورة زائفة. هي رغبت بصالونٍ أدبي؛ رغبت باستضافة أهل الفن والأدب، الشعراء والموسيقيين والمفكرين والعلماء ومن هم على شاكلتهم، تماماً مثل الصالونات التي حضرتها أثناء زيارتها لأقربائها في إنجلترا، أيام كانت عائلتها لا تزال تملك الثروة. هي تمنت الحياة الذهبية بمروجها الخضراء.

لكن ما كنت لتعثر على أناسٍ كهؤلاء في بورت تيكونديروغا، وبنجامين رفض الترحال معها إلى أوروبا. احتاجَ إلى البقاء قرب مصانعه، هذا ما قاله لها. لكن أغلب الظن لم يرغب بأن تجره آديليا إلى حشدٍ ما يستهزئ به كونه صانع أزرار، أو يجلس إلى مائدةٍ فيجد في انتظاره ملعقةً أو سكيناً يجهل ما يفعل بها فتحرج آديليا منه.

وآديليا رفضت السفر من دونه، إلى أوروبا أو أي مكانٍ آخر. لربما خشيت ضعفها أمام إغواء الرحيل فلا تعود أبداً. أن ينتهي بها المآل تهيم على وجهها، المال يتساقط عنها تدريجياً كما ينفشُّ المنطاد، أن تقع ضحيةً للملذات مع الأنذال والسفلة من أبناء المدينة، فتغرق يوماً بعد يوم في المجهول. مع تقويرةٍ كهذه، بالتأكيد كانت ستغدو عرضةً لمصيرٍ كهذا.

ومن بين الأمور التي هوتها آديليا، التماثيل. فعلى جانبي الدفيئة الزجاجية تمثالان لأبي الهول – أنا ولورا اعتدنا التسلق على ظهريهما – وتمثالٌ لإله الحقول فون يثب مرحاً، في عينيه نظرةٌ خبيثة تحدق بك من خلف مقعد الحديقة الحجري، أذناه مستدقتان وورقة عنبٍ ضخمة تستر عورته وكأنها شارةُ موظفٍ مكتبي؛ وإلى جانب بركة الزنابق كانت هناك حورية، فتاةٌ محتشمة بنهديْ مراهِقة صغيرين وضفيرةٍ رخامية تنسدل على كتفٍ واحدة، كانت قد غمست مترددةً إحدى قدميها في الماء. اعتدنا تناول التفاح إلى جانبها، نتأمل الأسماك الذهبية تقضم برفقٍ أصابع قدمها. (قيل إن تلك المجموعة من التماثيل "أصلية"، لكن بأي معنى كانت أصلية؟ وكيف تسنى لآديليا اقتناؤها؟ أظنها تحصّلت عليها إثر سلسلة عملياتٍ من النصب – وسيطٌ أوروبيٌّ مشبوه يلتقط تلك التماثيل بسعرٍ بخس، يزوّر مصدرها، ثم

(20) الجزيرة السعيدة: إشارة إلى إنجلترا.

يشحنها على سفينة عبر المحيط إلى آديليا ويبيعها اياها بسعرٍ باهظ واضعاً الفرق في جيبه، إذ يرى، ورأيه في محله، أن ثريةً أمريكية – فبالتأكيد هكذا صنفها – لن تفطن أبداً للأمر).

آديليا هي أيضاً من صمم ضريح مقبرة العائلة، مع الملاكيْن. أرادت من جدي أن ينبش عظام أسلافه ويعيد دفنها هناك كي يعطي الانطباع بانتمائه إلى سلالة، لكنه ظلّ يؤجل الأمر. في النهاية كانت آديليا نفسها أول من دفن فيها.

هل تنفّس جدّي بنجامين الصعداء لدى رحيل آديليا؟ فربما قد سئم من معرفته أنه لن يرتقيَ أبداً إلى معاييرها الدقيقة، رغم وضوح إعجابه بها حدَّ الرهبة. إذ لم يسمح لأي شيءٍ في آفيليون أن يتزحزح قيد أنملة عن مكانه: فلا صورة فيه انتقلت، ولا قطعة أثاثٍ تبدلت. ربما رأى في البيت ضريحها الحقيقي.

وهكذا تربينا أنا ولورا على يديها. كبرنا داخل بيتها؛ أيْ داخل مفهومها عن نفسها، وداخل توقعاتها عمّا يجب أن نكون عليه، ولم نكن عليه. وبما أنها كانت متوفية آنذاك، فما كان من سبيلٍ للجدال.

أبي كان أكبر الأبناء الثلاثة، كلٌّ منهم حمل اسماً رنّاناً من اختيار آديليا: نورفال وإدغار وبيرسيفال، فيما يُشبه إعادة إحياءٍ لبلاط الملك آرثر مع لمحةٍ من واغنر. يجدر بهم أن يكونوا شاكرين أنها لم تطلق عليهم أسماء مثل أوثر أو سيغموند أو آلرخ. جدي بنجامين شُغِف بأبنائه، وأراد منهم أن يتعلموا تجارة الأزرار، لكن آديليا كانت قد وضعت لأبنائها أهدافاً عالية المقام. أرسلتهم جميعاً إلى مدرسة جامعة ترينيتي في بورت هوب بعيداً عن متناول بنجامين وآلاته، فما كانت لتقبل أن يتحول أبناؤها رجالاً خشنين كأبيهم. هي قدرت ثروة بنجامين، لكنها فضلت أن تصقل مصدر الثروة.

الأبناء عادوا إلى بيتهم في العطل الصيفية. إبان أعوامهم في المدارس الداخلية ومن بعدها الجامعة، كانوا قد تعلموا كيف يزدرون أباهم بلطف، فهو لا يقرأ اللاتينية، ولا حتى بشكلٍ سيء، بينما هم يقرؤونها بإتقان. كانوا يتبادلون الأحاديث عن أناسٍ لا يعرفهم، يغنون أغانٍ لم يسمعها من قبل، ويلقون نكاتٍ لا يفهمها. كانوا

يبحرون تحت ضوء القمر على يخته الصغير حورية الماء، اليخت أيضاً كان قد تعمّد على يد آديليا في لمحةٍ أخرى عن حزنها القوطي. كانوا يعزفون على الماندولين (إدغار) والبانجو (بيرسيفال) ويتجرعون البيرة سراً ويفسدون الحبال والصواري، ثم يخلفون وراءهم كل ما أفسدوه لأبيهم كي يعيد ترتيبه من جديد. كانوا يقودون إحدى سيارتيه الجديدتين، مع أن الطرق حول البلدة كانت في حالٍ سيئة معظم السنة – ثلجٌ ثم وحلٌ ثم غبار – بحيث لم يكن هناك من طرقٍ تصلح للقيادة عليها. سرت الإشاعات عن الفتيات الخليعات، على الأقل فيما يخص الابنين الأصغرين، وعن أموالٍ تبادلتها الأيدي – فمن الشهامة أن تدفع لتلك الفتيات كي يصلحن الوضع، فمن ذا الذي يرغب برضَّع غير شرعيين من أبناء تشايس يدبّون في كل الأرجاء؟ – لكن الخليعات لم يكنَّ من فتيات بلدتنا، لذا لم يلق أحدهم باللوم على الأبناء، فاللوم يقع على الفتيات، على الأقل هذا كان الرأي السائد بين الرجال. إلى حدٍّ ما سخر منهم الناس، لكن ليس إلى درجةٍ كبيرة: فقد قيل عنهم إنهم كانوا موضع ثقة وحصفاء بما فيه الكفاية، كذلك كانوا متواضعين ولطفاء مع أهل البلدة. كانوا ينادون على إدغار وبيرسيفال بإيدي وبيرسي، أمّا أبي، كونه الأكثر خجلاً ووقاراً بين الثلاث، فقد بقي على اسمه نورفال. كانوا فتياناً وسماء، طائشين بعض الشيء، كما يتوقع دائماً من الأولاد. لكن ما الذي نعنيه حقاً "بالطيش"؟

"كانوا أولاداً مشاغبين،" قالت لي ريناي، "لكن أبداً ما كانوا بأوغاد".

"وما الفرق؟" سألتها.

تنهدت من قلبها قائلةً، "أتمنى ألا تعرفي أبداً".

آديليا توفيت عام 1913، بمرض السرطان – كان مرضاً مجهول الاسم آنذاك فاعتبروه تشكيلةً منوّعة من أمراض النساء. إبان الشهر الأخير من مرضها، أحضروا والدة ريناي إلى البيت كعاملةٍ إضافية في المطبخ، وريناي قدمت معها: كانت آنذاك في الثالثة عشر من عمرها، والحال برمته قد خلّف أثراً عميقاً في نفسها. "الألم كان من الفظاعة بمكان أنهم اضطروا إلى حقنها بالمورفين كل أربع

ساعات، الممرضات لازمن فراشها على مدار الساعة. لكنها ما كانت لتبقى حبيسة فراشها، كانت تعض على نواجذها وتنهض كل يوم وترتدي ثيابها بأجمل حلة كما هي عادتها، حتى وإن كان من الواضح للجميع أنها شبه فاقدة لعقلها. اعتدتُ رؤيتها تمشي في الأرجاء في ألوانها الشاحبة وقبعتها الكبيرة ذات الخمار. تلك المرأة تمتعت بوقفةٍ جميلة وعزيمةٍ فاقت عزيمة معظم الرجال. في النهاية لم يجدوا من حل سوى ربطها بالحبال وشد وثاقها في فراشها، فعلوا ذلك لمصلحتها. جدك كان مفطور القلب، كان جلياً أن المصاب قد استنفد كل قواه". مع مضي الوقت والصعوبة التي لقيتها ريناي في إثارة اهتمامي، أخذت تضيف على القصة الصرخات المخنوقة والنواح والأنين ونذور فراش الموت، وما كنت أبداً واثقة من نيّتها. فهل كانت تحاول القول لي أن عليّ التمتع بذات التحدي والجلد، بذات الصبر على الألم، بذات فضيلة العض على النواجذ – أو كانت فقط تتلذذ بإضافة التفاصيل المرعبة؟ كلاهما، دون أي شك.

في الوقت الذي توفيت فيه آديليا، أبناؤها الثلاثة كانوا قد دخلوا مرحلة الشباب. هل اشتاقوا لأمهم، هل رثوها؟ بالطبع. فكيف لهم ألا يكونوا ممتنين على تكريسها حياتها لأجلهم؟ ومع ذلك، ففي حياتها اعتادت أن تحكم القيد عليهم، تشدهم إليها من أطواقهم، أو بقدر ما تسنى لها من الشد والإحكام. فلا بد وأن القيد قد انفلت والطوق انكسر بمجرد أن دفنوها وفق الأصول تحت الأرض وهالوا عليها التراب.

لا أحد من الأبناء الثلاثة رغب بالعمل في صناعة الأزرار، فهم ورثوا عن أمهم ترفعها عن تلك الصناعة، بيد لم يرثوا عنها واقعيتها. هم كانوا مدركين أن المال لا ينبت على الأشجار، لكن كل واحد منهم كانت له فكرته الذكية عن المصدر الجديد لماله. نورفال – أبي – ظنّ أن بإمكانه دراسة القانون ثمّ الالتحاق بالعمل السياسي، إذ ملك في جعبته الكثير من الأفكار لتطوير وتحسين ظروف البلد. أما الأخوان الأصغران فقد رغبا في الترحال: كانا ما إن ينهي بيرسي دراسته الجامعية سيشدّا الرحال في بعثة تنقيب في أمريكا الجنوبية، في رحلة بحثٍ عن الذهب. إغراء الطريق المفتوح.

من تبقى إذاً لاستلام إدارة مصانع تشايس؟ ألن يكون هناك من تشايس وأبناؤه؟ فإن لم يكن، فلماذا نشب بنجامين أظفاره في الأرض يحفر طريقه كي يبني هذه الصناعة؟ في ذاك الوقت أقنع بنجامين نفسه أنه فعل كل هذا من أجل سببٍ ما لا علاقة له بطموحه ولا برغباته، بل لأجل غايةٍ نبيلةٍ ما. لكن في الحقيقة هو بنى إرثاً، وتمنى أن يورثه، من جيلٍ إلى جيل.

لا بد أن أحاديث العشاء، حول كؤوس النبيذ، قد حملت في قلبها نبرةً تأنيبية. لكن الأولاد ضربوا بحوافرهم الأرض وتشبثوا بموقفهم. لا يسعك أن تجبر شاباً على تكريس حياته لصناعة الأزرار رغم مشيئته. لم تكن نيتهم أن يخيبوا أمل أبيهم، ليس عمداً، بيد أنها لم تكن بأمنيتهم أن يرفعوا على أكتافهم الحمل الثقيل الوعر والموهن عن كتفي أبيهم، لم يشأ أحدهم أن يحمل على عاتقه نيْر مشاغل الحياة الدنيوية.

جهاز العروس

ابتعنا المروحة الجديدة. أرسلوا إلينا قطعها في علبةٍ كرتونيةٍ كبيرة، وتولى والتر تركيبها بعد أن جاء إليّ يجرّ صندوق أدواته، ثم أخذ يجمع أوصالها بالبراغي. لدى انتهائه منها قال: "ها قد أصلحتها".

القوارب إناث في عيني والتر، وكذلك المحركات المعطلة والمصابيح المكسورة وأجهزة المذياع – أي غرضٍ يتسنى لرجلٍ بارعٍ بيديه ومولعٍ بالأدوات أن يعبث به، فيعيده إلى الحياة وكأنه ولد من جديد، هي أنثى. لماذا أجد في هذا أمراً مطمئناً؟ ربما لأنني أؤمن، بنظرةٍ طفوليةٍ ما، في ركنٍ عميق من روحي حيث لا يزال قبسٌ من إيمان، أن والتر قد يتناول كماشته الصغيرة ومجموعة السقاطات ويفعل ذات الشيء معي.

المروحة الطويلة وضعت في غرفة النوم. أما القديمة فسحبتها إلى الأسفل ووضعتها في الشرفة، وصوبتها نحو مؤخر عنقي. الإحساس لطيف لكن مثيرٌ للأعصاب، كأنما يدٌ من نسيمٍ عليل ملقاةٌ بحنان على كتفي. الآن وقد تهوّيت، أجلس إلى طاولتي الخشبية، أخدش الورق بقلمي. لا، لا أخدش – فالأقلام ما عادت تخدش. الكلمات تتدحرج سلسةً هادئة على الورق؛ بيد أنّ الدفع بها في عروق ذراعي، عصرها من أطراف أناملي، هو ما يجهدني.

ها هو الغسق يزف. لا نسيم في الأجواء؛ تيار منحدرات النهر المنجرف يغمر الحديقة بصوته بادياً كما النفس الطويل. الأزهار الزرقاء امتزجت بالأثير، الحمراء منها ضاربةٌ نحو السواد، البيضاء منها مضيئة، هالتها فسفورية. زهور التوليب تطرح عنها بتلاتها، تاركةً مدقاتها عارية – سوداء، تشبه الفنطيسة، وجنسية. أزهار عود

الصليب تكاد تذبل، متسخة وبالية ومترهلة مثل منديلٍ ورقيٍّ رطب، لكن الزنابق أزهرت؛ وكذلك زهور القبَس. آخر البرتقالات الكاذبة أسقطت أزهارها، العشب من أسفلها مكسوٌّ بالنّثار الأبيض.

في يوليو من عام 1914 تزوجت أمي بأبي. مع كل ما كان يجري حولي، ارتأيت أن زواجهما يستحق التفسير.

أملي الوحيد كانت ريناي. لدى بلوغي السن المناسب للاهتمام بأمور كهذه – العاشرة، الحادية عشر، الثانية عشر، الثالثة عشر – اعتدت الجلوس على طاولة المطبخ وأفتح القفل على خزنة ذاكرتها كما اللص.

لم تكن ريناي قد بلغت السابعة عشر من عمرها حين أتوا بها إلى آفيليون كي تعمل بدوامٍ كامل، كانت تعيش في أحد البيوت المصفوفة على الضفة الجنوبية الشرقية من نهر جوغز حيث سكن عمّال المصانع. أخبرتني أنها إيرلندية وأسكتلندية، لكن بالتأكيد ليست بإيرلندية كاثوليكية، ما يعني أنّ جدتيها كانتا كذلك. كانت قد بدأت العمل في البيت حاضنةً لي، لكن مع استمرار ترك الخادمات العمل والاستنزاف الشديد في اليد العاملة أضحت ريناي عماد البيت. كم كان عمرها آنذاك؟ ليس من شأنك، كبيرة كفاية لأحسن التصرف. فإياك وأن تعاودي السؤال. إن حاول أحدهم أن ينخس في شؤون حياتها تقوقعت والتزمت الصمت. حياتي من شأني أنا وحسب، كان ردها عليّ. كم بدا لي حصيفاً قولها آنذاك. أما الآن فكم يبدو تصرفاً بخيلاً.

لكنها كانت ملمة بتاريخ العائلة، أو على الأقل ملمة بشيءٍ من تاريخها. فسردها التاريخي تفاوتت تفاصيله وفقاً لعمري، وأحياناً وفقاً لمدى شرود ذهنها. على أي حال، بتلك الطريقة كنت قد تمكنت من جمع ما يكفي من شظايا الماضي لأعيد بناءه، والذي بالتأكيد كان يحمل من الشبه للواقع ما تحمله لوحة الفسيفساء للأصل. عموماً أنا لم أسع للواقعية: أردت قصةً مشعة بالألوان، محددة بخطوطٍ بسيطة، نقيةً من أي التباس، فهذا ما يسعى إليه معظم الأطفال متى ما تعلقت

الحكاية بآبائهم وأمهاتهم. يريدون بطاقةً بريدية.

تقدم أبي بطلب الزواج من أمي كما قالت ريناي في حفل تزلج. كان هناك نهيرٌ صغير – بركة طاحونٍ قديم – صوب أعلى النهر من الشلالات، حيث يجري الماء ببطء. متى ما اشتد البرد شتاءً، صفحةٌ رقيقة من الجليد تكسو النهير، سميكة بما يكفي للتزلج عليها. وقتها شباب الكنيسة كانوا يقيمون حفلات تزلج، لم يطلقوا عليها "حفلة" آنذاك، بل "نزهة".

أمي من أتباع الكنيسة الميثودية، وأبي كان أنجليكانيًّا: ما يعني أنّ أمي كانت أدنى اجتماعياً من أبي. تلك الأمور تؤخذ بالحسبان آنذاك. لو كانت جدتي آدليا على قيد الحياة لما سمحت أبداً بهذا الزواج، أو هذا ما قررته أنا لاحقاً. فأمي أدنى بكثير من أبي على السلم الاجتماعي – كذلك كانت محتشمة جداً، جدية جداً، وقروية جداً. لجرّت آدليا أبي إلى مونتريال وأجبرته، على الأقل، على الارتباط بمستهلّة[21]. امرأة مع ذوقٍ رفيع في الثياب.

أمي كانت في مقتبل عمرها، في الثامنة عشر وحسب، لكنها لم تكن بالفتاة السخيفة المتهورة، وفقاً لكلام ريناي. كانت معلمة: كان مسموحاً للفتيات آنذاك أن يتولين مهنة التعليم طالما لم يبلغن سن العشرين بعد. لم تكن مضطرةً لذلك: فوالدها هو المحامي الأقدم لدى مصانع تشايس، وعائلتها كانت " ميسورة الحال ". لكن، على خطى أمها من قبل، والتي توفيت حين كانت طفلة في التاسعة من عمرها، فقد أخذت أمي الدين على محمل الجد. آمنت أن من واجبها مساعدة من هم أقل حظاً منها. تولت تعليم الفقراء وكأنها تحمل رسالةً تبشيرية، كذا وصفتها ريناي بكل إعجاب. (من عادة ريناي أن تعجب بأعمال أمي الصالحة والتي ما كانت هي نفسها لتؤديها إذ رأت فيها أعمالاً غبية. أما بالنسبة للفقراء فقد كبرت بينهم واعتبرتهم ثلةً من غير المبالين ولا فائدة ترجى منهم. لك أن تنهك نفسك حتى الموت في تعليمهم، لكن مع أغلبهم فكل ما تفعله حقيقةً هو نطح رأسك بالجدار، هذا ما اعتادت ريناي قوله، لكن أمك. فليبارك الرب قلبها الطيب. ما كانت أبداً لترى الحقيقة).

---

(21) مستهلّة: فتاة تظهر للمرة الأولى في الحفلات الاجتماعية.

هناك لقطةٌ خاطفة لأمي في مدرسة نورمال، في لندن – أونتاريو، بصحبة فتاتين: الثلاث يقفن على الدرجات الأمامية للسكن الداخلي، أذرعتهن متشابكة ويضحكن. ثلج الشتاء متكدسٌ على الجانبين؛ كتل الدلاة الجليدية تتدلى من السقف. أمي ترتدي فقميّة[22]، ومن تحت قبعتها تنسل نهايات خصل شعرها الجميل متقصفةً. لا بد أنها في ذاك الوقت كانت قد ارتدت النظارة الأنفية والتي سبقت النظارة البومية التي أذكرها – فقد كانت تعاني من قصر البصر منذ سنٍ مُبكّرة – لكن لا نظارات عليها في هذه الصورة. أرى إحدى قدميها في جزمتها الفروية، كم بدت مغناجةً بكاحلها المكشوف. بدت شجاعةً، مختالةً حتى، مثل قرصانٍ صبياني.

بعد تخرجها، قبلت منصب التعليم في مدرسةٍ من غرفةٍ واحدة، بعيداً في الشمال الغربي، في المنطقة التي كانت تدعى آنذاك بالقرى النائية. كانت جد مصدومة بما عايشته هناك – الفقر، الجهل، القمل. كانوا يخيطون الملابس الداخلية على الأطفال فصل الخريف ولا يفكون الخيوط عنها إلا لدى قدوم الربيع، تفصيلٌ قذرٌ وبائس ما زال حياً في ذاكرتي. بالطبع، ريناي قالت، لم يكن بالمكان الذي يليق بسيدةٍ مثل والدتك.

لكن أمي شعرت بأنها تنجز شيئاً – تفعل شيئاً – ولو في سبيل مساعدة قلةٍ من الأطفال البائسين، أو هذا ما أملته؛ ثم عادت إلى منزلها في عطلة الكريسماس. شحوب لونها وهزالها كانا مثار تعليقات الجميع: كان لا بد للزهور أن تتفتح على وجنتيها. وهكذا اصطحبوها إلى حفل التزلج، على بركة الطاحون المتجمدة، برفقة أبي. عقد رباط مزلجها أولاً، راكعاً على ركبةٍ واحدة.

كانا على معرفةٍ سابقة من خلال والديهما. وجمعت بينهما لقاءاتٌ عابرة محتشمة. كانا قد مثّلا سوياً، في آخر عروض آديليا المسرحية في حديقتها – هو أدى دور فرديناند، وهي دور ميراندا، في نسخةٍ مهذبة ومنقحة من مسرحية العاصفة[23] حيث الجنس وكاليبان مختصران إلى الحد الأدنى. وقفت في فستانها الزّهري الصّدَفي، قالت

(22) الفقمية: معطف مخاط من جلد الفقمة.

(23) The Tempest: من مسرحيات وليام شكسبير

ريناي، تحمل بين يديها إكليلاً من الزهور؛ وألقت الكلمات بكل مثالية، وكأنها ملاك. أيها العالم الجديد الشجاع. بأناسٍ مثل هؤلاء! في عينيها المبهرَتين، الصافيتين الحاسرتين، نظرةٌ تائهة. ولكِ أن تري الشرارة التي ابتدأت بها قصتهما.

كان بوسع أبي البحث عن زوجةٍ في مكانٍ آخر، زوجةٍ تملك ثروة، لكني أظنه سعى وراء الحقيقي والمجرّب: شخصٍ يمكن الاعتماد عليه. رغم روحه المفعمة بالحيوية - إذ على ما يبدو ففيما مضى كانت روحه مفعمة بالحيوية - فقد كان رجلاً جديًّا، هذا ما قالته ريناي، في تلميحٍ منها أن أمي ما كانت لتقبل به زوجاً لو كان عدا ذلك. فكلٌّ منهما بطريقته الخاصة أخذ حياته على محمل الجديّة؛ كلاهما سعى وراء تحقيق غايةٍ نبيلةٍ ما، تغيير العالم إلى الأفضل. آه كم هي مغرية، كم هي محفوفة بالمخاطر، تلك المثاليات!

بعد أن تزلقا حول البركة عدة مرات، طلب أبي يد أمي للزواج. أتوقعه سألها مربكاً، لكن الربكة التي تنتاب الرجال في مواقف كهذه كانت تؤخذ علامةً آنذاك على صدق نواياهم. في تلك اللحظة، رغم أن جسديهما ولا بد كانا متلامسين عند الكتف والورك، فلا أحد منهما كان ينظر نحو الآخر. كانا يتزلقان جنباً إلى جنب، يضمان يديهما اليمنتين أمامهما واليسرتين خلفهما. ويا ترى ما الذي كانت ترتديه أمي ساعتها؟ ريناي تملك الإجابة على هذا السؤال أيضاً. وشاحٌ منسوجٌ أزرق، قلنسوة صوفية وقفازان مطابقان. كانت قد حاكتها كلها بنفسها. معطفٌ شتوي يصلح لمسافات السير الطويلة، لونه أخضر كمعاطف الصيادين. منديلٌ مطرز مدسوسٌ في كمّها - غرضٌ لم تنسه أبداً، وفقاً لريناي، على خلاف بعض الناس الذين تعرفهم ولن تسميهم.

وما الذي فعلته أمي في تلك اللحظة المصيرية؟ أخذت تنعم النظر في الثلج. لم تجبه لحظتها. صمتها كان دلالة الرضا.

من حواليهما الثلوج غطت الصخور والدلاة الجليدية البيضاء تدلّت - كل ما حواليهما أبيض. من تحت قدميهما الجليد، أبيض كان هو الآخر، ومن تحت الجليد مياه النهر، بدواماتها وتياراتها تحت السطح، مظلمة لا تبصرها العين. هكذا

تصورت ذاك الزمن، الزمن السابق لولادتي وولادة لورا- صفحةً بيضاء، بريئةً جداً، راسخة في ظاهرها، لكن تبقى جليداً رقيقاً في حقيقتها. من تحت السطح كل الأمور التي لم تُقَل، تُرِكت تفور وحدها على مهل.

ثم جاء الخاتم، والإعلان الرسمي في الصحف؛ بعدها – ما إن أنهت أمي السنة الدراسية في التعليم، والذي رأته واجباً لزاماً عليها أداؤه – استهلت حفلات الشاي. تلك الحفلات كانت تعد على أكمل وجهٍ من الجمال، مع شطائر لفائف الهليون وشطائر البقلة المائية، وثلاثة أنواعٍ من الكعك – بالكريما، بالشوكولا، والفاكهة – والشاي يقدم في أطقم تقديمٍ فضية، مع باقات زهورٍ على الطاولة، بيضاء أو زهرية وربما صفراء فاتحة، لكن لا زهور حمراء. فالزهور الحمراء لا تنتمي إلى حفلات شاي الخطوبة. لماذا؟ ستعرفين الإجابة لاحقاً قالت ريناي.

ثم جاء الدور على جهاز العروس. وكم استمتعت ريناي بسرد تفاصيل الجهاز – قمصان النوم، طقم البنوار، وطراز التخريم عليها، أغطية الوسائد مطرزٌ عليها وسم الأحرف الأولى، الملاءات والتنانير التحتية. تحدثت عن حُجَر الملابس وأدراج البوريه وخزائن الأغطية والملاءات الكتانية، وما نوع المنسوجات التي تنتمي لكلٍّ منها وكيف تطوى بأناقة. لم يكن من ذكرٍ للأجساد التي في النهاية ستنسدل عليها تلك المنسوجات: فحفلات الزفاف، وفقاً لريناي، هي في حقيقتها مسألة ملابس، على الأقل في ظاهرها.

ثم جاء الدور على قوائم الضيوف كي تُعدّ، على الدعوات كي تكتَب، والزهور كي تُصطَفى، وهكذا دواليك إلى أن حان يوم الزفاف.

بعدها، عقب الزفاف، اندلعت الحرب. الحب، يليه الزواج، تليه الكارثة. في نسخة ريناي عن الحكاية، بدت لي قدراً محتوماً لا مفر منه.

الحرب اندلعت في أغسطس من عام 1914، بوقتٍ قصير بعد زواج والديّ. الأخوة الثلاث التحقوا بالخدمة العسكرية دفعةً واحدة، ولا أحد رأى أي خطبٍ في ذلك. من المذهل اليوم التفكر فيما حصل، أنَّ لا أحد رأى أي خطب. هناك صورةٌ لهم،

ثلاثيٌ وسيم ببزاتهم العسكرية، جباهٌ وقورةٌ ساذجة وشوارب غضة، ابتساماتهم رابطة الجأش، وأعينهم موطدة العزم، يقفون بوضعية الجنود الذين لمّا يصبحوا بعد. أبي كان أطولهم قامةً. لطالما احتفظ بهذه الصورة على مكتبه.

التحقوا بالكتيبة الملكية الكندية، الكتيبة ذاتها التي تلتحق بها متى ما كنت من سكان بورت تيكونديروغا. بعدها مباشرةً رُحّلت الكتيبة إلى برمودا كي تحل محل الكتيبة البريطانية المتمركزة هناك، وهكذا، على مدار العام الأول من الحرب، قضى الإخوة الثلاث وقتهم في الاستعراضات العسكرية ولعب الكريكيت. كانوا جد متشوقين لدخول أرض المعركة، أو هكذا زعموا في رسائلهم.

جدي بنجامين اعتاد قراءة تلك الرسائل بنهم. مع مضي الوقت، دون إعلان أي طرفٍ لانتصاره، بات جدي أكثر نزقاً وعصبية. فلم يكن من المفترض أن تسلك الحرب هذا المنحى. لكن من سخرية القدر أن منحى الحرب كان قد أنعش صناعته إلى حدٍ عظيم. فقد توسع في صناعته ليشمل السليوليد والمطاط، مواد جديدة في صناعة الأزرار بالطبع، مما رفع من حجم الإنتاج بمقدارٍ هائل؛ وبفضل شبكة العلاقات السياسية التي ساعدته آديليا على تشكيلها، فقد تلقت مصانعه طلبات عديدة لتموين الجيش. وظلَّ جدي على أمانته المعهودة، فلم يموّن الجيش بمنتجات رديئة، فلم يكن ثريَّ حربٍ بهذا المعنى. لكن لا يمكن لأحدٍ أن ينكر أنه ثرِيَ من وراء الحرب.

الحرب نافعة في صناعة الأزرار. فأزرارٌ كثيرة تفقد في الحرب، ولا بد لها أن تستبدل - ملءُ علبٍ منها، ملءُ شاحناتٍ من الأزرار في كل طلبية. فالأزرار تنفجر أشلاءً، تغرق في الوحل، وتندلع فيها النيران. والوضع ذاته ينطبق على الثياب التحتية. من وجهة نظرٍ مالية، فالحرب كانت ناراً عجائبية: أتونٌ خيميائيٌّ هائلٌ ضخم، دخانه المتصاعد يصيّر نفسه مالاً. أو هكذا كانت الحرب بالنسبة لجدي. لكن تلك الحقيقة ما عادت تبهج روحه ولا تدعم ثقته بصواب حكمه، كما كانت ستفعل في سابق أعوامه، وقت كان معتداً بنفسه وإنجازاته. هو أراد عودة أبنائه. لم يكونوا قد ذهبوا بعد إلى أي منطقةٍ خطرة: كانوا ما زالوا في بيرمودا، يلعبون دور الجنود تحت الشمس.

عقب قضائهما شهر العسل في فينجر لايكس في نيويورك، استقر والداي في آفيليون إلى أن يعدا مقر إقامتهما الجديد، وهكذا بقيت أمي كي تشرف على تدبير شؤون بيت جدي. لم يكن من أيدٍ عاملة تكفي في البيت، فكل الأيدي القادرة إمّا جُنّدَت للجيش أو للعمل في المصانع، لكن النقص عاد أيضاً إلى إحساس أمي أن على آفيليون أن تضرب مثالاً في تقليص النفقات. أمي أصرّت على تناول وجبات طعامٍ بسيطة – محمّر قدري أيام الأربعاء، وفاصولياء مطبوخة مساء الأحد – وهو ما ناسب جدي تماماً. فلم يكن مرتاحاً أبداً مع قوائم طعام آديليا الفاخرة.

في أغسطس من عام 1915، تلقت الكتيبة الملكية الكندية الأوامر بالعودة إلى هاليفاكس كي تعدّ العدة قبل ترحيلها إلى فرنسا. ظلت الكتيبة في الميناء قرابة ما يزيد عن أسبوع، تتموّن وتحمّل مجندين جدد، تبدل بزاتها الصيفية ببزّات دافئة. كانوا قد وزعوا على الجنود بنادق روس[24]، والتي علقت لاحقاً في الوحل وتركتهم عاجزين تماماً.

استقلت أمي القطار إلى هاليفاكس كي تودع والدي. كان القطار مكتظاً بالرجال في طريقهم إلى الجبهة؛ لم يتسنّ لها الحصول على عربة رقاد، لذا قضت الرحلة جلوساً. الممرات كانت مكتظة بالأقدام، بأكوام الرزم، بالمباصق؛ تسعل، تشخر، – شخير السكارى ولا شك. وبينما أخذت أمي تتأمل الوجوه الفتيّة حواليها، إذ بالحرب تضحو حقيقةً، ما عادت بفكرة، بل حضوراً مجسداً أمام عينيها. زوجها الشاب قد يقتل. جسده قد يفنى؛ قد يقطّع إرباً؛ قد يغدو جزءاً من القربان الذي – أصبح جلياً الآن – أن لا مفر من تقدمته. ومع إدراكها حقيقة الوضع انتابها اليأس وقبض على قلبها الذعر، لكن معهما أيضاً – وأنا متيقنة من ذلك –غمرها فخرٌ قاتم.

لا أدري أين قضيا وقتهما في هاليفاكس ولا حتى كم من الوقت قضيا. أكان فندقاً محترماً، أو لندرة الغرف، توجها إلى نزل حانةٍ رديئة السمعة، أو فندقٍ رخيص على

---

(24) بنادق روس – Ross Rifles: بنادق مصنوعة في كندا ومعدة للقنص والصيد، لكنها أثبتت عدم فعاليتها وملاءمتها للقتال على أرض المعركة.

جانب الميناء؟ أكان لعدة أيام، ليلة، ساعاتٍ معدودات؟ ما الذي دار بينهما، ما الذي قيل؟ ربما الأمور المعتادة، لكن ما هي تلك الأمور المعتادة؟ ما عاد ممكناً أبداً لي أن أعرف. ثم أبحرت الحاملة وعلى ظهرها الكتيبة – إس إس كالدونيان – ووقفت أمي على رصيف المرفأ مع كل الزوجات الأخريات، تلوح مودعةً وتبكي، أو ربما لم تبك: لكانت وجدت في البكاء إرضاءً لخيلائها.

في مكانٍ ما في فرنسا. لا يسعني وصف ما يجري هنا. كتب والدي، ولذلك فلن أحاول حتى. لا يسعنا سوى أن نؤمن أن الحرب ستقودنا إلى خيرٍ أعظم. وأننا سنحفظ الحضارة الإنسانية ونتقدم بها. الخسائر البشرية كلمة مشطوبة هائلة. لم أعرف سابقاً إلى أي مدى قد يصل الرجال. ما علينا تحمّله يفوق كلمة مشطوبة. أفكر بكل من في البيت كل يوم. وخاصةً أنتِ. عزيزتي ليليانا.

في آفيليون، أطلقت أمي العنان لعزيمتها. هي آمنت بالخدمة العامة، شعرت بأن لزاماً عليها أن تشمر عن ذراعيها وتصنع شيئاً مفيداً لصالح جهود الحرب. كانت قد نظمت "دائرة السلوان"، والتي بها جمعت المال عن طريق إقامة سوق النثريات والملابس العتيقة. المال قد أُنفقَ في إعداد صناديق صغيرة تحوي تبغاً وحلوى، كي ترسل لاحقاً إلى الجنود في الخنادق. كانت قد شرّعت أبواب آفيليون أمام المتطوعات لأداء تلك المهام، والتي وفقاً لريناي أضرّت بأرضيات البيت. وإلى جانب سوق النثريات، فقد خصصت أمي بعد ظهيرة كل ثلاثاء لاستضافة مجموعة الحياكة لصالح الجنود، كن قد أخذن من حجرة الرسم مقراً لهن – نُسُج الغسل على أيدي المبتدئات، الأوشحة على أيدي المتوسطات، والأقنعة الصوفية والقفازات على أيدي الخبيرات. عاجلاً ما انضمت إليهن كتيبة من المتطوعات، أيام الخميس، أكبر سناً، نسوة أقلّ تعليماً أتين من جنوب نهر جوغز حيث الواحدة منهن تحوك نائمةً مغمضة العينين. تلك النسوة تولين حياكة ثياب الأطفال لصالح الأرمن، الذين قيل إنهم يموتون جوعاً، كذلك لصالح أناسٍ يدعونهم اللاجئين عبر البحار. بعد ساعتين من الحياكة، كان يقدم شايٌ من نوعٍ رخيص يتناولنه في حجرة

الطعام، حيث تريستان وإيزولت ينظران للأسفل بوجهين ممتقعين.

حين بدأ الجنود المشوهون بتراً وجدعاً يظهرون في الشوارع ومستشفيات البلدات القريبة – إذ لم يكن بعد من مستشفى في بورت تيكونديروغا – اعتادت أمي زيارتهم. كانت تؤثر الأشد إصابةً بزياراتها – رجالٌ كما قالت ريناي لن يحظوا أبداً بفرصة الفوز بأي مسابقة جمال – ثم تعود من تلك الزيارات منهكة ومصدومة، وربما حتى باكية، في المطبخ، تشرب الكاكاو الذي أعدته لها ريناي كي ترفع من معنوياتها. لم ترحم نفسها، قالت ريناي. دمّرت صحتها، كلفت نفسها ما يفوق وسعها، خصوصاً إذا ما أخذنا بالاعتبار طبيعة وضعها.

ويا ترى ما هي الفضيلة التي قرنوها بمفهومٍ كهذا – فضيلة تكليف نفسك فوق وسعها، ألاّ ترحمي نفسك، أن تدمري صحتك! لا أحد يولد بإيثارٍ كهذا: هي عادةٌ مكتسبة ولن تتمتعي بها إلا بعد نظامٍ قاسٍ لا يلين من ضبط النفس، من سحق أهوائك الفطرية، الحيلة أو السر وراء اكتساب إيثارٍ كهذا لا بد وقد ضاعت مع جيلي. أو ربما لم أكلف نفسي حتى عناء المحاولة، كوني قد عانيت بنفسي عواقب الإيثار على أمي.

أما بالنسبة للورا، فلم تكن ذات إيثار، على الإطلاق. بل كانت حساسة، مفرطة الإحساس، وشتان ما بين الصفتين.

ولدتُ في يونيو من عام 1916 . بعد ولادتي بفترةٍ قصيرة، قتل بيرسي تحت وابلٍ من القذائف في إيبر[25]، وفي يوليو مات إيدي في سوم[26]. أو افترض ميتاً: فقد تحول المكان حيث رأوه آخر مرة إلى فوهة بركان. تلك الأحداث كانت شديدة الوطأة على

(25) معركة إيبر – Ypres Salient: سلسلة من أكبر المعارك إبان الحرب العالمية الأولى والتي وقعت في بلجيكا حول مدينة إيبر – الواقعة في إقليم فلاندرز – بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء، وشهدت بداية دخول الحرب مرحلة الاعتماد على حفر الخنادق والتمركز فيها، كذلك شهدت الاستخدام الأول للأسلحة الكيماوية الغاز السام من قبل ألمانيا. سلسلة المعارك انتهت بخسائر فادحة للطرفين ودمارٍ شامل للمدينة.

(26) معركة السوم – Somme: معركة وقعت في فرنسا على ضفتي نهر السوم بين القوات الألمانية والحلفاء في الحرب العالمية الأولى 1 يوليو – 18 نوفمبر 1916 وانتهت بخسائر فادحة للطرفين.

أمي، بيد أنها وقعت أشد وطأةً على جدي. ففي أغسطس تعرض إلى سكتةٍ دماغية مدمرة، مما أثر على نطقه وذاكرته.

بشكلٍ غير رسمي، تولت أمي دفة إدارة المصانع. عينت نفسها وسيطاً بين جدي – والذي قيل إنه يتماثل للشفاء – وبين بقية الناس، وبذا اجتمعت يومياً بالسكرتير ومختلف كبار العمال. وكونها الوحيدة التي كان بوسعها فهم كلام جدي، أو الوحيدة التي ادعت أن بإمكانها ذلك، فقد أضحت مترجمته التي تؤول حديثه؛ وكونها كذلك الوحيدة التي كان يسمح لها بلمس يده، فقد تولت مسكها وإرشادها لدى توقيعه؛ ومن عساه يقول إنها لم تلجأ أحياناً إلى حكمها الشخصي على الأمور؟ ليس وكأن الأمر لم يخلُ من مشاكل. فالحرب حين اندلعت، سدس العمال كنّ نساء. ومع دنو نهايتها وصلت النسبة إلى الثلثين. بقية الرجال إما كهلة أو أصحاب علة، أو لسببٍ ما غير صالحين للخدمة في الجيش. أولئك الرجال امتعضوا ارتقاء النساء، وتذمروا بشأنهن وألقوا على مسامعهن نكتاً سوقية، أما النساء فبدورهن اعتبرن الرجال في المصانع واهنين ضعفاء أو متهربين من الخدمة العسكرية لا يستحقون منهن سوى صريح الازدراء. الوضع الطبيعي للأمور – ما ظنته أمي الوضع الطبيعي للأمور – كان قد انقلب رأساً على عقب. ومع ذلك، فالمقابل كان مجدياً، والمال يزيت عجلة الحياة، وبالإجمال فقد تمكنت أمي من إدارة الأمور بسلاسةٍ كافية.

أتخيل جدي، جالساً في مكتبته أثناء الليل، في كرسيه الجلدي الأخضر المسمّر بالصُّفُر، وراء مكتبه، والذي كان من خشب الماهوغوني. أنامل أصابع كفيه، تلك التي يشعر بها والأخرى التي فقد الإحساس بها، رؤوسها المتقابلة متلامسة. هو يصغي لشخصٍ ما. الباب نصف مفتوح؛ يلمح ظلاً خارجه. يقول، " تفضّل" – ينوي قولها – لكن لا أحد يدخل، أو يجيب عليه.

الممرضة الفظة تصل. تسأله ما عساه يدور بباله، جالساً وحده في الظلام هكذا. هو يسمع صوتاً، لكن الصوت ليس بكلمات، بل أقرب إلى نعيق الغراب؛ فلا يجيبها. تأخذه من ذراعه، ترفعه عن الكرسي بسهولة، تجر قدميه جرًّا نحو فراشه. تنانيرها

التحتية تصدر حفيفاً. يسمع ريحاً جافة، تهب عبر حقول الخريف المعشوشبة. هو يسمع همس الثلج.

أكان مدركاً لحظتها حقيقة وفاة ولديه؟ أكان يتمنى عودتهما أحياء من جديد، آمنيْن في بيتهما؟ أكانت نهايته ستغدو أسوأ لو كتب لأمنيته أن تتحقق؟ لربما غدت أسوأ – ففي الغالب هذا ما تؤول إليه الأمور – بيد أن أفكاراً كتلك لا سلوان فيها.

الغراموفون

ليلة البارحة جلست أشاهد قناة الطقس، كما هي عادتي. في مكانٍ ما في العالم هناك فيضانات: مياهٌ بنية عكرة، أبقارٌ طافية منتفخة، الناجون محتشدون على أسقف المنازل. الآلاف قد غرقوا. والمسؤولية ألقوها على عاتق الاحتباس الحراري: يقولون إنَّ على الناس أن يتوقفوا عن حرق الأشياء. البنزين، النفط، غابات بأسرها. لكنهم لن يتوقفوا. سياط الطمع والجوع تلسع ظهورهم وتسوقهم قدماً إلى الأمام. ولطالما سارت الحياة على هذا المنوال.

أين كنت؟ أقلب الصفحة للوراء: الحرب لا تزال مستعرة. مستعرة كانت الصفة التي استخدموها في تلك الأيام، لوصف الحروب؛ وعلى قدر درايتي، فالوصف لا يزال ينطبق عليها. لكن على هذه الصفحة، البيضاء، الجديدة، سأضع حداً للحرب – أنا وحدي، بجرة قلمي البلاستيكي الأسود. وكل ما عليّ فعله هو كتابة التالي:

١٩١٨. نوفمبر ١١. يوم الهدنة[27].

تم. انتهت. البنادق صمتت. الرجال الذين ظلوا أحياء يرفعون رؤوسهم ناظرين نحو السماء، وجوههم مكسوة بالسخام، ملابسهم مخضَّلة؛ يتسلقون خارج جحور الثعالب والوجار القذرة. كلا الطرفين يشعر بوطأة الخسارة الفادحة. في البلدات، في الريف، هنا وعبر المحيط، كل الكنائس تقرع أجراسها. بوسعي تذكرها،

(27) يوم الهدنة – Armistice Day: هو اليوم الذي وقعت فيه اتفاقية الهدنة بين قوات الحلفاء وألمانيا لإيقاف كامل العمليات العسكرية على الجبهة الغربية، ووضعت الاتفاقية قيد التنفيذ في الساعة الحادية عشر من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من العام 1918.

قرع الأجراس، فهي من أولى ذكرياتي. كم كان غريباً جداً – الأجواء كانت صادحة، ومع ذلك بدت خاوية. ريناي اصطحبتني خارجاً لأسمعها. الدموع سالت على وجهها. حمداً للرب، كذا قالت. كان يوماً بارداً يوقع في الجسد القشعريرة، الصقيع يكسو الأوراق المتساقطة، وغشاءٌ رقيقٌ جداً من الجليد كسا بركة الزنابق. كسرته بعصا، أين كانت أمي؟

تعرض أبي للإصابة في سوم، لكن استعاد عافيته ورُقِّيَ إلى ملازم. تعرض للإصابة مرة أخرى في معركة فيمي ريدج، إصابته لم تكن بالغة، ورُقِّيَ إلى نقيب. تعرض للإصابة مرة ثالثة في معركة بورلون وود، هذه المرة جاءت إصابته بالغة. لدى قضاء نقاهته في إنجلترا وضعت الحرب أوزارها.

كان قد فاته الترحيب الاحتفالي بالجنود العائدين في هاليفاكس، مسيرات النصر وعداها، لكنهم أعدوا استقبالاً مميزاً في بورت تيكونديروغا خصيصاً له. القطار توقف. وصيحات الابتهاج اندلعت. الأيدي امتدت نحوه كي تساعده على النزول، ثم ترددت. ظهر للعيان، بعينٍ صالحة وساقٍ صالحة. وجهه هزيلٌ، مضنىً، متعصّب، تعلوه الندوب.

قد يكون الوداع محطماً، بيد أن العودة مدمرة. فالجسد الحقيقي لا يسعه أبداً الارتقاء إلى الظل الساطع لغيابه. الزمن والمسافات تبهت الحواف؛ فإذ بالمحبوب يصل فجأةً، والشمس تسطع متوهجةً دون رحمة في عز الظهيرة، وكل بقعةٍ، كل سَمٍّ، كل تجعيدةٍ وكل هُلْب تتجلى للعين واضحة.

وها هما أبي وأمي. كيف لأي منهما أن يكفر للآخر عن خطيئة تغيره الشاسع؟ عن فشله في تحقيق توقعات الآخر. كيف للضغينة ألا تجد مكاناً بينهما؟ ضغينةٌ صامتة وظالمة، إذ لا أحد هناك لإلقاء اللوم عليه، أو بالأحرى لا أحد تشير إليه بأصابع الاتهام. فالحرب ليست بإنسان. علام نلوم إذن الإعصار؟

ها هما يقفان هناك، على رصيف محطة السكة الحديدية. فرقة البلدة تعزف، معظمها آلات نفخ نحاسية. هو في زيه العسكري؛ نياشينه معلقة على زيه وكأنها ثقوب رصاص، ينسل منها الوميض الباهت لجسده المعدني الحقيقي. على

جانبيه، يقفان مخفيّين، أخواه – الولدان المفقودان، من يشعر أنه فقدهما. أمي هناك في أجمل حلة، في ثوبٍ محزّم ذي طية صدر، وقبعة مع وشاحٍ أنيق. ابتسامتها مضطربة. لا أحد منهما يعرف تماماً ما المفترض به أن يفعل. كاميرات الصحف تصطادهما بوميضها؛ يحدقان، وكأن أحداً فاجأهما يرتكبان جريمة. أبي يرتدي عصبةً سوداء على عينه اليمنى. عينه اليسرى تحملق غضباً منذرة بشرٍّ مستطير. من خلف العصبة، إذ لم تنكشف بعد، شبكةٌ من الندوب، وعينه المفقودة هي العنكبوت.

"وريث تشايس البطل قد عاد". هكذا ستعلن الصحف الخبر بأبواقها. وها هو الأمر الآخر: أبي الآن هو الوريث، ما يعني أنه فاقدٌ لوالده كما هو فاقدٌ لأخويه. المملكة قد أضحت بين يديه، يشعر بها وكأنها وحل.

هل بكت أمي؟ احتمال. ولا بد أنهما قبّلا بعضهما بارتباك، وكأنهما في حفل العلب[28]، حفلٍ اشترى فيه أبي العلبة الخاطئة. هي ليست المرأة التي يذكر، فالمرأة التي تقف أمامه بدت مقتدرة، مهمومة، وكأنها عمةٌ عانس في نظارتها الأنفية بسلسلتها الفضية المتلألئة حول عنقها. كانا قد أمسيا غريبين الآن – وأظن الشعور ذاته قد راودهما – أنهما لطالما كانا غريبين. كم كان وهج الشمس قاسياً عليهما. إلى أي مدى تقدم بهما العمر. ما كان هناك من أثرٍ للرجل الشاب الذي ركع يوماً على الجليد في احترامٍ ومراعاة كي يوثق رباط مزلجها، ولا للمرأة اليافعة التي قبلت منه بعذوبة تلك البادرة من الإجلال.

أمرٌ آخر بدأ يتجسد بينهما كما السيف القاطع. فبالطبع كان قد حظي بنساء أخريات، نوع النسوة اللواتي يحمن حول أرض المعركة، ينتهزن الفرصة. عاهرات، هأنذا قلتها، فلن ألطّف لفظةً أمي ما كانت أبداً لتنطقها. لا بد أنها استشعرت ذلك بمجرد أن لمسها أبي: الحياء، التبجيل، كلاهما اختفيا. أظنه قاوم الإغراء حين كان في بيرمودا، وكذلك في إنجلترا، إلى أن وقعت الساعة التي قتل فيها إيدي وبيرسي

(28) حفل العلب – social box: حفل اجتماعي اشتهر بداية القرن العشرين في كندا، والحفل يقوم على إعداد النساء علب طعام لنزهة غداء وبزينتها، بعدها يزايد الرجال على العلب دون معرفة لمن تعود كل علبة، من يفوز بالعلبة يحظى بنزهة مع المرأة التي أعدتها.

وهو بدوره تعرّض للإصابة. من بعدها تشبث بالحياة، بأي حفنة ترابٍ منها، تشبث بها بكلتا يديه. كيف لها ألّا تتفهم احتياجه لذلك، مع كل ما جرى وكان؟

بيد أنها تفهّمت، أو على الأقل فهمت أن عليها أن تتفهّم. هي تفهّمت، ولم تنبس بكلمة، وصلّت للرب أن يمنحها القدرة على المغفرة، وقد غفرت. لكن لا أظنه وجد من السهل عليه أن يعيش في ظل مغفرتها. تناول الفطور في سديم من المغفرة: قهوةٌ بالمغفرة، عصيدةٌ بالمغفرة، مغفرة مدهونة بالزبدة على صفحة الخبز المحمص. لوجد نفسه عاجزاً تماماً أمام المغفرة، إذ كيف لك أن تنكر تهمةً لم ينطق بها أحد؟ هي اغتاظت كذلك من الممرضة، أو الممرضات، اللواتي تولين رعاية أبي في مختلف المستشفيات. تمنت أن يدين بشفائه لها وحسب، لرعايتها، لتفانيها الذي لا يكل ولا يمل. فهذا هو الوجه الآخر للإيثار: الاستبداد.

وعلى كلٍّ، لم يكن أبي بكامل صحته على الإطلاق. في الواقع كان أشلاءً من حطام، تشهد على ذلك الصرخات في جوف الظلام، الكوابيس، نوبات الغضب المفاجئة، الوعاء أو الكأس الملقاة على الجدار أو الأرض، لكن ولا مرة باتجاهها. كان محطماً، وفي حاجة إلى من يرممه: لذا كان ما زال بمقدورها أن تكون عوناً له. أخذت تهيئ له أجواء هادئة، تشبع رغباته، تحتمل تقلباته، تضع الزهور على مائدة فطوره وتعد وجبات العشاء المفضلة لديه. على الأقل لم يصب بمرضٍ شيطانيٍّ خبيث.

لكن مع كل محاولاتها، فأمرٌ أسوأ بكثير قد حدث: أبي قد بات ملحداً. ففي الخنادق انفجر الرب مثل بالون ولم يتبق منه سوى قصاصاتٍ وضيعة من النفاق. فما الدين إلا العصا التي ضربوا بها الجنود، وأي شخصٍ آخر يزعم غير هذا فهو مُراءٍ كلامه هراءٌ في هراء. فما الذي تحقق من وراء إقدام بيرسي وإيدي – من وراء شجاعتهما، ميتتهما البشعة؟ ما الذي تحقق يا ترى؟ قتلا جراء تخبط ثلة مجرمين مسنين غير أكفاء، ما كان ليصنع فرقاً لو جزوا عنقيهما وطرحوهما أرضاً على جانب الإس إس كالدونيان. كل هذا الحديث عن القتال في سبيل الرب والحضارة دفعه للتقيؤ.

أمي وقفت مرتاعة. أيعني أبي بكلامه أن بيرسي وإيدي لم يموتا في سبيل هدفٍ سامٍ؟

أنّ كل هؤلاء الرجال المساكين ماتوا لأجل لا شيء؟ أما ما يخص الرب، فمن غيره تولى بعنايته مساعدتهم على تجاوز الابتلاء والمعاناة؟ رجته أن يحتفظ على الأقل بإلحاده لنفسه. بعدها شعرت بخجلٍ كبير من نفسها على رجائها هذا – وكأنها تكترث لرأي جيرانها، لا العلاقة التي تربط روح أبي بالرب.
هو احترم رغبتها. رأى الضرورة في ذلك. وعلى أي حال، فهو لم يتفوه بتلك الأمور إلا سكراناً. قبل الحرب، لم يعتد أبي على الشرب، ليس بكثرة، ولا عن تعمد، على عكسه الآن. أخذ يشرب ويذرع المكان جيئةً وذهاباً، قدمه الفاسدة يجرها وراءه، بعدها ينتفض جسده مرتجفاً، أمي تحاول تهدئته، لكن لم يرد أن يهدأ. كان يصعد السلم اتجاه البريج المجحدر لآفيليون قائلاً لها أنه ذاهبٌ ليدخن. في الواقع كانت هذه حجته كي يختلي إلى نفسه، يبدأ يحادث نفسه في الأعلى، يخبط جسده بالجدران، ويختمها بالشرب حدّ الخدر. كان يترك أمي وراءه ليصنع بنفسه كل هذا لأنه، بوجهة نظره، كان لا يزال سيداً نبيلاً، أو ربما كان يتشبث بما تبقى من أثر لادعائه النبل أمامها. لم يرد إثارة الذعر فيها. كذلك أظنه شعر بالسوء أن نيتها الطيبة الكهنوتية في مساعدته قد أخذت تثير فيه الضيق والحنق.
خطوةٌ خفيفة، خطوةٌ ثقيلة، خطوةٌ خفيفة، خطوةٌ ثقيلة، مثل حيوانٍ علقت قدمه في شرك. الأنين والصراخ المكبوت. الزجاج المكسور. تلك الأصوات اعتدت الاستيقاظ عليها: فأرضية البريج كانت تعلو غرفتي.
عقبها كنت أسمع صوت خطواتٍ تهبط؛ ثم يخيم الصمت، طيفٌ أسود يلوح في الظلمة خارج باب غرفتي المستطيل المغلق. لم يكن بوسعي رؤيته هناك، لكن كان بوسعي الشعور به، وحشٌ يمشي متثاقلاً بعينٍ واحدة، كم محزنٌ حاله. كنت قد اعتدت الأصوات، ولم أظن يوماً أنه سيؤذيني، مع ذلك تعاملت معه بأقصى الحذر.
لا أود أن أعطي انطباعاً أن تلك كانت حالة أبي كل ليلة. فتلك الجلسات – أو بالأحرى النوبات، أخذت تقل وتتباعد مع مرور الأيام. لكن كان لك توقع قدوم إحداها متى ما زمّت أمي شفتيها، وكأن لها راداراً يلتقط أمواج الغضب متى ما أخذ يفور في الأعماق.

هل أعني بحديثي أنه لم يحبها؟ لا، لا على الإطلاق. فقد أحبها؛ وبطريقةٍ ما كان متفانياً لها. لكن وجد نفسه عاجزاً عن الوصول إليها، وهي شعرت بذات الإحساس. أمسى الحال بينهما وكأن كليهما قد شرب من ترياقٍ سام سيبقيهما إلى الأبد متباعديْن، حتى وإن كانا يعيشان في ذات البيت، يتناولان الطعام على ذات المائدة، يخلدان إلى النوم على ذات الفراش.

يا ترى كيف تبدو الحياة هكذا – أن تتوق، أن تصبو مشتاقاً إلى الشخص الجالس أمام عينيك، يوماً بعد يوم؟ لن أعرف أبداً.

بعد مضي عدة أشهر من عودته بدأ أبي جولاته سيئة السمعة. ليس في بلدتنا، أو على الأقل ليس في البداية. كان يستقل القطار إلى تورنتو، "في رحلة عمل"، ويسرف في الشرب، وهناك يلعب بذيله. تلك كانت التسمية المعتمدة آنذاك. الإشاعات بدأت تسري، بسرعةٍ مفاجئة، كما هي الحال دوماً مع الفضائح. لكن الغريب، أن ما حصل قد زاد من احترام البلدة لأبي وأمي. فمن كان له الحق أن يلومه، مع كل ما جرى؟ أما بالنسبة لها، فرغم كل ما تضطر لتحمله معه، ولا أحد سمعها قط تنبس بكلمة شكوىً واحدة. وبذا تكون قد أدت كاملاً واجبها المفترض بها.

كيف لي أن أعرف كل تلك الأمور؟ لا أعرفها، ليس بمعنى الكلمة. لكن في بيوتٍ مثل بيتنا فالصمت يبوح لك بما لا تنطق به الألسنة – في الشفاه المزمومة، في استدارة الرأس بعيداً، في نظرة الشزر الخاطفة. الكتفان منتصبتان وكأن حملاً ثقيلاً تنوء به الجبال ملقىً عليهما. لا عجب أني ولورا اعتدنا التنصت من خلف الأبواب.

كان لأبي مجموعةٌ من عصيّ المشي، مع مقابض مميزة – من العاج، الفضة، والخشب الأبنوسيّ. كان قد أخذ أناقته على محمل الجدية. فهو لم يتوقع أبداً أن ينتهي به الحال إلى إدارة عمل العائلة، لكن طالما هذا ما حدث، فقد نوى أن يحسن صنعاً في مهمته. كان بإمكانه أن يبيع المصانع، لكن لم يكن من شراةٍ في السوق، ليس في ذاك الوقت، ولا بالسعر الذي طلبه. كذلك شعر بمسؤوليته، إن لم يكن لذكرى أبيه، فلذكرى أخويه الميتين. كان قد بدّل رأس الورقة المعلّمة إلى تشايس

وأبناؤه، وإن لم يبق منهم سوى ابنٍ واحد. هو أراد أبناءً لنفسه، من المفضل ابنين، كي يحلا محل المفقودَيْن. وظلّ أبي يثابر.

لدى بداية توليه الإدارة، الرجال في مصانعه حملوا له الإجلال والتقدير. ليس فقط بسبب النياشين. فما إن وضعت الحرب أوزارها، وقفت النسوة جانباً وإلا دفع بهن جانباً، وحلَّ محلهن الرجال العائدون – أي بالأحرى أيُّ واحدٍ منهم لا يزال يملك أداء أي عمل. لكن لم يكن من وظائف تكفي الجميع: فالطلبيات الكبيرة وقت الحرب قد انتهت. المصانع أخذت تقفل وسرحوا العمّال في كل أرجاء البلد، كلها ما عدا مصانع أبي. كان لا يزال يوظف الرجال، بل فائضاً منهم. كان يوظف المحاربين القدامى. اعتاد أن يقول إن نكران البلد لأبنائها عملٌ خسيس، وأن على رجال الأعمال أن يوفوا بشيءٍ من دينهم اتجاه جنودها. قلةٌ قليلة فقط منهم فعلت ذلك، أما الآخرون فأداروا للواجب عيناً عمياء، لكن أبي، من عينه فعلاً عمياء، ما كان ليدير ظهره. وبذا التصقت به سمعة المرتد الخارج على الأصول، الأحمق إلى حدٍّ ما.

في الظاهر كنت ابنة أبي. ورثت جلّ ملامحي عنه؛ ورثت تقطيبة جبينه، وشكوكيته العنيدة. وكذلك، في النهاية، نياشينه. تركها لي. ريناي اعتادت أن تقول – كلما حَرِنْت – أني صعبة المراس وتعرف تماماً من أين ورثت تلك الطباع. أما في المقابل فقد كانت لورا ابنة أمي. هي تمتعت بالورع، بطريقةٍ ما؛ ورثت عنها جبينها الصافي السامي.

بيد أنّ المظاهر تخدع. ما كنت أبداً لأقود نفسي نحو الموت عن حافة جسر. لكان أبي فعلها، أمي ما كانت لتجرؤ.

وها نحن الآن في خريف عام 1919، ثلاثتنا معاً – أبي وأمي وأنا – نبذل أقصى جهدنا. هو شهر نوفمبر؛ ساعة الخلود إلى النوم تكاد تزف. نحن جالسون في الحجرة الصباحية في آفيليون. في الحجرة مستوقد، النار موقدة فيها، فالجو قد بدأ يبرد. أمي تتشافى من مرضٍ غامض ألم بها مؤخراً، قيل إنه مرضٌ ما يتعلق

بالأعصاب. كانت ترتق الملابس. هي ليست بحاجة إلى رتقها بنفسها – لها أن تؤجر أحداً يقوم عنها بتلك المهمة – لكنها أرادت أن ترتق الملابس؛ يستهويها وجود شيءٍ بين يديها يشغلها. هي تخيط زراً ممزقاً عن أحد ثيابي: قيل لي إني كنت عنيفة مع ملابسي. على الطاولة الدائرية عند مرفقها سلة خياطتها ذات الحواف العشبية العطرة، جدلها الهنود الحمر، تحوي مقصها ومسالك خيوطها وبيضة الرَّفْو الخشبية[29]؛ وكذلك نظارتها الدائرية الجديدة، تراقب المكان بعينيها. لم تكن أمي بحاجة إلى نظارتها لرؤية الأشياء القريبة.

فستانها أزرقٌ سماويّ، بياقةٍ بيضاء واسعة وكفّتين بيضاوين مزركشتين بالزهور[30]. شعرها قد بدأ يشيب قبل أوانه. ومثلما استحال عليها التفكير بقطع يدها استحال عليها التفكير بصبغ شعرها، وبذا أمست أمي امرأةً ذات وجهٍ يافع يسكن عشاً من زغب الشوك. شعرها مفروقٌ من المنتصف، ينسدل للخلف في تموجات عريضة رشيقة تنتهي بعقدةٍ متشابكة من الجدائل واللفات على مؤخر رأسها. (عند وفاتها بعد خمسة أعوام. ستضحو خصل شعرها أقصر، أقرب للموضة، وإن أقلّ فتنةً). جفناها منخفضان، وجنتاها مستديرتان، وكذلك بطنها؛ نصف ابتسامتها حنونة. المصباح الكهربائي بضوئه الأصفر الزهري يضفي على وجهها تورداً ناعماً.

مقابلها يجلس أبي، على أريكة. يتكئ بظهره على الوسائد، لكنه متململ. يده على ركبة ساقه الفاسدة؛ والساق تتهزهز صعوداً ونزولاً. (السّاق الصالحة، الساق الفاسدة – لطالما أثار انتباهي استخدام تلك الصفتين. فما الذي اقترفته الساق الفاسدة يا ترى حتى يطلق عليها هذا الاسم؟ هل تشوهها المستور عقابٌ لها؟)

أجلس إلى جانبه، لكن ليس قريباً جداً منه. ذراعه ممتدة على ظهر الأريكة خلفي، لكنها لا تلمسني. بين يدي كتاب حروف الأبجدية؛ أقرأ له منها، لأريه أن بإمكاني القراءة. بيد أني لم أتمكن من القراءة بعد، فقط حفظت أشكال الحروف،

---

(29) بيضة الرفو الخشبية – darning egg: أداةٌ دائرية على هيئة بيضة مصنوعة إما من خشب أو معدن تستخدم عادةً لرتق الجوارب.

(30) cuffs edged in piquet: ويقصد بكلمة piquet زركشة من الزهور أو الريش تهذّب بها حافة الياقة أو الكفة أو القبعات النسائية.

والكلمات التي ترافق الصور. على طاولةٍ جنبية هناك غراموفون، مع مجهارٍ يتبرعم منه مثل وردةٍ معدنية. صوتي يبدو لي وكأنه الصوت الصادر عنه أحياناً: واهنٌ وصغيرٌ وبعيد؛ صوتٌ لك أن تخرسه بإصبع.

A is Apple Pie,

Baked fresh and hot:

Some have a little,

And others a lot.(31)

أرفع نظري بلمحةٍ سريعة صوب أبي لأرى إن كان يعيرني أي اهتمام. فأحياناً متى ما حادثته لا يسمعك. يلمحني أنظر إليه، فيحني رأسه ويبتسم لي بابتسامةٍ واهنة.

B is for Baby,

So pink and so sweet,

With two tiny hands,

And two tiny feets.(32)

أبي عاد ينعم النظر خارج النافذة. (هل وضع نفسه خلف النافذة، يتأملنا من الخارج؟ يتيمٌ، مقصيٌّ للأبد – جوّالٌ ليليّ؟ هل هذا ما كان من المفترض به أن يحارب لأجله – أنشودة إديلٍ(33) أمام نار المستوقد، هذا المشهد المريح وكأنه يعود إلى إعلانٍ عن رقائق الذرة: الزوجة ذات الوجنتين الموردتين، طيبةٌ جداً وصالحة، والطفلة المطيعة مبجلةً أبيها. هذه السطحية. هذه الرتابة. أيعقل أن شعوراً بالحنين للحرب قد راوده، رغم نتانتها ومجازرها العبثية. أيتوق إلى تلك الحياة اللامسؤولة المدفوعة وحسب بالغريزة؟)

---

(31) "A" :Apple Pie – "A" هي فطيرة التفاح، طازجة وحارة: البعض يتناول منها القليل، والبعض يتناول الكثير.

(32) "B" :Baby – "B" هو الرضيع، زهريٌ وحلو، مع يدين صغيرتين جداً، وقدمين صغيرتين جداً.

(33) الإديل – idylle: يقصد بها الأنشودة الرعوية وهي قصيدة بسيطة، نظماً أو نثراً، تصف الحياة الريفية أو توحي بجوٍّ من الرضا والطمأنينة.

F is for Fire,

Good servant, bad master.

When left to itself

It burns faster and faster.(34)

الصورة في الكتاب هي لرجلٍ يثب خارج لهيب النار – أجنحةٌ نارية تندلع خارج كعبيه وكتفيه، قرنان صغيران مضطرمان بالنار يتبرعمان من رأسه. ينظر خلف كتفه بابتسامةٍ مغرية عابثة، ولا ثياب عليه. النار لا يسعها أن تؤذيه، ولا شيء يسعه أن يؤذيه. أنا مغرمةٌ به لهذا السبب. كنت قد أضفت ألسنة لهيب أكثر بأقلامي الشمعية.

أمي تخِزُ الزر بإبرتها، تقطع الخيط. أقرأ بصوتٍ يشوبه القلق أكثر فأكثر، أمرُّ على الحروف المهذبة "M" و"N"، على "Q" المراوغة و"R" القاسية والصفير الوعيديّ للحرف "S". أبي يحدق في لهيب النار، يشاهد الحقول والغابات والبيوت والبلدات والرجال والإخوة تتصاعد دخاناً، ساقه الفاسدة تتقافز بملء إرادتها وكأنها كلبٌ يجري في أحلامه. هنا بيته، هذه القلعة المحاصرة؛ وهو المستذئب فيها. الغروب البارد بلون الليمون خارج النافذة يتلاشى إلى اللون الرمادي. لم أعرف حينها، لكن لورا كانت على وشك أن تولد.

(34) "F" – Fire: "F" هي النار، خادمٌ مطيع وسيدٌ غدّار، ما إن يترك على هواه، يندلع أسرع وأسرع.

يوم الخبز

المطر ليس بكافٍ، يقول المزارعون. زيزُ الحصاد تخترق الأثير بندائها الرتيب؛ دوامات الغبار على امتداد الطرق؛ والجنادب تئز من رقع النباتات المبعثرة على كتف الطريق. أوراق أشجار القيقب تتدلى من أغصانها وكأنها قفازاتٌ مهلهلة؛ ظلي يتشقق على الرصيف.

أخرج للسير باكراً، قبل اشتداد وهج الشمس. الطبيب يحثني على المواصلة: يقول إن صحتي قد أخذت تتحسن؛ لكن إلى أيّ غاية؟ أتخيّل قلبي رفيقاً لي في هذه المسيرة الإجبارية اللانهائية، كلانا رباطه موثقٌ بالآخر، شريكان غير راضيان في مؤامرةٍ أو تكتيكٍ لا يد لنا فيه. وإلى أين نحن ذاهبان؟ نحو اليوم التالي. لم يغب عن بالي أنّ ما يبقيني حيةً حتى الآن هو ما سيقتلني في النهاية. كما الحال مع الحب، أو ضربٍ من ضروب الحب.

عاودت الذهاب اليوم إلى المقبرة. أحدهم قد ترك باقةً من زهور الزينة، حمراء وبرتقالية، على قبر لورا؛ أزهارٌ ألوانها حرارية، بعيدة كل البعد عن كونها مريحة. كانت الزهور قد أخذت تذبل لدى وصولي إليها، لكن شذاها اللاذع كان ما زال يفوح منها. أشك أنها سرقت من مسابك الزهور المصفوفة أمام مصنع الأزرار، أحد معجبيها المتعصبين البخلاء أو معجبٌ مجنونٌ بعض الشيء؛ وعلى كلٍّ، لورا كانت ستفعل ذات الصنيع. فمفهومها عن الملكية كان جدّ ضبابيّ.

في طريق عودتي توقفت لدى متجر الدونات: فحرارة الجو في الخارج أخذت ترتفع، وأردت أن أستظل. المكان ليس بجديدٍ على الإطلاق؛ في الواقع هو بالٍ وقديم،

رغم حداثته الأنيقة – الأرضية الصفراء الشاحبة، الطاولات البلاستيكية البيضاء مثبتة على الأرض، مقاعدها المقولبة موصلة بها. يذكرني بمؤسسةٍ ما؛ ربما حضانة في حيٍّ فقير، أو مركزٍ اجتماعي لخدمة المعاقين عقلياً. فلا يوجد بين يديك أشياء كثيرة يتسنى لك رميها ولا الطعن بها: فحتى أطقم الملاعق والسكاكين هي من البلاستيك. المتجر ينضح برائحة مزيجٍ من زيت القلي العميق والشذى الصنوبري لسائل التنظيف، تطغى عليها رائحة القهوة الفاترة.

اشتريت شاياً مثلجاً من الحجم الصغير وقطعة دونات بطبقة السكر على الطراز القديم، ما إن تناولتها أخذت تصئ بين أسناني وكأنها قطعة فلين. بعد أن استهلكت نصفها، أقصى ما يمكنني ابتلاعه، سرتُ حذرةً على الأرض الزلقة باتجاه حمام السيدات. على مدى نزهاتي سيراً أخذت أرسم خريطةً ذهنية بكل الحمامات العامة في بورت تيكونديروغا – كي يسهل عليّ الوصول إليها متى ما استدعت الحاجة – والحمام في متجر الدونات هو حالياً المفضل لديّ. ليس لأنه الأنظف، أو يتوفر فيه ورق الحمام بكميةٍ أكبر، لكن من أجل النقوش التي يعرضها. ستجدين نقوشاً في كل الحمامات، لكن في معظم الأماكن يسارعون بالطلاء عليها، أما في متجر الدونات فالنقوش تبقى ظاهرة للعيان لفترةٍ أطول. وبذا فأنت لن تقرئي النقش وحسب، بل التعليق عليه.

المتتالية المفضلة لدي حالياً هي النقوش في الحجيرة الوسطى. الجملة الأولى مكتوبة بقلم الرصاص، بأحرف دائرية الشكل كما الموجودة على أضرحة الرومان، محفورة عميقاً في الطلاء: لا تأكلي ما لست مستعدةً لقتله.

يليها، بقلم التعليم الأخضر: لا تقتلي ما لست مستعدةً لأكله.

تحتها، بقلم الحبر الجاف، لا تقتلي.

تحتها، بقلم التعليم الأرجواني: لا تأكلي.

وتحت تلك، الكلمة الأخيرة حتى تاريخ اليوم، بأحرف سوداء عريضة: سحقاً للنباتيين – "الآلهة كلها آكلة لحوم". – لورا تشايس.

وبذا تظل لورا حيةً حتى اليوم.

استغرقت لورا وقتاً طويلاً كي تولد إلى هذا العالم، أخبرتني ريناي. وكأنما لم تكن قد قررت بعد إن كانت حقاً فكرةً ذكية أم لا. ثم ولدت لكنها ظلت معتلة الصحة أول أيامها، وكنا سنفقدها حتماً – أظنها كانت لا تزال تحاول حسم أمرها. لكنها في النهاية قررت أن تمنح الحياة فرصة، فتشبثت بها، وسرعان ما تحسنت صحتها.

ريناي آمنت أن الناس هم من يقررون متى الوقت المناسب لهم كي يموتوا؛ وكذا الحال لدى ولادتهم، لهم يدٌ في اتخاذ قرار المجيء إلى الدنيا من عدمه. ما إن بلغتُ العمر الذي أجيب فيه بفظاظة عليها، اعتدت أن أرد قائلةً، لكني لم أطلب أبداً أن أولد. وكأنما قولي سيحسم النقاش معها نهائياً؛ لكن ريناي سرعان ما ترد عليّ بحجتها، بالتأكيد طلبت، مثلك مثل بقية الناس. حسب اعتقاد ريناي، ما إن تولد إلى هذه الحياة، ستتكلّب بها بكلتا يديك.

بعد مولد لورا أمست أمي متعبةً أكثر من المعتاد. فقدت أوْجها؛ فقدت قدرتها على التشافي. عزيمتها تداعت؛ قضت أيامها مجهدة. كان لزاماً عليها أن تخلد للراحة أكثر، كذا أوصى الطبيب. لم تكن امرأةً معافاة، هذا ما قالته ريناي للسيدة هيلكوت والتي جاءت للمساعدة في غسل الملابس. بدا الوضع لي وكأنما العفاريت قد سلبت مني أمي، واستبدلوها بتلك الأم الأخرى – تلك المرأة الأكبر سناً المرتخية الواهنة المحبطة التي غزا الشيب شعرها. كنت في الرابعة من العمر آنذاك، ومرعوبة من التغيير الذي حلّ بها، كنت بأمس الحاجة إليها لتطمئنني وتحضنني إليها، لكن أمي ما عادت تملك الطاقة وقتئذٍ لفعل ذلك. (لماذا أقول ما عادت؟ فسلوكها الأمومي معي لطالما اعتمد النهج الإرشادي لا التدليل. ففي قلبها ظلت أمي دائماً معلمة).

وسرعان ما اكتشفت أني إن التزمت الهدوء، ولم أحدث أي جلبة لأسترعي انتباهها، وفوق ذلك إن كان بوسعي تقديم يد العون – خصوصاً مع الرضيع، مع لورا، أجلس إلى جانبها أراقبها وأهز مهدها كي تنام، لم تكن تخلد إلى النوم بسهولة ولا لوقتٍ طويل– فسيؤذن لي بالبقاء في ذات الغرفة مع أمي. فإن لم أفعل، سيخرجونني من الغرفة ويبعدونني عنها. وبذا تكيفت مع الوضع: الصمت، تقديم العون.

كان ينبغي عليّ أن أصرخ. كان ينبغي عليّ أن أصمَّ آذانهم بنوبات غضبي. فالعجلة التي تطلق الصرير هي التي تُزيَّت، كما اعتادت ريناي أن تقول.

(هأنذا على منضدة أمي الليلية، في إطارٍ فضيّ، أرتدي ثوباً غامقاً بياقةٍ بيضاء مخرّمة، يدي الظاهرة تتشبث خرقاء بلحاف الرضيع الأبيض المحاك بالكروشيه، قبضةٌ وحشية، عينان تتهمان الكاميرا أو أيا كان خلفها يتولى زمامها. لورا نفسها بالكاد تظهر، في هذه الصورة. لا يتبين منها سوى قمة رأسها الزغبي، ويداً واحدة بالغة الصغر، الأصابع ملتفة حول إبهامي. أكنت غاضبةً لأنهم أجبروني على حمل الرضيع، أو لأني في الواقع كنت أدافع عنه؟ أحميه – غير راغبةٍ في التخلي عنه؟)

لورا كانت رضيعة صعبة المراس، لم تكن عنيدة بقدر ما كانت قلقة. كذلك كانت طفلةً صعبة. أبواب الخزائن أقلقتها، وكذلك أدراج البوريه. بدت وكأنها ترهف أذنها دائماً لصوتٍ ما في الأفق أو تحت الأرض – شيءٍ ما يدنو منها دون صوت، كما القطار المصنوع من الريح. كانت تتعرض لأزمات غير قابلة للتعليل – غرابٌ ميت سيدفعها للنحيب، قطةٌ دهستها سيارة، غيمةٌ سوداء في سماءٍ صافية. ومن جهةٍ أخرى، تمتعت بمقاومة خارقة للألم الجسدي: إن حرقت فمها أو جرحت نفسها، فكقاعدة لن تبكي أبدا. الضغينة، الضغينة التي يحملها الكون، تلك هي التي أوجعتها.

وأكثر ما كان يذعرها مرأى المحاربين القدامى المشوهين والمبتورين على زوايا الشوارع – المتبطلين، بائعي أقلام الرصاص، المتسولين، المحطمين حدَّ العجز عن فعل أي شيء. كان هناك رجلٌ تعلو وجهه الأحمر نظرةٌ ساخطة على الدوام، مبتور الساقين يدفع بنفسه على عربةٍ مسطحة، دائماً ما أثار الذعر فيها. لربما كانت تخاف الحقد في عينيه.

وكما هي حال الأطفال الصغار، فلورا آمنت أنَّ الكلمات تعني حرفياً المقصود بها، لكنها تطرفت في إيمانها هذا. ما كان بوسعك أن تقولي لها اغربي عن وجهي أو ارمي بنفسك في البحيرة ولا تتوقعي في المقابل عواقب وخيمة. ما الذي قلته للورا؟

ألم تتعظي مما جرى؟كذا اعتادت ريناي أن توبخني. لكن ريناي نفسها لم تتعظ مما جرى. مرةً قالت للورا أن تعضّ لسانها كي تمنع الأسئلة عن الخروج من فمها، ما إن قالت لها ذلك لم تتمكن لورا من المضغ لعدة أيام.

أصل الآن إلى وفاة أمي. سيكون من المبتذل القول إن هذا الحدث قد غير كل شيء، لكنها تبقى الحقيقة، لذلك سأكتبها:
هذا الحدث قد غير كل شيء.

كان يوم ثلاثاء. يوم الخبز. كل احتياجنا من الخبز على مدى أسبوع كان يعجن في يومٍ واحد – في مطبخ آفيليون. مع أنّ مخبزاً صغيراً في بورت تيكونديروغا قد فتح أبوابه آنذاك، لكن ريناي اعتادت أن تقول إن خبز المتاجر للكسالى، وأن الخباز يضيف الطبشور للطحين كي يمده أكثر، ويضيف خميرةً أكثر كي تنتفخ أرغفة الخبز بالهواء فتظن أنك قد حظيت بكميةٍ أكبر. لذا تولت بنفسها إعداد الخبز.
مطبخ آفيليون لم يكن بالمطبخ المظلم، مثل الكهف الفيكتوري الأسخم الذي ولا بد كان عليه قبل ثلاثين عاماً. بل كان أبيض – جدرانه بيضاء، الطاولة مطلية بالمينا، فرن الطبخ على الحطب أبيض، الأرضية مرصوفة باللونين الأبيض والأسود، مع ستائر صفراء بلون النرجس معلقة على النوافذ الجديدة الموسعة. المطبخ أعيد تصميمه بعد الحرب كإحدى هدايا أبي الاسترضائية الجبانة لأمي. ريناي رأت أن تصميم المطبخ جاء على أحدث طراز، وبما أن أمي علّمتها كل ما يلزمها معرفته عن الجراثيم وطرقها الملتوية ومخابئها السرية، فقد حرصت على نظافته وخلوه من أي بقعة.
في أيام الخبز كانت ريناي تعطينا قطعاً من عجين كي نخبز بها رجالاً، مع حفنة زبيب للأعين والأزرار. ثم تخبزها لنا. كنت آكل حصتي، أما لورا فتحتفظ بها. مرةً عثرت ريناي على صفٍّ كاملٍ منهم في الدرج العلوي لخزانة لورا، صلبة كالصخر، ملفوفةٍ بمناديلها وكأنها مومياوات صغيرة عجينية. ريناي أخبرتها أن بصنيعها هذا ستجذب

الفئران إلى الغرفة وعلى المجموعة بأكملها أن تلقى في القمامة، لكن لورا عرضت عليها في المقابل إقامة قداس دفنٍ جماعي في حديقة المطبخ، خلف شجيرة الراوند. أخبرتها بضرورة إقامة الصلاة عليها، فإن لم تفعل، فلن تتناول عشاءها أبداً. لطالما كانت مفاوضةً صعبة المراس، متى ما أصرت على موقفها.

ريناي حفرت الحفرة. كان يوم إجازة البستاني؛ استخدمت رفشه، والذي كان ممنوعاً على أي أحدٍ آخر لمسه، لكنها حالة طارئة. " فليرحم الرب زوجها،" قالت ريناي، بينما لورا أخذت تسجي رجال خبزها في صفٍ أنيق. "فهي عنيدةٌ كالخنزير".

"على كلٍّ لا أنوي الزواج بأحد،" أخبرتها لورا، "سأعيش بمفردي في المرآب".

" وأنا أيضاً لن أتزوج،" قاطعتها كي لا تتفوق عليّ.

"لن تفعليها أبداً". ردّت ريناي. " فأنت تحبين فراشك الناعم المرتب. في المرآب ستضطرّين إلى النوم على الإسمنت يغطيك الزيت والشحم".

فقلت لها، "أنا سأعيش في الدفيئة".

" لم تعد دافئة،" ردت ريناي. " ستتجمدين حتى الموت في الشتاء".

" إذن سأنام في إحدى السيارات،" قالت لورا.

في ذاك الثلاثاء الرهيب كنا قد تناولنا الفطور في المطبخ مع ريناي. تناولنا عصيدة الشوفان والخبز المحمص مع مربّى المرْملاد. أحيانا كنا نتناول الفطور مع أمي، لكنها في ذاك اليوم كانت مرهقة جداً. أمي كانت أكثر صرامة، أرغمتنا على الجلوس باستقامة وتناول قشور الخبز. "تذكروا أطفال الأرمن الجائعين". كذا اعتادت أن تقول لنا.

ربما الأرمن ما عادوا جائعين، فقد مر أمدٌ طويل على انتهاء الحرب، والنظام عاد واستقر من جديد. لكن محنة الأرمن لا بد وقد ظلت شعاراً حياً في عقل أمي. شعار، ابتهال، صلاة، تعويذة. قشور الخبز لا بد وأن تؤكل احتراماً لذكرى أولئك الأرمن، أياً كانوا؛ عدم تناولنا القشور كان تدنيساً لذكراهم. أنا ولورا لا بد وأننا وعينا نفوذ تلك التعويذة، لأنها لم تفشل يوماً في إقناعنا.

في ذاك اليوم لم تأكل أمي قشور الخبز. أذكر ذلك. فلورا أخذت تنتقدها دون كلل

– وماذا عن القشور، وماذا عن أطفال الأرمن الجائعين؟ إلى أن اعترفت أمي أخيراً بأنها ليست بخير. ما إن قالت ذلك حتى سرت قشعريرة كهربائية في سائر جسدي، لأني كنت أعلم. لطالما علمت.

ريناي أخبرتنا أن الرب يخلق الناس مثلما هي تعجن الخبز، لهذا بطون الأمهات تسمن متى ما حملن جنيناً: فالعجين كان ينتفخ. أخبرتنا أن غمازاتها هي بصمة إبهاميْ الرب. قالت لنا إن لها غمّازات ثلاث، بينما أناسٌ آخرون لا غمازة لهم على الإطلاق، لأن الرب لم يخلق الجميع على حد سواء، لو فعل لسئم من الأمر برمته، لذا أخذ يخلق الناس على أشكالٍ ألوان. لا يبدو الأمر عادلاً، لكن في النهاية سيتجلى لنا عدله.

لورا كانت في السادسة من عمرها حسب ما أذكر. وأنا في التاسعة. كنت مدركة أن الأطفال لا يصنعون من عجين الخبز – تلك قصة يروونها على مسامع الأطفال الصغار مثل لورا. لكن مع ذلك، لم يمنحني أحدهم شرحاً تفصيلياً.

اعتادت أمي قضاء فترات بعد الظهيرة جالسةً تحوك تحت السقيفة. كانت تحوك سترةً صغيرة جداً، مثل الستر التي كانت لا تزال تحوكها "للاجئين عبر البحار". أكانت هذه السترة أيضاً لأجل لاجئ؟ كنت أود أن أعرف. ربما، اعتادت أن تجيبني، وتبتسم. مع مرور الوقت تدوخ، جفناها يتثاقلان وينسدلان على عينيها، نظارتها الدائرية تنزلق عنها. أخبرتنا أن لها عينين في مؤخر رأسها، وبهما تعرف متى ما ارتكبنا خطأً ما. تصورت تلك العينين مسطحتين، لامعتين وعديمتي اللون، تماماً مثل عدستي نظارتها.

لم يكن من شيمها قضاء بعد الظهيرة في النوم. كثيرٌ من تصرفاتها لم تكن من شيمها. القلق لم يساور لورا، لكن ساورني. كنت أربط الأمور ببعضها، ما كان يقال لي وما أسمعه عرضاً. ما قيل لي: " أمك بحاجة إلى أن تخلد للراحة، لذا عليك أن تبقي لورا بعيدةً عنها كي لا تزعجها". ما سمعته عرَضاً (حديث ريناي مع السيدة هيلكوت): " الطبيب ليس راضٍ عن حالتها. يظنها على وشك الانهيار. بالطبع هي

لن تنبس بكلمة، لكنها ليست بامرأةٍ معافاة. وهناك رجال لا يسعهم ترك زوجاتهم وشأنهن". لذا عرفت أن أمي في خطرٍ ما، من أمرٍ ما له علاقة بصحتها وأمرٍ ما له علاقة بأبي، وإن لم أكن واثقة من ماهية الخطر الذي يتهدّدها.

قلت إن لورا لم تقلق، لكنها أخذت تتشبث بأمي أكثر من المعتاد. اعتادت الجلوس مقرفِصةً تحت السقيفة متى ما جلست أمي لترتاح، أو خلف كرسيها لدى كتابتها الرسائل. ومتى ما جلست أمي في المطبخ لورا أحبت الجلوس تحت الطاولة. كانت تجر وسادة معها، وكتاب الأبجدية، الكتاب الذي كان يخصني. هي حظيت بكثيرٍ من الأغراض التي كانت تخصني.

آنذاك لورا كانت متمكنة من القراءة، أو على الأقل متمكنة من قراءة كتاب الأبجدية. حرفها المفضل كان الحرف "L" كونه حرفها، الحرف الذي يستهل اسمها، "L is for Laura". أما أنا فلم أحظ بحرفٍ مفضل يستهل اسمي، "I is for Iris"، لأن الحرف "I"[35] حرفٌ يعود للجميع.

L is for Lily,
So pure and so white;
It opens by day,
And it closes at night.[36]

الصورة في الكتاب كانت لفتاتين صغيرتين ترتدي كل منهما قلنسوةً من القش قديمة الطراز، إلى جانبهما زنبقة ماء تجلس عليها جنية صغيرة – عارية، جناحاها شفافان مترأرئان. ريناي اعتادت أن تقول إنها لو صادفت مخلوقاً كهذا فستطاردُها بمذبّة. اعتادت أن تقولها لي مازحةً، لكن لم تقلها أبداً للورا إذ قد تأخذ الأمر بجدية وتتضايق.

لورا كانت مختلفة. مختلفة بمعنى غريبة الأطوار. كنت مدركة لذلك، لكني

---

(35) التلاعب اللفظي يكمن في أنّ ضمير المتحدث باللغة الإنجليزية هو "I" وبذا فإن حرف "I" هو الحرف الذي يشير به كل شخصٍ إلى نفسه.

(36) "L" – Lily: "L" هي الزنبق، نقيةٌ وبيضاء. تتفتح نهاراً وتنغلق في المساء.

اعتدت مضايقة ريناي بتكرار السؤال: "وما الذي تعنينه بمختلفة؟ " فتجيبني: "أي ليس مثل بقية الناس". لكن ربما في النهاية لم تكن لورا مختلفةً جداً عن بقية الناس. لربما كانت مثلهم – مثل عنصرٍ منحرف غريب يبقيه الناس سراً في دواخلهم على عكس لورا، ولهذا السبب خافوا منها. لأنها حقاً أخافتهم – أو إن لم تخفهم فعلى الأقل أثارت القلق في نفوسهم بطريقةٍ ما؛ وبالطبع كلما تقدمت في العمر أقلقتهم أكثر.

هو صباح الثلاثاء إذن، في المطبخ. ريناي وأمي كانتا تصنعان الخبز. لا: ريناي من كانت تصنع الخبز، أمي كانت تحتسي كوباً من الشاي. ريناي أخبرت أمي أنها لن تفاجأ إن قدمت عاصفة رعدية في وقتٍ لاحقٍ من النهار، فالجو خانق، أوليس من الأجدى لأمي أن تستظل في الحديقة، أو تستلقي؛ لكن أمي أخبرتها أنها تكره فكرة بقائها دون عمل شيء، يشعرها بانعدام قيمتها؛ قالت إنها تود البقاء برفقة ريناي. أمي بوسعها أن تمشي على الماء إن أرادت، كذا رأتها ريناي، وعلى أي حال فلا سلطة لها في إلقاء الأوامر عليها. لذا جلست أمي تحتسي الشاي بينما ريناي وقفت وراء الطاولة، تقلب كومة عجين الخبز، تضغط عليها بكلتا يديها، تطوي، تقلب، تضغط. يداها كانتا مغمورتين بالطحين، بدت وكأنها ترتدي قفازين أبيضين. الطحين تناثر كذلك على صدر مئزرها. تحت إبطيها دائرتان من عرق غمقتا زهور الربيع على فستانها المنزلي. بعض الأرغفة أخذت تتشكل ووضعت في المقالي، تعلو كل مقلاة منها منشفة أطباق نظيفة ورطبة. المطبخ كان عبقاً برائحة المشروم الرطب.
المطبخ كان حاراً، لأن الفرن تطلب كمية كبيرة من الفحم، وكذلك لأن موجة حرٍّ سادت الأجواء. النافذة كانت مفتوحة، فانسلت موجة الحر للداخل. الطحين المستخدم في عجن الخبز أحضروه من برميلٍ كبير موجودٍ في الكرار. إيّاكِ أن تصعدي إلى داخل البرميل فالطحين قد يغمر أنفك وفمك ويخنقك. ريناي تعرف طفلاً صغيراً علق في برميل الطحين بعد أن رمى به إخوته وأخواته هناك وكاد يموت خنقاً.

لورا وأنا كنا جالستين تحت طاولة المطبخ. كنت أقرأ كتاباً مصوراً للأطفال بعنوان رجال التاريخ العظماء. نابليون كان في المنفى على جزيرة سانت هيلين، يقف على جرف منحدرٍ صخري ويده داخل معطفه. ظننته يعاني من ألمٍ في بطنه. لورا كانت متململة. دبّت خارجاً من تحت الطاولة كي تتناول كأس ماء. "أتريدين قطعة عجين لتصنعي بها رجل الخبز؟" سألتها ريناي.

"لا،" أجابتها لورا.

"لا، شكراً،" قالت أمي مصححةً للورا خطأها.

لورا عادت وزحفت داخلاً تحت الطاولة. من موقعنا تسنّى لنا رؤية زوجَيْ الأقدام أمامنا، قدمَيْ أمي النحيلتين وقدمَيْ ريناي العريضتين في فردتَي حذائها المتين، ساقَيْ أمي الهزيلتين وساقَيْ ريناي السمينتين في جواربها الزهرية الضاربة للّون البني. كنا نصغي إلى الصوت المكتوم للقلب والضرب الذي يناله العجين. وإذ فجأةً كوب الشاي انكسر أشلاءً وأمي وقعت أرضاً، وريناي راكعة إلى جانبها. "يا إلهي. آيريس، اذهبي وأحضري أباك".

جريت نحو المكتبة. الهاتف يرنّ، لكن أبي لم يكن هناك. صعدت السلم نحو بريجه، في العادة مكانٌ ممنوعٌ علينا دخوله. الباب لم يكن مقفلاً: لا شيء في الحجرة سوى كرسيٍّ ومرمدات سجائر. لم يكن في الرواق الأمامي، لم يكن في الحجرة الصباحية، لم يكن في المرآب. لا بد وأنه في المصنع، هذا ما ظننته. لكني لم أكن واثقة من الطريق إليه، فالمصنع جدّ بعيد. لم أعرف أين عليّ أيضاً البحث عنه.

عدت إلى المطبخ وزحفت إلى تحت الطاولة حيث جلست لورا تضم ركبتيها إليها. لم تكن تبكي. لمحت على الأرض ما بدا لي وكأنه دم، أثرٌ منه؛ بقع حمراء غامقة على البلاط الأبيض. وضعت إصبعي عليه، لعقته – كان دماً. تناولت منشفة ومسحته عن الأرض. "لا تنظري،" قلت للورا.

بعد بُرهة نزلت ريناي الدّرجَ الخلفي وأدارت كرنك الهاتف واتصلت بالطبيب – لم يكن موجوداً، بل يتجوّل في الأرجاء كما هي عادته. ثم اتصلت بالمصنع وطلبت أبي. لم يتسنَّ لأحدٍ العثور عليه. "ابحثوا عنه في كل مكان، أبلغوه بأنها حالة طارئة،"

أخبرتهم ريناي. ثم هرعت أعلى السلم مرة أخرى. كانت قد نسيت تماماً الخبز، الأرغفة انتفخت أعلى مما يجب، وانقلبت على نفسها، وفسدت.

"ما كان عليها أن تتواجد في ذاك المطبخ الحار،" قالت ريناي للسيدة هيلكوت،" ليس في هذا الجو مع عاصفةٍ رعدية تدنو منا، لكنها ما كانت لترحم نفسها، ولا سبيل لإقناعها".

" هل عانت من ألمٍ كبير؟" سألتها السيدة هيلكوت بنبرة شفقةٍ واهتمام.

" شهدتُ ما هو أسوأ،" أجابتها ريناي. "حمداً للرب على رحُماته الصغيرة. انزلق خارجها كما الهريرة. لكنها فقدت دلاءً من الدم. علينا أن نحرق المرتبة، فلا سبيل أبداً لتنظيفها".

" يا إلهي، لا بأس، بإمكانها دائماً أن تحظى بآخر،" قالت السيدة هيلكوت، " فقد كان مقدّراً، لا بد وأنه عانى من خطبٍ ما".

" ممّا سمعته فما عاد بإمكانها،" قالت ريناي، " الطبيب يقول إنّ عليها أن تضع حداً لذلك، المرة القادمة سيقتلها ولا شك، فالحالِيّ كاد يفعلها".

" لا يجدر ببعض النساء أن يتزوجن،" قالت السيدة هيلكوت، " لسن ملائماتٍ للزواج. عليك أن تتحليّ بالجَلَد. أمي أنجبت عشرة، وما طرفت لها عين. ليس أن جميعهم قد عاشوا".

"أمي أنجبت أحد عشر،" قالت ريناي، " أنهكها حدَّ الانهيار".

كنت قد تعلّمت من تجاربي الماضية أن حديثاً كهذا بين ريناي والسيدة هيلكوت هو استهلالٌ لمسابقةٍ بينهما عن مدى شقاء حياة والدتيهما، وسرعان ما ستنتقلان للحديث عن الغسيل. لذا أمسكت بلورا من يدها ومشينا على أصابع أقدامنا وصعدنا السلم الخلفي. كنا قلقتين، وكذلك اعترانا الفضول: أردنا أن نعرف ما الذي جرى لأمّنا، وكذلك أردنا رؤية الهريرة. وها هي هناك، بجانب كومةٍ من الشراشف المنقعة بالدم المرمية على أرض الرواق خارج غرفة أمي، في حوضٍ مطلي بالمينا. لكنها لم تكن هريرة. بل شيئاً رمادياً، مثل حبة بطاطس مطبوخةٍ قديمة، برأسٍ كبير؛ كان ملتفًّا حول نفسه، يخزِّر عينيه وكأنما الضوء يضايقه.

قالت لورا هامسةً، "ما هذا؟ ليست بهريرة". ربضت فوقه، تمعن النظر فيه.
"فلننزل،" قلت لها. الطبيب كان ما زال في غرفة أمي، نسمع صوت خطواته. لم أشأ أن يمسك بنا موجودتين في المكان، فقد كنت متيقنة أن هذا المخلوق يُحرَّم علينا رؤيته؛ وما كان ينبغي علينا أن نراه، على الأخص لورا – فقد كان منظراً يماثل منظر الحيوان المدهوس، وكقاعدة فلا بد وأنها ستشرع في الصراخ، وأنا من سيقع عليها اللوم.
"هذا رضيع،" قالت لورا، "غير مكتمل". كانت هادئة بشكلٍ مفاجئ. "المسكين. لم يرد أن يولد للحياة".

في وقتٍ متأخّر من النهار، اصطحبتنا ريناي لرؤية أمي. كانت تستلقي في الفراش ورأسها مُسندًا بوسادتين؛ ذراعاها الهزيلتان خارج الشرشف؛ شعرها الآخذ في البياض شفافاً، وخاتم زواجها يومض في يدها اليسرى، وراحتا يديها تقبضان على الشرشف على جانبيها. شفتاها مزمومتان وكأنّها تتفكّر مستغرقةً في أمرٍ ما، هي ذات الإيماءة متى ما كانت منكبة على إعداد إحدى قوائمها. عيناها مغمضتان. جفناها المتقوّسان منسدلان عليهما، بدت عيناها أكبر مما عليهما مفتوحتين. نظارتها مُسجّاة على المنضدة الليلية جانب إبريق الماء، كل عينٍ من عينيها الدائريّتين لامعةٌ وخاوية.
" هي الآن نائمة،" همست ريناي". لا تلمساها".
فتحت أمي عينيها. فمها أخذ يترجرج؛ أصابع يدها القريبة منا انبسطت. "بإمكانكما معانقتها،" قالت لنا ريناي، "لكن ليس بقوة". فعلتُ تماماً كما قيل لي. أما لورا فشقت طريقها نحو أمي وألقت برأسها منفعلةً على جانبها، تحت ذراعها. كانت هناك رائحةٌ باهتة للخزامى الزرقاء للملاءات المنشاة، رائحة الصابون على جسد أمي، ومن أسفلها رائحةٌ لاذعةٌ للصدأ، ممزوجة برائحة أوراق شجرٍ رطبة لكن محترقة.

أمي ماتت بعد خمسة أيام. ماتت جراء الحمى؛ كذلك لكونها ضعيفة؛ لأنها عجزت عن استعادة عافيتها، هذا ما قالته ريناي. خلال تلك الأيام كان الطبيب يجيء ويذهب، مع صفٍّ متعاقبٍ من الممرضات الكفؤات الباردات يحتللْنَ الكرسي المريح في غرفة النوم. ريناي كانت تهرع صعوداً ونزولاً، تحمل الأحواض، المناشف، وأكواب الحساء. أبي أخذ يتوشع مضطرباً في ذهابه ومجيئه من المصنع، ينضم إلينا على مائدة العشاء مهزولاً ومضنىً مثل متسول. يا ترى أين كان، بعد ظهيرة ذاك اليوم حين لم يتمكن أحدٌ من العثور عليه؟ لا أحد أجاب.

لورا أخذت تربض على أرض الرواق في الطابق العلوي. قيل لي أن ألعب معها لأبعدها عن طريق الأذى، لكنها لم ترغب باللعب. جلست هكذا، تضم ذراعيها حول ركبتيها، تسند ذقنها عليهما، يعلو وجهها تعبيرٌ تأمليّ وسري، وكأنها تمتص قطعة حلوى. لم يكن مسموحاً لنا بتناول الحلوى. لكن حين أرغمتها على فتح فمها، لم أجد سوى حصاةٍ دائريةٍ بيضاء.

خلال ذاك الأسبوع الأخير كان مسموحاً لي برؤية أمي كل صباح، لكن فقط لعدة دقائق. لم يسمح لي بالتحدث معها، لأنها (كما قالت ريناي) كانت تهذي. بمعنى أن أمي ظنت أنها في مكانٍ آخر. أخذت تتناقص كل يوم. عظمتا وجنتيها كانتا ناتئتين؛ رائحة الحليب تفوح منها، مع رائحة شيءٍ مسلوخ، زَنِخ، مثل رائحة الورق البني الذي يلفون به قطع اللحم.

قضيت زياراتي لها عابسة متجهّمة. أعي كم هي مريضة، بيد أني كنت حانقةً عليها لأنها مريضة. شعرت وكأنها بطريقةٍ ما تخونني – تتهرب من واجباتها، تتنازل عن عرشها. لم يخطر لي أنها قد تموت. خشيتُ هذا الاحتمال سابقاً، لكني الآن مرعوبة إلى الدرجة التي طردت فيها فكرة موتها خارج عقلي.

في الصباح الأخير، الذي لم أعرف أنه سيكون الأخير، بدت أمي أقرب إلى نفسها. كانت أكثر وهناً، لكنها في ذات الوقت متماسكة أكثر – وجودها تكثّف أكثر. نظرت نحوي وكأنها فعلاً تراني. "النور ساطع،" همست لي. "ألك أن تسدلي تلك الستائر؟" نفذت طلبها، ثم عدت ووقفت جانب سريرها، أفتل المنديل في يدي والذي أعطتني

إياه ريناي في حال بكيت. تناولت أمي يدي وأمسكت بها؛ يدها حارةٌ وجافة، أصابعها مثل أسلاكٍ ناعمة.

"كوني فتاةً صالحة،" قالت لي. "أرجو أن تكوني أختاً صالحة للورا. أدري أنك دائماً ما تحاولين".

أومأتُ لها. لم أعرف ما أقول. شعرت بأني الضحية لظلمٍ وقع عليّ: لِمَ أنا من يفترض بها دائماً أن تكون أختاً صالحة للورا، لم لا أحد يطالب بالعكس؟ من المؤكد أن أمي أحبت لورا أكثر مما أحبتني.

وربما لا؛ ربما أحبّتنا على حدٍّ سواء، أو ما عادت تقوى على حب أحد: فهي قد تجاوزت تلك المرحلة، هي الآن في طبقة الستراتوسفير الباردة الجليدية، بعيدة كل البعد عن الحقل المغناطيسي الدافئ الكثيف للحب. لكني ما كنت لأتخيل شيئاً كهذا. حبها لنا كان أمراً مسلماً به – حقيقياً وملموساً، مثل الكعكة. السؤال الوحيد الذي كان يؤرقنا هو من منا ستنال النصيب الأكبر.

(الأمّهات، يا لهن من بدعةٍ مُختَلقة. فزّاعات، دمى شمعية نخز فيها الدبابيس، رسومٌ بيانية سطحية. ننكر عليهن وجوداً ذاتياً مستقلاً، نختلقهن بما يناسبنا نحن – شهواتنا، أمانينا، عيوبنا. الآن وبعد أن أصبحتُ أُمًّا، بتُّ أعرف).

أمي ثبتت نظرة عينيها الزرقاوَين السماوية عليّ. يا له من جهدٍ خارق بذلته كي تقوى على إبقاء عينيها مفتوحتين. وكم بدوتُ أنا بعيدةً عنها – مسافات، فقاعةً زهرية مرتعشة. كم كان شاقاً عليها التركيز عليّ! بيد أني لم ألحظ ذرةً من جَلَدِها، إن كان بالفعل جَلَداً.

أردت أن أقول لها إنها مخطئة فيما تظنه عني، عن نواياي. فلم أحاول دائماً أن أكون أختاً صالحة: بل على العكس. أحيانا كنت أزجر لورا وأصفها بالآفة وآمرها بالكف عن مضايقتي، فها هي ذا في الأسبوع الماضي، وجدتها تلعق ظرفاً – من مجموعتي المميزة من الأظرف المخصصة لرسائل الشكر – فأخبرتها أن الصمغ عليها مصنوعٌ من الأحصنة المغلية، مما دفعها للتقيؤ والتنشق. وأحياناً كنت أعمد إلى الاختباء عنها، داخل غور شجيرة الليلك جانب الدفيئة، حيث أقرأ كتبي، إصبعاي

أقحمهما في أذنيّ بينما تجول في الأرجاء باحثةً عني، تنادي عليّ دون أي فائدة. وغالباً ما تنصّلتُ من صنائعي بها بالحد الأدنى من العقاب.

لكني لم أجد الكلمات لأعبر لها عن شعوري، عن اختلافي مع وجهة نظر أمي عن الأمور. لم أكن أدري أنها ستتركني خلفها مع فكرتها هذه عني: مع فكرتها عن طيبتي مثبتةً بالدبوس كما الشارة على صدري، دون أن أحظى أبداً بفرصة رمي الشارة في وجهها (لكان هذا هو التتابع الطبيعي للأمور بين كلِّ أمٍ وابنتها – لو أنها عاشت، لو أني كبرت في حضنها.)

الفراشات السّوداء

مغيبُ الليلة نارٌ متوهجة، تخبو على أقل من مهلها. في الشرق، البرق يخفق في أعالي قبة السماء المعلقة، قصفُ الرعد كما الباب يصفقُ فجأةً. البيت وكأنه فرن، رغم مروحتي الجديدة. أحضرت معي مصباحاً للخارج؛ فأحياناً أبصر أفضل في العتمة. لم أكتب شيئاً طوال الأسبوع الماضي. فقدتُ عزيمتي. فلماذا أدون أحداثاً توقع الكآبة في النفس؟ لكني سرعان ما وجدت نفسي أعاود الكرة. تناولت خربشتي السوداء؛ أراها تنبسط أمامي خيطاً أسود من الحبر على سطح الصفحات، متشابكة لكن مقروءة. هل تراودني رغبةٌ ما في ترك بصمةٍ لي؟ بعد كل ما فعلت لأتجنب ذلك، آيريس. أثرها، مهما كان ذاك الأثر مختزلاً: أحرف اسمي الأولى مكتوبة بالطباشير على الرصيف، أو علامة القرصان (X) ممهورةً على خريطةٍ ما، تكشف الشاطئ حيث الكنز كان مدفوناً كل تلك الأعوام.

لماذا تتملكنا الرغبة الشديدة في تخليد أنفسنا؟ حتى ونحن بعدُ أحياء. نسعى لإثباتِ وجودنا، مثل كلبٍ يتبول على صنبور الإطفاء. نعرض صورنا المؤطرة، مخطوطات شهاداتنا العلمية معلقة على الجدران، أطقم فناجين آنيتنا الفضية؛ نوسم ملاءاتنا بأحرف أسمائنا الأولى، نحفر أسماءنا على جذوع الأشجار، نخربشها على جدران الحمامات. هو ذات الدافع. وما الذي نأمل نيله من فعل شيءٍ كهذا؟ التصفيق، الحسد، الاحترام؟ أو بكل بساطة نحاول لفت الانتباه، أي انتباهٍ كان؟ على الأقل نريد شاهداً. فنحن لا نطيق فكرة أن أصواتنا ستخبو في النهاية وإلى الأبد، كما يخبو الصوت في المذياع.

في اليوم التالي لجنازة أمي أرسلونا أنا ولورا خارجاً لقضاء الوقت في الحديقة. ريناي من أرسلتنا خارجاً؛ قالت إنها بحاجة إلى رفع قدميها لأنها لم تجلس للحظة طوال اليوم. "لقد هلكت،" كذا قالت لنا. أسفل عينيها بقعٌ بنفسجية فخمّنتُ أنها كانت تبكي سرًّا كي لا تزعج أحد، وأنها تود الاستغراق في البكاء مرةً أخرى متى ما تركناها لحالها.

"سنلتزم الهدوء،" قلت لها. لم أشأ الذهاب خارجاً – النهار جدّ ساطع، جد متوهج، وجفناي منتفخان وزهريّان – لكن ريناي أخبرتنا أن علينا الذهاب، وعلى كلٍّ فالهواء الطلق سينفعنا. لم تقل لنا أن نخرج ونلعب، لأنّ في ذلك قلة احترامٍ لأمي التي لم يمر وقتٌ بعد على وفاتها. قيل لنا أن نخرج وحسب.

أقيم استقبال العزاء في آفيليون. لم تكن رِقْبة[37]، الرِّقْبة في العادة تقام على الجانب الآخر من نهر جوغز، مناسبةٌ تتسم بالفظاظة وسوء السمعة، وتجرع الخمور. لا: عزاؤنا كان استقبالاً. العزاء امتلأ بالحشود – عمال المصانع قدموا، برفقة زوجاتهم وأطفالهم، وبالطبع وجهاء المدينة – رجال المصارف، رجال الدين، المحامون، الأطباء – لكن العزاء لم يكن معداً لاستقبال كل هؤلاء الحضور، وإن بدا كذلك. ريناي أخبرت السيدة هيلكوت، والتي استعانوا بها كي تساعد في إقامة العزاء، أنّ المسيح لو كان هنا لضاعف أرغفة الخبز والسمك، لكن الرقيب تشايس ليس بالمسيح ولا يتوقع منه إطعام كل هذه الحشود، وبالطبع وكما هي عادته لا يعرف أين يقيم الحد، كل ما ترجوه أن ينتهي الأمر دون موت أحدهم دهساً تحت أقدام الجموع.

البيت اكتظّ بالمدعوّين من الحضور، دخلوه بوقار، بحزن، يعتريهم فضولٌ شديد. ريناي كانت قد عدّت الملاعق مرتين: قبل إرسالها وبعد جمعها، قائلةً إنّه كان من الأجدر بنا لو استخدمنا الملاعق الأقل قيمةً، وإنّ هناك أناسًا لن يمانعوا الفرار من المكان بأي شيءٍ ليس مسمّراً فقط كي تحظى لنفسها بتذكار، ومع رؤيتها للطريقة التي التهموا فيها الطعام، فما كان أحدهم ليمانع لو قدمت لهم رفشاً بدل الملاعق.

---

(37) الرِّقْبة – wake: السهر عند جثة الميت قبل دفنها.

ومع ذلك، فقد تبقى قدرٌ من الطعام – نصف خنزير، كومةٌ صغيرة من الكوكيز، عدة كعكاتٍ ملتهمة – وأنا ولورا قضينا الوقت نتسلل إلى الكرار خلسةً. ريناي كانت مدركة لما نفعل، لكن لم تملك الطاقة حينها لتمنعنا – لتقول لنا، "ستُفسدان عشاءكما،" أو، "توقفا عن القضم في كراري وإلا ستتحولان إلى فأرتين،" أو، "قضمة أخرى صغيرة وستنفجران" – أو تهددنا بأيٍّ من تلك التحذيرات والتوقعات التي دوماً ما كنتُ في سرّي أطمئن إليها.

هذه المرة سُمِح لنا بحشو أنفسنا دون رقيب. كنت قد التهمت العديد من قطع الكوكيز، العديد من قطيعات لحم الخنزير؛ وقطعةً كاملة من كعكة الفاكهة. كنا لا نزال في فستانينا الأسودين، مخنوقتَين فيهما من الحرّ الشديد. ريناي كانت قد جدلت شعرينا ضفائر مشدودة إلى الوراء، مع شريطةٍ سوداء مفتولة وجاسئة أعلى كل ضفيرةٍ وأسفلها: أربع فراشاتٍ سوداء كالحة لكل واحدةٍ منا.

في الخارج، خزّرت عينيّ تحت وهج الشمس. كنت مغتاظةً من الاخضرار الحاد للأوراق، الاصفرار والاحمرار الحادّين للأزهار: يا لوقاحتها، تستعرض علينا خفق وميضها، وكأنها تملك الحق. فكّرت بقطع رؤوسها، أن أعيث فيها خراباً. كنت أشعر بالهجران، كذلك كنت نكدة، ومتخمة حدّ الثمالة من السكّر.

لورا أرادت منا أن نصعد على تمثالَيْ أبي الهول جانبيْ الدفيئة، لكني قلت لا. ثم أرادت منا أن نذهب ونجلس بجانب الحورية الحجرية ونتأمل الأسماك الذهبية. لم أر ضرراً في ذلك. أخذت لورا تثب أمامي على العشب. كانت جذِلة، وكأن لا همّ في الدنيا يقلقها؛ تصرّفت على هذا النحو طوال جنازة أمي. بدت محتارةً لرؤيتها كل هذا الحزن الغامر حولها. وما أثار الغضب المعترم في صدري أن الناس شعروا بالأسف عليها لحيرتها أكثر مما شعروا بالأسف عليّ.

"الطفلة المسكينة،" أخذوا يقولون. "لا تزال بعد صغيرة، لا تعي ما حصل".

"أمي مع الرب،" قالت لورا. صحيح، هذه هي الرواية الرسمية، فحوى كل الصلوات التي أقيمت على روحها؛ لكن لورا تؤمن بالأشياء على طريقتها هي، ليس في المعنى المزدوج الذي يأخذه الجميع، لكن بإيمانٍ راسخ أحادي العقل أثار فيّ

الرغبة العارمة في هزّها.

جلسنا على الحافة الصخرية الناتئة حول بركة الزنابق؛ كل ورقةٍ طافية من أوراق الزنابق لمعت في ضوء الشمس مثل مطاطٍ أخضرٍ رطب. كان عليّ أن أرفد لورا. اتكأت على الحورية الحجرية، تؤرجح ساقيها، تخوّض أصابعها في الماء، تدندن لنفسها.

" لا يجدر بك أن تغنّي،" قلت لها، " فأمنا قد ماتت".

"لا، هي ليست ميتة،" قالت لورا لطمأنتي بنبرةٍ تشوبها الرضا عن نفسها. "هي ليست حقاً ميتة. هي في الجنة مع الرضيع الصغير".

دفعت بها عن الحافة. لكن ليس باتجاه البركة – فقد كنت واعية للعاقبة. دفعت بها على العشب. لم يكن سقوطاً من علٍ، والأرض كانت ناعمة؛ ما كان ليؤذيها الوقوع إلى حدٍّ كبير. انبطحت على ظهرها، ثم تدحرجت ونظرت للأعلى اتجاهي بعينين مشدوهتين، وكأنها لا تصدق ما فعلته التو بها. فمها كان مفتوحاً كما برعم الورد، على صورة الحرف "O"، مثل طفلٍ ينفخ على شموع كعك ميلاده في كتابٍ مصور. ثم شرعت في البكاء.

لا بد أن أعترف أني سررت لما جرى. أردتها أن تعاني هي الأخرى – مثلما أنا أعاني. كنت قد سئمت من تملصها من مسؤولياتها بحجة كونها صغيرة.

رفعت لورا نفسها عن العشب وأخذت تجري على ممر السيارات الخلفي المؤدي إلى المطبخ، تنتحب وكأنها طُعنت بسكين. جريت خلفها: من الأفضل أن أتواجد لدى وصولها إلى شخصٍ مسؤول، في حال اتهمتني. اعتادت الجري بصورةٍ خرقاء: ذراعاها ممدودتان بغرابة، ساقاها الحمشاوان الصغيرتان ترفسان جانبياً باهتياج، فراشتاها الجاسئتان تصطفقان أسفل ضفيرتيها، تنورتها السوداء تثب. في طريقها وقعت، هذه المرة فعلاً آذت نفسها – سلخت جلد يدها. لمّا رأيتُ ذلك، أخيراً ارتحت: فنزرٌ من الدم كفيلٌ بأن يغطي على حقدي.

الصّودا

في وقتٍ ما خلال الشهر الذي تلا وفاة أمي – لا أدري تماماً متى – أخبرني أبي أنه سيصطحبني معه إلى البلدة. لم يسبق له أن أعارني أي اهتمامٍ يذكر، وكذا الحال مع لورا – فقد تركنا في عهدة أمي، ومن بعدها ريناي – لذا جفلت لدى طلبه.

لم يصطحب لورا. لم يقترح حتى اصطحابها.

أعلن عن النزهة المرتقبة على مائدة الفطور. أصرّ على تناولنا أنا ولورا الفطور معه عوضاً عن المطبخ مع ريناي كما اعتدنا. جلسنا على رأس الطاولة الطويلة وجلس هو مقابلنا على الرأس الأُخرى. نادراً ما تحدث معنا: عوضاً عن الحديث كان يقرأ الصحف، وكلتانا نجلس في رهبةٍ منه حدّ خشيتنا مقاطعته. (كنا نعبده، بالتأكيد. فإما أن نعبده وإلا سنمقته. لم نجد فيه ما يشجع على إبداء شعورٍ معتدل اتجاهه).

الشمس كانت تخترق النوافذ الزجاجية المعشّقة، تلقي بضيائها عليه ألواناً، فيبدو وكأنه مغموسٌ في أحبار الرسم. ما أزال أذكر أزرق الكوبلت[38] على وجنته، الأحمر الكرزي المتوهج على أصابعه. أنا ولورا حظينا أيضاً بألوان كتلك في متناول أيدينا. اعتدنا تحريك أطباق العصيدة قليلاً جهة اليسار وقليلاً جهة اليمين، وبذا حتى الشوفان الرمادي الرتيب غدا أخضرَ أزرقَ أو بنفسجيًّا: طعامٌ سحري، إما تعويذةٌ أو سم، يعتمد على نزوتي حينها أو على مزاج لورا، بعدها نكشر في وجه بعضنا بينما نتناول الطعام، لكن بصمت، بصمت. فالهدف كان أن نفلت بتصرفات كهذه دون

(38) الكوبلْت – cobalt: صبغٌ أزرق مخضر.

أن نثير انتباهه إلينا. على كلٍّ، وجب أن نفعل شيئاً كي نسلي أنفسنا.

في ذاك النهار الاستثنائي، قدم أبي باكراً من مصانعه وسرنا نحو البلدة. لم تكن بعيدة؛ في ذاك الزمن ما كان في البلدة مكانٌ بعيدٌ عن الآخر. أبي فضّل السير على القيادة، أو على أن يتولى سائقٌ قيادة سيارته. أظنها ساقه الفاسدة هي الدافع: أراد أن يري الجميع أنه قادرٌ على المشي. أحب التنزه سيراً في أرجاء البلدة، وكم كانت خطاه واسعة، رغم عرجه. أخذت أعدو بسرعة أحاول مجاراة خطاه الوعرة.

"سنتوجه إلى (بِتي)،" أخبرني أبي، "وسأشتري لك صودا". لا حدث منهما كان قد سبق لي وأن فعلته من قبل. مَغدى بِتي كان لأهل البلدة، لا لي ولورا، كذا قالت ريناي. ما كان لينفعنا أن ننزل عن مستوانا. كذلك، فشراب الصودا انغماسٌ هدّام وينخر الأسنان. فأن يأتي أبي ويعرض عليّ ارتكاب فعلين محرّمين في ذات الآن، وبكل أريحيّة، كاد يثير الذعر في قلبي.

على الشارع الرئيسي في بورت تيكونديروغا كانت هناك خمس كنائس وأربع مصارف، كلها مشيدة من الحجر، وكلها مكتّلة. كان عليك أحياناً أن تقرأ الأسماء عليها كي تتبيّن الفرق، مع أن البنوك افتقرت للأبراج. مَغدى بِتي يجاور أحد البنوك. ظلّته مخططة باللونين الأخضر والأبيض، وعلى واجهته الزجاجية صورة فطيرة دجاج تشبه قلنسوة طفلٍ رضيع مصنوعةٍ من العجين، مع كشكشٍ على سائر حوافها. في الداخل، الإضاءة صفراء معتمة، والجو كان عبقاً برائحة الفانيلا والقهوة والجبنة الذائبة. السقف كان مصنوعاً من الصفيح المكبوس؛ المراوح ذات الشفرات تدلت منه وكأنها مراوح طائرة. عدة نساء ترتدين القبعات كن جالساتٍ على الطاولات البيضاء المنمقة، أبي أومأ لهنّ، وهن أومأن له.

هناك صفٌّ جانبيّ من المقصورات بلون الخشب الداكن. أبي جلس في إحداها، واندسستُ مقابله. سألني أي نوعٍ من الصودا أرغب، لكني لم أكن قد اعتدت التواجد وحدي معه في مكانٍ عام فاعتراني الحياء. كذلك لم أكن أدري أصلاً ما أنواع الصودا. لذا طلب لي صودا بنكهة الفراولة وطلب لنفسه فنجان قهوة.

النادلة كانت ترتدي فستاناً أسود وقبعةً بيضاء، نتفت حاجبيها إلى قوسين رفيعين، شفتاها حمراوان لامعتان مثل المربى. نادت أبي "الرقيب تشايس" وهو ناداها "آغنس". بذا، ومن الطريقة التي أسند فيها مرفقيه على الطاولة، أدركتُ أن المكان مألوفٌ لديه.

آغنس سألت إن كنت ابنته الصغيرة، وكم أنا حلوة؛ رمقتني بنظرةٍ كارهة. بعدها مباشرةً أحضرت لأبي قهوته، تتهادى على كعبي حذائها، وما إن وضعت الفنجان على الطاولة لمست يده لهنيهة. كنت قد لاحظت اللمسة، لكن ما كنت لأتمكن من تفسيرها بعد. ثم أحضرت لي الصودا، في كأسٍ مخروطية وكأنها قبعة مقلوبة لأحمقٍ ما: في قلبها شاروقتين. الفقاعات تصاعدت حتى أنفي وأدمعت عينيّ.

وضع أبي قطعة سكر في فنجان قهوته ومزجها، ثم قرع جانب الفنجان بملعقته. أخذت أتفحصه من أعلى حافة كأس الصودا. فجأةً بدا لي مختلفاً؛ وكأنه رجلٌ آخر لم ألتق به من قبل – أكثر غموضاً، أقلّ جموداً نوعاً ما، لكن بتفاصيل أوضح. نادراً ما نظرت إليه عن قربٍ هكذا. شعره ممشط باستقامة إلى الخلف وقصيرٌ على الجانبَين، بدأ يتقهقر عن صدغيه. عينه الصالحة زرقاء مسطحة، مثل ورقةٍ زرقاء. وجهه المحطم، الذي ما زال على وسامته، بدت على سيماه ذات شرود الذهن الذي نراه عليه في الصباح، على مائدة الفطور، وكأنه يستمع إلى أغنية، أو دوي انفجارٍ بعيد. شاربه أكثر شيباً مما اعتدت رؤيته عليه، وبدا لي غريباً حينها، لدى تفكري بالأمر، أن وجوه الرجال تنمو عليها الهُلب أما النساء فلا. حتى ملابسه الاعتيادية أمست غامضة في الضوء المعتم العبق برائحة الفانيلا، وكأنها تعود إلى رجلٍ آخر وهو استعارها منه. كانت أكبر من مقاسه، لهذا السبب بدت هكذا. فقد انكمش. لكن في ذات الوقت غدا أطول.

ابتسم لي، وسألني إن كنت مستمتعةً بشراب الصودا. بعدها ركن إلى الصمت والتأمل. ثم تناول سيجارةً من علبته الفضية التي كان يحملها دوماً معه، وأشعلها، ونفث دخانها. "إن وقع أي شيء،" قال لي أخيراً، "عليك أن تعديني بالاعتناء بلورا". أومأت له بوقار. ما الذي يعنيه بأي شيء؟ فما المتوقع حصوله؟ دب فيّ الذعر، هل

أنا على وشك سماع خبرٍ سيء، وإن لم أدر ما الخبر السيء الذي أخشاه فعلاً. أتراه سيرحل بعيداً – إلى ما وراء البحار. فلم أكن تائهة عن قصص الحرب. ومع ذلك لم يمنحني أي تفسير.

"نتصافح على عهدنا؟" قال لي. مددنا يدينا فوق الطاولة؛ يده صلبة وجافة، مثل مقبض حقيبةٍ جلدية. عينه الزرقاء الصالحة قيّمتني، وكأنما تتساءل إن كنت على قدر المهمة، إن كنت حقاً شخصاً يعتمد عليه؟ رفعت ذقني، جلست باستقامة رافعةً كتفيّ. كم كنت مستميتة لنيل رضاه عني.

"يا ترى ما الذي يمكن لك أن تشتريه بنيكل واحد؟" قال أبي. سؤاله باغتني، عقد لساني: فأنا لم أعرف. فأنا ولورا لم يسبق لنا أن حصلنا على نقودٍ في أيدينا كي ننفقها، لأن ريناي لطالما قالت إن علينا تعلّم قيمة الدولار.

من الجيب الداخلي لبدلته الداكنة تناول أبي مذكرته المغلفة بالجلد وانتزع ورقةً منها. ثم بدأ يتحدث عن الأزرار. لم يكن من المبكر أبداً، قال لي، أن أتعلم المبادئ البسيطة للاقتصاد، والتي سأحتاج إلى معرفتها كي أتصرف بمسؤولية، متى ما كبرت.

"فلنفترض أنك بدأت مع زرين،" قال لي. أخذ يشرح لي أن نفقاتي هي مجموع تكلفة صناعة الزرين، والربح الإجمالي هو السعر الذي يتسنى لي بيع الأزرار عليه، وصافي الربح هو هذا الرقم ناقص النفقات، على مدى فترةٍ معلومة من الوقت. بعدها سيتسنى لي الاحتفاظ بشيءٍ من الربح الصافي لنفسي وأستخدم البقية هذه المرة بما يكفي لصناعة أربع أزرار، ثم أبيع تلك الأزرار ويتسنى لي صناعة ثمانية. رسمَ لي مخططاً صغيراً بقلمه الرصاص الفضي: زران، ثم أربعة، ثم ثمانية أزرار. الأزرار تضاعفت على الورقة بصورةٍ محيّرة، وعلى العمود جانبها أخذت الأموال تتكدس. بدا الأمر لي وكأنه يقشر البازلاء – الحبوب في هذا الوعاء، والقرون في الوعاء الآخر. سألني إن كنت قد استوعبت حديثه لي.

تفحّصت وجهه لأرَ إن كان جاداً. فلطالما سمعته يتهم مصنع الأزرار بكونه شركاً علق فيه، رمالاً متحركة غرق فيها، نحساً عليه، وعقبةً في طريقه، لكن هذا ما اعتاد قوله لدى سكره. الآن هو واعٍ كفاية. لم يبد لي وكأنما يحاول أن يشرح لي أمراً،

بل كأنما يود الاعتذار مني. هو أراد شيئاً ما مني، عدا جوابي على سؤاله. كأنما كان يرجو المغفرة مني، أن أحلّه من جريمةٍ ما؛ لكن يا ترى ما الذي اقترفه بحقي؟ لا شيء خطر لي آنذاك.

الحيرة غمرتني، رأيت نفسي غير كفؤة: أيًّا كان ما يطلبه مني أو يأمرني به، فقد كان فوق طاقتي. تلك كانت المرة الأولى التي يتوقع فيها رجلٌ مني أكثر مما يسعني منحه، وما كانت بالمرة الأخيرة.

أجبته، "نعم".

في الأسبوع السابق لوفاتها – في أحد تلك الصباحات المروعة – أمي قالت لي شيئاً غريباً، مع أني حينها لم أر أي غرابةٍ فيما قالت. قالت لي: "في أعماقه، والدك يحبك". لم يكن من عادتها التحدث معنا عن المشاعر، وبالأخص الحب – حبها أو حب أي شخصٍ آخر، عدا محبة الرب بالطبع. لكن يفترض بالآباء أن يحبوا أطفالهم، لذا أخذت ما قالته لي على أنه تطمين: رغم المظاهر، فأبي مثله مثل كل الآباء، أو ما يُنتظر منهم أن يكونوا عليه.

لكني الآن أظن الأمر كان أكثر تعقيداً من هذا. لربما كان تحذيراً. ولربما كان عبثاً. فحتى إن كان في أعماقه يحبني، فهناك ركامٌ هائلٌ يعلو حبه لي، وما الذي ستجدينه إن حفرت عميقاً في الركام؟ لن تجدي هديةً بسيطة، ذهبيةً متلألئة؛ بل ستجدين غرضاً عتيقاً وقد يكون ساماً، مثل حليةٍ حديديةٍ صغيرة يتآكلها الصدأ بين العظام القديمة. طلسمٌ ما، هذا ما ستجدين الحب عليه، بيد أنه طلسمٌ ثقيل؛ غرضٌ ثقيلٌ عليّ حمله معي أينما ذهبت، يتدلى من سلسلة قيده الحديدية المعلقة حول رقبتي.

IV

السفّاح الأعمى: المقهى

المطر خفيف، يهطل على ذات الوتيرة منذ الظهيرة. ضبابٌ رقيقٌ ينبعث من الأشجار، ومن الطرق. تمر على الواجهة الأمامية المطلية على زجاجها صورةُ فنجان قهوة، أبيضَ يطوّقه شريطٌ أخضر مع أثرٍ للبخار يمتدّ في ثلاثة خطوطٍ متصاعدة متمايلة، وكأنما قبضةٌ من ثلاثة أصابع انزلقت للأسفل على الزجاج الرطب. على الباب، بأحرف ذهبية متقشرة، مكتوبٌ مقهى؛ تفتحه وتدخل، تهز مظلتها. لون مظلتها قشدي، مثل لون معطف المطر من البُبْلين[39] الذي ترتديه. ترمي بقلنسوة معطفها للخلف.

هو في المقصورة الأخيرة جانب الباب المتأرجح للمطبخ، تماماً حيثما قال. الجدران مصفرة من أثر الدخان، المقصورات الثقيلة مطلية باللون البني الرتيب، كل واحدة منها معلقٌ جانبها ما يُشبه مخلب دجاجة معدني لتعليق المعاطف. الرجال يجلسون في المقصورات، لا أحد هناك سوى رجال، في معاطفهم الفضفاضة وكأنها بطاطين بالية، لا ربطات عنق، شعورهم مثلمة، أرجلهم متباعدة وأقدامهم في أحذيتهم الثقيلة مثبتة على ألواح الأرضية. الأيدي وكأنها جِذل: تلك الأيدي قد تنقذك أو تهرسك ضرباً وستبقى تلك الأيدي على ذات هيئتها سواءً أنقذتك أم هرستك. أدواتٌ جلفة، وكذا الحال مع أعينهم. هناك رائحةٌ تعبق بها الغرفة، رائحة ألواحٍ متعفنة وخلٍّ مسكوب وحموضة البناطيل الصوفية واللحم العتيق والاستحمام مرةً في الأسبوع، رائحة التقتير والغش والسخط. هي مدركة لأهمية تصرفها وكأن

(39) poplin raincoat: البُبْلين هو قماشٌ قطني مضلع متين.

الرائحة لا تسترعي انتباهها.

يرفع يده، والرجال الآخرون يرمقونها بعين الريبة والاحتقار بينما تسارع الخطى اتجاهه، كعبا حذائها يطقطقان على الخشب. تجلس مقابله، تبتسم بارتياح: هو هنا، لا يزال هنا.

"بحق يهوذا، لما صنع فرقاً لو أتيتني بمعطفٍ من فرو المنك".

"وما الذي فعلته؟ ما الخطأ الذي ارتكبته؟"

"معطفك".

"إنه معطفٌ وحسب. معطفٌ عادي،" تقول له متلعثمة، "وما الخطب فيه؟"

"بحق المسيح، تأملي نفسك. انظري حواليك. نظيفٌ زيادة عن اللزوم".

"في نظرك لا أحسن صنع أي شيء، أليس كذلك؟" تقول له، "لن أحسن أبداً صنع أي شيء".

"أنت تحسنين صنع شيء، وتعرفين تماماً ما هو. لكنك لا تفكرين بعواقب الأمور".

"أنت لم تُخبرني. فأنا لم أتواجد هنا من قبل، لم آتِ قط إلى مكانٍ كهذا. وما كنت لتتوقع مني أن أهرع خارج باب البيت باديةً مثل عاملة تنظيف – هل فكرت أنت بذلك؟"

"حبذا لو أنك أحضرت وشاحاً أو أي شيءٍ آخر. كي تغطين به شعرك".

"شعري،" ترد عليه بيأس، "وماذا بعد؟ ما الخطب في شعري؟"

"أكثر شُقرةً من الشّائع. يبرز من بين الجموع. فالشقراوات مثل الفئران البيضاء، لا تجديها سوى في الأسر. ما كانت أبداً لتنجو في الطبيعة. فالشقراء جليّة للعيان".

" لست طيباً معي اليوم".

"أنا أمقت الطيبة،" يقول لها، "وأمقت الناس الذين يفاخرون بكونهم طيبين. المحسنون ذوو الأنوف المرفوعة وصدقات السِّنت الواحد والخمسة سنتات يتصدقون علينا بحسنة طيبتهم. زمرةٌ خسيسة لا تستحق سوى الازدراء".

"أنا طيبة،" تقول له، محاولةً الابتسام. "أنا طيبة معك، في كل الأحوال".

"لو ظننتُ أنّ هذه هي حقيقة الحال بيننا – الطيبة الفاترة كما الحليب الممزوج

بالماء – لرحلتُ عن هنا. في قطار منتصف الليل، أنجو بنفسي من الجحيم في جنح الظلام. لخاطرت بحياتي. فأنا لست بمتسول، ولن أستجدي صدقة جماعٍ منكِ".

مزاجه وحشيٌّ اليوم، تتساءل لماذا. هي لم تره منذ أسبوع. ربما المطر هو الملام.

"إذن ربما أنا لست هنا بداع طيبتي،" تقول له، "ربما هي أنانيتي. ربما أنا أنانية متحجرة القلب".

"هكذا أفضل،" يقول لها، "أفضّلك جشعة". يسحق عقب سيجارته، ويمد يده ليتناول أخرى، لكنه يعيد التفكير. لا يزال يدخن السجائر الجاهزة، مصدر رفاهيةٍ له. لابدّ أنّه بات يقنّن تدخينها. تتساءل إن كان يملك ما يكفي من المال، لكن ليس بيدها أن تسأله.

"لا أريدك أن تجلسي هكذا مقابلي، فأنت بعيدةٌ جداً عني".

"أدري. لكن لا مكان آخر لنا نلتقي فيه، فالطقس ممطر".

"سأجد لنا مكاناً. مكاناً بعيداً عن الثلج".

"لكنها لا تثلج".

"ستثلج،" يقول لها. "رياح الشمال ستهب علينا".

"وسنحظى بالثلج. وما الذي سيفعله اللصان المسكينان يومها؟(40)" على الأقل دفعته للابتسام، أو بالأحرى جَفَلته. "أين تبيت هذه الأيام؟" سألته.

"لا تحفلي بالأمر. لا داعي لك كي تعرفي. هكذا إن أمسكوا بك يوماً وسألوك أي سؤال فلن تضطري حينها للكذب".

"أنا لست بكاذبةٍ سيئة،" تقول له محاولةً الابتسام.

"ربما ليس بالنسبة للهواة، لكن المحترفين سيصيدون كذبتك دون عناء. سيفتحونك كما يفتحون طرداً".

"ألا يزالون يبحثون عنك؟ ألم يستسلموا بعد؟"

"ليس بعد. هذا ما سمعته".

---

(40) اقتباس من أنشودة للأطفال بعنوان رياح الشمال ستهب – The North Wind doth blow والأنشودة تقول: رياح الشمال ستهب علينا وسنحظى بالثلج، لكن ما الذي سيفعله "أبو الحنّاء" المسكين يومها؟ المسكين سيقضي يومه في الحظيرة يدفئ نفسه، يخبئ رأسه تحت جناحه. يا للمسكين!

"فظيع، الأمر برمته فظيع. ومع ذلك، فنحن محظوظان، أليس كذلك؟"

"ولِمَ نحن محظوظان يا ترى؟" يعود إلى مزاجه المكفهر.

"على الأقل نحن هنا، معاً، على الأقل نملك..".

النادل يقف جانب المقصورة. كُمّا قميصه مشمران للأعلى، يرتدي مئزراً طويلاً ناعماً ملطّخًا ببقع قديمة، خصل شعره مرجّلة على فروة رأسه وكأنها شرائط دهنية. أصابعه تبدو أشبه بأصابع القدم.

"قهوة؟"

تجيبه، "نعم رجاءً. سوداء. دون سكر".

تنتظر إلى أن يغادر النادل. "أمن الآمن؟"

"القهوة؟ أتعنين إن كانت ملوثة بالجراثيم؟ لا أظن. فقد غلوها قبل ساعات". هو يسخر منها لكنها تختار ألّا تفهمه.

"لا. أعني، إن كان من الآمن البقاء هنا".

"هو صديقٌ لصديق. وعلى كلٍّ فعيني على الباب – بإمكاني الفرار من الباب الخلفي. هناك زقاق".

"أنت لم تفعلها، أليس كذلك؟"

"سبق وأخبرتك. مع أنّ كان بوسعي أن أفعلها، فقد كنت هناك. وعلى أي حال لا يهم الآن، فأنا أطابق لائحة مواصفاتهم. وسيُسَرّون برؤيتي مسمّراً على الجدار، أنا وأفكاري السيئة".

"عليك أن تفر من هنا،" تقول له يائسةً. تخطُر لها كلمة "عناق"، كم هي كلمة مبتذلة. ومع ذلك هذا ما تود أن تفعله – أن تعانقه بين ذراعيها.

"ليس بعد،" يقول لها. "لا يجدر بي الرحيل بعد. لا يجدر بي ركوب القطارات ولا قطع الحدود. فالمعلومة التي وصلتني أنهم يبحثون عني هناك".

"أنا قلقةٌ عليك،" تقول له. "أحلم بما قد يحل بك. القلق لا ينفك يساورني طوال الوقت".

"لا تقلقي عزيزتي،" يقول لها. "وإلا ستنحفين، نهداك الجميلان ومؤخرتك ستذوي

كلها إلى عدم، وحينها لن تنفعي أحداً".

تضع يدها على وجنتها وكأنه صفعها التو. "أتمنى لو أنك لا تتحدث معي هكذا".

"أعلم أنك تتمنين ذلك،" يقول لها. "فالفتيات اللواتي يرتدين معاطف مثل معطفك تساورهن تلك الأماني".

"ذا بورت تيكونديروغا هيرالد آند بانر"، مارس 16، 1933

تشايس يدعم جهود الإغاثة

بقلم إلوود آر. موراي، كبير المحررين

في بادرةٍ تنم عن روح الخدمة المجتمعية التي اعتادت البلدة توقُّعها منه، الرقيب نورفال تشايس، رئيس صناعات تشايس المحدودة، أعلن البارحة أن صناعات تشايس ستتبرع بثلاث عربات شحن من بضائع "الدرجة الثانية" من إنتاج مصانعه ضمن دعم جهود الإغاثة في المناطق التي تعاني الضرر الأكبر من الكساد العظيم الذي يعم البلاد. وتتضمن الهبة بطاطين للرُضّع، وكنزات صوفية للأطفال، ومجموعةً متنوعة من الثياب الداخلية العملية للرجال والنساء.

وقد عبّر الرقيب تشايس في تصريحه لصحيفة هيرالد آند بانر أن الأزمة الحالية التي تعصف بالبلاد تستدعي تضافر جهود الجميع كما كان عليه الحال إبان الحرب، خصوصاً أولئك في أونتاريو من حالفهم الحظ أكثر من الآخرين. وقد تعرض الرقيب لهجوم منافسيه، على الأخص السيد ريتشارد غريفين صاحب مصنع النسيج الملكي الكلاسيكي في تورنتو، والذي اتهمه بإغراق السوق بالفائض من منتجاته وتوزيعها كهبات وبذا يحرم العامل المجتهد من أجره، وفي معرض رده على الاتهام، صرح الرقيب تشايس أنّ متلقي هذه البضائع لا يملك أصلاً القدرة المالية على شرائها، وبذا فهبته لا تأثير لها على مبيعات السوق.

أضاف أن كل القطاعات في البلد تعاني من الانتكاس وصناعات تشايس تواجه حالياً انخفاضاً كبيراً في عملياتها نتيجة انخفاض الطلب في السوق. وقد صرح أنه سيبذل وسعه للإبقاء على العمل دائراً في مصانعه لكن عاجلاً أم آجلاً سيضطر لمواجهة ضرورة اتخاذ قرارٍ إما بالتسريح أو تخفيض ساعات العمل والأجور.

ولا يسعنا سوى الثناء على جهود الرقيب تشايس، رجلٌ يفي بكلمته، على خلاف

مفسدي الإضراب ومن يتبعون أسلوب الإغلاق التعجيزي[41] في مدن صناعية مثل وينيبيغ ومونتريال، مما أبقى بورت تيكونديروغا بلدةً خاضعةً للقانون وخاليةً من مشاهد شغب اتحادات العمال، انفجار أعمال العنف، وسفك الدماء المستوحى من الروح الشيوعية التي أفسدت المدن الأخرى بما تسببت به من إتلاف الملكيات والإصابات وفقدان الأرواح.

(41) الإغلاق التعجيزي: إغلاق رب العمل مصنعه كليّاً أو جزئياً لإكراه العمال على الرضا بشروطه.

السفّاح الأعمى: غطاء شَنَيل

"هل تسكن هنا؟" تسأله. تفتل قفازيها بين يديها وكأنهما مبللان وهي تعصر الماء منهما.

"بل أقيم هنا،" يجيبها. "هناك فرق".

البيت هو أحد البيوت المصفوفة، كلها مكسوةٌ بالقرميد الأحمر المسخّم، ضيقةٌ وشاهقة، مع أسقفٍ شديدة الانحدار. أمام البيت مساحةٌ مستطيلة من العشب المُغبَرّ، حشائشُ ظمأى تنمو جانب الممر. كيسٌ ورقيٌّ بنيٌّ ممزق.

أربع درجاتٍ حتى الشرفة. ستائر من القماش المخرم تتدلى أمام النافذة. يتناول مفتاحه.

ما إن تدخل تلتفت للوراء وتنظر خلف كتفها. "لا تقلقي،" يقول لها، "لا أحد يراقب. وعلى أي حال هذا بيت صديقي. سأقيم هنا اليوم وفي الغد سأرحل".

"تملك الكثير من الأصدقاء،" تقول له.

"ليس الكثير،" يجيبها. "لن تحتاجي كثيرًا من الأصدقاء إن لم يكن بينهم تفاحٌ فاسد".

هناك ردهةٌ مسمّرٌ على جدارها صفٌّ من الخطافات النحاسيّة لتعليق المعاطف، الأرضية مرصوفة باللينوليوم المهترئ في قوالب مربعة بنيةٍ وصفراء، بابٌ داخلي، لوح إطاره الزجاجي المبرغل يحمل نقشة طيور مالك الحزين أو الكراكيّ. طيورٌ بسيقانٍ طويلة تحني أعناقها الرشيقة كما الأفعى بين القصب والليلك، أثرٌ من عهدٍ ماضٍ: عهد الإنارة بالغاز. يفتح الباب بمفتاحٍ ثانٍ ويطآن داخل الرواق

الداخلي المعتم؛ ينقر زر الإنارة. أعلاهما، الإنارة المثبتة تتبرعم منها ثلاث ورودٍ زهرية زجاجية، لمبتان من الثلاث مفقودتان.

"ما من سببٍ لتكوني مرعوبة هكذا، حبيبتي، فلا شيء من هذا سيعلق بك. فقط لا تلمسي شيئاً منها".

"أوه، قد يعلق شيءٌ ما،" تقول له مع ضحكةٍ صغيرة مقطوعة النفس. "فلا بد أن ألمسك. أنت ستعلق بي".

يسحب الباب الزجاجي ويغلقه خلفهما. بابٌ آخر على اليسار، مصقولٌ بالورنيش وداكن: تتخيل أذناً عيّابة ملتصقة على الباب من الداخل، يتناهى إليها صوت صرير، وكأن ثقلاً يتهادى من قدمٍ لأخرى. قد تكون حيزبوناً رمادية الشعر يضطرم صدرها حقداً – ألن تتلاءم هيئتها مع الستائر المخرمة؟ قلبةٌ[42] طويلة من السلالم البالية، السجاد مسمّرٌ على الحواف العلوية للدرجات والمسافات بين أعمدة الدرابزين كما الفجوات بين الأسنان. النقش على ورق الجدران من طراز المعرّشات النباتيّة[43]، مع سيقان الكرم وزهورها المحتبكة، زهريةً كانت فيما مضى، واليوم غدت بنيةً فاتحة بلون الحليب في الشاي. بحذر، يطوقها بذراعيه، برفق، يمسّ عنقها بشفتيه، حنجرتها؛ لا يمسّ فمها. جسدها يرتجف.

"من السهل عليك التخلص مني فيما بعد،" يقول لها، هامساً. "كل ما عليك فعله العودة إلى بيتك والاستحمام".

"لا تقل هذا،" تقول له، همساً هي الأخرى. "أنت تسخر وحسب، ما كنت لتصدق أبداً أني عنيتُ ما قلت".

"تعنينه بشأن ما نفعل الآن". تدس ذراعها حول خصره ويصعدان السلم مرتبكين قليلاً، مثقلَين بعض الشيء؛ جسداهما حملٌ يبطئ سرعتهما. على منتصف السلم تطلُّ نافذةٌ دائرية زجاجها معشّق: عبر اللون الأزرق المخضر للسماء، عبر عناقيد العنب الأرجوانية كما ظلل متاجر العشرة سنتات، عبر الصداع الأحمر

---

(42) القلبة: مجموعة من درجات السلم تنتهي عند منبسط يفضي إلى مجموعة مماثلة.

(43) Wallpaper in trellis design

الساطع للأزهار، الضوءُ ينسكب عليهما، يلطخ وجهيهما بالألوان. على منبسط السلم في الطابق الثاني يعاود تقبيلها، أشدّ شغفاً هذه المرة، يرفع تنورتها أعلى ساقيها الحريريتين، حتى أعلى جوربيها، يتلمس بأصابعه عُروتيْ الرباط المطاطيتين القاسيتين، يدفع بها إلى الجدار. دائماً ما ترتدي مشداً: نزعُه عنها يشبه سلخ الجلد عن فقمة.

قبعتها تنقلب وتقع أرضاً، ذراعاها تطوقان عنقه، رأسها وظهرها مقوسان للخلف وكأن أحدهم يشدها من شعرها. شعرها نفسه يقع عنه الدبوس، خصلها تنحل: يملّس شعرها بيده، في النهايات الفاتحة المستدقة لفتائلها الطويلة ويتصور اللَّهَب، لَهَباً مترأرئاً لشمعةٍ بيضاء، مقلوبةٍ رأساً على عقب، بيد أن اللّهَب لا يشتعل نزولاً إلى أسفل.

الغرفة في الطابق الثالث، كانت ولا بد سكن الخدم فيما مضى. يوصد الباب بالسلسلة فور دخولهما. الغرفة صغيرة، مغلقة ومعتمة، بنافذةٍ واحدة، مفتوحةٍ ببضع بوصات، الستار الحاجب مسحوبٌ كله تقريباً للأسفل، على الجانبين ستارتان شبكيتان بيضاوان الواحدة معقودةٌ بأنشوطة. شمس ما بعد الظهيرة تسطع على الستار الحاجب، فتصيّره ذهبياً. الغرفة مفعمة برائحة عفنٍ جاف، وكذلك برائحة الصابون: هناك مغسلة مثلثة في زاويةٍ من الغرفة. ومرآةٌ ملطخة ببقع سمراء مصفرة معلقة فوقها؛ محشورٌ أسفلها الصندوق الأسود مربع الحواف لآلته الكاتبة. فرشاة أسنانه في كوبٍ مصقول من الصفيح؛ ليست بفرشاةٍ جديدة. حميميةٌ جداً. تزيح نظرها عنها. هناك خزانة أدراج بوريه مصقولة بورنيشٍ قاتم وعلى سطحها آثار ندوبٍ جراء حروق السجائر ودوائر الكؤوس الرطبة، بيد أن السرير يحتل معظم مساحة الغرفة. السرير من نحاس، عتيقٌ عُنوسيّ ومطلي كله بالأبيض ما عدا المقابض. على الأرجح سيُحدث صريراً. ما إن تتخيل الصوت، تتورد وجنتاها.

من الواضح لها أنه تعنّى في إعداد السرير- بدّل الملاءات أو على الأقل أغطية الوسائد، فرش غطاء الشَّنَيل الأخضر المزرق الباهت على المرتبة وملّسه. تكاد

تتمنى لو أنه لم يفعل، فرؤيتها الغطاء أثارت فيها إحساساً يشبه الشفقة، وكأنّ فلاحاً فقيراً عرض عليها رغيف خبزه الأخير. والشفقة ليست بالشعور الذي تتحرى الإحساس به في رفقته. لا تود أبداً التقاط أي ضعفٍ فيه. هي فقط المسموح لها أن تكون الضعيفة بينهما. تضع حقيبتها وقفازيها أعلى البوريه. فجأةً تستشعر الوضع وكأنه مناسبةٌ اجتماعية. مناسبةٌ اجتماعية غريبة.

"عذراً، لا ساقٍ هنا ليلبي طلبك،" يقول لها. "أتودين كأساً؟ ويسكي رخيص".

"نعم رجاءً". هو يحتفظ بالزجاجة في دُرج البوريه العلويّ؛ يتناول الزجاجة، مع كأسين، ويصب". قولي متى؟"

"متى، رجاءً".

"لا ثلج لدي، لكن بإمكاني أن أضيف ماءً إن أردت".

"لا داع". تجترع الويسكي، تسعل قليلاً، وتبتسم له، تقف متكئةً على البوريه خلفها.

"سريعةٌ قوية ومباشرة،" يقول لها، "تماماً كما تحبين".

يجلس على السرير والكأس في يده. "في صحة جرعتك المفضلة". يرفع كأسه. لا يبادلها الابتسام.

"أنت لئيمٌ معي اليوم، أكثر من المعتاد".

"من باب الدفاع عن النفس".

"لا أحبها هكذا، بل أحبك أنت، أنا أدرك الفرق".

"إلى حدٍ ما،" يقول لها. "أو كذا تظنين، حتى تحفظي ماء وجهك".

"أعطني سبباً واحداً يمنعني من مغادرة الغرفة".

يكشر في وجهها مبتسماً. "تعالي هنا إذاً".

رغم إدراكه رغبتها بسماعه يقولها، فهو لن يعترف لها بحبه. فقد يتركه الاعتراف مجرداً من درعه أمامها، كما الاعتراف بالذنب.

"سأخلع جواربي الحريرية أولاً، فهي تقع من طولها ما إن تنظر إليها".

"مثلك تماماً،" يقول لها. "لا تخلعيها. تعالي هنا الآن".

الشمس تأفل؛ لم يتبق منها سوى وتدٍ من ضياء، على الجانب الأيسر من الحاجب المنسدل. في الخارج، عربة ترام تقعقع، جرسها يرن. لا بد أن عربات الترام أخذت تمضي خارج النافذة طوال تلك المدة. لكن لماذا لم تترك أثراً سوى الصمت؟ الصمت وأنفاسه، أنفاسهما، جاهدة، مكبوتة، يحاولان التزام الهدوء، أو القدر الكافي من الهدوء. لمَ صوت اللذة يماثل صوت الوجع؟ وكأن أحداً قد جُرِح. يحبس الصوت فيها بوضع يده على فمها.

الغرفة أكثر عتمةً الآن، ومع ذلك تبصر بشكلٍ أوضح. ملاءات السرير مكدسة على الأرض، غطاء الشنيل مفتولٌ حول جسديهما مثل ساقٍ معرّشة منسوجةٍ سميكة؛ اللمبة الوحيدة غير مظللة، ورق الجدران القشدي الموشى بزهور بنفسجٍ زرقاء وزهورٍ صغيرةٍ سخيفة، ملطخٌ ببقع بنية باهتة حيث السقف ولا بد قد تسرب منه الماء؛ السلسلة التي تحمي الباب: مهلهلة. دفعةٌ واحدة، رفسة قدمٍ قوية. إن حصل هذا، فما هي فاعلة؟ تشعر بالجدران تترقّق، تتحول جليداً. هما سمكتان في حوض.

يشعل سيجارتين، ويناولها واحدة. كلاهما يتنهدان. يده الخالية يمررها على سائر جسدها، مرةً ثم أخرى، كي تتجلى له بكل ما فيها على ملمس أصابعه. يتساءل كم من الوقت تبقى لها، لكن لا يسألها. يمسك بمعصمها حيث الساعة الذهبية الصغيرة. يغطي واجهتها.

"حسنٌ،" يقول لها. "قصة ما قبل النوم؟"

"نعم، رجاءً".

"أين كنا؟"

"كنت قد قطعت ألسنة الفتيات المسكينات في أخمرة زفافهن".

"آه أجل. وأنت اعترضت. إن لم تعجبك هذه القصة فبوسعي رواية قصةٍ أخرى، لكن لا يسعني التعهد بأنها ستكون أكثر حضاريةً. قد تكون أسوأ. قد تنتمي للعصر الحديث. بدلاً من ثلة الأموات الزّكرونيين سنحظى بفدادين من الوحل العفن

ومئات الآلاف من .. ".

"سأحتفظ بهذه،" تقاطعه بسرعة. "على كلٍّ تلك هي القصة التي تود أن ترويها عليّ".

تسحق عقب سيجارتها في المرمدة البنية الزجاجية، ثم تعود وتتمدد على جسده، أذنها على صدره. تهوى الاستماع إلى صوته هكذا، وكأن الصوت لا يبدأ من حنجرته بل من جسده، مثل همهمةٍ أو هدير، أو كصوتٍ ينبعث ناطقاً من الأعماق، من تحت الأرض. كما الدم المتدفق في قلبها:

كلمةً، كلمةً، كلمة.

"ذا ميل آند إمباير"، ديسمبر 5، 1934

بينيت يتلقى الاستحسان

في تقريرٍ خاص لصحيفة "ذا ميل آند إمباير"

في خطابٍ ألقاه في نادي إمباير مساء البارحة، وجّه السيد ريتشارد إي. غريفين، الرأسمالي من تورنتو ورئيس صناعات النسيج الملكي الكلاسيكي، والمعروف بجرأة تصريحاته، إطراءً معتدلاً لرئيس الوزراء آر. بي. بينيت، وردوداً جارحة على منتقديه. ففي إشارة إلى التجمهر الصاخب الذي شهدته حدائق مابل ليف غاردينز في تورنتو حيث احتشد ما يزيد عن خمسة عشر ألفاً من الشيوعيين في استقبالٍ هستيري لقائدهم تيم بك، والذي سجن لتحريضه على العصيان لكن أطلق سراحه بشروط من إصلاحية كينغستون بورتسماوث يوم السبت، فقد أعرب السيد غريفين عن قلقه العميق لما وصفه "بخضوع الحكومة للضغط" الذي مورس عليها في صورة عَرِيضةٍ وقّعها مئتا ألف "من العمال المخدوعين المساكين". سياسة السيد بينيت "بالضرب بيدٍ من حديد" كانت السياسة المثلى، واعتقال أولئك المتآمرين والمحرضين على الإطاحة بالحكومة المنتخبة ومصادرة الملكيات الخاصة هي السبيل الوحيد للتعامل مع نهج التخريب المتعمد.

أما فيما يخص عشرات الآلاف من المهاجرين الذين رُحّلوا تحت بند 98، من ضمنهم من أعيدوا إلى بلدانهم مثل ألمانيا وإيطاليا حيث ينتظرهم الاعتقال، فقد صرح السيد غريفين أن هؤلاء روّجوا للحكم الاستبدادي وناصروه والآن سيذوقون في

بلدانهم ما كانوا يدعون إليه.

عَودة إلى الاقتصاد. رغم البطالة المرتفعة وما نتج عنها من قلاقل واستمرار تكسّب الشيوعيين ومناصريهم منها، فإنّ السيّد غريفين أشار إلى وجود دلائل إيجابية ويملك كامل الثقة في انتهاء الكساد مع قدوم الربيع. وفي غضون ذلك فالسياسة الوحيدة العاقلة هي التزام المسار والسماح للنظام بتصحيح نفسه. ووجوب مقاومة أي ميلٍ اتجاه الاشتراكية الناعمة التي اتبعها السيد روزفلت، فأي ميلٍ في ذاك الاتجاه سيوهن الاقتصاد المريض أكثر. ومع استنكاره وأسفه الشّديدَين لنسب البطالة المرتفعة، فكثيرٌ من العاطلين هم في الواقع متبطلون بمحض رغبتهم، ولا بد من فرض القوة فوراً وبفعالية ضد كل من تسول له نفسه مخالفة القانون من منظمي الإضرابات والمحرضين الغرباء.

وقد نالت آراء السيد غريفين تصفيقاً حاراً من الحضور.

السفّاح الأعمى: الرّسول

"والآن. فلنقل إنّ الظلام قد حل. الشموس، ثلاثتها، غربت. قمران قد بزغا. والذئاب انتشرت على أرجاء التل السّفحيّ. الفتاة المصطفاة تنتظر دورها على صف القربان. قدموا لها وجبتها الأخيرة، وجبةً معدة بإتقان، عطروها وكرّسوها بالزيت، أنشدوا الأناشيد في مدحها ورفعوا لها الصلوات. والآن تستلقي على فراشٍ من البروكاد الأحمر والذهبي، مقفلٌ عليها في الحجرة الواقعة في قلب المعبد، والحجرة مفعمةٌ برائحةٍ هي مزيجٌ من بتلات الأزهار والبخور والبهارات العطرية المسحوقة التي تنثر وفق التقاليد على نعش الميت. السرير نفسه يدعى بسرير الليلة الواحدة، فلا فتاة قضت ليلتين عليه قط. في الأحاديث التي يتبادلنها بينهن، بينما لا يزلن يحتفظن بألسنتهن، السرير يدعى بسرير الدموع البكماء.

في منتصف الليل سيزورها سيد العالم السفلي، والذي يقال إنه يأتي مرتدياً درعه الصدئ العتيق. العالم السفلي هو عالم التمزّق والتفسُّخ: كل الأرواح عليها أن تعبر ذاك العالم في طريق وصولها إلى أرض الآلهة، وبعض تلك الأرواح – الخطّاءة منها – لن تغادره أبداً. كلُّ عذراءٍ معبد مصطفاة عليها أن تحتمل معاناة زيارة السيد الصدئ لها ليلة تقديمها قرباناً، فإن لم تفعل، فروحها لن تهدأ، وعوضاً عن الرحيل إلى أرض الآلهة ستجبر على الانضمام إلى زمرة النساء العاريات الجميلات الميتات ذوات الشعر اللازوردي، أجسادهن الشهوانية، شفاههن الحمراء الياقوتية وحفر أعينهن الملأى بالأفاعي، من يتسكعن حول الأضرحة المتهدمة في الجبال المهجورة جهة الغرب. كما ترين، لم أنسهن".

"أقدّر لك حسن انتباهك".

"رهن إشارتك. أيّ تفصيلٍ صغير تودين إضافته، فقط أعلميني. على كلٍّ، مثل حال كثيرٍ من الأقوام، القديمة منها والمعاصرة، فالزِّكرونيون يرتعبون من العذارى، على الأخص الأموات منهن. فالمرأة التي يخونها الحب وتموت دون زواج سيدفعها ألمها إلى البحث في مماتها عمّا لم تنله للأسف في حياتها. في النهار ينمن في الأضرحة المتهدمة، وفي الليل يفترسن الرحالة الغافلين، على الأخص الشباب المتهور كفايةً للذهاب هناك في المقام الأول. يثبن على الشاب منهم ويمصصْن جوهر روحه، فيغدو زومبيًّا محكوماً عليه إشباع الشهوات الملحة الخارقة للنسوة الميتات العاريات.

"وا أسفاه على الشباب،" تقول له. "أهناك طريقة يدافعون بها عن أنفسهم أمام تلك المخلوقات الوحشية؟"

"بوسعك رميهن برمح، أو هرس رؤوسهن بصخرة. لكنهن يأتين زمرةً – وكأنك تصارعين أخطبوطاً، كلهن يثبن على الشاب المسكين قبل أن يعي حتى ما جرى. وعلى أي حال ما إن تقع أعينهن عليك سينوّمنك مغناطيسياً – سيحطمن إرادتك. هذا أول ما يفعلنه. ما إن تلمحي إحداهن، ستثبتين في أرضك دون حراك".

"لي أن أتصور ذلك. مزيد من الويسكي؟"

"سأستمتع بكأسٍ أخرى. شكراً. الفتاة – وما الاسم الذي برأيك يلائمها؟"

"لا أدري. أنت اختر اسمها. فأنت أدرى بزكرون وشعابها".

"سأفكر بالأمر. على أي حال، ها هي تستلقي على سرير الليلة الواحدة، فريسةً لتوقعاتها. لا تدري ما الأسوأ، حزّ عنقها أم الساعات القليلة المقبلة. هو سرٌّ من الأسرار المفضوحة في المعبد أن سيد العالم السفلي ليس بحقيقي، بل هو في الواقع أحد رجال البلاط يتنكر على تلك الهيئة. وكما هو حال كل شيءٍ آخر في ساكيل نورن فهذا المنصب معروضٌ للبيع، ويقال إن مبالغ كثيرة تتبادلها الأيدي لنيل تلك الحظوة – من تحت الطاولة بالطبع. ومتلقي هذه المبالغ ما هي إلا الكاهنة الأعلى، ذمتها فاسدة كما هي طبيعة الكهنة، ومعروفةٌ بولعها بالياقوت الأزرق. هي تبرر صنيعها لنفسها بحجة نذرها تكريس المال لأهداف خيرية، وهو ما تفعله بجزءٍ من

تلك الأموال، متى ما تذكرت. والفتيات بالكاد يتح لهن فرصة التعبير عن معاناتهن في تحمل هذا الابتلاء، كونهن لا يملكن ألسنةً ولا أدوات كتابة، وسيقتلن في كل الأحوال صباح اليوم التالي. سنتاتٌ من الجنة، كذا ترنم الكاهنة الأعلى لنفسها كلما أخذت تحسب مجموع أموالها.

في غضون ذلك، على مسافةٍ بعيدة، قبائل رثة من الهمج تزحف في جموعٍ حاشدة نحو المدينة، تنوي الاستيلاء على ساكيل نورن ذائعة الصيت، ثم نهبها وحرقها رماداً على الأرض بكل ما فيها. كانوا قد ارتكبوا ذات الصنيع مع مدنٍ أخرى بعيداً جهة الغرب. لا أحد – أعني لا أحد ضمن الشعوب المتحضرة – يملك تفسير نجاحهم. فلا هم لائقو المظهر والثياب ولا هم مسلحون بأفضل العتاد، جاهلون لا يتقنون القراءة، ولا يمتلكون أدوات معدنية مبتدعة بمهارة.

ليس هذا وحسب، فلا ملك عليهم، فقط قائد. وهذا القائد لا اسم له: فقد تخلى عن اسمه لدى اعتلائه القيادة، ويحمل عوضاً عن الاسم لقباً منحوه إياه. لقبه خادم الابتهاج. مناصروه يشيرون إليه بسوط الجبار، قبضة القهار اليمنى، مطهر الآثام، نصير العدالة والفضيلة. الموطن الأصلي للهمج مجهول، لكن المصادر تجمع على قدومهم من مكانٍ ما في الشمال الغربي، من حيث تهب الرياح المنذرة بالشر. أعداؤهم يطلقون عليهم لقب قوم الخراب. أما الهمج فيطلقون على أنفسهم لقب قوم البهجة.

قائدهم الحالي يحمل علامة الاصطفاء الإلهي: فقد ولد ببرقع جنين[44]، مع جرحٍ في قدمه، وعلامة النجمة على جبينه. يدخل في نوبات غيابٍ عن الوعي يتواصل فيها مع العالم الآخر متى ما وقع في حيرةٍ من أمره. هو في طريقه إلى ساكيل نورن كي يدمرها لأن أمراً إلهياً وصله على يد رسولٍ من الآلهة.

هذا الرسول تجلى له على هيئة شعلةِ لهب، بأعين كثيرة وأجنحةٍ من نارٍ تندلع منها. رسلٌ كهؤلاء معروفٌ عنهم التواصل بالأمثال المعقدة ويتلبسون هيئات مختلفة: ثلكس مشتعل، صخور ناطقة، زهور تمشي، أو أجساد بشرية برؤوس الطير. أو

---

(44) برقع الجنين: غشاء رقيق يغطي رأس الجنين.

قد يبدون كأي إنسانٍ عادي. رحالة، فرادى أو مع رفيق، رجالٌ يشاع عنهم أنهم لصوصٌ أو سحرة، غرباء يتحدثون عدة لغات، ووفقاً لقوم الخراب، فالمتسولون على قارعة الطريق هم الأكثر احتمالاً أن يكونوا رسلاً: لذا فعلى القوم التعامل مع كل تلك الفئات بكامل الاحتراز، على الأقل إلى أن تنجلي حقيقتهم.

فإن تبين أنهم رسلٌ إلهية، فحريٌّ بالقوم استضافتهم بالطعام والنبيذ وإمتاعهم بامرأة إن طلبوها، كي يتسنى للقوم الإصغاء بكل إجلال للرسالة التي يحملونها، ثم يطلقونهم في حال سبيلهم. عدا ذلك، سيُرجمون حتى الموت وتُصادر ممتلكاتهم. وكوني واثقة أن كل الرحالة، السحرة، الغرباء أو المتسوّلين الذين يجدون أنفسهم في جوار قوم الخراب يحرصون كل الحرص على اختلاق رصيدٍ من الأمثال المبهمة - يدعونها كلماتٍ غيميّة، أو عقداً حريرية - غامضة بما فيه الكفاية كي تُؤَوّل لأكثر من معنى، وفقاً لما تستدعيه الظروف. فأنْ ترتحلَ خالي الوفاض من أيّ لغزٍ أو قافيةٍ مُحيّرة يعني أنك تستجلب لنفسك ميتةً شنيعة.

ووفقاً لكلمات شعلة اللهب ذات الأعين، فمدينة ساكيل نورن قد أضحت موسومةً للدمار عقاباً لها على ترفها وإسرافها، عبادتها أوثانًا زائفة، وعلى الأخص ممارستها المقيتة في التضحية بالأطفال. وعقاباً على هذه الممارسة، فكل من يسكن المدينة، من ضمنهم العبيد والأطفال والعذارى المحكوم عليهن بالموت على مذبح القربان، سيقتل بحد السيف. قد يبدو قتل حتى هؤلاء الذين لأجلهم حلَّ العقاب حكماً غيرعادل، لكن في عرف قوم البهجة فالحكم لا يتأتى من الذنب أو البراءة، بل من يديك هل تلطّختا بذنبٍ أم لا، وفي نظر قوم البهجة فكل من يسكن مدينةً مذنبة فهو مذنبٌ بدوره، الصالح والطالح منهم على حدٍّ سواء.

القبائل تعدو قُدُماً، تثير من خلفها سحابةً قاتمة من الغبار؛ تلك السحابة ترفرف فوقها كما الراية. بيد أنها لم تقترب بعد بما فيه الكفاية كي يلاحظها الخفراء المتمركزون على أسوار ساكيل نورن. أما الأشخاص الذين بيدهم تحذيرهم - رعاة الغنم في الريف النائي، التجار على قوافلهم وما شابه- فيُقطّعون إرباً دون أي شفقة على يد القبائل، باستثناء من يبدو لهم وكأنه رسولٌ إلهيٌّ محتمل.

خادم الابتهاج يتقدَّم الركب، قلبه نقي السريرة، جبينه متغضّن، عيناه تقدحان شرراً. مُسدلة على كتفيه عباءةٌ جلدية خشنة، يعتمر شارةَ عمله، قبعةً مخروطية حمراء. أتباعه من خلفه، مكشرين عن أنيابهم. القطعان العاشبة تفر من أمامهم، والحيوانات القمّامة تعدو من خلفهم، الذئاب تتبختر على الميمنة والميسرة.

في غضون ذلك، في رحاب المدينة الغافلة، هناك مؤامرةٌ تجري على قدمٍ وساق للإطاحة بالملك. وبالطبع كما هو التقليد المتبع فالمؤامرة يحوكها عليّة رجال البلاط الموثوق بهم. كانوا قد عيّنوا أكثر السفاحين العميان مهارةً، شابٌ يافع كان فيما مضى حائك سجاد ثمّ رقيقاً للجنس في بيت الدعارة، لكن ومنذ فراره أضحى مشهوراً بهدوئه العميق، مقدرته على التسلل خفيةً، ويده عديمة الشفقة التي تحمل السكين. كان يحمل الاسم (X)".

"ولمَ (X)؟"

"الرجال من أمثاله دائماً يُدعوْن (X). فالأسماء لا تنفعهم في شيء، فالاسم وتدٌ يثبتهم في مكانهم فما الحاجة لهم به. على أي حال، (X) تعود إلى أشعة (X)، إن كنتِ تحملين الرمز (X)فأنت تملكين القدرة على عبور الجدران الصلبة وستخترقين ببصرك ملابس النساء".

"لكنَّ (X) أعمى".

"خيرٌ له، فبذا سيتسنى له اختراق ملابس النساء ورؤيتهن بعين بصيرته التي حظي بها ببركة العزلة".

"ووردسورث المسكين[45]! إياك أن تجدّف،" تقول له مغتبطةً.

"لا يسعني منع نفسي، فأنا مجدّفٌ منذ طفولتي".

"الخطة تقوم على أن يتسلّل (X) إلى مجمع معبد الأقمار الخمسة، يعثر على باب

(45) في إشارة إلى المذهب الأخير من قصيدة طفتُ وحدي كما السحاب – I Wandered Lonely as a Cloud للشاعر ويليام ووردسورث – William Wordsworth وفيها يتغنى الشاعر بزهور النرجس التي فتحت بصيرته الشعرية لدى تأمله إياها، وما كان ليحظى بتلك البصيرة لولا بركة العزلة.

الحجرة حيث يحتفظون بالأضحية العذراء ليوم القربان، ويحز عنق الحارس. ثم عليه أن يقتل الفتاة نفسها، يخبئ الجثة تحت سرير الليلة الواحدة الأسطوري، ويتنكر على هيئة الفتاة مرتدياً أخمرتها الشعائرية. المفترض به أن ينتظر أولاً وصول رجل البلاط الذي يلعب دور سيد العالم السفلي – الذي هو في واقع الأمر المخطّط الرئيسي لعملية الانقلاب الذي يوشك على الوقوع – ينال ما دفع لأجله، ويرحل بعيداً. فرجل البلاط قد دفع ثمناً باهظاً ويرغب أن يحظى بالمتعة مقابل ماله الذي لا يتضمن فتاةً ميتة، حتى وإن لم يبرد دمها بعد. هو يريد قلبها نابضاً. لكن خطأً وقع وأفسد الترتيبات. فقد حدث سوء فهمٍ فيما يتعلق بالتوقيت: وبناءً عليه، فالسفّاح الأعمى سيكون أول من يجتاز الباب".

"يا له من أمرٍ مخيف،" تقول له. "لك خيالٌ مريض".

يمرر أصابعه على مدى ذراعها العارية. "أتودين مني المواصلة؟ كقاعدة أنا أفعل ذلك مقابل المال. وأنت تحظين به مجاناً، فالأجدر بك أن تكوني ممتنة. وعلى أي حال، فأنت لا تدرين ما الذي سيحدث. فما أفعله الآن هو تعقيد الحبكة".

"أراها معقدة بما فيه الكفاية".

"الحبكات المعقدة تخصصي. إن أردت حبكات أبسط فابحثي في مكانٍ آخر".

"حسنٌ إذن، واصل".

"متنكراً في ملابس الفتاة المقتولة، فالمفترض بالسفّاح أن ينتظر حتى الصباح، ينقاد خلفهم أعلى الدرجات إلى أن يصل المذبح، وهناك، لحظة تقديم القربان، يطعن الملك. وبذا سيبدو وكأنّ الإلهة نفسها قد صرعت الملك، وسيؤخذ موته إشارةَ انطلاقٍ لثورةٍ مُعَدّة مسبقاً بكل دقة.

ثلةٌ من العوام، ممّن تلقّوا الرشاوي، ستتولى إشعال أحداث شغب. من بعدها ستتوالى الأحداث تباعاً وفقاً للجدول الزمنيّ المتفق عليه. سيضعون كاهنات المعبد تحت الوصاية، من أجل حمايتهن كما يقال، لكن في الواقع سيجبرن على تأييد مزاعم المتآمرين وتثبيت سلطتهم الروحية. النبلاء المناصرون للملك سيُقتَلون بالرمح حيث ثُقِفوا؛ الذكور من ذريتهم سيُقتَلون أيضاً لتفادي أي ردود انتقامية

مستقبلاً؛ أما البنات فسيتزوّجنَ المُنتصرين لإضفاء الشرعية على مصادرة ثروات عائلاتهن، أما الزوجات المدللات، الزانيات دون ريب، فسيلقى بهن إلى العوام. فما إن يسقط عزيز القوم، فلا متعة تماثل متعة مسح قدميك به.

السفّاح الأعمى يخطط للهرب في غمرة الارتباك لحظة الاغتيال، ليعود لاحقاً مطالباً بالنصف الآخر من أجره السخي. لكن في واقع الأمر، المخططون للانقلاب ينوون قتله في اللحظة، فلن ينفعهم أبداً الإمساك به وكذلك - في حال فشل المتآمرون في خطتهم - إجباره على الاعتراف. سيخبئون جثته لأن الجميع يعلم أن السفاحين العميان لا يقتلون إلا بالأجرة، وعاجلاً أم آجلاً سيبدأ الناس في التساؤل عمن استأجره. فالتخطيط لقتل ملك شيء، وافتضاح أمرك شيءٌ آخر.

وعلى هذا، فالفتاة التي لا تزال مجهولة الاسم، تستلقي على فراشها من البروكاد الأحمر، تنتظر سيد العالم السفلي المُخْتَلق، تردد وداعاً دون كلمات لهذه الحياة. السفّاح الأعمى ينسل داخل الدهليز، مرتدياً الأرواب الرمادية لخادم المعبد. يصل إلى الباب. الحارس امرأة، إذ يمنع على الرجال الخدمة داخل المجمع. وعبر خماره الرمادي يهمس السفّاح لها بأنه يحمل رسالةً من الكاهنة الأعلى، لأذنها وحسب. تحني المرأة رأسها وإذ بالسكين بلمح البصر تحز عنقها، برقُ الآلهةِ رحمة. يداه الخفيتان تندفعان كالسهم نحو خشخشة المفاتيح.

يدير المفتاح في القفل. داخل الغرفة، الفتاة تسمعه، فتنهض عن سريرها".

ينقطع فجأةً عن الحديث. يرهف أذنه إلى صوتٍ ما في الشارع.

تنهض وتتكئ على مرفقها. "ما بك؟ الصوت لباب عربة الترام".

"اصنعي لي معروفاً. كوني فتاةً طيبة وارتدي قميصك التحتي، واختلسي النظر من النافذة".

"وماذا إن رآني أحدهم؟" تسأله. "فنحن في وضح النهار".

"لا تقلقي. لن يتعرفوا عليك. كل ما سيرونه امرأة ترتدي قميصها التحتي، ليس بمنظرٍ غير مألوف في هذه الأنحاء، سيعتقدون أنك ..".

"امرأة خليعة؟" تقول له باستخفاف. "هل هذا ما تظنه عني أيضاً؟"

"بل عذراء محطمة، وشتان ما بين الأمرين".

"تلك شهامةٌ منك".

"أحياناً أنا ألد أعداء نفسي".

"لولا وجودك في حياتي لكنت محطمةً أكثر بكثير". هي تقف عند النافذة الآن، ترفع الستار الحاجب. قميصها التحتي بلون الأخضر الفاتر لشاطئٍ جليديّ، جليدٍ متكسّر. لن يسعه التشبث بها، ليس لوقتٍ أطول. ستذوب، سيجرفها الماء بعيداً، ستنزلق من بين أصابع يديه.

"ألمحتِ شيئاً؟"

"لا شيء خارج المعتاد".

"عودي إذاً إلى الفراش".

لكنها قد نظرت نحو المرآة المعلقة فوق المغسلة، ولمحت نفسها. وجهها العاري، شعرها المبعثر. تنظر نحو ساعتها. "يا إلهي، أين ضاع الوقت، عليّ أن أرحل".

الجيش يقمع الإضراب العنيف

بورت تيكونديروغا أونتاريو

اندلعت البارحة موجةٌ جديدة من أعمال العنف في بورت تيكونديروغا في مواصلةٍ للاضطرابات التي شهدتها البلدة هذا الأسبوع بفعل الإضراب والإغلاق التعجيزي لمصانع تشايس وأبنائه المحدودة وإقفالها. ومع وضوح عجز قوى الشرطة المحلية أمام أعداد المتظاهرين الكبيرة وطلب الهيئة التشريعية المحلية تأمين الدعم لها، فقد فوّض رئيس الوزراء إرسال فرقة من الكتيبة الملكية الكندية للإقليم والتدخل حفاظاً على الأمن العام، وقد وصلت الفرقة الساعة الثانية بعد الظهر. وقد تم الإعلان عن استتباب الأمن.

وقبل إعادة فرض النظام، خرج لقاءٌ لمجموعةٍ من المضربين عن السيطرة. واجهات المتاجر على امتداد الشارع العام تكسّرت، عدا تعرضها للنهب على نطاقٍ واسع. بعض أصحاب المتاجر ومَن حاولوا حماية ممتلكاتهم تم إيداعهم المستشفى إثر تعرضهم لرضوض وكدمات. وتشير المصادر إلى أن شرطياً حالته خطرة، إذ يعاني ارتجاجاً في المخ، إثر ضرب رأسه بطوبة. حريقٌ اندلع في المصنع رقم واحد في ساعات الصباح الباكر، تم إخماده على يد فرقة الإطفاء المحلية، ويجري التحقيق حالياً في مسببات الحريق مع الاشتباه بوجود نية الإحراق عن عمد. الحارس الليلي، السيد آل دافيدسون، حملوه خارج المصنع للأمان بعيداً عن طريق ألسنة اللهب، لكن تبيّن أنّ سبب وفاته ضربةٌ تلقاها على رأسه واستنشاقه الدخان. وجاري البحث حالياً عن المحرضين على الانتهاك الصارخ للملكيات وأرواح الناس، وقد جرى التعرّف بالفعل على عدة أشخاص مشتبه بتورطهم في الأمر.

وقد صرّح محرر صحيفة بورت تيكونديروغا، السيد إلوود آر. موراي، أن أعمال الشغب اندلعت شرارتها مع تقديم الخمور إلى جموع المتظاهرين على يد محرضين

من خارج البلدة. وقد ادّعى أن العمّال المحليين هم مواطنون ملتزمون بالقانون وما كانوا لينساقوا إلى أعمال الشغب لولا تعرضهم للاستفزاز والتحريض.

السيد نورفال تشايس، رئيس مصانع تشايس وأبناؤه، لم يكن متاحاً للتعليق.

السفّاح الأعمى: خيول الليل

بيتٌ مختلف هذا الأسبوع، وغرفةٌ مختلفة. على الأقل هناك مساحةٌ كافية للتحرك بين السرير والباب. الستائر مكسيكية، مخططة بألوان الأصفر والأزرق والأحمر؛ لوح السرير الرأسي المرتفع من خشب القيقب؛ هناك لحافٌ من طراز هدسون باي، قرمزيٌّ وخشن، مرميٌّ على الأرض. على الجدار ملصقٌ لمصارعة الثيران. مقعدٌ ذو ذراعين، جلديٌّ بلون الكميت؛ مكتبٌ من خشب السنديان المدخن؛ ملء جرةٍ من أقلام الرصاص، كلها مبرية؛ حاملٌ عليه صفٌّ من أنابيب الغليون. الهواء ثخينٌ بهباء التبغ.

رفٌّ من الكتب: أودين، فيبلين، شبينغلر، ستاينبيك، دوس باسوس. مدار السرطان، على مرأىً للعيان، لا بد وأنها مهربة. سلامبو، الهارب الغريب[46]، شفق الآلهة، وداعاً للسلاح. باربوس، مونترلان. "*HammurabiGesetz. Juristische Erlauterung*"[47]. صديقه الجديد يحمل اهتمامات ثقافية، كذا تقول في نفسها. وكذلك مالاً أكثر. وبذا فهو أقل جدارةً بالثقة. يملك ثلاث قبعات مختلفة معلقة على مشجب المعاطف الخشبي الجوزيّ، ومعلقٌ معها بُرْنسٌ بليديّ[48]، من الكشمير الخالص.

"أقرأت أياً من تلك الكتب؟" تسأله، بعد أن دخلا وأقفل الباب خلفهما، بينما كانت تخلع عنها قفازيها وقبعتها.

---

(46) الهارب الغريب – Strange Fugitive: للروائي الكندي مورلي كالغان.

(47) شريعة حمورابي.

(48) بليديّ – plaid: البليد قماشٌ مربع النقش أو متصالبه.

"بعضها،" أجابها. لم يدخل في التفاصيل. "أديري رأسك". حلّ عن شعرها ورقة شجرٍ ساقطة.

وسرعان ما هويا.

تتساءل إن كان صديقه على علمٍ بأمرها، ليس فقط بأن هناك امرأة – فلا بدّ أنهما رتبا الأمر بينهما كي لا يقتحم الصديق خلوتهما، فالرجال عادةً ما يفعلون ذلك – لكن إن كان يعلم بهويتها. اسمها وما شابه. تأمل ألا يعرف. فلها أن ترى من مجموعة كتبه، وعلى الأخص ملصق مصارعة الثيران، أن هذا الصديق سيكون عدائياً نحوها من باب المبدأ.

يبدو اليوم أقل عدائيةً معها، أكثر تأملاً واستغراقاً. أخذ يتريث، يكبح عنانه، يتفحصها بعينيه.

"لمَ تنظر إليّ هكذا؟"

"كي أحفظك".

"ولماذا؟" قالت له، واضعةً يدها على عينيه. لم يرق لها أن يتفحصها هكذا. بأصابعه.

"كي أحظى بك لاحقاً، متى رحلتُ عن هنا".

"إيّاك، إيّاك أن تفسد علينا هذا النهار".

"إذا هبّت رياحك فاغتنمها،" يقول لها. "أليس هذا شعارك؟"

"بل أقرب إلى اقتصد في شبابك لتصرف في شيخوختك،" أجابته. فضحك حينها.

الآن وقد استردت أنفاسها، تتمدد بين طيات الغطاء المثنيّ حول نهديها؛ تستلقي جانبه، ساقاها مخبأتان في ذيل سمكةٍ متمعّج من القطن الأبيض. يداه خلف رأسه؛ يتأمل السقف مستغرقاً. تسقيه رشفاتٍ من شرابها، هذه المرة ويسكي الجاودار مخلوطًا بالماء. أرخص من الويسكي. كانت تنوي إحضار شرابٍ لائق معها – قابلٍ للشرب– لكنها دائماً ما تنسى.

"واصل،" تقول له.

"في انتظار الإلهام،" يجيبها.

"وما الذي عليّ فعله لألهمك؟ فلا داع لأعود قبل الخامسة".

"سأضع عرض إلهامك الحقيقي قيد التأجيل، عليّ أن أستعيد طاقتي. أمهليني نصف ساعة".

""!O lente, lente currite noctis equi ""

"ماذا؟"

"على مهلِكْ، على مهلِكْ، يا خيول الليل. لأوفيد. الجملة تقال في اللاتينية على مهل".

كان حماقةً منها، سيظنها تستعرض عليه. يصعب عليها التمييز إن كان يعرف حقاً ما تتحدث عنه أو لا. أحياناً يدّعي جهله بالموضوع، ومتى ما استفاضت في الشرح يكشف لها معرفته السابقة به. يستدرجها للحديث، ثم يخرسها.

"يا لك من بطةٍ سوداء،" يقول لها. "ولم تدعى بخيول الليل؟"

"لأنها تجرُّ عربة الوقت. هو بصحبة خليلته. هي تعبيرٌ عن رغبته في أن يطول الليل، حتى يتسنى له قضاء وقتٍ أطول معها".

"لأجل ماذا؟" يعقّب عليها بخمول. "أخمس دقائق لا تكفيه؟ ألا يملك شيئاً أفضل ليصنعه بوقته؟"

تنهض عنه. "هل أنت مرهق؟ هل مللت مني؟ أيجدر بي الرحيل؟"

"عودي واستلقي جانبي. لن تذهبي إلى أي مكان".

تتمنى لو أنه لا يفعل ذلك – يتقمص دور كاوبوي الأفلام في حديثه معها. هو يفعل ذلك ليضعها في موقفٍ ضعيف أمامه. ومع ذلك، تتمدد جانبه، تطوق صدره بذراعها.

"ضعي يدك هنا، سيدتي. هذا سيفي بالمطلوب". يغلق عينيه. "خليلة،" يقول لها، "يا له من مصطلحٍ عتيق. من العصر الفيكتوري. يجدر بي أن أقبّل حذاءك المنمنم أو أمطرك بالشوكولا".

"ربما أنا عتيقة. وربما أنتمي إلى العصر الفيكتوري. أنستقر على وصف عشيقة إذن. أو فاجرة. أتراها أقرب إلى الواقع؟ تعدل في نظرك كفتيّ الميزان بيننا؟"

"أكيد. لكني أفضّل خليلة. فكفتا الميزان لن تتساوى بيننا، أليس كذلك؟"
"لا،" تجيبه، "لن تتساوى. على أي حال، واصل".

يروي لها: مع حلول الليل، يخيّم قوم البهجة على بعد يومٍ من الزحف اتجاه المدينة. الجواري، سبايا فتوحاتهم السابقة، يصببن شراب الهرانج القرمزي من القوارير الجلدية حيث تخمَّر، يخدمن الرجال ذليلات خانعات مطأطآت الرأس، يحملن زبديّات من مرقٍ بالكاد مطهيّ من غضاريف ماشية الثلكس المسروقة. الزوجات الرسميات يقبعن في الظلال، أعينهن تلمع في عتمة الحجاب البيضاوي القاتم على رؤوسهن، يترقبن وقوع أي تصرفٍ وقح. هن مدركات لحقيقة نومهنّ وحيدات هذه الليلة، لكنهن سيجلدن الجواري لاحقاً بحجة الحماقة أو عدم الاحترام، لا مناص لهن من العقاب.
الرجال يربضون حول نيرانهم الصغيرة، متدثرون بعباءاتهم الجلدية، يتناولون عشاءهم، يبربرون فيما بينهم.
ليسوا في مزاجٍ مرح. فغداً، أو اليوم التالي للغد – يعتمد على سرعتهم ويقظة العدو – سيضطرون للقتال، وهذه المرة قد لا يكون النصر حليفهم. أجل، الرسول ذو الأعين النارية من تحدث إلى قبضة القهار قد وعدهم بالنصر المؤزر إن هم ظلوا على ورعهم وطاعتهم وشجاعتهم وبسالتهم وبراعتهم في القتال، بيد أن تلك الوعود دائماً ما تأتي مع كثيرٍ من الشروط.
إن هُزِموا، سيُقتَلون، ومعهم نساؤهم وأطفالهم. فهم لا يتوقعون أي رحمة. وإن انتصروا، هم بأنفسهم من سيتولون القتل، ولا متعةَ كبيرة في القتل كما يشاع عنه. هم مجبرون على قتل كل أهل المدينة: تلك هي أوامرهم. لا صبيَّ يترك حيًّا فيكبر في ظلِّ الرغبة الشديدة بالانتقام لوالده المذبوح؛ ولا فتاةً صغيرة كذلك، خوفاً من إفسادها قوم البهجة بأخلاقياتها الفاسقة. اعتادوا الاحتفاظ بالفتيات الصغيرات من فتوحاتهم السابقة ووَهْبِهم للمقاتلين، واحدة أو اثنتين أو ثلاث للجندي الواحد، حسب شجاعته وجدارته، بيد أنّ الرسول الإلهي قد نهاهم عن

تلك الممارسة، هنا وكفى.

كل هذا الانغماس في القتل سيجهدهم، وكذلك سيحدث ضجةً عالية. فالقتل على نطاقٍ واسعٍ كهذا جدٌّ شاقٍ وعسير، وملوّث، ولا بد لقوم البهجة أن يرتكبوا القتل بغاية الإتقان وإلا وقعوا في مشكلة. فالجبّار بطبيعته يصر على التمسك بحرفية القانون.

خيولهم متباعدة ومقيّدة بالطُّوْل. قليلة العدد، ولا يمتطيها سوى القادة – خيولٌ هزيلة جفولة بأفواه قاسية ووجوهٍ مكروبةٍ طويلة، أعينها حنونةٌ وجبانة. لا شيء مما يجري هو خطؤهم: فقد جروهم إلى هذا.

إن كنت تملك حصاناً فيجوز لك رفسه وضربه، لكن يحرم عليك قتله وأكلِ لحمه، إذ منذ عهدٍ بعيد تجلى رسولٌ من الجبّار على هيئة الحصان الأول. يقال إنّ الخيول تتذكر ذلك، وتفخَر به. لذا لا يسمح إلا للقادة بركوب الخيل. أو تلك كانت حجتهم.

"ماي فير"، مايو 1935

أوج أقاويل تورنتو

بقلم يورك

هلّ الربيع علينا في شهر أبريل عابثاً مرِحاً، يرحب بقدومه موكب فرسانٍ أصليّ من سيارات الليموزين يقودها السائقون الخصوصيون، تتقاطر فيها جموع الضيوف الوجهاء على أهم حفل استقبالٍ في الموسم، مناسبة السادس من أبريل الساحرة التي أقيمت لدى السيدة وينيفريد غريفين بريور، في مقر إقامتها المهيب في روزدايل ذي الطراز المعماري التيودريّ، على شرف الآنسة آيريس تشايس من بورت تيكونديروغا، أونتاريو. الآنسة تشايس هي ابنة الرقيب نورفال تشايس وحفيدة الراحلة السيدة بنجامين مونفورت تشايس، من مونتريال. وسيتم عقد قران الآنسة تشايس على أخ السيدة غريفين بريور، السيد ريتشارد غريفين، الذي حمل لفترةٍ طويلة لقب أكثر العزاب المؤهلين في الإقليم، في زفافٍ باهرٍ سيقام في مايو والموعود بأن يكون ضمن المناسبات التي لا تفوَّت على رزنامة حفلات الزفاف لهذا العام. مُستهِلّات العام الماضي وأمهاتهن كن متشوقات لإلقاء نظرة على العروس الشابة التي سحرت الحضور بفستانها المحتشم من تصميم "شياباريلي" من قماش الكريب المبثّر باللون البندقي، مع تنورةٍ ضيقة مخصرة بالكشكش، حاشيتها مزركشة بالمخمل الأسود السّبجي. وفي محيطٍ من زهور النرجس البيضاء، ظلل التعريشة البيضاء، وعلى ضوء شموع الثريا في الشمعدانات الجدارية الفضية المزينة بفسطون[49] عناقيد العنب المسكي الأسود الصناعّي المزخرفة بشرائط فضية لولبية، استقبلت السيدة بريور ضيوفها في فستانها الفاتن من تصميم "شانيل" بلون الرماد الزهري ذي التنورة المنسدلة، صدارته مرصعة بحليّ اللؤلؤ الصغيرة المتفرِّدة. شقيقة الآنسة تشايس ووصيفتها، في فستانٍ مخمليّ بلون ورق الشجر

(49) الفسطون: زهور أو أشرطة أو أعلام متدلية بين نقطتين على سبيل الزينة.

الأخضر وموشى بالساتان الوردي اللحمي، كانت أيضاً ضمن الحضور.

ومن كبار جمع الضيوف الوجيه، الحاكم وزوجته، السيدة هيربرت آي. بروس، العقيد وزوجته آر. واي. إيتون وابنتهما الآنسة مارغريت إيتون، سيادة القاضي دبليو. دي. وزوجته السيدة روس وابنتيهما الآنسة سوزان روس والآنسة إيزوبل روس، السيدة آي.أل. إيلسورث وابنتاها، السيدة بيفيرلي بالمر والآنسة إلاين إيلسورث، الآنسة جوسلين بون والآنسة دافني بون، والسيد والسيدة غرانت بيبلر.

السفّاح الأعمى: الجرس البرونزي

الساعة هي منتصف الليل. في مدينة ساكيل نورن، جرسٌ برونزي يقرع وحيداً إيذاناً بهبوط الإله المحطَّم، التجسيد الليلي لإله الشموس الثلاث، إلى أعمق نقطةٍ في الظلام، ممزَّقاً إرباً من بعد نزاله الوحشي مع سيد العالم السفلي وجنده من الأموات الذين يعيشون في الأسفل هناك. ستجمع الإلهة أشلاءه، تبعث فيه الحياة من جديد، تقضي الليل في رعايته إلى أن يستعيد صحته وعنفوانه، وفي ساعة الفجر سيبزغ من جديد، متجدداً عارماً بالنور الإلهي.

رغم أن الإله المحطَّم شخصيةٌ ذات شعبيةٍ عارمة، فإنه لا أحد في المدينة عاد يؤمن حقاً بتلك الحكاية عنه. ومع ذلك، فالنساء في كل بيت ينحتن هيئته من صلصال والرجال يحطمونها إلى شذرات في الليلة الأدمس ظلاماً من العام، ثمّ تعود النسوة إلى نحت صورةٍ جديدة له نهار اليوم التالي. أما الأطفال، فهناك آلهة صغيرة مصنوعة من الخبز المحلّى تقدم لهم كي يأكلوها؛ فالأطفال بأفواههم الجشعة الصغيرة ترمز للمستقبل، والذي كما الوقت نفسه، سيلتهم كل ما هو حيٌّ الآن.

الملك يجلس وحيداً في برجه العلويّ من قصره المترف، حيث يتسنى له مراقبة النجوم وتفسير دلائل البشارة والنذير وتحضير التنبؤات للأسبوع القادم. كان قد خلع عنه قناعه المنسوج من البلاتينيوم ووضعه جانباً، إذ لا أحد يتواجد معه يضطر إلى حجب مشاعره عنه: له أن يبتسم ويعبس كما يشاء مثل أي عاميّ من عوام الإيغنيرودز. ويا له من مبعث ارتياح.

في هذه اللحظة كان يبتسم، ابتسامةً تأملية: يتفكّر في علاقته الغرامية الأخيرة، مع

الزوجة الريّانة لموظفٍ مدَنيٍّ بسيط. غبيةٌ كما الثلكس، لكن لها شفتان عارمتان ناعمتان مثل وسادةٍ مخملية مشبعة بالماء، وأصابعها النحيلة، كما فتيل الشمع، رشيقةٌ وسلسة في حركتها مثل السمكة، لها عينان ضيقتان ماكرتان، وبارعةٌ في موهبتها حد الاحتراف. لكن للأسف، غدت لحوحة مؤخراً، وكذلك طائشة. أخذت تنقُّ عليه أن ينظم قصيدةً في مدح قذالها، أو أي عضوٍ آخر من جسدها، كما هو ديدن الغنادرة من عشاق البلاط، بيد أنّ مواهبه لا تصب في ذاك الاتجاه. ما سرُّ هوس النساء بهاجس الانتصار، وحرصهن على الاحتفاظ بتذكار؟ أم تراها تسعى بطلبها هذا إلى رؤيته يتصرف بحماقة من أجلها، بغية استعراض سلطتها عليه؟

لمن المؤسف أن ينتهي الأمر بينهما، لكن لا بد له من التخلص منها. سيدمر زوجها مالياً – سيسبغ عليه شرف زيارته شخصياً في بيته برفقة حاشيته من أكثر الرجال الموثوقين بهم في البلاط، إلى أن تنضب كل موارد الأحمق المالية. من بعدها سيضطر إلى بيع زوجته على تجار الرقيق كي يسدد ديونه. وربما هو الخيار الأصلح لها – سيقوّي من عودها. تراوده متعةٌ خالصة في تخيلها دون خمارها، وجهها مكشوفٌ لكل عينٍ مارة ترمقها، تحمل معها مسند القدمين من خلف سيدتها الجديدة، أو تلاطف طائر "الويبولار" ذا المنقار الأزرق، عابسةً طوال الوقت. خيار اغتيالها متاحٌ أمامه، لكن خيار القتل يبدو قاسياً بعض الشيء: فذنبها الوحيد شهوتها للشعر الرديء. هو ليس بطاغية.

مسجىً أمامه أوورم منزوع الأحشاء. يضيع وقته في نقب ريشه. النجوم لا تعنيه شيئاً – إذ ما عاد يؤمن بتلك البربرة – لكن، على أي حال، سيخز عينيه متأملاً إياها لفترة بينما يختلق بياناً ما. تضاعف الثروات ووفرة الحصاد ستغطي عليه في المنظور القريب، فالناس دائماً ما تنسى أمر النبوءات في ظل الرفاه، إلا في حال تحققت.

يتساءل عن صحة المعلومات التي تلقاها من مصدرٍ خاص موثوق به – حلاقه – أن مؤامرةً تحاك ضده كرةً أخرى. هل سيضطر لإلقاء الأمر بالاعتقال، اللجوء إلى التعذيب والإعدام كما فعل سابقاً؟ دون ريب. فادعاء اللين لا يقل خطورةً على

الأمن العام عن اللين الحقيقي. فالقبضة القوية على الحكم تنال الاستحسان. وإن كان هناك من رؤوسٍ لا بد أن تقطف، فرأسه لن تكون من بينها. سيجبر على التصرف حالاً، كي يحمي نفسه؛ ومع ذلك يغمره شعورٌ غريبٌ من الجمود. فالحكم مبعث توتّر متواصل: إن استكان ليرتاح، ولو للحظة، سيتكالبون عليه، أياً يكونوا. يخيّل إليه أنه يرى في اتجاه الشمال وميضاً متقطعاً، وكأنّ ناراً موقدة تحترق في الأفق، لكن سرعان ما يختفي. البرق ربما. يمرر يده على عينيه".

"أشعر بالأسف عليه. أظنه يحاول فقط بذل أقصى جهده".

"وأنا أظن أننا في حاجة إلى جرعة شرابٍ أخرى. ما رأيك؟"

"أراهن أنك ستقتله. أرى في عينيك تلك الومضة".

"إن أردت العدالة فهو يستحق القتل. عن نفسي، أظنه وغداً. لكن لا بد للملوك أن يكونوا أوغاداً، أليس كذلك؟ البقاء للأقوى وما شابه. أما الضعيف فظهره للجدار.[50]"

"أنت لا تؤمن حقاً بذلك".

"ألدينا ما يكفي؟ هلّا عصرتها؟ فأنا حقا عطش".

"سأرى". تنهض عن السرير، متدثرةً بالغطاء وتجره على الأرض خلفها. القارورة على المكتب. "لا داع كي تتدثري،" يقول لها. "فأنا مستمتعٌ بالمنظر".

تنظر إليه من خلف كتفها وتقول، " من باب إضفاء الغموض. ألقِ لي بكأسك. أتمنى عليك أن تتوقف عن شراء هذا الويسكي الرخيص".

"هذا ما يسعني شراؤه. وعلى أي حال، أنا رجلٌ دون ذائقة. فأنا يتيم. والكنيسة المشيخيّة دمرتني، أيام عشت في الميتم. لذا أنا متشائمٌ وكئيب".

"لا تلعب معي دور اليتيم المسكين. فقلبي لن يدمى عليك".

"على العكس، بل يدمى. أنا أعتمد على ذلك. فعدا ساقيك ومؤخرتك الرائعة جداً،

---

(50) العبارة مستوحاة من المثل الإنجليزي الشائع: weakest go to the wall والمذكورة في مسرحية شكسبير "روميو وجولييت".

هذا أكثر ما ينال إعجابي فيك، دمويّة قلبك".

" ليس قلبي هو الدمويّ، بل عقلي. فأنا عنيدة، شرسة، وحشية. أو هذا ما قيل لي" يضحك. "في صحة عقلك الدمويّ إذن. تجرعي دفعةً واحدة".

تشرب كما قال، وتكشر في وجهه.

"مرارةُ طعمه تنعكس على الوجه فورًا،" يقول مبتهجاً. "آه تذكرت، عليّ أن ألتقي رجلاً بخصوص كلب". ينهض عن السرير ويتوجه نحو النافذة، ويرفع إطارها قليلاً.

"إياك!"

"سنلتقي في المدخل الجانبي. لن أضرب أحداً".

"على الأقل ابق خلف الستارة! وماذا عني؟"

"وماذا عنك؟ ليست بالمرة الأولى التي ترين فيها رجلاً عارياً. فأنت لا تغلقين عينيك دائماً".

"لا أعني هذا، أعني ما الذي تتوقعه مني، أن أتبول خارج النافذة. سأنفجر".

" بُرْنس صديقي، ترينه؟ ذاك الشيء البليديّ المعلق على المشجب. فقط تأكدي ألّا أحد في الرواق. صاحبة المنزل عجوزٌ فاجرة ومتطفلة، لكن طالما ترتدين البليد فلن تراك. ستندمجين مع الخلفية – فهذا المكب بليديّ حتى النخاع".

"حسنٌ إذن،" يقول لها، "أين كُنتْ؟"

"هي ساعة منتصف الليل،" تجيبه. "جرسٌ برونزي يقرع وحيداً".

"أوه أجل. هي ساعة منتصف الليل، وجرسٌ برونزي يقرع وحيداً. ومع تلاشي صوته، يدير السفّاح المفتاح في قفل الباب. دقات قلبه تتسارع، تخفق بقوة، كما يحدث معه في لحظاتٍ كتلك: لحظة انطباق الخطر عليه. إن ألقوا القبض عليه، فالموت الذي أعدوه له سيكون مؤلماً وطويلاً.

أمّا الموت الذي سينزله على الآخر فلا يعنيه شيئًا، ولا يعنيه حتى معرفة السبب من ورائه. فهوية الضحية والسبب هو شأن الأغنياء وأصحاب النفوذ، ولا يحمل في قلبه سوى الكره لهم، الكلُّ على حدٍّ سواء. فهم من سلبوه بصره وأقحموا أنفسهم

في جسده عشرات المرات وقتما كان صغيراً ضعيفاً لا يملك القدرة على المقاومة، وسيرحب بأي فرصةٍ تتاح له لنحر أحدهم – كل واحدٍ منهم – هم وأي شخصٍ عالقٍ في شبكتهم، تماماً مثل حال هذه الفتاة. فلا يعنيه شيئًا أنّ الفتاة لا تعدو كونها أداةً مسرحية، سجينة مرصعة بالمجوهرات. لا يعنيه شيئًا أن هؤلاء الناس، من صيّروه أعمى، هم ذاتهم من صيّروها بكماء. سينفذ مهمته ويستلم أجره وبذا تنتهي عنده المسألة.

وعلى أي حال هم سيقتلونها في الغد إن لم يقتلها بنفسه الليلة، وستموت على يده ميتةً سريعة ولن تشعر بشيء، لن يكون أخرقاً معها كما يجري عادةً في تلك القرابين. في الواقع هو يصنع بها معروفاً. فقد شهد طقس القربان الكثير من حالات التخبط والارتباك. فلا ملك منهم يتقن استخدام السكين.

يأمل ألا يصدر عنها جلبةٌ عالية. قد قيل له إنها عاجزة عن الصراخ: فأعلى ما يمكن أن يصدر عنها – مع لسانها المقطوع وفمها المجروح – صوتٌ يشابه المواء الحاد المخنوق، مثل مواء قطةٍ في كيس. لا بأس. ومع ذلك سيأخذ احتياطاته.

يجر جثة الحارسة إلى داخل الحجرة حتى لا يتعثر بها أحدهم في الرواق. ثم ينسل داخلاً، حافيَ القدمين في صمتٍ عميق، ويُقفل خلفه الباب.

V

معطف الفرو

هذا الصباح أطلقوا إنذار قدوم الإعصار على قناة الطقس، وفي العصر اكتست السماء بلونٍ أخضر يُنذر بالشر، أغصان الأشجار أخذت تتخبط بعضها ببعض وكأن حيواناً ضخماً هائجاً أخذ يشق طريقه مندفعاً فيها. العاصفة مرّت مباشرةً فوق البيت: ألسنة أفاعٍ تومض برقاً أبيض، أكوام صحونٍ قصديرية تتشقلب في الهواء. عُدّا حتى الألف وواحد، اعتادت ريناي أن تقول لنا. إن بلغتما الرقم، فهذا يعني أن العاصفة على بعد ميلٍ من هنا. حذرتنا من مغبة استخدام الهاتف ساعة العاصفة الرعدية وإلا سيخترق البرق أذنك عن طريق الأسلاك ويجعلك صماء. كذلك حذرتنا من مغبة الاستحمام، فالبرق سيتدفق عبر الصنبور كما الماء. ونبهتنا إن انتصب الشعر على مؤخر عنقك فعليك القفز في الهواء، فتلك الطريقة الوحيدة التي ستنجين بها.

العاصفة انقشعت مع حلول الليل، بيد أن الأجواء كانت لا تزال شديدة الرطوبة وخانقة كأنما نقبع في مصرف مياه. أخذت أتقلب مهتاجةً مشوشة في الوحل الذي غدا عليه سريري، أستمع إلى قلبي يترنح على وقع نوابض السرير، أحاول يائسةً نيل قسطٍ من الراحة. في النهاية توقفت عن المحاولة، نهضت عن الفراش وتناولت سترةً طويلة وارتديتها فوق قميص نومي، ونزلت السلم أتلمس طريقي حذرةً على الدرجات. ثم ارتديت معطف المطر البلاستيكي ذي القبعة ودسسْت قدميّ في فردتي حذائي المطاطي، وخرجت. خشب درجات الشرفة الرطب كان غادراً. الطلاء تشقّق عنه، لا بد أنها بدأت تتعفن.

في الضوء الخافت بدا كل ما حولي أحاديَّ اللون. الجوُّ كان رطباً وساكناً. زهور الأقحوان على المرج الأمامي تلألأت بقطرات الندى؛ كتيبةٌ من البزاقات العريانة انهمكت ولا ريب في مضغ القليل المتبقي من أوراق الترمس. يقال إن البزاقات تهوى البيرة؛ ما أنفكّ أتساءل إن كان ينبغي عليّ سكب القليل منه لأجلها. خيرٌ لهم أن يشربوها هم عوضاً عني: فالبيرة ما كانت أبداً الشراب المسكر المفضل لدي. فلطالما أردت سلك الطريق الأسرع إلى رباطة الجأش.

مشيت على مهل وبخطىً خفيفة على الرصيف الرطب. القمر كان بدراً، مطوَّقاً بسديمٍ باهت؛ ومن أسفل أعمدة إنارة الشارع، انسل أمامي، كما العفريت، ظلي القصير الناتئ. شعرت بأني أقوم بفعلٍ جريء: امرأةٌ كبيرة السن، منعزلة، تسير وحدها في الليل. قد يلمحني غريبٌ ما ويرى فيّ امرأةً عاجزة. وبالفعل انتابني شيءٌ من الخوف، أو على الأقل كنت واعيةً لخطورة الوضع بما يكفي لأدفع بقلبي إلى أن يخفق أسرع. ما انفكّت ميرا تقول لي بلطف إنّ النساء العجائز هن الضحية المثلى للصوص. يقال إنهم يأتون من تورنتو، أولئك اللصوص، مثلهم مثل كل سوءٍ يقدم إلى البلدة. على الأرجح أنهم يأتون على متن الحافلة، أدوات سلبهم مموهة على هيئة مظلات، وعصي الغولف. فأولئك الناس لا يقفون عند أي حد، كذا تقول ميرا منذرةً.

تجاوزت ثلاثة تقاطعات في طريقي إلى شارع البلدة الرئيسي في البلدة، ثم توقفت أتأمل مرآب والتر على الجهة المقابلة للطريق المسفلتة الرطبة الملساء. والتر كان يجلس في منارة المقصورة الزجاجية، في وسط الحوض الأسود الخاوي من الإسفلت المسطح. كان يحني رأسه إلى الأمام مرتدياً قبعته الحمراء، بدا لي جوكي متقدماً في السن على ظهر حصانٍ خفيّ، أو القبطان الممسك بدفة مصيره، يقود سفينةً مخيفة عبر الفضاء الخارجيّ. في واقع الأمر كان يشاهد قناة الرياضة على تلفازه الصغير المحمول، والذي عرفت بأمره من ميرا. لم أتوجه إليه لأحادثه: لكنت أفزعته بمنظري، طيفاً ألوح له في العتمة في حذائي المطاطي وقميص نومي وكأني مترصدةٌ ثمانينيّة مخبولة. ومع ذلك، كان مريحاً لي أن أعرف أن إنساناً آخر كان

مستيقظاً معي في تلك الساعة من الليل.

في طريق عودتي سمعت خطىً تندفع خلفي. ها هي عاقبة حماقتك، قلت لنفسي، ها هو اللص قد أتى. لكن لم تكن سوى خطى امرأةٍ شابة ترتدي معطف مطرٍ أسود، تحمل معها كيساً أو حقيبة صغيرة. مرت جانبي مندفعةً بخطىً سريعة، تتلع عنقها.

هي سابرينا، قلت في نفسي. ها قد عادت رغم كل شيء. كم أحسست لحظتها بالغفران – أني بوركت، أن روحي قد فاضت بنور النعمة الإلهية، وكأنَّ الزمن عاد بي للوراء وعكازي الخشبي البالي تفتّح أوبرالياً في يدي وغدا زهرةً. لكن حين لمحتها للمرة الثانية – لا، بل الثالثة – أدركت أنها ليست سابرينا؛ فقط غريبةٌ ما. ومن أنا لأستحق معجزةً أختم بها أيام حياتي؟ كيف لي حتى أن أتوقع حدوثها؟

بيد أني حقاً أتوقعها، ضد كل الاحتمالات.

لكن كفى. سأعاود حمل نيْرَ حكايتي على عاتقي، كما يقولون في القصائد. عوداً إلى آفيليون.

أمي توفيت. لن تعود الأمور إلى ما كانت عليه. قيل لي ألاّ أدع شفتي العليا ترتجف[51]. من قال لي هذا؟ ريناي بالتأكيد، أبي ربما. من الغريب ألا يذكروا شيئاً أبداً عن الشفة السفلى. فتلك هي الشفة التي يفترض بك أن تعضها، كي تستبدل ألماً بآخر.

في بادئ الأمر اعتادت لورا قضاء وقتٍ طويل داخل معطف أمي، معطف الفرو. كان من فرو الفقمة، ومنديل أمي ما زال في جيبه. لورا تدخل فيه ثم تحاول غلق الأزرار من الأعلى، إلى أن ابتكرت طريقةً أخرى، فكانت تغلق الأزرار أولاً ثم تزحف داخلةً المعطف من الأسفل. أظنها ولا بد اعتادت الصلاة فيه، أو الاستحضار: استحضار روح أمي كي تعود لنا من جديد. أياً ما كانت تفعله داخل المعطف، فلم

(51) العبارة تعود إلى القول الإنجليزي الدارج: "keep a stiff upper lip" والتي تقال للمكروب تأكيداً على ضرورة احتفاظه برباطة جأشه. وهنا تكمن الإشارة، أن الشفة السفلى لم يذكر عنها شيء.

يجد نفعاً. ومن بعدها أخذوا المعطف وتصدقوا به.

وسرعان ما بدأت لورا تطرح الأسئلة عن المكان الذي ذهب إليه الرضيع، الرضيع الذي لم يشبه الهريرة بشيء. قد ذهب إلى الجنة ما عاد يرضيها – فما كانت تعنيه بسؤالها هو إلى أين ذهب بعد أن كان في الحوض. ريناي أجابتها أن الطبيب قد أخذه بعيداً. لكن لماذا لم يقيموا جنازةً له؟ لأنه كان بالغ الصغر، أجابتها ريناي. وكيف لشيءٍ بالغ الصغر أن يقتل أمي؟ فأجابتها ريناي، لا تقلقي بشأن ذلك. ستعرفين متى ما كبرت، وما تجهلينه لن يؤذيك. يا له من مثلٍ ملتبس: فأحياناً ما تجهله هو ما سيؤذيك بالغ الأذى.

متى ما حلَّ الليل اعتادت لورا أن تنسل إلى غرفتي وتهزني كي أستيقظ، ثم تصعد إلى السرير معي. كانت عاجزةً عن النوم: بسبب الرب. فحتى يوم الجنازة، لورا والرب كانا على علاقةٍ طيبة. "الرب يحبك"، كذا قالت معلمة مدرسة الأحد في الكنيسة الميثودية، إلى حيث أرسلتنا أمنا، ومن بعدها واصلت ريناي إرسالنا من باب المبدأ، ولورا قد صدقتها. لكنها ما عادت الآن متيقنة.

القلق اعتراها وأخذت تسأل مهتاجةً عن مكان الرب. الخطأ يقع على معلمة مدرسة الأحد: فقد أجابتها الرب في كل مكان، ولورا أرادت أن تعرف: هل الرب في الشمس، هل الرب في القمر، في المطبخ، في الحمام، هل هو تحت السرير؟ ("كم أودّ أن ألويَ عنق تلك المعلمة"، قالت ريناي) فلورا لم ترغب بأن يفاجئها الرب بظهوره على حين غفلة، ولا غرابة في خوفها إذا ما وضعنا في الاعتبار تصرفاته مؤخراً. افتحي فمك وأغلقي عينيك وسأفاجئك. اعتادت ريناي أن تقول لنا مع قطعة من الكوكيز في يدها خلف ظهرها، لكن لورا ما عادت تأخذ بكلامها. أبقت على عينيها مفتوحتين. ليس من باب عدم ثقتها بريناي، هي فقط باتت تخشى المفاجآت.

ربما الرب في خزانة المكانس. بدا المكان الأكثر احتمالاً. ربما كان يتربص هناك في الداخل مثل عمٍّ غريب الأطوار وخطِر، لكنها ما كانت أبداً واثقة من توقيت وجوده هناك إذ لطالما خشيت أن تفتح الباب. "الرب في قلبك"، قالت لنا معلمة مدرسة يوم الأحد، مما زاد الأمر سوءاً. فإن كان قابعاً في خزانة المكانس، فلك أن تفعلي

شيئاً حيال الأمر، أن تقفلي عليه الباب مثلاً.
الربُّ لا ينام، كذا يسبحونه في التراتيم – لا يغفل طرفة عين وجفناه لا ينسدلان. لذا عوضاً عن النوم يجول في أنحاء البيوت ليلاً، يتجسس على الناس – يرى إن كانوا صالحين كفاية، أو إن كانوا يستحقون وباءً يقضي عليهم عن بكرة أبيهم، أو يقضي الليل ينغمس في نزوةٍ من نزواته. إذ محتومٌ عليه، عاجلاً أم آجلاً، أن يبدر منه تصرفٌ بغيض، مثل تصرفاته العديدة المذكورة في الإنجيل. "أسمعتِ؟ هذا هو،" قالت لورا مهتاجةً. الخطوة الخفيفة، الخطوة الثقيلة.
"هذا ليس بالرب. هذا أبانا. هو في الأعلى في البريج"
"وما الذي يفعله هناك؟"
"يدخن". لم أشأ أن أجيبها بشرب. بدا لي خيانةً إن فعلت.

دائماً ما غلبني الحنان على لورا متى ما خلدت للنوم – فمها شبه مفتوح، رموشها لا تزال رطبة – لكن نومها كان قلقاً؛ فهي تئن وترفس، وأحياناً تشخر فتبقيني يقظة. لذا اعتدت النزول عن السرير، أقطع الأرضية مشياً على أطراف أصابعي، ثم أرفد نفسي كي أتأمل من نافذة الغرفة. متى ما كان القمر منيراً، تكتسي حدائق الزهور باللون الرماديّ الفضي، وكأنما أحدهم امتص الألوان منها. كان بوسعي رؤية الحورية الحجرية، ناتئةً في العتمة؛ القمر ينعكس على صفحة بركة الزنابق، وهي تغمس أصابع قدمها في ضيائه البارد. مرتعشةً، كنت أعود بأدراجي إلى سريري، وأستلقي متأملةً أخيلة الستائر المتحركة، مصغيةً إلى صرير وطقطقة البيت بينما يتبدل من حالٍ لحال، متسائلةً ما الخطأ الذي ارتكبته.
الأطفال يؤمنون أنهم السبب وراء وقوع كلّ أمرٍ سيء، ولم أكن استثناءً من تلك القاعدة؛ بيد أنهم يؤمنون أيضاً بالنهايات السعيدة، رغم كل الدلائل المشيرة إلى وقوع النهاية الحزينة، ولم أكن استثناءً من تلك القاعدة أيضاً. لكني تمنيت على النهاية السعيدة أن تعجّل بقدومها – وفي الذات بالليل متى ما خلدت لورا للنوم وما عاد عليّ أن أؤنسها – إذ حينها كنت أستوحش ويغمرني الأسى.

في الصباح كنت أساعد لورا على ارتداء ملابسها – تلك كانت مهمتي حتى على حياة أمي – وأتأكد أنها فرشت أسنانها وغسلت وجهها. ساعة الغداء كانت ريناي تعد لنا أحياناً وجبات نزهة: خبزاً أبيض مدهوناً بالزبدة مع مربى عنب شَفيف كما السوليفان، مع جزرٍ نيء، وقطع تفاح. كذلك كانت تعد لنا لحما مملحاً جاهزاً من علبة الصفيح، شكله كما معابد الأزتيك. ومعها كذلك عدة بيضاتٍ مسلوقة. كنا نجمع تلك الأطعمة في صحون ونذهب لتناولها خارجاً، نتناولها هنا وهناك – عند البركة، في الدفيئة. وإن كانت تمطر، نتناولها داخلاً.

"تذكري أطفال الأرمن الجياع،" كذا اعتادت لورا أن تقول، شابكةً يديها، عيناها مغلقتان، تحني رأسها أمام قشور شطيرة المربى. كنت أعرف أنها تفعل ذلك لأن أمي اعتادت فعله، وكم أردت الصراخ في وجهها، "لا وجود لأطفال أرمنٍ جياع، القصة كلها مختلقة". مرةً فعلتها وأخبرتها، لكنها ما كانت لتتقبل كلامي.

في تلك الفترة كانوا قد تركونا لحال سبيلنا معظم الوقت. استكشفنا آفيليون وقلبناها بطناً لظهر: صدوعها، كهوفها، وأنفاقها. تفحصنا المخبأ السري أسفل السلالم الخلفية، حيث وجدنا خليطاً من الجراميق المرمية وقفازات المتّين فرادى لا أزواج، ومظلّة محطمة الأضلاع. كذلك كنا قد استكشفنا القباء المتفرعة عن القبو الرئيسي: قبو الفحم للفحم؛ قبو الجذور حيث الملفوف والقرع كان موضوعاً على طاولة، وحيث جذور الشمندر والجزر مُسبَّلة في صندوقها الرملي، وحبات البطاطس بمجساتها المهقاء وكأنها سيقان السلطعون؛ القبو البارد لبراميل التفاح، ورفوف المعلبات – جرار المربى والجلي المغبرّة تتلألأ كما الحجارة الكريمة غير المصقولة، صلصة الكتنيّة والمخللات والفراولة والطماطم المقشورة وصلصة التفاح، كلها محفوظة في جرار ميسون. كان هناك قبوٌ للنبيذ، لكنه كان مقفلاً على الدوام، وحده أبي من يحمل المفتاح.

عثرنا على الغار الرطب المكسو بالتراب أسفل الشرفة الخارجية، وصلنا إليه زحفاً بين نباتات الخطمى الوردي، حيث لا نباتات تنمو سوى الهندباء العنكبوتية

تحاول يائسةً الطلوع، ومعها خنّاق الذباب، رائحته مزيجٌ من مسحوق النعنع وبول القطط مرّة، ومرةً أخرى له الرائحة اللاذعة النتنة لغرطرٍ مذعور. عثرنا على العلية، حيث وجدنا صناديق من الكتب القديمة والألحفة المحفوظة وثلاثة صناديق ثياب فارغة، وقدَميَّةً مكسورة، وتمثال عرض ملابس جدتي، بليديّ، مقطوع الرأس وبالي الجذع.

كنا نشق طريقنا خلسةً في متاهات الظل، حابستيْن أنفاسنا. وجدنا سلواناً في هذا - في السرية، في معرفتنا بالطرق الخفية، في إيماننا بأنَّ لا أحد يرانا.

اسمعي دقة الساعة، قلت لها. كانت ساعة بندول - عتيقة، بيضاء وذهبية من الخزف الصينيّ؛ كانت تعود إلى جدي؛ موضوعةً على رف المستوقد في المكتبة. خُيّل إلى لورا أني قلت لعقة الساعة. صحيح، فرقاص الساعة النحاسي في أرجحته يمنةً ويسرة قد بدا فعلاً كما اللسان، يلعق شفتيْ فمٍ خفيّ. يلتهمُ الوقت.

حلّ الخريف. لورا وأنا قطفنا قرون نبات الصّقلاب وفتحناها، كي نتلمّس بأناملنا بذورها الحرشفيّة المتداخلة بعضها في بعض كما حراشف التنين. كنا ننزع البذور عنها وننثرها فتهبط بمظلاتها الزغبية كما الباراشوت، ونحتفظ بألسنة القرون الجلدية الصفراء البنية، جوفها ناعمٌ مثل غضروف المرفق. ثم نذهب إلى جسر جُبيلي ونرمي بالقرون في النهر كي نرى إلى أي مدى ستظل تطفو على السطح، قبل أن تنقلب أو يجرفها التيار. هل تخيلناها قوارب تحمل أناساً على متنها، أم تخيلناها أناساً؟ لست متأكدة. بيد أن إحساساً من الرضا كان يراودنا في مراقبتها تغرق.

حلّ الشتاء. السماء كانت رماديةً شاحبة، والشّمس منخفضة في الأفق، لونها زهريٌّ كامد، مثل دم السمك. الدلاة الجليدية، كانت ثقيلة وكَمِدة وسميكة كما الرسغ، تقطُر متدليةً من السقف وعتبات النوافذ وكأنها معلّقة في فعل السقوط. كنا نكسرها ونمص أطرافها. ريناي أخبرتنا إن فعلنا ذلك فألسنتنا ستغدو سوداء وتقع، لكني عرفت ألّا صحة في وعيدها، فقد كنت فعلتها من قبل.

آنذاك، كان لدينا بيت القارب في آفيليون، وبيت الثلج، كلاهما على الرصيف

الشاطئي. في بيت القارب احتفظوا بقارب جدي الشراعي القديم، الذي غدا لأبي – حورية الماء، وقد سحبوها من النهر لليابسة كي تخلد للنوم في الشتاء. وفي بيت الثلج احتفظوا بالثلج يقطعونه من نهر جوغز ويحملونه قوالب على عربةٍ تجرها الأحصنة، وتخزن في بيت الثلج بعد أن يكسوها بالنشارة، في انتظار حلول الصيف يوم تضحو بضاعةً نادرة.

لورا وأنا سرنا على الرصيف الشاطئي الزلق، والذي كان ممنوعاً علينا. حذرتنا ريناي إن وقعنا عن الرصيف الشاطئي وارتطمنا بصفحة النهر الجليدي فلن ندوم لحظة، لأن المياه باردةٌ كما الموت. جزمتانا ستشبعان بالماء، وسنغرق كما الحجارة في قعر النهر. رمينا بحجارةٍ حقيقية اتجاه النهر كي نرى بأنفسنا ما الذي سيحصل لها؛ بيد أنها انزلقت برشاقة على صفحة الجليد واستقرت مكانها، على مدى بصرنا. أنفاسنا تجلت دخاناً أبيض، ننفثها في الهواء كما ينفث القطار دخانه. تهادينا في خطانا من قدمٍ باردةٍ لأخرى. الثلج من أسفل جزمتينا كان يصرّ. كلٌّ أمسكت بيد الأخرى وقفازاتنا المتّينة تجمّدت والتصقت بعضها ببعض، لذا ما إن خلعناهما بديا يديْن صوفيتيْن متشبثتين ببعض، خاويتين وزرقاوين. أسفل منحدر نهر لوفتو، قطع جليدٍ مثلّمة كانت قد تراكمت الواحدة مقابل الأخرى. الجليد كان أبيض في الظهيرة، أخضر فاتحاً في الشفق؛ القطع الأصغر كانت ترنّ كما الأجراس. وسط النّهر، المياه تتدفق مفتوحةً وسوداء. الأطفال نادوا علينا من التل في الجانب الآخر، مختبئين خلف الأشجار، أصواتهم عالية وواهنة وسعيدة في الأجواء الباردة. كانوا يلهون بالمزالق، التي لم يكن مسموحاً لنا باللهو بها. فكرت بقطع المسافة سيراً على الشاطئ الجليدي المثلّم، فقط كي أرى بنفسي إلى أي حدٍّ هو صلب.

حلَّ الربيع. أغصان الصفصاف غدت صفراء، القرانيا المدماة غدت حمراء. نهر لوفتو يفيض؛ فيقتلع الشجيرات والأشجار من جذورها ويجرفها بدوامته ثمّ تستقر في القاع. امرأةٌ قفزت عن جسر جبيلي فوق المنحدرات ولم يعثروا على جثتها إلا بعد يومين. نتروها من التيار المنجرف أسفل النهر، ولم يكن بالمنظر الجميل على الإطلاق، فالقفز من فوق المنحدر يماثل القفز في مفرمة. ليست بالوسيلة الفضلى

لمغادرة الدنيا، قالت ريناي - ليس إن كنت مهتمةً بمنظرك، بيد أنّه على الأرجح لن تهتمي به وقتذاك. السيدة هيلكوت عرفت نصف درزن من تلك القافزات، عرفتهن على مرّ الأعوام. كنت ستقرئين عنهن في الصحف. إحداهن شابة اعتادت الذهاب معها إلى المدرسة في الصِّغَر، كانت متزوجة من عامل قطار غائب معظم الوقت، فما الذي يُتَوقّع منها؟ "شرّعت ميزابها لغيره،" كذا قالت السيدة هيلكوت، "ولا مبرّر".
فأومأت ريناي وكأن ما قالته السيدة هيلكوت قد فسر كلَّ شيء.
"مهما كان الرجل غبياً، فمعظم الرجال يعدّون،" أردفت السيدة هيلكوت، "أقلها على أصابع يديهم. أتوقعه رسم خرائط على وجهها ببراجمه، لكن ما الفائدة من إغلاق باب الحظيرة بعد أن فرّ الحصان".
"أيُّ حصان؟" سألتها لورا.
"لا بد أنها عانت من مشاكل أخرى،" تابعت السيدة هيلكوت،" فإن كنت واقعاً في مصيبة، ففي الغالب قد وقعت في سلسلة مصائب، فهي لا تأتي فرادى".
"وما الميزاب؟" همست لورا في أذني، "ما الميزاب؟" لكني ما كنت لأعرف الجواب.
عدا القفز، قالت ريناي، فالنساء من تلك النوعية يفضلن السير في النهر ضد التيار كي يبتلعهن النهر في ثانية متى ما تشبعت ملابسها بالماء، يفعلن ذلك حتى يستحيل عليهن السباحة للضفة حتى في حال قررن العودة عن قرارهن. الرجل أكثر تروياً في تلك الأمور. فالرجل يشنق نفسه عن العارضة المتصالبة في سقف حظيرته، أو يفجر رأسه ببندقيته؛ أما إن كان ينوي الغرق، فسيربط على جسده الحجارة أو أي أغراض ثقيلة أخرى - رأس فأس، أكياس مسامير. ما كان ليترك مجالاً للصدف في أمرٍ جدّي كهذا. لكنها المرأة من تسير هكذا في عرض النهر وتسلم نفسها له، تترك له العنان كي يبتلعها. كان من الصعب أن أتبين من نبرة ريناي إن كانت تستحسن هذا الفرق بين الرجل والمرأة أم لا.

بلغت العاشرة من عمري في شهر يونيو. ريناي أعدت كعكةً، وإن قالت أنّه لربما من الأجدر ألا نحظى بواحدة، فلم يمض وقتٌ طويل بعد على وفاة أمي، لكن على

كل حال، فالحياة لا بد وأن تمضي، لذا ربما الكعكة لن تجرح أحداً. "تجرح من؟" سألت لورا. "مشاعر أمي،" أجبتها. "إذن أمي تراقبنا من الجنة؟" حينها كنت قد غدوت عنيدةً ومغرورة، وما كنت لأجيبها. لورا رفضت تناول أي قطعةٍ من الكعكة، ليس بعد أن سمعت بمشاعر أمي، لذا أكلتُ حصتي وحصتها.

كان يجهدني كثيراً آنذاك استدعاء تفاصيل حزني – الصورة الدقيقة التي تجلى عليها – مع أني كنت أستطيع بإرادتي استدعاء صدىً له، مثل عواء كلبٍ صغيرٍ أقفلوا عليه باب القبو. ما الذي كنت أفعله يوم وفاة أمي؟ بالكاد كنت أذكر، أو كيف بدت، كيف كانت ملامحها الحقيقية: غدت تبدو لي فقط كما تبدو في صورها. بيد أني تذكّرت إحساسي بوقوع خطأٍ ما أصاب السرير ساعة ما عادت أمي فجأةً مستلقية فيه: كم بدا خاوياً. كيف مالت شمس ما بعد الظهيرة عبر النافذة وانسكبت في صمتٍ على الأرضية الخشبية، هباء الغبار الطافي في ضيائها بدا سديماً، تذكّرت رائحة شمع العسل لصاقول الأثاث، ممزوجاً بذبول أزهار الأقحوان، والشذى العالق للنونية والمطهّر. كان بيدي تذكر غيابها آنذاك، أوضح بكثير من تذكر حضورها.

قالت ريناي للسيدة هيلكوت إنّه، رغم استحالة أن تحل إحداهنّ محل السيدة تشايس، فالمرأة كانت قديسة في حياتها إن كان هناك من وجودٍ للقديسات، فهي نفسها قد بذلت أقصى جهدها كي تعوض غيابها، وما فتأت ترتدي قناع البهجة لأجلنا، فكلما قلّ الحديث في الموضوع، كلما التأمت الجراح أسرع، ولحسن الحظ بدونا وكأننا نتجاوز الأمر، بيد أنّ المياه الراكدة تفور في الأعماق وقد بدوت هادئةً أكثر من اللزوم. كنتُ من النوع الكئيب المستنكف، كذا وصفتني ريناي؛ ولا بد سيأتي يومٌ أفجّر فيه كل ما أكبته. أما لورا، فمن يدري، فلطالما كانت طفلةً غريبة الأطوار.

ريناي انتقدت كثرة ملازمتنا لبعضنا. فقد قالت إنّ لورا أخذت تلتقط عاداتٍ أكبر من سنّها، أما أنا فكانت لورا تعوقني عن النضوج. يجدر بكل واحدةٍ منا أن تلازم أطفالاً من عمرها، لكن الثلة القليلة من الأطفال ممن يليق بنا مصاحبتهم قد أرسلهم أهلوهم إلى مدارس خاصة، ذات المدارس التي كان يجدر إرسالنا إليها حالاً،

لكن لم يولِ الرقيب تشايس ما يكفي من الاهتمام لتدبير الأمر، وعلى أي حال ربما من المبكر ذهابنا والتعرض لتغييرٍ آخر في حياتنا بهذه السرعة، ومع أني أبدو هادئة الأعصاب وقد أتمكن من التكيف مع الوضع الجديد، فلورا كانت لا تزال طفلة، بل طفولية جداً حتى بالنسبة للأطفال في عمرها. كما أنَّ لورا عصبية جداً. كانت من النوع الذي يذعر ويهتاج على أقل سبب، لكانت غرقت في شبر ماء فقط لأنها ما كانت لترفع رأسها.

لورا وأنا اعتدنا الجلوس على السلم الخلفي خلف الباب الموارب، أيدينا على أفواهنا كي نكبت ضحكاتنا. كم استمتعنا بالتجسس على ريناي والسيدة هيلكوت. لكن لم ينفعنا الاستماع إلى أوصاف كتلك تُقال عنّا غِيبة.

الجنديّ المرهق

اليوم سرت اتجاه البنك – مبكرةً كي أتحاشى لهيب الحر، وكذلك كي أكون هناك لحظة فتح الباب. فهكذا سيتسنى لي مؤكداً لفت انتباه أحدهم، وهو ما أحتاجه بما أنهم قد ارتكبوا خطأً آخر في بياناتي المالية. ما أفتأ أقول لهم أني ما أزال أجمع وأطرح، على عكس مكائنكم هذه، فيبتسمون لي كما النادل، ذاك النادل الذي سيبصق في حسائك في المطبخ. دائماً ما أطلب رؤية المدير، لكن المدير دائماً "في اجتماع"، فيرمون بي على صبيٍّ خبيث التو خرج من الحضانة ويتفلسف عليّ بابتسامته المتكلفة ظانًّا نفسه بلوتوقراطياً مستقبليّ.

أشعر بازدرائهم لي هناك، كوني لا أملك سوى القليل من المال، وكذلك لأني يوماً ملكت الكثير منه. بيد أني في الواقع لم أملكه أبداً. أبي ملك المال، ثم ريتشارد. لكن وصمة المال التصقت بي كما تلتصق وصمة الجريمة بمن لا ذنب لهم سوى تواجدهم لدى ارتكابها.

أعمدة البنك رومانية، تذكيرٌ لنا أن ندع ما لقيصر لقيصر، مثل رسوم الخدمة السخيفة تلك التي يتقاضونها. مقابل سِنْتين سأحتفظ بمالي في جورب وأخبئه تحت مرتبتي فقط نكايةً بهم. لكن ستسري الأقاويل عني، سريعاً على ما أفترض، أقاويل عن تحولي إلى عجوزٍ مخبولة غريبة الأطوار من النوع الذي يعثر عليهن ميتات في أكواخهن المكتظة بالمئات من علب طعام القطط الفارغة وبضعة ملايين من فئة الخمسة دولارات محشورة بين صفحات الجرائد المصفرة. لا رغبة لي أن أضحو محط اهتمام مدمني البلدة ولصوص المنازل، أصحاب الأعين المحتقنة

بالدم والأصابع النزقة.

في طريق عودتي من البنك تجولت حول دار البلدية، برج الناقوس فيها من الطراز المعماري الإيطالي أما المبنى فمشيد من الآجر ثنائي اللون على الطراز الفلورنسيّ، سارية العلم تحتاج إلى طلاء، مدفع الميدان فوهته موجهة نحو "السوم". هناك أيضاً التمثالان البرونزيان، كلاهما نصبا بتكليفٍ من عائلة تشايس وعلى نفقتها. التمثال على اليمين، والذي جاء بتكليف من جدتي آديليا، هو للكولونيل باركمان، محاربٌ قديم خاض المعركة الأخيرة الحاسمة في الثورة الأمريكية، تلك التي وقعت في فورت تيكونديروغا، الكائنة اليوم في ولاية نيويورك. بين وقتٍ وآخر تأتينا جموعٌ من السياح المرتبكين، ألماناً، انجليز وحتى أمريكيين، يجولون في البلدة بحثاً عن موقع معركة فورت تيكونديروغا. أخطأتم البلدة، يجيبهم الناس. **لم تخطئوا البلدة وحسب، بل أخطأتم البلد. ما تبحثون عنه يقع على الجهة الأخرى من الحدود.**

كان الكولونيل باركمان من حمل متاعه على ظهره، قطع الحدود، وأطلق الاسم على بلدتنا، مخلداً بخياره المنحرف المعركة التي خسرها. وربما ليس من المستغرب جداً اختياره للاسم: فكثيرٌ من الناس يتعاملون مع ندوبهم وكأنها أثرٌ تاريخي يجب أن يحفظ. يظهر منفرج الساقين على صهوة فرسه، يلوح بسيفه وعلى وشك أن يعدو بها باتجاه مسكبة زهور البطونية: رجلٌ بوجهٍ مخدّد وعينين واثقتين ولحيةٍ مستدقة، رؤيا كل نحاتٍ عن قائد سلاح الفرسان. لا أحد يعرف السيماء الحقيقية للكولونيل باركمان، فهو لم يترك خلفه أثراً تصويرياً لنفسه والتمثال لم ينصب إلا عام 1885، لكن تلك هي صورته التي خلد عليها للأبد. كذا استبداد الفن.

على الجهة اليسرى من المرجة، مع مسكبةٍ أخرى لزهور البطونية، شخصيةٌ أسطوريةٌ أخرى: الجندي المرهق، الأزرار العلوية الثلاثة لقميصه مفكوكة، عنقه منحنية كأنما ينحني لفأس الجلاد، زيه العسكري متجعد، خوذته مائلة، يتكئ على بندقية روسٍ مُعطّلة. شابٌ للأبد، مرهقٌ للأبد، يعلو النصب التذكاري، جلده أخضرٌ متوهج تحت الشمس، روث الحمام يسيل على خديه كما الدمع.

أبي من وقف وراء مشروع الجندي المرهق. النحاتة كانت كاليستا فيتزسيمونز، والتي جاءت بتوصية عالية من فرانسيس لورنج، مؤسس لجنة النصب التذكاري في مجتمع أونتاريو للفنانين. قوبل اختيار الآنسة فيتزسيمونز باعتراض بعض أهل البلدة – إذ رأوا في اختيار امرأةٍ لتولي المشروع أمراً غير لائق – لكن أبي كان قد اكتسح اجتماع الرعاة المحتملين بكل قوته قائلاً: أليست السيدة لورنج امرأة هي الأخرى؟ وما إن قال ذلك حتى بدأت التعليقات الوقحة تنهال، أنظفها. وكيف لك أن تعرف أنها امرأة. لكن لدى اختلائه بهم، أخبرهم أن من يدفع للزمّار يختار اللحن، وبما أنهم ثلة مقتّرين بخلاء فعليهم إما أن يدسوا أيديهم عميقاً في جيوبهم أو يذعنوا لرغباته.

الآنسة كاليستا فيتزسيمونز لم تكن مجرد امرأة وحسب، بل كانت في الثامنة والعشرين من عمرها وصهباء. تكررت زياراتها الدورية إلى آفيليون كي تتشاور مع أبي حول التصميم المقترح. تلك الجلسات كانت تعقد في المكتبة، في البدء كان الباب يترك مفتوحاً، ثم لا. خصصت لها إحدى غرف الضيوف، ثاني أفضل غرفة، ثم ارتقت إلى الفضلى. وسرعان ما أصبح وجودها ثابتاً نهاية كل أسبوع، وغرفة الضيوف باتت تشار إليها "بغرفتها".

بدا أبي أكثر سعادة؛ وبالتأكيد قلَّ احتساؤه الشّراب. أمر بترتيب البيت والحدائق، على الأقل بما يكفي كي تكون مقبولة. أمر بتحصيب المدخل؛ بكشط حورية الماء وإعادة طلائها وتجديدها. استضاف عدة مرات حفلات غير رسمية في البيت في نهايات الأسبوع، الضيوف فنانون من تورنتو، أصدقاء ومعارف كاليستا. هؤلاء الفنانون، مَن أسماؤهم ليست معروفة اليوم، لم يرتدوا بدلًا رسميّة، بل كنزات مثلثة الياقة؛ كانوا يتوجهون للمرج وهناك يعدون وجبات طعامهم على هواهم ويتناولونها بينما يتحادثون حول أدق تفاصيل الفنون، يدخنون ويشربون ويتناقشون. أما الفنانات فقد استهلكن الكثير من المناشف لدى ذهابهن الحمام، لا غرابة فلم يسبق لهن رؤية حمام نظيف بحوض استحمام معتبر، تلك كانت نظرية ريناي. أظافرهن كذلك قذرة، وكانوا يقرضونها.

وإن لم يكن من حفلةٍ في البيت، يصطحب أبي كاليستا في نزهة، في إحدى سياراته – الطّروقة[52] لا السيدان مع سلةٍ أعدتها ريناي مغصوبةً. أو كان يصطحبها للإبحار على قاربه الشراعي، كاليستا ترتدي بنطلونها الفضفاض ويداها في جيبيها مثل كوكو شانيل، أما أبي فيرتدي أحد قمصانه الصوفية القديمة دائرية الياقة.

وأحياناً كانا يقطعان مسافةً طويلة بالسيارة نحو ويندسور، يتوقفان عند الملاهي الليلية على الطريق حيث الكوكتيل ومقطوعات البيانو الوحشية والرقص الخليع – ملاهٍ اعتاد رجال العصابات المتورّطين في تهريب الرّم قضاء وقتهم فيها، يأتون من شيكاغو وديترويت كي يعقدوا صفقاتهم مع مقطري الشراب من المواطنين الملتزمين بالقانون على الجانب الكندي من الحدود. (تلك الفترة شهدَت تطبيق قانون تحريم المسكرات في الولايات المتحدة؛ وبذا أخذ الشراب يتدفق عبر الحدود كأنه ماءٌ ثمين؛ الجثث الميتة مبتورة الأصابع وخاوية الجيوب كانت تطرح في نهر ديترويت فينتهي بها المآل على شطآن بحيرة إيري، مما أشعل جدلاً حول أي طرفٍ من طرفي الحدود عليه أن يتحمل تكلفة دفنهم). في تلك الرحلات اعتاد أبي وكاليستا قضاء ليلتهما بالكامل خارجاً، وأحياناً على مر ليالٍ عدة. مرةً توجها إلى شلالات نياجرا، ما أثار غيظ ريناي، ومرةً إلى بافالو؛ لكنهما توجها إلى بافالو في القطار.

تلك التفاصيل عرفناها كلها من كاليستا نفسها، فهي لم تبخل علينا أبداً بأي تفصيل. أخبرتنا أن أبي بحاجة إلى من "ينخسه"، من يبث فيه الحيوية والنشاط، لمصلحته. أخبرتنا أن عليه أن ينفض عن نفسه الغبار وينخرط أكثر في الحياة. أخبرتنا أنها وأبي "صديقان صدوقان". اعتادت على مناداتنا "الصغيرتان" واعتدنا على مناداتها "كالي".

(لورا أرادت أن تعرف إن كان أبي يرقص أيضاً، في تلك الملاهي: كان من الصعب علينا تخيله يرقص، بسبب ساقه المحطمة. كاليستا أجابت كلا، مع ذلك كان يستمتع بالمشاهدة. لكني غدوت أشك في صحة ما قالت. ليس من الممتع على الإطلاق مشاهدة أناسٍ آخرين يرقصون بينما أنت عاجزٌ عن ذلك).

---

(52) الطروقة: سيارة مكشوفة ذات مقعد واحد لشخصين أو أكثر.

كنت أشعر بالرهبة في حضرة كاليستا، ليس لأنها فنّانة وحسب، بل لأنها امرأة يستشيرونها كما يستشيرون الرجل، تمشي فاشخةً خطاها وتصافح كما الرجل، وتدخن سجائرها في حامل أسود قصير، وتعرف كل شيء عن كوكو شانيل. أذناها كانتا مثقوبتين، وشعرها الأحمر (أدرك الآن أنها كانت تصبغه بالحنة) اعتادت رفعه ولفه بالأوشحة. ترتدي أرديةً منسدلة موشاة بنقوش لولبية صارخة: فوشيا، أرجواني، زعفراني: تلك كانت أسماء ألوانِ أرديتها. أخبرتني أن التصاميم من باريس، مستوحاة من موجة الهجرة البيضاء[53]. فسرت لي ماهية تلك الهجرة. جعبتها ملأى بالتفسيرات.

"إحدى مومساته،" قالت ريناي للسيدة هيلكوت. "حبةٌ في سلسلة، والرب شاهد أن السلسلة هي بطول ذراعك، لكن تتوقعين منه أن يحافظ على الأصول، ألّا يجلبها هنا تحت السقف نفسه، مع دمها الذي لم يبرد بعد، بتصرفه هذا وكأنما يحفر قبره بنفسه".

"وما المومس؟"

سألتها لورا.

"اهتمي بشؤونك،" نهرتها ريناي. مواصلتها الحديث هكذا رغم وجودي ولورا في المطبخ كان دليلاً على مدى غضبها. لاحقاً أخبرتُ لورا عن معنى المومس: هي الفتاة التي تمضغ العلكة. بيد أن كالي فيتزسيمونز لا تمضغ العلكة.

"الأباريق الصغيرة آذانها كبيرة،" قالت السيدة هيلكوت محاولةً تهدئة ريناي، لكن ريناي ظلت تواصل.

"وما بال تلك الأردية الغريبة التي ترتديها، لن يكون غريبًا عليها إن حضرت القداس في الكنيسة شبه عارية. الضوء يفضح شمسها وقمرها ونجومها وكل ما يحوم في فلكها. ليس أن لديها الكثير لتستعرضه، فهي إحدى أولئك النساء، صَفُقة،

(53) White émigré: موجة المهاجرين الروس الذين فروا من روسيا غداة ثورة عام 1917 وتوزعت في أوروبا قبل أن تتمركز في مدينة باريس. وقد كان لتلك الموجة من المهاجرين تأثيرها على الحراك الثقافي والأدبي والفني في باريس كون معظم المهاجرين فيها كانوا ينتمون إلى الطبقة النبيلة وكبار ضباط الجيش.

ومسطحة مثل صبي".

"ما كنت لأجرؤ،" عقبت عليها السيدة هيلكوت.

"إياك ووصفها بالجريئة،" ردت عليها ريناي. " بل وقحة ولا اعتبار عنده لأحد". متى ما أخذ الحماس ريناي كانت تزلُّ في قواعد الصرف. "إن سألتني فهناك شيءٌ ما تخطط له؛ هي لم تظهر بعد كل ما في جعبتها. ذاك النهار لمحتها تغطس عاريةً في بركة الزنابق، مع الضفادع والأسماك الذهبية – التقيت بها في المرجة على طريق عودتها، لا شيء عليها سوى منشفة وما أنعم به الرب على حواء. هكذا، بكل بساطة، أومأت لي وابتسمت، لم يطرُف لها جفن".

"سمعت بذلك". قالت السيدة هيلكوت. " ظننتها مجرد أقاويل. إذ بدا مستحيلاً تخيله".

"هي صائدة ثروات،" أخبرتها ريناي. "كل ما تسعى إليه هو أن تنشب مخالبها فيه، ثم تفرغ جيوبه".

"وما صائدة الثروات؟ وما المخالب؟" سألتها لورا.

لدى سماعي وصف ريناي لكالي بالصَّفُقة تخيلت الثياب الرطبة المهلهلة على حبل الغسيل، تصطفق في الريح. ولا صفة من تلك الصفات انطبقت على كاليستا فيتزسيمونز.

نزاعٌ حاد وقع حول النصب التذكاري، وليس فقط بسبب الإشاعات التي راجت حول أبي وكاليستا فيتزسيمونز. فهناك أناسٌ في البلدة رأوا أن تمثال الجندي المرهق بدا موهن العزم إلى حدٍّ بعيد وكذلك قذراً رث الثياب: اعترضوا على قميصه ذي الأزرار المفكوكة. أرادوا شيئاً يوحي بالنصر المؤزر، مثل تمثال إلهة الانتصار الذي نصبوه في البلدة المجاورة، بأجنحتها الملائكية وأرديتها المتطايرة في الريح، ترفع في يدها أداةً مستدقة الطرف ثلاثية الشعب وكأنها تمسك بشوكة تحميص. كذلك أرادوا نقش الاستشهاد، "لهؤلاء الذين افتدونا بتضحيتهم العظمى عن طيب خاطر،" على الوجه الأمامي للنصب.

أبي رفض تماماً الإذعان لهم، قائلاً أنْ يشكروا الرب أن الجندي المرهق لا يزال يملك ذراعين وساقين، ورأساً من الأساس، وأنهم إن لم يكفّوا عن إزعاجه فسيرنو نحو الواقعية العارية وسينحت التمثال على هيئة البقايا العفنة لجثة الجندي، والتي داس على كثيرٍ منها أيام الحرب. أما بالنسبة للنقش، فلا أحد قدم تضحيته العظمى عن طيب خاطر، ولا أحد منهم كان ينوي أن تصعد روحه أشلاءً إلى مملكة الرب. إن عاد الأمر إليه، فيفضل نقش "كي لا ننسى،" والتي تضع عبء الذكرى على من يستحق اللوم: علينا نحن من نسينا. اللعنة عليكم، اللعنة عليكم وعلى سرعة نسيانكم. من النادر ما لعن أبي على الملأ، مما ترك أثراً عميقاً في مستمعيه. وطالما هو من كان يدفع، فقد نحت التمثال على هواه.

تحمّلت غرفة التجارة كارهةً مصاريف اللوحات التذكارية البرونزية الأربعة، نُقشَت عليها قوائم شرف أسماء الجنود والمعارك التي سقطوا فيها. في المقابل أرادوا أن يُنقَش اسمهم أسفل اللوحة التذكارية، لكن أبي عيّرهم لمجرّد اقتراحهم هذا، قائلاً لهم إنّ النصب التذكاري هو للأموات وليس لمن بقوا أحياء، وبالتأكيد ليس لمن حصد الثمار. نوعية كلامه هذه هي ما أثارت امتعاض البعض منه.

الستار أُسدِل عن النصب في شهر نوفمبر من عام 1928، في يوم الذكرى. الحشد كان كبيراً رغم الرذاذ البارد. الجندي المرهق نصبوه فوق هرمٍ رباعيّ الأوجه مشيد من حصى النهر المخلوط بالإسمنت، مثل حجارة آفيليون، أما اللوحات التذكارية البرونزية فكانت مؤطرة بزهور الليلك والخشخاش ومجدولة بأوراق القيقب. ثار جدلٌ حول تلك الزهور أيضاً. فكالي فيتزسيمونز قالت إن التصميم عتيق الطراز ومبتذل، مع كل تلك الزهور المتدلية، فيكتوريّ، كانت أسوأ صفة يمكن لأي فنانٍ أن يطلقها تلك الأيام. أرادت تصميماً صارخاً، أكثر حداثة. بيد أنّ التصميم راق أهلَ البلدة، وأبي أخبرها بأن أحياناً عليك أن تساوم.

استهل الاحتفال بالعزف على مزامير القربة. "خارجاً ولا في الداخل،" قالت ريناي. تلتها الخطبة الرئيسية التي ألقاها قس الكنيسة المشيخية، الذي أشار في خطبته إلى "أولئك الذين افتدونا بتضحيتهم العظمى عن طيب خاطر" – رد البلدة الراسخ

على أبي، طريقتهم كي يرى أنَّ ليس من حقه احتكار كل مراسيم الاحتفال لنفسه والمال لا يشتري كل شيء، ورغماً عن أنفه فقد تضمن الحفل الاستشهاد. تلتها خطبٌ أخرى، ورفعت الصلوات – خطبٌ عديدة وصلواتٌ كثيرة، إذ شاركت كل كنيسة في البلدة بقسٍّ يمثل رعيته. ورغم أن لجنة النصب التذكاري لم تتضمن تمثيلاً كاثوليكياً، فحتى القس الكاثوليكي منحوه الوقت ليلقي خطبته. أبي من أصر على ذلك، على أرضية أن الجندي الكاثوليكي الميت لا يفرق عن الجندي البروتيستانتي الميت في شيء.

ريناي علقت قائلةً إنَّ مقصده قد يُفسَّر من زاويةٍ أخرى.

"وما الزاوية الأخرى؟" سألتها لورا.

أبي من سجى الإكليل الأول. لورا وأنا وقفنا نشاهده، يدي في يدها؛ ريناي شرعت في البكاء. الكتيبة الملكية الكندية كانت قد أرسلت وفداً مفوضاً يمثلها في الاحتفال، قطع كل المسافة من قاعدة وولزلي باراكس العسكرية في لندن، ممثلاً بالرائد إم. كي. غرين والذي تلا أبي في الدور وسجى إكليلاً آخر. إكليلًا بعد إكليل، يسجيها كل من يخطر على بالك – الفيلق، تبعه نادي ليونز، وكينزمين، وروتاري، ورابطة الأخوة، والأخوية البرتقالية، وفرسان كولومبوس، وغرفة التجارة، والجمعية النسائية الخيرية في تورنتو، وغيرها – ختاماً بالسيدة ويلمر سوليفان ممثلةً "أم الشهداء" كونها فقدت ثلاثة من أبنائها في الحرب. الجميع شدوا ترنيمة "ابق معي"[54]، تلتها "المهمة الأخيرة"[55]، نافخ البَوْجل من فرقة الكشافة عزفها مرتجفاً بعض الشيء، تلتها دقيقتا صمت ثم رفعت الميليشيا بنادقها ورشقت الرصاص في الهواء. بعدها نفخوا في المزامير "نداء الاستيقاظ"[56].

أبي وقف منحني الرأس، بيد أنَّ الرجفة قد بدت عليه، حزناً أو غضباً ما كنت

(54) Abide with me: ترنيمة كريسماس اسكتلندية وتعزف غالباً في الجنائز المسيحية.

(55) Last Post: نداءٌ عسكري يعزف بالنفخ في البوجل – bugle ، ويعزف في الجنائز العسكرية في دول الكومنوولث على أرواح الجنود القتلى في الحرب.

(56) Reveille: يقصد به نداء الاستيقاظ الذي ينفخ في البوق لإيقاظ الجنود في المعسكرات.

لأعرف. ارتدى زيه العسكري أسفل معطفٍ ثقيل، واتكأ على عصاه بيديه المحجوبتين في قفازيه.

كالي فيتزسيمونز كانت هناك، لكنها التزمت الوقوف في الصفوف الخلفية. فقد أخبرتنا أنها لم تكن في إحدى تلك المناسبات التي ينادون فيها على الفنان كي يقف أمام الجماهير المصفّقة وينحني احتراماً لها. ارتدت يومها معطفاً محتشماً أسود وتنورةً عادية بدل الرداء، وقبعةً وارت معظم وجهها، ومع ذلك لم تنج من ألسنة الناس.

لاحقاً أعدّت لنا ريناي شراب الكاكاو، لي ولورا، في المطبخ، كي نتدفأ بعد أن تجمدنا في البرد. وعرضت كوباً آخر على السيدة هيلكوت، الذي تناولته منها قائلةً إنها ما كانت لترد عرضها.

"لماذا أطلقوا عليه التذكاري"؟ سألتها لورا.

" كي نتذكر الأموات،" أجابتها ريناي.

"ولماذا؟" سألتها لورا، " لأجل ماذا؟ هل يريدون منا تذكرهم؟"

"الأمر لا يتعلق بهم، بل يتعلق بنا نحن،" أجابتها ريناي. "ستفهمين ذلك متى ما كبرت". لطالما قيل هذا للورا، ولم تأخذ لورا به. هي أرادت أن تفهم الآن. قلبت كوب الكاكاو.

"هل لك أن تصبي لي كوباً آخر؟ وما هي التضحية العظمى؟"

"الجنود وهبوا حياتهم فداءً لنا. أتمنى فعلاً ألا تكون عيناك أكبر من معدتك، فإن صبيت لك كوباً آخر أتوقعك أن تشربيه كاملاً".

"ولماذا وهبوا حياتهم؟ هل أرادوا ذلك؟"

"لا، لكنهم وهبوها على أي حال. لذلك هي تضحية،" أجابتها ريناي. "والآن كفى حديثاً في الموضوع، هاك شراب الكاكاو".

"لقد وهبوا حياتهم للرب، لأن هذا ما أراده الرب منهم. مثل المسيح، من مات فداءً لنا جميعاً، تكفيراً عن خطايانا،" قالت السيدة هيلكوت، والتي كانت معمدانية،

وبذا اعتبرت نفسها السلطة المطلقة في الإفتاء في هذه المواضيع.

في الأسبوع اللاحق، سرنا أنا ولورا على المجاز المحاذي لنهر لوفتو، أسفل الأخدود. يومها كان الطقس ضبابياً، السديم ينبعث من النهر، يلتف دوامةً في الهواء كما الحليب المقشود، يتساقط قطراتٍ عن غصينات الشجيرات العارية. الصخور على المجاز كانت زلقة.

وإذ فجأةً لورا في مياه النهر. لحسن الحظ لم نكن قريبتين من التيار المتدفق، لذا لم يجرفها النهر بعيداً. صرخت وجريت باتجاه مجرى النهر وأمسكت بها من معطفها؛ ملابسها لم تكن قد تشبعت بالماء بعد، بيد أنها ظلت ثقيلةً جداً، وكدت أسقط معها. تمكنت من جرها إلى سلسلة صخور مستوية على الضفة، ومن هناك سحبتها خارج النهر. كانت مشبعة بالماء مثل حملٍ مبلل، وكنت متبللةً جداً أنا الأخرى. ثم هززتها. كانت ترتعش وتبكي.

"قد فعلتها عن عمد!" صحت في وجهها. "لقد رأيتك! كنت على وشك الغرق!" لورا كانت تنشج وتغص بدموعها. حضنتها. "لم فعلت ذلك؟"

فأجابتني منتحبةً، "كي يعيد الرب لنا أمي حيةً مرةً أخرى".

"لكن الرب لا يريدك ميتة،" أخذت أقول لها. "كنت ستثيرين غضبه الشديد عليك لو أنك مت! لو أراد أن يعيد أمي للحياة لفعلها على أي حال، لن ينتظر رؤيتك ترمين نفسك في النهر". تلك كانت الطريقة الوحيدة للتفاهم مع لورا متى ما دخلت في نوباتها المزاجية: عليك ادّعاء معرفة أمرٍ ما عن الرب لا تعرفه هي.

مسحت أنفها بظاهر يدها. "وكيف لك أن تعرفي؟"

"انظري! ألم يدعني أنقذك؟ لو أرادك ميتة لكنتُ وقعت معك. لمتنا معاً! تعالي الآن، عليّ أن أجففك. لن أخبر ريناي. سأقول لها أنك زلقت، مجرد حادث. لكن لا تكرري فعلتك هذه مرةً أخرى، فهمت؟"

لورا لم تنطق بكلمة، لكنها سمحت لي أن أقودها للبيت. ردة الفعل تدرجت من مراعاةٍ مذعورة لخاطرنا، إلى الاهتياج العصبي، ثم التوبيخ العنيف، بعدها تناولنا

كوباً من حساء مرق اللحم وأخذنا حماماً دافئاً وأعدوا زجاجة ماءٍ حار لأجل لورا، بعد أن عزوا السبب في وقوع الحادث المؤسف إلى كونها فتاةً خرقاء؛ ثم نبّهوا عليها أن تنتبه إلى خطاها. أبي قال لي "أحسنت صنعاً"؛ تساءلت عما كان سيقوله لي لو أني فقدتها. ريناي قالت إنّه لمن حسن الحظ أن إحدانا على الأقل تحمل عقلاً راجحًا، لكن ما الذي كنا نفعله أساساً هناك؟ وفي هذا الطقس الضبابي. نهرتني قائلةً إنها لم تتوقع هكذا تصرف مني.

تلك الليلة استلقيت مستيقظةً لساعات، أدثر جسدي بذراعيّ، أحضن نفسي بإحكام. قدماي كانتا متجمدتين كالصخر، أسناني تصطك. لم أكن قادرة على طرد صورة لورا من مخيلتي، مغمورةً في تلك المياه السوداء الجليدية لنهر لوفتو – كيف انحل شعرها وتطاير كما الدخان في دوامة الريح، كيف علا وجهها الرطب وميضٌ فضيّ، كيف رمقتني بتلك النظرة الحانقة لحظة إمساكي بمعطفها. كم كان صعباً عليّ التشبث بها، إلى أي حدٍّ أوشكت على التخلي عنها.

الآنسة فيولينس

عوضاً عن إرسالنا إلى المدرسة، أمنوا لي ولورا سلسلةً متعاقبة من المعلمين الخصوصيين، رجالاً ونساءً على حدٍّ سواء. لم نر أي ضرورة في وجودهم، وفعلنا كل ما بوسعنا كي نثبط عزيمتهم. فكنا إما نقضي الوقت نحدق فيهم بنظراتنا الزرقاء الفاتحة، أو ندّعي الغباء أو الصمم؛ ما كنا أبداً لننظر مباشرةً في أعينهم، نظراتنا نسددها إلى جباههم وحسب. وما كان سهلاً علينا التخلص منهم بالسرعة التي تتوقعينها: فالقاعدة التي جرت عليها الأمور أنهم تحملوا الكثير منا لأن الحياة أرهبتهم بما فيه الكفاية وهم في حاجة للراتب. لم نحمل أي ضغينةٍ شخصية اتجاه أي منهم؛ بكل بساطة لم نشأ أن نحمّل أنفسنا عبء التعامل معهم.

كان من المفترض بنا، متى ما انتهت حصصنا مع المعلمين الخصوصيين، أن نبقى في آفيليون، إما داخل البيت أو الحديقة. لكن من كان هناك ليراقبنا؟ فقد كان سهلاً علينا التملص من المعلمين، كونهم يجهلون الممرات الخفية التي نعرفها، وليس بوسع ريناي ملاحقتنا في كل ثانية، كما أشارت هي بنفسها. فمتى ما سنحت لنا الفرصة، كنا نتسلل خلسةً من آفيليون ونتجول في البلدة، رغم اعتقاد ريناي أن العالم كان مليئاً بالمجرمين ومثيري الفوضى والمشارقة الفاسدين من متعاطي الأفيون، أصحاب الشوارب الهزيلة الملتفة كما الحبل والأظافر الطويلة المستدقة، ومدمني المخدرات وتجار الرقيق الأبيض، يترقبون جميعاً الفرصة كي يختطفونا في سعيهم الحصول على فديةٍ مجزية من مال أبي.

أحد أخوة ريناي الكثر كان يتاجر في المجلات الرخيصة، المخشّنة[57]، من النوع التافه الذي كان لك أن تشتريها من الصيدليات، أما النوع الأسوأ فما كنت لتحصلي عليه إلا من تحت الطاولة. ما كان عمله؟ "التوزيع"، كذا وصفته ريناي. أما الآن فأعرف أنه كان يهربها. على أي حال، اعتاد ذاك الأخ إعطاء ريناي المتبقي الكاسد من بضاعته، ورغم جهودها في إخفاء تلك المجلات عنا فعاجلاً أم آجلاً كنا سنعثر عليها. بعضها كانت رومانسية، ومع أنّ ريناي انكبت على قراءة تلك المجلات بنهم فلم نكترث لقراءتها. فقد فضّلنا، أو بالأحرى أنا من فضّل ولورا تبعت خطاي – تلك القصص التي تقع في عوالم أخرى أو حتى في كواكب أخرى. سفنٌ فضائية من المستقبل، حيث ترتدي النساء تنانير قصيرة جداً منسوجة من قماشٍ لامعٍ برّاق؛ كويكباتٌ حيث النباتات ناطقة، يطوف فيها وحوشٌ بأعين وأنياب ضخمة؛ حضاراتٌ بائدة استوطنتها فتياتٌ لدنّات أعينهن بلون الياقوت الأصفر وبشرتهن متلألئة، ترتدين بناطيل من القماش الجبنيّ[58] وصديريّات معدنية صغيرة، الصديرية وكأنها قمعان متصلان بسلسلة. الأبطال فيها يرتدون أزياء خشنة، خوذهم المجنحة مدججة بالرزّات.

سخيفة، كذا وصفتها ريناي. لا تشبه شيئاً من حياتنا على الأرض. وهذا تماماً ما أعجبني فيها.

المجرمون وتجار الرقيق الأبيض كانوا في مجلات قصص الجرائم، بأغلفتها الدموية المرشوشة بالألوان. في تلك المجلات، وريثة الثروة الضخمة ذات العينين الواسعتين دائماً ما أفقدوها وعيها بالإيثر وأحكموا القيد عليها بأربطة قماشية – أكثر بكثير مما يتطلبه الأمر – وحبسوها في مقصورة يخت أو في ديماس كنيسة أو في قبوٍ رطبٍ عفن في قلعةٍ ما. لورا وأنا آمنّا بوجود رجالٍ من أمثال هؤلاء، لكن لم نخشاهم، إذ غدونا نعرف تماماً ما نتوقعه منهم. فهم يملكون سيارات سوداء ضخمة، يرتدون معاطف طويلة وقفازات غليظة وقبعات فيدورا سوداء، وكنا سنميزهم في لحظة

(57) المخشنة – pulp: مجلات تطبع على ورق خشن ومواضيعها مثيرة.

(58) القماش الجُبنيّ – cheesecloth: قماش قطني رقيق يستعمل في لف الجبن.

ونفر بجلدنا في الحال.
بيد أننا لم نصادف يوماً أياً منهم. العصبة العدائية الوحيدة التي كنا نصادفها هم أبناء عمال المصانع، الصغار منهم، من لم يدركوا بعد حصانتنا. اعتادوا اللحاق بنا في زُمَر من اثنين أو ثلاثة، إما يعتريهم الصمت والفضول أو يلقون علينا السباب؛ بين حينٍ وآخر كانوا يرمون بالحصى اتجاهنا، لكن ولا مرةً تعرضوا لنا بالضرب. كنا أكثر عرضةً لأذاهم متى ما ذهبنا نتسكع في المجاز الضيق جانب ضفة لوفتو حيث يعلونا المنحدر – ومن هناك قد تتساقط الأشياء على رؤوسنا – أو في الأزقة الخلفية، والتي تعلمنا تفاديها تماماً.
اعتدنا التسكع في شارع آيري نتفحّص واجهات المحال: متاجر الخمسة والعشرة سنتات كانت المفضلة لدينا. أو كنا نقف عند المدرسة الابتدائية نختلس النظر عبر سياجها المسلسل على الأطفال – كانت مدرسةً للأطفال العوام – أبناء العمال – ساحتها مكسوة بالرماد وبوابتها المقوسة العالية منقوشٌ عليها "للأولاد والبنات". في وقت الفُسحة يعلو الصراخ، الأطفال فيها كانوا قذري الهيئة، خصوصاً بعد خروجهم من عراك أو بعد طرحهم أرضاً على الساحة المكسوة بالرماد. كنا ممتنتيْن لعدم اضطرارنا الحضور إلى مدرسةٍ كهذه. (هل كان الامتنان حقاً ما شعرنا به؟ أو بالأحرى شعرنا بأننا مستبعدتان؟ على الأرجح كِلا الإحساسين).
كنا نرتدي قبعاتنا في تلك النزه الاستكشافية. تراءى لنا أنها مصدر حمايةٍ لنا، كما لو أن القبعات، بطريقةٍ ما، صيّرتنا خفيَّتيْن. السيدة لا تغادر منزلها أبداً دون قبعتها، قالت لنا ريناي. كذلك هي قالت وبلا قفازيها، لكننا ما كنا لنعبأ بالقفازات.
ما أذكره هي قبعات القش، على طراز تلك الأيام: لم تكن من القش الشاحب، بل القش المسفوع. أذكر رطوبةَ الأيام الحارة في شهر يونيو، النسائمُ نعِسة في سديمٍ من غبار الطلع. وهج السماء الأزرق. التراخي، التسكع.
كم أتمنى استعادة تلك الأيام، تلك الساعات العبثية من بعد الظهيرة – الملل، التيه، والاحتمالات المفتوحة على المدى. وقد استعدتها، بطريقةٍ ما؛ عدا أني اليوم لا أرى أمامي من مدىً لأي احتمالات.

المعلمة الخصوصية التي حظينا بها تلك الأيام، كانت قد فاقت سابقيها في الوقت الذي قضته معنا. كانت امرأةً في الأربعين من العمر، ترتدي السترات الكارديغانية الباهتة والتي دلت على حياةٍ مترفة سابقة، شعرها مشدودٌ للوراء في تلفيفةٍ فأرية مثبتة على مؤخر رأسها. كانت تدعى الآنسة غورهام – الآنسة فيوليت غورهام. من خلف ظهرها أطلقت عليها لقب "الآنسة فيولينس"، لأني وجدت الجمع بينهما أمراً جد مستبعد[59]، ومن يومها ما كنت أراها إلا وأقهقه. بيد أن اللقب التصق بها؛ فقد شاركته لورا، ثمّ بالطبع عرفت به ريناي. زجرتنا قائلةً أنَّ استهزاءنا من الآنسة غورهام بتلك الطريقة هو تصرفٌ لئيم؛ فالحياة قد انقلبت على تلك المسكينة لذا فهي تستحق شفقتنا، فهي عانسٌ عجوز. وما العانس؟ امرأةٌ دون زوج. الآنسة غورهام محتومٌ عليها الحياة في نعيم الوحدة، قالت ريناي بنبرةٍ شابها الازدراء.

"لكن حالك من حالها، فأنت أيضاً لا زوج لك" قالت لها لورا.

"شتان ما بيني وبينها،" أجابت ريناي، "فأنا لم ألتق بعد بالرجل الذي يستحق مني أن أتنازل وأمخط في وجهه، وقد رفضت نصيبي من الخطاب، نلت نصيبي من عروض الزواج".

"وربما هذا هو حال الآنسة فيولينس". أجبتها من باب الاعتراض وحسب، كنت قد اقتربت من تلك السن.

"لا،" أجابتني ريناي. "لم تنل عرضاً واحداً".

"وكيف لك أن تعرفي؟" سألتها لورا.

"من ملامحها". أجابت ريناي. "على أي حال، لو أن رجلاً واحداً عرض عليها الزواج، حتى ولو كان رجلاً بذيل وثلاثة رؤوس، لانقضت عليه وتشبثت به كما الأفعى".

أنا ولورا انسجمنا مع الآنسة "فيولينس" لأنها تركتنا لحال سبيلنا، نفعل ما نريد.

---

(59) التلاعب اللفظي يكمن في أن فيوليت – Violet تعني زهرة البنفسج، بينما فيولينس – Violence تعني العنف. وزهرة البنفسج لا يمكن لها أن تكون عنيفة.

فهي قد أدركت مبكراً أنها تفتقد القوة المطلوبة للسيطرة علينا، ولذا قررت بحكمة ألا تحمل نفسها فوق وسعها حتى من باب المحاولة. اعتدنا تلقي الدروس في المكتبة، التي كانت تعود إلى جدي بنجامين والآن باتت تعود إلى أبي، وهناك كانت الآنسة فيولينس تطلق لنا العنان. الأرفف كانت تنوء بثقل الكتب المجلدة ذات العناوين المطبوعة بالذهبي الكامد، وأشك أن جدي قرأ أياً منها في حياته: فتلك الكتب ما كانت إلا تصوُّر جدتي آدليا لما كان يجدر بجدي قراءته.

كنت ألتقط منها ما يثير اهتمامي: "قصة مدينتين" لتشارلز ديكنز، تاريخ لورد ماكولي؛ "غزو المكسيك" و"غزو البيرو"، موضَّحيْن بالصور. كما أني قرأت الشعر، وبين الفينة والفينة، تأخذ الآنسة فيولينس على عاتقها، وإن بحماسٍ فاتر، تولّي مهمة التعليم بتدريبي على فن الإلقاء الشعريّ. في زانادو أقام كوبلا خان قبة بهجة جليلة[60]. في حقول الفلاندرز زهور الخشخاش تتطاير مع الريح. صفاً صفاً بين شواهد الصليب.[61]

"لا تتعجلي الإلقاء،" كذا كانت توجهني الآنسة فيولينس". دعِ الأبيات تتدفق منك، عزيزتي. تصوري نفسك ينبوعاً". رغم كونها نفسها خرقاء وتفتقد للأناقة إلا أنها وضعت لنا معايير عالية من الرهافة وقائمةً طويلة من الأشياء التي كان علينا أن ندّعيها: كوني شجرةً مزهرة، فراشة، نسيماً عليلاً. أي شيء عدا فتاةً صغيرة بركبتين قذرتين تقحم إصبعها في أنفها: كانت جداً موسوسة فيما يتعلق بالنظافة الشخصية.

"كُفّي عن مضغ أقلام الألوان، عزيزتي". قالت الآنسة فيولينس للورا. "فأنت لست بحيوانٍ قارض. انظري، فمك كله قد تلطخ باللون الأخضر. سيخضر بأسنانك".

قرأت قصيدة "إفانجلاين" لهينري وادزورث لونغفيلو؛ قرأت "سونيتات من البرتغال" لإليزابيث باريت براونينغ. وتَسَلْني كيف أهواك؟ دعني أحصي لك السبل. "جميل" عقبت الآنسة فيولينس في تنهيدة. كانت جياشةً في إظهار عواطفها، أو

---

(60) المذهب الأول من قصيدة "Kubla Khan" للشاعر الإنجليزي ساموبل تايلور كولريدج – Coleridge، 1797.

(61) المذهب الأول من قصيدة "In Flanders Fields" للشاعر الكندي جون ماكريه – John McCrae، 1915.

بالأحرى جياشة بقدر ما تسمح لها شخصيتها الكئيبة، لدى استماعها إلى قصائد إليزابيث باريت براونينغ؛ والأمر سيان مع بولين جونسون، الأميرة الموهوكيّة.[62]

أوه، وها هو النهر يتدفق أسرعَ الآن
الدوامات تحلّق حول مجدافي.
دوري، دوري!
كيف لكِ أيتها المويجات الصغيرة أن نلتقي هكذا،
فتغدينَ خطرةً في حوض النهر الصافي.

"مثير، عزيزتي". عقبت الآنسة فيولينس.
أو أقرأ آلفريد، لورد تينيسون[63]، رجلٌ يلي الرب إجلالًا في عينَي الآنسة فيولينس:

الطحالب السوداء غطت أصائص الزهور
كلٌّ واحدةٍ منها دون أي استثناء.
المسامير الصدئة وقعت عن العُجَر
الرافعة سوق الإجاص على جدار الجملون.
كل ما قالته وحسب "حياتي موحشة، موحشة،
إليَّ أبداً لن يعود".
وأخذت تردد قائلةً "الحزن هدّني، هدّني،
يا ليتني كنت ميّتة".

(62) مذهب من قصيدة "The Song My Paddle Sings" للشاعرة بولين جونسون – E. Pauline Johnson وهي شاعرة كندية تعود أصولها المختلطة من جهة أبيها لقبيلة الموهوك إحدى قبائل السكان الأصليين في كندا، وللمستوطنين الانجليز من جهة والدتها، ولذا تحمل لقب الأميرة الموهوكية.

(63) المذهب الأول من قصيدة "Mariana" للشاعر الإنجليزي آلفريد لورد تينيسون Alfred, Lord Tennyson والتي استلهمها من شخصية ماريانا في مسرحية شكسبير الصاع بالصاع.

"ولماذا تمنّت الموت؟" سألتها لورا، والتي لم تعر في العادة أي اهتمام لإلقائي الشعري.

"هو العشق عزيزتي،" أجابتها الآنسة فيولينس. "عشقٌ أبدي. لكن من طرفٍ واحد".

"لماذا؟"

تنهدت الآنسة فيولينس وقالت، "هي قصيدة عزيزتي، نظمها لورد تينيسون وأظنه خير من يعرف الإجابة على سؤالك. فالقصيدة لا تكترث لسرد الأسباب. 'الجمال هو الحقيقة، والحقيقة هي الجمال – هذا كل ما تعرفه على الأرض، وكل ما تحتاج إلى معرفته في الحياة[64]'".

رمقتها لورا بنظرة ازدراء، وعادت إلى تلوينها. كنت قد قلبت الصفحة: إذ تصفحت سريعاً القصيدة بأكملها ولم أجد أي حدثٍ آخر يذكر.

يا أمواج البحر!
تكسّري، تكسّري، تكسري
على صخرك الرمادي القاسي.
فعلّني أطلق على وقعكِ لساني،
فأنطق بما يعتري وجداني.[65]

"رائع، عزيزتي،" عقبت الآنسة فيولينس. كم كانت مولعة بالعشق الأبدي، وكم كانت مولعة كذلك بالحزن السوداوي.

كان هناك كتابٌ مجلد رفيع تجليده بلون السعوط، وكان يعود إلى جدتي آديليا: "رباعيات عمر الخيام" بقلم إدوارد فيتزجيرالد. (إدوارد فيتزجيرالد لم ينظم تلك الرباعيات، ومع ذلك أشاروا إليه بصاحب القلم. كيف لي أن أفسر إشارتهم تلك؟ لم أكلف نفسي حتى عبء المحاولة) اعتادت الآنسة فيولينس القراءة أحياناً من

(64) الاقتباس يعود إلى البيت الأخير من قصيدة "Ode on a Grecian Urn" للشاعر الإنجليزي جون كيتز – John Keats.

(65) المذهب الأول من قصيدة "Break, Break, Break" للشاعر آلفريد لورد تينيسون.

كتاب الرباعيات، كي تريني كيف يكون الإلقاء الصحيح للقصيد:

هنالك.. في ظل غصنٍ مديد   بقرص رغيفٍ.. وكأسٍ.. وعود
وصوتك حلواً على عزفه   آهٍ.. نعيش كلانا حياة الخلود[66]

أطلقت "الآه" من قلبها وكأن أحدهم رفسها التو في صدرها: والشيء ذاته فعلته مع "وصوتك". لم أر شيئاً ذا معنى في الرباعية سوى جلبةٍ مبالغٍ فيها حول نزهة بسيطة، التساؤل الوحيد الذي راودني هو عمّا دهنوه على قرص الرغيف. "بالتأكيد لم يقصد النبيذ بمعناه الحقيقي،" فسرت لي الآنسة فيولينس،" بل يعني القربان المقدس".

طوَت يدُ الأقدار سفرَ الشّباب   وصوّحت تلكَ الغُصونَ الرِّطابْ
وقد شدا طيرُ الصّبا واختفى   متى أتى، يا لهفاً، أين غابْ[67]

لو كان لي كاللّهِ في فلكٍ يدٌ   لم أبقِ للأفلاكِ من آثارِ
وخلقتُ أفلاكاً تدور مكانها   وتسيرُ حسب مشيئةِ الأحرارِ[68]

"معه حق.. معه حق" ردَّدت الآنسة فيولينس في تنهيدة. كان ديدن الآنسة فيولينس التنهد على كل شيء. كم تلاءمت مع أجواء آفيليون – مع أبهته الفيكتورية العتيقة، مع نفح الحس الفني الذاوي، هجران حظوة الماضي، وذكرى الحسرة الكامدة. تصرفاتها، وكذلك سترها الكشميرية الباهتة، توافقت تماماً مع ورق الجدران.

(66) الترجمة العربية للرباعية الأولى مقتبسة عن كتاب "رباعيات الحكيم عمر الخيام" الصادر عن دار النشر Yassavoli. وفقاً للمذكور في الكتاب فالترجمة العربية تنسب للمترجمين أحمد رامي، أحمد الصافي النجفي، إبراهيم عريض، وديع البستاني، محمد السباعي ولم يتبين لنا من منهم ترجم هذه الرباعية بالذات.

(67) ترجمة الشاعر أحمد رامي.

(68) ترجمة الشاعر أحمد الصافي النجفي.

لم تكن لورا مهتمة بالقراءة. اهتمامها الوحيد في الكتاب انصب على نسخ الصور عنه، أو تلوين الصور بأقلامها الخشبية في الكتاب نفسه إن كانت باللونين الأبيض والأسود كتلك الموجودة في مجلدات التاريخ والرحلات الموسوعية. (الآنسة فيولينس تركتها تفعل ما تشاء على افتراض أن أحداً لن يفتح لاحقاً أياً من تلك الكتب). اختيار لورا للألوان كان غريباً بيد أنه كان دقيقاً ومحدداً: الأشجار إما زرقاء أو حمراء، والسماء إما زهريةً أو خضراء. وإن كان هناك من صورةٍ لشخصٍ لم ينل رضاها تكسو وجهه بالأرجواني أو الرمادي الغامق كي تطمس ملامحه.

أحبت رسم الأهرامات، نقلاً عن كتابٍ عن الحضارة المصرية؛ أحبت تلوين آلهة مصر. وكذلك أحبت تلوين التماثيل الآشورية، الأسود المجنحة برأس رجلٍ أو نسر. ذاك الكتاب كان من إعداد السير هنري لايارد، مكتشف التماثيل في آثار نينوى ومن تولى شحنها إلى انجلترا؛ قيل إن التماثيل هي تصويرٌ للملائكة المذكورة في سفر حزقيال. لم تستسغ الآنسة فيولينس تلك الصور – فالتماثيل بدت وثنية، وكذلك متعطشة للدماء – لكن رأيها ما كان ليثني لورا قيد أنملة عن متابعة تلوينها. بل كانت تربض أكثر وأكثر فوق صفحتها كلما انتقدتها الآنسة فيولينس وتسترسل في التلوين كأنها مسألة حياةٍ أو موت.

"ارفعي ظهرك عزيزتي،" ما انفكّت توجهها الآنسة فيولينس. "تصوّري جذعك شجرةً، تنمو مستقيمةً للأعلى نحو الشمس". لكن لورا لم تكترث لذاك النوع من التصوّر.

"لا أريد أن أكون شجرة". اعتادت أن تجيبها لورا.

فتجيبها الآنسة فيولينس متنهدةً، " شجرة خيرٌ من حدباء، عزيزتي، فهذا ما ستتحولين إليه إن لم تنتبهي لوضعية جلوسك".

قضت الآنسة فيولينس جلَّ وقتها جالسةً لدى النافذة تقرأ الروايات الرومانسية المستعارة من المكتبة العامة. كذلك استمتعت بتصفح سجل القصاصات المغلَّف بالجلد الموشى بالزخارف الذي يعود إلى جدتي آديليا، على صفحاته ملصقة بالغراء

الدعوات الأنيقة المزخرفة لحفلاتها، قوائم الطعام مطبوعةً لدى مكتب الصحيفة، تليها قصاصات الصحيفة التي غطت حفلها – حفلات الشاي الخيرية، محاضرات تقويم الذات مرفقة بشرائح العرض الضوئية، الرحالة الشجعان الودودون وأسفارهم إلى باريس واليونان وحتى الهند، منهم أتباع الكنيسة السفيدنبورية[69]، أتباع الفابيّة[70]، والنباتيون، وكل عن شاكلتهم من مروجي تطوير الذات. مع ظهورٍ بين الفينة والأخرى لما هو حقاً خارج المألوف – استقبال إرساليةٍ إلى أفريقيا أو الصحاري أو غينيا الجديدة، تصف ممارسات سكانها الأصليين للسحر والشعوذة، تعمدهم إخفاء وجوه نسائهم في أقنعةٍ خشبيةٍ محكمة، وزخرفتهم جماجم أسلافهم بالطلاء الأحمر وأصداف الكوريّ[71]. كل تلك القصاصات الصفراء الباهتة كانت دليلاً على حياةٍ سابقة من الرفاهية، من الطموحات العالية، من المثابرة التي لا تعرف الكلل ولا الملل، حياةٍ ماضية تلاشت واختفت، والتي انكبت الآنسة فيولينس على قراءتها، تفصيلاً، وكأنها تستذكرها، على محياها ترتسم ابتسامة رضا نيابةً عن المرأة التي عاشتها.

اعتادت إحضار رزمةٍ من الخيوط الورقية اللماعة، ذهبية وفضية، والتي كانت تلصقها على أي شيءٍ ننجزه. وأحياناً كانت تصطحبنا للخارج كي نقطف الزهور البرية، نودعها بين صفحتين من ورق النشاف، ثم نكبسها بوضع كتابٍ ثقيل فوقها. مع مضي الوقت تعلقنا بها، بيد أننا لم نبكِ يوم غادرتنا. هي بكت، أجهشت في بكاءٍ مبتذل، كما كانت عادتها في كل تصرفاتها.

بلغت الثالثة عشرة من عمري. كنت أكبر، بصورةٍ لا ذنب لي فيها، مع أنها بدت مزعجةً لوالدي وكأن نضوجي ذنبٌ أنا اقترفته. فقد أخذ يتمحص وضعيات جلوسي ووقوفي، أسلوب حديثي، ينتقد كل أنماط سلوكي. كان يجب على ملابسي أن تكون

---

(69) الكنيسة السفيدينبورية – Swedenborgian: أتباع كنيسة مسيحية تعتمد تفسير الفيلسوف السويدي المتصوف إيمانول سفيدنبوري للإنجيل.

(70) الجمعية الفابيّة: جمعية إنكليزية أنشئت عام 1884 وسعى أعضاؤها إلى نشر الاشتراكية سلمياً.

(71) صدفة الكوريّ: ودعةٌ صفراء تزين بها الدواب وكذلك تتخذ عملةً في بعض بلدان إفريقيا وآسيا.

بسيطةً وعادية، قمصان بيضاء وتنانير سوداء ذات طيات، وفساتين مخملية لدى ذهابنا إلى الكنيسة. نوع الملابس التي تبدو وكأنها أزياء رسمية – مثل بذل البحارة – وإن لم تكن حقاً كذلك. لا ترهل بعد اليوم، مستقيمتان على الدوام. ما عاد مسموحاً لي أن أنبطح، أمضغ العلكة، أتململ، ولا أن أهذر. القيم التي فرضها عليّ كانت القيم المفروضة في الجيش: الترتيب، الطاعة، الصمت، وحجب أي أمارةٍ على شهوةٍ جنسية. الشهوة الجنسية، رغم أن لا حديث دار يوماً حولها، فقد كان ولا بد من وأدها في مهدها. فقد تركني أعدو سائبةً حيث أشاء لفترةٍ طويلة. وها قد حان الوقت ليشكمني.

لورا ذاقت شيئاً من إرهاب أبي وتسلطه، وإن لم تكن قد بلغت بعد السن المطلوب. (وما السنّ المطلوب لذلك يا ترى؟ سن البلوغ، الآن أرى ذلك. لكن كنت قد احترت في أمري آنذاك. فما الجريمة التي ارتكبتها في حقه؟ لماذا أخذ يعاملني وكأني نزيلة في إصلاحيةٍ غريبةٍ ما؟)

" ألا ترى أنك تبالغ في قسوتك على الصغيرتين، " قالت له كاليستا. " فهما ليسا بصبيّين".

"للأسف،" أجابها أبي.

كانت كاليستا من لجأت إليها يوم اكتشفت إصابتي بمرضٍ رهيب، إذ أخذ الدم ينزّ من بين ساقيّ: كنت على وشك الموت! كاليستا ضحكت. ثم فسرت لي. "ما هو إلا عارضٌ بغيضٌ لا أكثر". ثم أخبرتني أنه يجدر بي أن أشير إليه بلقب: "صديقتي" أو "ضيفتي". أما ريناي فأعطتني وجهة نظرها المشيخية. "هي اللعنة،" كذا قالت لي. مسكت نفسها قبل أن تسترسل في الشرح كيف أن هذه اللعنة ما هي إلا تدبيرٌ إلهي نزويٌّ آخر، دبره الرب كي يجعل حياتنا كريهة. لكن كل ما قالته هو: "هذه طبيعة الحياة ولا يد لنا فيها". أما بالنسبة للدم، فوجهتني لاستخدام الخرق الممزقة. (لم تلفظ كلمة "دم" بل "فوضى"). أعدت لي كوباً من شاي البابونج، والذي بدا مذاقه أقرب إلى رائحة الخس الفاسد، وكذلك مطّارة ماءٍ حار للمغص. لكن لا شيء منهما نفع.

لورا وجدت لطخة دمٍ على ملاءة سريري وبدأت تنتحب. فقد استنتجت أني أموت. سأموت كما ماتت أمي، أخذت تقول باكيةً، من دون أن أعلمها حتى باحتمال موتي. كنت سألد جنيناً رمادياً مثل الهريرة ثمّ سألقى حتفي.

أخبرتها أن تكف عن التفكير بتلك الطريقة الغبية. فهذا الدم لا علاقة له بالأطفال. (كاليستا لم تكن قد أعلمتني بتلك الجزئية، فلا بد وأنها قررت أن الاستفاضة في حديثٍ كهذا كان سيؤثر سلباً على حالتي النفسية.)

" ما حدث لي سيحدث لك يوماً ما،" أخبرت لورا، "متى ما بلغتِ سني. فهذا ما يحدث للفتيات".

لكن لورا كانت ساخطة. رفضت تصديق أن أمراً كهذا قد يحدث لها. وكما هو حالها مع كل شيءٍ آخر، فقد كانت مقتنعة أن الرب سيمنحها استثناءً من القاعدة.

هناك صورة استديو شخصيّة التُقِطَت لي ولورا، في تلك الأيام. أرتدي فيها الفستان المخملي النظامي القاتم، طرازٌ يفوق عمري بأعوام: ويبدو واضحاً امتلاكي لما كانوا يطلقون عليه آنذاك الصدر. لورا تجلس إلى جانبي، في فستانٍ مماثل لفستاني. كلتانا ترتدي جوارب بيضاء حتى الركب، حذاء ماري-جاين الجلدي الأسود اللامع؛ كلتانا ساقاها متشابكتان باحتشام عند الكاحلين، اليمنى تعلو اليسرى، وفق التعليمات. أطوق لورا بذراعي، لكن بتردد، وكأني تلقيت أمراً بذلك. أما لورا فيداها متشابكتان على حجرها. كل واحدةٍ منا شعرها الفاتح مفروقٌ من المنتصف ومشدودٌ بقوة للخلف بعيداً عن وجهها. كلتانا مبتسمتان، تلك الابتسامة القلقة التي ترتسم على محيا الأطفال متى ما طلب منهم الكبار أن يحسنوا التصرف ويبتسموا، وكأنهما سيّان: هي ابتسامة الرهبة أمام التهديد بالرفض. التهديد والرفض مصدرهما أبي. كم خشينا على نفسينا منهما، بيد أننا لم نعرف كيف نتجنبهما.

تحوّلات أوفيد

أبي كان قد قرر قراراً لا يجانبه الصواب، أنَّ تعليمنا قد أُهْمل. أرادنا أن نتعلم الفرنسية، وكذلك الرياضيات واللاتينية - تمارين عقلية تنشط أذهاننا الخاملة وتصحح مسار استغراقنا في عالم الأحلام. الجغرافيا كان من شأنها أيضاً دعم مستوانا المعرفي. ورغم أنه نادراً ما لاحظ وجودها أثناء توليها منصب تعليمنا، فقد حكم على الآنسة فيولينس وأساليبها الرخوة العتيقة الرومانسية بالنفي للأبد خارج آفيليون. ما أراده هو تشذيب الهدب المخرمة والمكشكشة والقذرة نوعاً ما عنّا وكأننا خس، فلا يتبقى منا بعد قلع أوراقنا سوى القلب الصُّلْب. لم يفهم لم كنا نحب ما نحب. أراد أن يخلق منا صورةً عن الصبيان، وكان سيحقق إرادته بطريقةٍ أو بأخرى. على أي حال، ما الذي تتوقعينه منه؟ فهو لم يحظ أبداً بشقيقات.

وبدلاً عن الآنسة فيولينس، عيّن معلماً يدعى السيد إرسكن، والذي تولى فيما مضى مهمة التعليم في مدرسةٍ للصبيان في إنجلترا قبل أن يشحنوه ويرسلوه لنا في كندا، هكذا فجأةً، بداعي اعتلال صحته. لم يبد لنا أنه يعاني من أيِّ علّةٍ في صحته على الإطلاق: فلم يسعل يوماً، على سبيل المثال. كان رجلاً مجحدراً، مغطى من رأسه إلى أخمص قدميه بقماش التويد، في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره، ذا شعرٍ ضاربٍ للحمرة وشفتين مكتنزتين رطبتين وحمراوين، وذا عنثونية[72] صغيرة وسخريةٍ جارحة ومزاجٍ انفعاليّ، وذا رائحة أشبه ما تكون برائحة قاع سلة السَّبَت الرطبة.

---

٧٢ العنثونية: لحية صغيرة مشذبة.

وسرعان ما تبين لنا أنّ أسلوب ادعاء الغفلة والتحديق في جبهة السيد إرسكن ما كان ليؤتي أكله. فأول ما فعل لدى توليه المهمة هو إخضاعنا لامتحانات كي يحدد مستوانا المعرفي. ليس بالكثير كما تبين له، جهلنا انفضح له بطريقةٍ لم نتمناها. توجه بعدها إلى أبي وأخبره أن عقلينا عقل حشرةٍ أو مرموط. كنا حالتين ميئوستين، وأنها لأعجوبة أننا لم نتحول إلى قمئتين[73]. كلتانا اكتسبت عادات عقلية خاملة – سُمِح لنا أن نكتسبها، أردف لأبي مستنكراً. لكن لحسن الحظ، فلم يفت الوقت بعد. في هذه الحال، أجابه أبي، فعلى السيد إرسكن أن يتولى مهمة تصويب مسارنا.

أما لنا، فقد قال السيد إرسكن أنَّ كسلنا وغطرستنا، ميولنا نحو التسكع وأحلام اليقظة، عاطفتنا الصبيانية المفرطة، قد دمرت فينا القدرة على تحمل طبيعة الحياة الجدية. لا أحد يتوقع منا أن نكون عبقريتين، وليس من صالح أحدٍ أصلاً أن نكون عبقريتين، لكن يبقى هناك حدٌّ أدنى من التعليم لا بد وحتى للفتيات من تحصيله: وإلا فلن نكون سوى عالتين على أي رجلٍ أحمق يقرر الارتباط بنا، وهو مصيرٌ لنا أن نتفاداه إن بذلنا الساعة أقصى جهدنا.

كان قد أمر بإحضار كومةٍ كبيرة من دفاتر التمارين المدرسية، النوع الرخيص المسطَّر بغلافه الكرتوني الرديء. كذلك أمر بإحضار مخزونٍ من أقلام الرصاص العادية، تلك مع الممحاة. فالقلم الرصاص هو العصا السحرية التي سيتسنى لنا معها تحويل أنفسنا، بمساعدته طبعاً.

قال بمساعدته مبتسماً ابتسامته المتكلفة.

كان قد رمى بخيوط الآنسة فيولينس اللماعة.

قال إن المكتبة لم تكن بالمكان الأمثل، فهي تشتت الانتباه. لذا طلب واستلم دُرجَيْ مدرسة وتولى وضعهما في غرفةٍ من الغرف الإضافية في البيت؛ كان قد أمر بإخلاء الغرفة من السرير وكل ما عداه من أثاث، فما تبقى لنا سوى الغرفة جوفاء خاوية إلا من الدرجيْن. الباب كان يغلق علينا بالمفتاح، والمفتاح في يده. والآن سيتسنّى لنا

(73) القمئ: المصاب بالقماءة وهي حالة مرضية خلقية تتسم بالتشوه الجسدي وقصر القامة والبلاهة.

أن نشمر عن أكمامنا وننكب على العمل.

أساليب السيد إرسكن كانت مباشرة. كان يعتمد شدَّ الشعر وليّ الأذن. اعتاد ضرب حاشية الدرج جانب أصابعنا بمسطرته، وأحياناً يسدد الضربة مباشرةً على أصابعنا، كان يصفع رؤوسنا من الخلف متى ما انتابه الغضب، أو يلجأ إلى الحل الأخير، رشقنا بالكتب أو ضربنا من الخلف على قصبة سيقاننا. تهكمه كان مدمرًا، على الأقل بالنسبة لي: لورا دائماً ما أخذت تهكمه على محمل الجد وكأنما كان يعني حرفياً ما يقول، مما زاد من حنقه. لم يكن ليتأثر بالدموع؛ في الواقع أظنه استمتع بها.

لم يكن الحال على هذا المنوال كل يوم. فأحياناً كانت تسير الأمور بسلاسة واتزان على مدار الأسبوع بأكمله. قد يظهر لنا صبره، وحتى بادرة طيبةٍ خرقاء. لكن فجأةً ينفجر في وجهينا ويدخل في ثورةٍ من الهيجان. أسوأ أنواع العذاب الذي ألحقه بنا هو عدم معرفتنا لما قد يفعل بنا ومتى.

لم يكن بيدنا التوجه بالشكوى إلى أبي، أفليس السيد إرسكن يفعل ما يفعل بتوجيهاتٍ منه؟ أجل، كذا أخبرنا. لكن بالطبع توجهنا بشكوانا إلى ريناي، وكم ثار غضبها. فأنا أكبر من أن أعامل بتلك الطريقة، ولورا عصبية لا تحتمل أسلوباً كهذا، وكلتانا – من يظن نفسه؟ قدم إلينا من بواليع إنجلترا التي ولد فيها والآن يتصنع علينا النبل، مثله مثل أي إنجليزي آخر ينتهي به المآل هنا ويتصرف كأنه السيد النبيل، وإن كان يستحم على الأقل مرةً في الشهر فهي مستعدة أن تأكل قميصها هذا. وحين جاءتها لورا مع آثار حَبار على راحتي يديها، واجهت ريناي السيد إرسكين، لكنه زجرها قائلاً أنْ تلتزم شؤونها. فهي من أفسدتنا بدلالها. هي من أفسدتنا بفرط مداراتها لمشاعرنا وكأننا أطفالٌ رضّع – وهو ما كان جليًّا علينا – والآن المسؤولية تقع عليه لإصلاح الضرر الكبير الذي أوقعته بنا.

لورا أخبرت ريناي، إن لم يرحل السيد إرسكن بعيداً فهي من سترحل عن هذا البيت. ستفر بعيداً. ستقفز من خارج النافذة.

"لا تفعلي ذلك، حلوتي،" قالت لها ريناي، "سنضع قبعة التفكير على رؤوسنا ونخرج

بحل، سنعطل عربته!"[74]

"لكنه لا يملك عربة،" أجابتها لورا باكية.

لربما كان في يد كاليستا فيتزسيمونز التدخل لصالحنا، لكنها رأت بأي اتجاهٍ تدفع الريح بالسفينة: لم نكن طفلتيها، بل طفلتيْ أبي. كان قد اتخذ قراره وانتهى، أي محاولةٍ منها للتدخل لكان خطأً قاتلاً. المسألة بالنسبة لها كانت "sauve qui peut"[75] تعبيرٌ فرنسي أستطيع الآن، وبفضل جهود السيد إرسكن الحثيثة، ترجمته.

مفهوم السيد إرسكن عن الرياضيات كان بسيطاً: كل ما كان علينا تعلمه هو موازنة حسابات المنزل، ما يعني ضرورة اكتسابنا مهارات الجمع والطرح ومسك الدفاتر المحاسبية.

مادة اللغة الفرنسية بالنسبة له كانت تعليم تصاريف الأفعال وفيدرا [76]، مع التعويل على تعليمنا الحكم البلاغية والأمثال السائرة من كتّاب معروفين. "Si jeunesse savait,si viellesse pouvait"[77] لإيستين؛ "C'est de quoi j'ai le plus de peur que la peur"[78] لمونتاين؛ "Le coeur a ses raisons que la raison ne connaît point"[79] لباسكال؛ " L'histoire, cette vielle dame exaltée et menteuse"[80] لدو موباسان؛ " Il ne faut pas toucher aux idoles: la dorure en reste aux mains"[81] لفلوبير؛ " Dieu s'est fait homme; soit. Le diable s'est fait femme"[82] لفيكتور

(74) من العبارة المجازية الإنجليزية "fix someone's wagon" والتي تعني الانتقام من شخص بتعطيل "عربته".

(75) كلٌّ ينجو بنفسه.

(76) مسرحية فيدرا – Phèdre للمسرحي الفرنسي جان–بابتيست راسين – Jean–Baptiste Racine والمستوحاة من الأسطورة الأغريقية لفيدرا التي وقعت في غرام ابن زوجها الذي لم يبادلها الغرام، فتتهمه باغتصابها أمام أبيه والذي يأمر بنفيه وينزل عليه لعنة الموت. فيدرا ما إن تعرف بموته، تعترف بذنبها لزوجها وتنتحر.

(77) لو يملك الشباب حكمة الكهول.

(78) أخشى ما أخشاه هو الخوف.

(79) للقلب أسبابٌ يجهلها العقل.

(80) التاريخ، تلك العجوز رفيعة المقام الكاذبة.

(81) علينا ألا نلمس معبودنا، وإلا ستلتصق ذنوبه بنا.

(82) يقيناً، الرب تجسد رجلًا. والشيطان تجسد امرأةً.

هوغو. وهكذا دواليك.

مفهومه عن الجغرافيا انحصر في عواصم أوروبا. أما مفهومه عن اللاتينية فانحصر في إخضاع قيصر لبلاد الغال وعبوره نهر روبيكون، "alea iacta est"[83]؛ تلتها مختارات من إنياذة فيرجيل – كان مولعاً بانتحار ديدو – أو مختارات من تحولات أوفيد، تلك التي تتصرف فيها الآلهة بشكلٍ مقزز مع النساء اليافعات. اغتصاب يوروبا على يد ثورٍ أبيضٍ ضخم، اغتصاب لندا على يد بجعة، اغتصاب دانيه بوابلٍ من الذهب – على الأقل تلك الحكايا ستسترعي انتباهنا، كذا قال لنا مبتسماً ابتسامته الساخرة. وقد كان محقاً. ومن باب التغيير، فرض علينا ترجمة قصائد حب لاتينية، تلك المتشائمة منها، من أشباه "*Odi et amo*"[84]. كم تلذذ برؤيتنا نعاني مع آراء الشاعر السلبية عن الفتيات اللواتي، على ما يبدو، كنا سنتحوّل إليهن.

"Rapio, raper, rapui, raptum": أخذ يردد السيد إرسكن، "كلها تعني، (يستولي على)، والفعل الإنكليزي "rapture" يعود إلى نفس الجذر اللاتيني. هيا عددا لي تصريف الفعل". طاخ دوّت المسطرة.

تعلمنا. تعلمنا بحقّ وبروحٍ انتقامية: ما كنا لنعطي السيد إرسكن أي عذرٍ لإيذائنا. ما كان ليضيع أي فرصةٍ يدوس فيها بقدمه على عنقينا – حسنٌ، ما كنا لنمنحه الفرصة، إن كان بيدنا. المهارة التي تعلمناها حقاً على يديه هي مهارة الغش. كان من الصعب علينا تزييف أجوبتنا في الحساب، لكننا قضينا الساعات الطوال في فترات بعد الظهيرة نسترق ترجمات أوفيد من كذا كتابٍ في مكتبة جدي وننسخها على دفاترنا – ترجماتٍ قديمة على يد مترجمين بارزين من العهد الفيكتوري، بحجم خطوطها الصغير ومفرداتها المعقدة. كنا نفهم المعنى الضمني للفقرة من قراءة تلك الترجمات، ثم نستبدل المفردات المعقدة بأخرى أبسط، ونتعمد ترك خطأٍ هنا وهناك كي يبدو وكأننا ترجمناها بأنفسنا. لكن مهما فعلنا، كان السيد إرسكن يشرط ترجماتنا بحد قلمه الأحمر ويكتب تعليقات شرسة على أدائنا في الهوامش.

---

(83) عبارة لاتينية قالها قيصر لدى عبوره النهر، ومقابلها باللغة العربية هو: سبق السيف العذل.

(84) من القصيدة "85 Catullus" للشاعر الروماني كاتولوس – Catullus والتي نظمها في عشيقته ليزبيا قائلاً فيها: أكرهكِ وأعشقكِ. قد تسليني. كيف؟ لا أدري. بيد أن شعوري هذا لا ينفكُّ يعذبني.

لم نتعلم الكثير من اللاتينية، بيد أننا تعلمنا الكثير عن التزوير. كما تعلمنا كيف نحافظ على ملامح وجهنا متصلبة جوفاء من أي تعبير، وكأنها منشّاة. كان خير رد فعلٍ على تصرفات السيد إرسكن، ألا نظهر أي رد فعل، ألا نجفل حتى.

لفترةٍ ما، باتت لورا متيقظة لتصرفات السيد إرسكن، لكن الألم الجسدي – ألمها الجسدي أعني – لم يكن له من تأثيرٍ يذكر عليها. سرعان ما كان يتشتت تركيزها وتسرح بعيداً، حتى لدى صراخه عليها. كم غدا تأثيره محدوداً عليها. كانت تحدق في ورق الجدران – الموشاة ببراعم الزهور وعقد الفراشات – أو خارج النافذة. كانت قد اكتسبت القدرة على طرح نفسها خارج المكان في طرفة عين – في لحظة ترين تركيزها منصبًّا عليك، وفي اللحظة التالية ترينها وقد سرحت بعيداً عنك. أو بالأحرى أنتِ من رحل بعيداً عنها: هي من صرفتكِ، وكأنها لوحت بعصا سحرية خفيّة؛ فإذ بك أنت من تختفين عن الوجود لا هي.

ما كان السيد إرسكن ليطيق أن ينبذه أحدهم بتلك الطريقة. اعتاد على هزّها – كي يوقظها من سرحانها، بذا برر تصرفه معها. اعتاد الصراخ في وجهها، أنت لست بالجميلة النائمة. أحياناً كان يرمي بها على الجدار، أو يطوق عنقها بيديه ويهزها. متى ما أخذ يهزها بتلك الطريقة تغلق عينيها وترخي جسدها، مما زاد من حنقه. حاولت التدخل في بادئ الأمر، بيد أن محاولاتي باءت بالفشل. كان ببساطة يطرحني بعيداً بضربةٍ واحدة من ذراعه التويدية النتنة.

"كفي عن مضايقته،" قلت للورا.

"لا يهم إن أزعجته أم لا،" أجابتني، "وعلى كلٍّ، هو ليس بمنزعج مني. هو فقط يريد تلمس قميصي".

"لم أره يوماً يفعل ذلك،" قلت لها، "فلم عساه يفعل؟"

"يفعلها من خلف ظهرك،" أجابتني لورا. "أو يضع يده أسفل تنورتي، تعجبه السراويل التحتية". كانت جدّ هادئة في كلامها معي إلى درجة ظننتها تختلق الأمر برمته، أو أساءت الفهم. أساءت فهم نوايا يديْ السيد إرسكن. فما وصفته كان غير قابلٍ للتصديق. لم يبد لي تصرفاً قد يصدر عن رجلٍ بالغ، أو أن يثير اهتمامه

أساساً ارتكاب فعلٍ كهذا، أفليست لورا سوى فتاةٍ صغيرة؟
سألتها مترددةً، "ألا ينبغي علينا أن نعلم ريناي بالأمر؟"
"قد لا تصدقني،" أجابتني لورا. "فها أنت لا تصدقينني".

لكن ريناي صدقتها، أو اختارت تصديقها، وعلى يديها انتهى السيد إرسكن. هي كانت أذكى من أن تواجهه في نزالٍ مباشر: إن فعلت لأنكر ببساطة التهمة واتهم لورا باختلاق الأكاذيب القذرة ولساءت الأمور أكثر بكثير مما هي عليه. بعد أربعة أيام اندفعت ريناي إلى مكتب أبي في مصنع الأزرار تحمل في يدها رزمةً من الصور الخلاعية المهربة. ليست بالصور التي قد يجفل لدى رؤيتها أيُّ شخصٍ اليوم، لكن في تلك الأيام اقتناؤها كان فضيحة – نساءٌ في جوارب سوداء حريرية، نهودهن الكبيرة مندلقة كما البودينغ عن صدرياتهن الضخمة، ذات النسوة يظهرن عاريات، منفرجات الساقين في وضعيات منحرفة. كانت قد أخبرت أبي أنها عثرت عليها تحت سرير السيد إرسكن أثناء كنسها لغرفته، وهل يعقل أن يؤتمن رجلٌ كهذا على بنات الرقيب تشايس؟
وقد شهد الواقعة جمهورٌ مصغٍ باهتمام، يتضمن عمالاً في المصنع ومحامي أبي، وبالصدفة كذلك زوجها المستقبلي، رون هينكز. فمظهر ريناي، وجنتاها المحمرتان ذات الغمازات، عيناها تقدحان شرراً كما إلهة الانتقام، الخصلة الحلزونية السوداء تنحل عن دبوس شعرها، تلوح في قبضتها بصور نساءٍ عاريات عارمات النهود وكثاث الأكفال، كان كثيراً عليه. في عقله كان قد خرَّ راكعاً أمامها، ومنذ ذاك اليوم بدأ ملاحقته لها، والذي أتى أكله في النهاية. لكن تلك قصةٌ أخرى.
وإن كان هناك من أمرٍ واحد لن تطيقه بلدة بورت تيكونديروغا، كذا قال محامي أبي موجهاً النصح له، فهو وجود بذاءةٍ وصور ماجنة كتلك في يديْ معلمٍ لأطفال أبرياء. فأدرك أبي أنه لن يسعه الاحتفاظ بالسيد إرسكن في البيت وإلا اعتبره الجميع غولاً.
(كنت قد شككت لفترةٍ طويلة أن ريناي قد استحصلت على تلك الصور بنفسها،

من أخيها الذي يعمل في تجارة توزيع المجلات، والذي يسهل عليه الحصول على صور كتلك. وأظن أن السيد إرسكن كان بريئاً فيما يخص تلك الصور. فذوقه يميل نحو الأطفال لا الصديريات الكبيرة. لكن بعد كل ما بدا منه، ما كان له أن يتوقع لعباً نظيفاً من ريناي).

غادرنا السيد إرسكن، معترضاً ومصراً على براءته – ساخطاً لكن مرتعشاً. لورا قالت إنّ صلواتها قد استجيبت. قالت إنها صلت للرب كي يخلصها من السيد إرسكن ويطرده خارج البيت، والرب قد استجاب لها. ما فعلته ريناي كان بوحيٍ منه، كانت تنفذ مشيئته مع تلك الصور الماجنة وغيره. تساءلتُ عن رأي الرب فيما جرى، على افتراض أنه موجودٌ أصلاً – وهو ما أخذتُ يوماً بعد يوم أشك في صحته.

لورا، من جهةٍ أخرى، كانت قد اعتنقت الدين بجدية طوال فترة تولي السيد إرسكن منصب تعليمنا: كانت لا تزال مذعورة من الرب، لكن إذا أجبرت على الاختيار بين غضوبٍ وآخر، بين طاغٍ نزويٍّ وآخر، فهي ستختار الأكبر بينهما، والأبعد.

وما إن عقدت لورا خيارها انجرفت به حدَّ التطرف، كما كان ديدنها مع كل شيءٍ آخر. "سأصبح راهبة،" أعلنت لنا يوماً بكل هدوءٍ ورزانة، بينما كنا نتناول شطائر الغداء على طاولة المطبخ.

"لن تستطيعي،" أجابتها ريناي. "لن يقبلوا بك. فأنت لست كاثوليكية".

"أستطيع أن أتحوَّل إلى واحدة،" ردت لورا. " سأعتنق الكاثوليكية".

"حسنٌ،" أجابتها ريناي، "سيحلقون شعرك كله. فتحت تلك الأخمرة التي يرتدينها على رؤوسهن، الراهبة منهن صلعاء كما البيضة". كان دهاءً من ريناي أن تذكر ذلك. فإن كان من نزعة خيلاء في نفس لورا فهو حبها لشعرها. "ولم عساهن يفعلن ذلك؟" سألتها لورا.

" يعتقدن أنَّ الرب يريد منهن ذلك. يعتقدن أن الرب يريد منهن أن يهبن شعورهن له، وهو ما يثبت لك الجهل الذي يعشن فيه. فما عساه الرب يفعل بشعورهن؟" سألتها ريناي، "تخيلي! كل ذاك الشعر!"

"وما الذي يفعلنه بالشعر، متى ما قصصنه؟" سألتها لورا.

ريناي كانت تنتزع حبوب الفاصولياء من قرونها: طق. طق. طق. "يصنعون منها شعوراً مستعارة للسيدات الثريات". لم تتردّد ريناي للحظة في إجابتها، لكني عرفت أنها أكذوبة مثل قصصها الماضية عن الأطفال المصنوعين من العجين. "تلك النسوة الثريات المتكبرات رافعات الأنوف. لا أظنك تريدين رؤية شعرك الجميل يتهادى على رأسٍ كبيرٍ قذرٍ ومقرف".

وهكذا تخلت لورا عن فكرة الرهبنة، أو هذا ما بدا لنا؛ فمن يدري ما الهوس الآخر الذي كانت ستعتنقه؟ كان لها ميلٌ عميقٌ نحو الإيمان. تركت نفسها مشرعةً له، أودعت روحها فيه، سلمت قلبها له، وضعت عنقها تحت رحمته. نزرٌ بسيطٌ من الشك كان يكفيها لتتخلى عنه.

أعوامٌ مضت - هدراً كما اتضح - على السيد إرسكن. بيد أن هدراً ليست بالوصف المناسب، فقد تعلمت الكثير على يديه، وإن كان معظم ما تعلمته ليس بالّذي نوى تعليمنا إياه. فإلى جانب الكذب والغش، تعلمت الغطرسة المواربة والمقاومة الصامتة. تعلمت أنَّ الانتقام طبقٌ يؤكل بارداً. تعلمت ألاّ يمسك بي أحدٌ في الجرم المشهود.

في غضون ذلك بدأ الكساد يعم. أبي لم يخسر الكثير إثر الانهيار، وإن خسر بعض ماله. كذلك كان قد خسر هامش الخطأ. كان عليه أن يغلق مصانعه إثر انخفاض الطلب؛ كان الأجدر به أن يكنز أمواله في البنوك كما فعل الكثير من أقرانه. لكان هذا هو الحل المنطقي. بيد أنه لم يفعل. ما كان ليحتمل. ما كان ليحتمل رمي رجاله خارج المصنع. كان يدين لهم بالولاء، لرجاله هؤلاء. دع عنك أنّ من ضمن "رجاله" من كنَّ نساء.

أطبقت غمامة التقشف على آفيليون. غرف نومنا أضحت باردة في الشتاء، ملاءات سرائرنا باتت بالية. ريناي كانت تقص الوسط المهترئ منها ثم تعاود خياطة الطرفين وتعيد فرشها. أقفلوا عدداً من الغرف؛ سرحوا معظم الخدم. لم يعد لدينا بستانيّ، والحشائش أخذت تدب خلسةً في أرجاء الحديقة. أبي أخبرنا أنه في

حاجة إلى تعاوننا كي نبقي على عجلة الحياة دائرة – كي نجتاز هذه المحنة المؤقتة. قال لنا إنّ بوسعنا مدّ يد العون إلى ريناي في تدبير شؤون المنزل، بما أننا نفرنا من اللاتينية والرياضيات. قد نتعلم منها كيف نقتصد. وهو ما عنى، بالممارسة، فاصولياء أو قَدٌّ مملح أو أرانب على مائدة العشاء، ورفْو جواربنا بأنفسنا.

لورا رفضت تناول الأرانب. فقد بدت مثل رضيعٍ مسلوخ، كذا وصفتها. عليك أن تكون آكل لحوم بشر كي تلتهمها.

ريناي قالت إنّ طيبة أبي الزائدة انقلبت عليه. كذلك وصفته بالمكابر. فالرجل عليه أن يعترف بهزيمته متى ما هُزِم. لم تدر إلى أي اتجاه تهب الرياح بهذه السفينة، لكن الخراب والدمار كانت الوجهة الأقرب تحقيقاً.

كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمري. تعليمي الرسمي، إن كان لي أن أصفه بذلك، كان قد انتهى. أخذت أقضي وقتي أتسكع في أرجاء البيت، لكن لأي غاية؟ ما الذي كانت ستحمله لي الأيام القادمة؟

ريناي كان لها مخططها. فقد كانت مولعة بقراءة مجلة ماي-فير، بوصفها التفصيلي لحفلات المجتمع، والصفحات الاجتماعية في الصحف – حفلات الزفاف، حفلات الرقص الخيرية، والإجازات المترفة. كانت قد حفظت قوائم من الأسماء – أسماء الوجهاء، يخوت الرحلات البحرية، الفنادق الراقية. لا بد لي أن أحظى بحفل ظهور[85]، أخبرتني، مع كل ما يلزم من ترتيبات – حفلات الشاي للقاء الأمهات ذوات الشأن في المجتمع، حفلات الاستقبال والنزه المتأنقة، حفل رقصٍ رسمي يدعى إليه العزاب المؤهلون من الشباب. وستعود آفيليون وتزخر بالضيوف المتأنقين، مثلما كان عليه الحال في الأيام الخوالي؛ سيكون هناك فرق عزفٍ رباعية، ومشاعل على امتداد المرجة. فعائلتنا لا تقل عن أي عائلةٍ أخرى قد وفرت كل تلك الأمور لبناتها – لا تقل بل تتفوق عليها. كان ينبغي على أبي أن يحتفظ ببعض المال في البنك لهذا اليوم. لو أمي كانت لا تزال على قيد الحياة، قالت ريناي، لاعتنَت بكل تلك الأمور

(85) حفل ظهور – début: ظهور الفتاة للمرة الأولى في الحفلات الاجتماعية.

على خير ما يكون.

كنت أشك في ذلك. فمما سمعته عن أمي، أظنها كانت ستصر على التحاقي بمدرسة ـ كلية آلما للسيدات، أو مؤسسةٍ ما تماثلها في الكآبة والفضيلة – كي أتعلم مهارةً عملية وموحشة في ذات الوقت، الاختزال مثلاً؛ أما حفل ظهور، لكان دلالةً على الزهو والخيلاء. هي نفسها لم تحظ بواحدة.

جدتي آديليا كانت مختلفة، وبعيدةً في ذكرى الماضي بما يكفي لأراها مثالية. لما ادخرت وسعاً معي؛ لما تركَت طريقاً إلا وسلكته وما كانت لتضن عليّ بالمال. أنفقتُ وقتي أتسكع حالمةً في أرجاء المكتبة أتمعن صورها التي كانت لا تزال معلقة على الجدران: اللوحة الزيتية، رسمت لها عام 1900، ترتسم على وجهها ابتسامةٌ كما ابتسامة أبي الهول، في فستانٍ بلون الورود الحمراء المجففة، مع تقويرةٍ غائرة حيث تبزغ حنجرتها فجأةً كما ذراع الساحر من خلف الستار؛ الصور بالأبيض والأسود في أطرٍ مذهبة، تستعرض فيها قبعاتها التصويرية[86]، أو ريش النعام، أو في فساتين السهرة مع تاجٍ وقفازيْ الكف الأبيضين، تظهر إما وحدها في الصور أو برفقة عدة وجهاء باتوا اليوم في عالم النسيان. لكانت جلست معي وأمدتني بكل ما يلزمني من النصائح الضرورية: كيف ألبس، ماذا أقول، كيف أتصرف في كل المناسبات. كيف أتفادى وضع نفسي في مواقف سخيفة أمام الناس، الاحتمال الذي كنت أدري مسبقاً بوسع مداه. رغم تقصّيها الدائم في صفحات المجتمع، فريناي ما كانت تملك المعرفة المطلوبة لتنفيذ تلك المهام.

(86) القبعة التصويرية – picture hats: قبعة أنيقة للسيدات عريضة الحافة.

نزهة مصنع الأزرار

نهاية أسبوع عيد العمّال جاءت ومضت، مخلفةً وراءها حُتات أكواب البلاستيك والقوارير الطافية والبالونات الذاوية عالقةً على أطراف دوامات النهر. سبتمبر يفرض وجوده الآن. رغم أنّ شمس الظهيرة لم يضعف وهجها، إلا أنها أضحت تشرق متأخرةً كل يومٍ عن سابقه، تجر وراءها ذيلاً من سديم، وفي المساءات معتدلة البرودة الجنادب تصْرف وتصرّ. زهور النجمة البرية تتعنقد في أرجاء الحديقة، بعد أن غَرسَت هي جذورها بنفسها منذ وقتٍ بعيد – بيضاء بالغة الصغر، وأخرى كثيفة مصطبغة بلون السماء، والبعض سوقها صدئ، لونها ضاربٌ إلى الأرجواني. فيما مضى، أيّام ممارستي المتقطعة لهواية البستنة، كنت أصنفها حشائش ضارة فأقتلعها. اليوم ما عدت أرى تلك الفروق.

الطقس مناسبٌ اليوم للتنزه سيراً، فلا الشمس متوهجة ولا النور يترأرأ. جموع السياح أخذت تتناقص، ومن بقي منهم كانوا على الأقل محتشمين: ما عاد من مناظر لبناطيلَ قصيرةٍ ضخمة ولا أثواب صيفية منتفخة، ما عدنا نرى السيقان الحمراء المسلوقة.

اليوم شددتُ الرّحال إلى ساحة التخييم. شددتُ الرحال، لكن في منتصف طريقي إلى هناك ميرا مرت بمحاذاتي في سيارتها وعرضت عليّ توصيلي، وأنا خجلة لأقول إني قبلت بعرضها: فقد انقطعت أنفاسي، وكنت قد أدركت حينها كم المكان بعيد. ميرا أرادت أن تعرف إلى أين أنا ذاهبة والسبب وراء ذهابي هناك – لا بد أنها ورثت غريزة رعي القطعان من ريناي. أخبرتها بوجهتي؛ أما بالنسبة إلى السبب، فأخبرتها

أني أردت رؤية المكان مرةً أخرى، كي أستذكر الأيام الخوالي. خطيرٌ جداً، قالت لي: فلا تعرفين أبداً ما الخطر الذي يدب هناك بين الحشائش. أرغمتني أن أقطع لها وعداً بالجلوس على مقعد الحديقة، على مرأىً واضح من العيان، وأنتظرها. أخبرتني أنها ستعود بعد ساعة لاستلامي.

يوماً بعد يوم أشعر وكأني رسالة – يودعونني هنا، ويستلمونني هناك. رسالة، بيد أنها رسالة غير موجهة لأحد.

لا شيء هناك يستحق الرؤية في ساحة التخييم. ما هي إلا امتدادٌ لأرضٍ بين الطريق ونهر جوغز – فدان أو فدانين – مكسوةٍ بالأشجار وأجمةٍ من قِصار الشجر، والبعوض في النبع، من تلك البقعة السبخة في الوسط. طيور مالك الحزين تصطاد هناك؛ لك أحياناً أن تسمعي صياحها الأجش، صوتها كما صوت العصا متى ما احتكت بقصديرٍ خشن. بين فينةٍ وأخرى ترينَ ثلةً من مراقبي الطيور ينقبون في الأرجاء، تكتسيهم تلك الهيئة الكئيبة المثقلة بالهموم وكأنما يبحثون عن غرضٍ قد أضاعوه.

وهناك في الظلال تتلألأ ومضاتٌ فضية، من علب السجائر المرمية، والدرنات المنفوشة الشاحبة للواقيات الذكرية، وعلب المحارم الورقية مخرمة بفعل المطر. الكلاب والقطط تطالب بملكيتها، أزواجٌ شبقة تتسلل عبر الأشجار، وإن ليس بالعدد الذي كان عليه في السابق – فاليوم هناك العديد من الخيارات. السكارى يخلدون للنوم أسفل الشجيرات الكثيفة صيفاً، وأحياناً يذهب المراهقون هناك لتدخين وتنشق أياً كان ما يدخنونه ويتنشقونه. هناك تجدين أعقاب الشموع والملاعق المحروقة وإبرالاستخدام الواحد كلها مرمية. أسمع كل هذا من ميرا، والتي ترى فيها رذيلةً كبيرة. فهي تعرف الداعي وراء استخدام أعقاب الشموع والملاعق المحروقة: "لوازم المخدرات". على ما يبدو، فالخطيئة باتت تحيط بنا من كل مكان. "Et in Arcadia ego"[87].

قبل عقدٍ أو عقدين كانت هناك محاولة لتنظيف الساحة. نصبوا لافتةً تعريفية

(87) "الراعي الأركادي" عنوان لوحة للرسام نيكولاس بوسين – Nicolas Poussin ورسمت عام 1637.

ـ حديقة الكولونيل باركمان، وكم بدت تافهة – وثلاث طاولات نزه ريفية الطراز ومستوعب مهملات بلاستيكي ووزعوا عدداً من مقصورات المراحيض المتنقلة في الأرجاء، من أجل راحة الزوار القادمين من خارج البلدة، حسب ما قالوا، مع أنّ هؤلاء الزوار يفضلون تجرع البيرة ورمي مهملاتهم في مكانٍ آخر ذي إطلالةٍ أجمل على النهر. من بعدها جاء الشبان المولعون بالبنادق وأخذوا من اللافتة هدفاً لتمارين الرمي، والطاولات ومقصورات المراحيض انتزعتها الحكومة الإقليمية – أمرٌ ما يتعلق بالميزانية – ومستوعب المهملات لم يفرغه أحدٌ على الإطلاق – وإن اعتادت حيوانات الراكون على نهب خزائنها بين الفينة والفينة، فانتزعوها هي الأخرى، ليعودَ المكان أسوأ مما كان عليه.

يدعونها ساحة التخييم لأن المخيمات الدينية فيما مضى كانت تعقد هناك، بخيمها الكبيرة مثل خيم السيرك وخطبائها المستوردين. في تلك الأيام كانوا يولون الساحة عنايةً جيدة، أو بالأحرى كانت محط قدمٍ لكثيرٍ من الناس. المعارض الموسمية المتنقلة اعتادت أن تنصب أكشاكها وركائبها، توثق حميرها وأفراسها القزمة إلى أوتاد الطّوْل، المواكب الاستعراضية اعتادت أن تجتمع هناك بعد انتهاء العرض، ثمّ تتبدد جموعها إلى نزهات. كان مكاناً للالتقاء والتجمع في العراء من أي نوعٍ كان. هنا اعتادوا عقد احتفال "تشايس وأبنائه السنويّ لعيد العمال". هذا كان الاسم الرسمي للحدث، أما الاسم المتعارف عليه بين الناس فكان "نُزهة مصنع الأزرار". دائماً ما كان يعقد يوم السبت السابق للعيد الرسمي يوم الإثنين، ولطالما زخر بالخطب الجدية وفرق الموسيقى العسكرية واللافتات المصنوعة منزلياً. كانت هناك بالونات ودوامة خيل، ومسابقات بريئة حمقاء مثل – السباق بالأكياس، الملعقة والبيضة، سباقات التتابع حيث العصا مجرد جزرة. فرق الحلاقين الرباعية كانت تصدح بالغناء، لم يكن أداؤهم سيئاً؛ نافخو البوجل من فرقة الكشافة كانوا يزمرون وصلةً أو وصلتين؛ فرقٌ من الأطفال كانت تؤدي رقصة الهيلاند-فلينغ الأسكتلندية والرقص الإيقاعي الإيرلندي على المنصة الخشبية المرفوعة مثل حلقة ملاكمة، أما الموسيقى فكانت تنبعث من غراموفون يدوي. كانت تقام مسابقة أجمل زي

لحيوانٍ أليف، وواحدة مثلها للأطفال الرضع. الأطعمة المقدمة كانت أكواز الذرة، سلطات البطاطس وشطائر الهوت دوغ. الفرق التطوعية من السيدات كانت تنصب مزاراً خيرياً تبيع فيه مخبوزاتها لصالح قضيةٍ أو أخرى، تعرض الفطائر والكوكيز والكعك، ومرطبانات من المربى والصلصة الكتنية والمخللات، على كل جرةٍ رقعةٌ تحمل الاسم الأول لصاحبتها: تشاو-تشاو رودا، كومبوت بيرل بالخوخ.

لم يخل الأمر من بعض المشاحنات والمزاح الخشن – شيءٌ من العربدة. كشك المشروبات ما كان يقدم مشروباً أقوى من الليمونادة، لكن الرجال أحضروا معهم قناني خمر ومسكرات، وما إن يحل الغسق كانت تصدر من هنا وهناك أصوات شجار أو نوبات ضحكٍ خشن تعلو بين الأشجار، تليها أصوات ارتطامٍ بالماء على مد ضفة النهر لرجلٍ ألقوا به في النهر إما بكامل ملابسه أو دون بنطال. نهر جوغز كان ضحلاً بما فيه الكفاية فتقريباً لم يغرق أحد. وما إن يحل الظلام أطلقوا عرض الألعاب النارية. في ذروة النزهة، أو ما أراها الآن كانت ذروة النزهة، تتجمع حلقات الرقص التربيعي، برفقة الكمنجات.

لكن في العام الذي أستحضره الآن في ذاكرتي، عام 1934، فمظاهر تلك الفرحة المفرطة جاءت مبتورة.

اعتاد أبي إلقاء خطابه حوالي الساعة الثالثة عصرًا، فوق منصة الرقص النقري. لطالما جاء خطابه موجزاً، لكن الكبار من الحضور اعتادوا الإنصات إليه باهتمام، وكذلك النساء، فهن إما كن يعملن في المصنع أو متزوجات من العمال. ومع تفاقم الأمور سوءاً، حتى الشباب بدأوا ينصتون للخطاب؛ وحتى الفتيات، في أثوابهن الصيفية بأكمامها النصفية. لم يعتد أبي ذكر الكثير في خطابه، لكن كان بوسعك قراءة ما بين السطور. "دواعٍ للرضا" كانت دلالةً مبشرة؛ "أرضيةٌ للتفاؤل" كانت نذيراً مستطيرا.

الطقس كان في ذاك العام حاراً وجافاً، كما كان عليه لفترةٍ طويلة. لم يكن هناك من بالونات كثيرة كما السابق؛ ولا دوامة خيل. أكواز الذرة كانت قديمة، وحبوب الذرة مجعدة مثل البراجم. الليمونادة أكثرها ماء، وشطائر الهوت دوغ نفدت بسرعة.

ومع ذلك لم يكن هناك من تسريحٍ لأي عمال، ليس بعد. تخفيضٌ للساعات، لكن لا تسريح.

أي ذكر " أرضية للتفاؤل" أربع مرات، "دواعٍ للرضا" ولا مرة. الأعين كلها اتشحت بالقلق.

أنا ولورا اعتدنا الاستمتاع بالنزهة حين كنا صغاراً؛ أما الآن فلا، ومع ذلك ظلَّ وجودنا واجباً إجبارياً علينا. كان علينا أن "نرفع العلم" تضامناً. هذا كان الشعار الذي طبّلوه لنا منذ صغرنا: فأمي كانت قد جعلت من القدوم واجباً مقدساً تؤديه مهما كانت صحتها معتلة.

وبعد وفاة أمي، ريناي تولت إدارة شؤوننا، وكانت تولي عناية فائقة متمحصة لاختيار أثوابنا التي تليق بهذا اليوم: لا شيء غير رسمي أكثر من اللازم، لأن في ذلك دلالة ازدراء، وكأنه لا يعنينا رأي أهل البلدة بنا؛ وكذلك لا شيء متأنق بإفراط يوحي بأننا نتصرف معهم كالأسياد. لكني ولورا كبرنا وملكنا حرية اختيار ملابسنا بأنفسنا – كنت التو قد بلغت الثامنة عشر، لورا الرابعة عشر والنصف – لكن ما عاد لدينا وقتئذ العديد من الخيارات. لطالما كان استعراض الرفاهية أمراً غير محمودٍ في بيتنا، مع أننا كنا نحظى بما تسميه ريناي بالأغراض الجيدة، لكن مؤخّراً مفهوم الرفاهية قد تغير وضاق مجاله ليعني أي غرضٍ جديد. كلتانا ارتدت للنزهة فستان الدرندل الأزرق والقميص الأبيض من الصيف السابق. لورا ارتدت قبعتي التي تعود إلى ثلاثة مواسم سابقة؛ أما أنا فوضعت قبعتي التي ارتديتها العام السابق، مع شريطٍ مختلف.

لورا لم تبد ممتعضة، لكني كنت. ما إن عبرت لها عن امتعاضي، اتّهمتني بالدنيويّة.

استمعنا للخطاب. أو أنا استمعت للخطاب. فلورا اعتادت ادعاء الاستماع – عيناها تتسعان، تنصِبُ أذنيها باهتمام إلى أحد جانبيها – لكن ما كنت لتعرفين إلام كانت تستمع. لطالما تمكن أبي من المضي قدماً في إلقاء الخطاب دون أن تبدو عليه أمارات الثمالة، مهما كان مقدار ما شرب. لكن هذه المرة أخذ يتعثر في الإلقاء. أخذ يدني الورقة المطبوعة إلى عينه الصالحة، ثم يقصيها، يحدق فيها بنظرة ارتباك،

وكأنها فاتورة غرضٍ ما لم يطلبه. اعتادت ملابسه أن تكون أنيقة، ثم أضحت أنيقة مستعملة، لكن في ذاك النهار كادت ملابسه أن توصف بالرثة. شعره كان أشعثاً حول أذنيه، في حاجة إلى تشذيب؛ بدا متعجلاً – ووحشياً حتى، مثل قاطعِ طرقٍ حاصروه في زاوية.

بعد إلقائه الخطاب، والذي لم ينل سوى تصفيقٍ من باب الواجب، أخذ بعض الرجال يتحلقون في مجموعات مغلقة، يتحادثون بأصوات خافتة بين أنفسهم. بعضهم جلس تحت الشجر، إما على معاطف مبسوطة أو بطانيات، أو استلقوا في الظل يغطون وجوههم بمناديلهم وغفوا. فقط الرجال من فعلوا ذلك؛ النساء بقين متيقظات، أعينهن تراقب المكان. الأمهات أخذن يسقن أطفالهن نحو النهر كي يخوضوا في ضفته الرملية هناك. وعلى الجانب في الساحة الترابية شرعوا يلعبون مباراة بيسبول، دوامةٌ من الجمهور أحاطت المكان تشاهد المباراة مترنحةً من أثر الشراب.

توجهت لمساعدة ريناي على طاولة بيع المخبوزات الخيري. يا ترى المبيعات كانت لصالح أي قضية؟ لا أذكر. لكني قدمت المساعدة هذه كل عام – فهذا ما كان متوقعاً مني. أخبرت لورا أنَّ عليها المجيء ومد يد العون أيضاً، لكنها تصرفت وكأنها لم تسمعني وأخذت تتنزه في الأرجاء، حاشية قبعتها العريضة تتدلى منها.

فتركتها لحال سبيلها. كان واجبي أن أبقي عينيّ عليها: ريناي لم يجافيها النوم يوماً قلقاً عليّ، لكن لورا، من وجهة نظرها، كانت سريعة الثقة بالناس، حميمية مع الغرباء. وتجار الرقيق الأبيض كانوا دائماً يجوسون في الأرجاء، ولورا هي ضحيتهم المثلى. قد تركب سيارةً غريبة، تفتح باباً مجهولاً، تعبر الشارع الخطأ، وبذا تقضي على نفسها، لأنها كانت تجهل وضع الحدود، أو على الأقل تجهل وضعها حيث يضعها الناس، وليس بإمكانك الاكتفاء بتحذيرها لأنها لا تعي مفهوم التحذير. لم يكن الحال وكأنها تهزأ بالقوانين: هي فقط تنساها.

تعبت من مراقبة لورا، والتي لم تقدّر حرصي عليها. وكنت متعبة من تحمل اللوم عنها على زلاتها، فشلها في الامتثال للقوانين. كان قد طفح بي الكيل من تحمل

المسؤولية، وكفى. أردت السفر إلى أوروبا، إلى نيويورك، أو حتى إلى مونتريال – إلى الملاهي الليلية، الحفلات الساهرة، إلى كل تلك الأماكن المثيرة في مجلات ريناي الاجتماعية – لكن البيت كان في حاجةٍ إليّ. البيت في حاجةٍ إليك. البيت في حاجةٍ إليك – بدت لي حكماً بالسجن مدى الحياة. بل أسوأ، بدت لي ترنيمةً جنائزية. كنت قد علقت في بورت تيكونديروغا في المعقل الحصين لأزرار ملابس العوام العادية والملابس التحتية الطويلة الرخيصة للمتسوقين أصحاب الميزانية المحدودة. كنت سأآسن هنا، ولا شيء سيحصل لي بتاتاً، وسينتهي بي الحال عانساً عجوز مثل الآنسة فيولينس، موضع شفقةٍ وسخرية. تلك كانت أعمق مخاوفي. أردت أن أكون في مكانٍ آخر، لكن لم أر سبيلاً يأخذني هناك. بين فينة وأخرى أجد نفسي أتمنى لو يختطفني أحد تجار الرقيق الأبيض، حتى وإن لم أؤمن حقاً بوجودهم. على الأقل لكان تغييراً في حياتي.

هناك ظلّة تعلو طاولة المخبوزات، مناشف الشاي والورق المشمع تحمي المخبوزات من الذباب. ريناي ساهمت في البيع الخيري بمجموعة فطائر، ليس بنوع المخبوزات الذي تتقن صنعه. فحشوة فطائرها دبقة وغير مكتملة الطهي، قشرتها بدت صلبة لكنها رخوة، مثل عشب البحر الأسمر أو مشرومٍ ضخم. في أوقات الرخاء السابقة كانت ستبيع ما يكفي منها – فقد كان الجميع مدركاً أن المخبوزات ليست سوى أدوات احتفالية وليست بالضرورة طعاماً يؤكل – لكن صف الفطائر اليوم ظل تقريباً على حاله. فالسيولة شحيحة، وفي مقابل المال توقع الشراة شيئاً قابلاً حقاً للأكل.

وبينما كنت أقف خلف الطاولة، أخذت ريناي تسرد عليّ بصوتٍ خافت آخر مستجدات النميمة. كانوا قد ألقوا بأربع رجالٍ في النهر والشمس بعد لا تزال متوهجة في عين السماء، ولم تكن كلها بداعي المرح. فقد علت أصوات النقاش، شيءٌ ما يتعلق بالسياسة، قالت ريناي: الأصوات كانت محتدة. وعدا اللهو المعتاد عند النهر، فقد وقعت مشاجرات. إلوود موراي طُرِح أرضاً. كان محرر الصحيفة الأسبوعية، فقد ورثها عن جيلين من عائلة موراي: كان يكتب معظم مقالاتها،

وكذلك يلتقط الصور بنفسه. لحسن الحظ لم يرموا به في النهر، وإلا لعطبت كاميرته التي كلفته الكثير رغم أنها مستعملة، ريناي لديها عِلمٌ مسبق بأمر الكاميرا. أنفه كان ينزف، كان جالساً أسفل شجرة وفي يده كأس ليمونادة وامرأتان تحومان فوقه وفي يديهما مناديل رطبة؛ كان بوسعي رؤيته جيداً من حيث أقف.

أكان بداعي السياسة، طرحه أرضاً؟ ريناي لم تعرف، لكن الناس ما عادت تحتمل أن يتنصت أحدهم على أحاديثها. في أوقات الرخاء اعتبر الناس موراي رجلاً أحمق، وكذلك ما كانت تصفه به ريناي "مخنث " – فهو لم يكن متزوجاً، وفي عمره هذا اعتبرت عزوبيته دلالة – لكنهم احتملوه وكذلك قدروه، ضمن حدود، طالما نشر المناسبات الاجتماعية وذكر أسماء الجميع بتهجئتها الصحيحة. لكن لم تكن تلك بأوقات رخاء، ولم يكن دس إلوود موراي أنفه الفضولي فيما لا يعنيه لصالحه. فلن ترغبي بأن يكتب أحدهم كل تفصيلٍ صغيرٍ عنك، قالت ريناي. لا أحد عاقل سيرغب في ذلك.

كنت قد لمحت أبي، يمشي بين العمال المتنزهين بخطاه العرجاء. كان يومئ إيماءته الجافة اتجاه هذا الرجل وذاك، إيماءة تبدو فيها رأسه وكأنها ترتد للخلف بدلاً عن الانحناء للأمام. عصابة عينه السوداء أخذت تتقلّب من جانبٍ إلى جانب؛ بدت من بعيد وكأنها ثقبٌ في رأسه. شاربه المقوس بدا مثل نابٍ جانبي أسود أعلى فمه، بين لحظةٍ وأخرى يُطبق شفتيه بإحكام في أمارةٍ ولا بد عنى بها أبي الابتسام. يداه كانتا مخبأتين في جيبيه.

إلى جانبه يمشي شابٌ أصغر عمراً، وأطول قامةً بقليل من أبي، وإن بدا على عكس أبي، خالٍ تماماً من الغضون والتجعيدات. صقيل الوصف الذي كان سيخطر على بالك. كان يرتدي قبّعة باناما أنيقة وبدلة كتانية بدت وكأنها تشع ضياءً، كم كانت منعشة ونظيفة. من الواضح عليه أنه من خارج البلدة.

"من هذا الذي برفقة أبي؟" سألت ريناي.

اختلست ريناي نظرة دون أن ترفع عينيها، ثم ضحكت ضحكةً صغيرة. "هذا سيد الملكية الكلاسيكية، بلحمه ودمه. يا له من وقح".

"ظننته هو،" أجبتها.

سيد الملكية الكلاسيكية لم يكن سوى ريتشارد غريفين، صاحب مصانع النسيج الملكي الكلاسيكي في تورنتو. عمالنا – عمال أبي – أشاروا إليه ساخرين بسيد القذارة الكلاسيكية، ليس فقط لأن السيد غريفين هو منافس أبي الرئيسي، بل لأنهم رأوا فيه عدواً لهم. فقد هاجم أبي في الصحافة بداعي لينه المفرط مع المتبطلين، دعمه لجهود الإغاثة، وأصحاب الأفكار الراديكالية بشكل عام. كذلك بسبب موقفه من النقابات، هجومٌ لم يكن من مسوغٍ له، فلا نقابات في بورت تيكونديروغا وآراء أبي المبهمة بشأنها لم تكن سراً. لكن الآن، ولسببٍ ما، فقد وجه أبي الدعوة إلى ريتشارد غريفين لتناول العشاء في آفيليون، بعد النزهة، وفي إشعارٍ عاجلٍ كذلك. أربعة أيامٍ وحسب.

ريناي شعرت بأنّ السيد غريفين قد أُقحِم عليها فجأة. وكما يعرف الجميع، فعليك أن تستعرض نعمتك أمام أعدائك أكثر مما تفعل أمام أصدقائك، وأربعة أيامٍ لم تكن بالفترة الكافية لها كي تعد حدثاً كهذا، خصوصاً وأنّ آفيليون لم تستقبل حفلات عشاء فاخرة منذ أيام جدتي آديليا. أجل، اعتادت كالي فيتزسيمونز دعوة أصدقائها لقضاء عطل نهاية الأسبوع، لكن ذاك أمرٌ مختلفٌ تماماً، فهؤلاء لم يكونوا سوى فنانين وعليهم أن يكونوا ممتنين لأي طعامٍ يقدم لهم. أحياناً كان يعثر عليهم في المطبخ ليلاً يغيرون على الكرار، يعدون بأنفسهم شطائر من بقايا الطعام. "أصحاب الدرك الأسفل" كذا اعتادت ريناي تلقيبهم.

"على كلٍّ، هو حديث نعمة،" قالت ريناي بازدراء، بينما أخذت تتمحص ريتشارد غريفين. "تأمّلي بنطاله الباهظ". لم تكن ريناي متسامحة على الإطلاق مع أي شخصٍ يجرؤ وينتقد أبي (أي شخصٍ عداها)، وتزدري كل من يرتقي سلم الثراء ثم يغدو يتصرف مع الناس بأعلى من مستواه، أو ما اعتبرته هي مستواه؛ وكانت حقيقة معروفة لدى الجميع أن عائلة غريفين هي من عوام الناس مثلها مثل التراب، أو على الأقل جدهم كان. فقد بنى ثروته على خداع اليهود، قالت ريناي في نبرةٍ مبهمة – أكان ما فعله مأثرةً في رأيها؟ – لكن كيف تمكن من خداع اليهود

فهذا ما لم تذكره لي. لكن الحق يقال، إن هناك احتمالَ أنّ ريناي قد ابتدعت وصمات العار تلك وألصقتها بعائلة غريفين. فهي أحياناً تنسب إلى الناس التاريخ الذي ترتئيه لائقاً بهم.

من خلف أبي والسيد غريفين، كانت تسير إلى جانب كالي فيتزسيمونز، امرأةٌ ظننتها زوجة ريتشارد غريفين – يافعة بعض الشيء، نحيلة، متأنقة، يتهدل وراءها ذيل ثوبها من قماش الموصلين الشفاف البرتقالي الباهت الذي بدا معه الذيل وكأنه بخارٌ متصاعد من حساء طماطم مَذِق. قبعتها التصويرية خضراء، وكذلك حذاء كعبها العالي ذو الرباط الخلفي، ووشاحها الناعم الذي أسدلته حول عنقها. كانت مفرطة التأنق للنزهة. وبينما أخذت أراقبها، توقّفَت، رفعت قدماً والتفتت خلف كتفها تحدق بها كي ترى إن علق شيءٌ في كعبها. كم أملت ذلك. ومع هذا، ظننته رائعاً الظفر بأثواب جميلة كهذه، أثواب محدثي النعمة الباهظة، بدلاً عن أثواب الفضيلة، العتيقة المتواضعة، والتي غدت ضرورةً من ضرورات حياتنا.

"وأين لورا؟" سألت ريناي فجأةً مذعورة.

"لا فكرة لدي،" أجبتها. كنت قد اعتدت الرد عليها بحدة، خصوصاً متى ما بدأت تتأمر عليّ. أنت لست بأمي، أضحى الرد اللاذع القاسي المفضل لدي.

"المفترض أن تكوني أدرى من أن تتركيها تجول وحدها بعيداً عن ناظريك". قالت ريناي. " فأي شخص قد يكون هناك". أي شخص كان البعبع الذي تخيفنا به. فأنت تجهلين ما يقدر أن يرتكبه أي شخص من زلات وجرائم واعتداء.

وجدتُ لورا جالسةً على العشب أسفل شجرة، تحادث شاباً يافعاً – رجلاً وليس فتى – أسمرَ بعض الشيء، يرتدي قبعةً زاهية اللون. نمط ملابسه لم يشر إلى شيءٍ محدد – لم يكن بعامل مصنع، ولم يبد عليه كذلك انتماؤه إلى مهنةٍ أخرى، أو على الأقل مهنةٍ واضحة. لم يضع ربطة عنق، لكنها نزهة. قميصه أزرق اللون، الخيوط منسلة قليلاً عند الحاشية. نمطٌ ارتجالي بروليتاري. العديد من الشبان كانوا قد بدأوا يحاكون هذا المظهر – معظمهم من طلبة الجامعة. في الشتاء يرتدون الصُّدَر المحبوكة، موشاة بخطوط أفقية.

"أهلاً،" قالت لورا. "أين اختفيتِ؟ هذه شقيقتي آيريس. أعرفك بأليكس".
"السيد ...؟" كيف قفزت لورا إلى تبادل الأسماء الأولى بهذه السرعة؟
"أليكس توماس،" أجاب الشاب اليافع. كان مهذباً لكن حذِرًا. زحف على ركبتيه اتجاهي ومد يده، وأنا أمسكتها. ثم وجدت نفسي أجلس على العشب إلى جانبهما. بدا وكأنه التصرف الصحيح، كي أحمي لورا.
" أنت من خارج البلدة، سيد توماس؟"
"نعم. أنا في زيارة إلى أناسٍ هنا". بدا كمن ينطبق عليه وصف ريناي شابٌ لطيف، بمعنى ليس بفقير، وكذلك ليس بغني.
"هو صديقٌ لكالي،" أخبرتني لورا. "كانت التو هنا، هي من عرفتنا على بعضنا. جاء هنا على متن ذات القطار معها". كانت تشرح بإسهاب مُفرِط.
"وهل قابلتِ ريتشارد غريفين؟" سألتُ لورا. "كان برفقة أبي. الرجل الذي دعاه على العشاء؟"
"ريتشارد غريفين، ملك المعامل المعرّقة[88]؟" علّق الشاب اليافع.
"أليكس – السيد توماس يعرف الكثير عن الحضارة المصرية،" قالت لورا. "كان التو يخبرني عن الهيروغليفية". كانت تنظر إليه. لم أكن قد رأيت تلك النظرة عليها اتجاه أي أحدٍ آخر. منبهرة، مذهولة؟ من الصعب تسمية نظرةٍ كهذه.
"يبدو مثيراً للاهتمام،" قلت لها. كان بوسعي التقاط نبرة صوتي لدى تلفظي مثيراً للاهتمام، تلك النبرة الساخرة التي يزدري بها الناس الآخرين. فقد كنت في حاجة إلى طريقةٍ أوضح فيها لهذا الشاب أليكس توماس أنَّ لورا لا تتعدى الرابعة عشر، لكن لم يكن من سبيلٍ أمامي أن أفعل ذلك دون أن أثير غضبها.
تناول أليكس توماس علبة سجائر من جيب قميصه –كرافين-آيز حسب ما أذكر. نقر العلبة وأخرج منها عقب سيجارة لنفسه. كنت قد تفاجأت قليلاً لرؤيته يدخن سجائر جاهزة – إذ لم تتلاءم مع قميصه. فعلب السجائر الجاهزة كانت دليل

(88) المعمل المعرّق – sweatshop: مؤسسة صناعية تستخدم العمال بأجور منخفضة وفي أحوال غير صحية.

رفاهية: عمال المصنع يلفّون سجائرهم بأنفسهم، بعضهم بيدٍ واحدة.

"شكراً، سآخذ واحدة،" قلت له. كان قد سبق لي تدخين بضعة سجائر من قبل، تلك التي أسرقها خلسةً من العلبة الفضية المحفوظة أعلى البيانو. نظر إليّ متمعناً، وهو ما أظنني أردته منه، ثم عرض عليَّ العلبة. حكَّ عود الثقاب بإبهامه، ورفعه لي.

"لا يجدر بك أن تفعل ذلك، فقد تحرق نفسك". قالت له لورا.

إلوود موراي ظهر أمامنا، منتصباً ومرحاً مرةً أخرى. صدر قميصه ما زال رطباً ومبقعاً باللون الزهري، حيث المرأتان حاولتا بمنديليهما مسح بقع الدم؛ جوفا منخريه كانا مطوقيْن بالدم الداكن الجاف.

"أهلاً سيد موراي،" قالت لورا. "هل أنت على ما يرام؟"

"بعض الأولاد انجرفوا بعض الشيء". أجابها إلوود موراي وكأنه يفصح لها في حياء عن فوزه بجائزةٍ ما. "كنا نلهو وحسب، هل لي؟" ثم التقط صورتنا بكاميرته الضوئية. كان من عادته أن يقول هل لي قبل التقاطه الصور للصحيفة لكن لم ينتظر يوماً سماع الإجابة. أليكس توماس رفع يده وكأنما يصده عنه.

"بالطبع أعرف السيدتين الجميلتين،" قال له إلوود موراي، "لكن ما اسمك؟"

ريناي ظهرت فجأةً، قبعتها مائلة، وجهها أحمر وأنفاسها منقطعة. "أبوكما يبحث عنكما في كل مكان،" قالت لنا.

كنت مدركة لعدم صحة كلامها. ومع ذلك كان علينا أنا ولورا أن ننهض عن ظل الشجرة وننفض التراب عن تنورتينا ونلحق بها، مثل بطتين تسوقهما أمهما.

أليكس توماس لوح لنا مودعاً. كان تلويحاً متهكماً، أو هذا ما ظننته.

"ألستما أعقل من هذا؟" نهرتنا ريناي. "منبطحتان على العشب مع غريبٍ الرّب وحده يعلم من هو. وبحق السماء آيريس ارمي عنك تلك السيجارة، فأنت لست بمتشردة. ماذا إن رآك أبوك؟"

"أبي يدخن مثل الفرن،" أجبتها بنبرةٍ أملت أن تبدو وقحة.

"الأمر مختلف". قالت ريناي.

"السيد توماس،" قالت لورا، "السيد أليكس توماس. هو طالبٌ في اللاهوت. أو هذا

ما كان عليه مؤخراً". أردفت بنبرةٍ متحرِّجة. "إذ فقد إيمانه. وضميره ما كان ليسمح له بمتابعة الدراسة".

يبدو أن ضمير أليكس توماس قد ترك انطباعاً بالغاً لدى لورا، لكن هذا الكلام ما كان لينفع مع ريناي. "وما تراه يفعل الآن إذن؟" سألتها ريناي، "شيئاً مريباً وبلا شك، وإلا فأنا رجلٌ صينيّ. فنظرته مخادعة".

"وما الخطب فيه؟" قلت لريناي. لم أكن معجبة به، لكن بالتأكيد رأيت الظلم في الحكم عليه هكذا دون الاستماع إليه. " بل ما الصالح فيه، هنا السؤال،" قالت ريناي. "تتدحرجان على المرج على مرأىً من جميع الناس". كانت توجه حديثها لي أكثر مما توجهه إلى لورا. "على الأقل طويتما تنورتيكما تحت الركب". من وجهة نظر ريناي فأي فتاةٍ تجلس برفقة شاب عليها أن تكون قادرة على الإمساك بسنت بين ركبتيها. دائماً ما كانت تخشى أن يرى الناس – الرجال – سيقاننا، أو بالأحرى الجزء الذي يعلو الركب. أما عن النساء اللواتي يسمحن بحدوث شيءٍ كهذا فكانت تعلّق عليهن قائلةً، الستائر مرفوعة، فأين العرض؟ أو ما بالك لا تنصبين لافتة؟ أو بنبرةٍ تنذر بالشر، ستنال ما تسعى إليه، أو في الحالات الأسوأ، هي كارثة على وشك الوقوع.

"لم نكن نتدحرج،" قالت لورا، "فليس من تلٍّ نتدحرج عليه".

"تتدحرجان أم لا، أنت تعرفين ما أقصد،" أجابتها ريناي.

"لم نفعل أي شيء،" قلت لها، "كنا فقط نتبادل الحديث".

"لا أهمية لهذا،" قالت ريناي. "المهم أن الناس قد رأتكما".

"في المرة القادمة سنحرص على ارتكاب لا شيء خفاءً بين الشجيرات". أجبتها.

"ومن هو على أي حال؟" سألتنا ريناي، والتي باتت تتجاهل ردودي الفظة عليها، إذ لم يعد من شيءٍ تستطيع فعله وقد كبرت. من هو تعني به من والداه؟

"هو يتيم،" أجابتها لورا. "قد تبناه والداه من الميتم. قسٌّ مشيخي وزوجته". بدت وكأنها استخرجت تلك المعلومة من أليكس توماس في وقتٍ قصيرٍ جداً بعد تعارفهما، بيد أنها مهارة من مهاراتها – إن كان لك أن تسمّيها مهارة– لا تفتأ تسأل

وتسأل – أسئلتها من النوع الشخصي الذي تعلمنا أن من الوقاحة طرحها، إلى أن يُجبَر الطرف الآخر على التوقف عن الإجابة إما بداع الخزي أو في نوبة غضب.

"يتيم!" قالت ريناي. "قد يكون أي شخص!" فقلت لها "وما الخطب في الأيتام؟".

كنت أدري ما الخطب فيهم من وجهة نظر ريناي: يجهلون من هم آباؤهم، ما يعني أنهم لا يُعوَّل عليهم، هذا إن لم يكونوا من الأساس منحطين أخلاقياً. مولودٌ في مصرف مياه، كذا تصفهم ريناي. مولودٌ في مصرف مياه. متروكٌ على عتبة باب.

"ليسوا أهلاً للثقة". قالت ريناي. " اليتيم فيهم يتمسكن حتى يتمكن. لا يضعون اعتباراً للحدود".

"حسنٌ، على أي حال،" قالت لورا، " فقد دعوته على العشاء".

"وها هي الطامة الكبرى!" قالت ريناي.

واهبات الخبز

هناك شجرة برقوقٍ برية خلف الحديقة، على الجانب الآخر من السياج. عتيقة، كثيفة العقد، عُجَرُ غصونها السوداء محتبكة كما البراجم. والتر يقول إنّ علينا إسقاطها، لكني أشرت إليه، أنّي تقنياً، لا أملكها. وعلى أي حال، فأنا مولعةٌ بها. تزهر كل ربيع، دون سؤال، دون عناية؛ وفي آخر أيام الصيف تطرح ثمارها على أرض حديقتي، ثمرها أزرقٌ بيضاوي يغطيه حببٌ بلون الرماد. يا لها من شجرةٍ كريمة. هذا الصباح التقطت آخر ما طرحته الريح من ثمر – القلة التي تركتها لي السناجب والراكون ودبابير السترة الصفراء – والتهمتها بنهم، عصير لحمها المرضوض أدمى ذقني. لم أكن قد لاحظت ذلك إلا بعد أن مرّت عليّ ميرا مع كسرولة تونا أخرى. "يا إلهي"، شهقت ضاحكةً كما الطير. "مع من كنت تتعاركين؟"

أذكر عشاء عيد العمال ذاك بكل تفاصيله، لأنها المرة الوحيدة التي اجتمعنا فيها جميعاً في غرفةٍ واحدة.

أجواء الصخب والعربدة كانت لا تزال متواصلة في ساحة التخييم، لكن لم تكن بالأجواء التي تودين مشاهدتها عن قرب، فاستهلاك الخمر الرخيص خلسةً كان قد خرج للعلن بالغاً مداه. لورا وأنا كنا قد غادرنا الساحة مبكراً، كي نساعد ريناي في تحضيرات العشاء.

تلك التحضيرات أخذت أياماً. ما إن عرفت ريناي بالحفلة، أخرجت كتاب الطبخ الوحيد لديها، كتاب مدرسة بوسطن لفنون الطبخ، بقلم فاني ماريت فارمر. لم

يكن حقاً كتابها: بل يعود إلى جدتي آديليا، والذي كانت ترجع إليه – مع فريقها من الطهاة طبعاً – متى ما كانت تخطط موائد عشاءها ذات الاثنتي عشرة وجبة. ريناي ورثت الكتاب، مع أنها لم تستخدمه في طهيها اليومي – فكل الوصفات في رأسها، كما كانت تقول. لكن هذه المرة عليها أن تعود للكتاب من أجل الأمور الفاخرة.

قرأت الكتاب، أو على الأقل تصفحته، في تلك الأيام التي قضيتها أرسم صورةً رومانسية لجدتي. لقد تخلّيت آنذاك عن تلك الصورة. فقد كنت متيقنة أنها ستقمعني، مثلما قمعتني ريناي وقمعني أبي، مثلما كانت أمي ستقمعني لو أنها بقيت على قيد الحياة. فقد كان قمعي الهدف الأسمى لكل البالغين في حياتي، الهدف الذي تفانوا لأجله، ولا هدف آخر سواه.

غلاف كتاب الطبخ كان بسيطاً وجافاً، بلون الخردل، وخاليًا من أي زخارف، والمحتوى في داخله يماثله بساطةً وجفافاً. ففاني ماريت فارمر كانت امرأةً عملية إلى أقصى حد – تعليماتها مباشرة وحازمة. تتمتع بذاك الأسلوب المستفيض في التفسير الذي تشتهر به نيوانجلند. هي افترضت أنك لا تفقهين شيئاً، وعلى هذا الأساس بنت تعليماتها: "المشروب هو أي شراب. الماء هو المشروب الذي تؤمنه الطبيعة للإنسان. كل أنواع المشروبات تحتوي نسبةً عالية من الماء، ولذا عليك أن تعي فوائده: 1 – يطفئ الظمأ. 2– يمد الدورة الدموية بالماء. 3– ينظم حرارة الجسد. 4 – يساعد على التخلص من الماء. 5– يغذي. 6 – يحفز الجهاز العصبي وسائر الأعضاء. 7– لأغراض طبية،" وهكذا دواليك.

التذوق والاستمتاع لم يكونا متضمَّنيْن في قوائمها، بيد أنّها صدّرت في مقدمة الكتاب توطئةً مثيرة للاهتمام كتبها جون رسكن:

> فن الطبخ يعني اكتساب معارف ميديا وسيرسي وهيلين وملكة سبأ. تعني معرفة كل الأعشاب والثمار وزيوت البلسان والتوابل، كل ما هو شافٍ ومعافٍ وحلو المذاق في الحقول والأيكات وكل ما هو سائغٌ في اللحوم. يعني الدقة والإبداع وقوة الإرادة والاستعداد

والتجهيز بكامل المعدات. يعني تدبير الجدات وعلوم الكيميائي الشاب؛ تعني الاختبار وعدم الهدر؛ تعني أصالة البراعة الإنجليزية وفنون الضيافة العربية والفرنسية؛ أي باختصار، تعني أن تكنّ على الدوام سيدات مثاليات – أن تكنّ واهبات الخبز.

كان صعباً عليّ تخيل هيلين طروادة ترتدي مئزراً، كماها مشمران حتى مرفقيها ووجنتاها مرشوشتان بالدقيق؛ ومما أعرفه عن سيرسي وميديا، فالشيء الوحيد الذي توليا طهيه هي التعاويذ السحرية، تلك التي تسمم الورثة الشرعيين وتحول الرجال إلى خنازير. أما بالنسبة لملكة سبأ، فأشك أنها يوماً ما طهت أي شيء ولا حتى كلفت نفسها دهن شريحة خبز. تساءلت من أين للسيد رسكن تلك الأفكار الغريبة، عن السيدات وفنون الطبخ على حدٍّ سواء. ومع ذلك، فأظن أنّ الصورة التي رسمها قد راقت للجلِّ الأعظم من سيدات الطبقة الوسطى في عهد جدتي. كان عليهن أن يكنّ رصينات لدى تحملهن عبء الأعمال الشاقة، بعيدات المنال، ملكيّات حتى، والوصفات التي يحملنها في أيديهن هي أسلحتهن السرية والفتاكة، وصفاتٍ تملك القوة حتى على إثارة أعمق الرغبات الجنسية في قلوب رجالهن. وفوق كل ذلك، كن سيصبحن على الدوام سيدات مثاليات – واهبات الخبز. مانحات الهبة الرؤوفات. أيعقل أنَّ إحداهن أخذت كلامه هذا على محمل الجدّ؟ نعم، جدتي. فقط تأملي صورها مع بسمة "القط الذي التهم الكناري" مرسومةً على شفتيها، جفنيها المتدليَّين، وستعرفين بنفسك. من ظنّت نفسها، ملكة سبأ؟ دون شك.
لدى عودتنا من النزهة، هرعت ريناي نحو المطبخ تستعجل التحضيرات. لم تبد لي كثيراً مثل هيلين طروادة: رغم كل التحضيرات المسبقة التي نفذتها، فقد بدت مرتبكة ومهتاجة ومزاجها عكِرًا؛ أخذت تتعرق وشعرها ينحل وينسدل. أخبرتنا أن علينا الاكتفاء بما حصلنا عليه، إذ ما الذي توقعناه منها، فهي لا تجترح المعجزات وليس في وسعها تحويل أذن خنزيرة إلى حقيبةٍ حريرية. وفوق كل ذلك، مقعدٌ إضافي، في الساعة الأخيرة، مخصص لأليكس ذاك، أو أياً كان ما يسمي نفسه.

"أليكس الذكي" ولا بد، جليّ من مظهره.

"يدعو نفسه باسمه الأول،" ردت عليها لورا، "مثله مثل أي شخصٍ آخر".

"هو ليس مثل أي شخصٍ آخر،" قالت لها ريناي. "أمره مفضوح من اللمحة الأولى. لا بد وأنه هجينٌ ما – إما من الهنود الحمر أو الغجر. لكنه بالتأكيد لا ينتمي إلى ذات كيس الفول الذي انقسمنا منه".

التزمت لورا الصمت. لم تكن ميالة إلى الإحساس بوخز الضمير، لكن هذه المرة بدا عليها الندم لدعوتها أليكس توماس في غمرة اللحظة. لكن ليس بيدها الآن سحب دعوته، فكما أشارت، سحبها لدعوتها تصرفٌ وقح يتجاوز بكثير حدود اللباقة. المدعو مدعوّ، أياً كانت هويته.

أبي وافقها أيضاً، رغم أنه أبعد ما يكون عن الرضا على تصرفها: فلورا تهورت واغتصبت دوره كمضيف، عاجلاً كنا سنراها تدعو كل يتيم وصعلوك ومتشرد ميؤوس منه إلى مائدة عشاءه وكأنه الملك الصالح وينسيسلاس[89]. كان على أحدهم أن يلجم نزوات الإحسان التي تعتريها، فهو لا يدير ملجأً للفقراء والمساكين.

حاولت كالي فيتزسيمونز تهدئة الأمور وتطمين أبي: أليكس ليس بصعلوك ولا هو بحالةٍ ميؤوس منها. صحيح، الشاب لا يملك وظيفةً واضحة، لكن بدا عليه اعتماده على مصدر دخلٍ ما، أو على الأقل لم يعرف عنه لجوؤه إلى طرق ملتوية مع أحد. وما عساه يكون مصدر دخله؟ سألها أبي. فليلعنها الرب إن كانت تعرف: فأليكس رفض الإفصاح لها. ربما يسطو على البنوك، قال أبي بنبرته التهكمية. لا على الإطلاق، أجابته كالي؛ وعلى أي حال فأليكس معروفٌ لدى بعض أصدقائها. فأجابها أبي أن تلك المعلومة لا تطمئنه. كان قد بدأ حينها ينقلب على الفنانين. فثلةٌ منهم اعتنقوا الماركسية ودسوا أنوفهم في شؤون العمال، كما اتهموه بمص دماء الفلاحين.

"أليكس لا يعاني من أي خطب، هو شابٌ صالح". أخبرته كالي. "أتى هنا من باب

(89) الملك الصالح وينسيسلاس – Good King Wenceslas: إشارة إلى ترنيمة كريسماس عن ملكٍ صالح يخرج في عاصفةٍ ثلجية مجازفاً بحياته كي يمنح الطعام لفلاحٍ فقير.

مرافقتي في الرحلة على القطار. هو مجرد صديقٍ لا أكثر". فهي لم ترد لأبي أن يستنبط الفكرة الخطأ – أن أليكس توماس هو صديقها الحميم، أنه منافسٌ له عليها.

"وكيف لي أن أساعدك؟" سألت لورا ريناي ونحن في المطبخ.

"آخر ما أحتاج إليه هو ذبابةٌ أخرى تحوم فوقي. كل ما أسأله منك هو الابتعاد عن طريقي وألاّ توقعي أي غرضٍ على الأرض. آيريس ستساعدني. فعلى الأقل أصابعها ليست خرقاء". لطالما أعطت ريناي الانطباع أن طلبها المساعدة من إحدانا هي دلالة تفضيل: كانت لا تزال منزعجة من تصرف لورا، فقررت إقصاءها. لكن هذا النوع من العقاب ذهب هدراً مع لورا. فقد حملت قبعتها الصيفية، وذهبت خارجاً تتجول في أنحاء المرجة.

من المهام التي أوكلت إليّ مهمة تنسيق الزهور على المائدة، وكذلك توزيع الضيوف على المقاعد. بالنسبة للزهور، فقد قطفت بعض زهور الزينة عن حدود المرجة – الزهور الوحيدة المتوفرة في ذاك الوقت من العام. أما بالنسبة لتوزيع الضيوف فقد وضعت أليكس إلى جانبي، مع كالي على جانبه الآخر ولورا على المقعد الأبعد. فقد رأيت في هذا التوزيع السبيل الأفضل لعزله، أو على الأقل عزل لورا عنه.

لورا وأنا لم يكن لدينا أثواب تليق بمناسبة العشاء. لكن ظلَّ لدينا أثواب، تلك المخملية الزرقاء القاتمة التي ارتديناها منذ أعوام، مع حاشيتها البالية والشرائط السوداء المخاطة عليها كي تحجب البلى. فيما مضى كان لكل ثوب ياقةٌ من القماش الأبيض المخرم، الياقة ما تزال موجودة في ثوب لورا؛ لكني أزلت الياقة عن ثوبي، فغدت التقويرة غائرة. الثوبان كانا ضيّقين جداً، أو على الأقل ثوبي. لا بل حتى ثوب لورا. وفق الأعراف، لم تكن لورا بالغة بما فيه الكفاية كي تحضر حفل عشاءٍ مثل هذا، لكن كالي أشارت إلى أنّه من القسوة إرغامها على البقاء وحدها في غرفتها، خصوصاً وأنها وجهت الدعوة شخصياً إلى أحد ضيوف العشاء. وافق أبي كالي ولم يجد مانعاً في حضور لورا. ثم أردف قائلاً إنه على أي حال، وبما أنها نمت فجأةً بين ليلةٍ وضحاها، فقد غدت تبدو في عمري. كان صعباً عليّ أن أخمن إن كان أبي يعرف حقاً كم أبلغ من العمر. فهو لم يكن ملماً بأعياد ميلادنا.

وفي الوقت المحدد بدأ الضيوف بالتوافد والتجمع في حجرة الرسم لاحتساء الشري، والذي قدمته للضيوف قريبة ريناي العزباء والتي أُجبِرت مكرهةً على أداء المهمة. أنا ولورا لم يسمح لنا باحتساء الشري أو أي نبيذ على مائدة العشاء. لم يبد على لورا الامتعاض من الإقصاء، لكني امتعضت. ريناي أخذت صف أبي، وعلى أي حال فهي ممتنعة عن شرب الخمر. "الشفاه التي تلامس الخمر لن تلامس أبداً شفتاي،" كذا اعتادت أن تقول كلما أفرغت كؤوس النبيذ من الثفل. (كم كانت مخطئة، فبعد أقل من عام على حفل العشاء هذا، ستتزوج ريناي من رون هيكنز، شارب خمرٍ معروفٍ في أيامه. ميرا، إن كنت تقرئين هذا فخذي علماً بالتالي: في أيامه، قبل أن تنحت منه ريناي عموداً من عماد المجتمع، كان أبوك سكيراً أصيلاً).

قريبة ريناي أكبر من ريناي في العمر، وكانت رزيّة الملبس إلى حدٍّ موجع. كانت قد ارتدت فستاناً أسوداً ومئزراً أبيض، وهو المطلوب، لكن جوربيها كانا قطنيين بنيين ومتهدلين، ويداها تعوزهما النظافة الكاملة. فقد كانت تعمل في النهار لدى السمّان، ومن ضمن المهام الموكلة إليها تكييس البطاطس؛ ومن الصعب كشط سخامٍ كهذا عن يديك.

ريناي أعدَّت طبق الكنبيه[90] مع إضافات من شرائح الزيتون والبيض المسلوق والمخللات الصغيرة؛ كما أعدت معجنات كرات الجبن والتي لم تنضج بالشكل المطلوب. صفّتها على طبقٍ من أجود أطباق التقديم التي تعود إلى جدتي آديليا، الآنية الصّيني المطلية يدوياً والتي أحضرتها من ألمانيا، الموشاة بزهور الخشخاش الحمراء القاتمة مع أوراق وسوقٍ ذهبية. وغطّت طبق التقديم بدوْليّة[91]، وفي وسط الطبق وضعت وعاءً من المكسرات المملحة، ومن حوله صفّت مكونات الكنبيه وكأنها بتلات زهرة، بتلاتٌ مدججة بالخِلال. قريبة ريناي أقحمت الطبق على ضيوفنا بفظاظة، بل متوعدةً، وكأنها تسطو عليهم بقوة السلاح.

"تبدو خمجة". قال أبي بتلك النبرة التهكمية التي بت أعرف أنها نبرة غضبه المستتر،

---

(90) الكَنَبة – canapès: خبز مفروش بالجبن أو الكافيار أو غيره.

(91) الدوْليّة – doily: مُنَيْديل المائدة: وهو منديل صغير من قماش أو ورق يوضع تحت أطباق المائدة ورؤوسها.

"خيرٌ لكم أن تعفوا أنفسكم من تناولها وإلا ستندمون لاحقاً". كالي ضحكت، لكن وينيفريد غريفين بريور تناولت بكل لباقة كرة جبن وأدخلتها في جوف فمها كما تفعل النسوة اللواتي لا يردن تلطيخ أحمر شفاههن - الشفتان مدفعوتان للخارج كما القمع - ثم قالت إنه مثيرٌ للاهتمام. كانت القريبة قد نسيت مناديل الكوكتيل، مما ترك وينيفريد بأصابع مدهنة. بقيت أراقبها إذ اعتراني الفضول لأعرف إن كانت ستلعق أصابعها أم ستمسحها بثوبها، أو ربما ستمسحها على الأريكة، لكني غفلت عنها في اللحظة الخطأ، لذا فاتني ما فعلت. حدسي يقول إنها الأريكة.

وينيفريد لم تكن (كما اعتقدت) زوجة ريتشارد غريفين، بل شقيقته. (هل كانت متزوجة، أرملة، أم مطلقة؟ لم يتضح لي أمرها. فاسمها الأول كان يتبع لقب السيدة، وهو ما كان ليشير إلى خطبٍ ما قد وقع ولا بد للسيد بريور، زوجها السابق، هذا إن كان زوجها السابق حقاً. فنادراً ما يُذكَر، ولم يره أحدٌ قط. قيل إنه يملك ثروةً طائلة، ويقضي جلّ حياته في "السفر". فيما بعد، حين ما عدنا أنا ووينيفريد على وفاق، اعتدت اختلاق قصصٍ لنفسي عن السيد بريور ذاك: وينيفريد كانت قد حنطته واحتفظت به في علبةٍ كرتونية ملأى بكرات العث، أو أنها والسائق دفناه في جدار القبو كي ينغمسا معاً في اللهو والعربدة وحفلات الجنس الجماعي. حفلات الجنس الجماعي لم تكن بذاك الاحتمال البعيد عنها، رغم أن عليّ الاعتراف أن أياً كان ما اقترفته وينيفريد في ذاك الاتجاه فدوماً ما اقترفَته تحت نقابٍ من السرية. هي أحسنت تغطية آثارها - وأظنه ضرباً من الفضيلة أنها فعلت ذلك.)

ذاك المساء ارتدت وينيفريد ثوباً أسود، تفصيله بسيط لكن أنيق، وازدانت بعقدٍ ثلاثيّ الخيوط من اللؤلؤ. زوج القرط اللؤلؤي صمم بدقة على صورة عذق عنب، سوقه وأوراقه من الذهب. كالي فيتزسيمونز، في المقابل، كانت وبشكلٍ مغايرٍ وصريح، بالغة البساطة بالنسبة للمناسبة. كانت قد تخلت على مدار العامين السابقين عن أرديتها الفوشية والزعفرانية، عن تصاميم الهجرة البيضاء الجريئة، وحتى عن حامل سجائرها. باتت ترتدي في النهار بناطيل فضفاضة، مع كنزات صوفية مثلثة الياقة، وقمصانًا مشمرة الذراعين؛ قصّت شعرها، واختصرت اسمها إلى كال.

كانت قد تخلت عن نحت النصب التذكارية للجنود الموتى: فما عاد هناك من طلبٍ كبيرٍ عليها. ما عكفت عليه بعدها هو نحت النقوش البارزة التي تصور العمال والفلاحين، صيادي السمك في معاطفهم المشمّعة، الصيادين الهنود، والأمهات في مآزرهن يحملن صغارهن على خصورهن بينما يحجبن أعينهن عن الضوء لدى تحديقهن إلى الشمس. الرعاة الوحيدون مَن يطيقون تحمل تكلفة نقوش كهذه كانوا شركات التأمين والبنوك، من كانوا سيحرصون على وضع تلك النقوش خارج مبانيهم كي يظهروا للناس إدراكهم للوقت الصعب. كانت كالي قد عبّرت عن إحباطها من عملها لصالح رأسماليين حتى النخاع من أمثالهم، لكن المهم هي الرسالة التي تود إيصالها. على الأقل أي شخصٍ في الشارع يمر على البنوك كان سيحظى بفرصة رؤية تلك الأعمال بالمجان. كان فناً من أجل الناس، كذا وصفته.

ظنّت أن أبي سيتمكن من مساعدتها في استحصال مشاريع كهذه من البنوك. لكن أبي قال لها بنبرةٍ جافة إنه والبنوك ما عادا على وفاق كما اليد في القفاز.

ارتدت لهذا المساء ثوباً صوفياً بلون نافض الغبار – اللون يدعى توبيه كما أخبرتنا كالي؛ وهي كلمة فرنسية تعني حيوان الخلد. لو ارتدت الثوب أي امرأةٍ أخرى لبدا عليها كيساً مهلهلاً بحزام وكمّيْن، لكن على كالي فقد بدا الثوب قمةً في الأناقة، لا قمة الموضة أو الأناقة الدارجة – فالثوب كان رسالة ضمنية إلى أن الموضة والأناقة لا اعتبار لهما لديها – بل أقرب إلى غرضٍ يسهل التغافل عنه لكن في ذات الوقت صارخ، مثل أداة مطبخ عادية – قولي مثلاً معول ثلج – في تلك اللحظة قبل ارتكاب الجريمة. ثوبها كان قبضةً مرفوعة، لكن في وسط جمعٍ صامت.

أبي ارتدى سترة العشاء التي كانت في حاجة إلى كوي. ريتشارد غريفين ارتدى سترته، والتي لم تكن في حاجة إلى كوي. أليكس توماس ارتدى سترةً بنية وبنطالاً رمادياً، لباسٌ ثقيل لا يناسب الطقس؛ وارتدى كذلك ربطة عنقٍ زرقاء منقطة بدوائر حمراء. قميصه أبيض، ياقته واسعة عليه. بدت ملابسه كأنها مستعارة. حسنٌ، هو لم يتوقع أن يدعوه أحدٌ على حفل عشاء.

"يا له من بيتٍ ساحر،" قالت وينيفريد غريفين بريور بابتسامةٍ مصطنعة بينما كنا

نسير نحو غرفة الطعام. "البيت يبدو – يبدو محفوظاً! يا لها من نوافذ معشقة مذهلة "*fin de siècle!*[92] " وكأنكم تعيشون في متحف!"

"عتيق" هو ما كانت تعنيه حقاً بكلامها. شعرت بالإذلال أمامها: فأنا لم أر خطباً في تلك النوافذ، ظننتها عادية. لكني كنت مدركة أن حكم وينيفريد على البيت كان حكم العالم الخارجي – العالم الذي عاش تلك المرحلة لكنه الآن تجاوزها ومضى قدماً، العالم الذي تقتُ يائسةً إلى العيش فيه. والآن أدركت كم أنا غير ملائمة لعالمٍ كهذا – كم أنا ريفية، كم أنا فتاةٌ غرة.

"تلك شواهد متقنة على عصرٍ معين. كذلك فإن زجاج النوافذ من النوعية الفاخرة". رغم نبرة ريتشارد المتحذلقة والمتشامخة، فقد شعرت بالامتنان له: لم يخطر لي حينها أنه كان يجرد مقتنيات البيت. فحدسه أنبأه بتداعي نظام الحكم، وأننا معروضون للمزاد، اليوم أو غداً.

"أتعنين بقولك متحف أنَّ البيت مغبر؟" رد عليها أليكس توماس. "أو ربما ما عنيته حقاً أن البيت أثرٌ مهجور؟"

أبي قطب حاجبيه. أما وينيفريد، كي لا أظلمها، فقد احمرت وجنتاها.

" عليك ألا تتنمر على من هم أضعف منك،" قالت كالي بنبرة رضا.

"ولم لا؟" أجابها أليكس. "فهذا ديدن الجميع".

ريناي كانت قد انجرفت في إعداد قائمة الطعام، أو بالأحرى انجرفت ضمن ما يسعنا تحمل تكلفته. لكنها وعلى ما يبدو فقد حملت نفسها أكثر من طاقتها. حساء خضار بقطع الخبز، طبق السمك البروفانسي، وطبق الدجاج مع يخنة الخضار[93] – وها هي هلّت علينا، طبقاً يليه طبق، وكأنها وابلٌ متلاحق من علامات يوم القيامة، موجةٌ عارمة لا مفر لك منها. الحساء غلب عليه طعمٌ صفيحيّ، الدجاج غلب عليه طعم الطحين، كذلك لم يُطهَ جيداً إذ غدا اللحم قاسياً منكمشاً. لم يكن لائقاً رؤية عدة أشخاصٍ مجتمعين في غرفةٍ واحدة يمضغون الطعام في زخمٍ واستغراق.

---

(92) عبارة فرنسية يقصد بها أجواء نهاية القرن التاسع عشر.

(93) حساء خضار بقطع الخبز – Mock Bisque، طبق السمك البروفانسي – Perch à la Provençale، طبق الدجاج مع يخنة الخضار – Chicken à la Providence.

ما كان أكلاً – بل علكاً.

أخذت وينيفريد بريور تدفع بقطع الطعام على طبقها وكأنها تلعب الدومينوز. اعتراني غضبٌ شديد اتجاهها: لذا صممت على تناول كل شيءٍ على طبقي، حتى العظام. ما كنت لأخيب ريناي. ففي الأيام الخوالي ما كانت ريناي لتجد نفسها عالقةً في وضعٍ مشابه – تؤخذ على حين غرة، تفضح نفسها، وتفضحنا معها. في الأيام الخوالي كانوا سيستدعون الخبراء.

إلى جانبي، وجدت أليكس توماس يؤدي واجبه هو الآخر. أخذ ينشر قطع اللحم وكأنها مسألة حياةٍ أو موت؛ الدجاج يصيء تحت سكينه. (ومع ذلك لم تبادل ريناي تفانيه بالامتنان. فهي وبلا ريب أبقت عينيها على من تناول ماذا. ذاك المدعو أليكس شهيته نهمة. كذا قالت معلقةً عليه. لكنت ظننت أنهم جوعوه في قبوٍ ما).

مع الأخذ بالاعتبار ظروف العشاء، فقد جرت الأحاديث متقطعة ومشتتة. لكن الركود خيم على المائدة بعد طبق الجبنة – جبنة الشّدر كانت لينة ومتقافزة، القشدة قديمة والجبنة الزرقاء لاذعة – رحنا نتمهل بين لقمةٍ وأخرى، نقلّب النظر حولنا ونتفكر في حقيقة الموقف الذي نحن فيه.

حوّل أبي عينه الزرقاء صوب أليكس توماس: "حسنٌ أيها الشاب،" موجهاً له الحديث في نبرةٍ ظنَّها أبي ودودة، "ما الذي أتى بك إلى مدينتنا الجميلة؟" بدا وكأنه ربُّ أسرة في مسرحيةٍ فيكتورية رجعية. كنت قد أطرقت رأسي.

"أنا في زيارة إلى أصدقاءٍ لي، سيدي،" أجابه أليكس بكل أدب. (كنا سنسمع ريناي لاحقاً تعلق على مسألة تهذيبه. فالأيتام معروفون بتهذيبهم لأنهم تلقوا التهذيب قسراً وضرباً في دور الأيتام. اليتيم وحسب هو من يعطي انطباعاً بأنه واثقٌ من نفسه. بيد أن هذه الثقة بالنفس ما هي إلا قناع يحجبون به طبيعتهم الانتقامية – فمن وراء ستار التهذيب هذا يسخرون من الجميع. حسنٌ، بالطبع ستغدو روحهم انتقامية، إذا ما أخذنا في الاعتبار ما تعرضوا له من صدٍّ وخداع. معظم مثيري الفوضى والخاطفين هم من الأيتام).

"ابنتي أخبرتني أنك تعد نفسك لتكون كاهناً". قال أبي. (لا أنا ولا لورا قلنا أي شيءٍ

من هذا القبيل – لا بد وأنها ريناي، لربما كما كان متوقعاً منها، أو خبثاً منها، فقد أساءت فهمنا).

"كنت، سيدي،" أجابه أليكس. "لكني تخليت عن الأمر. فقد افترقت بنا الطرق".

"والآن؟" سأله أبي والذي اعتاد الحصول على إجابات قاطعة.

"الآن أنا فهلويّ". أجابه أليكس باسمًا في أمارةٍ على تقليله من أهمية الأمر.

فتمتم ريتشارد، "لا بد أن الوضع صعبٌ عليك،" فضحكت وينيفريد. أما أنا ففوجئت: فلم أكن قد لاحظت عليه أمارات الفهلوة.

"لا بد وأنه يعني بكلامه أنه مراسلٌ صحفي،" قالت وينيفريد، "جاسوسٌ وسط جمعنا!"

عاود أليكس الابتسام، ولم يقل شيئاً. أبي قطب حاجبيه. فمن وجهة نظره، المراسلون الصحفيون ما هم إلا حشرات طفيلية. لا يختلقون الأكاذيب وحسب، بل يفترسون مآسي الآخرين، ذباب الجثث كذا اعتاد وصفهم. لكنه استثنى إلوود موراي من وصفه، من باب معرفته بالعائلة. أسوأ ما كان يصف به إلوود هو "مروج الإشاعات الأحمق".

من بعد تلك المحادثة تحول النقاش إلى الحديث في الأمور العامة – السياسة، الاقتصاد – كما كان متوقعاً في تلك الأيام. من سيءٍ إلى أسوأ، كان رأي أبي؛ على وشك أن تفرج، كان رأي ريتشارد. من الصعب التكهن بما سيقع، قالت وينيفريد، لكنها بالتأكيد أملت أن يتمكنوا من إبقاء الغطاء على القدر.

"أي قدر؟" سألت لورا، والتي لم تكن قد قالت شيئاً حتى تلك اللحظة. بدا الأمر وكأن كرسياً قد نطق.

"احتمال الاضطراب الطبقي،" أجابها أبي في تلك النبرة الموبخة التي عنت ألا تنطق بكلمةٍ أخرى.

أليكس قال إنه يشك في ذلك. فقد عاد التو من المخيمات.

"المخيمات؟" سأله أبي متحيراً. "أي مخيمات؟"

"مخيمات الإغاثة، سيدي،" أجابه أليكس. "مخيمات بينيت للعمالة، للعاطلين

عن العمل. عشر ساعاتٍ في اليوم مقابل فتات الفتات. الشباب ليسوا راضين عن الوضع، أظنهم قد بدأوا يستاؤون منه".

"لا يحق للمتسولين الاختيار،" قال ريتشارد. "خيرٌ لهم من ركوب القطارات. يتناولون ثلاث وجبات مشبعة، وهو يفوق ما يحظى به عاملٌ يعيل عائلته، وقد قيل لي إن الطعام ليس بالسيء. لكنت ظننتهم سيشعرون بالامتنان، بيد أنّ تلك النوعية لا تمتن لشيءٍ أبداً".

"هم لا ينتمون إلى أي نوعية،" رد عليه أليكس.

"يا إلهي، لدينا قرنفلي[94]،" قال ريتشارد. أليكس أطرق رأسه ناظراً إلى طبقه.

"إن كان حقاً قرنفلياً، فأنا مثله،" قالت كالي. "لكني لا أظن أن عليك أن تكون قرنفلياً كي تدرك..".

"وما الذي كنت تفعله هناك؟" سأله أبي، مقاطعاً كالي. (مؤخراً كان أبي وكالي قد أخذا يتجادلان كثيراً. كالي تريد منه أن يعتنق الحركة النقابية. أما هو فكان يرد عليها أن ما تريده حقاً هو جمع اثنين باثنين والحصول على خمسة).

وإذ ذاك تُقبِل علينا البومب غلاسيه[95]. كنا نملك في تلك الأيام ثلاجةً كهربائية – اشتراها أبي قبيل الانهيار، وريناي، رغم شكوكها في صلاحية حجيرة التجميد، إلا أنها أحسنت استخدامها لهذا المساء. قالب البومب غلاسيه كان دائرياً مثل كرة القدم، خضراء ساطعة وصلبة مثل حجر الصوان، فسلبت انتباهنا لبرهةٍ من الزمن.

وبينما كانت القهوة تقدم، انطلق عرض الألعاب النارية في ساحة التخييم. فتوجهنا جميعاً نحو رصيف القارب كي نشاهد العرض. كان منظراً جميلاً، إذ لم يحوِ وحسب الألعاب النارية، بل وانعكاسها على صفحة نهر جوغز. نوافيرٌ من الأحمر والأصفر والأزرق تتشلشل نحو الفضاء، نجومٌ متفجرة، زهورُ الأقحوان،

(94) قرنفلي – pinko: وصفٌ مهين لمن يعتنق فكراً راديكالياً أو يتعاطف مع الفكر الشيوعي اليساري وإن لم يكن حزبياً، ودلالة اللون القرنفلي أنها أخف بدرجة عن اللون الأحمر، لون الحزب الشيوعي.

(95) بومب غلاسيه – bombe glacée : حلوى على هيئة كرة مجمدة محشوة بالكريما والهلام والبوظة ومغطاة بالسكر.

أشجار صفصافٍ مخلوقةٍ من ضياء.

"الصينيون هم من اخترعوا البارود،" قال أليكس، "بيد أنهم لم يستخدموه يوماً للأسلحة. فقط للألعاب النارية. لا أستطيع أن أزعم أني أستمتع حقاً برؤيتها. فهي تبدو لي مثل القصف الثقيل للمدفعية".

"هل أنت لا عنفيّ؟" سألته. بدا لي رجلاً من ذاك النوع. إن أجاب بنعم فكنت سأنوي معارضته، لأني أردت جذب اهتمامه. إذ كان يوجه معظم حديثه إلى لورا.

"لا، لست لا عنفيّ،" أجابني أليكس. "لكن والديّ كليهما قتلا في الحرب. أو أفترض أنهما قتلا في الحرب".

قلت في نفسي، ها قد حان الوقت للاستماع إلى قصة اليتيم. بعد كل تلك الجلبة التي أثارتها ريناي، أتمنى أن تكون قصةً جيدة.

"أنت لست بمتأكد؟" سألته لورا.

"لا،" أجابها أليكس. "قيل لي إنهم وجدوني جالساً على ركامٍ متفحم من الأنقاض، في بيتٍ محترق. كل من فيه مات. وعلى ما يبدو فقد كنت مختبئاً أسفل حوض مغسلة أو قدر طبخ – وعاء معدني من نوعٍ ما".

"وأين حدث ذلك؟ من عثر عليك؟" سألته لورا همساً.

"ليس معروفاً،" أجابها أليكس. "لا فكرة لديهم على الإطلاق. لم تكن فرنسا ولا ألمانيا. على الشرق منهما – إحدى تلك الدول الصغيرة، لا بد أنهم تناقلوني من يدٍ إلى يد؛ ثم بطريقةٍ ما تحصّل عليّ الصليب الأحمر".

"أتذكر ذلك؟" سألتُه.

"لا أذكره بوضوح. هناك تفاصيل عني ضاعت في الطريق – اسمي وتفاصيل من هذا القبيل – ثم انتهى بي المآل مع إرسالية تبشيرية، كانوا قد ارتأوا أنّ من الأفضل لي أن أستسلم للنسيان، إن وضعنا كل شيءٍ في الاعتبار. كانوا من الطائفة المشيخية، جماعةٌ منظمة. حلقوا رؤوسنا بسبب القمل. ما أزال أذكر ذاك الشعور باختفاء شعري فجأةً عن رأسي، كم كان منعشاً. تلك هي اللحظة التي تبدأ معها ذكرياتي".

مع أني كنت قد بدأت أستلطفه أكثر، إلا أنّي خجلة من الاعتراف بأني متشككة قليلاً

في صحة قصته. فهناك الكثير من الميلودراما – الكثير من الحظ، السيء والجيد منه. كنت ما أزال يافعة جداً آنذاك على الإيمان بالصدف. وإن كان يسعى لترك أثرٍ على لورا – هل سعى إلى ذلك؟ – فما كان ليختار قصةً أفضل من هذه.

" أراه رهيباً،" قلت له، "أن تجهل حقاً من تكون"

"كنت أظن ذلك،" أجابني أليكس. "لكني أدركت أن – من هو حقاً أنا – هو شخصٌ لا يحتاج حقاً لمعرفة من يكون، بالمفهوم المعتاد. فما الذي يعنيه حقاً، تاريخ عائلتك وما شابه؟ فغالباً ما يتعذر الناس بتلك المعلومة كي يبرروا غطرستهم، أو كي يعلقوا عليها عيوبهم. أنا حرٌ من إغواءٍ كهذا، هذا كل ما في الأمر. أنا حرٌّ من كل تلك الخيوط. لا شيء يقيدني". كان قد قال شيئاً آخر، لكن انفجاراً وقع في السماء فعجزت عن سماعه. لكن لورا سمعته، وأومأت بوقار.

(ما الذي قاله؟ عرفت لاحقاً. كان قد قال، "على الأقل لن يساورك حنينٌ إلى وطن".)

هندباء من ضياء تفجرت فوقنا. كلنا رفعنا رؤوسنا ننظر شاخصين نحوها. في أوقات كتلك، من الصعب ألا تنذهلي. من الصعب ألا تقفي هناك فاغرةً فاهك.

أكانت تلك هي البداية، في ذاك المساء – على رصيف القارب في آفيليون، على وقع الألعاب النارية تتفجرُ ضياءً ساطعاً في السماء؟ من الصعب الجزم. فالبدايات مفاجئة، بيد أنها كذلك غادرة. تدبُّ نحوك من جانبيك، تلزم الظلال، تتربص لك متوارية. وإذ بها، لاحقاً، تنبثق على حين غفلة.

التظليل اليدوي

سرب الإوز البري يحلق جنوباً، صريره كما المفاصل المكروبة؛ على امتداد ضفة النهر شموع أشجار السماق تتّقد لهيباً أحمر معتمًا. هو الأسبوع الأول من شهر أكتوبر. موسم انتشال الملابس الصوفية من كرات العثّ؛ موسم الضباب الليلي وقطرات الندى والدرجات الأمامية الزلقة، موسم ظهور آخر البزاقات العريانة؛ والانبثاق الأخير لزهور الخطم؛ موسم الملفوف المزركش بالهدب الزهرية والأرجوانية التي لم يكن لها من وجودٍ من قبل، بيد أنك اليوم في كل مكان تجدينها.

موسم زهور الأقحوان، زهرة الجنائز؛ البيضاء منها أعني. لا بد وأن الأموات باتوا يسأمون منها.

الصباح كان منعشاً وصافيًا. جمعت باقةً صغيرة من زهور الخطم الصفراء والزهرية من الحديقة الأمامية وحملتها معي إلى المقبرة، كي أضعها على ضريح العائلة لأجل الملاكين المستغرقتين في التأمل على المكعب الأبيض: قلت في نفسي سيكون خياراً مختلفاً لهما. وما إن وصلت هناك مارست طقسي الصغير المعتاد – الطواف حول النُّصب، قراءة الأسماء. أظنني أقرأها بصمت، لكن بين وقتٍ وآخر أسمع صوتي، أهمهم الأسماء وكأني يسوعيّ يتلو من كتاب الصلوات.

نطقك أسماء الموتى يعني استدعاءهم للحياة من جديد، كذا قال قدماء المصريين: ليس ما يتمناه المرء دوماً.

ما إن أتممت طوافي حول النصب، وجدت فتاةً – امرأةً يافعة – راكعةً أمام الضريح، أو أمام مكان لورا فيه. رأسها منحنٍ. كانت متشحة بالسواد: بنطال

جينز أسود، بلوزة سوداء وسترة سوداء، وحقيبة ظهرٍ سوداء صغيرة من النوع الذي يحملنه اليوم عوضاً عن حقائب اليد. شعرها كان أسوداً طويلاً – مثل شعر سابرينا، فإذ بقلبي يميل فجأةً: سابرينا قد عادت، من الهند أو من حيثما كانت. عادت دون إنذارٍ مسبق. قد غيرت رأيها عني. كانت تنوي مفاجأتي، وها أنا قد أفسدت عليها المفاجأة.

لكن حين أمعنت النظر فيها، رأيت أن هذه الفتاة ما هي إلا فتاةٌ غريبة: طالبةٌ مُجهدَة في صف التخرج من المرحلة الثانوية، ولا شك. في البدء ظننتها تصلي، لكن لا، كانت تضع زهرةً: زهرة قرنفلٍ بيضاء وحيدة، ساقها مغلّفةٌ بورق القصدير الفضي. ما إن نهضت، أدركت أنها كانت تبكي.

لورا تمس قلوب الناس. أما أنا فلا.

بعد "نزهة مصنع الأزرار"، نشر الخبر المعتاد عنها في صحيفة هيرالد-آند-بانر – أيُّ رضيعٍ فاز بمسابقة أجمل طفل، ومن نال لقب أفضل كلب. كذلك ما ذكره أبي في خطابه، مختصر إلى حدٍّ كبير: فإلوود موراي دائماً ما كان يصقل الأخبار بنظرته التفاؤلية، لذا بدا خطاب أبي وكأنه الحديث المعتاد عن سير الأعمال. أيضاً كانت هناك صورٌ منشورة – الكلب الفائز، على هيئة ممسحةٍ سوداء قاتمة؛ الرضيع الفائز، ممتلئٌ مثل المدبسة، يرتدي قلنسوةً مكشكشة؛ راقصو الإيقاع النقري حاملين مجسم ورقة نفْلٍ كرتونية ضخمة؛ أبي على المنصة. لم تكن صورةً جيدة له؛ فمه كان شبه مفتوح فبدا وكأنه يتثاءب.

إحدى الصور كانت لأليكس توماس، برفقتينا – أنا على يساره، ولورا على يمينه، مثل مسنديْ الكتب. كلتانا ننظر نحوه مبتسمتين؛ هو الآخر كان مبتسماً، لكنه رفع يده أمامه محاولاً درأ الكاميرا، كما يفعل المجرمون من رجال العصابات كي يحجبوا وجوههم عن المصابيح الومضية للكاميرات متى ما ألقي القبض عليهم. لكن لم يحجب سوى جزءٍ من وجهه. الاقتباس أسفل الصورة، "الآنسة تشايس والآنسة لورا تشايس تكرمان ضيافة أحد الزوار من خارج البلدة".

لم يتمكن إلوود موراي من اقتفاء أثرنا بعد تلك الظهيرة، كي يعرف منا اسم أليكس، ولدى اتصاله بالمنزل كانت ريناي من أجابت اتصاله، والتي أكدت عليه ضرورة ألا تتقاذف الألسنة أسماءنا برفقة اسم ذاك المجهول، وبذا رفضت الإفصاح له عن اسمه. ومع ذلك طبع الصورة، وريناي شعرت بالإهانة البالغة، على يدنا وعلى يد موراي على حدٍّ سواء. فقد رأت أن الصورة تشارف حد البذاءة وعدم الاحتشام، حتى وإن كانت سيقاننا محجوبة عن الأنظار. رأت أن نظرةً خبيثة وسخيفة ارتسمت على ملامحينا، وكأننا إوزتان محرومتان من الحب؛ فاهانا شاغران ولربما حتى كان سيسيل اللعاب منهما. جعلنا من أنفسنا أضحوكةً أمام الناس: كل من في البلدة سيضحك علينا من وراء ظهرنا، على تلك النظرة الحالمة اتجاه قاطع طريقٍ غرّ والذي بدا مثل الهنود الحمر – أو حتى أسوأ، مثل اليهود – ومع كميه مشمرين بتلك الطريقة، فلا بد وأنه شيوعي، مما زاد الطين بلة.

"إلوود موراي هذا يستحق الصفع،" قالت ريناي. "يظن نفسه ذكياً فاتناً". مزقت ريناي الصحيفة إرباً وحشرتها في صندوق الضرم حتى لا يراها أبي. لكن أبي ولا بد قد اطلع على الصحيفة في المصنع، وإن اطلع على الصورة فهو لم يعلق عليها.

لورا أجرت اتصالاً بإلوود موراي. لم توبخه على الصورة أو تكرر على مسامعه أياً من كلام ريناي عنه. بل أخبرته أنها تود أن تصبح مصورة فوتوغرافية، مثله. لا: هي ما كانت لتنطق بكذبةٍ كهذه. هذا ما استنبطه هو من كلامها. ما قالته إنها أرادت أن تتعلم إخراج نسخ إضافية عن الصور السالبة. تلك كانت الحقيقة حرفياً.

إلوود موراي شعر بالإطراء لنيله دلالة محاباة من عِلّيّة القوم في آفيليون – فرغم كونه عابثاً ومستهتراً فقد كان كذلك متملقاً جباناً – لذا وافق على السماح لها بمساعدته في الغرفة المظلمة ثلاث مراتٍ في الأسبوع. كان لها أن تراقبه يطبع الصور الشخصية التي يلتقطها كمهنةٍ إضافية، في حفلات الزفاف وتخرج الأطفال وما شابه. فرغم وجود رجلين في الغرفة الخلفية يتوليان مهمة الطباعة وإدارة الصحيفة، فإلوود دائماً ما تولى بنفسه تنفيذ كل ما عداها من مهام في تحضير العدد الأسبوعي، ومن ضمنها تحميض الصور.

اقترح عليها أن يعلمها كذلك تقنية التظليل اليدوي: فتلك كانت الموضة الجديدة. إذ أخذ الناس يحضرون إليه صورهم القديمة بالأبيض والأسود كي يبعث فيها الإشراق والحياة من جديد مع كل لونٍ يضيفه. تطبيق تلك التقنية تبدأ مع تبييض المناطق الأشد سواداً بفرشاة، ثم معالجة الصورة بالحبر السبيدجيّ لإضفاء هالةٍ معتمة من اللون الزهري. من بعد ذلك يبدأ بالتظليل. الألوان توفرت في أنابيب وقوارير صغيرة، ولا بد من استخدامها بفراشٍ بالغة الصغر، فأي إفراطٍ في التلوين سيصعب جداً إزالة لطخه عن الصورة. عليك أن تتحليّ بالذوق والقدرة على المزج، حتى لا تبدو الوجنتان دائرتين من أحمر الشفاه أو يكتسي الجلد اللون البيجي للثياب. على بصرك أن يكون ثاقباً وعلى يدك أن تكون راسخة. فالتظليل اليدوي فن، كذا قال لها إلوود – فنٌّ يفتخر بإتقانه، إن كان هذا حكمه على عمله. احتفظ بمجموعة مختارة من تلك الصور المظللة في إضبارة دوّارة في زاوية من زوايا واجهة مكتب الصحيفة كنوعٍ من الإعلان. "ابعث الحياة في ذكرياتك" كذا كان مكتوباً بخط اليد على اللافتة التي وضعها جانب الإضبارة. صور شبابٍ يافعين في الزي العسكري العتيق للحرب العظيمة كانت ضمن مواضيع الصور المتكررة؛ كذلك صور العرائس والعرسان. يليها صور التخرج، العشاء الرباني الأول، صورٌ عائلية جماعية وقورة، الأطفال الرضع في ملابس التعميد، القطط والكلاب. ودائماً ما كان هناك حيوانٌ أليفٌ غريب من مثل المقْو أو السلحفاة – والصور التي نادراً ما كانت تعرض، صورة رضيعٍ في الكفن، وجهه شمعي، محاط بالكشاكش والهدب. الألوان لم تظهر صافية، كما لو كانت على ورقةٍ بيضاء: بل اكتست بغشاوةٍ ضبابية، وكأنك ترين الصور من خلال قماشٍ جبني. الألوان لم تبعث الحياة في أشخاص الصور؛ بل بالأحرى أفرطت في إحيائها: وكأنهم مواطنون في شبه دولةٍ عجيبة، متوهجون لكن مصمتون، حيث الواقعية لا أهمية لها.

لورا أخبرتني أنها تعمل وجهاً لوجه مع إلوود موراي، وقالت ذات الشيء لريناي. توقعت اعتراضاً، اهتياجاً؛ توقعت من ريناي أن تقول أنَّ لورا قد حطت من قدر

نفسها، أو أن تصرفها هذا يفتقد للذوق بما يعرضها للشبهات. فمن له أن يخمن ما الذي سيقع في الغرفة المظلمة، مع فتاةٍ وشاب يختليان ببعضهما في العتمة؟ لكن الزاوية التي رأت منها ريناي الوضع أنَّ إلوود لم يدفع أجراً للورا كي تعمل لديه: بل بالأحرى كان يعلمها، وشتان ما بين الأمرين. تعليمها يضعه في مصاف الموظفين المأجورين. أما بالنسبة لوجود لورا في غرفةٍ مظلمة معه، فلا أحد سيرى أذىً في ذلك، فإلوود موراي مخنث حتى النخاع. أظن أن ريناي في سرها كانت قد ارتاحت لإظهار لورا اهتمامها في شيءٍ آخر عدا الرب.

وبالتأكيد لورا أظهرت اهتماماً، لكنها وعلى عادتها انجرفت في حماستها. إذ اختلست بعضاً من أدوات إلوود في التظليل اليدوي وأحضرتها معها إلى البيت. اكتشفت أمرها صدفةً: كنت في المكتبة أتصفح الكتب عشوائياً حين لاحظت الصور المؤطرة لجدي بنجامين، تلك التي تجمعه مع رؤساء الوزارة. وجه السير جون سبارو تومبسون كان قد اصطبغ باللون الخبازيّ الرقيق، السير ماكينزي بويل بالأخضر الصفراوي، السير تشارلز تابر بالبرتقالي الباهت. أما لحية جدي وشارباه فقد اصطبغا باللون القرمزي الفاتح.

في ذاك المساء وقعت عليها بالجرم المشهود. هناك على طاولة زينتها رأيت قوارير صغيرة وفراشٍ بالغة الصغر، ومعها الصورة الرسمية للورا ولي في ثوبينا المخمليين وحذائَيْ ماري-جين. لورا كانت قد أخرجت الصورة عن إطارها وأخذت تظللني باللون الأزرق الفاتح. "لورا،" قلت لها، "ما الذي تنوين فعله بحق السماء؟ لم ظللت تلك الصور؟ تلك المعلقة في المكتبة. أبي سيهتاج".

"كنت أتمرن وحسب،" أجابتني لورا، "وعلى كلٍّ، فهؤلاء الرجال كانوا في حاجة إلى شيءٍ من التجميل. أظنهم الآن يبدون في صورةٍ أفضل".

"بل يبدون غريبي الأطوار!" قلت لها، "أو يعتريهم مرضٌ خطير. فلا أحد وجهه أخضر! أو خبازي".

لورا كانت راسخة وما تأثرت. "هذه ألوان أرواحهم،" أجابتني. "الألوان التي وجب أن يكونوا عليها".

"ستقعين في ورطةٍ كبيرة! سيعرفون من وراء هذه الفعلة".

"لا أحد أبداً ينظر إليها،" قالت لي. "لا أحد يكترث".

"حسنٌ، لكن إياك أن تمسي بإصبع جدتنا آديليا أو عمَّيْنا الميتيْن! أبي سيجلدك بالسوط إن فعلت!"

"كنت سأظللهم باللون الذهبي، لأريه أنهم الآن في أعالي المجد،" قالت لورا. "لكن ليس لدي لونٌ ذهبي. أعني بالطبع عمَّيْ، لا جدتي. كنت سأظللها بلون الفولاذ الرمادي".

"إياك! فأبي لا يؤمن بأعالي المجد، وخيرٌ لك أن تعيدي تلك الأصباغ قبل أن يتهموك بالسرقة".

"لم أستخدم الكثير منها،" قالت لورا. "على أي حال، كنت قد أحضرت لإلوود مرطبان مربى. تلك مبادلة عادلة".

"أفترض أنك تعنين مربى ريناي. من القبو البارد – هل طلبت إذنها؟ أنت تعلمين أنها تحصي تلك الجرار". التقطتُ صورتنا عن الطاولة وسألتها، "ولم ظللتني بالأزرق؟" فأجابتني لورا، "لأنك نائمة".

لم تكن أدوات التظليل هي الشيء الوحيد الذي اختلسته. فحفظ الملفات كانت إحدى مهام لورا. إلوود كان حريصاً على إبقاء المكتب مرتباً جداً، وكذلك الحال مع غرفته المظلمة. اعتاد أن يحتفظ بالصور السالبة في مغلفات من الزُّجاجين[96]، مفهرسة وفق التواريخ التي التقطت فيها، لذا كان من السهل على لورا اقتفاء أثر الصورة السالبة لصورة النزهة. حمّضت نسختين منها بالأبيض والأسود، فعلت ذلك في اليوم الذي غادر فيه إلوود المكتب وحظيت بالمكان كله لنفسها. لم تكن قد أعلمت أحداً بذلك، ولا حتى أنا – إلا لاحقاً. بعد أن حمضت النسختين، دست الصورة السالبة في حقيبة يدها وحملتها معها إلى البيت. لم تعتبر ما فعلته سرقةً: فإلوود هو من سرق الصورة في المقام الأول حين لم يطلب الإذن منا، كل ما فعلته

(96) الزُّجاجين – glassine: ورقٌ مقاومٌ لنفاذ الهواء والدهن.

أنها استعادت منه ما لم يكن ملكه من الأساس.

وبعد أن نفذت ما كانت تصبو إليه، توقفت لورا عن الذهاب إلى مكتب إلوود موراي. لم تمنحه أي سبب ولا سابق إنذار. شعرتُ بأن تصرفها جاء أخرقاً، وبالفعل كان كذلك، لأن إلوود شعر أنها عاملَته بازدراء. حاول أن يستقصي من ريناي إن كانت لورا مريضة، لكن كل ما أخبرته به ريناي أنّ لورا ولا بد قد غيرت رأيها بشأن التصوير الفوتوغرافي. فتلك الفتاة تضج بالأفكار؛ دوماً ما تطنُّ نحلةٌ في قلنسوتها، ويبدو أن نحلةً جديدة أخذت تطنُّ الآن.

حديث ريناي أثار فضول إلوود. فبدأ يراقب لورا بما يفوق حدود تطفله الاعتيادي. ما كنت لأسميه تجسساً – فلم يكن الأمر وكأنه يتربص بها متوارياً بين الشجيرات. هو فقط انتبه لها أكثر. (لم يكن قد اكتشف اختلاسها الصورة السالبة بعد. إذ لم يخطر على باله وجود دافعٍ خفي وراء نية لورا العمل لديه. فلورا لها تلك النظرة الشاخصة، تلك العينان الخاليتان من أي تعبير، ومع تلك الجبهة النقية المصقولة، فقلةٌ من الناس قد يساورهم الشك يوماً في ازدواجية نواياها).

في البدء لم يجد إلوود ما يثير الانتباه. فقد رآها الناس تسير على امتداد الشارع الرئيسي، تشق طريقها إلى الكنيسة صباح الأحد، حيث تولت التعليم في مدرسة الأحد للأطفال في عمر الخمس سنوات. وفي ثلاثة صباحات في الأسبوع، تقدم المساعدة في مطبخ الحساء لدى الكنيسة الموحدة، والذي أقيم جانب محطة القطار. مهمة المطبخ كانت توزيع أطباق حساء الملفوف الماسخ على الرجال والصبية الجياع القذرين من جموع الجوّالين على القطارات: جهدٌ نبيل، لكن لم ينل رضا جميع أهل البلدة. فالبعض شعر بأن هؤلاء الجوّالين هم متآمرون تحريضيون ومثيرو فتن، أو أسوأ، شيوعيون؛ آخرون رأوا ألا توزَّع وجباتٌ مجانية، لأنهم أنفسهم وجب عليهم أن يعملوا مقابل تأمين كل لقمة. كانت الصيحات "اعثروا على عمل!" تعلو هناك. ولم يقتصر توجيه الإهانات على طرفٍ دون الآخر، رغم أن تلك الإهانات الموجهة من قبل الرجال الجوّالين كانت أخفض صوتاً. فبالطبع هم ازدروا لورا وكل مَن على شاكلتها من فاعلي الخير من مرتادي الكنيسة. وكانت

لهم أساليبهم في الكشف عن مشاعرهم هذه. مزحة، ازدراءٌ ساخر، تدافع بالمنكب، نظرة شذرٍ متجهمة. فلا وزر يماثل وزر الامتنان المفروض.

الشرطة المحلية وقفت لهم بالمرصاد كي تتأكد ألّا أحد من هؤلاء الرجال ستساوره فكرة حمقاء، كالبقاء مثلاً في بورت تيكونديروغا. كان يُدفَع بهم خارجاً، إلى أي مكانٍ آخر. لكن لم يسمح لهم باعتلاء مقصورات القطار عن رصيف المحطة، لأن شركة السكة الحديدية ما كانت لتقبل بأمرٍ كهذا. عمَّ الشجار والتعارك بالأيدي، – وكما وصف إلوود موراي الوضع في صحيفته – أطلقوا العنان لهراوات الشرطة. لذا فهؤلاء الرجال لم يكن لديهم من خيار سوى السير مجهدين على طول سكّة الحديد محاولين القفز على القطار بعيداً عن المحطة، لكن الأمر غدا أكثر صعوبة لأن القطار حينها في كامل سرعته. وقعت بعض الحوادث، ووفاةٌ واحدة – صبي لم يتجاوز السادسة عشر من العمر وقع تحت عجلات القطار فقسمته فعلياً إلى نصفين. (لورا حبست نفسها في غرفتها لثلاثة أيام بعد الحادث، وما كانت لتأكل شيئاً: إذ كانت قد قدمت طبق حساءٍ لذاك الصبي). إلوود موراي كتب افتتاحيةً ذكر فيها أن الحادث وإن كان مؤسفاً فاللوم لا يقع على شركة السكة الحديدية وبالتأكيد لا يقع على أهل البلدة: فإن قررت أن ترتكب حماقة وتجازف بحياتك، فما النهاية التي تتوقعها؟

لورا توسّلت العظام من ريناي، لأجل قدر الحساء في الكنيسة. وريناي ما انفكّت تقول لها أنها ليست مصنوعة من عظام؛ والعظام لا تنمو على الأشجار. هي بذاتها في أمس الحاجة إلى العظام – لأجل آفيليون، لأجلنا. قالت لها إنّ القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود، وأليس بوسع لورا أن ترى أنّ أبي في هذه الأوقات الصعبة بحاجة إلى كل قرش يضع يده عليه؟ لكن سرعان ما كانت ريناي تخضع لرجاء لورا بعد مقاومةٍ قصيرة المدى، وإذ بعظمة، عظمتان أو ثلاث تُمنَح لها. لكن لورا ما كانت لتمس العظام، أو حتى تنظر إليها – إذ كانت تصاب بالغثيان منها – لذا حرصت ريناي على تغليفها لها. "هاك. أولئك المتبطلون سيلتهموننا أحياء ولن يرتاح لهم بال حتى نطرد من هذا البيت وهذه البلدة". كذا كانت تقول لها متنهدة، ثم تردف،

"وضعت معها بصلة". ريناي كانت معترضة على عمل لورا في مطبخ الحساء – فقد كان أمراً قاسياً على فتاةٍ مثلها.

"من الخطأ أن تنعتيهم بالمتبطلين،" قالت لها لورا. "فكل الناس يصدونهم. وكل ما يريدونه هو العمل. كل ما يسعون إليه هو وظيفة".

"أحقاً ما تقولين!" كذا قالت ريناي في نبرةٍ غاضبة مشككة. ومتى ما اختلت بي، تقول: "صورة طبق الأصل عن أمها".

لم أذهب برفقة لورا إلى مطبخ الحساء. هي لم تطلب مني، وعلى أي حال ما كنت لأحظى بالوقت: فأبي قد قرر بينه وبين نفسه أن الوقت قد حان لأتعلم تفاصيل صناعة الأزرار باطناً وظاهراً، لأنه واجبي المفروض عليّ. *"Faute de mieux"*[97]، عليّ أن آخذ محل الابن في تشايس وأبناؤه، وإن كنت سأدير المصانع في يومٍ ما فعليّ أن أوسخ يدَيّ.

كنت مدركةً افتقاري المهارات المطلوبة لإدارة أي عمل، لكني كنت مرتاعةً من أبي فلم أعترض. أخذ أبي يصطحبني معه إلى المصنع صباح كل يوم، كي أرى (كما قال لي) كيف تجري الأمور في العالم الحقيقي. لو كنت صبياً لجعلني أبدأ العمل في خط الإنتاج، شارحاً لي في مقاربةٍ عسكرية أنّ لا رقيب في الجيش يتوقع من رجاله أن يؤدوا عملاً هو لم يؤده بنفسه. وبما أنّ هذا هو الحال، فقد أوكل إليّ مهمة الجرد وموازنة الدفاتر المحاسبية – الداخل من المواد الخام، الخارج من المنتجات.

كنت سيئة في عملي، عمداً بطريقةٍ أو بأخرى. متململة وكذلك موتورة. فلدى وصولي المصنع كل صباح، بدوتُ كأني راهبة دير في تنورتي وقميصي، ألحق خطى أبي كأني كلبة، عليّ أن أجتاز صفوف العمال. أشعر بالنساء يزدرينني وبأعين الرجال تحدق بي. أعلم بالنكات التي يلقونها عليّ من خلف ظهري – النكت الساخرة من وقفتي ومشيتي تلقيها عادة أفواه النساء، وتلك التي تسخر من جسمي يتفوه بها الرجال، إن إطلاق النكت كان أسلوبهم في الانتقام مني. ما كنت لألومهم، نوعاً

(97) عبارة فرنسية تقال في حال عدم وجود خيار أفضل.

ما – فلو كنت في محلهم لفعلت ذات الشيء – ومع ذلك آلمتني إهاناتهم.
انظُرن إليها كيف تتمختر وتسير، هل تظن نفسها الملكة بلقيس؟
ضاجعها بقوّة وستُركعها على ركبتيها!
أبي لم يلاحظ أياً من تلك المضايقات. أو قرر ألا ينتبه إليها وحسب.

بعد ظهيرة يومٍ ما قدم إلوود موراي إلى باب ريناي الخلفي منتفخ الصدر مزهو النفس كما الرسول الذي يحمل في جعبته أخباراً سيئة. كنت أساعد ريناي في التعليب: كنا على مشارف نهاية سبتمبر، ونعمل على آخر ثمار الطماطم المقطوفة من حديقة المطبخ. لطالما كانت ريناي مقتصدة، لكن في تلك الأيام أي هدرٍ يعدّ في نظرها خطيئة. لا بد وأنها قد أدركت كم السيولة شحيحة – السيولة المتعلقة بالدولارات الإضافية التي أمّنت بقاءها في وظيفتها.

هناك أمرٌ يجدر بنا معرفته، قال إلوود موراي، لمصلحتنا. أمعنت ريناي النظر فيه، هو ووضعية وقوفه المنتفخة، كي تقيم مدى خطورة الخبر الذي قد يحمله، لا بد أنها حكمت بأنه من الأهمية بما فيه الكفاية لتدعوه إلى الداخل. حتى أنها عرضت عليه كوباً من الشاي. ثم طلبت منه الانتظار وذهبت تحمل بالملقط آخر الجرار من قدر الماء المغلي وتحكم إغلاق الأغطية عليها. ثم جلست تستمع إليه.

وها هو الخبر الذي حمله إلينا. شوهدت الآنسة لورا تشايس في أرجاء البلدة – وفقاً لكلام إلوود – برفقة شابٍ يافع، الشاب نفسه الذي التقط لها صورة وهي برفقته في "نزهة مصنع الأزرار". في البداية رآهما الناس في مطبخ الحساء؛ من ثم، لاحقاً، جالسيْن على مقعد حديقة – أكثر من مقعد حديقة – يدخنان السجائر. أو بالأحرى الرجل هو من كان يدخن السجائر؛ أما لورا، فلن يقسم على أنها دخنت، قالها وهو يزم شفتيه. شوهدا جانب النصب الحربي في ساحة البلدية، وشوهدا متكئين على درابزون جسر جبيلي، يتأملان منحدر النهر أسفلهما – موضعٌ معروفٌ لتبادل الغزل. وهناك احتمال أن أحدهم لمحهما في ساحة التخييم، والتواجد هناك دلالة شبه مؤكدة على سلوكٍ مريب، أو تمهيد لسلوكٍ كهذا – غير أنه لن

يشهد على صحة ذاك الادعاء إذ لم يشهده بعينيه.

على كلٍّ، ظنّ أن من الأجدر به أن يحيطنا علماً بما يجري. فالشاب رجلٌ بالغ، ولورا أليست في الرابعة عشر وحسب؟ يا له من خزي، كيف له أن يستغل فتاةً مثلها بتلك الطريقة. اتكأ للخلف يهز رأسه في أسى، معتداً بنفسه كما المرموط، عيناه تفضحان متعته الخبيثة.

ريناي كانت مغتاظة. فهي كرهت أن يسبقها أحدهم في عالم النميمة. " بالتأكيد نشكرك على إعلامنا، " قالت له بنبرة تهذيب متكلفة. " فالوقاية خيرٌ من قنطار علاج". تلك كانت طريقتها في الدفاع عن شرف لورا: لم يحدث شيءٌ من الأساس، ليس بعد، ليس ما لا يمكن تداركه اليوم.

"ألم أقل لك،" قالت ريناي، بعد أن غادرنا إلوود موراي. "لا يحمل ذرّة حياء". بالطبع لم تكن تعني بكلامها إلوود موراي، بل أليكس توماس.

حين واجهناها، لم تنكر لورا شيئاً، عدا رؤيتهما في ساحة التخييم. مقاعد الحديقة وما شابه – نعم، هي جلست عليها، لكن ليس لوقتٍ طويل. ولا كان بوسعها أن تفهم علام الجلبة التي تثيرها ريناي. فأليكس توماس ليس بحبيبٍ رخيص (تعبير ريناي). ولا بسحليّةٍ متبطلة (تعبير ريناي الآخر). أنكرت مطلقاً تدخينها لسيجارة في حياتها. أما بالنسبة إلى "التعانق" – أيضاً تعبير ريناي – فقد رأت فيه أمراً مقرفاً. ما الذي ارتكبته كي توحي بشكوك بذيئة كهذه؟ كان من الواضح عليها أنها غير مدركة على الإطلاق.

أن تكوني لورا، في اعتقادي، يضارع كونك صماء للنغمات: الموسيقى تعزف، النغمات التي يسمعها الناس شيء، وما تسمعينه أنت شيءٌ مختلفٌ تماماً.

وفقاً للورا، في كل تلك المناسبات التي جمعتهما – ولم تجتمع به سوى ثلاث مرات – فقد كانا هي وأليكس مستغرقين في حديثٍ جدّي. عن ماذا؟ عن الرب. فأليكس توماس قد فقد إيمانه، ولورا كانت تحاول مساعدته في العثور على إيمانه من جديد. المهمة شاقة عليها لأنه متهكّمٌ إلى حدٍّ كبير، "متشكك" ما كانت بالأحرى تعنيه. ظن أن العصر الحديث سيكون عصر العالم الدنيوي لا عصر العالم الأخرويّ – عصر

الإنسان، لأجل الإنسانية – وقد سخر نفسه بالكامل في نصرته. ادعى أنه لا يملك روحاً، وأنه لا يحفل البتة بما سيقع له بعد موته. ومع ذلك ستظل منكبة على أداء مهمتها، مهما بدت صعبة.

سعلت في يدي. فلم أجرؤ على الضحك. فكثيراً ما رأيت لورا تستخدم هذا التعبير الفاضل على السيد إرسكن، فأدركت ما الذي تفعله الآن: كانت تخادعنا. ريناي، تقف متخصرة، ساقاها متباعدتان، فاهها فاغر، بدت وكأنها دجاجة في حظيرة.

"ما أود حقاً معرفته هو لم لا يزال هنا في هذه البلدة،" قالت ريناي مرتبكةً وكأنها بدأت تغير رأيها. "ظننته هنا في زيارة".

"آه، لديه عملٌ هنا،" قالت لورا ببرود. "لكن من حقه أن يتواجد في أي مكانٍ يريد. فهذه ليست دولة عبودية. عدا طبعاً عبودية الأجور". خمنت أن مهمة الهداية لم تأت من طرفٍ واحد وحسب: فأليكس توماس قد أخذ يستميل لورا إلى أفكاره. إن استمرت الأمور على هذا المنوال فسينتهي بنا المآل مع بلشفية صغيرة بين أيدينا.

"ألا ترين أنه يكبرك كثيراً؟" سألتُها.

رمقتني لورا بنظرةٍ ضارية – كبيرٌ على ماذا؟ – كانت تتحداني أن أقحم أنفي في الموضوع. "الروح لا عمر لها،" أجابتني.

فقالت لها ريناي، "ألسنة الناس لا ترحم": الكلمة الأخيرة التي تلجأ إليها في كل نقاش.

"ذاك شأنهم،" أجابتها لورا. نبرتها نبرة غضبٍ نبيل: فالآخرون هم الصليب الذي تحمله على ظهرها.

أنا وريناي كلتانا تهنا معها. فما الذي بيدنا فعله؟ لنا أن نخبر أبي، والذي قد يمنع لورا من رؤية أليكس توماس. لكنها لن تطيعه، ليس مع وجود روحٍ ضائعة في المحك. لكننا قررنا أن إعلام أبي لن يتسبب إلا بوقوع مشاكل أكثر مما يستحق الأمر، وعلى كلٍّ، فما الذي وقع فعلاً؟ لا شيء يستحق الذكر. (ريناي وأنا كنا قد غدونا صديقتين مؤتمنتين في هذا الشأن؛ نفكّر معاً).

مع مضي الأيام بدأ يخالجني الشعور أن لورا كانت تستغفلني، مع أني لم أعرف تماماً كيف. لم أظنها قد كذبت، لكنها في ذات الوقت لم تقل لنا الحقيقة كاملةً.

مرةً رأيتها برفقة أليكس توماس، مستغرقين في الحديث، يسيران على مهل متجاوزين النصب الحربي؛ ومرةً رأيتهما على جسر-جبيلي، ومرةً يتسكعان خارج مغدى-بيتي، غافلَيْن عن الرؤوس المستديرة اتجاههما، رأسي من ضمنها. كان تحدياً صارخاً.

"عليك أن تعيديها إلى رشدها،" قالت لي ريناي. لكن ما كنت لأستطيع أن أعيد لورا إلى رشدها. ويوماً بعد يوم وجدت نفسي عاجزةً حتى عن الحديث معها؛ أو ربما كان بوسعي الحديث معها، لكن هل كانت تستمع إليّ؟ بدا وكأني أحادث صفحة ورقٍ شفاف: الكلمات تغادر فمي وتختفي وراء وجهها وكأنها جدارٌ من ثلجٍ ذائب.

أيّما وقتٍ ما كنت أقضيه في مصنع الأزرار – فوقتي هناك بدا ضائعاً عبثاً يوماً بعد يوم، حتى بالنسبة إلى أبي – كنت أقضيه أهيم وحدي. اعتدت السير بخطىً سريعة على ضفة النهر، كي أبدو وكأن لي وجهة عليّ أن أقصدها، أو أقف على جسر جبيلي وكأني في انتظار أحدهم، أتأمل الماء الأسود في الأسفل وأسترجع قصص النساء اللواتي رمين بأنفسهن فيه. قفزوا من أجل الحب، لأنّ هذا هو تأثير الحب عليك. ينسلُّ إليك خلسةً، يقبض على قلبك قبل حتى أن تعي وجوده، وبعدها ما من سبيل لك لتفعلي أي شيء. ما إن تغرقي فيه – في الحب – سيجرفك التيار، بصرف النظر عن أي شيء. أو كذا أخبرتنا الكتب.

أو كنت سأمشي على امتداد الشارع الرئيسي، أتفحص المعروض على واجهات المتاجر – أزواج الجوارب والأحذية، القبعات والقفازات، مفكات البراغي ومفاتيح الربط. كنت سأتأمل ملصقات نجمات الأفلام في الصناديق الزجاجية خارج دار سينما بيجو وأقارنها بمظهري أنا، أو كيف كنت سأظهر لو أني أسدلت شعري على إحدى عينيّ وارتديت ملابس أنيقة. لم يكن مسموحاً لي بالدخول؛ لم أدخل دار سينما في حياتي إلا بعد زواجي، لأنّ ريناي أخبرتنا أن دخول سينما بيجو يرخّص من قدر الفتاة اليافعة، إن دخلت المكان وحدها بالطبع. فالرجال الذين يجوسون في الداخل هم رجالٌ منحطون. الواحد فيهم سيأخذ المقعد إلى جانبك ويلصق يده

فيك وكأنها ورقة ذباب[98]، وقبل أن تعي ما الذي يجري يكون قد نال مأربه منك.
في وصف ريناي لمواقف كهذه تكون الفتاة أو المرأة دائماً كيانًا جامدًا، لكن مع مماسك كثيرة على جسدها، وكأنها أجمة اللعب[99]. هكذا، وكأنما وقعت تحت تأثير السحر، ستتجرد من قدرتها على الصراخ أو الحركة. ستتحجّر، ستشلّ – من هول الصدمة، أو الغضب أو العار. ستغدو امرأةً لا حول لها ولا قوة.

(98) ورق الذباب – flypaper: ورق مصمغٌ أو مسمم لقتل الذباب.

(99) أجمة اللعب – jungle gym: هيكل من قضبان أفقية وعمودية يستعمله الأطفال في اللعب.

القبو البارد

قرسة بردٍ في الأجواء؛ الغيوم عالية تدفعها الرياح. حزمٌ من الذرة الهندية المجففة بدأت بالظهور على الأبواب الأمامية لصفوة الاختيار؛ المصابيح اليقطينية متأهبة يقظة لليلة العيد بتكشيراتها العريضة. بعد أسبوعٍ من الآن، الأطفال المولعون بالحلوى سيجتاحون الشوارع، متنكرين على هيئة راقصات الباليه وجماعات الزّومبي والكائنات الفضائية والهياكل العظمية وقارئات الفأل الغجريات ونجوم الروك الأموات، وكعادتي سأطفئ الأنوار في بيتي وأدّعي الغياب. لم أفعل ذلك كرهاً لهم – بل دفاعاً عن النفس – في حال اختفى صغيرٌ منهم، لا أريد لأحدٍ أن يتهمني بإغوائه للدخول والتهامه على العشاء.

أعلمتُ ميرا بذلك، فتجارتها تنشط في هذه المناسبة مع منتجاتها من الشموع البرتقالية المجحدرة وقطط البورسلان السوداء والخفافيش من قماش الساتان، ودمى الساحرات المحشوة، رؤوسها مصنوعة من التفاح المجفف. وما إن أعلمتها ضحكت. فقد ظنت أني ألقي مزحة.

كنت خائرة القوى نهار البارحة – دقات قلبي قرصاتٌ موجعة، بالكاد حملت نفسي عن الأريكة – لكن هذا الصباح، بعد تناولي حبة الدواء، شعرت بطاقةٍ غريبة تسري في جسدي. سرت بنشاط حتى متجر الدونات. وهناك تفحصت جدار الحمام، فقرأت أحدث نقشٍ كتب عليه: إن لم يكن بوسعك قول شيءٍ لطيف فلا تقولي شيئاً على الإطلاق، متبوعاً بالنقش: إن لم تكوني قادرةً على مص قضيبٍ لطيف فلا تمصي قضيباً على الإطلاق. من المريح معرفة أن حرية إبداء الرأي لا

تزال مشرعة على مصراعيها في هذا البلد.

ثم اشتريت قهوة ودونات محلاة بالشوكولا، وحملتهما معي إلى الخارج حيث جلست على أحد المقاعد التي وفرتها الإدارة جانب صندوق المهملات، موقعٌ يسيرٌ عليّ. جلست هناك، أتشمس كما السلحفاة تحت أشعة الشمس التي كانت لا تزال دافئة. رأيت الناس يمرون أمامي – امرأتان متخمتان مع عربة أطفال، امرأة أصغر سناً ترتدي سترة جلدية سوداء مع أزرار تثبيت فضيّة بدت وكأنها رؤوس مسامير غليظة، وزرٌّ من تلك الأزرار مثبتٌ على أنفها. ثلاثة رجال كهول غريبو أطوار يرتدون حاجبات الريح[100]. ساورني الشعور أنهم جميعاً يحدقون بي. أما أزال سيئة السمعة، أو ما أزال مصابة بجنون الارتياب؟ أو ربما كنت أحادث نفسي بصوتٍ عالٍ. من الصعب الجزم. هل يا ترى ينساب صوتي مني كما الهواء متى ما فقدت الانتباه؟ همسٌ واهن، حفيفُ كروم الشتاء، صفير نسيم الخريف يهبُّ على العشب الجاف.

قلت لنفسي، ومن يكترث لما يظنه الناس. إن أرادوا الاستماع إليّ، فليتفضلوا.

من يكترث، من يكترث. الرد اللاذع الخالد لأي مراهق. طبعاً أنا اكترثت. اكترثت لما قد يظنه الناس عني. لطالما اكترثت. فعلى خلاف لورا، أنا ما امتلكت يوماً شجاعة الثبات على المبدأ.

كلبٌ اقترب مني؛ فناولته نصف الدونات قائلةً له: "تفضل". هذا ما اعتادت ريناي قوله كلما أمسكت بنا نتنصت عليها.

على مدار شهر أكتوبر – أكتوبر من عام 1934 – سرت الأحاديث عما كان يجري في مصنع الأزرار. قيل إنّ مثيري الشغب يتسكعون في المكان: أخذوا يهيّجون العمال، خصوصاً المندفعين منهم من الشباب. سرت الأحاديث عن عقد مفاوضات جماعية، عن حقوق العمال، عن النقابات. النقابات كانت غير قانونية بالتأكيد، أو تراها المؤسسات المغلقة[101] هي غير القانونية؟ لا أحد بدا متيقناً. أيا كان ما

(100) حاجبة الريح: سترة قصيرة مقاومة للريح.

(101) المؤسسة المغلقة: مؤسسة لا تشغل إلا عمالًا نقابيين.

يجري فهؤلاء الناس قد بدت عليهم نواياهم الشيطانية.

من كان يقف وراء إثارة الاضطرابات هم مجرمون شرسون ومأجورون (وفقاً لكلام السيدة هيلكوت). لم يكونوا وحسب مثيري شغب من خارج البلدة، بل أجانب من خارج البلد، وهو ما أثار ذعراً أكبر في النفوس. رجالٌ سمر وبشوارب، وقعوا أسماءهم بالدم وأقسموا على الولاء حتى الموت، ولا عائق كان سيقف في طريقهم نحو إثارة الاضطراب والشغب، سيزرعون القنابل وينسلون خلسةً في الليل داخل البيوت ويحزّون أعناقنا وسط منامنا (وفقاً لكلام ريناي). فتلك كانت أساليبهم، أولئك البلشفيون القساة ومعهم منظمو النقابات، الاثنان وجهان لعملةٍ واحدة (وفقاً لكلام إلوود موراي). ما سعوا إليه هو حرية الحب، تدمير العائلة، والموت على يد فرق الإعدام بالرصاص لكل من يملك المال – أي مالٍ على الإطلاق – حتى ساعة يد أو خاتم زواج. فهذا ما وقع في روسيا. أو كذا قيل لنا.

كذلك قيل إن مصنع أبي يعاني من أزمة. الإشاعتان – مثيرو الشغب الأجانب، والأزمة – أُنكرتا علناً. بيد أنّ الكل صدقها.

كان أبي قد سرح بعضَ عمّاله في شهر سبتمبر – الشباب منهم، القادرين على إعالة أنفسهم وفقاً لنظرية أبي – وطلب من البقية القبول بالعمل لساعاتٍ أقل، شارحاً لهم أنَّ لا طلب كافٍ في السوق يبرر مواصلة العمل في المصانع بكافة طاقتها الاستيعابية. فالزبائن ما عادوا يشترون الأزرار، أو على الأقل نوعية الأزرار التي تنتجها مصانع تشايس وأبناؤه التي تعتمد على الإنتاج بكميات كبيرة كي تحقق هامش الربح. وما عاد الزبائن كذلك يشترون الثياب التحتية العملية الرخيصة: بل استعاضوا عن الشراء بالرتق والرفو، يتدبرون حالهم بما يملكون. بالطبع ليس كل الناس في البلد عاطلون عن العمل، لكن أولئك من ما زالوا محتفظين بوظائفهم لم يشعروا بالأمان الكافي. وبطبيعة الحال سيدخرون مالهم عوضاً عن صرفه. لا يمكننا لومهم، كنا سنفعل ذات الشيء لو أننا في محلهم.

الرياضيات دخلت الصورة، بسيقانها العديدة، بجذوعها ورؤوسها، بأعينها الصَّفْرِيَّة عديمة الشفقة. اثنان زائد اثنين يساوي أربعة، تلك رسالتها التي تحملها إلينا.

لكن ماذا إن لم تملك في يدٍ "اثنان" وفي الأخرى "اثنان"؟ إذن لن تخرج بأربعة. وما كنت أملكه حقاً في يديّ لا يساوي أربعة، عجزت عن إجبارها على الخروج بأربعة، عجزت عن تحويل الأرقام الحمراء في دفاتر الجرد إلى سوداء. انتابني قلقٌ مرعب، وكأنما الذنب كله ذنبي. كلما أغلقت عينيَّ في الليل أرى الأرقام على الصفحة أمامي، مسجاة في صفوفٍ على سطح مكتبي المربع من خشب السنديان في مصنع الأزرار – تلك الصفوف الحمراء بدت لي كأنها جموع يرقاتٍ ميكانيكية تمضغ طحناً ما تبقى لنا من مال. إذا كنت بالكاد تتدبر بيع ما لديك بأقل من سعر تكلفته – وهو الوضع الذي كانت تعاني منه مصانع تشايس وأبناؤه منذ فترة – فهكذا ستتصرف معك الأرقام. كان تصرفاً قاسٍ – دون حب، دون عدالة، دون رحمة – لكن ما الذي توقعناه منها؟ فالأرقام مجرّد أرقام. كائنات مسيّرة لا إرادة لها.

في غضون الأسبوع الأول من ديسمبر، أعلن أبي عن إغلاق مصانعه. أعلن لهم أنَّ الإغلاق مؤقت. كان يأمل أن يكون مؤقتا لفترةٍ وجيزة. تحدث لهم عن التراجع وخفض النفقات كي يعيد تنظيم العمل من جديد. طلب منهم تفهم موقفه والتزام الصبر، وقابل العمّال المجتمعون طلبَه بالصّمت الرّهيب. بعد تصريحه بالإعلان عاد إلى آفيليون وأغلق على نفسه في البريج وأغرق نفسه في الشراب. الأغراض أخذت تتحطم في الأعلى – أغراضٌ زجاجية وقنانٍ. لورا وأنا جلسنا في غرفتي، على سريري، نشد على أيدي بعضنا ونستمع إلى ثورة الغضب والفاجعة أعلانا، فوق رؤوسنا تماماً، كأنها عاصفة رعدية مهتاجة في قلب البيت. مضى وقتٌ طويل على آخر مرة دخل فيها أبي ثورة هياجٍ عظيمٍ كهذا.

لا بد أنه شعر بأنه خذل رجاله. أنه فشل. أن لا شيء فعله كان كافيًا لإنقاذ الوضع.

"سأصلي له،" قالت لورا.

فقلت لها، "أوَتظنين الرب يهتم؟ ففي الواقع لا أظنه يكترث البتة. هذا إن كان هناك من رب".

"لا يمكنك التيقن من هذا،" أجابتني لورا، "إلا بعد".

بعد ماذا؟ كنت أدري إلام تشير، فقد خضنا هذا النقاش من قبل. بعد أن نموت.

بعد أيامٍ من إعلان أبي، كشفت النقابة عن قوتها. كان قد سبق وتشكلت جماعة مؤسسة لها، والآن أرادوا من جميع العمال الانضمام إليها. عقدوا اجتماعاً خارج مصنع الأزرار المغلق ووجهوا فيه النداء إلى كل العمال للانضمام إلى النقابة، إذ، وفق ادعائهم، متى ما عاد أبي وفتح مصانعه سيخفض النفقات حتى العظم وسيتوقع منهم جميعاً القبول بأجور زهيدة لا تسمن ولا تغني من جوع. فمثله مثل بقية الأثرياء، في أوقات صعبة كهذه، سيكدس أمواله في البنك، ويجلس مكتوف اليدين إلى أن تنال الصعاب من الناس وتدفع بهم إلى الحضيض؛ حينها سينتهز الفرصة ويزداد ثراءً على ظهور العمال. هو وبيته الكبير وابنتاه المتأنقتان – هاتان الطفيليتان اللعوبتان اللتان تعيشان على عرق جموع العمال.

كنا جالسات إلى طاولة المطبخ حين أخبرتنا ريناي بأن من الواضح أن هؤلاء الذين يدعون أنفسهم بالمنظمين قد أتوا من خارج البلدة. (كنا قد توقفنا عن تناول وجباتنا في حجرة الطعام لأن أبي ما عاد يتناول وجباته هناك. فقد تمترس في البريج وما عاد يخرج منه؛ ريناي كانت ترفع إليه صينية الطعام). قالت إن هؤلاء الجلف لا يحملون ذرة شرف، إذ كيف يجرؤون على جرنا إلى موضوعٍ كهذا، بينما يعلم الجميع أن لا دخل لنا في الموضوع. أوصتنا أن ننتبه ونأخذ حذرنا، وهو ما يسهل قوله ويصعب فعله.

كان هناك بين العمال مَن لا يزال يحمل الولاء لأبي. فقد سمعنا أن اختلافاً وقع أثناء الاجتماع وارتفعت الأصوات، ثم وقع شجار. والأعصاب فلتت. رجلٌ تعرض إلى ضربةٍ في رأسه، وحملوه إلى المستشفى وتبين أنه يعاني من ارتجاجٍ في المخ. كان أحد المضربين – باتوا يدعون أنفسهم بالمضربين – لكن اللوم في الإصابة وقع على المضربين أنفسهم، إذ متى ما أثرت فوضى كهذه، من يخمّن إلى أين ستنتهي الأمور؟ لذا الأفضل ألا تثيري شيئاً. خيرٌ لك أن تبقي على فمك مغلقاً. خيرٌ لك بكثير.

كالي فيتزسيمونز قدمت لرؤية أبي. أخبرته أنها كانت قلقة جداً عليه، قلقة من وقوعه في الحضيض. الوقوع أخلاقياً ما كانت تعنيه. إذ كيف له أن يعامل عماله بهذا الأسلوب المتعجرف والمسترخص؟ فأخبرها أبي أن تواجه الواقع. نعتها "بامرأة

أيوب[102]". كذلك صرخ في وجهها قائلًا وهل أتيت هنا بتحريض من أحد رفاقك الفرنفليين؟ فأجابته أنها قدمت بمحض إرادتها، مشفوعةً بحبها له، لأنه حتى وإن كان رأسماليّ فلطالما كان رجلاً شريفاً، لكنها اكتشفت أنه تحول الآن إلى بلوتوقراطي متحجر القلب. فرد عليها أنه يستحيل أن يكون بلوتوقراطياً إن لم يملك ثروة. فردت عليه أن بإمكانه تأمين السيولة ببيع جزءٍ من أصوله. فأخبرها أن أصوله لا تساوي الكثير اليوم، لا تساوي أكثر من مؤخرتها، وحسب ما يرى فقد وهبت مؤخرتها مجاناً لأي رجلٍ يطلبها. فردت عليه أنه لم يرفض هبتها يوماً. فأجابها بأجل، لكن النفقات المخفية كانت طائلة – بدايةً بكلفة طعام بيته الذي التهمه أصحابها الفنانون، ثم دمه، والآن روحه. نعتته "بالبرجوازي الرجعي". وهو نعتها "بذبابة الجثث". كلاهما وصل نقطة الصراخ المتبادل. تلاها صوت صفق الأبواب، وانزلاق عجلات السيارة على حصى المدخل الأمامي، وهكذا انتهى كل شيءٍ بينهما. أكانت ريناي سعيدة أم آسفة؟ كانت آسفة. هي لم تعجب بكالي، لكنها اعتادت عليها، وكالي كانت جيدة فيما مضى اتجاه أبي. فمن سيحل محلها؟ عاهرةٌ أخرى، ويظل الشيطان الذي تعرفه خيرٌ من الآخر.

في الأسبوع الذي تلاه صدر بيان يدعو إلى إضرابٍ عام تضامناً مع عمال تشايس وأبنائه. وفقاً للمرسوم فكل المتاجر والمحال يجب أن تغلق. كل المكاتب الحكومية عليها أن تغلق أبوابها هي الأخرى. مكتب الهاتف، توصيل البريد. لا حليب، لا خبز، ولا ثلج. (من ذا الذي كان يصدر تلك المراسيم؟ فلا أحد صدق فعلاً أنها صادرة عن ذاك الرجل الذي تلاها. ذاك الرجل ادعى أنه محليّ، من أهل البلدة حتى، وقد ظنه الناس فعلاً من أهل البلدة في وقتٍ ما – كان يدعى مورتون، أو مورغان، اسمًا من هذا القبيل – لكن مع الوقت اتضح أنه لم يكن حقاً من سكان البلدة، ليس حقيقةً. إذ من المستحيل أن يكون من أهل البلدة ويتصرف بهذا الشكل. ومن

(102) في إشارة إلى قصة النبي أيوب وفقاً للإنجيل إذ قدمت له امرأته تحاول مواساته بعد أن أصابه الابتلاء العظيم والمرض السقيم قائلةً له: العن الله ومت.

يكون جده يا ترى؟)
لذا لم يكن هو الرجل وراء المراسيم. لم يكن العقل المدبر، لأنه، وفقاً لكلام ريناي، لا عقل له أصلاً.
قوى الظلام هي من كانت تقف وراء الأمر برمته.
لورا ساورها القلق على أليكس توماس. فقد قالت إنه متورطٌ بشكلٍ ما في الأمر. هي تعرف. محتومٌ عليه أن يتورط إذا ما أخذنا في الاعتبار فلسفته في الحياة.
في ساعةٍ مبكرة من عصر ذاك اليوم، قدم ريتشارد غريفين إلى آفيليون في سيارة، ترافقه سيارتان. كانت سيارات كبيرة، أنيقة وهياكلها منخفضة. هناك خمسة رجالٍ آخرين عداه، أربعة رجالٍ منهم ضخام الجثة، في معاطف طويلة وقبّعات فيدورا رمادية. ريتشارد غريفين وأحد رجاله دخلا إلى مكتب أبي، برفقته. وآخران خفرا مدخليْ البيت، الأمامي والخلفي، وآخران استقلا إحدى السيارات الباهظة وذهبا إلى مكانٍ ما. أخذنا أنا ولورا نرقب حركة قدوم ومغادرة السيارات من نافذة غرفتها. كنا قد أمرنا بالابتعاد عن الطريق، ما يعني أيضاً بعيداً عن السمع. ولدى سؤالنا ريناي عما كان يجري، بدت قلقة، وأخبرتنا أنها، مثلنا، لا تعرف شيئاً، لكنها ستبقي آذانها صاغية.
ريتشارد غريفين لم يبق لتناول العشاء. لدى مغادرته، سيارتان رحلتا. أما السيارة الثالثة فبقيت، ومعها ثلاثةٌ من الرجال الضخام. بهدوء ودون جلبة، ذهبوا واتخذوا من غرفة السائق أعلى المرآب سكناً لهم.
هم محققون، كذا قالت لنا ريناي. لا بد أنهم كذلك. فلهذا كانوا يرتدون المعاطف الطويلة على الدوام: لإخفاء الأسلحة المعلقة أسفل آباطهم. الأسلحة مسدسات. معلوماتها استقتها من قراءتها المجلات القصصية. أخبرتنا أنهم هنا كي يؤمنوا لنا الحماية، وإن حدث ورأينا أي شخصٍ ينسل إلى الحديقة ليلاً – إلى جانب هؤلاء الرجال الثلاثة – فعلينا أن نصرخ عالياً.
في اليوم التالي وقعت أحداث شغب، على امتداد الشوارع الرئيسية للبلدة. كثيرٌ من الرجال الذين شاركوا فيها لم يكن أحد قد رآهم من قبل، أو ربما رأوهم لكن

لم يتذكرهم أحد. فمن يتذكر مشرداً؟ لكن بعضهم لم يكونوا بمشردين، بل مثيري شغب أجانب أتوا إلى هنا متنكرين. كانوا جواسيس يتربصون بنا. إذ كيف قدموا هنا بهذه السرعة؟ على أسطح القطارات، هذا ما قيل لنا. فتلك كانت الطريقة التي يجوب بها رجالٌ مثلهم البلاد.

الشغب اندلع من تجمهرٍ خارج دار البلدية. في البدء ألقوا خطباً ذكروا فيها السفاحين وقطاع الطرق الذين استأجرتهم الشركات والمصانع لترويع العمال؛ ثم أتوا على ذكر أبي، كانوا قد صوروه بالورق المقوى مرتدياً قبعةً رسمية ويدخن سيجاراً – أمران لم يفعلهما قط في حياته – ثم حرقوا صورته على وقع الهتاف العالي. دميتان من الخرق البالية في فستانيْن مُهَدّبَين بكشاكش زهرية نقعوهما في الكيروسين وطرحوهما في ألهبة النار. أخبرتنا ريناي أن من المفترض بالدميتين أن تمثلانا – أنا ولورا. كانوا قد ألقوا المزحات حول تلك الدميتين "الملتهبتين". (نزهات لورا في أنحاء البلدة برفقة أليكس لم تنجُ من ألسنتهم). كان رون هيكنز من أخبر ريناي بما وقع كي تأخذ علماً به. أخبرها بأن على كلينا تجنب الذهاب إلى وسط البلدة لأن المشاعر مستثارة ولا أحد يعرف إلام ستؤول الأمور. أخبرها أن علينا التزام البقاء في آفيليون حيث سنكون في أمان. قال لها إنّ من الخزي والعار ما فعلوه بالدمى، وكم يتمنى أن يمسك بيديه خناق مَن دبر تلك الواقعة.

متاجر الشارع الرئيسي التي رفضت الإغلاق حطموا واجهاتها الزجاجية. ثم لحقتها حتى تلك التي أغلقت أبوابها. من بعدها اندلع السلب والنهب، وفلتت الأمور تماماً عن السيطرة. اقتحموا مكتب الصحيفة وحطموا المكاتب؛ إلوود موراي تعرض للضرب على أيديهم، وحطموا المكائن في محل الطباعة في الخلف. غرفته المظلمة نجت، لكن الكاميرا لم تنج. كان وقتاً حزيناً بالنسبة له، والذي سمعنا بكافة تفاصيله، لا مرة، بل مراتٍ عدة.

في تلك الليلة شبت النيران في مصنع أبي. ألسنة اللهب اندلعت من خارج نوافذ الطابق السفلي: ما كان بوسعي رؤيتها من غرفتي، لكني سمعت رنين عربة الإطفاء تنطلق مسرعةً نحو المصنع متأهبة للإنقاذ. كنت مرعوبةً ومذعورة بالتأكيد، لكن

عليّ أن أعترف أن شيئاً ما في هذه الصورة قد أثار حماسي. وبينما كنت أستمع إلى رنين عربة الإطفاء، وإلى صدى أصوات الصراخ آتيةً من بعيد من ذات الاتجاه، سمعت أحدهم يعتلي درجات السلم الخلفي. ظننتها ريناي، لكن لم تكن ريناي، بل لورا؛ كانت ترتدي معطفها.

"أين كنت؟" سألتها. "يفترض بنا أن نبقى هنا. فأبي يحمل من المتاعب ما يكفيه وليس في حاجة للقلق عليك بينما تجولين في الأرجاء".

"كنت في الدفيئة". أجابتني. "كنت أصلي. واحتجت إلى السكينة".

تمكنوا من إطفاء الحريق، لكن النيران ألحقت ضرراً بالغاً بالمبنى. هذا كان التقرير الأولي. من بعدها جاءت إلينا السيدة هيلكوت، أنفاسها منقطعة وتحمل معها الملابس المغسولة، فالحراس قد سمحوا لها بالعبور. حرقٌ عمد، هذا ما أخبرتنا به. فقد عثروا على صفائح الكيروسين. الحارس الليلي وجدوه ملقىً على الأرض ميتاً. مع أثر ضربةٍ على رأسه.

شوهد رجلان يفران من موقع الحريق. هل تعرّف أحدٌ عليهما؟ ليس بشكلٍ قاطع، لكن سرت الإشاعات أن أحدهما هو رفيق لورا الشاب. ريناي أخبرتها أنه ليس برفيق لورا، لورا لا رفيق لها، هو مجرد أحد معارفها. حسنٌ، أياً يكن، أجابتها السيدة هيلكوت، فمن المرجح أنه هو من أشعل النار في مصنع الأزرار وضرب المسكين آل ديفيدسون على رأسه وكأنما يقتل فأراً، لذا يجدر به أن يختفي عن أنظار هذه البلدة إن كان يعي مصلحته.

على مائدة العشاء أخبرتنا لورا أنها ليست جائعة. فلا شهية لها لتناول الطعام: ستعد صينية لنفسها كي تتناول عشاءها لاحقاً. راقبتها تحمل الصينية وتصعد درجات السلم الخلفي إلى حجرتها. أعدت ضعف حصتها المعتادة من أطباق الأرنب، الهريس، والبطاطس المسلوقة. كان من عادتها أن تتململ لدى تناولها الطعام – وكأنه شيءٌ ما عليها أن تلهي به يديها على مائدة العشاء بينما يستغرق الناس من حولها في أحاديثهم، أو مهمة روتينية عليها أن تقضيها بطريقةٍ أو بأخرى، مثل تلميع الفضيات. مثل صيانةٍ دورية مضجرة. تساءلت من أين لها هذا الشعور

المتفائل الذي اعتراها على حين غرة اتجاه الطعام.

في اليوم التالي، قدمت الكتيبة الملكية الكندية كي تعيد الأمن والنظام. تلك كانت الكتيبة التي خدم فيها أبي أيام الحرب. كان صعباً عليه تقبل وجودها، رؤية الجنود يواجهون أبناء جلدتهم – أبناء جلدته، أو من ظنهم من أبناء جلدته. لم يتطلب الأمر أي عبقريةٍ منه كي يدرك أنهم ما عادوا يروا محبته لهم، ومع ذلك كان صعباً عليه تقبل تلك الحقيقة. فهل يا ترى أحبوه يوماً، أم أحبوا ثروته؟ الشق الثاني على ما يبدو.

بعد أن أعادت الكتيبة الملكية الكندية الأمور إلى نصابها وكل شيء عاد تحت السيطرة، وصلت فرقة الخيالة. ثلاثةٌ منهم ظهروا على عتبة الباب الأمامي لبيتنا. طرقوا الباب بأدب، ثم وقفوا في الرواق، أحذيتهم المصقولة اللامعة تصِرُّ على أرضية الباركيه المشمعة، قبعاتهم البنية الجاسئة يحملونها في أيديهم. كانوا قد طلبوا الحديث مع لورا.

"آيريس، تعالي معي، أرجوك" همست لي لورا لدى استدعائهم لها. "لا أستطيع الجلوس معهم وحدي". بدت يافعة جداً، بيضاء جداً.

جلسنا على الأريكة في الحجرة الصباحية، جانب الغرامافون القديم. الخيالة جلسوا على الكراسي. لم يظهروا لي كما تصورت دوماً الخيالة، إذ بدوا متقدمين في السن، خصورهم ممتلئة بعض الشيء. أحدهم كان شاباً، لكن لم يكن في موقع قيادة. الأوسط هو من تولى الحديث. أخبرنا أنه يعتذر عن إزعاجنا في وقتٍ صعبٍ كهذا، لكن الأمر الذي بين يديه طارئ. ما أرادوا الحديث حوله هو أليكس توماس. فهل كانت لورا على دراية بأن هذا الرجل راديكالي ومخرب معروف، وأنه تواجد في مخيمات الإغاثة، يهيج المشاعر ويثير القلاقل؟

أجابته لورا أنه وفقاً لمعرفتها فقد قضى أليكس وقته في المخيمات يعلم الرجال القراءة.

تلك كانت زاوية لرؤية الأمور، أجابها الخيّال. وإن كان حقاً بريئاً، فمن الطبيعي ألا شيء لديه يخفيه، وسيسلم نفسه إن اقتضى الأمر، ألا تتفق لورا معه؟ ويا ترى أين

المكان الذي قد يكون مختبئاً فيه هذه الأيام؟

لورا أخبرته أنه ليس بوسعها إجابته.

كرر الخيال السؤال بطريقةٍ أخرى. الرجل تحت الشبهات: أفلا ترغب لورا بمساعدة الشرطة في تقفي أثر الرجل الذي قد يكون مسؤولاً عن حرق مصنع أبيها وربما تسبب كذلك في مقتل موظفٍ مخلص؟ طبعاً إن كان لنا أن نثق بأقوال شهود العيان.

قلتُ له إن شهود العيان ليسوا محل ثقة، لأن أياً كان من رأوه يفر من المكان فقد رأوه من الخلف فقط، عدا طبعاً أن الظلام كان يسود المكان.

"آنسة لورا؟" سألها الخيال متجاهلاً كلامي.

لورا أخبرته أنها حتى إن كانت تعرف، فلن تجيبه. أخبرته أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته. كذلك فقد كان مخالفاً لمبادئها المسيحية إلقاء رجلٍ في عرين الأسود. أخبرته أنها تأسف لوفاة الحارس الليلي، لكن لم يكن مقتله ذنب أليكس توماس، لأن أليكس توماس ما كان ليرتكب شيئاً كهذا أبداً. ولا تود الحديث أكثر في الموضوع.

كانت تمسك بذراعي، عند معصمي؛ شعرت برعشتها التي تسري في أوصالها تسري في أوصالي، كما اهتزازات سكة الحديد.

فذكر قائد الخيالة شيئاً عن عرقلة العدالة. فقاطعتُه على الفور مشيرةً إلى أن لورا في الخامسة عشر من عمرها ولا يمكن تحميلها المسؤولية وكأنها بالغة. قلت له إن كل ما أخبرتهم به هو حتماً موضع سرية، وإن خرجت أي كلمة قيلت هنا خارج جدران هذه الحجرة – إن وصلت الصحف مثلاً – فسيعرف أبي إلى من يوجه شكره.

الخيالة ابتسموا، انتصبوا واقفين وسألوا الإذن بمغادرة المكان، تعاملوا معنا باحتشامٍ واحترام وبنبرةٍ مطمئنة. ربما رأوا أنَّ من غير اللائق متابعة هذا الاتجاه في التحقيق. فحتى إن كان أبي على شفير الانهيار، كان لا يزال لديه معارف وأصدقاء.

ما إن غادروا البيت قلت للورا، "حسنٌ، أعلم أنك قد خبئته هنا في البيت، فالأجدر بك أن تقولي لي أين".

فأجابتني، " في القبو البارد". شفتها السفلى كانت ترتعش.

"القبو البارد! يا له من مكانٍ غبي! لم خبأته هناك؟"

"كي يحظى بما يكفي من طعام، في حال وقع أي طارئ". ما إن أنهت كلامها حتى انهمرت في البكاء. طوقتها بذراعيّ وتنشّقت هي على كتفي.

"طعامٌ كافٍ؟ طعامٌ كافٍ من المربى والجيلو والمخللات؟ حقاً لورا قد تفوقت على نفسك هذه المرة". ثم شرعنا كلتانا في الضحك، بعد أن ضحكنا ومسحت لورا الدموع عن عينيها، قلت لها، "علينا أن نخرجه من هناك. ماذا إن نزلت ريناي للقبو لأجل مرطبان مربى أو أي شيءٍ آخر وصادفته بالخطأ؟ ستصاب بأزمة قلبية".

عدنا وضحكنا. فقد كانت أعصابنا مشدودة. ثم قلت لها إن العلية هي المكان الأنسب، فلا أحد قط يصعد إليها. أخبرتها أني سأرتب الأمر. من الأجدر بها أن تصعد إلى غرفتها وتنال قسطاً من النوم، فقد كان الإرهاق العصبي واضحاً عليها، وكانت منهكة بالكامل. تنهدت تنهيدةً بسيطة، كما الطفل المتعب، ثم ذهبت ونفذت ما اقترحته عليها. كانت تعيش مشدودة الأعصاب طوال تلك الفترة، تحمل على عاتقها ثقل هذا السر العظيم وكأنها تحمل حقيبة ظهرٍ شريرة، الآن وقد سلمتني تلك الحقيبة كي أحملها عنها فقد بات النوم متاحاً لها.

أكنت أعتقد حينها أني فعلت ذلك فقط كي أساعد لورا، كي أعفيها من ذاك الحمل، كي أرعاها. كما هو ديدني معها دائماً؟

نعم، هذا ما اعتقدته آنذاك.

انتظرت ريناي تفرغ من تنظيف المطبخ والانتهاء من كل واجباتها. ثم نزلت للأسفل على السلم المؤدي للقبو، نحو البرودة المقشعرة، نحو العتمة، نحو رائحة أنوال العناكب الرطبة. اجتزت باب قبو الفحم، باب قبو النبيذ المقفل. باب القبو البارد كان مغلقاً بالمزلاج. طرقت الباب، رفعت المزلاج، ودخلت. سمعت صوت عدوٍ سريع. كان القبو معتماً بالطبع؛ الضوء الخافت فيه ينبعث من ضوء الإنارة في الرواق. تبينت صينية بقايا عشاء لورا فوق برميل التفاح – عظام الأرانب. بدا مثل

مذبح آلهةٍ بدائي.

لم أره في الوهلة الأولى، كان قابعاً خلف برميل التفاح. ثم تمكنت من رؤية ظله، ركبته، قدمه. قلت هامسةً، "لا بأس، هذا أنا". "آه، الشقيقة المتفانية" أجابني بنبرة صوته الطبيعية. "ششش!" مفتاح الإنارة في القبو كان سلسلةً معلقة بلمبة إضاءة. جذبتها. أخذ أليكس توماس يسترخي ويزحف من خلف البرميل. كان رابضاً، يرف بعينيه، مرتبكاً، وكأن أحدهم قد دخل عليه غفلةً وهو خالعٌ بنطاله.

"عليك أن تخجل من نفسك،" قلت له.

"إذن أظنك نزلت هنا كي تطرديني من البيت، أو كي تسلميني إلى السلطات المعنية". قال مبتسماً.

"لا تكن سخيفاً. بالتأكيد لا أود لأحدٍ أن يعثر عليك هنا. فأبي لن يطيق فضيحةً كهذه".

"ابنة الرأسمالي تُعين بولشفياً مجرماً على الفرار؟ الكشف عن عشٍّ غرامي بين جرار المربى؟ ذاك النوع من الفضائح؟"

عبست في وجهه. فلم يكن الأمر موضع مزاح.

"اطمئني. أنا ولورا لا ننوي شيئاً. هي طفلةٌ رائعة، لكنها قديسة تحت التمرين، وأنا لست بخاطف أطفال". كان قد نهض بالكامل حينها وأخذ ينفض عن نفسه الغبار.

"إذا لمَ تُخبّئك هنا؟"

"من باب المبدأ. طلبتُها ولبّتني. فبالنسبة لها أنا أقع ضمن الفئة المطلوبة".

"أي فئة؟"

" أحد إخوته الأصاغر[103] على ما أظن، إن أردنا أن نقتبس المسيح". وجدت في كلامه تهكماً تشاؤمياً. ثم أخبرني أن التقاءه بلورا جاء مصادفةً، حادثٌ أو شيء من هذا القبيل. كان قد صادفها في الدفيئة. وما الذي كان يفعله هناك؟ من الواضح كان مختبئاً. وكما أخبرني، فقد كان يأمل التحدث معي.

(103) في إشارة إلى الآية 32 – 46 في سفر متى: إذ تسأل جموع الشعوب على يمين المسيح كيف لهم أن آووه وكسوه وأطعموه، فيجيب: "الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم".

"معي؟ ولم بحق السماء تريد التحدث معي؟"

"ظننتك ستعرفين كيف تتصرفين في وضعٍ كهذا، فأنت من النوع العملي، أما شقيقتك فهي أقل .."."

"يبدو أن لورا قد دبرت أمرك على أفضل ما يرام،" قلت له مقاطعةً. فما كنت أطيق الاستماع إلى أي شخصٍ آخر ينتقد لورا – ينتقد غموضها، بساطتها، تصرفاتها الخرقاء. انتقاد لورا كان حقاً محفوظاً لي أنا وحسب.

سألته، "وكيف تمكنتما من تجاوز أولئك الرجال الذين يخفرون المداخل؟ مداخل البيت، الرجال في المعاطف الطويلة؟"

"حتى الرجال في المعاطف الطويلة عليهم أن يتبولوا في وقتٍ ما".

كنت قد صدمت بسوقيته – على عكس تهذيبه على مائدة حفل العشاء – لكن ربما كانت عَيّنة من سخرية الأيتام التي تنبأت بها ريناي. فقررت أن أتجاهلها.

قلت له، "إذن أظنك لم تشعل الحريق في المصنع". كنت أعني قولها بنبرةٍ متهكمة، بيد أنه لم يتلقَّ كلامي على هذا النحو.

" أنا لست غبياً إلى تلك الدرجة، ما كنت لأشعل حريقاً دون سبب".

"الكل يظن أنه أنت".

"حسنٌ، لم يكن أنا. لكن سيكون من الملائم لأناسٍ معينين أن يبدو الأمر هكذا".

"أي أناسٍ معينين؟ ولماذا؟" لم أكن أعمد إلى إغاظته بكلامي، فقد كنت حقاً محتارة.

"لكِ عقل، استخدميه". ولم يقل أي شيءٍ آخر.

العليّة

تناولت شمعةً من مخزون الشموع في المطبخ التي نحتفظ بها في حال انقطاع الكهرباء، وأنرتها، ثم قدت أليكس توماس خارج القبو عبر المطبخ وصعوداً على درجات السلم الخلفي، ثم السلم الأضيق المؤدي إلى العلية حيث أعددت له مكاناً خلف صناديق الثياب الثلاثة الفارغة. كانت هناك ألحفة قديمة في صندوقٍ كبير من خشب الأرز، فسحبت عدداً من تلك الألحفة وأعددت منامته.

قلت له، "لا أحد يصعد إلى هنا، وإن حدث وأتى أحدهم فاختبئ تحت الألحفة. لا تذرع المكان جيئةً وذهاباً، فقد يسمعون وقع أقدامك. ولا تشعل الإنارة". (كانت هناك لمبة وحيدة معلقة بسقف العلية ومتصلة بسلسلة، تماماً مثل الإنارة في القبو البارد). ثم أردفت قائلةً، "سنحضر لك شيئاً تتناوله في الصباح،" وما كانت لدي أي فكرة كيف سأفي بوعدي له.

نزلتُ، ثم عدت وصعدت إليه حاملةً معي النونية، والتي وضعتها على الأرض دون أن أنبس بكلمة. فلطالما كان تفصيلاً يقلقني في قصص ريناي عن الاختطاف – وماذا عن قضاء الحاجة؟ فأن يحبسوك في ديماس الكنيسة أمر، وأن تحطّي من قدرك وترفعي تنورتك لقضاء حاجتك في زاوية من الزوايا لهو أمرٌ آخر.

أومأ لي أليكس توماس قائلاً، "فتاةٌ طيبة. وصديقةٌ صدوقة. كنت أدري أنك عملية".

في الصباح عقدنا أنا ولورا اجتماعاً هامساً في غرفة نومها. تناقشنا تدبّر الطعام والشراب، الحاجة إلى التزام اليقظة على الدوام، وتفريغ النونية. إحدانا – متظاهرةً

بالقراءة – كانت ستقف خفيرةً في غرفتي، بينما باب الغرفة مفتوح: فمن هناك يتسنى لنا رؤية باب العلية. والأخرى ستتولى مهمة الحمل والنقل. اتفقنا على تولي تلك المهام بالتناوب. العائق الكبير كان ريناي، والتي من المؤكد ستشمّ خبراً عمّا يحصل إنْ تصرفنا على نحوٍ مريب.

لم نكن قد رسمنا أي خطةٍ بعد لِمَا سنفعله في حال اكتشف أمرنا. لم نكن قد أعددنا أي خطة من هذا القبيل. خطتنا الوحيدة كانت الارتجال.

وجبة فطور أليكس توماس الأولى كانت قشور شرائح خبزنا المحمص. كقاعدة، ما كنا لنتناول تلك القشور إلا بعد أن تنقّ علينا ريناي – كانت لا تزال ريناي على عادتها في قولها تذكروا أطفال الأرمن الجياع – لكن هذه المرة، حين نظرت ريناي إلى أطباقنا كانت القشور قد اختفت. في الواقع كانت في جيب تنورة لورا النيلية.

همست للورا بينما كنا نهرع صاعدتين درجات السلم، " أليكس هو الأرمني الجائع". لكن لورا لم تر الفكاهة فيما قلت. بل رأت فيه الحقيقة.

الصباحات والمساءات كانت مواعيد زيارتنا له. كنّا نُغير على الكرار وننهب بقايا الطعام. هرَّبنا إليه قطع الجزر النيء، لحاء اللحم المقدد، أنصاف بيضٍ مسلوق، قطع خبزٍ مطوية في قلبها زبدة ومربى. مرةً، في ضربةٍ جريئة موفقة – هرَّبنا إليه ساق دجاج من طبق الفركاس[104]. كذلك هرَّبنا إليه كؤوس الماء، أكواب الحليب، وقهوة باردة. حملنا صواني الأطباق الفارغة، كدسناها أسفل سريرينا إلى أن يخلو الجو لنا، ثم كنا نغسلها في مغسلة الحمام قبل إعادتها إلى خزانة المطبخ. (في الواقع أنا من تولى هذه المهمة: فلورا خرقاء). لم نستخدم الآنية الصيني الجيدة. فماذا إن كسرنا إحداها؟ حتى الصحون اليومية قد يُلحظ اختفاءَها: فريناي أبقت عينيها عليها. لذا كنا حذرتين جداً في استخدامنا لأدوات المائدة.

هل شكت ريناي في تصرفاتنا؟ أظنها فعلت. فهي بعادتها تلحظ أي تغيير علينا وتعرف إن كنا ننوي شيئاً. لكنها كذلك تعرف متى ما كان التجاهل السياسة الصحيحة، ألّا تعرف بالضبط ما يجري من وراء ظهرها. أتوقعها كانت تهيئ نفسها

---

(104) الفركاس: لحم يفرم ثم يقلى أو يطهى بالغلي.

للإنكار متى ما فضح أمرنا. فقد قالت لنا مرةً ألا نسرق الزبيب؛ ومن أين لنا تلك الشهية كما الحفرة لا قرار لها، ومنذ متى نلتهم الطعام وكأننا مفجوعتان؟ وكم كانت منزعجة بعد اختفاء ربع فطيرة اليقطين التي أعدّتها. لورا أخبرتها أنها أكلتها؛ فقد باغتتها نوبة جوعٍ مفاجئة.

"أكلتها بقشورها؟" سألتها ريناي بحدة. لورا لم تأكل قط قشور فطائر ريناي. لا أحد قط أكلها، ولا حتى أليكس توماس.

"أطعمتها الطيور،" أجابتها لورا. تلك كانت الحقيقة: ففي النهاية هذا ما فعلته بها.

في البداية كان أليكس توماس ممتناً لجهودنا. أخبرنا أننا صديقتاه الصدوقتان، وأن لولانا لانتهى أمره. ثم طلب منا سجائر - كان تواقاً حتى الموت لتدخين سيجارة. أحضرنا إليه بضع سجائر من العلبة الفضية أعلى البيانو، لكننا حذّرناه بضرورة أن يلتزم تدخين سيجارة واحدة في اليوم - فقد ينتبه أحدهم إلى الدخان. لكنه تجاهل هذا القيد المفروض عليه.

ثم أخبرنا أن أسوأ ما في العلية عجزه عن تنظيف نفسه، وأنه غدا يشعر وكأن فمه مصرف مجاري. فسرقنا له فرشاة الأسنان التي تستخدمها ريناي في تلميع الفضيات، وكشطناها له على قدر ما نستطيع؛ قال إنها أفضل من لا شيء. مرّة أحضرنا له حوض غسيل ومنشفة، وإبريق ماءٍ دافئ. بعدها انتظر مغادرة كل من في الأسفل المكان ورمى بالماء القذر خارج نافذة العلية. كانت السماء تمطر، لذا الأرض كانت أصلاً رطبة وصوت الرشاش لم يُلفت انتباه أحد. بعدها بفترة، حين بدت الأجواء آمنة، سمحنا له بالنزول من العلية وأغلقنا عليه في الحمام المشترك بيننا، كي يحظى باستحمامٍ لائق. (كنا قد أخبرنا ريناي أننا سنساعدها في تولّي تنظيف حمامنا بأنفسنا، فجاء تعليقها: لا يزال الرب يجترح المعجزات.)

وبينما أليكس توماس يستحم في الداخل كانت لورا جالسة في غرفتها، وأنا جالسة في غرفتي، كل واحدةٍ منا تحرس باباً من بابَيْ الحمام. حاولت ألاّ أتخيل ما الذي يجري في الداخل، صورته عارياً من كل ملابسه كانت موجعة لي، بطريقةٍ لم أحتمل التفكّر فيها.

كان أليكس توماس الموضوع الرئيسي في افتتاحيات الصحف، لا صحيفتنا المحلية وحسب. صوّروه مجرماً ومشعل حرائق، من النوع الأسوأ – النوع المتعصب الذي يقتل بدمٍ بارد. جاء إلى بورت تيكونديروغا بهدف التسلل إلى خطوط العمال، كي ينثر بذور الشقاق، وهو ما نجح فيه بدليل الإضراب العام وأحداث الشغب التي رافقته. كان مثالاً على شرور التعليم الجامعي – كان فتىً ذكياً، بيد أنّ ذكاءه انقلب عليه، فطنته تحولت أداةً للشر على يد رفاق السوء والكتب الأسوأ. والده بالتبني، قسٌّ مشيخي، اقتبسوا عنه تصريحه الذي قال فيه إنه يصلي كل ليلة لأجل روح أليكس، لكن هذا الجيل جيل أفاعٍ خبيثة. لم يتركوا أمر إنقاذه لحياة أليكس طفلاً من أهوال الحرب دون أن يتطرقوا إليه: أليكس كان جمرةً انتشلها من نارٍ متقدة، لكن دائماً هناك مخاطرة تأخذها لدى إيوائك الغريب في بيتك. المعنى الضمني لكلامه أنَّ جمراتٍ كأليكس خيرٌ تركها تحترق في نارها.

وفوق كل هذا، كانت الشرطة قد طبعت ملصق (مطلوب القبض عليه) لأليكس، وعلقت نسخاً منه في مكتب البريد وغيره من الأماكن العامة. لحسن الحظ لم تكن الصورة واضحة: فأليكس كان قد رفع يده التي حجبت نصف وجهه. تلك الصورة من الصحيفة، التي التقطها إلوود موراي لثلاثتنا أثناء نزهة مصنع الأزرار. بطبيعة الحال أنا ولورا كنا مقصوصتين من الجانبين. أبلغ إلوود موراي السلطات أنه كان بيده طباعة صورةٍ أوضح لو كانت الصورة السالبة لديه، لكن لدى بحثه عنها اكتشف أنها مفقودة. لم يكن بالأمر المفاجئ: فعدة أغراضٍ فقدت أو تدمرت على يد المشاركين في أحداث الشغب.

كنا قد أحضرنا لأليكس قصاصات الصحف، وأحد ملصقات "مطلوب القبض عليه" – كانت لورا قد انتزعته خلسةً عن عمود هاتف. أخذ يقرأ عن نفسه مرهوباً حزيناً، قائلاً، "يريدون رأسي على طبق".

بعد عدة أيام سألنا إن كان باستطاعتنا إحضار عدة أوراق له، أوراق كتابة. كنا لا نزال نملك مخزوناً من دفاتر التمارين المدرسية الرخيصة من أيام السيد إرسكن: فأحضرنا له عدداً من تلك الدفاتر، ومعها قلم رصاص.

"ما الذي يكتبه يا ترى؟" سألتني لورا. عجزنا عن التخمين. أكانت مذكرات سجين، رسالة تبرئة؟ ربما رسالة إلى شخصٍ ما قد ينقذه. لكنه لم يطلب منا إرسال أي شيءٍ بالبريد، لذا لا يعقل أن تكون رسالة.

مهمة تولينا رعاية أليكس توماس كانت قد قرَّبت بيننا بشكلٍ لم نعهده منذ زمنٍ طويل. كان ذنبنا السري، وكذلك عملنا الصالح - كنا أخيراً قد وجدنا عملاً صالحاً ننفذه معاً. كنا سامريَّتين صغيرتين صالحتين، ننتشل رجلاً من غياهب جب اللصوص والمجرمين. كنا ماري ومارثا[105]، نخدم المسيح - حسنٌ لم يكن بالمسيح، حتى لورا لم تبالغ إلى هذه الدرجة، لكن كان من الواضح الدور الذي أوكلته لورا لكلٍّ منا. أنا من كانت مارثا، المنشغلة بتدبير أمور البيت وراء الكواليس: بينما كانت هي ماري، تبسط ورعها التقيّ عند قدميّ أليكس. (أيهما يفضل الرجل؟ اللحم المقدد والبيض، أم الألوهية؟ أحياناً أحدهما، وأحياناً الآخر، يعتمد على مدى جوعه).

لورا كانت تحمل فتات الطعام صعوداً على درجات السلم نحو العلية وكأنها تحمل قرباناً للهيكل. وكانت تحمل النونية نزولاً على درجات السلم وكأنها تحمل مدخراً[106]، أو شمعةً نفيسة نورها على وشك أن ينطفئ.

في الليل، بعد إطعامنا وسقينا أليكس توماس، كنا نزوي ونتباحث وضعه - كيف بدا اليوم، هل غدا نحيلاً، هل سعل - فلم نرد أن يصيبه مرضٌ ما. يا ترى ما الذي سيحتاج إليه، ما الذي يجدر بنا سرقته لأجله نهار اليوم التالي. ما إن ننتهي من التداول تصعد كل واحدةٍ منا إلى سريرها. لا أدري عن لورا، لكني كنت أقضي الليل أتخيله في العلية، تماماً فوقي. هو الآخر سيحاول النوم، يتقلب في فراشه من الألحفة البالية. ثم سيخلد إلى النوم. ثم سيحلم، أحلاماً طويلة عن الحرب والنار، عن القرى الهالكة، شظاياها المتفحمة منثورة حواليها.

---

(105) في إشارة إلى القصة الإنجيلية سفر لوقا- 10:38 لدخول المسيح قريةً فاستضافته امرأة تدعى مارثا وكان لها أخت تدعى ماري، جلست عند قدمي المسيح تستمع إلى كلامه، بينما مارثا مشغولة بأمور الخدمة الكثيرة، فأقبلت على المسيح شاكيةً أختها لتركها تخدم وحدها وطالبةً إياه أن يأمرها بمساعدته، فأجاب: "مارثا، مارثا، إنك في هم وارتباك بأمور كثيرة، مع أن الحاجة إلى أمرٍ واحد. واختك ماري اختارت النصيب الأفضل، ولن ينزع منها".

(106) المَدْخَر - reliquary: وعاء تحفظ فيه الذخائر الدينية المقدسة.

لا أدري متى تحولت أحلامه تلك إلى أحلام مطاردة وهروب؛ ولا أدري متى انضممتُ إليه في تلك الأحلام، أفر معه، يدي بيده، ساعة الغسق، بعيداً عن مبنىً محترق، نقطع أخاديد حقول ديسمبر حيث الثلوج تكسو جذامة الأرض، نفرُّ اتجاه الحدِّ المظلم للغابات البعيدة.

بيد أن هذا لم يكن بحلمه، كنت أعي ذلك. كان حلمي أنا. آفيليون من كانت تحترق، شظاياها هي المنثورة على الأرض – الآنية الصيني الفاخرة، زبدية السيفر الموشاة بيتلات الورود، علبة السجائر الفضية أعلى البيانو. البيانو نفسه، النوافذ الزجاجية المعشقة في حجرة الطعام – الكوب الأحمر القاني، قيثار إيزوليت المشروخ – كل ما كنت أتوق إلى الفرار منه، أجل كنت أتوق إلى الفرار، لكن ليس على أنقاض الدمار. تقت إلى مغادرة البيت، لكني أردته أن يبقى في محله، ينتظرني، دون أي تغييرٍ يطرأ عليه، كي يسعني العودة إليه متى ما شئت.

يوماً ما، حين غادرت لورا البيت – إذ ما عاد الخروج يشكل أي خطرٍ عليها، فالرجال في المعاطف الطويلة قد غادروا وكذلك الخيالة، والنظام عاد واستقر في الشوارع من جديد – قررت الصعود منفردةً إلى العلية. كنت أحمل في جيبي قرباناً من الكشمش والتين المجفف، انتزعتها من مقادير البودينغ التي تعدها ريناي للكريسماس. استكشفت الوضع، كان آمناً – فريناي مستغرقة في حديثها مع السيدة هيلكوت في المطبخ – لذا صعدت إلى العلية وطرقت الباب. كنا قد اتفقنا على قرعٍ مميز، ضربةٍ واحدة تتبعها ثلاث ضربات سريعة متتالية. ثم صعدت درجات سلم العلية الضيق على أطراف أصابعي.

أليكس توماس كان رابضاً جانب النافذة البيضاوية الصغيرة، يحاول قدر استطاعته استغلال ما ينفذ إلى العلية من ضوء النهار. كان من الواضح أنه لم يسمع طرقي الباب: فظهره كان نحوي، متدثراً بلحافٍ على كتفيه. بدا لي يكتب. كان بوسعي أن أشم رائحة السجائر – أجل، كان يدخن، ها هي يده التي يمسك بها سيجارته. لم أرَ من الصواب أن يدخن قريباً هكذا من اللحاف.

لم أدرِ كيف أعلن له عن قدومي، فقلت، " أنا هنا".
قفز من مكانه وأوقع السيجارة من يده. السيجارة وقعت في اللحاف. شهقت، وركعت على ركبتيّ كي أطفئ شرارتها – فصورة آفيليون والنيران مندلعة فيها كانت قد حفرت في مخيلتي. "لا بأس،" قال لي. كان راكعاً هو الآخر، كلانا نبحث عن أي شرارةٍ متبقية. وفي لحظة وجدنا نفسينا على الأرض، يثبتني بجسده ويقبّل فمي.
لم أكن قد توقعت ما جرى.
أو هل توقعته؟ أكان مفاجئاً على حين غرة، أم سبقته مقدمات: لمسة، نظرة؟ هل فعلت شيئاً استفزه؟ لا شيء أذكره، لكن هل ما أذكر هو ذاته ما وقع حقاً؟
هو كذلك الآن: فأنا الناجي الوحيد.
على أي حال، سار الأمر مثلما وصفته ريناي، عن الرجال في دور السينما، عدا أنّي لم أشعر بالغضب. لكن بقية وصفها كان صحيحاً: كنت متحجرة، مشلولة، عاجزة لا حول لي ولا قوة. عظامي غدت شمعاً ذائباً. كان قد فك معظم أزراري قبل أن أتمكن من جمع شتات نفسي والتحرر منه، أفر هاربةً منه.
فعلت كل ذلك دون أن أنبس بشفة. وبينما هرعت نزولاً على درجات السلم، أسحب شعري للوراء، أدس قميصي في تنورتي، تولد لدي الانطباع أنه – خلف ظهري – أخذ يضحك عليّ.

لم أدر ما كان سيحدث إن سمحت لأمرٍ كهذا أن يقع مرةً أخرى، لكن أيا كان ما سيحدث فستكون عواقبه وخيمة، على الأقل بالنسبة لي. فأنا من سأكون قد سعيت إليه، أنا التي نلت ما أستحقه، أنا الكارثة على وشك الوقوع. لم أكن لأطيق التواجد وحيدة في العلية مع أليكس توماس مرةً أخرى، ولا كان بوسعي إفشاء السبب إلى لورا. الحقيقة كانت ستجرحها: ما كانت لتتفهم أبداً ما جرى. (وهناك الاحتمال الآخر – أنه ربما قد فعل ذات الشيء مع لورا. لكن لا، ما كنت لأصدق ذلك. فهي ما كانت لتسمح أبداً بوقوعه. أليس كذلك؟)
قلت للورا، "علينا إخراجه من البلدة، لا يسعنا الاستمرار في إخفائه فأحدهم ولا

بد سيلاحظ شيئاً".

فأجابتني، " ليس بعد. فلا تزال السلطات تراقب سكّة الحديد". كانت في موقع يمكنها من معرفة تلك المعلومة، إذ كانت لا تزال تتطوع في مطبخ الحساء التابع للكنيسة.

فقلت لها، "حسنٌ، فلنخبئه إذن في مكانٍ آخر في البلدة".

"أين؟ لا مكان آخر نخبئه فيه. خيرٌ له أن يبقى، فلا أحد أبداً سيشك في وجوده هنا".

أخبرنا أليكس توماس أنه لا ينوي البقاء إلى أن تحاصره الثلوج. فقضاؤه الشتاء في العلية سيقوده إلى الجنون. وهو قد بدأ يفقد عقله. أخبرنا أنه ينوي قطع ميلين سيراً على امتداد سكّة الحديد، وهناك سيقفز على قطار شحن بضائع – هناك تلٌّ مرتفع سيسهل عليه القفز منه. أخبرنا أنه إن نجح في بلوغ تورنتو فسيسهل عليه الاختباء – فله أصدقاءٌ هناك، وأصدقاؤه لهم أصدقاء. ومن هناك سيقطع الحدود إلى الولايات المتحدة، بطريقةٍ أو بأخرى، حيث سيكون في مأمنٍ بعيداً عن ملاحقيه. فمما قرأه في الصحف فإنّ السلطات تشك أنه قد قطع الحدود أصلاً إلى هناك. بالتأكيد ما عادوا يبحثون عنه في بورت تيكونديروغا.

في غضون الأسبوع الأول من شهر يناير، قررنا أن الوضع قد أصبح آمناً له كي يغادر. اختلسنا له معطفاً قديماً من معاطف أبي من الزاوية الخلفية لحجرة المعاطف، وأعددنا له الغداء – خبزاً وجبنة وتفاحة، وأرسلناه في طريقه. (لاحقاً افتقد أبي المعطف القديم فقالت له لورا إنها وهبته إلى متشرد، هي أخبرته بالحقيقة وإن ليست كاملةً. وبما أن تصرفاً كهذا هو من شيم لورا، فلم تثر أي شكوك، فقط التذمر).

ليلة مغادرته البيت كنا قد أخرجنا أليكس من الباب الخلفي. أخبرنا أنه يدين لنا بالكثير؛ أخبرنا أنه أبداً لن ينسى صنيعنا معه. عانق كلينا، كان عناقاً أخوياً متساوياً في المدة لكل واحدةٍ منا. كان واضحاً أنه أراد التخلص منا. عدا حقيقة أن الوقت كان ليلاً، فقد انتابنا شعورٌ غريب وكأننا نرسله في طريقه إلى المدرسة لأول

مرة. ما إن غادر انهمرنا في البكاء كما الأمهات. كذلك شعرنا بالراحة لذهابه بعيداً في طريقه، أنه ما عاد مسؤوليتنا– تماماً كما الأمهات.

ترك خلفه أحد دفاتر التمارين المدرسية الرخيصة التي أعطيناه اياها. وبالطبع شرعنا مباشرةً في فتحها كي نرى إن كتب أي شيءٍ فيها. ما الذي أملنا قراءته؟ رسالة وداع، يعبر فيها عن امتنانه اللامحدود؟ عواطفه الجميلة نحونا؟ شيئاً من ذاك القبيل.

هذا ما وجدناه مكتوباً عليها:

آنكورين	ناكرود
بيريل	أونيكسور
كارشينيال	بورفيريال
دياميت	كوارتزفير
إيبونورت	رينت
فولغور	سافريون
غلوتز	تريستوك
هورتز	يولينث
إريرديس	فورفير
جوسينث	ووتانايت
كالكيل	زينور
لازاريس يوروولا	
مالاكونت	زكرون

"أحجارٌ كريمة؟" قالت لورا متسائلةً.

فأجبتها، "لا، لا تبدو كذلك".

فعادت وتساءلت، "لغةٌ أجنبية؟"

ما كنت لأدري. فقد بدا لي الأمر مشبوهاً وكأنها شيفرة سرية. ربما في النهاية كان أليكس توماس حقيقةً ما اتهمه به الناس: جاسوساً.

قلت للورا، "أظن أنّ علينا التخلص منها".

"حسنٌ،" أجابتني لورا متعجلةً، "سأحرقها في نار الموقد في غرفتي". ثم طوت الورقة ودستها في جيبها.

بعد مضي أسبوعٍ على مغادرة أليكس توماس، قدمت لورا إلى غرفتي قائلةً، "أظنك ستحتاجين إلى هذه". كانت نسخةً عن صورتنا نحن الثلاثة، تلك التي التقطها إلوود موراي يوم النزهة. بيد أنها قد قصّت نفسها من الصورة ولم يتبق منها إلا يدها. ما كانت لتستطيع التخلص من اليد دون التسبب بهامشٍ متعرج. لم تظلل تلك الصورة بالألوان، عدا يدها المقطوعة. كانت قد ظللتها بالأصفر الباهت جداً.

"بحق السماء لورا. من أين لك هذه؟"

"كنت قد طبعت عدة نسخ أثناء عملي لدى إلوود موراي. كذلك فالصورة السالبة بحوزتي".

لم أعرف إن كان يجدر بي أن أشعر بالغضب أم القلق. فقصُّ الصورة بهذه الطريقة كان تصرفاً غريباً جداً. فمرأى يد لورا الصفراء الباهتة، تدب زاحفةً على العشب نحو أليكس وكأنها سلطعونٌ متوهج، قد أثارت القشعريرة في ظهري. "ولم بحق السماء فعلت شيئاً كهذا؟"

"لأنك هكذا تودين الاحتفاظ بالذكرى". شهقتُ لدى سماعها، فقد كان جسارةً منها أن تقول شيئاً كهذا لي. كانت تنظر إليّ بعينين شاخصتين، لو نظر إليّ أحدهم بنظرةٍ كهذه لاعتبرتها تحدياً. لكنها طبيعة لورا: نبرة صوتها لم تشُبْها غيرةٌ ولا تجهم. بالنسبة لها، فما قالته التو وبكل بساطة ما كان سوى إشارةٍ منها إلى واقعٍ حقيقي.

"لا بأس،" قالت لي. "أملك نسخةً أخرى، لي أنا".

"وهل أظهر أنا في نسختك؟"

"لا، لست موجودة. لا شيء منك سوى يدك". تلك كانت أقرب مرةٍ كادت تعترف

فيها لورا، على مسامعي، بحبها لأليكس توماس. عدا ذاك النهار الذي سبق موتها. وحتى يومها لم تنطق بكلمة حب".

كان يجدر بي أن أرمي بتلك الصورة المشوهة، لكني لم أفعل.

أمور حياتنا عادت واستقرت على نظامها الرتيب المعتاد. ووفقاً للاتفاق الضمني غير المنطوق بيني وبين لورا، فما عدنا نتحدث عن أليكس توماس. كان هناك الكثير من الكلام في جُعبَتَينا لكن استحال علينا النطق به. بعيد مغادرته، اعتدت الصعود إلى العلية لأتنسم عبق دخان سجائره، الأثر المتبقي منه، لكن بعد مدة توقفت عن فعل ذلك، إذ لم يعد عليّ بأي فائدة.

عدنا وشغلنا أنفسنا بأمور حياتنا اليومية، بقدر المستطاع. كنا سنحظى عن قريب بمبلغٍ من المال، فقريباً كان أبي سيتحصل على مبلغ التأمين على المصنع المحترق. لم يكن بالمبلغ الكافي، لكن على الأقل – وكما قال أبي – كنا سنتنفس أخيراً الصعداء.

الحجرة الإمبراطورية

الموسم أخذ يتقلَّب، الأرض تتأرجح أبعد وأبعد عن الضياء؛ أسفل الشجيرات على جانبيْ الطرق أكوام مهملات الصيف تجرفها الرياح نذيراً بقرب هطول الثلج. الهواء يجف يوماً بعد يوم، يعدّنا لاستقبال صحاري الشتاء في ظل التدفئة المركزية. فها هما طرفا إبهاميّ بدآ يتشققان، وجهي أخذ يذبل نهاراً بعد نهار. إن كان لي أن أرى بشرتي في المرآة – لو كان لي أن أدنو كفايةً أو أبتعد كفايةً – لرأيتُ شبكة الخطوط المتصالبة الدقيقة بين تجاعيدي، وكأني منحوتةٌ عاجيةٌ ما.
ليلة البارحة حلمت أن ساقيّ مكسوّتان بالشعر. لا القليل منه بل قدراً عظيماً – أجماتٌ سوداء لولبية من الشعر تشطأ على مرأىً من عينيّ، تمتد على فخذيّ كما الإهاب. الشتاء قادم، كذا رأيت في الحلم، لذا كنت سأخلد للسبات. أولاً سيكتسي جسدي بالفرو، ثم كنت سأزحف إلى كهفٍ ما وأخلد للنوم. بدا لي الأمر طبيعياً، وكأني فعلته من قبل. ثم تذكرت، حتى وأنا في المنام، أني لم أكن يوماً بامرأةٍ مشعرة وحتماً ليس اليوم حيث غدوت جرداء مثلي مثل سمندل الماء، أو على الأقل ساقاي هما الجرداوان؛ لذا حتى وإن بدت الساقان المكسوتان بالشعر متصلتان بي، فلا يعقل أنهما حقاً ساقاي. كذلك فلم أشعر بهما. كانتا ساقَيْ شيءٍ آخر، أو شخصٍ آخر. كل ما كان عليّ فعله هو تتبع الساقين، أخذت أمرّر راحة يدي عليهما، كي أعرف حقيقة صاحبهما.
الذعر الذي انتابني في تلك اللحظة أيقظني من المنام، أو هذا ما اعتقدته. فقد حلمت أن ريتشارد قد عاد. كان بوسعي سماع صوت أنفاسه جانبي على الفراش.

ومع ذلك لم يكن من أحدٍ هناك.

وبذا استيقظت على وقع العالم الحقيقي. ساقاي نائمتان: وجدتني مستلقية متلولبة على نفسي. تحسست المنضدة جانبي كي أشعل إنارة المصباح، وأمعنت النظر في ساعتي أحاول فك شيفرتها: كانت الساعة الثانية صباحاً. قلبي يطرق صدري فيوجعني، وكأني التو كنت أجري. فقلت في نفسي، الحقّ معهم، قد تقتلك الكوابيس؟.

تعجلت العودة إلى الكتابة، أتلمس طريقي المتعرج على صفحة الورقة. غدا سباقاً بطيئاً الآن، بيني وبين قلبي، لكني أنوي الوصول هناك أولاً. هناك أين؟ خط النهاية، أو النهاية. أياً كانت النهاية، إحداهما أو الأخرى، فكلتاهما الوجهة التي سأصلها، بشكلٍ ما.

شتاء شهرَيْ يناير وفبراير من عام 1935، كان شتاءً قارساً. الثلوج انهمرت، الأنفاس تجمدت؛ نار الأفران اشتعلت، الأدخنة تصاعدت، وأنابيب المشعاع صلصلت. السيارات انزلقت عن الطرق ووقعت في الحفر؛ سائقوها اليائسون أبقوا على محركات سياراتهم مشتعلة علّ أحدهم يأتي ويمد لهم يد العون، وماتوا فيها اختناقاً. جثث المشردين وجدوها على مقاعد الحدائق وفي المخازن المهجورة، متصلبة مثل تماثيل عرض الملابس، وكأنهم يتموضعون على واجهة متجرٍ يروّج للفقر. الجثث التي لم تدفن لأن أرض المقبرة استحالت فولاذاً، بقيت منتظرةً في ملاحق الحانوتيين الموتورين. الفئران عاشت في نعيم. الأمهات مع أطفالهن، العاجزات عن دفع أجرة مساكنهن لأن لا وظيفة لديهن، ألقوا بهن خارجاً في الثلج، بكومتيْ أطفالهن ومتاعهن. الأطفال تزلقوا على بركة الطاحون المتجمدة في نهر لوفتو، طفلان تكسر الجليد من أسفلهما، وطفلٌ غرق. الأنابيب تجمدت وانفجرت.

لورا وأنا رحنا نتباعد عن بعضنا أكثر فأكثر. من النادر حقاً لقاءها تلك الأيام: كانت لا تزال تساعد في جهود الكنيسة الموحدة لصالح الإغاثة، أو هذا ما قالته. ريناي أعلمتنا أنَّه من الشهر القادم ستعمل لدينا ثلاثة أيام في الأسبوع وحسب؛ أخبرتنا

أنها باتت تعاني من ألمٍ في قدميها، تلك كانت طريقتها في تغطية الحقيقة، أننا ما عدنا نطيق دفع راتب دوامٍ كامل. على أي حال، كنت على علمٍ بذلك. كان جلياً كما أنفي، كما الأنف على وجه أبي، والذي بدا كأنفٍ تعرض لحادث قطار. أخذ يقضي مؤخراً فترات أطول وأطول في البريج.

مصنع الأزرار أصبح شاغراً، السخام يكسوه من الداخل حيث تحطم كل شيء. ما كنا نملك المال الكافي لإصلاحه: فشركة التأمين توقفت فجأةً عن متابعة إجراءات الدفع، مشيرةً إلى الظروف الغامضة وراء الحريق المتعمّد. سرت الأحاديث همساً أن الأمور لم تبد كما هي عليه حقيقةً: وبعضهم ألمح إلى أنَّ أبي قد أمر بنفسه بإشعال الحريق. كان افتراءً عظيماً. المصنعان الآخران ظلاّ مغلقين؛ ما انفكَّ أبي يجهد نفسه في التفكير محاولاً تدبر طريقة يعيد بها المصنعين للعمل. أخذت رحلاته إلى تورنتو تتكرر، رحلات عمل. أحيانا كان يصطحبني معه، وكنا نقيم في فندق رويال يورك، أفخم فندقٍ في تلك الأيام. كان المكان الذي يقيم فيه كل رؤساء الشركات والأطباء والمحامون برفقة عشيقاتهم بينما يتولَّوْن شؤون الانغماس لأسبوعٍ كامل في الأنس والسمر، لكن لم أكن أعرف ذلك حينها.

من دفع فاتورة تلك الرحلات؟ أظن ريتشارد هو من تولى الدفع، فقد كان متواجداً في كل تلك الرحلات. فهو من كان أبي يتولى الأعمال معه: الوحيد المتبقي من دائرةٍ جدّ ضيقة. المحادثات انصبت في مسألة بيع المصانع، مسألة شائكة ومعقدة. أبي حاول بيع المصانع من قبل، لكن لم يكن هناك من شارٍ في تلك الأيام، ليس وفقاً للشروط التي وضعها. أراد أن يحتفظ بأغلبية الأسهم. أراد أن يحتفظ بسيطرته. أراد السيولة التي تعزز رأس المال. أراد تشغيل المصانع من جديد، كي يستعيد رجاله وظائفهم. كان لا يزال يدعوهم "رجاله" وكأنه لا يزال الرقيب على رأس كتيبته. لم يسع وراء تخفيف خسائره وهجرهم، إذ كما يعرف الجميع، أو بالأحرى ما كان يعرفه الجميع، أن على القبطان الغرق مع سفينته. لكن اليوم لن يأبه أحدهم لسفينته. قباطنة اليوم سيبيعون كل شيء وينفذون بجلودهم، حاملين متاعهم إلى فلوريدا.

أبي أخبرني أنه في حاجة إليّ "كي أدون له الملاحظات"، لكني لم أدون ملاحظةً واحدة. أظنه اصطحبني كي يحظى بالرفقة – كي يحظى بالدعم المعنوي. وكم كان في أمَسّ الحاجة إليه. كان هزيلاً كما العصا، يده ترتعش على الدوام. بالكاد يقوى حتى على كتابة اسمه.

لورا لم ترافقنا في تلك الرحلات. وجودها لم يكن مطلوباً. تركناها وراءنا، تتصدق بالخبز البائت لثلاثة أيام وأطباق الحساء السبخ. هي نفسها غدت تقتر على نفسها وكأنما لا يحق لها تناول الطعام.

"المسيح كان يأكل،" قالت لها ريناي، "كان يأكل كل شيء. لم يقتّر على نفسه".

"أدري،" أجابتها لورا، "لكني لست بالمسيح".

"حمداً للرب أنها على الأقل مدركة لتلك الحقيقة،" قالت لي ريناي متذمرةً. كانت تكشط ثلثي وجبة لورا عن الطبق وتحتفظ به في القدر لليوم التالي، إذ كان خطيئةً وعاراً رمي الطعام في المهملات. كان مصدر فخرٍ لريناي أنها في تلك الأعوام الصعبة لم ترمِ بأي شيء.

أبي ما عاد يوظف سائقاً، وما عاد يثق في قدرته على القيادة. لذا أنا وهو اعتدنا ركوب القطار في رحلاتنا إلى تورنتو، نصل محطة يونيون، ثمّ نقطع الشارع من رصيف المحطة إلى الفندق. كان يفترض بي أن أسلي نفسي كيفما شئت في فترات بعد الظهيرة، بينما أبي يتحادث مع ريتشارد. لكني قضيت معظم الوقت في غرفتي، لأني كنت أهاب المدينة، وخجلة من ملابسي العتيقة التي جعلتني أبدو أصغر عمراً مما أنا عليه. أخذت أقرأ المجلات: ليديز-هوم-جورنال، وكوليرز، وماي-فير. إجمالاً قرأت القصص القصيرة، والتي عادةً ما تكون رومانسية. لم يكن لي أي اهتمام بمعرفة مقادير الكسَرْوَلة أو نقوش الكروشيه، بيد أن نصائح التجميل لفتت انتباهي. كذلك قرأت الإعلانات. ثوب الكورسيه المطاطي بقابلية التمدد في اتجاهين سيساعدني على تحسين أدائي في لعب البريدج. وأين المشكلة إن كنت أدخن كما المدخنة، لن يكترث أحد، لأن طعم فمي سيظل نظيفاً كما الماء الصافي

إن دخّنت سجائر سبودز. شيءٌ ما يدعى لارفيكس سينهي كل مخاوفي من العث. وفي نُزُل بيغوين المطل على بحيرة بايز الساحرة حيث في كلّ لحظةٍ تمر عليّ نسمة منعشة، سيتسنى لي ممارسة تمارين التنحيف الموسيقية على الشاطئ.

بعد انقضاء يوم العمل، ثلاثتنا – أبي، ريتشارد وأنا – كنا نتناول وجبة العشاء في المطعم. لم أنطق بكلمة في تلك المناسبات، فما الذي لدي لأقوله؟ مواضيع الحديث انصبت في الاقتصاد والسياسة، في الكساد، في أوضاع أوروبا، في التمدد المقلق للشيوعية في مختلف أرجاء العالم. ريتشارد رأى أنّ هتلر قد نجح مؤكداً في انتشال ألمانيا من محنتها، من وجهة نظرٍ اقتصادية. أظهر حماسةً أقل نحو موسوليني، الذي رآه مجرد هاوٍ يتسلى. هناك من تواصل مع ريتشارد بخصوص استثمار في نسيجٍ جديد كان الإيطاليون يطورونه – بسريةٍ تامة – مصنوعٍ من بروتين الحليب المحمّى. لكن، كما قال ريتشارد، إن ترطَّب النسيج فستفوح منه رائحة جبن كريهة، والسيدات في أمريكا الشمالية ما كنَّ ليقبلن أبداً بهذا. في الوقت الحالي سيتمسك بنسيج الرايون، رغم تجعده سريعاً متى ما ترطب، لكن سيرهف أذنيه لأي جديدٍ واعد يطرأ في صناعة الأنسجة. فحتماً سيظهر شيءٌ جديد، نسيجٌ صناعيٌ ما يرمي بالحرير خارج السوق، وكذلك القطن إلى حدٍّ كبير. فما يرغبن به النساء هو نسيجٌ لا يتطلب الكوي – فقط يكتفين بتعليقه على الحبل، فيجف دون أن يتجعد. كذلك هن أردن جوارب طويلة الأمد وشفافة كي يستعرضن سيقانهن. "ألست محقاً؟" اعتاد أن يوجه إليّ تساؤله مبتسماً كلما أراد أن يحتكم إلى رأيي في الأمور المعنية بالنساء.

أومأت له. لطالما أومأت له. فلم أكن مصغية قط لما يقول، ليس لأن تلك الأحاديث مملّة، بل لأنها أوجعتني. فكم تألمت لرؤية أبي يوافق على آراءٍ كنت أدري بأنه لا يؤمن بها.

ريتشارد أخبرنا أنه يتمنى لو كان بإمكانه دعوتنا على العشاء في بيته، لكن بما أنه عازب فتدبير العشاء لن يكون على القدر المناسب. كان يعيش في شقةٍ رتيبة لا حياة فيها، وكأنه راهب. "فما الحياة دون زوجة؟" قال لنا مبتسماً. بدا لي وكأنه اقتباسٌ

معروف. أظنه كان كذلك.

ريتشارد عرض عليّ الزواج في الحجرة الإمبراطورية في فندق رويال يورك. كان قد دعاني على الغداء، برفقة أبي؛ لكن أبي تراجع عن القدوم في اللحظة الأخيرة، بينما كنا نمشي في أروقة الفندق في طريقنا إلى المصعد، إذ توقف قائلاً إنه لن يرافقني، وأنّ عليّ الذهاب وحدي. بالطبع كان أمراً متفقاً عليه بين الرجلين.

أبي قال لي، "ريتشارد سيسألك شيئاً". نبرة صوته كان يخالجها الأسف.

"أوه؟" ظننته سيسألني عن الكوي، وعلى أي حال فلم أكترث له. فريتشارد لم يكن لي سوى رجلٍ بالغ. كان في الخامسة والثلاثين وأنا في الثامنة عشرة. كان خارج نطاق اهتمامي.

فأردف أبي قائلاً، " أظنه سيسألك الزواج منه".

كنا حينها في رواق الفندق، فجلست قائلةً "أوه". لحظتها فقط وعيت لما كان يجري من حولي بكل وضوح. انتابتني الرغبة في الضحك، وكأني أضحك على خدعة. كذلك شعرت وكأن معدتي قد اختفت. بيد أنَّ صوتي ظل هادئاً. "وما عليّ أن أفعل؟"

"لقد منحته موافقتي،" أجابني أبي، "لذا الأمر يعود إليك". ثم أردف قائلاً، "هناك أمورٌ كثيرة على المحك".

"أمورٌ كثيرة؟"

"عليّ أن أفكر في ضمان مستقبليكما. في حال أصابني أي خطب. وبالذات مستقبل لورا". ما كان يقوله لي حقيقةً أنّي إن لم أتزوج بريتشارد، فلن نحظى بأي مال على الإطلاق. ما كان يقوله لي أيضاً أن كلتينا – وبالأخص لورا –عاجزتان تماماً عن إعالة نفسينا. "عليّ كذلك أن أضع المصانع في الحسبان، عليّ أن أضع اعتباراً لإرثنا. ربما لا يزال هناك من سبيلٍ لإنقاذه، لكن البنوك تلاحقني. سينقضون عليّ في أي لحظة. لن يمهلوني يوماً واحداً". كان متكئاً على عصاه، مطرقاً رأسه يتأمل السجاد، ورأيت كم كان يشعر بالعار، كم كان مثقلاً بالهزيمة. "لا أريد لكل شيء أن يضيع هكذا، ما صنعه جدك، ومن بعده ... خمسون، ستون عاماً من العمل

المُضني، لا أريد لها أن تضيع هباءً".

"أوه، حسنٌ". كنت محشورة في الزاوية. فما الحلول البديلة التي كنت أملكها كي أعرضها عليه.

"سيأخذون منا آفيليون كذلك. سيبيعونها".

"حقاً؟"

"نعم، فقد رهنتها بكل ما فيها".

"أوه".

"الأمر قد يتطلب قدراً من العزيمة، قدراً من الشجاعة. قد يتطلب العض على النواجذ وما شابه".

لم أقل شيئاً.

"لكن بطبيعة الحال، أياً كان قرارك فهو أمرٌ يخصك أنت وحسب".

لم أقل شيئاً.

"فأنا لا أريدك أن تقومي بأي شيءٍ لا تطيقين فعله،" قالها لي بينما ينظر إليّ بعينه الصالحة، مخترقاً اياي، عابساً بعض الشيء، وكأن غرضاً ذا أهمية عظمى قد مرَّ التو من أمامه. لكن لم يكن من شيءٍ خلفي سوى الجدار.

لم أقل شيئاً.

"حسنٌ، اتفقنا". بدا أبي مرتاحاً. "غريفين رجلٌ عاقل، أراه رجلاً حصيفاً، في أعماقه".

" أظنه كذلك، أنا متيقنة أنه رجلٌ حصيفٌ جداً".

"ستكونين في أيدٍ أمينة، ولورا كذلك بالطبع".

"بالطبع،" أجبته بنبرةٍ فاترة، "ولورا كذلك".

"ارفعي رأسك إذن".

هل ألومه؟ لا لم أعد ألومه. فبعد كل ما جرى وكان، فقد تبيَّن أن أبي قد أساء التقدير مئة في المئة، لكنه فعل ما رآه في مصلحتنا – أخذ ما كان يعتبر في ذاك الوقت الخيار المسؤول. فعل أقصى ما يمكن فعله بما كان لديه.

ريتشارد انضم إلينا وكأنه التقط إشارة الدخول من أبي. الرجلان تصافحا. وإذ بيدي تُؤخَذ، ضغط عليها سريعاً. ثم ضغط على مرفقي. تلك كانت الطريقة التي اعتاد الرجال أن يقودوا بها النساء في تلك الأيام – بالمرفق – وهكذا ساقني بمرفقي إلى الحجرة الإمبراطورية. ريتشارد أخبرني أنه ودَّ اصطحابي إلى المقهى الفينيسيّ حيث الأجواء مشرقة ومبهجة، لكن لسوء الحظ فالطاولات كلها كانت محجوزة.

من الغريب أني ما أزال أذكر هذا، لكن آنذاك كان فندق رويال يورك أعلى مبنىً في تورنتو، والحجرة الإمبراطورية كانت أضخم قاعة طعام. ريتشارد كان مولعاً بالضخامة. القاعة نفسها تضمنت صفوفاً من الأعمدة المربعة الضخمة، سقفاً فسيفسائياً، صفاً من الثريات، كل ثريا تتدلى منها شرابة: الهيئة الجامدة للثراء الفاحش. بدت لي جلدية، ثقيلة، خرقاء، متكرشة – وحتى معرّقة نوعاً ما. "الفرفير" هي الكلمة التي تَرِد لي الآن، حتى وإن لم يتواجد شيءٌ منه في القاعة.

كانت ساعة الظهيرة. في يومٍ شتائي مُضطرب حيث الشمس متوهجة أكثر من المعتاد. الشمس البيضاء ألقت بأشعتها عبر ثغرات الستائر الثقيلة، أظن الكميت كان لون الستائر، ودون شك مخملية. من أسفل الرائحة المعتادة لقاعات الطعام في الفنادق، رائحة الخضار المطبوخة بالبخار والسمك الفاتر، التقطتُ عبقاً لرائحة معدنٍ منصهر وملابس محروقة. الطاولة التي حجزها لنا ريتشارد كانت في زاويةٍ معتمة، بعيداً عن الشمس المتطفلة. هناك وردةٌ حمراء في زهريةٍ على صورة برعم وردة؛ حدقت من فوقها نحو ريتشارد، يعتريني الفضول لأعرف كيف سيفتح الموضوع معي. هل سيمسك بيدي، يشد عليها، يتردد، يتلعثم؟ لم أظن ذلك.

عدم إعجابي به لم يكن إحساساً غامراً. بل ببساطة لم أعجب به. لم أكن قد شكّلت أي رأي عنه لأني لم أفكر به ملياً، بيد أنّي من وقتٍ لآخر لاحظت أناقة ملبسه. كنت أراه مختالاً في بعض الأحيان، لكن على الأقل لم يكن بالقبيح، لم يكن بالقبيح على الإطلاق. ظننته مقبولاً، مقبولاً جداً. شعرت بشيءٍ من الدوار. فما زلت لم أعرف ما الذي سأفعله.

النادل جاء إلينا. ريتشارد طلب الطعام، ثم نظر نحو ساعته. ثم تحدث. سمعت

النزر القليل من كلامه. ابتسم. ثم أخرج علبةً سوداء مخملية صغيرة وفتحها. في الداخل بصيص ضوءٍ براق.

قضيت تلك الليلة مستلقيةً في الفراش الفسيح لغرفة الفندق، جاثمةً أرتعش. قدمايَ جليديتان، ركبتايَ مرفوعتان، مستلقية على جانبي مع نصف وجهي على الوسادة؛ الملاءات البيضاء المنشاة انبسطت وامتدت أمامي إلى ما لا نهاية وكأني أقف على طرف القطب الشمالي المترامي الأطراف. كنت مدركة أني لن أتجاوزه يوماً، لن أستدل على مساري من جديد، لن أعود إلى الدفء؛ كنت مدركة أني أقف دون بوصلة؛ أني ضائعة. وسيعثر عليّ أحدهم بعد أعوامٍ وأعوام، فريقٌ استكشافي مغامر سيعثر صدفةً على أثر قدميّ، ذراعٍ واحدة مدفوعةٍ للخارج وكأنها تحاول يائسةً التمسك بقشة، ملامحي المجفّفة، أصابعي وقد قضمتها الذئاب.
ما كنت أختبره لحظتها هو الرهبة. لكن لم يكن ريتشارد من رهبته. بل كأنما القبة المضاءة لفندق رويال يورك انخلعت من مكانها وها هو يحدق بي، شعرتُ بوجوده الخبيث المنذر بالهلاك يحوم في مكانٍ ما أعلى السماء السوداء الخاوية المرصعة. كان الرب، ينظر إليّ ساخراً بعينه الواحدة الجامدة وكأنها نور كشافٍ كهربائي. كان يراقبني، يتأمل مأزقي؛ يتأمل فشلي في الإيمان به. لم يكن هناك من أرضيةٍ لغرفتي: كنت معلقة في الهواء، على وشك أن أهوي. وسقوطي سيكون لا نهائياً، كنت سأظل أهوي وأهوي.
بيد أنّ مشاعر موحشة كتلك لا تقوى على الصمود أمام ضياء الصباح، ليس وأنت في ريعان الشباب.

البلاط الأركاديّ

خارج النافذة، في الفناء المعتم، هناك ثلج. صوتُ قُبلته تلك حين يلثم الزجاج. سرعان ما سيذوب الثلج إذ لا نزال في نوفمبر، بيد أنّي استمتعت بتذوقي المبكر لطعم الشتاء. لا أدري لماذا أجده مثيراً. فأنا أعرف ما سيأتي: الثلج المائع، الظلمة، الإنفلونزا، الثلج الأسود، الرياح، البقع المِلحيّة على الجزم. غير أن شعور الترقب لا يزال يغمرني: فأنت تتوقين إلى النزال. الشّتاء خصمٌ لكِ أن تغادري بيتك لتلاقيه، تواجهيه، ثم تهزمي على يديه بالتقهقر عوداً إلى الداخل. ومع ذلك، أتمنى لو كان لي مستوقدٌ في هذا البيت.

هناك مستوقدٌ في البيت الذي عشت فيه مع ريتشارد، لا واحد بل أربعة. وكما أذكر، فواحدٌ منها في غرفة نومنا. لهبٌ يلعق الجسد.

مددت كُمَّيْ سترتي أسفلاً، وشددت الكُفَّتين على راحتَيْ يدَيّ. بدت يداي وكأني أرتدي تلك القفازات مقطوعة الأصابع التي يرتديها في العادة البقالون وغيرهم ممن يعملون في البرد. كان لا يزال خريفاً دافئاً، لكني لم أسمح لنفسي بالركون إلى الإهمال. عليّ أن أطلب الصيانة للفرن، تجهيز ملابس النوم الفلانيليّة. وعليّ أن أعد مخزوناً من علب البقوليات، بضعة شموع، وعلب ثقاب. فإن ضربتنا عاصفة ثلجية تضارع بقوتها عاصفة الشتاء الماضي فكل الأمكنة ستغلق وستُترَكين وحدك تُدبّرين أمورك دون كهرباء ولا حمام صالح للاستعمال، ولا مياه صالحة للشرب سوى التي تذيبينها عن الثلج.

لم يكن هناك من شيءٍ في الحديقة سوى الأوراق الميتة والسوق المتقصفة وقلّة

قليلة من زهور الأقحوان العنيدة. الشمس قد بدأت تفقد أوجها؛ غدا الليل يحلّ باكراً الآن. أواصل الكتابة في المطبخ، داخل البيت. كم أشتاق إلى صوت منحدرات النهر. أحياناً تهب الريح مندفعةً عبر الأغصان الجرداء فتماثل في صوت حفيفها صوت المنحدرات، عدا أنها أقل أهلاً للاعتماد عليها، فهي لا تماثل النهر في الاستمرار.

في الأسبوع الذي تلا الخطوبة أعدَّ ريتشارد موعد غداءٍ لي مع شقيقته، وينيفريد غريفين بريور. هي كانت صاحبة الدعوة، لكني شعرت وكأن ريتشارد هو صاحبها الفعلي. ربما كنت مخطئة آنذاك، فوينيفريد تحرك خيوطاً كثيرة، وربما هي من لعبت بخيوط ريتشارد بشأن دعوة الغداء. الاحتمال الأرجح أنَّ كليهما اتفق عليّ. كنا سنتناول الغداء في البلاط الأركاديّ[107] حيث سيدات المجتمع يتناولن غداءهن، أعلى متجر سيمسونز الفاخر، في شارع كوينز – مكانٌ مرتفع وفسيح، يقال إنَّ تصميمه مستوحى من الطراز البيزنطي (ما يعني اعتماده الأقواس وأحواض النخيل،) يعتمد اللونين الليلكي والفضيّ، الإنارة مثبتة بشكلٍ انسيابيّ على كفاف المطعم وكذلك الكراسي. القاعة تحيطها شرفة مرتفعة ذات درابزون من الحديد المطاوع؛ تلك الشرفة مخصّصة للرجال فقط، لرجال الأعمال. كان لهم أن يجلسوا فيها وينظرون للأسفل نحو السيدات، يتأملون أغاريدهن في أثوابهن الريشيّة، وكأنهن جالسات في مطْيَر[108].

ارتديت أفضل حلةٍ نهارية لدي، الحلة الوحيدة التي كنت أملكها لمناسبةٍ كهذه: بدلةٌ كحلية مع تنورةٍ ذات طيات، قميصٌ أبيض مع عقدة عروية عند العنق، قبعةٌ كحلية تبدو كقبعة زورقية[109]. هذا الطقم جعلني أبدو وكأني طالبة مدرسة، أو مندوبة جمع تبرعات لصالح جيش الخلاص. وحتى اليوم لن أذكر الحذاء الذي ارتديته يومها لأن مجرد التفكير به يحبطني. أبقيت على خاتم الخطوبة الأصلي في قبضة يدي المغطاة بالقفاز القطني الأبيض، إدراكاً مني أن ارتدائي خاتماً كهذا مع

(107) الأركادية: كلمة أصولها لاتينية وتعني الحياة الريفية الساذجة البسيطة.

(108) المَطْيَر: قفصٌ كبير لحفظ الطيور.

(109) قبعة زورقيّة: boater hat.

ملابس كهذه سيبديه خاتماً مزيفاً، أو سيظن الناس أني قد سرقته.

رمقني رئيس الندل بنظرةٍ مرتابة وكأنه متيقن أني دخلت المكان الخطأ، أو على الأقل من الباب الخطأ – فهل كنت أبحث عن وظيفة؟ فقد بدوت فعلاً زريّة الملبس، ويافعة جداً لأتناول الغداء برفقة السيدات. لكن ما إن ذكرت اسم وينيفريد حتى جرت الأمور على ما يرام. فوينيفريد تقريباً تعيش في البلاط الأركادي. (تقريباً تعيش كان التعبير الذي استخدمته وينيفريد).

على الأقل لم أضطر للانتظار، أرتشف كأس ماءٍ بارد وحدي بينما النسوة في أثوابهن الأنيقة يرمقنني بنظراتهن متسائلات كيف لفتاةٍ مثلي أن دخلت المكان، فها هي وينيفريد هناك، جالسة إلى إحدى تلك الطاولات الباهتة. كانت أطول قامةً مما أذكر – لك أن تصفيها هيفاء أو ربما حتى ممشوقة القوام وإن كان الفضل يعزى في معظمه إلى الكورسيه الكامل. كانت ترتدي طقماً أخضر اللون – لا الأخضر الفاتح بل الأخضر البرّاق حدّ البهرجة. بعد عقدين من الزمن لدى انتشار موضة مضغ علكة الكلوروفيل الخضراء سأتذكر لون الطقم الأخضر لوينيفريد. كذلك ارتدت حذاءً من جلد التمساح كي يتناسق مع الطقم. كان لامعاً، مطاطياً، يبدو شبه رطب وكأن فردتاه ورقتا زنبق طافيتان، وقلت لنفسي إنّي لم أر من قبل حذاءً فاتناً فريداً كهذا. قبعتها اكتست بذات درجة اللون الأخضرِ – دردورٌ من النسيج الأخضر، تقف متزنةً على رأسها وكأنها كعكةٌ سامة.

في تلك اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليها كانت تفعل شيئاً كنت قد تربيت على ألا أفعله أبداً لأنه تصرفٌ رخيص: تنظر إلى نفسها في مرآة علبة تجميلها الصغيرة، على مرأىً من العامة. والأسوأ، أنها كانت تذرّر أنفها. وبينما انتابني التردد، إذ لم أشأ لها أن تعرف أني أمسكت بها بالجرم السوقيّ المشهود، أطبقت علبة التجميل ودستها في حقيبة يدها الخضراء التمساحية اللامعة وكأنها لم تفعل شيئاً يذكر. ثم مدت عنقها وبروية أدارت وجهها المذرور بالمساحيق تنظر حولها بحملقة بيضاء ساطعة وكأنها مصباح سيارةٍ أمامي. ثم رأتني، وابتسمت، ومدت لي يدها المرحبة بفتور. كانت ترتدي سواراً فضياً، والذي اشتهيتُ لحظتها ارتداءه.

"ناديني فريدي،" قالت لي بعد أن جلستُ إلى المائدة. "فكل رفيقاتي ينادينني فريدي، وأريد أن نكون رفيقتين، أنا وأنت". تلك كانت الموضة الرائجة آنذاك، أن تطلق نساءٌ مثل وينيفريد على أنفسهن أسماء مصغرة توحي بأنهن لا يزلن في ريعان الشباب: بيلي، بوبي، ويلي، تشارلي. لم يكن لي اسمٌ مصغّر كهذا، لذا لم أمنحها اسمًا في المقابل.

"أوه، أهذا هو الخاتم؟ آيةٌ في الجمال أليس كذلك؟ أنا من ساعد ريتشارد على اختياره – فدائماً ما يطلب مني التسوق لأجله. الصداع الذي يصيب الرجال، ألا تتفقين معي، جراء التسوق أعني؟ اقترح في البداية خاتماً من الزمرد، لكن لا خاتم يضارع في الجمال خاتم الألماس، أليس كذلك؟"

بينما كانت تقول لي كل هذا الكلام، أخذت تتفحصني ملياً بلذةٍ باردة، كي ترى ما الذي ستكون عليه ردة فعلي على كلامها – الانتقاص من أهمية اختيار خاتم خطوبتي إلى مهمة تسوقٍ عادية. عيناها كانتا ذكيتين وضخمتين بشكلٍ غريب، مع الشدو الأخضر على جفنيها. حاجباها المنتوفان المرسومان بالقلم أخذا هيئة قوسين انسيابيّين، ما منحها تلك الملامح الموحية بالضجر، وفي ذات الوقت، بالاندهاش الشكّاك، ذات الملامح التي روجن لها نجمات السينما في ذاك العصر، رغم أني أشك أن وينيفريد قد أبدت يوماً أي اندهاش. أحمر الشفاه كان باللون الزهري البرتقالي الغامق، درجةُ لونٍ نزلت التو في السوق – "الروبيان" كان اسم اللون الرائج كما عرفت لاحقاً من إحدى المجلات التي قرأتها في فترات بعد الظهيرة. فمها كان له ذات الطابع السينمائي لحاجبيها، نصفا شفتها العليا كانتا مرسومتين كما رأسَي قوس كيوبيد. صوتها بدا كالصوت الذي ندعوه بصوت الويسكي – خفيض، عميق، ذا نبرةٍ جشة وكأن صوتها يحتُّ على لسان قطة – كما المخمل المصنوع من الجلد.

(كانت لاعبة ورق، هذا ما اكتشفته لاحقاً. تلعب البريدج لا البوكر – لكانت لاعبة "بوكر" جيدة، فهي بارعة في الخداع، لكن المخاطرة كبيرة، سقف القمار فيها عال؛ وهي فضلت المراهنة على مبالغ معلومة. كذلك تلعب الغولف، لكن لأجل العلاقات الاجتماعية، فهي لم تكن بارعة في لعب الغولف كما كانت تدعي. رأت التنس شاقاً

عليها، كذلك لم ترغب أن يراها أحد متعرقة. هي مارست "الإبحار"، ما يعني من وجهة نظرها الجلوس على وسادة على متن القارب، على رأسها قبعة وفي يدها شراب).

وينيفريد سألتني عمّا أود تناوله، فقلت لها أي شيء. دعتني "عزيزتي"، ثم قالت لي إن سلطة والدورف ستكون خياراً مذهلاً. فأجبتها بألا مانع لدي.

لم أقو على تصور نفسي أناديها "فريدي": فقد بدا لي تصرفاً حميمياً، بل وينم عن عدم احترام. ففي الواقع كانت امرأة بالغة في الثلاثين أو على الأقل في التاسعة والعشرين من عمرها. كانت أصغر من ريتشارد بست أو سبع سنوات، لكنهما صديقان صدوقان: "ريتشارد وأنا صديقان صدوقان،" تلك كانت المرة الأولى التي تفضي فيها إليّ بهذا السر، ولن تكون بالمرة الأخيرة. بالطبع كان تهديداً، مثله مثل أي تهديدٍ ستفضيه لي بتلك النبرة السلسة. لم تكن تعني وحسب أن لها الأسبقية في ملكية أخيها، وأن ولاءً يجمعهما ببعض سيعصى عليّ فهمه، بل عنت كذلك أنّي إن فكرت يوماً بإيذاء ريتشارد والغدر به، فكلاهما سيصفيان حسابيهما معي.

أخبرتني أنها هي من تعدّ كل شيءٍ لأجل ريتشارد، المناسبات الاجتماعية، حفلات الكوكتيل والعشاء وما شابه – لأنه رجلٌ عازب، وكما قالت لي (وما ستكرر قوله لي عاماً بعد عام) "فتلك هي مهمتنا نحن البنات". ثم أخبرتني أنها سعدت بقرار ريتشارد الاستقرار أخيراً، ومع فتاةٍ يافعة مثلي. كانت هناك أمورٌ لم يمض عليها وقتٌ طويل – خيوطٌ عالقة من الماضي القريب. (كذا كانت إشارة وينيفريد الدائمة إلى النسوة في علاقات ريتشارد – الخيوط العالقة، وكأنهن خيوط شبكة صيد، أو خيوط شبكة عنكبوت، أو أفخاخ، أو مجرد بقايا لزجة من علكة واقعة على الأرض، والتي قد يعلق خيطٌ منها بنعل حذائك إن لم تنتبهي).

لحسن الحظ فقد تملص ريتشارد من تلك الخيوط العالقة، لكن هذا لا يعني أن النسوة قد توقفن عن ملاحقته في كل مكان. فقد كن يلاحقنه جماعاتٍ، كما قالت وينيفريد هامسةً بنبرة صوت الويسكي الخفيضة، وإذ ارتسمت في خيالي حينها صورة ريتشارد، ملابسه ممزقة، شعره المسرح بعناية يغدو أشعثاً، يفر مذعوراً

ومن ورائه قطيع النساء يطاردنه نابحات. لكني لم أكن لأصدق صورةً كهذه. ما كان بوسعي تخيل ريتشارد راكضاً، أو متعجلاً، أو حتى خائفاً. ما كان بوسعي تخيله واقعاً في التهلكة.

أومأت لها وابتسمت، محتارةً بشأن الموقع الذي أنتمي إليه. فهل أنا خيطٌ من تلك الخيوط العالقة؟ ربما. بيد أنَّ في ظاهر الأمور كانت قد تركتني مع الانطباع بأن ريتشارد رجلٌ مهمٌ جداً وعمادٌ من أعمدة المجتمع، لذا فعليّ أن أراعي الأصول وآداب السلوك في كل تصرفٍ من تصرفاتي إن أردت بلوغ مستواه. "لكني متأكدة أنك ستتدبرين أمرك،" قالت لي وينيفريد في ابتسامةٍ واهية. "فأنت لا تزالين يافعة جداً". إن كان عمري اليافع يدل على شيء، فإنما يدل على ضعف احتمال تدبر أموري، وهو تماماً ما كانت تعتمد عليه وينيفريد. فلم يكن لديها أي نية في التخلي عن أي ذرة من مسؤوليتها في تدبر الأمور.

طبقا سلطة والدورف وصلا. وأخذت وينيفريد تراقبني وأنا أرفع السكين والشوكة - على الأقل لم آكل بيديّ العاريتين، هذا ما قرأته على ملامحها، ثم تنهدتْ تنهيدةً صغيرة. أدرك الآن أني مثلت لها مهمةً شاقة. لا شك أنها رأتني فتاةً متجهمة كئيبة، أو غير ودودة ولا مستجيبة: فلا مواضيع خفيفة لدي أحادثها بها، كم كنت جاهلةً، كم كنت ريفية. أو ربما تنهيدتها كانت دلالة ترقب - ترقب الجهد الذي كانت ستبذله عليّ، فلم أكن سوى كتلة طينٍ صلصال، وكان عليها أن تشمر عن ذراعيها وتنكب على قولبتي.

ولا وقت خيرٌ من الحاضر. لم تهدر حتى ثانية. أسلوبها اعتمد التلميح، الاقتراح. (كان لديها أسلوبٌ آخر - الضرب بالهراوة - لكني لم أصادف أسلوبها هذا في ذاك الغداء). أخبرتني أنها عرفت جدتي، أو على الأقل سمعت بها. فنساء مونتفورت في مونتريال يحتفى بأناقتهن، لكن بالطبع آدليا مونتفورت توفيت قبل أن أولد. تلك كانت طريقتها في إعلامي أنّ رغم أصلي الكريم ففي واقع الأمر سنضطر للبدء من الصفر.

ألمحت إليّ أنّ ملابسي هي أقل مشاكلي. فالثياب تشترى بطبيعة الحال، لكن عليّ

أن أتعلم ارتدائها بما يليق، "وكأنها جلدك عزيزتي". أما شعري فما كان يمت للأناقة بصلة – طويل، منسدل دون تموجات، ممشط إلى الخلف ومثبت بمشبك. حله الوحيد زوج مقصات وتمويج. ثم جاء الدور على أظافري. "لا شيء مبهرج عزيزتي،" إذ كنت صغيرةً جداً على البهرجة. "بوسعك أن تكوني فاتنة،" قالت لي وينيفريد. "فاتنة بكل تأكيد، لكن مع قليلٍ من الجهد".

استمعت إليها ذليلةً، ممتعضة. فقد كنت مدركة لافتقاري الفتنة. أنا ولورا افتقرنا إليها. من أين لنا الفتنة، فقد بدونا إما متحفظتين جداً أو بليدتيْ الحس جداً. لم نتعلمها يوماً، لأن ريناي أفسدتنا. كانت وجهة نظرها أن مكانتنا في المجتمع وحدها تكفي. ما كان ليليق بنا أن نعرض أنفسنا للناس، نتودد إليهم بالتملق والملاطفة ورفرفة الأعين. أظن أبي قد اختبر الفتنة في نساء أخريات، لكنه لم يغرس فينا أيَّ ذرةٍ من فتنة. فهو أرادنا أن نغدو ولديْن، وها هي أمنيته قد تحققت. فأنت لا تعلّم الأولاد الفتنة. فالناس سيرون في فتنتهم أمراً مريباً.

أخذت وينيفريد تتأملني وآنا آكل، على شفتيها ابتسامةٌ ساخرة فضولية. فهأنذا أتحول في خيالها إلى سلسلة صفات – إلى سلسلة نوادر مضحكة ستورويها لاحقاً لرفيقاتها، بيلي وبوبي وتشارلي. بدت لي فقيرة في ملابسها تلك. أكلت بنهم وكأنهم لم يطعموها قط. أما الحذاء!!

"حسنٌ،" قالت وينيفريد ما إن انتهت من تحريك ولكز سلطتها – وينيفريد لم تنهِ وجبةً في حياتها – "فلنوحد جهودنا الآن ونفكر معاً".

لم أفهم ما كانت تعنيه. فتنهَّدت تنهيدة صغيرة أخرى. "التخطيط للزفاف، فلا وقت كافٍ لدينا. نعقد القران في كنيسة الحَواريّ سيمون، ثمّ ننتقل إلى قاعة الرقص الرئيسية في رويال يورك، من أجل الاستقبال".

أظنني تخيلت حينها أن أبي سيسلمني بكل بساطة إلى ريتشارد وكأني طرد؛ لكن لا، يبدو أن هناك طقوساً لا بد وأن تقام –ـ العديد منها. حفلات الكوكتيل، حفلات الشاي، حفلات الهدايا، التقاط الصور الرسمية للصحف. كان سيبدو مثل حفل زفاف أمي، مثل تلك القصص التي كانت ترويها لنا ريناي، لكن عكسياً ومع العديد

من القطع المفقودة. فأين المقدمة الرومانسية؟ أين هو الشاب الراكع عند قدميّ؟ شعرت بموجةٍ من الفزع تجتاحني صعوداً من ركبتيّ وتتجلى على ملامح وجهي. وينيفريد رأت تلك الموجة، لكنها لم تفعل شيئاً لطمأنتي. هي لم ترد طمأنتي.

"لا تقلقي عزيزتي،" قالت لي في نبرةٍ تدل على أملٍ واهن. ثم ربتت على ذراعي قائلةً، "سأمسك بك طوال الطريق". شعرت بكل شذرةٍ من إرادتي تنزُّ مني – أيُّ قوةٍ تبقت لدي على التصرف بحريتي كانت قد انسابت مني. (فعلاً!! لدى تفكيري الآن بالأمر أراها كانت تتصرف مثل صاحبة ماخور، في الحقيقة لم تكن سوى قوّاد).

"يا إلهي، قد مر الوقت سريعاً". ساعتها كانت فضية وسلسة، مثل شريطٍ من المعدن المنصهر؛ نقطٌ عليها عوضاً عن الأرقام. "عليّ أن أغادر الآن. سيحضرون لك كوب شاي وطبق "فلان" أو أي طبق حلويات ترغبين به. فالفتيات الصغيرات أسنانهن حلوة، أو أسنانٌ لبنية حلوة؟" قالتها ضاحكةً، ثم نهضت عن كرسيها ومنحتني قبلةً روبيانيّة اللون، لم تقبلني على وجنتي، بل على جبهتي. تلك كانت طريقتها في تحجيمي، والذي بدا واضحاً أنه حجم طفل.

شاهدتها تقطع المساحة المتموجة الباهتة للبلاط الأركادي وكأنها تنزلق على الجليد، مع إيماءاتٍ صغيرة وتلويحٍ دقيقٍ مُعبّر ليدها. الهواء انشقَّ أمامها كما الأعشاب الطويلة؛ بدت وكأنّ ساقيها ليستا متصلتين بحوضها بل مباشرةً بخصرها؛ لا شيء كان يتهزهز فيها. كان لي أن أشعر بأجزاء من جسدي تبرز خارجاً، عن جانبيْ الأشرطة وأعلى جواربي. كم تقت إلى إتقان مشيةٍ كتلك، سلسة جداً، أثيرية جداً، ومنيعة.

لم أزفّ من آفيليون، بل من بيت وينيفريد الخشبي في روزدايل ذي الطراز التيودريّ الزائف. إذ رأت من المناسب أن أزفَّ من هناك بما أن معظم الضيوف هم من تورنتو. كذلك كي لا يحرج أبي، والذي ما عاد يملك ما يكفي لإقامة نوع الزفاف الذي شعرت وينيفريد بأنها تستحقه.

كذلك لم يكن قادراً على تحمل تكلفة الملابس: وينيفريد تولت الأمر. فقد خزَّنَت في أمتعتي – في صندوق ثيابٍ من عدة صناديق جديدة – زي تنس مع أني لا ألعب

التنس، زي سباحة مع أني لا أسبح، وعدة ثيابٍ للرقص مع أني أجهل تماماً كيف أرقص. فأين كان سيتسنى لي تعلم كل تلك المهارات؟ حتماً ليس في آفيليون؛ حتى السباحة، لأن ريناي ما كانت لتسمح لنا. لكن وينيفريد أصرّت على ارتدائي تلك الملابس. أخبرتني أنها مجرد أزياء للعب الأدوار، بغض النظر عن عجزي، الذي عليّ أبداً ألا أعترف به. نصحتني قائلةً: "فقط قولي إنك تعانين من صداع، فهذا العذر دائماً مقبولٌ".

كذلك شاركتني بنصائح أخرى عديدة. "لا بأس إن أظهرت الضجر، لكن إياك أن تظهري الخوف. سيشمون رائحة الخوف تنساب منك وينقضون عليك في مقتل كما أسماك القرش. لك أن توجهي نظرك نحو طرف الطاولة فمن شأن ذلك أن يبرز جفنيك، لكن إياك النظر نحو الأرض إذ سيبدو عنقك واهناً. لا تقفي باستقامة، فأنت لست بجندي. وإياك ثم إياك أن تحني رأسك بتذلل. إن وجّه أحدهم إهانةً إليك، قولي له اعذرني؟ وكأنك لم تسمعيه؛ تسع من عشر مرات لن يجرؤ على إعادة كلامه. لا ترفعي صوتك أبداً للنادل، فهذا تصرفٌ سوقيّ. دعي النادل ينحني إليك، فتلك هي وظيفته. لا تتململي بقفازيك أو شعرك. دائماً أظهري أن لديك شيئاً أفضل كي تفعليه، لكن لا تظهري أبداً ضيق الصدر. متى ما انتابك الشك، توجهي إلى غرفة المساحيق، لكن على مهل. فالكياسة تأتي من اللامبالاة". تلك كانت مواعظها لي. وعليّ أن أعترف، رغم كرهي لها، فقد أثبتت تلك المواعظ قيمتها في حياتي.

قضيت الليلة السابقة للزفاف في أفضل غرفة نوم في بيت وينيفريد. "كوني جميلة". قالت لي وينيفريد مرحة، في تلميحٍ لي أني لست بجميلة. كانت قد أعطتني مرهماً بارداً وعدة قفازات قطنية – كان عليّ أن أدهن يديّ بالمرهم ثم أرتدي القفاز. كان المفترض بهذا العلاج أن يجعل يديّ بيضاوين وناعمتين – مثل قوام دهن اللحم المقدد النيء. وقفت في الحمام المتصل بالغرفة، أستمع إلى صوت قعقعة قطرات الماء تتساقط على أرضية الحوض البورسلان بينما أجسّ وجهي الذي أتأمله في

المرآة. وجهي بدا ممسوحاً، أجرداً من أي ملامح، كأني صابونة بيضاوية مستعملة، أو قمرٌ منحمق.

دخلت لورا من غرفتها عبر الباب المشترك وجلست على المرحاض المغلق. لم يكن من عادتها الطرق على الباب، ليس متى ما كانت تدخل عليّ. كانت ترتدي ثوب نومٍ قطنيٍّ أبيض بسيط، كان يعود لي، وشعرها مربوطٌ للوراء؛ لفّةُ خصلها الصفراء الفاتحة منسدلةٌ على كتفٍ واحدة، قدماها حافيتان.

"أين خفّاك؟". تعابير وجهها كئيبة. مع ملامحها تلك، وثوبها الأبيض وقدميها الحافيتين، بدت وكأنها تائبة، مهرطقة في لوحةٍ قديمة، في طريقها إلى الإعدام. يداها كانتا متشابكتين أمامها، أناملها تطوّق فراغاً دائرياً، وكأنما كانت تحمل شمعةً مضاءة.

"نسيتهما". متى ما ارتدت زياً رسمياً بدت لورا أنضج من عمرها بسبب طول قامتها، لكنها بدت لي الآن أصغر؛ بدت لي في الثانية عشرة من عمرها، تفوح منها رائحة طفلٍ رضيع. مصدر الرائحة كان الشامبو الذي تستخدمه – فقد غدت تستخدم شامبو الأطفال لأنه أرخص. اختياراتها انصبت كلها في محاولاتها العبثية للادخار. أخذت تمعن النظر في الحمّام من حولها، تأملت الأرضية المبلطة، ثم قالت، "لا أريدك أن تتزوجي".

فأجبتها، "أدري، لم تألِ جهداً في توضيح موقفك". إذ كانت قد أبقت على ملامح وجهها الكئيبة على امتداد مراسم الزواج – حفل الاستقبال، أخذ القياسات، البروفات – بالكاد تعاملت بتهذيب مع ريتشارد، ومع وينيفريد أظهرت لها الطاعة العمياء، وكأنها خادمة قيد التمرين. أما معي فقد تعاملت بغضب، وكأنّ هذا الزفاف في أفضل أحواله نزوةٌ خبيثة، أو في أسوئها صدٌّ لها. في البداية ظننتها تغار مني، لكن لم تكن الغيرة بالضبط هو ما تشعر به اتجاهي. "ولم لا يجدر بي الزواج؟" "لأنك يافعة".

"أمنا كانت في الثامنة عشرة. وعلى أي حال أنا ناهزت تقريباً التاسعة عشرة".

"لكنها تزوجت من الرجل الذي تحبه. هي أرادت الزواج منه".

ساخطةً قلت لها، "وما يدريك أني لا أود الزواج؟"
ردّي شكم لجامها لدقيقة، لكنها عاودت الكلام. "من المستحيل أن تريدي الزواج منه،" قالت رافعةً عينيها إليّ. عيناها كانتا زهريتين ورطبتين: فقد كانت تبكي. وكم أزعجني بكاؤها: فبأي حق يتسنى لها البكاء؟ إن كان هناك من أحدٍ يحق له البكاء فهو أنا.
رددت عليها بقسوة، "لا يهم ما أريده أنا. هذا هو الخيار المنطقي. فنحن لا نملك أي مال، أم تراك لم تلاحظي ذلك؟ أتريدين أن نُرمى في الشارع؟"
"بوسعنا الحصول على وظائف". قنينة عطري كانت موضوعة على إفريز النافذة جانبها، وبلا وعي تناولتها لورا وتعطرت بها. كان عطر ليو من غارلان، هدية من ريتشارد. (وينيفريد من اختارتها وحرصت على إعلامي بذلك. الرجال يرتبكون لدى منصات العطور، أليس كذلك؟ فما أدراهم بالفرق بين عطرٍ وآخر؟)
"لا تكوني غبية. فما عسانا نعمل؟ إياك أن تكسري القنينة!"
"أوه، بوسعنا فعل الكثير". قالت لي بنبرةٍ مبهمة، معيدةً القنينة إلى مكانها. "بوسعنا أن نعمل نادلتين".
"لن يوفِ تكاليف معيشتنا. فالندل بالكاد يكسبون مالاً. عليهم أن يتذللوا مقابل البقشيش. وأقدامهم مع الأيام تصبح مسطحة. وأنت تجهلين تكلفة أي شيء".
بدا وكأني أحاول شرح مسألةٍ رياضية لعصفور. "المصانع أغلقت، آفيليون تنهار، سيبيعونها، البنوك تلاحق أبي وستنقض عليه كما الذئاب. ألم تري أبي؟ ألم تري حاله؟ كم يبدو رجلاً مسناً".
"إذن لأجله، لأجله ستتزوجين. أظنني فهمت الآن. أراه شجاعةً منك".
"أنا أفعل ما أراه صواباً". أحسست لحظتها بأني إنسانةٌ فاضلة، لكن في ذات الوقت مظلومة، كدت أبكي. لكن إن بكيت فكان سيعني نهاية المطاف.
"ليس صحيحاً. فما تفعلينه ليس أبداً بالصواب. لا يزال بيدك وضع حدٍ لهذا الزفاف، فلم يفت الأوان بعد. بإمكانك الفرار الليلة وترك رسالة. سآتي معك".
"كفي عن إزعاجي، لورا. فأنا ناضجة بما يكفي لأعرف ما أفعل".

"لكن سينبغي عليك أن تدعيه يلمسك، تدرين، ليس التقبيل وحسب. ستجبرين على تركه ..".

"لا تقلقي عليّ، فقط دعيني وشأني. فعيناي مفتوحتا ن".

"مثل السائر في نومه،" قالت لي. ثم تناولت علبة الذرور، فتحتها، تنشقتها، ثم نجحت في إراقة حفنةٍ منها على الأرض. "حسنٌ، على أي حال ستحظين بملابس جميلة".

كنت سأضربها. فذاك بالطبع كان سلواني السري.

بعد مغادرتها الغرفة، مخلفةً وراءها أثراً مغبراً أبيض لطبعتَيْ قدميها، جلست على حافة السرير، أحدق في صندوق أمتعة السفر. كان صندوقاً كبيراً من أحدث طراز، أصفر باهتًا من الخارج وأزرق غامقًا من الداخل، كان مُقَوْلَد، رؤوس مساميره تبرق مثل نجومٍ معدنيةٍ صلبة. كل ما فيه كان موضباً بترتيب، كل احتياجاتي لرحلة شهر الغسل كاملةً دون أي نقصان، بيد أنه بدا لي ظلمةً غامرة، فراغاً عارماً – فضاءً خاوياً.

قلت لنفسي، ها هو جهازي. وفي تلك الوهلة انتابتني الرهبة من تلك الكلمة – كم كانت غريبة، كم كانت نهائية. بدت لي وكأنها "أجهزت عليّ" – كما يفعلون بسياخهم وخيوطهم في الديك الرومي النّيء.

قلت في نفسي، فرشاة أسنان. سأحتاج إليها. بيد أن جسدي ظلَّ جامداً دون حراك.

"Trousseau"(110) مشتقة من المرادف الإنجليزي "trunk(111)". هذا كل ما في الأمر، هذا ما يعنيه جهاز العروس: أغراضٌ توضع في صندوق. لذا لم يكن من داعٍ كي أتضايق بشأنها، فكل ما هنالك أن لديّ أمتعة. وتلك الأمتعة هي كل ما سأحمله معي، موضبةً في صندوق.

---

(110) في النص الأصلي للرواية في لغتها الإنجليزية، الكلمة "trousseau" هي المفردة المستخدمة في الإشارة إلى جهاز العروس.

(111) Trunk: صندوق الثياب.

التانغو

ها هي صورة الزفاف:

امرأةٌ يافعة في فستانٍ من ساتان مدْروزٍ عند الحواف، النسيج أملس، مع ذيلٍ منبسط حول قدميها كما طيات المروحة، كما الدّبس المُراق. هناك خطبٌ ما في تلك الوقفة، وكأنها وقفة شابٍ طويلٍ أخرق، وضعية وركيها، قدميها، وكأن جذعها غير متناسب البتة مع تفصيل الفستان – منتصبٌ زيادة عن اللزوم. هذا الفستان يتطلب وقفة لا مبالية، مترهلة، انثناءات متمعجة، أقرب إلى مسلولٍ أحدب.

الخمار ينسدل مستقيماً على جانبيْ رأسها، مقدمته منسدلة فوق حاجبيها ملقياً ظلاً قاتماً على عينيها. لا أسنان ظاهرة في ابتسامتها. إكليل رأسها زهورٌ بيضاء صغيرة؛ من بين ذراعيها في القفازين الأبيضين تتشلشل باقةٌ من زهور كبيرة، بيضاء وزهرية ممزوجة بزهور الستيفانوتس – القفازان الطويلان بالكاد يصلان مرفقيها الظاهرين. إكليل – شلشال – تلك هي المصطلحات التي كانت تستخدمها الصحف. استحضار أرواح الراهبات والمياه المنعشة المحفوفة بالأخطار. "عروسٌ جميلة" كان الاقتباس. كان من عادتهم أن يصفوا العرائس هكذا. في حالتها الجمال كان مفروضًا، فمبالغ كبيرة قد أنفقت على الزفاف.

أشير "إليها" بضمير الغائب لأني لا أذكر وجودي هناك، ولا بأي معنى للكلمة. أنا وتلك الفتاة في الصورة ما عدنا ذات الشخص. أنا عاقِبتُها، نتاج حياتها التي قضتها متهورة فيما مضى؛ أما هي، إن كان لي أن أزعم أنها كانت حقاً موجودة يوماً ما، فهي نتاج ذاكرتي. أنا من أملك رؤيتها، أنا من أراها جيداً وبكل وضوح، معظم الأحيان.

لكن حتى وإن ملكت هي شيئاً من البصيرة كي تنظر إليّ، لما كان بوسعها أن تراني على الإطلاق.

ريتشارد يقف إلى جانبي، مثيراً للإعجاب وفق معايير ذاك الزمان والمكان، أي أنه بدا شاباً كفاية، ليس بقبيح، وموسرًا. بدا وجيهاً، لكن في ذات الوقت ساخراً: حاجبٌ من حاجبيه مرفوع، الشفة السفلى بارزة قليلاً، الفم على حافة الابتسام، كأنما سيضحك على نكتةٍ خفيةٍ خبيثة. زهرة قرنفل في العروة، شعره المرجّل للخلف يبدو كما قبعة الاستحمام المطاطية، ملتصقٌ برأسه بتلك المادة اللزجة التي اعتادوا استخدامها آنذاك. لكن، ومع ذلك، يبقى رجلاً وسيماً. عليّ أن أعترف له بذلك. رجلٌ دمث. رجلٌ متأنق.

هناك أيضاً عدة صور جماعية – في الخلفية فريقٌ من الأشابين يرتدون الطقم الرسمي، هو ذات الطقم الذي يرتديه الرجال في حفلات الزفاف والعزاء ومتى ما أصبحوا رؤساء ندل. وفي الواجهة، الإشبينات برّاقات، باقات الورود بين أيديهن ترغي بالأزهار. لورا كانت قد نجحت في تخريب كل صورة منها. ففي إحداها بدت مصممة على تقطيب وجهها، وفي أخرى لا بد وأنها حركت رأسها لذا بدا وجهها مغبشاً وكأنها حمامة اصطدمت بعنف بزجاج نافذة. وفي الثالثة كانت تقضم أحد أصابعها، عيناها المذنبتان تزوغان يمنةً ويسرة وكأن أحدهم قد فاجأها تدس يدها في درج مجوهرات. أما الصورة الرابعة فلا بد وأن عطباً ما قد أصاب الفيلم، فهناك تأثيرٌ مرقّش للضوء، لم يكن الضوء مشعاً من الأعلى اتجاه الأسفل، بل العكس، وكأنها كانت واقفة على حافة حوض سباحة ساطع، في ظلمة الليل.

بعد انتهاء طقوس الزفاف وجدت ريناي هناك، ترتدي ثوباً محتشماً أزرق وقبعة ريش. ضمتني بقوة إلى صدرها قائلةً، "لو كانت أمك هنا". ما الذي عنته بقولها هذا؟ أكانت أمي ستصفق لي، أم كانت ستضع حداً لطقوس الزفاف قبل أن يتم؟ من نبرة صوتها، قد يكون أحد الاحتمالين. ثم بكت. أنا لم أبكِ. الناس يبكون في حفلات الزفاف لذات السبب الذي يبكون فيه على النهايات السعيدة في القصص والأفلام: لأنهم يحاولون يائسين الإيمان بشيءٍ هم يوقنون بعدم معقوليته. لكني

يومها تجاوزت تلك الأفكار الطفولية؛ كنت أتنفس الهواء القاتم لحرية التحرر من الأوهام، أو هكذا ظننت.
وبالطبع كانت هناك قوارير الشمبانيا. وجودها أساسي وما كانت وينيفريد لتلغيها من المراسم. البعض تناول الطعام. الخطب ألقيت، والتي لا أذكر أي كلمةٍ منها على الإطلاق. هل رقصنا؟ أظن. لم أعرف كيف أرقص، لكني وجدت نفسي على حلبة الرقص، لذا ولا بد أن رقصتنا قد شابها التعثر والزلات.
ثم بدلت ملابسي وارتديت بدلة السفر. كانت بدلة من قطعتين، من نسيجٍ صوفي ربيعي خفيف باللون الأخضر الفاتح، مع قبعةٍ رزينة مطابقة للبدلة. كلفت ثروةً كما أخبرتني وينيفريد. وقفتُ رابطة الجأش على الدرجات مستعدةً للمغادرة، أي درجات؟ لا بد وأنها اختفت من الذاكرة. ثم رميت بباقة الورد اتجاه لورا. لم تلتقطها. اكتفت بالوقوف هناك في فستانها الصدفي الزهري تنظر إليّ شاخصةً بعينيها الباردتين، تقبض على يديها وكأنها تكبح نفسها، وإحدى الإشبينات – أظنها قريبة من أقرباء غريفين – التقطتها مفجوعةً، وكأن الباقة وجبة طعام.
كان أبي قد اختفى في ذاك الوقت. سيانٌ لدي، فآخر مرة شوهد في الحفل كان سكراناً حد الثمالة. أتوقعه ذهب إلى مكانٍ ما كي ينهي ما بدأه.
ثم قادني ريتشارد من مرفقي نحو سيارة المغادرة. لا أحد يفترض به أن يعرف وجهتنا، وجهة توقعتها في مكانٍ ما خارج المدينة – مكانٍ ما منعزل، نزلٌ رومانسي. كل ما حدث في واقع الأمر هو أن السيارة جالت في الشارع ووقفت عند الباب الجانبي لفندق رويال يورك حيث أقمنا التو مراسم الاستقبال، وهربونا في المصعد إلى الأعلى. فكما قال ريتشارد، طالما سنستقل القطار صباح غد إلى نيويورك من محطة يونيون مقابل الفندق، فلم نتعنى الذهاب والعودة؟

بخصوص ليلة زفافي، أو بالأحرى عصر زفافي – فالشمس لم تكن قد غربت بعد والغرفة، كما يقال، كانت مغمورةً في ضيائها المتورد لأن ريتشارد لم يسدل الستائر – فسأحكي النزر القليل جداً. لم يكن لدي أي فكرة عما سأتوقعه؛ مصدري الوحيد

كانت ريناي، والتي قادتني إلى التصديق بأن أياً كان ما سيحدث لي فهو أمرٌ كريه وفي الغالب مؤلم، وفي هذه هي صدقت. كذلك ألمحت لي أن هذا الإحساس أو الحدث البغيض سيضحو مع الأيام أمراً اعتيادياً – كل النساء مررن بتلك التجربة، أو على الأقل المتزوجات منهن – لذا عليّ ألا أثير أي جلبة. ابتسمي واكبتي في صدرك كانت نصيحتها لي. أعلمتني كذلك أن الأمر سيتضمن نزيفاً بسيطاً، وفعلاً كان هناك نزيف. لكنها لم تعلمني بسبب النزيف. تلك الجزئية كانت مفاجأةً لي.

لم أعِ حينها أنَّ افتقاري للمتعة – نفوري وحتى معاناتي – سيراها زوجي أمراً اعتيادياً، بل وحتى مرغوباً. كان أحد هؤلاء الرجال الذين رأوا خيراً في افتقاد زوجاتهن للمتعة الجنسية، لأن من شأن ذلك أن يحول دون سعيهن إليها لدى رجالٍ آخرين. ربما هذا ما كان عليه نمط تفكير الرجال آنذاك. أو ربما لا. فما أدراني.

كان ريتشارد قد تدبر إرسال قنينة شمبانيا إلى الجناح في اللحظة التي توقعها اللحظة المناسبة، ومع القنينة مائدة العشاء. عرجت في طريقي إلى الحمام وأقفلت على نفسي بينما أخذ النادل يعد لنا المائدة، على طاولةٍ محمولة يغطيها مفرشٌ كتاني أبيض. كنت أرتدي الثوب الذي رأته وينيفريد لائقاً بالمناسبة، قميص نومٍ من الساتان بدرجة لون السلمون الزهري، مع حاشية رقيقة من الدانتيل بلون نسيج العنكبوت. حاولت تنظيف نفسي بمنشفة صغيرة، ثم تساءلت عمّا سأفعله بهذه: اللطخة الحمراء كانت جلية، كأني نزفت من أنفي. في النهاية ارتأيت رمي الثوب في كيس المهملات وأملت أن تظن الخادمة أني أوقعته بالخطأ.

ثم رششت نفسي بعطر ليو[112]، وجدت رائحته واهنة وباهتة. وكنت قد اكتشفت حينها المغزى من وراء الاسم، كان اسم شخصية فتاةٍ في أوبرا – جارية، والتي كان مصيرها الانتحار عوضاً عن خيانة الرجل الذي تحب، والذي بدوره كان قد أحبَّ فتاةً أخرى. كذا هي تصاريف الدهر، في الأبراليات. لم أجد دلالة بشارة في رش هذا العطر، لكني اضطررت لرشه لأن رائحتي غدت غريبة. وكانت بالفعل غريبة. والغرابة كان مبعثها ريتشارد، لكنها باتت الآن رائحتي. أملت أني لم أصدر الكثير من

(112) الشخصية "ليو" هي إحدى شخصيات الأوبرا توراندوت – Turandot لجاكومو بوتشيني.

الأصوات المزعجة. لهاثٌ لا إرادي، شهقات حادة، وكأني كنت أغطس من علوٍّ في ماءٍ بارد.

وجبة عشاءنا تضمنت طبق ستيك وطبقاً جانبياً من السلطة. اكتفيت بتناول السلطة. كل أوراق الخس في الفنادق آنذاك كانت تحمل ذات المذاق. مذاق ماءٍ باهتٍ أخضر، كما مذاق الصقيع.

رحلة القطار إلى نيويورك صباح اليوم التالي جاءت خالية من الأحداث. ريتشارد انكب على تصفح الجرائد بينما تصفحت أنا المجلات. لم تختلف طبيعة الأحاديث بيننا عن تلك الأحاديث التي تبادلناها قبل الزفاف. أصفها مترددةً بالأحاديث، فأنا بالكاد كنت أنطق بأي كلام، فقط أبتسم موافقةً دون إصغاء.

في نيويورك، تناولنا العشاء في مطعم برفقة أصدقاءٍ لريتشارد، رجل وزوجته نسيت اسميهما. كانا حديثَيْ نعمة وبلا شك: حديثان حدَّ الزعيق. ملابسهما بدت وكأنهما أغرقا جسديهما بالصمغ ثم تقلّبا في أنواط المائة دولار. تساءلت بيني وبين نفسي، من أين لهما هذا، كل هذا المال؛ فرائحةٌ نتنة كانت تنبعث منه.

لم تجمعهما معرفة وطيدة بريتشارد، ولا حتى تاقا إليها: كانا مدينيْن له بشيء، هذا كل ما في الأمر – يدينان له بمعروفٍ لم يصرحا به أمامي. كانا خائفين منه، متزلفين له. استنتجت ذلك من لعبة الولاعات: من يشعل سيجارة من، وبأي سرعة. ريتشارد استمتع بتزلفهما له. استمتع بإشعالهما سجائره، وبالتبعية، سجائري.

وفجأةً خطرَ لي أنّ ريتشارد لم يرغب بقضاء الوقت معهما لأنه أراد أن يحيط نفسه بزمرةٍ صغيرة متملقة وحسب، بل لأنه لم يرغب بالتواجد وحده معي. لا يسعني لومه: فبالكاد كنت أقول أي شيء. ومع ذلك – بينما نحن برفقة الناس – رأيته حريصاً عليّ، يسدل المعطف على كتفيّ بكل حنان، يبدي لي لحظات اهتمامٍ ويعاملني بدلال، ودائماً ما كان يضع يده عليَّ برقة، في مكانٍ ما. ومن وقتٍ لآخر يتلفت حوله متفحصاً القاعة، ليرَ بعينيه مَن مِن الرجال يحسدونه على وضعه.

طبعاً ما أقوله الآن هو من باب التأمل والاستذكار: أما حينها فلم أعِ لأي شيء.

المطعم كان باهظاً جداً، وحديثاً جداً. لم يسبق لي أن رأيت مثيلاً له. الأشياء فيه براقة لا متألقة وحسب؛ الخشب المبيَّض والزخارف النحاسية والزجاج المبهرج في كل الأرجاء، والكثير الكثير من الصفائح الرقيقة اللامعة. ومعها منحوتاتٌ نحاسية أو فولاذية لنساء من الطراز الحديث، ملساء كحلوى التوفي، لهن حواجب لكنهن دون أعين. أوراكهن وأفخاذهن انسيابية لكنهن دون أقدام، أذرعتهن منصهرة في أجذاعهن؛ كواكب بيضاء من رخام، المرايا دائرية كما الكُوّات. على كل طاولة زهرة زنبق لوفيّة في مزهريةٍ نحيفةٍ فولاذية.

أصدقاء ريتشارد كانوا أكبر منه عمراً، والمرأة بدت أكبر من زوجها. كانت ترتدي فرو منكٍ أبيض، رغم الأجواء الربيعية. وكذلك ثوبها أبيض هو الآخر. التصميم مستلهم – كما أخبرتنا بالتفصيل – من الحضارة الإغريقية، من تمثال النصر المجنح ساموثريس بالتحديد. طيات الثوب مثبتة حولها برباطٍ ذهبي أسفل نهديها وبرباطٍ آخر متصالب بينهما. قلت في نفسي لو كان نهداي مترهلين ورخوين كنهديها لما ارتديت أبداً ثوباً كهذا. جلدها الظاهر أعلى تقويرتها كان منمشاً ومتجعداً، وكذا الحال مع ذراعيها. زوجها جلس صامتاً إلى جانبها بينما تتكلم، شابكاً يديه في قبضة، نصف ابتسامته جامدة كما الإسمنت؛ مطرقاً رأسه يتأمل بحكمة مفرش الطاولة. فقلت لنفسي إذاً هذا هو الزواج: حياةٌ من مشاركة الضجر، العصبية والنزق، وتلك الأخاديد الصغيرة للماكياج السائل على طرفي الأنف.

"لم يحذرنا ريتشارد أنك يافعة إلى هذه الدرجة،" قالت المرأة لي.

فأردف زوجها قائلاً: "سيذوي مع الأيام،" فضحكت زوجته. تفكرت في تعبيرها يحذرنا: فهل أنا خطرة؟ بت أرى الآن أني كنت خطرة كما الخراف. فهي غبية حد المجازفة بحياتها، قد تعلق على حفا هاوية أو تجد نفسها محاصرة من الذئاب، والراعي هو من عليه أن يجازف بعنقه كي ينقذها من ورطتها.

بعدها بوقتٍ قريب – بعد قضائنا يومين في نيويورك، أم تراها كانت ثلاثة؟ – قطعنا المحيط إلى أوروبا على متن بيرينجيريا التي وصفها ريتشارد بالباخرة التي لا يستقلها

إلا من كان ذا قيمة. البحر لم يكن هائجاً في تلك الفترة من العام، بيد أني مرضت كما الكلب. لم الكلب بالذات؟ لأن الكلب دائماً ما يبدو وكأن ليس بيده فعل شيء. وكذلك بدوت أنا.

أحضروا لي حوضاً، وكوب شاي باردٍ خفيف مع سكّر ودون حليب. ريتشارد نصحني بشرب كأسٍ من الشمبانيا فهي خير علاج لتلك الحالات، لكني لم أرد أن أجازف. كان مراعياً لي إلى حدٍّ ما، وكذلك كان منزعجاً مني إلى حدٍّ ما، رغم أنه قال لي كم من المؤسف أني مرضت. قلت له أني لا أريد أن أضيع عليه قضاء الأمسية وعليه أن يذهب ويختلط بالآخرين، وهكذا فعل. الفائدة التي عادت عليّ من إصابتي بدوار البحر أن ريتشارد لم يظهر أي ميل لمشاركتي الفراش. قد يحلو الجنس رغم ظروف عديدة، لكن التقيؤ ليس أحدها.

في الصباح التالي حثني ريتشارد على بذل جهدي كي أحضر مائدة الفطور، فادعاء القوة يضمن الفوز بنصف الحرب. جلست إلى مائدتنا وأخذت أقضم قضماتٍ صغيرة من الخبز ومعها شربت كأساً من الماء، وحاولت كلّ وسعي تجاهل روائح الطبخ. كنت قد فقدت الشعور بجسدي، وجلدي بدا متجعداً مثل ورق الكريب، كنت مثل بالونةٍ مفشوشة. ريتشارد أخذ يعتني بي من حينٍ لآخر، لكن كان له الكثير من المعارف هناك، أو بدا لي أنه يعرفهم، وهم يعرفونه. كان ينهض، يصافحهم، ثم يعاود الجلوس. أحياناً يعرّفهم بي، وأحياناً لا. بيد أنه لم يعرف كل الناس الذين أراد التعرف إليهم. فقد بدا ذلك جلياً عليه، من طريقته في النظر بتمعن في أرجاء المكان، مخترقاً اياي، مخترقاً الناس الذين يحادثهم، عيناه زائغتان فوق رؤوسهم.

مع مرور اليوم أخذت صحتي تتحسن بالتدريج. إذ فادني احتساء كوب من مزر الزنجبيل. لم أتناول العشاء، لكني حضرته. كنا سنتوجه إلى الكباريه في المساء. لذا ارتديت الثوب الذي اختارته وينيفريد لمناسبةٍ كهذه، ثوبًا رماديًا بلون اليمام مع "كاب" من الشيفون الليلكي ينسدل عن الكتفين. ومعه صندلٌ ليلكي ذو كعبٍ عال ومفتوح من الأمام. لم أكن قد أتقنت بعد المشي على الكعب العالي: لذا تمايلت قليلاً أثناء سيري به. ريتشارد أخبرني أن نسيم البحر وبلا ريب يوافقني؛ إذ قال إنَّ

وجنتيّ متورّدتان، مثل وجنتي تلميذة مدرسة. وصفني بالمذهلة. قادني إلى المائدة التي حجزها لنا، وطلب كأسيْ مارتيني، لي وله. أخبرني أن كأس المارتيني سيصلح وضعي في الحال.

ارتشفت القليل منه، وبعد ذلك ما عاد ريتشارد جالساً إلى جانبي. كانت هناك مغنية واقفة تحت الضوء الأزرق. شعرها الأسود متموجٌ ومنسدل على عينها، ترتدي ثوباً أسود أنبوبياً محرشفاً بحراشف كبيرة ترتريّة، ملتصقاً بردفها البارز المشدود، ومثبتٌ على جسدها، كما بدا لي، بخيطٍ مفتول. أخذت أحدق فيها مفتونةً بها. إذ لم يسبق لي أن ذهبت إلى كباريه، ولا حتى إلى نادٍ ليليّ. أخذت تهزّ كتفيها وهي تغني ستورمي-ويذر[113] بصوتٍ متّقد وآهاتٍ مثيرة. ساقاها كانتا شبه عاريتين، كان لكِ أن تلمحي أعلاهما.

الناس جلسوا إلى طاولاتهم يشاهدونها ويستمعون إليها، يشكلون آراءهم عنها – أحرارٌ في الإعجاب بها أو انتقادها، في الاستسلام إلى إغوائها أم لا، في استحسان أدائها أو ذمه، في إطراء فستانها وردفها أم لا. أما هي فليست حرة. هي عليها أن تؤدي دورها وتسير مع التيار – عليها أن تغني وتتمايل. تساءلت كم يدفعون لها مقابل هذا، وإن كان الأمر يستحق. فقط إن كنت فقيرة، كذا قررت في نفسي. ومنذ ذاك اليوم، تلك العبارة "تحت الأضواء" بدت لي دلالةً على الإذلال. "تحت الأضواء" هو تماماً ما عليك أن تتحاشيْه، إن كان أمرك بيدك.

وبعد وصلة الغناء، جاء الدور على رجلٍ يعزف على البيانو الأبيض، عزفًا سريعاً جداً، ومن بعده دخل رجلٌ وامرأة المسرح، راقصان محترفان: وصلة تانغو. كلاهما يرتدي الأسود، تماماً كما المغنية. شعرهما يلمع كما الجلد الصقيل تحت الضوء، الذي تحول الآن إلى الأخضر الحمضيّ. كانت هناك عقصة شعرٍ داكنة ملتصقة على جبين المرأة، ووردة حمراء كبيرة خلف أذنها. حاشية ثوبها المثلثة تعلو فخذيها لذا بدت وكأنها لا ترتدي سوى جوربٍ حريريٍ طويل. الموسيقى مرتجّة ومتعرجة –

---

(113) Stormy Weather: أغنية صدرت عام 1933 للمغنية إيثيل واترز – Ethel Waters وهي أغنية عاطفية ترثي قصص الحب من طرفٍ واحد.

مثل حيوانٍ بأربع أرجل يترنح على ثلاث. مثل ثورٍ أعرج في وضعية الهجوم، يندفع برأسه للأمام.
أما بالنسبة للرقصة، فكانت أقرب إلى نزالٍ منه إلى الرقص. وجها الراقصين كانا جامدين، مجردين من أي عاطفة؛ عدا نظراتهما الشاخصة إلى بعضهما، تلك النظرات كانت لامعة، وكأنهما يتحينان الفرصة المواتية للانقضاض. كنت مدركة أنه مجرد أداء، أنّهما أدّيا دوريهما باحتراف، غير أنه بدا لي أنهما مجروحان.

حلَّ اليوم الثالث. في ساعةٍ باكرة من بعد الظهيرة ذهبت أتمشى على متن السفينة كي أتنسم الهواء العليل. ريتشارد لم يرافقني: أخبرني أنه ينتظر برقيات مهمة. كانت تصله الكثير من البرقيات؛ يقد الأظرف بقاطعة الورق الفضية، يقرأ محتواها، فإما يمزقها أو يدسها في محفظة أوراقه، والتي دائماً ما أبقى عليها مغلقة.
لم أكن تواقة إلى صحبته على متن السفينة، لكن شعرت أنّي وحيدة. وحيدة ولذلك مُهمَلة، مُهمَلة ولذلك فاشلة. أحدهم قد نبذني، كأنه نكث وعده لي؛ وكأن قلبي انفطر. جماعةٌ من الركاب الإنجليز في ثيابهم الكتانية القشدية اللون أخذوا يحدقون بي. لم تكن نظراتهم عدائية؛ بل لا مبالية، بعيدة، يعتريها فضولٌ واهن. لا أحد يحدق مثل الإنجليز. شعرت وكأني متجعدة، وضيعة، مثار اهتمامٍ ضعيف. السماء ملبّدة بالغيوم، الغيوم رمادية وداكنة، متكتلة ومتهدلة مثل الحشوات القطنية لفرشةٍ مشبعة بالماء. رذاذٌ خفيف بدأ يتساقط من السماء. لم أكن أرتدي قبعتي إذ خشيت أن تطيرها الريح؛ لذا ارتديت وشاحاً حريرياً، معقوداً أسفل ذقني. وقفت متكئةً على الدرابزون، أتأمل الأفق والقاع، أتأمل الأمواج الأردوازية تتدفق وتتدفق، أتأمل السفينة تمخر عباب البحر وأثرها الأبيض يخربش رسائله القصيرة غير المفهومة. وكأنها دليلٌ على حادثٍ مؤسفٍ ما: ذيلُ فستانٍ ممزق من الشيفون. السخام الأسود من المداخن أخذ يتطاير عليّ؛ خصل شعري انحلت والتصقت رطبةً بوجنتيّ.
قلت في نفسي، إذاً هذا هو المحيط. لم يبد لي عميقاً كما يجدر به. حاولت استعادة

ذكرى شيءٍ قد أكون قرأته عنه، قصيدة ما أو ما شابه، لكني عجزت. تكسّري، تكسّري، تكسّري. تُستهَلّ بعبارةٍ كهذه. ومعها صخورٌ رمادية قاسية. يا أمواج البحر!

أردت أن أرمي بشيءٍ عن متن السفينة. شعرت وكأن الموقف يستدعي مني ذلك. في النهاية رميت ببنسٍ نحاسي، لكني لم أشفعه بأمنية.

VI

السفّاح الأعمى: البدلة النابيّة

يدير المفتاح. القفل مثبتٌ بمزلاج، رحمةٌ صغيرة. هذه المرة حالفه الحظ، فقد تدبّر أمرَ استعارة شقةٍ بأكملها. شقة امرأةٍ عزباء: غرفة كبيرة واحدة مع نضد مطبخ ضيق. لكن لها حمامها الخاص، فيه حوض استحمام قاعدته من الأقدام المِخلَبيّة، ومناشف زهرية. لمساتٌ مترفة. الشقة كانت تعود لصديقة صديقٍ لصديق، والتي غادرت المدينة كي تحضر مناسبة عزاء. أربعة أيامٍ من الشعور بالأمان، أو على الأقل وهم الأمان.

الستائر مطابقة لغطاء السرير؛ عقدٌ حريرية باللون الكرزي، مع ستائر خلفية شفافة ورفيعة. يسترق النظر من وراء النافذة، متوارياً خلف الستائر. المنظر الذي يطل عليه، كما يتسنى له رؤيته عبر أوراق الشجر المصفرة، هو لحديقة آلان جاردنز. سكّيران أو مشردان قد فقدا وعيهما تحت الأشجار، أحدهما قد غطى وجهه بصحيفة. هو نفسه سبق له وأن نام هكذا. رائحة الصحف التي ترطبها أنفاسك هي رائحة الفقر، رائحة الهزيمة، مثل رائحة مقعد منجّد أصابه العفن وبات مكسوًّا بشعر كلب. هناك لافتاتٌ كرتونيّة مبعثرة على الأرض وأوراق مجعدة مرمية على العشب، من ليلة البارحة – من تجمهر الرفاق يهتفون مراراً وتكراراً عقيدتهم على أسماع الجميع، يقودون سفينتهم حيث لا تشتهي الريح. رجلان موحشان يلتقطان ما تبقى من البارحة، بعصيٍّ رؤوسها حديدية وأكياسٍ من الخيش. على الأقل ها قد تأمّن مصدر رزقٍ لهذين المسكينين.

ستقطع الحديقة في خطٍ مائل. ستقف، تتلفت حولها بشكلٍ فاضح كي ترى إن

كان من أحدٍ يراقبها. وما إن تنتهي، أحدهم بالتأكيد سينتبه لها ويراقبها.
على المكتب الأبيض الذهبي ذي الطراز ثنائي الجنس، هناك مذياعٌ بحجم نصف رغيف وشكله أيضًا. يدير المذياع: ثلاثي مكسيكيّ يصدح بالغناء، وكأنما الأصوات الثلاثة مجدولةٌ بحبلٍ رخيم، عذبٍ، جهوريّ. يجدر به الذهاب هناك، إلى المكسيك. يشرب التّكيلا. ينحطّ إلى كلب، إلى كلبٍ من كلاب الشوارع. لا، سينحط إلى ذئب. سيغدو مجرماً قاتلاً، هناك سيتحوّل إلى ديسبيرادو.
يضع آلته الكاتبة على الدرج، يفتح القفل، يرفع الغطاء عنها، يدخل الورق. الحبر بدأ ينفد منه. ما زال أمامه متّسع من الوقت ليكتب عدة صفحات قبل قدومها، هذا إن جاءت. فأحياناً يستجدُّ خطبٌ ما يعيقها عن الحضور، أو يعترض سبيلها. أو ربما هذا ما ستدّعيه.
سيرغب في حملها إلى الحوض المتأنق وغمرها برغوة الصابون. يتمرغ معها في الحوض، مثل خنزيرين يتمرغان في فقاعات زهرية. ربما سيفعلها.

كان قد بدأ العمل على فكرة، أو أساس فكرة. عن عِرقٍ من كائنات الفضاء الخارجي الذين يُرسلون سفينةً فضائية في رحلةٍ استكشافية إلى الأرض. تلك الكائنات هي من الكريستال وتعيش في نظامٍ متقدّم جداً، وهي بصدد تأسيس شبكة تواصل مع مخلوقات الأرض مفترضةً أنها كائنات تماثلهم تماماً: نظّارات، وزجاج نوافذ، وثقّالات ورق فينيسية، وأقداح نبيذ، وخواتم الماسية. لكن رحلتهم تنتهي بالفشل. المستكشفون يبعثون بتقريرٍ إلى القيادة المركزية: هذا الكوكب يحوي آثارًا مثيرة للاهتمام لحضاراتٍ كانت مزدهرة ثم بادت، حضاراتٍ ولابدّ انتمت إلى نظامٍ عُلويّ. لا يسعنا تخمين الكارثة التي أبادت كل تلك الكائنات الذكية حدَّ الانقراض. الكوكب لا يؤوي الآن سوى تنوعٍ من التخاريم الخضراء اللزجة وأعدادٍ هائلة من كريّات طينية شاذة شبه سائلة، متدافعة هنا وهناك بفعل التيارات غريبة الأطوار للسائل الخفيف الشفاف الذي يغطي سطح الكوكب. صرير الصيحات الحادة وصدى التأوهات الصادرة عن تلك الكريّات علينا أن نعزوها إلى الذبذبات الاحتكاكية، لا

أن نظنها خطأً لغةً ما.

لكن أين مآل القصة؟ لن يكون لديه قصة إن لم تغزُ الكائنات الفضائية الكوكب وتعيث فيه الدمار، إن لم تمزق بطلةٌ ما بدلتها عنها وتندفع طائرةً للقتال. بيد أنّ الغزو سيخالف المقدمة المنطقية. فإن ظنت الكائنات الكريستالية أن الكوكب لا حياة فيه، فلم ستتحمل عناء الهبوط عليه؟ ربما بدافع استكشاف الآثار. بهدف تجميع العينات. وإذ فجأةً بمكنسةٍ كهربائية فضائية تشفط آلاف النوافذ عن ناطحات السحاب في نيويورك. ومعها تشفط الآلاف من مدراء ورؤساء البنوك، يتساقطون صارخين من السماء نحو موتهم المحتوم. تلك بداية جيدة.

لا، ليست بقصة بعد. عليه أن يكتب شيئاً يصلح للبيع. عوْداً إلى الثيمة التي لا تفشل أبداً للنسوة الأموات، النسوة المتعطشات للدم. هذه المرة سيمنحهن شعراً أرجوانياً، ويستهل المشهد بوجودهن أسفل الأشعة الأرجوانية السامة لأقمار كوكب آرن الاثني عشر. أفضل ما يمكن له فعله هو تخيل الغلاف الذي سيخرج به الشباب، ويبدأ حبك القصة من هناك.

قد سئم منهن، من تلك النسوة. قد سئم من أنيابهن الحادة، من أجسادهن اللدنيّة، من نهودهن المشدودة الريانة كما نصف ثمرة غريب-فروت ناضجة، كما وقد سئم من نهمهن، من مخالبهن الحمراء، من أعينهن، أعين مصاصي الدماء. قد سئم من تهشيم رؤوسهن. كما وقد سئم من الأبطال، من يحملون أسماءً مثل "ويل"، و"بيرت" أو "نيد"، الأسماء ذات المقطع اللفظي الواحد؛ قد سئم من مسدساتهم الإشعاعية، من أزيائهم المعدنية اللصيقة، كان قد سئم من الإثارة الرخيصة. ومع ذلك، تظل لقمة عيشه، إن كان بيده أن يسرع في الكتابة، فالمتسولون لا يحق لهم الاختيار.

قد بدأت السيولة تنفد منه مرةً أخرى. يأمل أن تحضر معها شيكاً، من أحد صناديق البريد التي لا تحمل اسمه. سيُجيّره لها، وستصرفه لأجله؛ باسمها، من بنكها، لن تواجه أي مشكلة هناك. يأمل أن تحضر له معها طوابع بريدية. يأمل أن تحضر معها سجائر أكثر. فلم يتبق لديه سوى ثلاث.

يذرع المكان جيئةً وذهاباً، الأرضية تحت قدميه تصرّ. الأرضية من الخشب الخشن، لكنها مبقعة حيث تسرّب المشعاع. شُقَق هذه القطعة السكنية شُيّدَت قبل الحرب لرجال الأعمال العزّاب من أصحاب السلوك القويم. الأجواء حينها كان يعمها التفاؤل. الشّقق مزوّدة بتدفئة بخارية، بالماء الحار دون انقطاع، وثمّة أروقة مبلطة، وكل شيءٍ فيها كان على أحدث طراز. أما اليوم فهي شاهدٌ على أيامٍ غابرة. قبل أعوام، حين كان شاباً غرًّا، تعرف إلى فتاةٍ كانت تقطن شقّةً من هذه الشقق. يذكر أنها كانت ممرضة: تحتفظ بأعمال أدبية فرنسية في درج المنضدة جانب سريرها. كان لديها فرن بعينين، اعتادت أن تطهو له الفطور أحياناً – بيض ولحم مقدد، شرائح بان-كيك مزبدة مع شراب القيقب، كان يمص الشراب عن أصابعها. يذكر أن هناك رأس وعلٍ محنّط معلّق على الجدار، إنّه أثرٌ باقيٌ من مستأجرٍ سابق؛ اعتادت أن تجفف جواربها الحريرية على قرونه.

اعتادا قضاء الوقت معاً ظهيرة أيام السبت، ومساء أيام الثلاثاء متى ما وافق جدولها، يشربان الويسكي، الجن، الفودكا، أي شرابٍ في متناول أياديهما. لطالما أرادت أن تثمل أولاً. لم تهوَ الذهاب إلى السينما ولا إلى نوادي الرقص؛ لم تبدُ من النوع الرومانسي ولا أرادت أي ادّعاءٍ به، وهو ما ناسبه تماماً. طلبها الوحيد منه كان الجَلَد. كانت تهوى بسط لحافٍ على أرضية الحمام؛ استمتعت بإحساس صلابة البلاط أسفل ظهرها. متعتها هذه كانت جحيماً لركبتيه ومرفقيه، لكنه ما كان لينتبه في غمرة اهتمامه بأمور أخرى. كانت تئن ملتاعةً وكأنها تحت الأضواء، شعرها يتقاذف يمنةً ويسرة، عيناها تتقلبان. مرةً ضاجعها واقفةً في خزانتها. الخزانة مفعمة برائحة كرات العث، بين فساتين الأحد من قماش الكريب، والستر الصوفية الخفيفة. كم بكت من المتعة. بعد أن تخلصت منه تزوجت من محامٍ. تطابقٌ موفق، زفافٌ أبيض؛ كان قد قرأ عنه في الصحف، مستمتعاً وبلا أي ضغينة. خيرًا فعلَت، قال في نفسه حينها. الساقطات أحياناً هن من ينلن الجائزة الكبرى. أيامٌ مثلها مثل السّلَطَة. أيامٌ لا تحمل أسماء، عصريّات لا قيمة لها، متعجلة ونجسة وتنقضي سريعاً، لا توق يسبقها ولا شوق يليها، لا حاجة للكلمات، ولا

حاجة لصرف أي مال. أيامٌ يرميها خلف ظهره قبل أن يتورط في الحبال الشائكة للعلاقات الشائكة.

يتفحص ساعته ثم يعاود تفحص الوضع خارج النافذة، وها هي قادمة، تقطع الحديقة قطرياً بخطىً واثبة، ترتدي اليوم قبعةً عريضة الحواف وبدلةً نابيّة[114] مخصرة بحزامٍ ضيق، متشبثة بحقيبة يدها أسفل ذراعها، طيات تنورتها تتأرجح على وقع خطاها الواسعة المتموجة، وكأنها لم تعتد قط السير على قائمتيها الخلفيتين. ربما بسبب الكعب العالي الذي ترتديه. لطالما تساءل كيف لهن أن يسرن بتوازن عليه. ها هي تقف فجأةً وكأن أحدهم أشار إليها بالوقوف، تُجيل نظرها حواليها بتلك النظرة المشدوهة التي تميزها، وكأنها استيقظت التو من حلمٍ غريب، والرجلان اللذان يلتقطان الأوراق أخذا ينظران نحوها. هل أضعت شيئاً سيدتي؟ لكنها تواصل السير، تقطع الشارع، له أن يرى شذراتٍ منها عبر أوراق الشجر، لا بد أنها تبحث عن رقم الشارع. ها هي تعتلي الدرجات الأمامية. الجرس يرن. يضغط زر الدخول، يسحق عقب سيجارته، يطفئ مصباح المكتب، ويفتح الباب.

"أهلاً، لقد انقطعت أنفاسي. فلم أنتظر وصول المصعد". تدفع الباب وتغلقه خلفها، تقف متكئةً عليه.

"لا أحد يلحق بك. فقد كنت أراقب الوضع من هنا. هل أحضرت سجائر؟"

"وكذلك الشيك، وقنينة ويسكي، أجود نوع. اختلستها من المشرب لدينا، هل أخبرتك أننا نملك مشرباً مموّناً بأجود أنواع الخمر؟"

تحاول لعب دور المرأة اللامبالية، بل وحتى اللعوب. لم تتقن دورها. هي تماطل، تنتظر الخطوة الأولى منه. هي لم تبادر قط بالخطوة الأولى، لا تحب وهب نفسها له.

---

(114) النقشة النابية – houndstooth: نقشة من المربعات – في العادة بيضاء وسوداء – وفي داخل كل مربع أشكال مثلثة حادة كما أنياب كلاب الصيد والتي منها اشتق اسم النقشة.

"فتاةٌ صالحة". يتحرك اتجاهها، يمسك بها.

"وهل أنا حقاً بفتاةٍ صالحة؟ أحياناً أشعر وكأني خليلة قاطع طرق مسلّح أؤدي مهمّاته الصغيرة له".

"لست بخليلة قاطع طرق مسلح، فأنا لا أملك سلاحاً. تشاهدين الكثير من الأفلام".

"لا أشاهد ما يكفي،" تقول له هامسةً جانب عنقه. شعره يحتاج إلى قص. هُلْبه ناعم. تفك أزراره العلوية الأربعة، تمرر يدها تحت قميصه. جسده ممشوق، ممشوقٌ حقاً. مُعرَّق، مسفوع. كانت قد رأت مرمداتٍ منحوتةٍ من خشب تشبه تماماً جسده المنحوت.

السفّاح الأعمى: البروكاد الأحمر

"كم كان رائعاً،" تقول له. "الاستحمام كان رائعاً. لم أتصورك يوماً متدثراً بمناشف زهرية. مقارنةً بما اعتدنا عليه، فهذه دلالة غنىً فاحش".

"الإغواء يتربص بي في كل مكان،" يقول لها، "حيثما أتلفت أرى مغرياتٍ للترف. سأخمن أنها بغيٌّ هاوية، ألا تظنين؟"

كان قد دثرها بإحدى المناشف الزهرية، وحملها إلى الفراش رطبةً زلقة. الآن كلاهما أسفل غطاء السرير من الديباج المطرز الكرزي، أسفل ملاءات الساتان، يشربان الويسكي الذي أحضرته معها. مزيجٌ فاخر، مدخَّنٌ ودافئ، يسري مريئاً كما حلوى التوفي. تتمدد مرفهة، متسائلةً فقط للحظة من سيتولى لاحقاً غسل تلك الملاءات.

لا يسعها تجاوز إحساسها بالتعدي على الممتلكات في كل تلك الغرف التي جمعتها به – إحساسها بانتهاك خصوصية الحياة الطبيعية لأصحابها. فدائماً ما تنتابها الرغبة العارمة بالبحث في خزائنهم، في أدارج البوريه – لا كي تختلس شيئاً، فقط من باب الاستكشاف، كي ترى بنفسها كيف يحيا غيرها من الناس. أناسٌ حقيقيون؛ حقيقيون أكثر منها. هي تود أن تفعل ذات الشيء معه، عدا أن لا خزائن له، ولا أدراج بوريه، أو بالأحرى لا خزائن وأدراج بوريه تعود حقاً له. لا شيء لها تعثر عليه، لا شيء يفضحه. لا شيء سوى حقيبته الزرقاء البالية التي دائماً ما يبقيها مغلقة. يبقيها في العادة تحت السرير.

حتى جيوبه، لا شيء فيها يدل عليه؛ فقد سبق ونبشت فيها عدة مرات. (ليس بقصد التجسس عليه، فقط أرادت أن تعرف ما كان يجري وما الذي يجري وموقعهما مما

يجري). منديلٌ أزرق، بحواشٍ بيضاء؛ فُراطة؛ عقبا سيجارة مغلفان بالورق المشمع – لابدّ وأنه يدّخرهما. مدية جيب، قديمة. مرةً عثرت على زرَّين، خمنت أنهما زريّ قميص. لم تعرض عليه رفو قميصه إذ حينها سيعرف بتطفلها. هي تريد الحفاظ على ثقته بها. رخصة قيادة، لا تحمل اسمه. شهادة ميلاد، مزورة هي الأخرى. الاسمان مختلفان. كم تود يوماً استكشافه بمشطٍ دقيق الأسنان. تنقب فيه، تقلبه بطناً على ظهر. تفرغ كل ما في جعبته.

يغني لها بلطف، في صوتٍ رخيم، مثل مغنٍ يدندن في المذياع:

غرفةٌ مفعمة بالدخان، قمرٌ مكتملٌ في عين السماء، وأنتِ.
سرقت منك قبلة، وعدتني بالإخلاص،
راحة يدي تحت فستانك، وأنت تقضمين أذني،
يا للفوضى التي خلقناها معًا.
الفجر يبزغ – وها أنت قد رحلت عني،
قلبي مفطورٌ من الفراق.

تضحك من أغنيته. "ومن أين لك هذا؟"

"هذه أغنية الفاسق اللعوب التي ألّفتها عنّي، تتلاءم مع الأجواء".

"هي ليست حقاً ببغيّ. ولا حتى هاوية. لا أظنها تقبل المال. بل أتوقعها تكافأ على أدائها بطرقٍ أخرى".

"الكثير من الشوكولا. أكنت ستقبلين بهذا؟"

"فقط إن أحضروها لي محملةً بالشاحنات. فأنا باهظة بعض الشيء. غطاء السرير من الحرير الأصلي، لونه يعجبني – مبهرج، لكن يبقى جميلاً. يلائم لون بشرتي، مثل الظلال الزهرية للشمع. هل جهزت لي شيئاً؟"

"جهزت لك ماذا؟"

"هل جهزت لي فصولاً من قصتي؟"

"قصتك؟"

"نعم! أليست القصة لي؟"

"أوه، نعم. بالطبع هي لك. لا شيء آخر يشغل بالي سواها. بسببها النوم يجافيني".

"كاذب. هل مللت منها؟"

"يستحيل عليّ أن أملَّ من فعل شيءٍ يسعدك".

"يا إلهي، كم أنت شهم. علينا أن نواظب أكثر على استخدام المناشف الزهرية، فقريباً جداً ستُقبّل خُفِّي الزجاجي. لكن على أي حال، واصل الكلام".

"أين توقفنا؟"

"مع قرع الجرس. مع حز العنق. مع الباب الذي فُتح".

"أوه، حسنٌ إذن".

يروي لها: الفتاة التي كنا نحكي عنها قد سمعت الباب يفتح. تتراجع إلى الوراء إلى أن يلتصق ظهرها بالجدار، ساحبةً معها البروكاد الأحمر عن سرير الليلة الواحدة وتوثق شده حول جسدها. البروكاد تنبعث منه رائحةٌ مالحة، كما رائحة ملح الأمواج السبخة: ملح عرق الخوف الجاف لكل الفتيات اللواتي سبقنها. أحدهم قد دخل التو؛ صوت غرضٍ ثقيل يجر على الأرض. الباب يغلق ثانيةً؛ ظلمة الغرفة داكنة كما زيت السراج. لم لا يوجد مصباح، ولا شمعة؟

تمد يدها خارج البروكاد كي تصد الأذى عنها، وإذ بيدٍ أخرى تمسك يدها اليسرى: تمسكها بحنان ودون إكراه. وكأن أحدهم يود أن يسألها شيئاً.

لا تستطيع النطق. ليس بوسعها القول، لا أستطيع النطق.

السفّاح الأعمى يميط الخمار عن وجهه ويلقيه على الأرض. ممسكاً بيد الفتاة، يجلس على السرير جانبها. لا يزال ينوي قتلها، سيقوم بتلك الخطوة لاحقاً. إذ لطالما سمع عن تلك الفتيات المزروبات، مخبآت بعيداً عن الأعين حتى آخر يومٍ في حياتهن؛ لذا اعتراه الفضول بشأنها. على أي حال اعتبرها هديةً له، ولا أحد سينازعه عليها. ورفض هديةٍ كهذه تماثل وقاحة البصق في وجه الآلهة. هو مدركٌ

لضرورة إسراعه في تنفيذ مهمته واختفائه، لكن لا يزال هناك الكثير من الوقت المتبقي. يشم رائحة الزيوت التي عفَّروها بها، تبدو كرائحة النعش في الجنازة، نعوش تلك الفتيات اليافعات اللواتي توفين عذراوات. يا له من هدرٍ للجمال.
لن يخرب شيئاً، لا شيء سبق وقد دفع أحدهم مقابله: فسيد العالم السفلي المحتال لا بد وقد نال مبتغاه منها. هل أبقى على درعه أثناءها؟ على الأرجح. لا بد وقد دنا منها مصلصلاً كما المفتاح الصدئ الثقيل، اخترق جسدها، وانتزع قفلها. هو يذكر ذاك الإحساس جيداً. أياً كان ما سيفعله بها، فلن يفعل بها هذا.
يرفع يدها إلى شفتيه ويلثمها، لم تكن بقبلة بقدر ما كانت أمارة احترامٍ وإجلال. يستهل حديثه معها، "يا صاحبة العصمة والجمال" - الخطاب النموذجي للمتسول اتجاه المحسنات - "صدى حديث الناس عن حسنك الفتّان هو ما أحضرني إلى هنا، بيد أن بمجرد وجودي الآن في حضرة سموك فحياتي ستغدو جحيمًا. لا يسعني أن أراك بعينيّ، فأنا أعمى. فهلاّ أذنت لي أن أراك براحتيْ يدي؟ بصنيعك ستعطفين عليّ العطف الأخير، وربما كذا اتجاه نفسك".
حياته عبداً وعاهراً لم تذهب سدىً: فقد تعلم فنون الإطراء، فن الكذب في وضح النهار، فن نيل الحظوة لدى أي إنسان. يضع أصابعه على ذقنها، وينتظر لحظة التردد تسري في وجهها، ثم تومئ. له أن يسمع ما يتردد الآن في عقلها: غداً سأكون ميتة. يتساءل إن كانت ستخمن السبب الحقيقي وراء وجوده هنا.
أروع الأفعال التي يرتكبها الناس يرتكبها أولئك من لا مفر لهم، من لا وقت متبقٍ لديهم، من يعون فعلاً معنى اليأس. يرمون خلف ظهورهم حسابات الربح والخسارة، لا يشغلون بالهم بالمستقبل، مجبرون قسراً تحت السلاح على الانغماس في اللحظة. يدفعون بك عن شفا هاوية، فإما تهوي أو تطير؛ تتشبث بأي بصيص أمل، مهما كان بعيد المنال - وإن سمحت لي سأصف بصيص الأمل بتلك الصفة المبتذلة - بالمعجزة. ما أعنيه حقاً بكلامي، بصيص أملٍ ضد كل الاحتمالات.
ومعجزتهما هي هذه الليلة.
يتلمسها السفّاح الأعمى على مهل، بيدٍ واحدة وحسب، اليمنى - اليد البارعة،

اليد القاتلة. يمررها على وجهها، على حنجرتها؛ وها هو يتلمسها بيده اليسرى، اليد الآثمة، اليد الفاسدة، يتلمسها براحتي يديه، بحنان، كأنما يفتح قفلاً بمنتهى الهشاشة، قفلاً من حرير. تحت أنامله تشعر وكأن الماء يعانقها، جسدها يرتجف، لكن ليس ذعراً. وها هي ترمي بالبروكاد الأحمر عنها، تأخذ بيده وترشده إلى أغوارها. اللمسة تسبق النظرة، تسبق الكلمة. هي اللغة الأولى والأخيرة، ولطالما نطقت بالحقيقة.

وبذا، الفتاة البكماء والرجل الأعمى، وقعا في شباك الحب.

"قد فاجأتني،" تقول له.

"أنا؟ ولم تقولين ذلك؟ مع أني أحب مفاجأتك". يشعل سيجارة، يعرض عليها واحدة؛ لكنها تهز رأسها. أصبح يدخن بكثرة. هي أعصابه المتوترة ولا شك، رغم يده الثابتة.

"لأنك قلت إنهما وقعا في شباك الحب. وأنت لطالما سخرت من تلك الفكرة – غير واقعية، خرافة برجوازية، عفنة حتى النخاع. عاطفة مريضة، مبررٌ فكتوريٌّ طنّان للشهوانية الشريفة. يا ترى هل بدأ موقفك من الحب يلين؟"

"لا تلوميني، لومي التاريخ،" يقول لها باسمًا. "أمورٌ كهذه قد تقع، فحوادث الوقوع في الحب موثقة في التاريخ، أو على الأقل عبارة الوقوع في الحب هي الموثقة. وعلى أي حال، فقد أخبرتك أنه كاذب".

"لا، لن تتملّص هكذا ممّا قلت التو. الكذب كان في البداية. لكنك غيّرت مسار الحبكة".

"حسنٌ، سأتفق معك في هذه النقطة. لكن هناك زاوية أخرى لتفسير ما جرى، أقسى وقعاً".

"تفسيرٌ أقسى وقعاً؟"

"تبادلٌ للمصالح".

"ومذ متى كان الحب تبادلاً للمصالح؟" ترد عليه غاضبة.

يجيبها مبتسماً، "أيزعجك تناول الحب هكذا؟ مفهومٌ تجاريّ أكثر من اللازم؟ ضميرك سينغلق عن مفهومٍ كهذا، أهذا ما تعنينه؟ لكن الحب قائمٌ على المقايضة، أليس كذلك؟"

"لا، لا مقايضة فيه، ليس دائماً".

"إذن لك أن تقولي إنه اغتنم الفرصة بين يديه. ولم لا؟ هو ليس بالرجل المتورّع، حياته قضاها كلباً بين كلابٍ تنهش بعضها. أو ربما لك أن تقولي إنَّ كليهما يافعان ولذا يجهلان الحقيقة. فمن عادة الشباب أن يروا الشهوة حباً، فهم موبوؤون بكل تلك الأفكار المثالية. وتذكري، أنا لم أقل إنه لن يقتلها فيما بعد. فكما أسلفت، هو لا يفكر إلا في مصلحته".

"أراكَ إذن تردّدتَ، تتراجع عن كلمتك، أيها الجبان. ما كنت لتجرؤ وتكمل الحبكة في مسارها. فأنت من الحب كما اللعوب التي تداعب القضيب ولا تضاجع".

ضحكَ مذهولاً منها. أهي بذاءة الكلمات، هل فوجئ بها، هل تمكنت أخيراً من الإفصاح بحرية عما تريد؟ "صوني لسانك أيتها السيدة الصغيرة".

"ولم عليّ أنا أن أصون لساني؟ فها أنت لا تصون لسانك".

"أنا قدوةٌ سيئة. دعينا نقل إنهما انغمسا في اللحظة – في عواطفهما، إن أردت أن نصفها هكذا. كان لهما أن يتقلبا في بحر عواطفهما – أن يعيشا اللحظة، يسهبان في تبادل إلقاء القصائد، يضيآن الشمعة، يفرغان الكأس، يعويان للقمر. الوقت كان ينسل من بين أصابعهما. لا شيء لديهما يخسرانه".

"كان لديه ما يخسره. أو، على الأقل، بالتأكيد قد ظن ذلك".

"حسنٌ. هي من لا شيء لديها لتخسره". ينفث سحابةً من الدخان.

"ليس مثلي،" تقول له، "أظنك هذا ما تعنيه".

"ليس مثلك، عزيزتي". يقول لها، "بل مثلي أنا. أنا من لا شيء لديه يخسره".

فتقول له، "لكن لديك أنا، وأنا لست دون شيء".

"تورنتو ستار"، 28 أغسطس، 1935

العثور على طالبة من المجتمع الراقي آمنةً

في تقرير خاص لصحيفة "ستار"

أعلنت الشرطة البارحة وقف عمليات البحث عن طالبة المجتمع الراقي ذات الخمسة عشر ربيعاً، الآنسة لورا تشايس، التي كانت مفقودة لمدة أسبوع، وذلك لدى عثورهم عليها تُقيم آمنةً لدى أصدقاء العائلة السيّد والسيدة إي. نيوتن – دوبز في مقر إقامتهما الصيفي في موسكوكا.

الصناعي المعروف، ريتشارد إي. غريفين، زوج أخت الآنسة تشايس، كان قد تحدث إلى الصحفيين عبر الهاتف نيابةً عن العائلة. "أخيراً أنا وزوجتي تنفسنا الصعداء. فما حدث في الواقع هو التباسٌ بسيط تسببت به رسالةٌ متأخرة في البريد. فالآنسة تشايس كانت قد أعدت خططاً لقضاء العطلة وظنت أني وزوجتي على علمٍ بها، وكذلك كان الحال مع مضيفيْها. لم يقرآ الصحف أثناء العطلة وإلا لعلما بما جرى، وما كان للالتباس أن يقع بهذا الشكل. لدى عودتهما إلى المدينة وما إن علما بالوضع، بادرا مباشرةً بالاتصال بنا".

ولدى سؤاله عن الإشاعات التي سرت عن فرار الآنسة تشايس من منزلها والعثور عليها في وضعٍ مريب في مدينة الملاهي على شاطئ سَني-سايد، فقد صرح السيد غريفين بأن لا علم له بمن يقف خلف تلك الإشاعات المغرضة لكنه مصمم على معرفة المسؤول ومحاسبته. "كان سوء تفاهمٍ بسيط، أمرًا عاديًّا قد يقع لأي شخص. وأنا وزوجتي ممتنان للعثور عليها آمنة، ونتوجه بالشكر العميق للشرطة والصحف والناس التي شاركتنا قلقنا على كل المساعدات التي قدموها لنا". يقال إنّ الآنسة تشايس مضطربة حالياً إثر البروز الإعلامي الذي تعرضت له، وعليه ترفض إجراء أي مقابلة في الوقت الحالي.

ومع أنَّه لا ضرر دائم قد وقع، فتلك الأحداث تمثّل المرة الأولى التي يتسبب بها سوء إدارة البريد بوضعٍ خطير كهذا. فالشعب يستحق خدمةً موثوقة يمكن الاعتماد عليها. على المسؤولين في الحكومة أخذ ما حصل في الاعتبار.

السفّاح الأعمى: بغيّ الشارع

تمشي على امتداد الشارع، آملةً أن تبدو امرأةً يحق لها المشي في الشارع، أو على امتداد هذا الشارع. بيد أنها لا تبدو امرأةً كهذه. فقد ارتدت الملابس الخطأ، قبعتها غير ملائمة، معطفها غير ملائم. كان يجدر بها أن تضع وشاحاً على رأسها وتعقده أسفل ذقنها، ومعطفاً فضفاضاً يغطي كمّيها إن أرادت أن تبدو بغيًّا رخيصة.

البيوت هنا متلاصقة، الجدار إلى الجدار. كانت مساكن الخدم فيما مضى صفًّا بعد صف، لكن ما عاد هناك كثيرٌ من الخدم، والأثرياء تدبّروا شؤونهم. قرميدٌ مسخم، من طابقين، والمراحيض خارجية. بعض تلك البيوت لا تزال محتفظة ببقايا حديقة خضرواتهم في مرجتهم الصغيرة الأمامية – ساقُ طماطم مسودّة، وتدٌّ خشبي يتدلى منه عذق. الحدائق ما كانت لتثمر – فالمكان جداً ظليل، والأرض غزيرة بالرماد. لكن، حتى هنا، أشجار الخريف سخية بعطائها، أوراقها المتساقطة صفراء وبرتقالية وقرمزية، مع درجةٍ غامقة من اللون الأحمر كما لون الكبد الطازجة.

أصوات عويلٍ ونباحٍ وقعقعة تصدر من داخل تلك البيوت. أصوات نسائية مرتفعة تصب جام غضبها، تقابلها صرخات تحدي الأطفال. الرجال على الشرفات المكتظة جالسون في كراسٍ خشبية، أيديهم تتدلى عن ركبهم، خارج سوق العمل لكن ليس خارج بيوتهم، ليس بعد. أعينهم عليها، ينظرون إليها عابسين، يتفحصون بمرارة هُدْبها الفرويّ على معصميها وعنقها، حقيبة يدها المدبوغة من جلد العظاءة. على الأرجح هم مستأجِرون، محشورون في الأقبية والزوايا الغريبة كي يتمكنوا من تحمل الإيجار.

النساء يهرعن، رؤوسهن مطرقة، ظهورهن محدودبة، يحملن رزماً من الأكياس الورقية البنية. متزوجات، دون ريب. الكلمة تدمّس تخطر لها. على الأرجح أنهن استعطفن الجزار للحصول على العظام، وسيحملن إلى بيوتهن بقايا اللحم الرخيصة، كي يقدمنها على العشاء مع أوراق الملفوف المترهلة. كتفاها مشدودتان للوراء أكثر من اللازم، وذقنها مرفوعة أكثر من اللازم أيضًا، ملامحها لا تعكس الإرهاق: متى ما يرفعن رؤوسهن بما يكفي للتركيز عليها، يصوّبن عليها نظرات قذرة. لا بد وأنهن يظنُنّها بغيًّا، لكن في حذاءٍ كالّذي ترتديه ما عساها تفعل هنا؟ إن الرجال هنا أقل بكثيرٍ من مستواها.

ها هي الحانة، على الزاوية التي حدّدها. صالون البيرة. لفيفٌ من الرجال مجتمعون خارجها. لا أحد منهم يقول لها شيئاً بينما تمر بمحاذاتهم، يكتفون فقط بالتحديق فيها وكأنهم يتربصون بها من وراء أيكة، لكنها تسمع دمدمتهم، مشاعر ممزوجة من الكره والشهوة متقدة في حناجرهم، تلحق بها كما الموجة المنجرفة عن مؤخّرة سفينة. ربما ظنوها خطأً متطوّعةً في كنيسة أو مُحسنة متكبرة. تنقّب في شؤون حياتهم بأناملها النظيفة، تسألهم عن أحوالهم، تعرض عليهم باستعلاء فتات موائدها. لكنها حسنة الملبس أكثر من اللازم لهكذا بدت مهَمّة.

كانت قد استقلت سيارة أجرة، دفعت أجرتها بعيداً عن المكان بثلاثة شوارع، حيث توجد حركة سير. فخَيرٌ لها ألّا تصبح طرفة على ألسنتهم: من سيستقلّ سيارة أجرة في مكانٍ كهذا؟ ومع ذلك فقد غدت طرفةً تلوكها ألسنتهم. ما تحتاج إليه فعلاً هو معطفٌ آخر، معطفٌ من سوق بالة رخيص، وتحشره في حقيبة. لكان بوسعها الذهاب إلى مطعم فندق، تترك معطفها الغالي لدى الاستقبال، تنسل إلى حجرة المساحيق، وتغيّر ثيابها هناك. تبعثر شعرها، تتلطّخ بأحمر شفاهها. تغادر المكان امرأةً مختلفة.

لا، لما نجحت خطتها. فأولاً هناك الحقيبة؛ وهناك الخروج من المنزل بها. وإلى أين عساك ذاهبة على عجل؟

لذا ستظل عالقة في أدائها البوليسي، رجل تخفّ في معطفٍ مع خنجر، لكن

دون معطف. تعتمد فقط على ملامح وجهها، على ريائها. فقد تلقت تدريباً كافياً على مدى الأعوام: الملامح السلسة، الباردة، الجوفاء. رفع الحاجبين معاً، نظرة التحديق البيضاء الشفافة للعميل المزدوج. وجهٌ من الماء العذب. الحيلة لا تكمن في الكذب، بل في تفادي الاضطرار إليه، أي جعلُ أي أسئلةٍ قد تطرح عليها لاحقاً حمقاء سلفاً.

ومع ذلك فلا مناص من الإحساس بالخطر. عليه هو الآخر: أكثر مما مضى، كما قال لها. يظن أن أحدهم قد لمحه في الشارع: تعرّف عليه. ربما كان مجرماً أجيراً لدى "الفرقة الحمراء[115]". تسلل إلى حانةٍ مكتظة وخرج من بابها الخلفي.

لا تدري إن كان عليها أن تصدق أم لا أنها واقعة في خطرٍ حقيقي: رجالٌ في بذلٍ منتفخة وياقاتٍ مرفوعة، يجوسون الشوارع بسياراتهم. اركبي معنا فأنت قيد الاعتقال. غرفٌ جرداء وأضواءٌ ساطعة. بدا لها مشهداً مسرحياً، أو مشهداً لا يقع إلا في الضباب، في اللونين الأبيض والأسود. يقع فقط في دول أخرى، بلغات أخرى. وإن كان يقع هنا، فبالتأكيد لن يقع لها.

إن قبضوا عليها، ستنكره، ستنكره حتى قبل أن يصيح الديك صيحته الأولى[116]. هي مدركة أنها ستفعل، وستفعله ببساطة وهدوء. وسيُخلون سبيلها في كل الأحوال، سيرون تورطها معه تسلياً لعوباً أو مقلباً ثورياً، وأياً كان الاضطراب الذي سيتأتى عنه سيُغَطّون عليه. بالتأكيد ستدفع سرًّا مقابل صمتهم، لكن بماذا؟ فهي أصلاً مفلسة: ليس للحجر أن ينزف دماً. ستنغلق على نفسها، ستغلق الستائر عليها. "ذاهبة في استراحة غداء"، معلّقة على بابها للأبد.

مؤخراً بدأ يساورها شعورٌ بأن أحداً ما يراقبها، مع أنها كلّما استكشفت الأرجاء حواليها ما كانت لترَ أحداً. هي تلتزم جانب الحذر قدرَ المستطاع. هل هي خائفة؟

---

(115) الفرقة الحمراء – the Red Squad: تنظيم بوليسي انتشر في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا بهدف التسلل في خطوط المجموعات الشيوعية والقبض على أفرادها.

(116) في إشارة إلى النبوءة التي قالها المسيح لبطرس أثناء العشاء الأخير، "إني أقول لك يا بطرس أن الديك لا يصيح اليوم حتى تكون قد أنكرت ثلاث مرات أنك تعرفني". وفي رواية أخرى فالنبوءة تذكر بأن الديك سيصيح مرتين قبل إنكار بطرس معرفته بالمسيح لدى قبض الرومان عليه ليلة صلبه.

نعم. معظم الوقت. لكنها لا تكترث لخوفها، أو على الأرجح تكترث له. فهو ما يزيد من متعتها التي تشعر بها معه؛ وكذلك إحساس النجاة بأفعالها.
الخطر الحقيقي يتأتى منها. ما الذي ستسمح به، وإلى أي مدى تنوي الانجراف معه. لكن السماح والنية لا علاقة لهما بالأمر. إلى أين سيقودها إذن؟ إلام سيدفعها؟ هي لم تتفحص دوافعها. وربما لا دوافع لديها أصلاً؛ فالشهوة ليست بدافع. لا يبدو لها أن أمامها أي خيار. فاللذة العارمة لمتعةٍ كهذه لا تأتي دون إذلال. وكأن أحدهم يقودها بحبلٍ مُخزٍ، برسنٍ أوثقه حول عنقها. هي تزدري إحساسها هذا، بانعدام حريتها، لذا تتعمد إطالة الفترات بين مواعيدهما، تقطّرها عليه. أحياناً تخلف موعدها، متذرعةً كذباً بأن أمراً ما قد أعاقها عن القدوم – تدعي عدم رؤيتها علامة الطبشور على سور الحديقة، عدم استلامها الرسالة – العنوان الجديد لمتجر الملابس الوهمي، البطاقة البريدية الموقعة من صديقةٍ قديمة مختلقة، الاتصال الهاتفي على الرقم الخاطئ.
لكنها في النهاية تعود إليه. فلا فائدة من المقاومة. تذهب إليه كي تفقد ذاكرتها، كي تعيش النسيان. تذيب نفسها، تمحو هويتها، تغوص في ظلمة جسدها، تنسى حتى اسمها. ما تبتغيه هو التضحية بنفسها، ولو لفترةٍ وجيزة. أن تحظى بفرصة الوجود في انعتاقٍ عن القيود.

ومع ذلك، تجد نفسها تتساءل عن أشياء ما كانت تخطُر لها قبلاً. كيف يتولى غسل ملابسه؟ مرةً رأت جواربه معلقة على المشعاع كي تجف – ما إن لمحها تنظر إليها انتزعها ورمى بها بعيداً. دائماً ما يحرص على ترتيب المكان قبل زياراتها، وإن لم يتسنَّ له الوقت فسينتقد المكان بأسلوبه اللاذع. يا ترى أين يتناول طعامه؟ أخبرها أنه لا يتردد كثيراً على مكانٍ واحد. عليه أن يجول من مطعمٍ إلى فوّال. على لسانه تبدو تلك الكلمات وضيعةً ساحرة. وهناك أيام ينتابه فيها التوتر فيتحاشى الأنظار ويبقي على نفسه حبيس غرفته؛ هناك لب تفاح، في هذه الغرفة أو تلك؛ هناك فتاتُ خبزٍ منثور على الأرض.

من أين له التفاح؟ من أين له الخبز؟ تستغرب تكتمه على تلك التفاصيل – تفاصيل ما يجري في حياته متى ما كانت بعيدة عنه. ربما يشعر بأن تفاصيل كهذه ستحط من قدره في عينيها، كثيرٌ من التفاصيل الوضيعة. وربما هو على حق. (كل تلك اللوحات، في المعارض الفنية، لنساءٍ يفاجأن على حين غرة بمتلصصٍ على لحظات خصوصيتهن. "الحوريات النائمات". "سوزانا والقاضيان". "امرأةٌ تستحم"، إحدى قدميها في حوضٍ معدني – أكانت لرينوار أم ديغا؟ كلاهما، فالمرأتان ريّانتان. ديانا ووصيفاتها، اللحظة التي تسبق انتباههن لعيني الصياد المتلصص. لا لوحة هناك أبداً تحمل عنوان "رجلٌ يغسل جواربه في حوض المطبخ").

الرومانسية تكمن في منتصف المسافة. الرومانسية هي رؤية نفسك عبر نافذةٍ مغبشة بقطرات الندى. الرومانسية تعني رمي التفاصيل خارجاً: حيثما الحياة تقبع وتخن، الرومانسية تتنهد. أتراها تطمع الآن بالمزيد منه؟ أترغب باللوحة كاملةً بكل تفاصيلها؟

الخطر سيتأتى من التعمق في رؤية التفاصيل، في التمعن فيه عن قرب – من تقليصه إلى إنسانٍ عادي، وهي معه. ويوماً ما سيستيقظان خاويَيْن، كل ما فيهما استنفد – نارٌ وخمدت. لن يترك لها شيئاً. سيتركها ثكلى.

كم هي كلمةٌ عتيقة الطراز.

لم يأت للقائها هذه المرة. أخبرها أن من الأفضل ألا يفعل، تركها تشق طريقها إليه وحيدةً. ورقةٌ مطوية مدسوسة في راحة قفازها، مع إرشادات مشفرة عليها، لكن لا حاجة لها بالنظر إليها. لها أن تشعر ببريقها الواهي على جلدها، مثل بريق أرقام ساعة الراديومَ في العتمة.

تتخيّلُه يتخيّلَها – يتخيلها تمشي وحيدةً في الشارع، أقرب وأقرب إليه، تكاد تصبح في متناول يديه. هل نفد صبره؟ أتراه على حافة الانهيار، تحت رحمة الانتظار؟ أيتصرف مثلها؟ هل يدّعي لا مبالاته – أنّ لا فرق معه إن قدمت أم لا – أم تراه يمثّل مشهداً من مشاهد عدة؟ فمثلاً، ما عاد يدخن السجائر الجاهزة، إذ لا يطيق دفع ثمنها.

بات يلف سجائره بنفسه، مستخدماً إحدى تلك الأدوات الكريهة الزهرية المطاطية التي تظهر فجأةً في كل زيارة؛ يقطعها بحد شفرة حلاقته ثم يعبئها في علب كرافين-آيز. أحد أساليبه الخادعة الصغيرة، أو أحد مباعث زهوه؛ احتياجه الشديد لتلك السجائر لطالما فاجأها.

أحياناً تحضر له معها سجائر، حفنةً منها، كميةً سخية ووافرة. تختلسها من علبة السجائر الفضية الموضوعة على طاولة القهوة الزجاجية، وتدسها في حقيبة يدها. لكنها لا تفعل ذلك كل مرة. من الأفضل تركه متشوقاً لها، يتوق جائعاً لها.

يستلقي على ظهره، متخم، يدخن سجائره. إن أرادت كلاماً معسولاً منه، فيجدر بها أن تحصل عليه سلفاً – تؤكد عليه أن يمنحها ما طلبته، مثلها مثل البغيّ ونقودها. حتى وإن كان كلامه المعسول شحيحاً ومتواضعاً. قد يقول لها اشتقت إليكِ أو لا أشبع منكِ. يقولها بعينين مطبقتين، يصرّ أسنانه كابحاً جماح نفسه؛ تسمع صرير أسنانه مقابل عنقها.

بعد أن ينال مراده منها، عليها أن تتصيّد الكلام منه.

"قل شيئاً؟"

"مثل ماذا؟"

"أي شيءٍ تريد؟"

"أخبريني بما تودين سماعه"

"إن أخبرتك وقلته لي، فلن أصدقك".

"إذن اقرئي ما بين السطور".

"لكن ما من سطورٍ أقرأ بينها. فأنت لا تقول لي شيئاً على الإطلاق".

وحينها ربما سيغني لها:

أووه، أقحمتُ قضيبي فيك، نزعت قضيبي منك،
ومع ذلك ظلَّ الدخان يتصاعد على حاله من المدخِنة.(117)

---

(117) تلاعب على أغنية فولكلورية ريفية كندية بعنوان: وظلَّ الدخان على حاله يتصاعد من المدخنة

"ما رأيك بهذين السطرين؟"
"يا لك من وغد".
"لم أدَّع يوماً عكس ذلك".
لا عجب أن كليهما يلجآن للحكايات.

تنعطف يساراً حيث دكّان تصليح الأحذية، ثم تقطع الشارع، متجاوزةً بيتين. ثم تصل مجمع الشقق الصغير: **أعالي القمم**(118). لابدّ وأنهم أسموا المبنى تيّمناً بقصيدة هنري وودزورث لونغفيلو. شعارٌ غريب على رايةٍ مرفوعة، فارسٌ يضحّي بالهموم الدنيوية كي يتسلق أعالي القمم. أعالي قمم ماذا؟ الكرسي الوثير للتقوى البورجوازية المتكلَّفة؟ كم يبدو سخيفاً، هنا والآن.

أعالي القمم مشيّدٌ من القرميد الأحمر، من ثلاثة طوابق، وفي كل طابق أربع نوافذ، مع شرفاتٍ من الحديد المطاوع – أشبه بأفاريز منها إلى شرفات، فلا مكان فيها حتى لكرسي. جوهرة الحي كانت فيما مضى، أما الآن فهي المكان حيث يتشبث الناس بشَفير الهاوية. على إحدى تلك الشرفات ارتجل أحدهم حبل غسيل لتعليق الملابس؛ تتدلّى منها ممسحة ضاربة للّون الرماديّ، تبدو مثل راية كتيبةٍ مهزومة.

تواصل سيرها متجاوزةً المبنى، ثم تنعطف لدى التقاطع التالي. هناك تقف وتنظر للأسفل كأنما علق شيءٌ على حذائها. للأسفل، ثم للوراء. لا أحد يمشي خلفها، ولا سيارة بطيئة. امرأةٌ بدينة تجاهد في صعودها الدرجات الأمامية، عن كل يدٍ من يديها تتدلى حقيبة خيطية تشبه الصابورة. ولدان في ملابس مرقعة يلحقان كلباً قذراً على طول الرصيف. لا رجال هناك سوى ثلاثة عقبانٍ مسنّين جالسين في شرفة، ظهورهم محدودبة فوق صحيفةٍ واحدة.

– The Smoke Goes up the Chimney Just the Same بمعنى أن أياً كان ما يحدث في الحياة فالدخان سيظل يتصاعد على حاله من المدخنة.

(118) أعالي القمم – The Excelsior: قصيدة للشاعر الإنجليزي هنري وودزورث لونغفيلو عن فتًى يرفع راية مكتوب عليها أعالي القمم، ويظل يثابر على قطع قرى الجبل، متجاهلاً كل التحذيرات، مصراً على بلوغ القمة، لينتهي به المآل ميتاً في الأعلى شبه مدفون في الثلج ويده لا تزال متشبثة برايته.

تستدير وتعود من حيث أتت، إلى **أعالي القمم**، ومن هناك تنطلق مسرعةً في الزقاق الجانبي للمبنى، تكبح نفسها عن الجري. الإسفلت غير متساوٍ، وكعبا حذائها عاليان. ليس بالمكان المناسب لتلوي كاحلها. في تلك اللحظة تشعر بأنها مكشوفة أكثر من أي وقت مضى، أنها محط الأنظار، رغم أن لا نوافذ هناك. قلبها يخفق مسرعاً، ساقاها واهيان، حريريان. الرعب قد نشب أظفاره فيها، ولماذا؟

لن تجده هناك، كذا يقول لها الصوت الناعم في عقلها؛ صوتٌ ناعمٌ ملتاع، يسجع بحزنٍ كما هديل يمامٍ في حداد. لقد رحل بعيداً. لقد أخذوه بعيداً. لن تَرَيهِ في حياتك مرة أخرى، أبداً. تجد نفسها على وشك البكاء.

من السخف أن تخيف نفسها هكذا. بيد أن هناك حقيقة فيما قاله الصوت، حقيقة ليس بوسعها إنكارها. هو يسهل عليه الاختفاء أكثر منها: فعنوانها ثابت، وسيعرف دائماً أين يجدها.

تتريث، ترفع معصمها، تستنشق العبق المطمئن لرائحة العطر على فرو معطفها. هناك بابٌ معدني في الخلف، باب الخدم. تطرقه بخفّة.

السفّاح الأعمى: البوّاب

الباب يفتح، وها هو أمامها. لا يتسنى لها الشعور بالامتنان إذ سرعان ما يسحبها للداخل. هما على منبسط السلم الخلفي للمبنى. لا ضوء هناك سوى خيوطٍ واهية متسللة من نافذةٍ ما في الأعلى. يقبلها، يحاوط وجهها بيديه. ذقنه كما ورق السنفرة. جسده يرتعش، لا من الإثارة، أو بالأحرى لا من الإثارة وحسب.

تتملص منه. "تبدو كقاطع طرق". لم يسبق أن رأت واحداً؛ لكن ما خطر على بالها هم قطّاع الطرق الذين رأتهم في الأوبرا. المهرّبون في كارمن. يبالغون في تلطيخ وجوههم بالمسحوق الأسود.

"آسف. كان عليّ الفرار من هناك على عجل. ربما كان تهديداً زائفاً، لكني مع العجلة خلّفت ورائي عدة أغراض".

"مثل موس حلاقة؟"

"من بين أغراضٍ أخرى. تعالي- المكان هنا في الأسفل".

السلّم ضيّق: الخشب غير مطلي، الدرابزين ألواحٌ خشبية، بوصتان في أربع. في الأسفل، الأرضية إسمنتية. تنبعث من المكان رائحة غبار الفحم، رائحةٌ لاذعة لسرداب، مثل رائحة الحجارة الرطبة في كهفٍ ما.

"هنا، غرفة البواب".

"لكنك لست بالبواب، أليس كذلك؟" تقول له ضاحكةً بعض الشيء.

"بلى، أو هذا ما يظنه مالك المبنى. فقد مرّ هنا عدة مرات، في الصباح الباكر، كي يتأكد من إذكائي النار في الفرن، لكن باقتصاد. فهو لا يرغب بمستأجرين متدفئين،

فهذا سيكلفه الكثير؛ الجو الفاتر يكفيهم. الفراش ليس جيداً بما يليق".
"يظلُّ فراشاً". تقول له. "أقفِل الباب".
"الباب لا يُقفَل".

هناك نافذة صغيرة، قضبانها متصالبة؛ بقايا ستارة تتدلى عليها. ضياءٌ صَدِئ ينسلُّ منها. لقد أسندا كرسيًّا إلى مقبض الباب، كرسياً معظم روافده مفقودة، أصلاً الكرسي في حكم بقايا من خشب. هما أسفل لحافٍ عفن، معطفها ومعطفه مرميان فوقه. الملاءة لا تطيق حتى التفكير بها. لها أن تشعر بأضلعه، تتقفى المساحات بينها.
"ما الذي تأكله؟"
"كفّي عن إزعاجي".
"أنت هزيلٌ جداً. بوسعي إحضار شيءٍ تأكله، بعض الطعام".
"وكيف لي أن أعتمد عليك؟ قد أموت جوعاً في انتظارك تظهرين على عتبة الباب. على كلٍّ لا تقلقي، سأغادر هذا المكان قريباً".
"إلى أين؟ أتعني ستغادر هذه الغرفة أم المدينة أم ..".
"لا أدري، لا تنقِّ عليّ".
"أنا قلقة عليك، لهذا أسألك، أريد أن ..".
"كفى".
"حسنٌ إذن، أظننا سنعود إلى زكرون. إلّا إن أردت مني الرحيل".
"لا. ابقى هنا. أنا آسف، لكني كنت واقعاً تحت ضغطٍ كبير. أين توقفنا؟ فقد نسيت".
"كان يقرر بين حزّ عنقها أو الوقوع في حبها للأبد".
" صحيح، الخياران المألوفان".

يقرّر بين حزّ عنقها أو الوقوع في حبها للأبد، وإذ – بنعمة حاسة السمع الحساسة

التي وهبتها إياه نقمة فقدان البصر- يلتقط صوت صريفٍ وصريرٍ معدني، سلاسل حديدية تصلصل، أصفاد تحتك بالأرض. الصوت يقطع الرواق مقترباً من الحجرة. كان قد أدرك حينها أن سيد العالم السفلي لم ينل بعد مبتغاه من الزيارة المدفوعة: كان له أن يخمن ذلك من الحالة التي كانت الفتاة عليها. لك أن تصفها بالحالة النقية.

وما العمل الآن؟ بإمكانه أن ينسل خلف الباب أو تحت السرير، ويتركها لمصيرها، ثم يعاود الظهور وينهي المهمة التي سينال أجره عليها. لكن بعد أن أصبح الوضع على ما هو عليه الآن، فما عاد راغباً في قتلها. أو ربما سينتظر حتى دخول رجل البلاط وانغماسه في لذته حد الصّمم عمّا يجري من حوله فينسل خارج الباب ويغادر. لكن حينها، شرف السفاحين العميان كجماعة – أو إن أردت كنقابة – ستتلطخ سمعتها.

يمسك ذراع الفتاة، وبوضع يدها على فمها يشير إليها بضرورة الصمت. ثم يقودها بعيداً عن السرير ويخبئها خلف الباب. يتأكد من أن الباب غير مقفل، كما اتُّفق عليه. فالرجل لن يتوقع وجود حارسة: ففي صفقته مع الكاهنة الأعلى كان قد اشترط عليها عدم تواجد أي شهود. حارسة المعبد كانت ستحرص على الابتعاد عن طريقه متى ما سمعت صوته قادماً.

يسحب السفّاح الأعمى جثة الحارسة من تحت السرير ويرتب وضعها على الفراش، مع وشاحها يغطي قدَّ الحزِّ على عنقها. لم تبرد بعد، وما عادت تنزف. إن جاء حاملاً شمعة فسيغدو الوضع سيئاً؛ عدا ذلك، ففي عتمة الليل كل القطط رمادية. كذلك فإنّ عذراوات المعبد مدرّبات على إظهار الجمود العاطفي. قد يتطلّب الأمر وقتاً كي يدرك الرجل – الذي يعيقه زيّ الرب المصطنع الثقيل، والذي غالباً ما يأتي مع خوذةٍ وقناع – أنه يضاجع المرأة الخطأ، بل وامرأةً ميتة.

يشد السفّاح الأعمى غطاء الفراش البروكاد على الجثة بالكامل. ثم ينضمّ إلى الفتاة، ملتصقاً وإياها بالجدار قدرَ المستطاع.

الباب الثقيل يصرّ ويفتح. الفتاة ترقب الوميض الذي دخل المكان. يبدو أنّ

سيّد العالم السفلي لا يسعه الرؤية جيداً، يصطدم بغرضٍ ما، ويلعن. أخذ الآن يتحسّس طريقه على ستائر السرير. "أين أنت، حلوتي؟" لن يتفاجأ إن لم تجب عليه، مدركاً أنها بكماء، وهو ما ينصبّ في صالحه.

السفّاح الأعمى ينسل من خلف الباب، والفتاة برفقته. "كيف سأنزع عني هذا الشيء اللعين؟" يدمدم سيد العالم السفلي. كلاهما يدب خارج الباب، ثم إلى الرواق، يدها في يده، مثل طفلين يتحاشيان مواجهة الكبار.

يسمعان خلفهما صرخةً مدوية، إما صرخةً مذعورة أو غاضبة. مع يده على الجدار، السفّاح الأعمى يندفع في الفرار. يجري وينتزع من ورائه المشاعل عن الشمعدانات الجدارية، يلقي بها خلفه آملاً أن تنطفئ.

يعرف دواخل المعبد وممراته كما يعرف ظاهر يده، باللمس والشم؛ فمن متطلبات مهنته معرفة أشياء كهذه. وكما يعرف المعبد فهو يعرف المدينة، له أن يجري في أزقتها مثل فأرٍ في متاهة – يعرفها مدخلاً مدخلًا، كل نفق، كل رتاج، كل زقاقٍ مسدود، كل أسكفة وكل قناة مياهٍ ومصرف مجاري – يعرف حتى الكلمات السرية لبواباتها، معظم الوقت. يعرف أي أسوار يتسلق بكل مواطئ رؤوس الأصابع فيها. يدفع باللوح الرخامي – منقوش عليه وسمٌ للإله المحطَّم – شفيع الهاربين – وها هما في عتمة الظلام الدامس. استنبط ذلك من تعثر الفتاة، وللمرة الأولى يخطر له أن اصطحاب الفتاة معه سيُبطِئ حركته. حاسّة بصرها ستعوقه.

على الجانب الآخر من الجدار، خطى الأقدام تتسارع. يهمس لها "تشبثي بردائي،" مردفاً بعدها دون داعٍ، "ولا تنطقي بكلمة". هما الآن في شبكة الأنفاق الخفية التي تمكّن الكاهنة الأعلى وعصابتها من معرفة العديد من الأسرار القيّمة من ألسنة زوّار المعبد لدى زيارتهم المكان للاعتراف أو الصلاة، لكن عليهما الخروج من هنا في أسرع وقت. فهو المكان الأوّل الذي ستبحث فيه الكاهنة الأعلى دون شك. كما لا يسعه المغادرة من حيث دخل، عبر الصخرة المتخلخلة في السور الخارجي. فقد يكون سيّد العالم السفلي على عِلمٍ بها، كونه مَن أعدّ خطة القتل وحدد المكان ونقطة الدخول، ولا بد أنه الآن قد أدرك خيانة السفّاح الأعمى.

يسمع صوت قرع الجرس البرونزي مكتوماً من خلف الحجارة الثخينة. له أن يسمعها عبر قدميه.

يقود الفتاة من جدارٍ إلى جدار، ثم أسفل سلّمٍ ضيّق شديد الانحدار. تئن ذعراً: فقطع لسانها لم يحرمها البكاء. لسوء الحظ، يقول السفّاح في نفسه. يتلمس طريقه نحو البريخ المهجور الذي يعرف وجوده، يردفها إليه، يداه متشابكتان كما الرّكاب كي ترتقي عليها، ثم يتأرجح إلى جانبها. عليهما الآن أن يتمعّجا في طريقهما كالديدان. الرائحة كريهة، بيد أنها رائحة قديمة. روائح فضلات البشر وقد باتت غباراً.

وها هما الآن في الهواء العليل. يتنشقه، يتفحص إن كان مِن وجود لمشاعل.

يسألها "أهناك نجوم؟" تومئ له. إذن لا غيوم في السماء. مِن سوء حظهما. لابدّ وأنّ قمرين من الأقمار الخمسة منيران – يعرف ذلك من خلال توقيت الشهر، والأقمار الثلاثة المتبقية ستنير عن قريب. كلاهما سيغدوان ظاهرين للعيان ما تبقى من الليلة، وما إن تشرق الشمس سيتوهجان.

كهنة المعبد لن يعلنوا قصة هروبهما للعامة – إذ من شأن قصةٍ كهذه أن تريق ماء وجوههم، وقد تندلع على إثرها أعمال شغب. فتاةٌ أخرى ستقاد إلى المذبح: فتحت كل تلك الأخمرة، من سيدري؟ لكن حتماً سيطلقون على إثرهما فرق الصيد، ستكون حملةً مكتومة لكن شعواء.

قد يختبئان في غارٍ ما، لكن عاجلاً أم آجلاً سيضطران للخروج بحثاً عن الطعام والماء. وحده قد يتدبر أمره، لكن ليس بوجودها معه.

بوسعه أن يهجرها في أي وقت. أو يطعنها، ويرمي بها في الجب.

لا، لن يسعه فعل ذلك.

أمامه خيار اللجوء إلى عرين السفّاحين. العرين هو مقصدهم متى كانوا خارج الخدمة، حيث يتبادلون الأخبار والأقاويل ويتقاسمون الغنائم ويستعرضون مآثرهم. من جسارتهم أقاموا عرينهم أسفل "حجرة القضاء" في القصر الرئيسي. كهفٌ عميق أرضه مفروشة بقطع السجاد الوثير – السجاد الذي أُجبروا على

نسجه أطفالاً، ثمّ سرقوه. كل واحدٍ منهم له أن يستدل على السجادة التي نسجها باللمس، وغالباً ما يستلقون عليها، يدخنون حشيش فرنج المحفّز للأحلام، ويمررون أصابعهم على نقوشها، على ألوانها الوثيرة، يستعيدون ذكرى تلك الألوان وكيف بدت لهم أيام كانوا بعد مبصرين.

لكن السفاحين العميان هم فقط من يُسمح لهم بدخول الكهف. فهم مجتمعٌ منغلق على نفسه، وأي غرباء يدخلون العرين يدخلونه كنصيبٍ من غنائمهم. عدا أنه قد خان مهنته بإنقاذه حياة شخصٍ كان مأجوراً لقتله. فالسفاحون محترفون، يفاخرون أنفسهم بإتمام عقودهم، ولا يطيقون أي خرقٍ لأصول مهنتهم. سيقتلونه فورًا دون أدنى شفقة. أما هي فسيقتلونها لاحقاً.

حتى أنه لن يستغرب إن استأجروا أحد رفاقه السفاحين كي يقتفي أثرهما. أطلِق اللصَ وراء اللص. ثم، عاجلاً أم آجلاً، سينتهي أمرهما. رائحتها وحدها كفيلة بفضحهما – فقد أهرقوا الطيوب على جسدها حتى النخاع.

عليه أن يخرجها من ساكيل نورن – إلى خارج المدينة، خارج الأرض المألوفة. الهروب إلى أرضٍ مجهولة محفوفٌ بالمخاطر، لكن يبقى أقل خطراً عليه من البقاء. قد يتسللا إلى الميناء، ثمّ يصعدان متن أي سفينةٍ هناك. لكن كيف سيتسنى له التسلل عبر البوابات؟ فالبوابات الثمانيّة كلها مقفلة ليلاً والحراسة عليها مشددة وفق النظام. لو كان وحده، لتسلّق أي سورٍ من الأسوار – فأصابع يديه وقدميه تتشبثان بالحجارة مثل أبو بريص – لكن معها سيتحول الوضع إلى كارثة.

هناك حلٌ آخر. يرهف أذنيه مع كل خطوة، ويقودها أسفل التل، باتجاه جانب المدينة الأقرب إلى البحر. فكل مياه ينابيع ونوافير ساكيل نورن تجتمع وتصبُّ في ساقيةٍ واحدة، وتلك الساقية تحمل الماء من أسفل سور المدينة، عبر نفقٍ مقنطر. سطح الماء فيها يغمر رأس الرجل والتيار سريع، لذا لا أحد سبق وأن جرب التسلل عبرها إلى داخل المدينة. لكن التسلل خارجها؟

الماء الجاري سيطمس رائحتها.

هو يسبح. فتلك مهارة من المهارات المطلوب من كل سفّاح إتقانها. ويفترض،

وافتراضه في محله، أن الفتاة عاجزة عن السباحة. يطلب منها خلع ملابسها وتكديسها في صرة. ثم يخلع عنه رداء المعبد ويربط ملابسه بصرة ملابسها. يوثق رباط الصرة حول كتفيه ثمّ حول معصميها، قائلاً لها إن فلتت العقدة فعليها أن تتشبث به ولا تتخلى عنه أبداً مهما جرى. وما إن يقتربا من النفق المقنطر، فعليها أن تحبس أنفاسها.

طيور النّايِرك تحوم مهتاجةً في السماء: بإمكانه سماعها تستهلُّ نعيقها.

قريباً سيبزغ النور. أحدهم قادم، على بعد ثلاثة شوارع، بثباتٍ، بتعمد، وكأنما يقتفي أثراً. يقود الفتاة ويدفع بها في التيار البارد. تلهث لالتقاط أنفاسها، لكنها تنفذ تعليماته لها. يطفوان على مجرى الساقية؛ يتحسس حركة التيار، ينصت لهدير وقرقرة الماء مندفعاً اتجاه النفق المقنطر. إنْ غطسا قبل الأوان ستنقطع أنفاسهما، وإن غطسا بعد فوات الأوان فرأسه سترتطم بالصخرة، وسيهوي في القاع.

الماء كائنٌ سديمي، لا شكل له، لك أن تخترقه بيدك؛ غير أنّ بيده أن يقتلك. قوّة كائنٍ كهذا تكمن في الزّخم، في بلوغه الذروة. ما الذي سيتصادم معه، وبأي سرعة. ذات الشيء لنا أن نقوله عن – لا تحفلي بما قلت.

ينجرفان في مجازٍ طويلٍ مؤلم. يشعر برئتيه تنفجران، بذراعيه تستسلمان. يشعر بها منجرةً وراءه، ويتساءل إن غرقت. على الأقل التيار يجري لصالحهما. يشق طريقه على جدران النفق، جسده يحك بصخورها؛ شيءٌ ما قد تمزق. أتراه قماشٌ أم لحم؟

يطفوان ثانيةً على السطح على الجانب الآخر من النفق المقنطر؛ هي تسعل، وهو يضحك برقة. مستلقياً على ظهره، يحمل رأسها فوق الماء؛ وهكذا يتابعان طريقهما طافيين على مجرى القناة لمسافةٍ ما. وحين يرى أنهما قد ابتعدا بما فيه الكفاية وأنهما في أمان، يرسو بنفسه وبها إلى البر، يسحبها معه صعوداً على الساتر الصخري الموحل. يستشعر ظل شجرة. هو مرهق، بيد أنه جذل، تغمره سعادةٌ غريبةٌ موجعة. فقد أنقذها. قد أظهر الرحمة، للمرة الأولى في حياته كلها. ومن يدري ما الذي سيتأتى عن هجره طريقَه الذي سُيّر إليه في هذه الحياة؟

يسألها "أهناك أحد؟". تتريث هنيهة وتتلفت حواليها، ثم تهز رأسها نفياً. "أيّ حيوانات؟" كرّة أخرى، لا. يعلّق ملابسهما على أغصان الشجرة، ثم، في النور الخافت للأقمار الثلاثة، الزعفرانيّ والأرجوانيّ والماجنتيّ، يجمعها بين يديه كما الحرير، ويغوصُ فيها. هي منعشة كما الشّمّام، طعمها ملحٌ خافت كما السمكة الخارجة التوّ من الماء.

يستلقيان أحدهما بين ذراعَي الآخر، وسرعان ما يغرقان في النوم. وبينما هما على هذه الحال، إذ بثلاثة جواسيس مبعوثين من قوم الخراب كي يستطلعوا السّبُل لاقتحام المدينة يتعثرون بهما. يوقظونهما بجلافة، ويحقّق معهما الجاسوس من بين الثلاثة الذي يتكلّم لغة أهل المدينة، وإن ليس بطلاقة. الجاسوس يبلغ رفيقيه أن الصبيّ أعمى والفتاة بكماء. الجواسيس الثلاثة يتأملونهما باندهاش. كيف لهما أن بلغا هذا المكان؟ بالتأكيد ليس خروجاً من المدينة، فكل البوابات محكمة الإغلاق. بدا الأمر وكأنهما هبطا فجأةً من السماء.
الجواب واضحٌ وجليّ: لابدّ وأنّهما رسولان مبعوثان من الإله. بدماثة يسمحون لهما بارتداء ملابسهما التي جفت الآن، ويدعونهما لامتطاء حصان الجاسوس سوياً كي يقادا إلى خادم الابتهاج. الجواسيس مفعمون بالرضا عن أنفسهم، والسفّاح الأعمى أدرى بمغبة الكلام. فقد سمع قصصًا مبهمة عن هؤلاء الناس ومعتقداتهم الغريبة فيما يتعلق بالرسل. يؤمنون أن الرسل يُبلغون رسالة الإله للناس في أقوال غامضة، لذا يحاول تذكّر كل الألغاز والمفارقات والأحاجي التي عرفها يوماً: "طريقك للأسفل هو طريقك للأعلى"، و"ما الذي يسير على أربع في الفجر؟"، و"على اثنين في الظهر، وعلى ثلاث في المساء"، و"من فم النّهم يأتيك اللحم"، و"من لدن القوي يأتيك الحلو"، و"ما الأسود والأحمر والأبيض في لفافةٍ واحدة؟".
"اللغز الأخير ليس زكرونياً، فلا صحف لديهم".
"معكِ حق. اشطبي اللغز الأخير. ماذا عن: أقوى من الربّ وأشرّ من الشيطان؟ أو: الفقير يملكه والغني يفتقر إليه؟ وإن أكلته فمصيرك الموت!"

"لم أسمع بهذا اللغز قبلًا".

"خمّني".

"استسلمت".

"لا شيء".

تأخذ دقيقة تحلّل فيها الجواب. "أجل، لا شيء. هذا اللغز سيفي بالغرض".

على الطريق، يطوق السفّاح الأعمى الفتاة بذراعه طوال الوقت. كيف له أن يحميها؟ تخطر له فكرة مرتجلة ووليدة اليأس، ومع ذلك فقد تنجع. سيؤكد لهم أنهما حقًّا رسولان مبعوثان من الإله، لكن من نوعٍ مختلف. فهو من يتلقى الرسائل من الخفيّ لكن وحدها هي من لها أن تؤوّل تلك الرسائل. ستؤوّلها بيديها، بالإشارات التي سترسمها في الهواء بأصابعها. وفكّ شيفرة إشارات يديها مكشوفٌ له هو وحسب. وسيضيف على كلامه، في حال مرّت في خواطرهم أيّ أفكارٍ قذرة، أن لا رجل يجوز له لمس الفتاة البكماء بأسلوبٍ غير لائق، أو بأي أسلوبٍ على الإطلاق. عداه هو، بالطبع. وإلا فستفقد قواها.

الحل مضمون، إن استطاع خداعهم به. يأمل أن تكون الفتاة سريعة الخاطر، وتملك البديهة في الارتجال. يتساءل إن كان لها أي معرفة بلغة الإشارة.

"هذا كل ما لديّ اليوم. عليّ أن أفتح النافذة".

"لكن البرد قارس".

"ليس بالنسبة لي، فأنا أكاد أختنق هنا، كأني قابعٌ في خزانة".

تضع راحة يدها على جبهته، "أظنك ستصاب بالحمى. ربما عليّ الذهاب إلى الصيدلية –"

"لا، أنا لا أصاب أبداً بالمرض".

"إذاً ما خطبك؟ ما بالك قلق هكذا؟"

"لست قلقاً بدرجة كبيرة، فأنا لا أقلق أبداً. لكني ما عدت أثق بما يجري من حولي.

لا أثق بأصدقائي. من يدَّعون أنهم أصدقائي".

"لماذا؟ ما الذي حصل؟"

"هنا المصيبة، أنَّ لا شيء قد حصل".

"مافير"، فبراير، 1936

أَوْجُ أقاويل تورنتو

بقلم يورك

فاض فندق رويال يورك، منتصف شهر يناير، بجموع المحتفلين الصاخبين في أزيائهم المدهشة في حفل الموسم الخيري التنكّري الثالث والذي عاد ريعه لصالح **حضانة مركز المدينة للأطفال اللقطاء.** وفي إيماءة تحيّة لحفل **الفنون المعمارية** المذهل العام الماضي "تيمورلنك في سمرقند"، فقد استوحى منظّمو الحفل موضوع العام من قصيدة "زانادو"، وتحت الإخراج الماهر للسيد والاس واينانت، اكتست القاعات الثلاثة بالحلة المترفة "لقبة البهجة الجليلة،" حيث جال كوبلا خان وحاشيته البرّاقة في بلاطه الوثير. الملوك والحكام قدموا من ممالك الشرق تتبعهم جموع حاشيتهم – الحريم، والخدم، والغواني، والعبيد، وسليلات البلاط عازفات القانون، والتجار ورجال البلاط والدراويش، وجُند من كل جيوش العالم والكثير الكثير من المتسولين – كلهم أخذوا يدورون في أنسٍ حول نافورة "النهر المقدَّس ألف" التي تسلب الألباب، مياهها اصطبغت بالضياء الأرجواني الباخوسي لأضواء المسرح، تعلوهم حبال الفسطون الكريستالي المترأرئ في قلب "كهف الجليد".

كما وعمَّ الرّقص الرشيق التعريشتين المتجاورتين، كل تعريشةٍ زاخرة ببراعم الأزهار، على وقع "لحنها وأغنيتها" تعزفها أنامل فرق أوركسترا الجاز في القاعات الثلاثة. ولم يتناه إلى مسامعنا أي "صوتٍ من الأسلاف ينبئ بوقوع حربٍ هوجاء"، إذ سار كل شيءٍ على خير ما يرام، والفضل في ذلك يعود إلى القيادة الحكيمة للسيدة وينيفريد غريفين بريور، منظّمة الحفل، التي سحرت الحضور بفستانها الأرجواني الذهبي كأميرةٍ من راجستان. كذلك ضمّت لجنة الاستقبال كلاً من السيدة ريتشارد تشايس غريفين، متنكرة كحبشيّة عذراء في أردية فضيّة خضراء،

والسيدة أوليفر ماكدونال في ثوبٍ صيني أحمر، والسيدة هيو إن. هيليرت، متنكرة كسلطانة في ثوبٍ ماجنتي.

السفّاح الأعمى: كائنٌ فضائي على الجليد

هو في مكانٍ آخر الآن، في غرفةٍ استأجرها قرب تقاطع الطرق. الغرفة تعلو متجراً للخردوات. على واجهة المتجر عُرِضَ نزرٌ شحيح من مفاتيح الربط والمفاصل. الأمور لا تسير على ما يرام مع المتجر؛ الأمور لا تسير على ما يرام مع أي دكّانٍ في هذه الأرجاء. الرّيح تصرّ، أوراقٌ مجعدة منثورة على طول الطريق؛ الرصيف المكسوّ بالجليد غدّار، فالثلج المتراكم لا يجرفه أحد.

على مقربةٍ منه القطارات تندب مفجوعةً كلّما حوّلت مسارها، تجرجر وراءها صفيرها إلى أبعد مدى. ما قالت يوما "مرحباً،"، ودائماً ما تقول " الوداع". بوسعه القفز على أحدها، لكنها مجازفة: فالقطارات مخفورة بالدوريات، ولا تعرف متى قد تقع في قبضتها. على أي حال لقد سبق السيف العذل، وها قد تسمّر في مكانه الآن – تلك هي الحقيقة التي عليه أن يواجهها – هو لا يزال هنا بسببها؛ رغم أن مثلها مثل القطار: لا تأتي أبداً في موعدها، ودائماً تتركه في وداع.

الغرفة في الطابق الثاني، ملحقة بسلّمٍ خلفي درجاته مبطنة بالمطاط، المطاط رثٌّ مرقّع، لكن على الأقل يظل مدخلاً منفصلاً. إلّا إن أخذت في الحسبان الزوجين الشابين وطفلهما الرضيع الذين يسكنون الجهة المقابلة للجدار. هو وهُما يستخدمون السلّم ذاته، لكن نادراً ما يراهما، فهما يستيقظان باكرًا. لكن يتسنى له الاستماع إليهما ليلاً، كلما حاول أن ينكبّ على عمله؛ يتضاجعان وكأن لا شمس ستشرق تالي صباح، سريرهما يصيء كالفئران. أصواتهما تقوده إلى الجنون، كنت لتظنّهما سيعوفا المضاجعة مع صياح طفلهما المزعج آنّاء الليل والنهار، لكن لا، ها

هما يعدوان ويعدوان. على الأقل هما سريعا الأداء.

أحياناً يلصق أذنه بالجدار كي يصغي إليهما. فالغاية تبرر الوسيلة، مهما كانت الوسيلة كريهة. وفي عتمة الليل كل البقر سواء.

كان قد صادف المرأة عدة مرات، متدثرة بلباسٍ ثقيل مع وشاحٍ معقودٍ حول رأسها وكأنها جدّة روسية، تسير جاهدةً حاملةً الرزم ودافعةً عربة طفلها الرضيع. دائماً ما يتركان العربة في منبسَط السلم، يتركانها هناك على أهبة الانتظار وكأنها شرك موتٍ فضائي، فمها الأسود فاغر. ساعدها مرةً مع العربة وابتسمت له، خلسةً، أسنانها الصغيرة حوافها ملبّدة باللون الأزرق، مثل الحليب المقشود. هل أُزعجكما بآلتي الكاتبة في الليل؟ كان قد غامر بطرح السؤال عليها، علّها تفهم تلميحه إلى استيقاظه ليلاً وسماعه لهما. لا، لا على الإطلاق. نظرتها جامدة، حمقاء مثل عِجْلةٍ صغيرة. هالاتٌ سوداء أسفل عينيها، خطوطٌ محفورة من الأنف إلى زاويتي فمها. يشك في كونها صاحبة المبادرة وراء ليالي الجماع. إذ، من جهة، سرعان ما تنقضي – الرجل يدخلها ويخرج منها كما اللص يقتحم بنكاً. ومن جهة أخرى، فكل ملامحها توحي بأنها امرأةٌ كادحة؛ من المرجح أنها تقضي وقتها تحدق في السقف بينما يفرغ منها، لا شيء يشغل بالها سوى مسح الأرض.

غرفته ناشئة عن تقسيم غرفةٍ أكبر إلى نصفين، وهو ما يفسر الجدار الواهي الفاصل بينهما. المكان ضيقٌ وبارد: النسيم يهب داخلاً من حول إطار النافذة، المشعاع يقعقع وينقّط لكن لا حرارة تنبعث منه. المرحاض محشورٌ في زاويةٍ شديدة البرودة، حوضه مبقعٌ بالصدأ والبول القديم، البقع برتقاليةٌ سُميّة، وحجيرة الاستحمام من الزنك، ستارتها مطاطية مسخمة بالقذارة المتراكمة عليها عبر السنين. مِرَشّة الاستحمام عبارة عن خرطوم مياهٍ أسود معلق على الجدار، طرفه موصولٌ برأسٍ معدني مخرّم. قطرات الماء تنزل منه باردةً كما حلمات الساحرات الشمطاوات. سرير "ميرفي" قد أخطأوا في تركيبه وكل مرةٍ ينتزعه عن الجدار يخاطر بكسر ضلعٍ من أضلاعه؛ منضدة مطبخ من صفائح الخشب الرقائقي مثبتة بعضها ببعض بمسامير، كانت مطليةً فيما مضى باللون الأصفر. عين غازٍ واحدة. القذارة

كست المنضدة كلها بالسخام.
مقارنةً بالمكان الذي من المفترض أن يكون فيه، هي قصرٌ فاخر.

كان قد هجر رفاقه. تخلى عنهم، ولم يترك لهم أي عنوان. ما كان يجدر بهم أن يستغرقوا وقتاً طويلاً في تدبير جواز سفر، أو جوازي السفر الذي طلبهما. شعر بأنهم يتعمدون إبقاءه في جعبتهم كضمان: في حال ألقي القبض على من هو أهم منه، فسيعرضونه بديلاً. وربما هم ينوون تسليمه في كل الأحوال. فهو كبش فداءٍ لطيف: يسهل التخلص منه، ولم يتماه بشكلٍ كلّي مع أفكارهم. هو رفيق السفر العاجز عن ملاحقة الرّكب. كانوا قد كرهوا فيه سعة اطلاعه، أو بالأحرى شكوكيته، وهو ما ظنّوه طيشاً وتقلّباً في الرأي. فقط لأن سميث مخطئ فهذا لا يعني أنّ جونز محق. كذا عبّر مرةً عن رأيٍ من آرائه. لا بد وأنهم قد دونوا رأيه هذا في قائمةٍ ما للاسترجاع المستقبلي. فهم لهم قوائمهم الصغيرة.
أو ربما يرون فيه مشروع شهيد، نسختهم من "ساكو وفانزيتي"[119]. ما إن تعلّق عنقه ويشنق حتى الاحمرار، وما إن تتصدر صورته الشريرة الصحف، سيكشفون عن دليلٍ ما على براءته – ويحرزون بذلك عدة نقاط في إثارة الغضب الأخلاقي لدى العامة. انظروا لما ارتكبه النظام! المجرمون القتلة! أين العدالة! هذا هو أسلوب تفكيرهم، أولئك الرفاق. بالنسبة لهم النضال لعبة شطرنج. وهو البيدق الذي سيضحّون به.

يتوجه نحو النافذة، ينظر خارجها. المدلاة الجليدية تبدو مثل أنيابٍ صدئة تتدلى خارج الزجاج، لونها الصدئ تسرب إليها من السقف أعلاها. يتفكر في اسمها،

(119) Sacco and Vanzetti: في إشارة إلى قضية الرجلين الأمريكيين من أصلٍ إيطالي ساكو وفينزيتي، إذ كانا من ضمن مثيري الفوضى ضد قمع السلطات، وفي عام 1920 اتهما بالسطو المسلح على شركة في ولاية ماساشوتس وقتل الحارس، وحكم عليهما بالإعدام على الكرسي الكهربائي بعد مداولة قصيرة لهيئة المحلفين. القضية نالت شهرة عالمية إذ ساد الاعتقاد ببرائتهما وبطلان المحاكمة وانطلقت المظاهرات في أميركا وأوروبا وعواصم أخرى مثل سيدني وطوكيو وبوينس آيرس دفاعاً عنهما. ورغم كل محاولات استئناف الحكم أو إعادة محاكمتهما، فقد أعدما عام 1927.

هالةٌ كهربائية تطوّقه – أزيزٌ شهواني مثل النيون الأزرق. أين هي؟ ما كانت لتستقل سيارة أجرة، ليس إلى هنا، فهي أذكى من ذلك. يحدق في موقف عربة الترام، يأمرها بقوة مشيئته أن تتجلى أمامه الآن. أن تهبط من عربة الترام كاشفةً ساقها، جزمتها ذات الكعب العالي، وجنتيها المتوردتين بأجود مسحوق. فرجٌ على طُوّالتين. لماذا يفكر بها بهذا الأسلوب الرخيص، بينما إن تجرّأ رجلٌ آخر ووصفها بذات الكلمات فسيلكم الوغد دون تردّد؟

سترتدي معطف فرو. وسيزدريها لارتدائه، وسيطلب منها أن تبقيه عليها. سيتمرغ في فروها.

آخر مرةٍ التقيا لمح رضّةً في فخذها. تمنّى لو أنه هو من تسبب بها. وما هذا؟ ارتطمت بالباب. دائماً يعرف متى تكذب. أو يظن أنه يعرف. فقد يقع في فخ إن آمن حقاً أنه يعرف. أستاذٌ سابق أخبره مرةً أنه يملك ذكاءً حاداً كما الألماس، وكم شعر بالإطراء وقتها. لكن الآن، لدى تأمله طبيعة الألماس، ما عاد يرى الإطراء. فرغم حدته ولمعانه وقدرته على قطع الزجاج، فالألماس يلمع فقط بانعكاس الضوء عليه. لا فائدة ترجى منه في الظلام.

لماذا تواصل القدوم؟ أهو لعبةٌ شخصية بالنسبة إليها، أهكذا ترى الوضع؟ هو لا يسمح لها بشراء أي شيءٍ له، فهو ليس معروضاً للبيع. هي تريد منه قصة حب لأن هذا ما تريده كل الفتيات، أو الفتيات من طينتها من لا يزلن يأملن بشيءٍ من الحياة. لكن لا بد وأن هناك زاوية أخرى. رغبةٌ في الانتقام، أو إنزال العقاب. فالنساء لهن طرقهن الغريبة في الإيذاء. يؤذين أنفسهن عوضاً؛ أو يؤذين الرجل دون أن يعي حقاً ما يجرى له إلا بعد أمدٍ طويل. وحينها سيصعق. رغم تينك العينين، وجِيدها النقيّ، فقد لمح فيها أكثر من مرة أثر شيءٍ معقد، أثراً لوصمة عار.

خيرٌ له ألا يخترعها في ظل غيابها. خيرٌ له أن ينتظر مجيئها حقاً إلى هنا. وحينها له أن يخترعها على هوى تصرفاتها. لديه طاولة بريدج، عتيقة من سوق البرغوث، وكرسيٌ مطويٌ واحد. يضع الآلة الكاتبة على الطاولة، ينفخ على أصابعه، ويدخل الورق.

في نهرٍ جليديّ يقع في جبال الألب السويسرية، (أو ربما من الأفضل جبال روكي، أو غرينلاند حتى، خيارٌ أفضل بكثير)، عثر بعض المستكشفين على سفينةٍ فضائية مطمورة في دفقٍ جليدي صافٍ. تبدو مثل منطادٍ موجّهٍ صغير، لكن تعلوها قرونٌ مستدقّة مثل قرون الباميا. ووميضٌ محيّر ينبعث منها، يخترق الجليد المطمورة فيه. وما لون الوميض؟ الأخضر هو الخيار الأصح، مع مسحةٍ من اللون الأصفر، مثل عشبة الأفسنتين.

المستكشفون أذابوا الجليد، بواسطة ماذا؟ مشعلٍ صودف أنه في حوزتهم؟ نارٍ عظيمة أوقدوها من خشب الأشجار المجاورة؟ إن كان سيعتمد الأشجار فعليه أن يعيد مكان الحدث إلى سلسلة جبال روكي، فلا أشجار هناك في غرينلاند. ربما بواسطة كريستالةٍ هائلة الحجم، والتي عن طريقها سيكبّرون أشعّة الشمس. في فريق الكشافة – حيث التحق لفترةٍ قصيرة – تعلّم استخدام تلك الطريقة في إذكاء النار. وبعيداً عن عيني رئيس الكشافة – الجذل الكئيب، الغرّ الساذج عاشق الإنشاد الجماعي للأغاني الفولكلورية والفؤوس الصغيرة – أخذ ورفاقه يسلطون عدساتهم المكبرة على أذرعتهم في تحدٍ لمعرفة من سيحتمل الألم لفترةٍ أطول. اعتادوا إشعال النار في أوراق الصنوبر بهذه الطريقة، وكذلك في أكوام قصاصات ورق الحمّام.

لا، الكريستالة الضخمة ستكون مبالغةً مستحيلة.

الجليد بدأ يذوب بالتدريج. (س) هو رجلٌ أسكتلنديّ عنيد، سيحذّر رفاقه من العبث بالسّفينة إذ لن يتأتى أي خيرٍ منها، أمّا (ص) فعالمٌ إنجليزي، سيقول إنَّ من شأن اكتشافهم هذا أن يضيف إلى المخزون المعرفي الإنساني، بينما (د) الأمريكي، فسيقول إن لديهم فرصةً لا مثيل لها لجني الملايين. أما (م) الصبيّة الشقراء ذات الشفتين المكتنزتين المنتفختين، فوصفت الاكتشاف بالأمر المثير جداً. هي روسية ويُعتقد أنها تؤمن بحُريّة الحب. (س) و(ص) و(د) لم يضعوا إيمانها هذا قيد الاختبار، رغم رغبة ثلاثتهم في ذلك – (ص) في اللاوعي، و(س) تحت وطأة الشعور بالذنب، و(د) بفجاجة.

دائماً ما يرمز إلى شخصياته بالأحرف، ثم يمنحها أسماءها في وقتٍ لاحق. أحياناً يستعين بدليل الهاتف، وأحياناً بشواهد القبور. لكن المرأة رمزها دائماً (م) والتي ترمز إلى المذهلة، المتبلّدة، مكتنزة النهدين، اعتماداً على مزاجه. أو المثيرة الشقراء دون شك.

(م) تنام في خيمةٍ منفصلة ومن عادتها نسيان قفازيها المتينَين والتجوال في الليل بحثاً عنهما مخالفةً بذلك الأوامر. تعلّق على جمال القمر، وعلى التناغم الإيقاعي لعواء الذئاب؛ تنادي كلاب المزلجة بأسماء أولى، تخاطبهم بنبرةٍ روسية طفولية، وتدَّعي (رغم خلفيتها العلمية المادية الرسمية) أن الكلاب تحمل أرواحاً. وهو ما سيشكل موضع إزعاج متى ما نفد منهم الطعام واضطروا لأكل كلبٍ من تلك الكلاب، الاستنتاج الذي وصل إليه (س) بطبيعته الأسكتلندية التشاؤمية.

الهيكل القرني المتوقّد قد تحرّر من الجليد، لكن لم يتسنَّ للمستكشفين سوى قضاء عدّة دقائق في فحص المادة المصنوع منها – أشابة[120] معدنيّة رقيقة غير معروفة لدى الإنسان – قبل أن يتبخر كلياً في الهواء، مخلفاً وراءه رائحةً شبيهة برائحة اللوز أو البتشول أو السكّر المحروق، أو الكبريت أو السيانيد.

وإذ يتجلّى لهم شكلٌ شبه إنساني، من الواضح ذكوري، يرتدي بذلةً ضيقة باللون الأخضر المزرقّ لريش الطاووس، مع طبقةٍ لامعة برّاقة كما أجنحة الخنفساء. لا، الوصف مبالغٌ فيه، يبدو أقرب إلى جنيّة الحكايات. يرتدي بذلةً ضيّقة باللون الأخضر المزرقّ لشعلة الغاز، مع طبقةٍ لامعة براقة كما البنزين المنسكب على الماء. لا يزال مطموراً في الجليد، والذي لا بد قد تشكل في قلب الهيكل القرني. جلده أخضرٌ فاتح، أذناه شبه مستدقتين، شفتاه نحيفتان منحوتتان، وعيناه واسعتان، مفتوحتان. بؤبؤان أسودان لا يحاوطهما بياض، مثل عيني البومة. شعره أخضرٌ غامق، وخصلاته لفّاتٌ لولبية تغطّي جمجمته، مع قمم مستدقة واضحة على رأس كل لفةٍ منها.

غير معقول. كائنٌ من الفضاء الخارجي. من يدري كم من الوقت لبث هنا؟ عقود؟

(120) الأشابة –alloy: سبيكة من معدنٍ خسيس ممزوجٍ بمعدنٍ نفيس.

قرون؟ آلاف السنين؟

من المؤكد أنه ميت.

وما الذي يجدر بهم فعله الآن؟ يرفعون كتلة الجليد المعلّب فيها، ويتشاورون في أمره. (يقترح (س) عليهم المغادرة الآن واستدعاء السلطات؛ (ص) يريد تشريحه في الموقع، لكن يلفتون انتباهه إلى احتمال تبخره هو الآخر، كما السفينة الفضائية. (د) يعتريه الحماس لوضع الكائن الفضائي على المزلجة ونقله إلى المدينة، وهناك يطمرونه في الثلج الجاف ويبيعونه في مزاد على صاحب السّعر الأعلى. (م) تشير إليهم أن كلاب المزلجة قد بدأت تنزعج بشكلٍ مريب من وجود الكائن الفضائي وما تنفك تعوي، لكن الثلاثة تجاهلوا رأيها نظراً إلى أسلوبها الروسي الأنثوي المفرط في إبداء الآراء). أخيراً – بعد أن حلّ الظلام وأضواء الشفق القطبي بدأت تأخذ منحىً غريباً – قررت المجموعة إيداع الكائن الفضائي في خيمة (م). أما (م) فستضطرّ إلى المبيت في الخيمة الأخرى، برفقة الرجال الثلاثة، وهو ما سيفتح الباب لهم لممارسة التلصّص على ضوء الشموع، فكما تكتنز بذلة التسلّق الألبية بجسد (م)، كذلك سيكون الحال مع كيس النوم. وسيتناوب الأربعة إبان الليل على تبادل نوبات الحراسة، نوبة كل أربع ساعات. وفي الصباح سيلقون القرعة بغية الوصول إلى قرارٍ نهائي.

كل الأمور جرت على ما يرام في نوبات (س) و(ص) و(د). والدور قد حلَّ الآن على (م). تخبرهم أنّ شعوراً مريباً يعتريها، أن حدسها ينبئها بأن خطباً ما سيقع لهم، لكن من عادتها قول أشياء كهذه لذا يتجاهلها الثلاثة. (د) هو من يوقظها الآن، يتفحصها شَبِقاً وهي تتمطط وتتمدد وتجر نفسها من كيس النوم وتتمعج لدى ارتدائها بذلة الخروج المبطنة، ثم تتوجّه إلى الخيمة الأخرى وتأخذ مكانها جانب الكائن الفضائي المتجمّد. يراودها النعاس إثر خفق الشمعة، وتجد نفسها تتساءل عن أداء الرجل الأخضر في الأوضاع الرومانسية – حاجباه مثيران، مع أنه هزيلٌ جداً. وأخيراً تستسلم للنوم.

المخلوق المعلّب في الجليد أخذ يومض، وميضاً خافتاً بادئ الأمر، ثم أخذ يقوى.

الماء ينساب بصمت على أرض الخيمة. وها هو الجليد قد تلاشى. يستوي جالساً، ثم ينهض. وبكل سكينة يدنو من الصبية النائمة. لفائف شعره الخضراء الغامقة تهتاج، لفّةً لفّة، الواحدة منها تستطيل، وتغدو مجسة. إحدى تلك المجسات تجدل نفسها وتلتف حول عنق الفتاة، مجسةٌ أخرى حول جسدها المكتنز، وثالثة حول فمها. تستيقظ مذعورةً من منامها وكأنها في كابوس، لكنه ليس بكابوس: وجه الكائن الفضائي يكاد يلتصق بها، مجساته الباردة تثبتها في قبضةٍ لا مناص منها، يحدق فيها بنظرة توقٍ ورغبة، رغبةٍ عاريةٍ بحتة. لم يسبق لها أن رأت نظرةً كتلك في عيني رجلٍ من قبل، ليس بتلك الحدة. تقاوم قليلاً في البداية، لكن سرعان ما تستسلم لعناقه.

ليس أنَّ أمامها خيارٌ آخر.

الفم الأخضر يفتح، كاشفاً أنيابه. وها هي الأنياب تدنو من عنقها. يعشقها حد إذابتها، حد امتصاصها كي تغدو جزءاً لا يتجزأ منه، وللأبد. هو وهي سيضحوان واحداً. تفهم نيته دون أن ينطق ببنت شفة، لأن ذلك من بين قدراته الأخرى، فهذا السيد يملك القدرة على التخاطب بالتخاطر. نعم تجيبه متنهدة.

يلف سيجارةً أخرى لنفسه. هل سيدع الكائن الفضائي يلتهم (م) ويمتصها بتلك الطريقة؟ أو أن كلاب المزلجة ستهبّ لإنقاذها من ورطتها، تتحرّر من حبال الطّول وتقتحم الخيمة وتنقضّ على الشاب وتمزقه إرباً إربا، مجسةً مجسة؟ أو هل سيهبّ الرجال الثلاثة – يفضّل (ص) العالم الإنجليزي هادئ الأعصاب –لإنقاذها؟ هل سينشب عراك بين الرجلين؟ قد يكون تصاعداً مثيراً للأحداث. أيها الأحمق. كنت سأعلمك بكل شيء! آخر ما سينطق به الكائن الفضائي تخاطرياً مع (ص) قبل أن يموت. دمه مصبوغٌ بلونٍ غير بشري. اللون البرتقالي خيارٌ جيد.

أو ربما الشاب الفضائي سيتبادل سوائل وريدية مع (م) وستتحول إليه – النسخة الخضراء المثالية عن كيانها البشري. الاثنان معاً سيسحقان البقية، يقطعان رؤوس الكلاب، ويستهلان مهمتهما في غزو العالم. فقد آن الأوان لتلك المدن الغنية

الطاغية أن تهلك على يديهما، آن الأوان للفقراء الأطهار أن يتحرروا من قبضة الأثرياء الأشرار. سيعلنان على الملأ نحن عقاب الرب المنزل عليكم من أعالي السماء. سيستحوذان على "السلاح الإشعاعي المميت" المصنوع على يد الكائن الفضائي، بفضل معرفته الهائلة وبضعة مفاتيح ربط ومفاصل نهبها من متجر خردوات مجاور، ومن عساه سيعترض على هذه الحبكة؟

أو أن الكائن الفضائي لن يشرب دم (م) على الإطلاق – بل سيحقن نفسه في وريدها! جسده سيذبل ويتغضن مثل حبة زبيب، جلده الجاف المتجعد سيتحول إلى سديم، وفي الصباح لن يتبقّى أي أثرٍ منه. الرجال الثلاثة يقفون فوق (م) بينما تفرك عينيها نعسى. لا فكرة لدي عمّا حصل. وبما أنها لم تملك يوماً فكرة عما يحصل من حولها، فقد صدقها رفاقها. ربما كنّا نهلوس، كذا سيبررون الأمر لأنفسهم. هذا تأثير الشفق. أضواء الشفق القطبي – فهي تشوش عقل الرجل، تثخن دمه بالبرد. لن يلتقط أحدهم الوميض الأخضر للذكاء الفضائي يبرق في عينيها، فعيناها خضراوان من الأساس. أما الكلاب فستعرف. ستلتقط رائحة التغيير عليها. ستهرّ وتنتصب آذانها للخلف، ستعوي حزناً، ولن يعودوا أصدقاءً لها. ما بالها تلك الكلاب؟

قد تسلك الأحداث أي اتجاه.

الصراع، النزال، الإنقاذ. موت الكائن الفضائي. الثياب ولا بد ستمزق في منعطفٍ ما. فدائماً ما تسلك الأحداث هذا المنوال.

لماذا يطبع أموراً تافهة كهذه على آلته الكاتبة؟ لأنه محتاج – ولولاها لأصبح مفلساً بالكامل، وإن سعى لوظيفةٍ ما في هذا المفترق، فمن شأن ذلك أن يعرّضه للانكشاف على الملأ، تصرفٌ ليس من الحصافة بمكان. وكذلك لأنه يستطيع. هو يملك القدرة على كتابة قصص الإثارة الرخيصة. وليس في وسع أيٍّ كان كتابتها: فقد حاول قبله كثيرون، ومعظمهم فشلوا. كان كاتباً طموحاً فيما مضى، كاتباً جدياً يحمل رسالة. رسالته كانت كتابة حياة الرجل كما هي تماماً في الواقع. أن يغرق في عمق

التفاصيل اليومية للرجل البائس، أجره الزهيد ورغيفه الجاف وفتات طعامه ومومسه الرخيصة من خَبَث النساء بقيمة بنسٍ لا أكثر، تسريحه من العمل وطرده من بيته وإلقائه في الشارع يتقيأ أحشاءه في المجاري. أراد أن يفضح النظام، الآلية، الطريقة التي يبقون عليك فيها حياً طالما لا تزال فيك ذرة طاقةٌ للكدح، كيف يمتصون الحياة منك، يحولونك إلى سكيرٍ أو مقامر، وبتلك اليد أو الأخرى يمرغون وجهك في الوحل.

لكن الرجل البائس – العامل الكادح الذي يرونه الرفاق رجلاً نبيلاً بفطرته – لا يريد قراءة أعمال من هذا النوع. ما يود هؤلاء النبلاء قراءته حقاً هي أعماله هذه. الإثارة الرخيصة، بقيمة عشرة سنتات وقيمتها فيها، الأحداث المتسارعة، مع حلمتين ومؤخرة، الكثير الكثير منها. بيد أنه ليس بمسموحٍ له كتابة "حلمتين" و"مؤخرة": فالمجلات الرخيصة ترنو إلى الاحتشام، وهو ما كان مدعاةً لاستغرابه. أقصى ما يمكن له ذكره "نهدان" و"أرداف". الدماء والرصاص، الأحشاء والصراخ والتلوي، كلها مسموحة، لكن العري الأمامي لا يسمح به على الإطلاق. ولا "كلمات بذيئة". ربما المسألة ليست بمسألة احتشام، ربما هي مخافة اضطرارها للإقفال.

يشعل سيجارته، ويجوس الغرفة، ينظر خارج النافذة. الرماد قد صيّر الثلج الأبيض سخاماً. عربة ترام تجرش الشارع متجاوزةً الموقف. يستدير بعيداً، يجوس، في عقله تعشش الكلمات.

يتفحص ساعة يده: ها قد تأخرت مرةً أخرى. هي ليست بآتية.

VII

صندوق أمتعة السفر

السبيل الوحيد أمامك كي تكتبي الحقيقة كاملةً هي في افتراض أن ما تدونينه لن يقرأه أحد. لا أحد آخر، ولا حتى أنت في وقتٍ لاحق. وإلا ستبدئين في كيل المبررات لنفسك. عليك أن تتصوري الكتابة لفافة حبرٍ طويلة، تتدفق من رأس سبابة يدك اليمنى، وأمام ناظريك يدك اليسرى تمحوها.

من المستحيل طبعاً.

هذا أنا أغزل سطوري، أغزل سطوري، أحبك صفحاتي البيضاء بسواد خيوطي.

وصلني طردٌ البارحة: طبعةٌ حديثة من "السفّاح الأعمى". هذه الطبعة أرسلوها لي فقط من باب الكياسة: فلن تدرّ مالاً، لن تدر مالاً عليّ. فهذا الكتاب قد أضحى الآن ملكيةً عامة ويحق لأيٍّ كان إعادة نشره، لذا فملكية لورا لن يدخل عليها أي ريع من أرباح هذه الطبعة. هذا ما ينتهي إليه المآل بعد انقضاء عدد محدد من السنين على وفاة الكاتب: تفقدين سيطرتك. فها هو الكتاب قد انطلق للعالم، وسيستنسخ نفسه مراتٍ لا تحصى، دون أي إذنٍ منّي.

"آرتميسيا للنشر"، مطبوعٌ على الغلاف؛ دار نشرٍ إنجليزية. أظنها الدار التي طلبت مني كتابة المقدمة، وهو طبعاً ما رفضته. مع اسمٍ كهذا، فعلى الأرجح أن شلة نساءٍ هنَّ من يتولين الإدارة. يا ترى أي آرتميسيا فيهن يعنين – السيدة الفارسية وقائدة الجند من تاريخ هيرودوتس التي فرت تجر أذيال الخيبة ما إن انقلبت عليها المعركة، أم العقيلة الرومانية التي التهمت رماد زوجها كي يضحي جسدها ضريحه الحي؟ أو

ربما الرسامة من عصر النهضة: تلك التي اغتصبت[121]. على الأرجح أنها هي، فهي الوحيدة من بينهن من لا تزال عالقةً في الذاكرة حتى اليوم.
الكتاب على طاولة مطبخي. العنوان الفرعي: روائع أدبيات القرن العشرين المهملة، مطبوعٌ بالنمط المائل أسفل عنوان الرواية. لورا كانت أديبة "حداثية"، كذا يقولون لنا على الغلاف الداخلي. تأثّرَت بالأعمال الأدبية لكاتبات من مثل جونا بارنز، وإليزابيث سمارت وكارسون مكوليرز – كلهن كاتبات أنا على يقين أنّ لورا لم تقرأ كلمةً واحدة لأيّ منهن. على الأقل تصميم الغلاف ليس بالسيء. درجات من اللون الأرجواني الباهت الضارب للون البني، المنظر فوتوغرافي: امرأةٌ ترتدي قميصها التحتي، نراها عبر ستارةٍ شبَكيّة، وجهها في الظلّ. من خلفها، بقيةٌ من رجل – الذراع، اليد، مؤخر الرأس. لائقة كفاية، على ما أظن.

قرّرتُ أن الوقت قد حان للاتصال بمحاميّ. أو هو ليس بمحاميّ الحقيقي. فالرجل الذي اعتبرته يوما محاميّ الخاص، المحامي الذي تولى ذاك الأمر مع ريتشارد، من قاتل وينيفريد ببسالة، رغم هزيمته على يديها – ذاك المحامي قد توفي قبل عقود. ومذ ذاك وشركة المحاماة تمررني من يدٍ إلى أخرى، وكأني إبريق شاي فضيّ منمق يهبوني إلى الجيل الجديد كهدية زفاف لن يستفيد منها أحد.
"السيد سايكس، رجاءً". قلت لتلك الفتاة التي أجابت الهاتف. أظنها موظفة استقبالٍ أو ما شابه. أتخيل أظفارها، طويلة مستدقة ومصبوغة باللون الأحمر الداكن. لكن ربما ما عادت تلك هي موضة أظفار موظفات الاستقبال، ربما صبغتها باللون الجليدي البارد.
"عذراً، السيد سايكس في اجتماع. من المتحدّث؟"

(121) الرسامة الإيطالية آرتميسيا جينتيليسكي – Artemisia Gentileschi والتي تعرضت للاغتصاب على يد معلمها، ولدى توجيه والدها التهم إليه وأثناء انعقاد المحكمة بشأن تهمة الاغتصاب، تعرضت آرتيميسيا لفحوصات قاسية ومذلة لإثبات عذريتها قبل اغتصابه لها وتفنيد شهادتها. ورغم إثبات التهمة على معلمها فقد جرى نفيه عوضاً عن تطبيق الحكم عليه. تعتبر قضيتها من أدبيات الحركة النسوية في القرن العشرين.

ما كان ليصنع فرقاً لو عينوا روبوتات محلّهن. "السيدة آيريس غريفين". أجبتها بنبرتي القاطعة كحدّ الألماس. "أنا إحدى موكلاته القدامى".

هذا التعريف لم يفتح لي أي باب. فالسيد سايكس ما زال في الاجتماع. على ما يبدو فهو فتىً مشغول. لكن لمَ أعتبره فتىً؟ فلا بد وأنه في عقده الخامس – وُلد في العام ذاته الذي توفيت فيه لورا. هل يعقل أن عقوداً قد مضت على وفاتها، فسحة الزمن المطلوبة لولادة وتنشئة محامٍ خبير؟ هي إحدى تلك الأمور التي نعدّها حقيقة لأن الجميع يؤمن بها، بيد أنها لا تبدو حقيقيةً لي.

"وهل لي أن أخبر السيد سايكس بسبب الاتصال؟"

"وصيّتي، فأنا أفكر حالياً بكتابتها. ولطالما أخبرني أن عليّ كتابة واحدة". (تلك كانت كذبة، لكني أردت أن أرسخ في ذهنها الشارد أني والسيد سايكس رفيقان، الرّوح للرّوح). "الوصية وتسوية شؤونٍ أخرى. إذ سآتي إلى تورنتو عن قريب لاستشارته. إن تفرّغ لدقيقة فليتصل بي".

تخيّلتُ السيد سايكس يتلقى الرسالة التي تركتها له؛ أتخيل القشعريرة التي سرت في مؤخر عنقه محاولاً استرجاع طيف اسمي، ونجاحه أخيراً في ذلك. الإوز يمشي على قبره[122] هذا تماماً ما تشعرين به، ما أشعر به حتى أنا، متى ما صادفت تلك الأخبار الصغيرة عن أناسٍ كانوا فيما مضى من المشاهير أو النجوم أو سيّئي الصيت، وظننتهم أمواتاً منذ زمنٍ بعيد. لكن ها هم يواصلون العيش، في هيئةٍ مظلمة ذابلة متقشّرة بفعل مرور السنين، مثل خنافس تحت الصخر.

"بالطبع، السيدة غريفين،" أجابتني موظفة الاستقبال. "سأحرص على اتصاله بك". أنا متأكدة أنهم يتلقون دروساً في فن الخطابة كي يتقنوا تلك الإجابات – المزيج الصحيح من المراءاة والازدراء. لكن لماذا أشكو؟ فتلك مهارةٌ أنا نفسي أتقنتها، يوماً ما.

أضع سماعة الهاتف. لا شك أن الحواجب سترفع على وجه السيد سايكس ووجوه رفاقه الشبان أصحاب الكروش الصغيرة وسيارات المرسيدس الباهظة والشعور

(122) Goose feet on his grave: مثلٌ انجليزي يقال متى عمّ الصمت المكان، وكأن أحدهم استدعى الموت.

المتقهقرة عن القمة والجوانب. وما عساها الخفاش العجوز تملك كي تتركه خلفها؟

قاصداً، ما الشيء الذي أملكه أنا وله قيمة.

هناك، في زاويةٍ من مطبخي، صندوق أمتعة السفر، وملصقٌ عليه رقعٌ بالية، وهو يعود إلى طقم متناسق من حقائب السفر التي ضمّت يوماً جهاز عرسي – يوم كانت بطانته من جلد العجل الأصفر المدبوغ الصافي، واليوم غدت رثةً قذرة، الأربطة الفولاذية فيه أضحت تالفة ومسخمة. أُبقي عليه مقفلاً، المفتاح مخبّأ عميقاً في مرطبانٍ محكم الإغلاق يحوي رقائق النخالة. ما كنت لأختار القهوة أو السكّر إذ لكانا خيارين جليّين تماماً.

صارعت مع سدادة المرطبان – عليّ أن أعيد التفكير في مخبَئ آخر يسهل عليّ الوصول إليه – وأخيراً تمكنت من فتحه، واستخرجت المفتاح من جوفه. جثوت بصعوبة، أدرت المفتاح في القفل، ورفعت الغطاء.

مضى وقتٌ طويل مذ فتحت الصندوق آخر مرة. رائحة أوراق الخريف المسفوعة للأوراق القديمة انبعثت مرحبةً بي. دفاتر التمارين المدرسية الرخيصة بأغلفتها الكرتونية لا تزال موجودة في قلبه، مثلها مثل النشارة المضغوطة. هناك أيضاً المسودة المطبوعة، ضبابة أوراقها معقودٌ حولها خيطٌ متصالب من خيوط الطهي. وكذلك مجموعة الرسائل الموجهة إلى دور النشر – مني أنا طبعاً، لا من لورا، فقد كانت ميتة وقتئذ، والمسودات المنقحة. كذلك رسائل الكراهية، إلى أن توقفت عن الاحتفاظ بها.

وهناك نسخ الطبعة الأولى، خمسٌ منها، أغلفتها الخارجية لا تزال جديدة – تصميم الغلاف مبهرج، لكن هذا ما كانت عليه الأغلفة في الأعوام التالية للحرب. ألوانها تتدرّج من البرتقالي الصارخ إلى الأرجواني الفاتر إلى الأخضر الليموني، مطبوعة على ورقٍ رديء، مع رسمةٍ ذريعة – مستوحاة من التصور الزائف لكليوباترا، النهدان أخضران مكتنزان، العينان كحيلتان بالأسود العريض، قلائد أرجوانية في شعرها

تتدلى من وجنتيها حتى ذقنها، وثغرٌ ضخمٌ برتقاليٌّ مُبَوّز، يتصاعد كما الجني من الدخان المنقشع لسيجارة أرجوانية. الصفحات تتآكلها الأحماض، الغلاف الفظيع أخذت ألوانه تتهاوى مثل ريش طائرٍ استوائي.

(كنت قد استلمت ست نسخ - يدعونها نسخ المؤلف، لكني أهديت نسخةً منها إلى ريتشارد. لا علم لي بمصيرها. أظنه قد مزقها، وهو ما اعتاد فعله دائماً بالورق الذي لا عازة به إليه. لا - تذكرت الآن. لقد عثروا عليها في القارب معه، على المنضدة، جانب رأسه. أرسلتها وينيفريد لي مرفقة بملاحظة مكتوبة: أرأيت ما جنته يداك! رميت بها خارجاً. ما كنت سأحتفظ في بيتي بأي شيءٍ لمسه ريتشارد).

لطالما تساءلت عمّا يجدر بي فعله بكل هذا - بهذه الخبيئة، بهذا الأرشيف الصغير. لا قلب لي لبيعه، ولا قلب لي للتخلّص منه. وإن لم أفعل شيئاً بصدده، فالخيار سيصبح متروكاً لميرا، مَن ستتولى الترتيب بعدي. ما إن تفيق من صدمتها الأولى - بافتراض أنها ستقرأ - فلا شك ستنكب على الشق والتمزيق. تلحقها بعود ثقاب ولا أحد سيدري. ستفسر صنيعها بأنّه إخلاصٌ لي: هذا ما كانت ستفعله ريناي. في الأيام الغابرة كانت مشاكل العائلات تبقى حبيسة بيوتها، خير مكانٍ لها حتى في يومنا هذا، وإن لا مكان في العالم من الخير حبس المشاكل فيه. فما الداعي لرمي حجرٍ في الماء الراكد بعد كل تلك السنين، ننكش الماضي وقد خلد كل أبطاله إلى النوم في قبورهم كما الأطفال المجهدين بعد يومٍ طويل؟

ربما عليّ أن أترك الصندوق وما فيه إلى الجامعة، أو إلى مكتبةٍ عامة. على الأقل هم سيقدِّرون محتوياته، كما الغيلان. هناك أكثر من باحثٍ سيتمنى نشب مخالبه في تلك الأوراق البالية. سيدعونها مواد - الوصف الذي يطلقونه على غنائمهم. لا بد وأنهم يتصوّرونني تنيناً عجوزاً رجعيّة جاثمة على كنزٍ لا تستحقه ولا تعرف حتى قيمته، كلباً عنيداً كالحاً لن يشاركَ عظمَته أحد، سجّانةً هرمة عيّابة متزمتة، في يدها مفاتيح البرج حيث لورا معلّقة بسلاسل على الجدار تموت جوعاً.

لأعوام وأعوام وهم يمطرونني بوابل رسائلهم، يطلبون رسائل لورا - مسوّدات، وتذكارات شخصية، ومقابلات، ونوادر عن حياتها - كل التفاصيل المروّعة. وردًّا

على رسائلهم الملحّة، أنظّم ردودي الموجزة المهذبة وأرسلها إليهم:

"عزيزتي الآنسة س، في نظري فإن مخططك لتنظيم حفل "إحياء ذكرى" على الجسر الذي شهد موت لورا تشايس المأساوي لهو تصرف رهيب وينمّ عن قلّة ذوق. لا بد وأنك قد فقدت عقلك. أظنك تعانين من تسمم معويّ. عليك بالحقنة الشرجية".

"عزيزتي السيدة ص. لقد استلمت رسالتك فيما يخص موضوع بحثك المقترح، وإن كان عليّ أن أعترف أني لا أرى أي منطقٍ في العنوان. فمن المؤكد أنك ترينه منطقياً وإلا لما اقترحته من الأساس. لا يسعني مساعدتك. ولا تستحقين أي مساعدة. "التفكيك[123]" يوحي بكرة الهدم، و"يؤشكل" ليست حتى بفعلٍ صحيح".

"عزيزي الدكتور ع، فيما يخص بحثك في المضمون اللاهوتي لرواية "السفّاح الأعمى": أعلمك أنَّ شقيقتي كانت متشبثة بمعتقداتها الدينية حتى وإن لم تبدُ تقليدية. لم تكن مُعجبة بالرّب، لم توافق على تصرفاته ولم تدَّع يوماً فهم دوافعه. لكنها لطالما قالت إنها تحب الربّ، وكما الحال مع البشر، فالحب لا تفسير له. لا، لم تكن بوذية. لا تكن أحمقَ، أنصحك بالقراءة".

"عزيزي البروفيسور هـ، استرعى انتباهي ملاحظتك بأن لورا تشايس تستحق سيرةً ذاتية تؤرخها، استحقاقٌ تأخر تنفيذه كثيراً. فهي قد تكون، كما أشرت، "ضمن أهم روائيات كندا في منتصف القرن العشرين". وما أدراني أنا. لكن فيما يخص مساعدتي لك في "مشروعك" فرفضي لا نقاش فيه. لا رغبة لدي بإرضاء شهوتك المَرَضيّة لقوارير الدم الجاف وأصابع القديسين المبتورة. إنّ لورا تشايس ليست "مشروعاً". هي شقيقتي. وما كانت لتتمنى أن ينشب أحدهم براثنه في جسدها

(123) التفكيكية – Deconstruction: أحد مذاهب التحليل الأدبي.

الميت بعد وفاتها، مهما حملت تلك البراثن من مصطلحات تلطيفية. متى ما كُتبَت الكلمات فلا عودة عنها، وغالباً ما تتسبب بأذىً كبير. ونادراً ما يأخذ الناس هذه العاقبة في الاعتبار".

"عزيزتي السيدة س، تلك رسالتك الرابعة في الموضوع ذاته. كُفّي عن إزعاجي أيتها الطفيلية".

على مدى عقود تلذذت بكتابة تلك الخربشات السامة. تلذذت بلعق الطوابع، برمي الرسائل في صندوق البريد الأحمر اللامع وكأني ألقي في جوفه قنابل يدوية، فأشعر وكأني قد حسمت لخبطة أحد أولئك الطامعين المتطفلين الأكاديمية. لكن مؤخراً ما عدت أجيب تلك الرسائل. فما الداعي لنخس الغرباء؟ فهم لا يكترثون البتة برأيي فيهم. فما أنا في نظرهم سوى ملحق: يد لورا الزائدة، اليد الغريبة، يدٌ دون جسد – اليد التي حُملَت بها إلى العالم، إليهم. يرونني ضريحاً – موسوليوم بشري، مصدراً، كذا المصطلح المعتمد لديهم. فما الذي يجبرني على مساعدتهم؟ ففي نظري ما هم سوى آكلي جيف – ضباع، كلهم سواء: ابن آوى يتقفى أثر جيفة، غرابٌ يفترس لحم حيوانٍ مات مصدوماً على الطريق؛ ذباب الجثث. يريدون أن ينقّبوا فيّ وكأني ركام عظامٍ رميم، بحثاً عن خردة معدنية أو آنية فخارية مكسورة، عن ألواح مسمارية أو صحائف بردى، أي غرضٍ غريب، أي دميةٍ ضائعة، أي سنٍّ ذهبيّة. لو ساورهم الشك للحظة بما أحتفظ به هنا، لحطموا الأقفال، لاقتحموا البيت، لطرحوني أرضاً وفروا بعيداً بغنائمهم، وما كانوا ليجدوا أي غضاضة فيما ارتكبوه، فإرث الكاتب من حقّهم.

لا، لن أهب الصندوق إلى الجامعة. لماذا أمنحهم الرضا؟

ربما عليّ أن أهب الصندوق إلى سابرينا، رغم قرارها البقاء في سجنها الانفرادي بعيداً عن السمع، رغم قرارها – الموجع حقاً – في مواصلة تجاهلها لي. عدا أنّ الدم

لا يصير ماءً، وهو ما يعرفه كل من ذاق الاثنين. الصندوق بما فيه هو حقها، بل إرثها: فهي في النهاية حفيدتي، ولورا خالتها الكبرى. من المؤكد سيأتي اليوم الذي تودّ فيه التعرف على أصولها، متى ما تسنى لها الوقت لفعل ذلك.

لكن لا شك سابرينا سترفض هديةً كهذه. هي امرأةٌ بالغة الآن، دائماً ما أذكّر نفسي بهذه الحقيقة. لو كان لديها أي سؤالٍ لي، لو أرادت الحديث معي على الإطلاق، لجاءت إليّ.

بيد أنها لم تأتِ، لماذا؟ ما الذي يمنعها من المجيء إليّ؟ هل صمتها وسيلتها في الانتقام مني، لأجل شيءٍ أو شخصٍ ما؟ لا، ليس لأجل ريتشارد، فهي ما عرفته قط. ولا لأجل وينيفريد، التي حاولَت الهروب منها. إذاً تنتقم مني لأجل أمها – لأجل المسكينة آيمي؟

وما عساها تتذكر؟ فبالكاد كانت تبلغ وقتئذٍ الرابعة من عمرها.

موت آيمي ليس بذنبي.

وأين سابرينا الآن، وما تراها تسعى إليه؟ أتصورها صبيةً نحيفة، مع ابتسامةٍ حيرى، وزاهدة. بيد أنها جميلة، مع عينيها الزرقاوين الوقورتين كعيني لورا، وعقص شعرها الطويل الداكن تحيط رأسها ملتفة كما الأفاعي النائمة. بيد أنّها لن ترتدي خماراً؛ لكن سترتدي صندلاً عادياً، أو حتى جزمة، النعلان مهترئان. أتراها اعتمدت ارتداء السّارِي؟ الفتيات من مثيلاتها يفعلن ذلك.

هي في إرساليةٍ ما – تُطعم فقراء العالم الثالث الجياع، تسكّن آلام الراقدين على فراش الموت؛ هي هناك تكفّر عن خطايانا جميعاً. مهمةٌ لا طائل منها – فخطايانا هوّةٌ لا قرار لها، وهناك المزيد المزيد لم يكشف عنه. لكنها ستحاججني بقولها إنَّ هذا هو تماماً مقصد الرب – ألاّ طائل من التفكير. لطالما كان الرب هاوياً للعبثية. يظنها أمراً نبيلاً.

هي ورثت تلك القناعة عن لورا: ذات الإيمان المستبد، ذات الرفض لأي مساومة، ذات الازدراء لعيوب البشر الفادحة. لكن إن أردت أن يتقبلك الناس بقناعتك هذه، فلا بد أن تكوني جميلة. عدا ذلك، فلن يروا فيك سوى امرأةٍ نكدة.

نار الرَّب المُوقَدة

الطقس لا يزال دافئاً على غير عادته، معتدلًا، لطيفًا، جافًّا ومشرقًا. حتى الشمس، التي عادةً ما تكون باهتة وشاحبة في هذا الوقت من العام، ها هي رقيقة ومفعمة بالضياء، غروبها أخّاذ. الشباب المنعشون ذوو الوجوه السعيدة على قناة الطقس يقولون إن السبب يعود إلى كارثةٍ مغبرة بعيدة – زلزال، بركان؟ ابتلاءٌ إجراميٌّ آخر من ابتلاءات الرب. "تنقشع السحب عن بارقة الأمل،" كذا شعارهم اليومي. ولا بارقة أمل دون سحب.

البارحة قاد بي والتر إلى تورنتو كي ألتقي محاميّ الخاص. تورنتو هي المكان الذي يحاول جاهداً ألا يذهب إليه، لكن ميرا أجبرته على ذلك. تولت الأمر بعد حديثي لها بأني سأستقل الباص. ميرا ما كانت لتسمح لي بذلك على الإطلاق. فكما هو معلومٌ لدى الجميع، هناك باصٌ واحدٌ فقط على خط تورنتو: يغادر ليلاً ويعود ليلاً. أخبرتني أني متى ما غادرت الباص في الليل فراكبو الدراجات النارية لن يروني وسأنسحق تحت عجلاتهم مثل الحشرة. وعلى أي حال، لا يجدر بي الذهاب وحيدةً إلى تورنتو، فتورنتو، كما هو معلومٌ لدى الجميع أيضاً، موبوءةٌ باللصوص والمجرمين. والتر، كما أكدت عليّ، سيتولى الاعتناء بي.

والتر ارتدى قبعة بيسبول حمراء لأجل الرحلة؛ مؤخر عنقه الهلبيّ المحشور بين أسفل قبعته وأعلى ياقة سترته برز بينهما كما العضلة ذات الرأسين. جفنا عينيه متجعدان كما الرُّكَب. "لكان من الأفضل لو اصطحبتُك بعربة النقل،" قال والتر لي ثم أردف،" فهي متينة مثل بيت المرحاض الآجريّ، وما كان ليجرؤ أيٌّ من أوغاد

المدينة على الارتطام بي. لكن يعوزها بعض القطع، ولَمَا كُنّا سنحظى برحلة سلسة على الطريق". وفقاً له، فالسائقون في تورنتو كلهم مجانين. "أي شخصٍ يود الذهاب هناك لا بد وأنه مجنون".

فأشرت إليه قائلةً، "لكن ها نحن ذاهبان إلى هناك".

"لكن فقط هذه المرة. كما اعتدنا أن نقول للفتيات، مرة واحدة لا تُحسَب".

"وهل صدَّقن كلامك، والتر؟" قلت له كي أسحب منه الكلام كما يودّ مني أن أفعل كل مرة.

"بالتأكيد. فهن ناقصات عقل، وخصوصاً الشقراوات منهن، لا عقل لهن من الأساس". لمحت تكشيرته العريضة ترتسم على وجهه.

متينة مثل بيت المرحاض الآجريّ. في الأيام الغابرة تلك العبارة كانت تُقال في وصف المرأة. في الواقع كان وصفاً من باب الإطراء، ففي تلك الأيام لم يمتلك الجميع بيت مرحاضٍ آجري: المعظم استخدم بيت المرحاض الخشبي، واهٍ، كريه الرائحة، ويسهل اقتحامه.

وما إن أوصلني إلى السيارة وربط عليّ حزام الأمان، أدار والتر المذياع: كماناتٌ إلكترونية تنتحب، رومانسيةٌ منحرفة، الإيقاع الرباعي لدقات القلب المنفطر. المعاناة المبتذلة هي هي، لا تتبدل، لكن تظل معاناة. أساس صناعة الترفيه بأسره. كم غدونا جميعنا متلصصين مهووسين. اتكأت على الوسادة التي أمّنَتها لي ميرا. (كانت قد أعدت لنا مؤونة تلائم رحلةً عبر المحيط – بطانية، شطائر تونا، كعك براوني، ومطارة قهوة). خارج النافذة تأملت نهر جوغز يسلك مجراه متكاسلاً. قطعناه وتوجهنا شمالاً، متجاوزين الشوارع التي اعتادت أن تضم أكواخ العمال، والآن تضم بيوتاً يدعونها "البيوت الأولى"، ومعها مؤسسات صغيرة: مكتب قطر سيارات، متجر أغذية صحية فاشل، وكيل أحذية تقويمية على واجهته حذاءٌ أخضر من النيون يبرق متقطعاً وكأن الحذاء يسير بإرادته في نفس البقعة. من بعدها مررنا على مركزٍ تجاري صغير، يضم خمسة متاجر، إحداها فقط تدبرت تعليق زينة الميلاد. ومن بعد المركز، صالون تجميل ميرا، ذا-هير-بورت. صورة رأسٍ

مقصوص معلقة على الواجهة الزجاجية، وما كنت لأميز إن كان رأس رجلٍ أم امرأة. من ثم مررنا على نزلٍ كان يدعى فيما مضى "نزل نهاية الرحلة". أظنهم استوحوا العنوان من "كل رحلةٍ تنتهي بالتقاء الحبيبين".[124] لكن ما كان لهم أن يتوقعوا أن يفطن الجميع إلى المرجع وراء اختيار الاسم: ربما رأى الناس في اختيار الاسم نيةً خبيثة، شريرة، مبنى بمداخل ولا مخارج، الداخل فيه مفقود، يرشح برائحة الجلطات وتمدد الأوعية الدموية وقوارير الحبوب المنومة الفارغة وطلقة الرصاص في الرأس. الآن يدعى فقط بنزل "الرحلة". من الحكمة بمكان أنهم غيروا الاسم. ما عاد مصيريًّا، ما عاد نهائيًّا. فأن نواصل الترحال خيرٌ لنا من الوصول.

مررنا على سلسلة من مطاعم الوجبات السريعة – دجاجٌ مبتسم يعرض أطباقاً كبيرة من أعضاء جسده المقلية، مكسيكيٌّ يكشر بابتسامةٍ عريضة بينما يلف رقائق التاكو. وفي الأفق لاح أمامنا برج ماء البلدة، إحدى تلك الفقاعات الإسمنتيّة الضخمة التي تتنقّط على مدى الأراضي الريفية مثل نُقَط بالوناتِ الحوارات في الرسوم الهزليّة. وها قد بلغنا الرّيف. سلوةٌ[125] معدنية تنبثق عن باطن حقلٍ ما وكأنها برج مراقبة في غواصة؛ وعلى جانب الطريق ثلاثة غربان تنقر الأشلاء الفرويّة لسُنجب أرض، وأسيجة، ومزيدٌ من السلوات، وحشدٌ لأبقار متبلّلة، وكشكٌ من خشب الأرز الداكن، ورقعةٌ من المستنقعات، وأعشاب الدّيس الصيفية أخذت تذوي وتضمحل.

السماء بدأت تمطر رذاذاً. أدار والتر مساحات النافذة الأمامية، وعلى وقع تهويدتها المهدئة للأعصاب، استسلمت للنعاس.

إنّ أوّل ما طرقَ ذهني فورَ استيقاظي، يا ترى هل شخرت؟ وإن شخرت، فهل كان فمي فاغراً؟ يا له من منظرٍ مزعج، من موقفٍ محرج. لكني لم أجرؤ على السؤال. ففي حال كنت تتساءلين، نعم، خيلاؤنا سيرافقنا حتى الممات.

(124) "Journeys end in lovers meeting": مقتبس عن مسرحية الليلة الثانية عشر–The Twelfth Night لشكسبير.

(125) السّلوة: مبنى أسطواني خشبي أو اسمنتي عال محكم الإغلاق تحفظ فيه علف الدواب.

كنا على الطريق السريعة ذي الحارات الثمان، نكاد نصل تورنتو. هذا ما أخبرني به والتر، أما أنا فما كنت لأعرف بنفسي، فقد علقنا وراء شاحنة مزرعة صغيرة متمايلة إثر حمولتها الثقيلة من صناديق الإوز الأبيض الحيّ، وُجهتها المصيرية السوق. أعناقها الطويلة، المحكوم عليها بالموت، رؤوسها المهتاجة ذعراً، تلكز القِدد هنا وهناك، مناقيرها تفتح وتغلق صارخةً مأساتها بصيحاتٍ سخيفة سرعان ما تغرق في لجج ضجيج العجلات. ريشها المتطاير يلتصق بزجاج سيارتنا الأمامي، السيارة أخذت تفوح برائحة غائط الإوز والعوادم.

كانت هناك لافتة معلّقة على مؤّخر الشاحنة **إن كنت قريباً كفاية لتقرأ فأنت قريبٌ أكثر من اللازم.** ما إن استدارت الشاحنة أخيراً، وإذ بتورنتو تتجلّى أمامنا. جبلٌ صناعي من الزجاج والإسمنت انبثق أمامنا شاهقاً عن سطح البحيرة المنبسط، جبلٌ من البلور والأبراج والمباني الزجاجية الضخمة اللامعة والمسلات المستدقة، تطفو في السديم البرتقالي البني للضباب الدخاني. بدا شيئاً لم أره من قبل – شيئاً انبثق من الأرض بين ليلةٍ وضحاها، أو كشيءٍ لم يكن هناك أصلاً، مثل السراب.

رقائق سوداء تطايرت اتجاهنا وكأنها تتطاير عن كومةٍ من الأوراق المحترقة. الغضب كان يضطرم في الأجواء كما لهيب الشمس. فكرت بحوادث إطلاق الرصاص في الشوارع.

مكتب المحامي كان قرب تقاطع كنج وباي. والتر تاه، ثم لم نجد موقفاً قريباً لركن السيارة. كان علينا أن نقطع خمسة شوارع، والتر يدفع بي قدماً من مرفقي. لم أعرف أين أنا، لأن كل ما في المدينة قد تغير. كل مرةٍ أقصدها – وقليلاً ما أقصدها – أراها قد تغيرت، فإذ بالرهبة تتملكني وترهق أعصابي، كأنهم قصفوا المدينة وساووها بالتراب ثمّ أعادوا بناءها من الصّفر.

وسط المدينة التي أذكرها – رتيبة وكالفينية، رجالٌ بيض في معاطف سوداء يمشون بخطىً ثابتة على الأرصفة، مرصّعة بالوجود العرضي المنثور هنا وهناك للمرأة الاعتيادية، في حذائها ذي الكعب العالي الاعتيادي، بقفازيها وقبعتها، حقيبة يدها

مثبتة تحت ذراعها، عيناها شاخصتان للأمام لا تحيدان – تلك المدينة ما عادت موجودة، بيد أنها ما عادت موجودة منذ زمنٍ طويل. تورنتو ما عادت المدينة البروتيستانتيّة، بل هي الآن مدينة من مدن القرون الوسطى: الحشود التي تغمر شوارعها من مختلف المشارب والألوان، لباسها مفعمٌ بتنوع الحياة. أكشاك بيع شطائر النقانق بمظلاتها الصفراء، وبائعو البريتزل، والبائعون الجوالون للأقراط والحقائب المنسوجة والأحزمة الجلدية، ومتسولون يتسكعون حاملين لافتات **عاطل عن العمل** مكتوبة بالأقلام الشمعية، كلّ متسول وله منطقته كما اتّفق بينهم. تجاوزت عازف ناي، وثلاثيًا يعزفون على غيتاراتهم الكهربائية، ورجلًا يرتدي إزارًا كِلتيًا وينفخ في مزمار القربة. توقّعت أن تقع عيناي في أي لحظة على بهلواني أو بالع نار، على مجذومين يسيرون في الشارع، كل واحدٍ منهم يرتدي قلنسوته ويقرع جرسه الحديدي[126]. الضجيج كان زاعقاً؛ غشاوةٌ متقزحة التصقت بنظارتي وكأنها لطخة زيت.

أخيراً وصلنا غايتنا. استشرت شركة المحاماة هذه أوّل مرّة في الأربعينيّات، الشركة كانت تقع في مبنى مكاتب آجري أحمر مسخم على طراز مانشستر، مع رواق مبلط بالفسيفساء وتماثيل أُسُودٍ صخرية، لوحات التعريف مكتوبة بأحرف ذهبية على الأبواب الخشبية الموشاة بالزجاج المبرغل. المصعد كان مصبّعةً متصالبة من القضبان المعدنية كما قضبان القفص؛ الدخول فيه كان أشبه بدخول السجن لبرهة. عاملة المصعد كانت امرأةً في زيٍّ رسمي كُحليّ وترتدي قفازين أبيضين، كانت تنادي على الأرقام، ولم تتجاوز يوماً الرقم عشرة.

أما اليوم فشركة المحاماة تقع في برجٍ زجاجي، في جناح مكاتب في الطابق الخمسين. أنا ووالتر ركبنا المصعد البرّاق، ببلاطه من الرخام البلاستيكي ورائحة تنجيد السيارة التي تفوح منه وحشد راكبيه من أصحاب البدل، رجالاً ونساءً على حدٍّ سواء، أعينهم شاخصة في البعيد ووجوههم جامدة دون أي تعبير تماماً مثل وجوه الخدم

---

(126) في أوروبا القرون الوسطى كان لزاماً على المجذوم أن يرتدي قلنسوة ويضع جرساً يقرعه أثناء سيره في شوارع البلدة كي يتنبه الناس فيبتعدوا عنه لخطورة الاقتراب منه والتعرض للعدوى.

مدى الحياة. أناسٌ يبصرون فقط مقابل أجر. رواق مكتب المحاماة نفسه يضارع في فخامته رواق فندقٍ تصنيفه خمس نجوم: مكتظ بتنسيق الزهور المتفاخر على طراز القرن الثامن عشر، الجدران كلها مطلية بدرجة غليظة من لون الفِطر، وعلى إحدى تلك الجدران علقوا لوحة تجريدية من اللطخات الباهظة.

المحامي وصل، تصافحنا، تحدث في همهمة، ثم أشار إليّ بالدخول. والتر قال إنه سينتظرني، لن يتحرك من مكانه قيد أنملة. أخذ يحدق متهيباً في موظفة الاستقبال الشابة المصقولة، ببدلتها السوداء، وشاحها البنفسجي الزاهي وأظفارها اللؤلؤية؛ وهي كذلك حدقت، لكن لم تحدق فيه، بل في قميصه الموشى بالمربعات وجزمته الهائلة القرنية ذات النعل المطاطي. ما إن جلس على الأريكة ذات المقعدين حتى غطس فيها وكأنما غطس في كومة من حلوى الخطمي، ركبتاه انطوتا كما مدية الجيب، وساقا بنطاله ارتفعا كاشفيْن عن جاربيه الأحمرين الغليظين مثل جاربي الحطّاب. من أمامه، على طاولة القهوة المصقولة، مجموعةٌ متنوعة من مجلات الأعمال، تعرض عليه النصائح المثالية في مضاعفة استثماراته. التقط العدد الخاص بنصائح عن صناديق الودائع المشتركة: في قبضته الضخمة بدت المجلة وكأنها منديلٌ ورقي. عيناه تتقلبان في رأسه وكأنه عجلٌ مذعور في غمرة تدافع القطيع.

"لن آخذ وقتاً طويلاً،" قلت له كي أطمئنه. لكني أخذت وقتاً أطول مما توقعت. ففاتورة المحامي تحسب على الدقيقة، مثله مثل أرخص المومسات. ما برحت أتوقع سماع طرقٍ على الباب، صوتاً حانقاً يصيح من ورائه: هيه أنت في الداخل. وما عساك تنتظر؟ انتصب، اقتحم ثم انسحب.

حين انتهيت من عملي مع المحامي، عدنا أدراجنا إلى السيارة حيث أخبرني والتر أنه سيصطحبني إلى تناول الغداء. فهو كما قال يعرف مطعماً مناسباً هنا. أتوقع ميرا هي من حرّصت عليه: لأجل الرب احرص أن تناولها شيئاً. ففي هذه السن يأكلون مثلهم مثل العصافير، لا يدركون حتى أنهم خامدو القوى. قد تموت جوعاً في

السيارة. وربما هو جائعٌ حقاً: فقد التهم كل الشطائر التي أعدّتها ميرا لنا بينما كنت نائمة، ولم ينس حتى التهام كعك البراوني.

المطعم الذي يعرفه يدعى **نار الرب الموقدة.** كان قد تناول الطعام فيه آخر مرةٍ قدم فيها إلى تورنتو، أي منذ ثلاثة أعوامٍ تقريباً، مطعمٌ لا بأس به إن أخذنا في عين الاعتبار. إن أخذنا ماذا في عين الاعتبار؟ أنه في تورنتو. في تلك المرة طلب لنفسه شطيرة هامبرغر بطبقتي جبنة مع كل الإضافات. هم أيضاً يعدون طبق الضلوع المشوية، بشكل عام هو مطعم شواء.

بدوري كنت قد تذكرت المطعم، من عشرة أعوامٍ مضت، في تلك الأيام التي حرصت فيها على مراقبة سابرينا، بعد المرة الأولى التي فرّت فيها من وينيفريد. كنت أتسكع حول المدرسة نهاية اليوم الدراسي، أجلس على مقاعد الحديقة، في مواقع حيث يسعني رصدها – لا، بل حيث يسعها هي أن ترصدني وتتعرف عليّ، وهو ما كان احتمالاً شبه معدوم. كنت أتوارى خلف الصحف المفتوحة، وكأني رجلٌ مهووسٌ مثير للشفقة يتأهب لكشف معطفه عن عضوه، يغمرني ذات التوق اليائس إلى الفتاة الصغيرة التي في الأغلب ستفر مذعورةً مني وكأني غولٌ خرافي.

كل ما سعيت إليه هو أن أوصل رسالة إلى سابرينا: أني هنا، أني موجودة؛ أني لستُ ما سمعَته عني. أنها ستجد فيّ ملاذاً لها. فقد عرفتُ أنها ستحتاج ملاذاً يوماً ما، وبالتأكيد احتاجت إليه، لأني أعرف وينيفريد. لكني لم أصل إلى أي نتيجة. هي لم ترصدني، وأنا لم أكشف لها عن نفسي. وحين تسنت لي الفرصة، جبنت وتراجعت.

يوماً ما تبعتها إلى **نار الرب الموقدة**، إذ بدا المكان المفضل حيث الفتيات – الفتيات من عمرها من طالبات مدرستها – يتسكعن وقت الغداء أو متى ما تغيبن عن الصفوف. اللافتة خارج باب المطعم كانت حمراء، إطار زجاج الواجهة كان مزخرفاً بأشكال محاريّة صفراء بلاستيكية لألسنة اللهب. كنت قد تهيبت جسارة أصحابه في اختيار الاسم "الميلتونيّ"[127]: أيعقل أنهم مدركون لما يستحضره الاسم؟

(127) نسبةً إلى الشاعر البريطاني جون ميلتون صاحب ملحمة فقدان الجنة – Paradise Lost المقتبس عنها الأبيات اللاحقة التي يصف فيها خلق الرب لجهنم عقاباً لإبليس وجيشه.

وها هو الرب الجبّار
يقذف بألسنة اللهب من أعالي السماء الأثيرية
حاملةً معها الخراب والاحتراق ...
طوفانٌ ناريّ
من نار الرب الموقدة التي لا تشبع أبدا

لا، لم يكونوا مدركين لدلالته. **نار الرب الموقدة** كانت جهنّمَ فقط لقطع اللحم. المصابيح المعلقة في الداخل مظلّلة بالزجاج المعشّق، نباتاتٌ لِيفيّة مرقّطة مغروسة في أحواض الزّرع موزعة في الأنحاء – أجواء المطعم كانت أقرب إلى أجواء الستينيّات. جلست في المقصورة المجاورة للمقصورة حيث سابرينا كانت جالسة مع رفيقتيها من المدرسة، الفتيات الثلاث كنّ يرتدين ذات الزي المدرسي الصبياني الأخرق، لطالما اعتبرت وينيفريد تلك التنانير الكلتية الشبيهة بالبطاطين مع ربطات العنق المماثلة دلالة وجَاهة. والثلاث كن قد بذلن جهدهن في إفساد تلك الدلالة – الجوارب متدلية، القمصان مرفوعة فوق التنانير، ربطات العنق مائلة ومرخية. أخذن يمضغن العلك وكأنه واجبٌ ديني مقدس، يتحدثن بتلك النبرة الضجرة العالية التي تتقنها الفتيات عموماً في هذه السن.

الفتيات الثلاث جميلات، يتمتعن بذاك الجمال الذي تتمتع به كل الفتيات من عمرهن. هبةٌ لا تُرَدّ، ولا سبيل للاحتفاظ بها: تلك النضارة، ذاك الاكتناز، تلك الأُعطية المؤقّتة العصيّة على الاستنساخ. بيد أن ولا واحدة منهن راضية عنها؛ كن قد بدأن محاولاتهن في تغيير أنفسهن، التحسين والتحريف والانكماش، محاولاتهن اليائسة في حشر أنفسهن في قوالب مستحيلة من صنع الخيال، ينتفن ويرسمن على وجوههن. ما كنت لألومهن، كَوني صنعتُ بنفسي فيما مضى ذات صنيعهن.

جلست هناك أحدق في سابرينا من أسفل حافة قبعتي الشمسية العريضة وأخذت أتنصتّ على أحاديثهن التافهة، يستترن خلفها وكأنها بزة تمويه. فلا واحدة منهن

كانت تعبّر حقاً عما يدور في بالها، ولا واحدة منهن وثقت بالأخرى – ومعهن الحق، فالخيانة في عمرهن حدثٌ اعتياديٌّ يومي. رفيقتاها كانتا شقراوين؛ سابرينا وحدها من كانت سمراء وملساء مثل التوت الأسود البري. لم تكن تستمع لزميلتيها، أو حتى تنظر إليهما. من خلف نظرتها الثاقبة، ثورتها كانت تغلي على نارٍ هادئة. أعرف تلك النظرة، تلك الملامح الفظّة النكدة، ذاك العناد، كبرياء الأميرة الواقعة تحت الأسر، تلك الثورة التي عليها أن تظل مخبأة عن الأنظار إلى أن تستجمع كامل عتادها. قلت في نفسي وشعور الرضا يخامرني "خذي حذرك وينيفريد".

سابرينا لم تلاحظني. أو لاحظتني لكنها لم تتعرّف إليّ. من فينة لأخرى كنّ يرمقنني بنظراتهن، يهمسن ويقهقهن؛ أذكر تلك التصرفات. العجوز الرثة أو أياً تكن النسخة الحديثة عنها. توقعت أن قبعتي هي محط سخريتهن. إذ مضى وقتٌ طويل على موضة ارتداء القبعات، هذه القبعة بالذات. في عيني سابرينا، في ذاك اليوم، لم أكن سوى امرأةٍ عجوز – امرأة أكبر سناً – امرأة أكبر سناً لا شيء فيها يميزها، ولم تبلغ بعد من العمر عتيًّا كي ترى وجودها بعد على قيد الحياة معجزةً.

بعد أن غادرن المطعم، توجهت إلى الحمام. منقوشٌ على جدار المقصورة قصيدة:

أعشق دارين فهو حبيبي
حبنا مقدرٌ لنا وليس لك
إن تجرأت ووقفت في طريقي
أقسم بالرب سأهشم وجهك

الفتيات قد غدون أكثر صراحة وجرأة في التعبير عن مشاعرهن، وإن لم يتحسَّن بعد مستواهن في علامات الترقيم والقافية.

حين استدللْنا أخيراً على **نار الرب الموقدة**، في مكانٍ مختلف عن المكان الذي قال والتر إننا سنجده فيه، وجدنا ألواحاً خشبية مسمرة على النوافذ، مع إعلانٍ رسمي

مثبت عليه. والتر أخذ يحوم حول الباب المغلق كما الكلب الذي يتشمم المكان حيث أضاع عظمته. أخيراً قال لي "يبدو مغلقاً". وقف هناك مستغرقاً لدقيقة، يداه في جيبيه. ثم قال، "دائماً يتغيرون. ولا يسعك مواكبة تغييرهم".

بعد التقصّي وملاحقة معلومات واهية، استقرينا على لقمةٍ مشبعة بالدهون في مكانٍ ما في دافنبورت، في مطعمٍ مقاعده من الفينيل مع صناديق جوكْبُكس مثبتة على أسطح الطاولات، مكدسٌ فيها خيارات أغاني الريف مع نثارٍ بسيط لأغاني البيتلز وألفيس بريسلي. والتر اختار أغنية هارت-بريك-أوتيل لألفيس، وجلسنا أنا وإياه نستمع إليها بينما نتناول شطائر الهمبرغر ونحتسي القهوة. والتر أصر على الدفع – ما يعني أنّ ميرا، مرةً أخرى، هي من حرّصت عليه ودست في يده عشرين دولاراً.

تناولت فقط نصف شطيرتي. ما كنت لأستطيع تناولها بأكملها. والتر تناول النصف الآخر، ازدردها بلقمةٍ واحدة وكأنه يشقّب رسالةً في صندوق البريد.

في طريقنا خارج المدينة، طلبت من والتر أن يقلّني إلى بيتي القديم – البيت الذي عشت فيه يوماً مع ريتشارد. تذكرت جيداً الطريق إلى هناك، لكن ما إن وصلت، فلأول وهلة لم أتعرف على البيت. كان البيت لا يزال أخرقَ تعوزه الأناقة، نوافذه حولاء، مملاً مضجراً، وثقيلاً بُنيًّا كما الشاي البائت، لكن اللبلاب قد تعرّش على كل الجدران. بيت الشاليه المشيد نصفه من الأخشاب، الذي اصطبغت جدرانه فيما مضى باللون القشدي، قد اصطبغ بالأخضر التفّاحيّ، وحتى بوّابة مدخله الرئيسي.

ريتشارد ما كان يطيق اللبلاب. بداية انتقالنا إلى البيت أخذ ينتزعها ويرمي بها. كان يقول لي إنّها تفسد زخرفة المنجور؛ إنّها تتسلّل إلى المداخن، تستحضر القوارض. آنذاك كان لا يزال يتعنى ذكر الأسباب وراء كل فكرةٍ يؤمن بها وكل فعلٍ يقوم به، ثمّ يقدمها لي كي أحذو حذوه في التفكير والتصرفات. ذاك كان قبل أن يرمي بالأسباب في مهب الريح.

لمحت نفسي آنذاك، في قبعتي القشيّة، في ثوبي الأصفر الباهت، الثوب قطني

لأن الجوّ حار. كان يوماً من أيام نهاية الصيف، بعد مضي عام على زواجي؛ أرض الحديقة كانت صخرية. فبتحريضٍ من وينيفريد كنتُ قد اتّخذتُ من البستنة هوايةً لي: فقد أخبرتني أني في حاجة إلى ممارسة هواية. وقرَّرَت أن عليّ أن أبدأ بحديقةٍ صخريّة. فحتى إن قتلت كل النباتات فالصخور ستبقى هناك. لا شيء قد تفعلينه سيقتل صخرة، قالتها لي مازحةً. كانت قد أرسلت لي بثلاثة رجال يعتمد عليهم، وفقاً لوصفها، كي يتولوا الحفر وتوزيع الصخور ويتسنى لي من بعدها غرس النباتات.

كانت وينيفريد قد تدبرت مسبقاً إرسال الصخور إلى الحديقة: صخور صغيرة، وصخور أكبر تشبه البلاط، إما منثورة فرادى هنا أو هناك أو مكدّسة مثل أحجار الدومينو المتساقطة. جميعنا وقفنا هناك، أنا والرجال الثلاثة الذين يعتمد عليهم، نتأمل تلك الكومة الكبيرة من خليط الصخور. الرجال كانوا يرتدون قبعاتهم، قد خلعوا سترهم، مشمرين عن أذرعتهم، وحمالات بناطيلهم ظاهرة للعيان، والثلاثة وقفوا في انتظار تعليماتي، لكني لم أعرف ما عليّ أن أقول.

آنذاك، كنت ما أزال في أمس الحاجة إلى تغيير أمرٍ ما – فعل شيءٍ ما بنفسي، أن أصنع شيئاً من لا شيء. كنت ما أزال أعتقد واهمةً أن بإمكاني فعل ذلك. لكني لم أعرف أبسط شيءٍ عن البستنة. شعرت بأني على وشك البكاء، لكن إن بكيتُ مرةً فسينتهي كل شيء: ابكي مرةً، والرجال الذين يعتمد عليهم سيحتقرونك، وبعدها لن يعودوا أهلاً للاعتماد عليهم.

والتر ساعدني على النهوض من مقعد السيارة، ثم انتظرني بصمت، واقفاً خلفي بخطوة، مستعداً لالتقاطي متى ما تعثرت. وقفت على الرصيف وتأملت البيت. الحديقة الصخرية كانت لا تزال هناك، رغم الإهمال الشديد الذي تعرضت له. بالطبع كان شتاءً، لذا لم يكن من السهل تخمين وضعها الحقيقي، لكني شككت في إمكانية وجود أي نباتاتٍ تنمو هناك، عدا ربما أشجار دم التنين، تلك الأشجار تنمو في أي مكان.

كان هناك مقلب نفاياتٍ كبير على المدخل الأمامي، مليء بشظايا الخشب، بالألواح الجصية: ربما البيت تحت الترميم. إما ذاك أو أن حريقاً كبيراً اندلع: فنافذة الغرفة العلوية مهشمة. وفقاً لميرا فأبناء الشوارع يخيمون في بيوت كهذه، البيوت غير المؤجرة، فهذا ما عليه الحال في تورنتو، سيقتحمون المكان في لحظة كما الرصاصة، حيث يقضون وقتهم في حفلات المخدرات وما شابه. كذلك، وكما وصل إلى مسامعها، يمارسون الطقوس الشيطانية. سيضرمون النار على أرضيات الخشب الصلب، سيسدون المراحيض ويتغوطون في المغاسل، سيسرقون الحنفيات، المقابض الأنيقة، أي شيءٍ يتسنى لهم بيعه، والأطفال، في بعض الأحيان، هم من يتولّى التحطيم والتهشيم من باب المتعة لا غير. فالتحطيم بالنسبة للصغار موهبة فطرية.

البيت بدا مهجوراً وبلا صاحب، بدا زائلاً عابراً كما البيوت على منشورات المكاتب العقارية. ما عاد يبدو مرتبطاً بي، ولا بأي طريقة. حاولت استعادة صوت وقع أقدامي، في جزمتي الشتائية على صرير الثلج الجاف، أهرول مسرعةً إلى البيت، متأخرةً، أختلق الأعذار؛ شعرية التحصين الحبرية على مدخل البيت، انسكاب نور مصابيح الشارع على الضفة الثلجية، الجليد الأزرق يكسو حوافها، مبقَّعٌ بالنقط الصفراء لبول الكلاب كما نقط البريل. أخيلة الظلال كانت مختلفة آنذاك. قلبي المهتاج، أنفاسي المتقطعة، دخانٌ أبيض في الهواء المتجمد. احمرار الدم في أصابعي؛ شفتاي العاريتان تحت الطلاء الجديد لأحمر شفاهي.

كان لدينا مستوقد في غرفة المعيشة. اعتدت الجلوس أمامها، برفقة ريتشارد، ألسنة نارها تخفق، ضياؤها ينعكس علينا، على كأسينا، كل كأسٍ موضوعة على واقية كي تحمي سطح الطاولة الخشبية. السادسة مساءً، وقت احتساء المارتيني. ريتشارد كان يهوى سرد موجز أحداث اليوم: هذا ما كان يسميه. كان من عادته أن يسجي راحة يده على مؤخر عنقي، بلطف، يبقيها هناك بينما يسرد عليّ الموجز. أليس "سرد الموجز" ما يفعله القضاة قبل إحالة القضية إلى هيئة المحلفين للتداول قبل إصدار الحكم؟ هل رأى ريتشارد نفسه قاضياً؟ ربما. لكن دواخله، دوافعه

وأفكاره، كلها كانت مجهولةً لي.

وهنا يكمن مصدر من مصادر التوتر بيننا: فشلي في فهمه، في توقع رغباته، والتي عزاها ريتشارد إلى تعمّدي وحتى عدائيتي في عدم انتباهي له. لكن في الواقع، الأمر بدأ مع انعدام انتباهي، ثم تحول إلى حيرتي وارتباكي، ومن بعدها إلى ذعري. مع مضي الأيام أخذت أراه يتضاءل ويتضاءل، ما عاد رجلاً بجلدٍ وأعضاء وأطراف متحركة، بل أصبح كرة صوفٍ ضخمة متشابكة الخيوط، وكان لزاماً عليّ، محتوماً عليّ بلعنةٍ ألقيت عليّ، أن أقضي كل يومٍ في حياتي أحاول فك عقد خيوطها. الأمر الذي لم أنجح فيه بتاتاً.

وقفت خارج بيتي، بيتي السابق، أنتظر عاطفةً ما تغمرني، أي عاطفةٍ كانت. لكن لا شيء. وبما أني اختبرت الحالتين، فلا أدري أيهما أسوأ: فيض العواطف الجياشة أو انعدامها.

من ثم لمحت على شجرة الكستناء في المرجة ساقان تتدليان من أغصانها، ساقا امرأة. ظننت لوهلة أنهما ساقا امرأةٍ حقيقية، تحاول التسلق للأسفل هاربةً. لكن ما إن تمعنت النظر حتى أدركت أن ما أراه هو زوج جوارب نسائية محشو بشيءٍ ما - بأوراق حمام ولا شك، أو ملابس داخلية - ورموا بها خارج النافذة العلوية في خضم طقسٍ شيطاني أو خدعة مراهقين أو عربدة مشردين. وها هي عالقة في الأغصان.

لا بد وأنهم رموا بتلك الساقين المبتورتين من خارج نافذتي. نافذتي السابقة. تصورت نفسي أتأمل خارج هذه النافذة، قبل أمدٍ طويل. أحْبِكُ خطة خروجي خلسةً منها، مخفيةً عن الأنظار، أتسلق جذع تلك الشجرة نزولاً، أرخي فردتيْ حذائي عن قدميّ، أتأرجح على الأسكفّة، وما إن أصل بساقٍ من ساقيّ المجوربتين إلى الشجرة، أدفع بالأخرى، متشبثةً بدعامتيْ النافذة. بيد أني لم أنفذ تلك الخطة.

وقفت أتأمل خارج النافذة. حيرى. أتساءل، إلى أي مدى قد تهت عن نفسي.

بطاقاتٌ بريدية من أوروبا

الأيّام تزداد عتمةً، الأشجار كالحة، الشمس تنحدر للأسفل صوب الانقلاب الشتوي، لكن لا شتاء بعد. لا ثلج، لا شفشاف، لا عويل للرياح. أراه نذير شؤم، هذا التأخير. صمتٌ مستطيرٌ وقد حلَّ علينا.

البارحة سرت حتى وصلت جسر جبيلي. كانت قد سرَت الأحاديث عن تعرضه للصدأ، للتآكل، عن ضعف هيكله؛ كما وسرت الأحاديث عن هدمه. ثمة مطوّرٌ عقاري مجهول الاسم والوجه يتوق إلى تشييد ملكيات مشتركة على الأرض العامة الواقعة محاذاة الجسر. وفقاً لكلام ميرا إنّ الأرض ممتازة لأن لها إطلالة، فَقِيمة الإطلالة هذه الأيام تفوق قيمة البطاطس، ليس أن هناك من بطاطس مزروعة أصلاً في تلك الأرض بالذات. الإشاعات تقول إنَّ مالاً قذراً قد تبادلته الأيدي من تحت الطاولة لأجل تسهيل الصفقة، وهو ما أنا متيقنة أنه قد حدث أيضاً لدى تشييد الجسر، تكريم الملكة فيكتوريا كان السبب المعلن من وراء تشييده. مقاولٌ ما ولا بد قد دفع الرشوة المطلوبة لممثلي جلالتها المنتخبين كي يحظى بالمشروع، وها نحن نواصل احترام عاداتنا وأعرافنا في هذه البلدة: كل الطرق الملتوية شريفة في سبيل الربح. تلك هي تقاليدنا.

من الغريب الآن تصور تلك السيدات في أثوابهن المنتفخة المكشكشة يتنزهن فيما مضى على هذا الجسر ويتكئن على هذا الدرابزون المخرم، يتأملن الإطلالة التي غدت اليوم باهظة وعن قريب ستغدو ملكية خاصة: جلبة الماء في الأسفل، المنظر الرائع للقمم الكلسية لسلسلة الجبال غرباً، المصانع في المدى تقارع بأقصى سرعتها

على مدار أربع عشرة ساعة في اليوم، مكتظة بالعمال القرويين الخانعين، أضواؤها تتلألأ ساعة الغسق وكأنها كازينوهات قمار.

وقفتُ على الجسر وحوّلت نظري صوب أعلى النهر من حيث التيار المتدفق ينصبّ أملسَ مثل التوفي، قاتماً وصامت، يتوعد بالشر. وعلى الجهة الأخرى الشلالات، الدوامات، الضجيج الأبيض للماء. وإذ أجد نفسي واقفة على علوّ. أشعر بدقات نبض قلبي، وبالدوار. كذلك أشعر بانقطاع أنفاسي، وكأني غارقة حتى أذنيّ. لكن غارقة حتى أذنيّ في ماذا؟ ليس في الماء؛ بل في الطين. في الوقت: في الوقت البارد العتيق، الأسى العتيق، مترسب في طبقات مثل الطمي في المستنقع.

فمثلاً:

قبل أربعةٍ وستين عاماً، أنا وريتشارد نتزل عن السفينة بيرينجيريا على الشاطئ البعيد للمحيط الأطلسي، قبعته تميل في زاويةٍ أنيقة، يدي في قفازها الأبيض أسندها برفق على ذراعه – الزوجان في شهر عسلهما.

ولمَ يدعونه بشهر العسل؟ *"Lune de miel"* قمر العسل – وكأن القمر ليس بالكوكب البارد القاحل عديم الهواء المبقع بالبثور الصخرية، بل قطعة بُنْبون مغلفة ذهبية ناعمة حلوة المذاق ومغرية، تلك صفراء اللون، التي تذوب في الفم، دبقةٌ كما الرغبة، حلوةٌ حدَّ الوجع. سيلٌ من الضياء الدافئ يغمرك، لكن ليس من السماء، بل من داخل أحشائك.

أعرف ماهية ذاك الشعور. أذكره جيداً. لكن ليس من أيامي في شهر العسل.

الشعور الوحيد الذي أذكره جيداً من تلك الأسابيع التسعة – أيعقل أنها كانت تسعة أسابيع وحسب؟ – هو القلق. كنت قلقة مما يظنه ريتشارد عن تجربة زواجنا – التجربة التي أعنيها هي تلك التي تقع في عتمة الظلام ويستحيل الحديث عنها – إن كان يراها مخيبةً للآمال كما كنت أراها أنا. لكني لم أر خيبة الأمل متجلية في تصرفاته: ففي بداية زواجنا كان دمثاً معي ومراعياً لي، على الأقل في وضح النهار. كنت قد حجبت قلقي بقدر استطاعتي، وأخذت أستحم عدة مرات في اليوم: فقد

شعرت وكأن أحشائي قد باتت فاسدة، مثل البيضة.

بعد أن رسونا في ساوثهامبتون، ريتشارد وأنا توجهنا إلى لندن عبر القطار، وأقمنا في فندق براون. الفطور كان يقدم إلينا في الجناح، وكان عليّ أن أرتدي المبذل لهذه المناسبة، أحد ثلاثة مباذل اختارتها لي وينيفريد: الأول زهريٌّ باهت، الثاني عاجي مع تخريمٍ بلون اليمام الرمادي، والثالث ليلكيّ فاتح مرصع بالزبرجد. ألوانٌ مائية باهتة مريحة للعين ساعة الصباح. كل مبذلٍ من الثلاث له خفٌّ يلائمه، مزركش بالفرو المصبوغ أو زغب الإوز. افترضت أنّ هذا ما ترتديه النسوة الناضجات في صباحاتهن. فقد رأيت صورةً لأطقم ملابس كهذه (لكن أين؟ أتراه كان إعلاناً لعلامةٍ تجارية ما لصنفٍ من أصناف القهوة؟) – الرجل يرتدي بدلته وربطة عنقه، شعره الأملس الزلق مرجّل للخلف، والمرأة في مبذلها، متهندمة مثله، يدٌ مرفوعة، تحمل إبريق القهوة الفضي ببوزه المقوّس، يتبادلان ابتسامةً حالمة من أعلى طبق الزبدة.

لورا كانت ستسخر من هذه الأطقم. هي أصلاً سخرت منها ما إن رأتني أوضبها. غير أنها لم تسخر فعلاً. فلورا كانت عاجزة عن إبداء الملاحظات الساخرة. فقد افتقدت القسوة المطلوبة. (أعني بذلك القسوة المقصودة. فقسوتها كانت عابرة، نتاج أي أفكارٍ غريبة كانت تحوم لحظتها في عقلها). ردة فعلها كانت أقرب إلى الاندهاش – عدم التصديق. ما إن مررت راحة يدها على الساتان حتى سرت فيها القشعريرة، كنت قد شعرت بالانزلاق الزيتي البارد للقماش على أطراف أناملي. ملمسٌ شبيهٌ بجلد سحلية. "سترتدين هذا؟"

في تلك الصباحات الصيفية في لندن – إذ كان صيفاً آنذاك – اعتدنا تناول الإفطار بينما الستائر نصف مسدلة حاجبةً صفاء الشمس عنّا. وجبة فطور ريتشارد تضمنت بيضتين مسلوقتين، وشريحتين رقيقتين مقليتين من لحم الخنزير مع طماطم مشوية، وخبزاً محمّصًا ومربى المرملاد، ورقائق خبزٍ محلاة، محفوظة في حامل شرائح الخبز المحمصة. وجبة فطوري كانت نصف ثمرة غريب-فروت. الشاي غامق، دبغيّ، مثل ماء المستنقع. أخبرني ريتشارد أنها الطريقة الإنجليزية لإعداد الشاي، الطريقة الصحيحة في تقديمه.

لم يكن هناك من تبادلٍ حقيقي للحديث بيننا، عدا الحوار الإلزامي "هل نمت جيداً حبيبتي؟"، "إمم، وأنت؟" كانوا يحضرون الصحف إلى ريتشارد، ومعها البرقيات. دائماً هناك برقيات. كان يطلع سريعاً على ما ورد في الصحف، ثم يفتح البرقيات، يقرأها، يطويها بدقة مرةً تلو أُخرى ثم يدخلها في جيبه. كان إما يطويها هكذا أو يمزقها. أبداً لم يجعدها ويرمي بها في سلة المهملات، حتى وإن فعل ذلك ما كنت لفكرت في انتشالها وقراءتها، ليس إبان تلك الفترة من حياتي.

فقد افترضت أن كل تلك البرقيات موجهة إليه: إذ لم أكن قد استلمت برقيةً في حياتي، ولم يخطر لي أيُّ سبب يدعوني للاعتقاد بأني سأستلم واحدة.

ريتشارد كانت له ارتباطاته طيلة النهار. وافترضت أن ارتباطاته هي مع معارفه من رجال الأعمال. كان قد استأجر لي سيارة وسائق، ومهمّة السائق كانت اصطحابي إلى المعالم التي، في وجهة نظره، عليّ أن أراها. معظم تلك المعالم كانت مبانٍ، أو حدائق. بعض تلك المعالم كانت تماثيل، نصبوها خارج المباني وفي الحدائق: رجال دولة بطونهم مشفوطة وصدورهم منتفخة، الساق الأمامية مثنية، يقبضون على صحائف من ورق؛ قادة عسكريون على صهوات جيادهم. نيلسون منتصباً أعلى عموده، الأمير ألبرت على عرشه يطوقه رباعيٌّ غريب من النساء القلقات المتقلبات في الثراء حول قدميه، يفِضْنَ بالفاكهة والقمح. ذاك الرباعي النسائي يقصد به القارات الأربع التي لا تزال في قبضة سيطرته المحكمة رغم موته، لكنه ما كان ليكترث إليهن؛ فقد جلس على عرشه صارماً صامتاً أسفل القبة الذهبية المزخرفة، عيناه شاخصتان في الأفق، تشغل باله شؤون علويّة أهم منهن.

"وماذا رأيت اليوم؟" كان سؤال ريتشارد المعتاد على مائدة العشاء، ومثل الزوجة المطيعة أتلو عليه الأماكن، أعلّم على بنودها في قائمتي: برج لندن، قصر باكنغهام، كينغستون، ويستمينستر آبي، مجلس البرلمان. لم يشجعني على زيارة المتاحف، عدا متحفاً واحداً: متحف التاريخ الطبيعي. أتساءل الآن لمَ ظنّ أن مرأى كل تلك الحيوانات الضخمة المحشوة كان سيدعم ثقافتي؟ فمن الواضح الآن أن كل تلك الزيارات قد هدف من ورائها إلى تثقيفي. فلماذا يا ترى رأى في الحيوانات الضخمة

المحشوة عاملاً تثقيفياً أهم لي، أو أهم للصورة المحسنة في خياله عني، من غرفةٍ زاخرة باللوحات على سبيل المثال؟ أظنني أعرف الآن، لكن قد أكون مخطئة. فربما الحيوانات الضخمة المحشوة هي أقرب إلى حديقة حيوان – مكاناً تصطحب إليه طفلاً في نزهة.

بيد أني ذهبت إلى المتحف الوطني. بواب الفندق كان قد اقترح عليّ المكان ما إن نفدت عن قائمتي المعالم. وكم أرهقتني زيارة المتحف – كأني كنت أتجول في متجر ألبسة ضخم، كثير من الأجساد المحتشدة على الجدران، كلها مبهرة للأبصار – لكن رؤيتي لها أنعشتني. إذ لم يكن قد سبق لي أن رأيت هذا العدد الهائل من أجساد النساء العاريات في مكانٍ واحد. كان هناك رجالٌ عراة أيضاً، وإن لم يكونوا عراةً بالكامل. كذلك كان هناك الكثير من الثياب الأنيقة. ربما تلكما الفئتان الرئيسيتان، النساء والرجال: العاريات والمكتسون. على أي حال، تلك هي مشيئة الرب. (لورا حين كانت طفلةً سألتني: وما الذي يرتديه الرب؟)

في كل تلك الأماكن اعتاد السائق أن ينتظرني في السيارة، وأسير أنا بخطىً ثابتة سريعة، عبر أي بوابة ومدخل، بقصد أن أبدو وكأن لي وجهةً واضحة أقصدها؛ أتفادى الظهور وحيدةً خاوية. ثم أحدق وأحدق، علّني أجد شيئاً أتحدث فيه لاحقاً. لكني عجزت عن استنباط أي شيء مما كنت أراه. المباني رأيتها مبانٍ. لا شيء يميزها إلا إن كنت معمارية أو تعرفين في فنون العمارة، أو لك دراية بتاريخها وما وقع فيها، وما كنت أعرف. فقد افتقرت إلى موهبة استنباط الصورة الكبرى؛ وكأن عينيّ تنظران مباشرةً نحو الشيء الذي يفترض بهما رؤيته ولا تتعداه، وكل ما كنت أدركه حقاً هي البنية: خشونة الآجر أو الصخر، نعومة الدرابزين الخشبي المشمع، خشونة الفرو البالي، الحزوز المثلمة على القرن، الوميض الدافئ للعاج. الأعين الزجاجية.

إلى جانب تلك النزه التثقيفية، فقد شجعني ريتشارد على قضاء الوقت في التسوق. كنت أتهيب من موظفي المتاجر، لذا لم أشتر سوى القليل. وهناك المرات التي سرحت فيها شعري. لكنه رفض أن أقصه أو أموجه، لذا لم أفعل. أخبرني أن

التسريحة البسيطة هي الأنسب لي، الملائمة لسني اليافعة.
وهناك الأوقات التي قضيتها أتنزه سيراً في الأرجاء، أو في الجلوس على مقاعد الحديقة، أنتظر مضي الوقت اللازم قبل عودتي. أحياناً رجلٌ ما كان يأتي ويجلس جانبي، محاولاً بدء حديثٍ معي. متى ما حدث ذلك نهضت وغادرت المكان.
قضيت الكثير من الوقت أبدل أزيائي. أضيع وقتي عبثاً مع الأشرطة، الأبازيم، مع وضع القبعات في الميل الصحيح، مع التأكد من استقامة الدرز على جوربيْ الحريريين. يعتريني القلق بشأن ملائمة هذا الزي أو ذاك مع هذه الساعة أو تلك من ساعات النهار. لا أحد كان لدي يغلق إبزيم ياقتي أو يخبرني كيف أبدو من الخلف وإن كان هناك من ثنيٍ أو زمٍّ أو دسٍّ عليّ أن أقوم به. ريناي اعتادت أن تفعل ذلك لي، أو لورا. كنت قد افتقدتهما، وجهدت في طمس شوقي إليهما.
كنت أبرد أظافري، أنقع قدميّ. أنتزع الشعر من جلدي، أو أحلقه: فقد كان من الضروري أن أكون ملساء، جرداء من أي هُلْب. جلدي صلصالٌ مبلل، خريطةٌ صقيلة لتضاريس جسدي، سطحٌ تنزلق عليه اليدان.

يقال إن شهر العسل هو الوقت الذي يتاح فيه للعروسين التعرف أكثر على بعضهما، لكن مع مضي الأيام شعرت وكأن معرفتي بريتشارد تتضاءل وتتضاءل. وكأنما أخذ يطمس نفسه يوماً بعد يوم. أو هل تراه كان يخفي نفسه عني؟ يختبئ خلف وجهة نظر. أنا عن نفسي كنت أتبدل – أتبدل إلى الصورة التي قررها لي. كل مرةٍ كنت أنظر فيها إلى نفسي في المرآة، أجد شذرةً أخرى مني وقد تلونت على يديه.
من بعد لندن غادرنا إلى باريس. ذهبنا إلى هناك على متن قارب عبر القناة ثم ركبنا القطار. صورة أيامنا في باريس تماثل تلك التي قضيناها في لندن، غير أن وجبة الإفطار كانت مختلفة: أقراص خبزٍ يابسة، مربى الفراولة، قهوة مع حليبٍ دافئ. الوجبات كانت غنية بالعصارة، وقد أثار ريتشارد جلبةً كبيرة عليها، وخصوصاً النبيذ. إذ ما انفك يقول إننا لسنا في تورنتو، الحقيقة التي كانت ماثلة طوال الوقت أمام عينيّ.

زرت برج إيفل لكني لم أصعد داخله، إذ لا أطيق المرتفعات. زرت كذلك البانثيون وضريح نابليون. لم أزر كنيسة نوتردام، لأن ريتشارد لم يستسغ الكنائس، على الأقل الكاثوليكية منها، إذ اعتبرها واهنة. رأى أن أعواد البخور التي يشعلونها على الدوام تخبّل العقل.

ثمّة "بيديه" في الفندق الفرنسي، كان ريتشارد قد شرح لي الغرض منه مع ابتسامةٍ خبيثة على وجهه ما إن رآني أغسل قدمي فيه. فقلت في نفسي هؤلاء الفرنسيون يدركون ما لا يدركه غيرهم. يتفهمون القلق العصبي للجسد. على الأقل يعترفون به.

كنا قد أقمنا في فندق لوتيتا والذي كان سيغدو لاحقاً المقر الرئيسي للجيش النازي إبان الحرب، لكن كيف كنا سنعرف بذلك حينها؟ كنت قد اعتدت الجلوس في مقهى الفندق لاحتساء قهوة الصباح، لأني خشيت الذهاب إلى أي مكانٍ آخر. إذ تملكني الشعور أني إن أضعت الفندق عن مدى بصري فلن أتمكن من العودة إليه أبداً. كنت حينها قد أدركت أن الفرنسية التي تعلمتها على يد السيد إرسكن كانت عديمة الفائدة: "Le coeur a ses raisons que la raison ne connaît point" ما كانت لتنفعني في طلب المزيد من الحليب الدافئ.

نادلٌ كهل، ملامح وجهه مثل حيوان الفظ، تولّى خدمتي؛ كان يتمتع ببراعة صب القهوة والحليب من إبريقين، يحملهما عالياً في الهواء، وأجلس أنا مفتونةً بما أراه وكأنه ساحر يؤدي خدعته أمام جمعٍ من الأطفال. يوماً ما سألني – كان يتحدث القليل من الإنجليزية – "لم أنت حزينة؟"

فأجبته، " أنا لست بحزينة" . ثم أجهشت في البكاء. شفقة الغرباء دائما ما تحطم الأعصاب.

"لا يجدر بك أن تكوني حزينة،" قال لي بينما يتأمّلني بعينَي الفظ، الحزينتين الجِلديّتين. "لا بد وأنه الحبّ، لكنك يافعة وجميلة، ستحظين بالوقت لاحقاً كي تحزني كما تشائين" . الفرنسيون هم جهابذة الحزن، يعرفونه بكل أنواعه. لذلك لديهم "بيديه" . "الحبُّ مجرمٌ قاسي القلب،" قال لي وهو يربت على كتفي، "بيد أنه

لا يصيبك بأي أذىً حقيقي".
لكن سرعان ما أفسد تأثير حديثه معي بمحاولته مراودتي عن نفسي صباح اليوم التالي، أو ربما ظننته يحاول مراودتي عن نفسي، ففرنسيّتي لم تكن جيدة كفاية لأتيقن الأمر. لم يكن كهلاً إلى هذه الدرجة - ربما في الخامسة والأربعين. ليتني قبلت عرضه. بيد أنه كان مخطئاً فيما يخص الحزن: خيرٌ لك أن تحزني طالما أنت شابة. فالصبايا الجميلات يوعزن في الرجال الرغبة في تقديم السلوان، على عكس الحيزبون العجوز الحزينة. لكن لا تحفلي بما قلت التو.

ثم توجهنا إلى روما. روما بدت مألوفةً لي - على الأقل كنت أعرف السياق المطلوب لها، مما تعلمته منذ زمنٍ بعيد على يديْ السيد إرسكن وحصص الدروس اللاتينية. كنت قد زرت الميدان الروماني أو الأثر المتبقي منه، كما زرت طريق أبيان وكذلك الكولوسيوم والذي بدا مثل قطعة جبنٍ قضمتها الفئران. عدة جسور، عدة ملائكة في أرديتها البالية، وقورة ومتأملة. رأيت نهر التيبر يتدفق، أصفر كما اليرقان. كما رأيت كاتدرائية القديس بطرس، بيد أني اكتفيت بتأملها من الخارج، فقد كانت هائلة. أظن كان عليّ أن ألاحظ قوّات موسوليني الفاشية في الزي الرسمي الأسود تتجول في الأنحاء وتتعامل مع الناس بخشونةٍ وازدراء - أيعقل أنهم بدأوا بفعل ذلك ونحن هناك؟ - على كلٍّ أنا لم أرهم. فتلك الأمور تميل إلى البقاء مخفية عن عينيك وقت حدوثها إلا إن كنت نفسك الهدف لها. إمّا ذاك أو ستريها لاحقاً على شريط الأخبار أو في الأفلام التي ستصنع لاحقاً عن تلك الأحداث بعد وقوعها بزمنٍ طويل.
أما ساعات العصر فكنت أقضيها بطلب الشاي واحتسائه - لقد أتقنت حينها طلب الأشياء، عرفت أي نبرةٍ يجدر بي أن أستخدم مع النّدُل، وكيف أبقيهم ضمن حدودهم. وبينما أحتسي الشاي كنت أكتب البطاقات البريدية. بطاقاتي البريدية كانت موجهة إلى لورا وريناي، وعدة من تلك البطاقات وجهتها إلى أبي. تلك البطاقات حملت صور المباني التي حرص ريتشارد أن أزورها - تُصَوِّر في ظلال

اللون السبيدجي التفاصيل التي كان يفترض بي أن أراها. الرسائل التي كتبتها عليها كانت سخيفة وخادعة. إلى ريناي: الطقس هنا مذهل، وأنا جد مستمتعة. إلى لورا: اليوم زرت الكولوسيوم حيث اعتادوا رمي المسيحيين في عرين الأسود. حتماً كان سيثير اهتمامك.

وإلى أبي: أرجو أن تكون في صحةٍ جيدة. ريتشارد يبعث إليك تحياته. (الرسالة الأخيرة كانت كاذبة، لكني كنت قد تعلمت أي الكذبات يتوقع مني أن ألقيها تلقائياً بصفتي الزوجة).

ومع اقتراب انقضاء شهر عسلنا توجّهنا لقضاء أسبوعٍ في برلين. ريتشارد كان لديه ارتباط عملٍ هناك، صفقةٌ ما تتعلق بمقابض المجارف. فإحدى شركات ريتشارد كانت تصنع تلك المقابض، والألمان كانوا يعانون من نقصٍ في الأخشاب. إذ كان أمامهم الكثير من الحَفْر، ويتوقعون الكثير منه في المستقبل المنظور، وكان بوسع ريتشارد أن يؤمّن لهم تلك المقابض بسعرٍ أقل من كل المنافسين.

وكما اعتادت ريناي أن تقول، كل حبة حصى تدعم. لكنها أيضاً اعتادت أن تقول، التجارة شطارة وقد تنقلب حقارة. ما كنت لأفقه شيئاً في التجارة. فواجبي الوحيد كان الابتسام.(128)

عليّ أن أعترف أني استمتعت بوقتي في برلين. فلم أعِ كم أنا شقراء إلا فيها. الرجال كانوا مهذبين بصورةٍ استثنائية، حتى وإن لم يلتفتوا خلفهم لدى عبورهم مندفعين الأبوابَ المؤرجحة. فقُبلةٌ على اليد تستر كثيراً من الخطايا.(129) في برلين تعلمت وضع العطر على معصميّ.

كنت قد حفظت تلك المدن عن ظهر قلب من خلال فنادقها، وحفظت تلك الفنادق من خلال حمّاماتها. ارتداء الملابس، التعرّي، الاستلقاء في الماء. لكن كفانا من ملاحظات السفر تلك.

---

(128) بيع مقابض المجارف إشارة إلى الهولوكست وإجبار ألمانيا النازية اليهود في مخيمات الاعتقال على الحفر في ظروف غير إنسانية أدت إلى موت العديد منهم.

(129) تلاعب لفظي في عبارة مقتبسة عن رسالة بطرس الأولى 4:8 "وقبل كل شيء، فليحب بعضكم بعضاً محبةً ثابتة، لأن المحبة تستر الكثير من الخطايا".

عدنا إلى تورنتو عبر نيويورك في منتصف أغسطس، خلال غمرة موجة الحر. من بعد أوروبا ونيويورك، بدت تورنتو وجاراً ضيقاً. خارج محطة يونيون عمّ الرصيف أبخرةٌ حمرية، تتصاعد من حيث كانوا يصلحون حفر الطريق. استقبلتنا سيارةٌ مستأجرة واصطحبتنا إلى البيت متجاوزةً عربات الترام بغبارها ورنينها، متجاوزةً البنوك المنمقة والمتاجر الكبرى، ثم صعدت بنا على المنحدر اتجاه روزدايل حيث ظلال أشجار الكستناء والقيقب.

توقفنا أمام البيت الذي ابتاعه ريتشارد لنا ببرقيّة. التقطه كما يلتقط أغنية، هذا ما قاله ريتشارد بعد أن اشتراه من مالكه السابق الذي تسبب لنفسه بالإفلاس. لطالما ردد ريتشارد هذه العبارة متى ما اشترى الأشياء "والتقطها كما يلتقط أغنية". وهو ما استغربته كثيراً كوني لم أره يغني ولو لمرةٍ واحدة. لم يصفّر حتى. لم يكن بالإنسان الموسيقي على الإطلاق.

البيت كان قاتماً من الخارج، مفسطن بتعاريش اللبلاب، نوافذه الطويلة ضيقة وأبوابها موجهة للداخل. المفتاح تركوه لنا أسفل ممسحة الأرجل، الرواق الأمامي كان يرشح برائحة المواد الكيميائية. وينيفريد تولّت إعادة تصميم ديكورات البيت أثناء غيابنا، والعمل لم يكن قد أنجز بعد، مآزر الصباغين كانت لا تزال في الغرف الأمامية، حيث انتزعوا ورق الجدران الفيكتوري القديم. الألوان التي استبدلت بها كانت ألواناً لؤلؤية، باهتة – ألوان الرفاهية اللامبالية، الانفصال العاطفي البارد. سحب طخرور مع أثرٍ من شروقٍ باهت تحوم عالياً فوق الحدة السوقية المبتذلة للعصافير والزهور وما شابه. تلك كانت الأجواء التي فُرضت عليّ، النسيم الشاهق الذي كان عليّ أن أتنشقه من اليوم فصاعداً.

لو رأت ريناي المكان لازدرت التصميم – لازدرت وميضه الخاوي، امتقاع ألوانه. المكان بأسره يبدو كما الحمام. ولذعرت منه أيضاً، كما ذعرت أنا. كنت قد استحضرت جدتي آديليا: كانت ستعرف تماماً ما عليها فعله. لكانت رأت جلياً أمامها محاولة مُحدثي النعمة خلقَ انطباعٍ مبهر، وبكل تهذيب، لكن وبلا مبالاة، لأدلت لهم برأيها هذا، عجبي! حقاً إنّه تصميمٌ حديث. لكانت قصَّت أجنحة وينيفريد

وحجّمتها. لكن تصوّري لجدتي لم يأتِ لي بأي سلوان: فأنا نفسي أنتمي الآن إلى قبيلة وينيفريد. أو جزءٌ مني كان.
وماذا عن لورا؟ لورا كانت ستهرِّب بعضاً من أقلام ألوانها، وقوارير أصباغها. كانت ستسكب شيئاً ما في هذا البيت، تكسر شيئاً، تشوّه ولو زاوية صغيرة منه. لكانت تركت أثرها عليه.

كنا قد وجدنا ملاحظة أسندتها وينيفريد على الهاتف في الرواق الأمامي. "هاي شباب، أهلاً بكما في منزلكما الجديد! لقد تدبرت إنهاء غرفة النوم أولاً! أرجو أن تنال إعجابكما – فاتنة حقا! فريدي".
قلت لريتشارد، "لم يكن لي علم أن وينيفريد ستتولى هذا الأمر". فأجابني قائلاً، "أردنا أن نتركها مفاجأةً لك، إذ لم نرد إغراقك في التفاصيل". لم تكن المرة الأولى، شعرت كما الطفل المستبعد من أبويه، أبويه الكريمين القاسيين، الغارقين حتى آذانهما في التواطؤ عليه، مصممين على أن خيارهما في أي شيء هو الخيار الصحيح. علمت لحظتها أن كل هدايا عيد ميلادي من ريتشارد لن تنال رضاي.
صعدت إلى الأعلى كي أهندم نفسي وهو ما اقترحه عليّ ريتشارد. أظنني بدوت في حاجةٍ إلى ذلك. فبالتأكيد شعرت بأني دبقة وذابلة. ("الندى قد هوى عن الزهرة،" كان تعليق ريتشارد على مظهري). قبعتي بدت رثة، فرميت بها في العلبة. رششت الماء على وجهي وتنشفت بإحدى المناشف البيضاء الموسّمة بالمونوغرام التي جهزتها لنا وينيفريد. غرفة النوم كانت تطل على الحديقة الخلفية حيث لا أعمال ترميم ولا تجديد. رميت بفردتيْ حذائي، ارتميت على السرير القشدي اللون اللامتناهي. من أعلى السرير انسدلت كنّة من ستائر الموسلين وكأننا في رحلة سفاري. إذاً هذا هو المكان، هنا سأعض على النواجذ، السرير الذي لم أعدّه إلى حدٍّ كبير لكن كان لزاماً عليّ الآن الرقود فيه. وذاك كان السقف العلويّ الذي سأحدق فيه كل ليلة، عبر السديم الموسلينيّ، بينما الأمور الدنيوية تأخذ محلها أدنى عنقي.
الهاتف على المنضدة جانب السرير كان أبيض. رن. رفعت السماعة. كانت لورا،

تجهش في البكاء. "أين كنت؟" تسألني ناحبةً. "لماذا لم تعودي؟"
"ما الذي تعنينه؟ هذا هو اليوم المقرر لنا العودة فيه! اهدأي فلا يسعني سماعك".
صاحت في عويل: "لم تردي أبداً!"
"بحق السماء ما الذي تتحدثين عنه؟"
"أبي مات! مات! مات! – بعثنا إليك خمس برقيات! ريناي بعثتها".
"لحظة! اهدأي. ومتى حصل ذلك؟"
"بعد أسبوعٍ من سفرك. جربنا الاتصال بك بالهاتف، اتصلنا بكل الفنادق. أخبرونا أنهم سيعلمونك. قد وعدونا بذلك! ألم يخبرك أحدهم؟"
"سآتيك غداً. لم أكن أدري، لا أحد أخبرني بشيء. لم أتلق أي برقية. لم أتلق أي برقية على الإطلاق".
لم يسعني استيعاب ما حدث، الخطب الذي وقع، لماذا أبي مات، ولماذا لم يعلمني أحدٌ بموته؟ وجدت نفسي مرميةً على الأرض، على السجاد العاجي الرمادي، جاثمةً فوق الهاتف، متمعجةً حوله وكأنه غرضٌ هشٌ غالٍ. فكرت بكل تلك البطاقات البريدية التي بعثتها من أوروبا، تصل آفيليون برسائلها التافهة المبهجة. على الأرجح كانت لا تزال موضوعةً على الطاولة في الرواق الأمامي. أرجو أن تكون في صحةٍ جيدة.
"لكن الصحف نشرت خبر وفاته!"
"ليس حيث أقمنا. ليس تلك الصحف". لم أذكر لها أني لم أتعنَّ حتى قراءة أيٍّ منها. أني قضيت شهر العسل مشدوهةً مخبَّلة.
كان ريتشارد من استلم البرقيات، على متن السفينة وفي كل تلك الفنادق. لي أن أتصور أصابعه الموسوسة تفتح أظرف تلك البرقيات، يقرأ محتواها، يطويها إلى أرباع ثمّ يلقي بها بعيداً. كيف كان لي أن أتهمه بالكذب – فهو لم يذكر أي شيءٍ عنها، عن تلك البرقيات – لكن كتمانه في حد ذاته كذب، أليس كذلك؟
لا بد وأنه قد وجه تعليماته إلى الفنادق بألا تحوّل أي مكالماتٍ إلى غرفتنا، لا إليّ، ولا متى ما كنتُ موجودة فيها. كان قد تعمّد إبقائي غافلةً في العتمة.

ظننت أني سأمرض، لكني لم أمرض. بعد برهة نزلت إلى الأسفل. افقدي أعصابك وستخسرين المعركة، كذا اعتادت ريناي أن تقول. ريتشارد كان جالساً في الشرفة الخلفية يحتسي كأساً من الجن والتونيك. "كم هو مراعٍ من وينيفريد أن أمّنت لنا الجن والتونيك،" الملاحظة التي رددها على الأقل مرتين مذ دخولنا البيت. كأسُ جنٍّ أخرى معدةٌ لي كانت موجودةً في انتظاري على السطح الزجاجي للطاولة البيضاء من الحديد المطاوع. رفعتها. قطع الثلج فيها كانت ترن صافيةً كلما قرعت كأس الكريستال. تلك كانت النبرة التي وجب على صوتي أن يتحلى بها.

"يا إلهي،" قال ريتشارد ما إن رآني. "ظننتك ستتهندمين. ما خطب عينيك؟" لا بد وأنهما بدتا محتقنتين بالدم.

"أبي مات. قد بعثوا لي بخمس برقيات. وأنت لم تخبرني بشيء".

فأجابني، "*Mea culpa*[130]". ثم أردف قائلًا، "أدري، كان يجدر بي إعلامك، لكني أردت إعفاءك من قلقٍ كهذا حبيبتي. فلم يكن بيدينا فعل شيء، وما كان بيدينا العودة في الوقت المناسب لحضور الجنازة، ولم أشأ أن أحوّل شهر عسلك إلى خراب. وأظنني كنت أنانياً أيضاً – فقد أردتك كلّك لي ولي وحدي، وإن لفترةٍ قصيرة. اجلسي إلى جانبي الآن وتماسكي، احتسي شرابك. واغفري لي صنيعي. سنتعامل مع كل هذا في الصباح".

موجة الحر أصابتني بالدوار؛ المرجة تحت الشمس الساطعة غدت خضراء متوهجة تعمي الأبصار. ظلال الأشجار غدت سميكة كما القار. صوت ريتشارد كان يصل أذنيّ متقطعاً عالي النبرة مثل شيفرة موريس: لم أسمع منه سوى تلك الكلمات.

قلق. وقت. خراب. أناني. اغفري لي.

فما كان عساي أن أقول؟

---

(130) عبارة لاتينية تعني: الذنب ذنبي.

القبّعة العاجيّة

الكريسماس حلّ ومضى. حاولت جهدي ألا ألاحظه. لكن ميرا ما كانت لتقبل بتجاهلي إياه. أهدتني بودينغ بالخوخ كانت قد غلتها بنفسها، أعدتها من الدبس والصمغ وزيّنتها بأنصاف كرزٍ مطاطية، حمراء فاقعة، مثل تلك الزركشات على نهديْ راقصة تعرٍّ قديمة الطراز، كما وأهدتني معها قطةً خشبية مطلية ثنائية الأبعاد ذات هالة قداسة وجناحَيْ ملاك. أخبرتني أن تلك القطط كانت رائجة في بيت الزنجبيل، وقد رأت فيها هديةً لطيفة جداً لي، لذا أهدتني الأخيرة المتبقية لديها، لا تشكو من شيء سوى من حزٍّ رقيق مثلّم عليها بالكاد يرى، وستبدو رائعةً إن علقتها على الجدار أعلى فرني.

قلت لها، "موقعٌ مثالي. الملاك في الأعلى، وملاكٌ آكلٌ للّحم – فقد آن الأوان كي يقرّوا أخيراً بهذا! والفرن المشتعل في الأسفل، الترتيب الموصوف لدى كل الأحاديث المعتمدة. ثم هناك البقية، نحن، عالقون على الأرض الوسطى، على مستوى مقلاة القلي". المسكينة ميرا ارتبكت، كما هو حالها دائماً لدى أي حديثٍ لاهوتي. فهي تحب ربها بسيطاً – بسيطاً ونيّئاً مثل الفجل.

الشتاء الذي طال انتظارنا له قد حلّ علينا ليلة رأس السنة – موجة صقيعٍ قارسٍ مشفوعة بهطولٍ هائلٍ للثلوج في النهار التالي. خارج النافذة انهمرت الثلوج في دوامات، دلواً بعد دلو، وكأن الرب راح يرمي برقائق مسحوق الغسيل في ختام مهرجانٍ للأطفال. أدرت التلفاز على قناة الطقس كي أحظى برؤية البانوراما الكاملة للحدث – الطرق المغلقة، السيارات المطمورة، انقطاع الكهرباء، تجميد عمليات

البيع والشراء، العمال في بدلهم الضخمة الثقيلة يتهادَون مثل أطفالٍ ضخام صُرّوا في كومة ملابسهم الدافئة استعداداً للعب. وطوال فترة عرضهم لما أطلقوا عليه بتعبيرهم الملطف "الظروف السائدة" فقد أبقى مذيعو النشرة الجوية الشباب على تفاؤلهم الجذل، ذات أسلوبهم المعتاد لدى نقلهم كل كارثة لك أن تتخيلها. يطلقون العنان دون أي مبالاة لتوقعات الطقس كما الغجر في الملاهي أو الشعراء التروبادور، أو مثل بائعي بوالص التأمين والمرشدين الروحيين لأسواق المال – يُدلُون بتوقعاتهم المبالغ فيها رغم معرفتهم التامة أن لا شيء مما قالوه قد يقع فعلاً.

ميرا اتصلت بي كي تطمئن عليّ. أخبرتني أن والتر سيأتيني ما إن يتوقف الثلج عن الهطول، كي ينتشلني من الثلج.

"لا تكوني سخيفة ميرا، فأنا قادرة تمام المقدرة على انتشال نفسي". (كذبة – ما كانت لي أي نية في رفع إصبعٍ واحدة. كنت قد وفّرت ما يكفيني من مؤونة زبدة الفول السوداني، لذا كان بإمكاني الانتظار. لكني شعرت بحاجة إلى الرّفقة، وقد تعلّمت أن أي تهديدٍ مني بالتصرف بنفسي سيعجل من قدوم والتر).

"إياك وأن تلمسي ذاك الرفش! المئات من العجَا.. أعني أناساً في عمرك كل عام يتعرضون لأزمة قلبية جراء جرف الثلج! وإن انقطعت الكهرباء فانتبهي أين تضعين الشموع!"

"لست خرفة!" رددْتُ عليها بحدّة، "إن حدث وأحرقت هذا البيت فاعلمي أني قد أحرقته عن عمد".

وها هو والتر قد تجلى، وها هو والتر قد جرف الثلج. كان قد أحضر معه كيساً من قطع الدونات المثقوب؛ تناولناها على طاولة المطبخ، أنا أتناولها بتؤدة، وهو يزدردها بالجملة، لكن باستغراق. هو رجلٌ يعتبر المضغ صورةً من صور التفكّر.

ما عاد إلى ذاكرتي حينها هي اللافتة التي كانت معلقة على واجهة كشك دوني-فليك-دونات، في حديقة ملاهي سَني-سايد في – أي عامٍ كان؟ – صيف عام 1935 :

أُختي، بينما تهيم في دروب الحياة
وأياً يكن هدفك الموعود
أَبقِ عينيك دائماً على الدونات
لا على قلبها المثقوب.

هي مفارقة، قلب الدونات المثقوب. فراغاً كانت، فيما مضى، بيد أنهم تعلموا معها كيف يسوّقون للفراغ ويبيعونه. قيمة سلبية؛ لا شيء، وها قد صيّروه صالحاً للأكل. تساءلت بيني وبين نفسي إن كان لي أن أستخدم قلب الدونات المثقوب – مجازياً بالطبع – في تفسير وجود الرّب. أترى إطلاق اسمٍ على كرةٍ من اللا شيء يحوّلها إلى وجود.

في اليوم التالي جازفت وخرجت في مغامرة إلى الكثبان الباردة المبهرة. كانت حماقةً مني، لكني أردت المشاركة – فالثلج جذابٌ جداً، إلى أن يغدو مسخماً وزلقاً. مرج البيت الأمامي كان جُرافاً لامعاً، مع نفقٍ أليّ يخترقه في الوسط. تدبّرت الوصول إلى الرصيف بيسر ومضيت أتجول، لكن عدة بيوتٍ جهة الشمال من بيتي لم يتحلّ فيها جيراني بذات القدر من المواظبة والكد في الجرف كما والتر، فإذ بي أعلق في موجة سفى فتخبطت وتعثرت ووقعت. لا شيء فيّ انكسر ولا التوى – لم أعتقد ذلك – لكني عجزت عن النهوض. ظللت مستلقيةً هناك على الثلج أضرب بذراعيّ وساقيّ الأرض مثل سلحفاةٍ منقلبة على ظهرها. الأطفال يفعلون ذلك، لكن عن عمد – يصفقون بأذرعتهم مثل العصافير، راسمين الملائكة على صفحة الثلج. بالنسبة لهم هي بهجة.

كان القلق قد بدأ ينتابني خوفاً من إصابتي بالهايبوثيرميا حين قدم رجلان غريبان ورفعاني عن الأرض وحملاني إلى باب بيتي. مشيت عرجاء حتى الغرفة الأمامية وانهرت على الأريكة، كنت ما أزال أرتدي جرموقي ومعطفي. وكما هي عادتها في شم المصائب عن بعد، إذ بميرا تأتي إليّ، حاملةً لي معها نصف درزن من الكب-كيك المنتفخ والمتبقي من مائدةٍ منشاة لعائلةٍ ما. فأعدت لي مطّارة ماءٍ دافئ وكوباً من

الشاي، ثم استدعت الطبيب، وأخذ كلاهما يثيران جلبةً فوق رأسي، يصبّان عليّ سيلاً من النصائح المفيدة والاستهجان القلبيّ المتوعد، ليغمرهما بعدها شعورٌ عارمٌ بالرضا عن النفس.

الآن أنا معاقبة في بيتي. وكذلك مستشيطة غضباً من نفسي. أو ليس من نفسي – بل من تلك الحال السيئة التي أوصلني إليها جسدي. فبعد أن يفرض الجسد علينا نفسه بأناه الأعلى المنتفخة الجنونية، بعد أن يطالبنا بإرضاء احتياجاته صاخباً متذمراً، بعد أن يحتال علينا كي نلبي شهواته القذرة والخطيرة، يخدعنا خدعته الأخيرة المتجلية في غيابه، هكذا وبكل بساطة. لدى احتياجنا حقاً إليه، لدى حاجتنا الماسة إلى ذراعٍ أو ساق، فجأة ينصرف الجسد عنا إلى أمور أخرى. يتداعى أمام عينيك، يتجعّد تحت مسام جلدك، يذوب من بين أصابعك وكأنه كرة ثلج، مخلفاً النزر اليسير خلفه. كتلتا فحم، قبعة رثة، ابتسامة عريضة من الحصى. العظام عِصيٌّ جافة، سهلة الكسر.

كل هذا ما هو إلا واجهة. الرُّكَب الواهنة، والمفاصل الملتهبة، والدوالي، والسّقَم، والمهانة – كلها لا تعود لنا، لم نردها ولم نطالب بها. فصورتنا التي نحملها في عقلنا هي الصورة المثالية لنا – صورتنا في زهرة شبابنا، وتحت الإضاءة المناسبة كذلك: فصورتنا المثالية لا تتصرّف أبداً بحماقة، ساقٌ خارج السيارة والأخرى لا تزال داخلها، أو تخلل أسنانها، أو تسير مترهلة، أو تحك أنفها ومؤخرتها. إن كانت عارية، فسنراها تضطجع بكل رشاقة عبر السديم الشاشي، وهنا يتجلى لنا فضل نجوم السينما علينا: فهم يتصورون بتلك الوضعيات لأجلنا. هم صورة أنفسنا اليافعة التي تتقهقر من حياتنا فتضحو على الشاشة صورةً أسطورية متألقة.

حين كانت طفلة، اعتادت لورا أن تسألني: "كم سيكون عمري في الجنة؟"

لورا كانت واقفة في انتظارنا على الدرج الأمامي لآفيليون، بين جرّتي الرماد الحجريتين حيث لا زرع غرس فيهما أبدا. رغم قامتها الطويلة، فقد بدت يافعة جداً، هشة جداً ووحيدة. كذلك بدت قروية تعيش في إملاق. كانت ترتدي ثوب بيتٍ أزرق باهتًا

موشّى بنقوشٍ باهتة لفراشات بنفسجية – كان ثوبي قبل ثلاثة مواسم صيف – ولم تكن ترتدي أي حذاءٍ أو خفٍّ في قدميها. (أكان هذا تعبيراً جديداً منها عن إماتة الجسد[131]، أو عارضاً آخر لغرابة أطوارها، أو أنها ببساطة نسيَت؟) شعرها كان مجدولاً في ضفيرةٍ واحدةٍ طويلة تنسدل على كتفٍ واحدة مثل ضفيرة الحورية الحجرية الجالسة على بركة الزنابق.

الرب وحده يعلم كم من الوقت قضت واقفةً هناك. فلم يكن بوسعنا تحديد وقت قدومنا، لأننا كنا سنقطع الرحلة بالسيارة، وهو ما كان متاحاً في ذاك الوقت من العام: فالطرق ليست فائضة ولا موحلة، وحتى أن بعضها كان معبّداً آنذاك.

أقول نحن لأن ريتشارد قد قدم معي. أخبرني أنه لن يقبل بإرسالي هناك كي أواجه أمراً كهذا وحدي، ليس في وقتٍ كهذا. كان أكثر من مصرّ، بل تواق.

قادنا بنفسه، في سيارته الكوبيه الزرقاء – إحدى ألعابه الجديدة. حقيبتانا في صندوق السيارة خلفنا، حقيبتا سفرٍ صغيرتان، فقط لإمضاء ليلة واحدة – حقيبته الكميت الجلدية، وحقيبتي بلون الشربات الأصفر. كنت أرتدي طقم بدلةٍ عاجية من الكتان – من التفاهة أن أذكر شيئاً كهذا لكنها كانت من باريس وكنت أتوق جداً لارتدائها – وكنت مدركة أن ظهر البدلة سيتجعد ما إن نصل. الحذاء كذلك كان من الكتّان، مع عقد شريطية جاسئة، وهو مفتوح من الأمام. قبّعتي العاجية من ذات الطقم وضعتها على حجري طوال الرحلة وكأنها علبة هديةٍ هشة.

ريتشارد كان سائقاً متوتراً. ما كان يقبل بأن يقاطعه أحد – أخبرني أن من شأن ذلك أن يفقده التركيز بسرعة – لذا قضينا الرحلة في صمت عدا كلمة أو كلمتين.

الرحلة تجاوزت الأربع ساعات، في يومنا هذا لما تجاوزت الساعتين. السماء كانت صافية، مشرقة ومصقولة كما السطح المعدني؛ أشعة الشمس انصبت على الأرض كما الحمم. حرارتها كانت تنبعث من مسام الإسفلت؛ البلدات الصغيرة أغلقت أبوابها أمام الشمس، ستائرها مسدلة. أذكر مروجها المسفوعة وشرفاتها الأمامية بأعمدتها البيضاء، ومحطة الوقود الوحيدة، مضخات البنزين فيها تبدو مثل رجلٍ

(131) إماتة الجسد: كبح شهوات الجسد وقد يصل الزهد فيه حد التعذيب الذاتي.

آلي أسطواني بذراعٍ واحدة، رأسه الزجاجية المسطحة كما قبعة بولر دون حواف، والمقابر التي بدت وكأن لا أحد آخر سيدفن فيها. ومن وقتٍ لآخر كنّا نمر على بحيرة تفوح منها رائحة سمك المنوة وحشائش الماء الدافئة.

وما إن بلغنا المدخل الأمامي لم تلوّح لنا لورا. بل ظلّت واقفةً تنتظر ريتشارد ريثما يوقف السيارة ويصعد مجهداً خارجها ويلتف كي يفتح الباب لي. رفعتُ ساقيَّ جانباً، الركبتان متلاصقتان ببعضهما كما تعلمت، ثم مددت يدي إلى يد ريتشارد الممدودة لي، وإذ بالحياة تنبعث في لورا من جديد. ركضَت على الدرج وقبضت ذراعي الأخرى وسحبتني خارج السيارة، متجاهلةً ريتشارد بالكامل، ورمت بذراعيها حولي وتشبثت بي وكأنها غَرِقة. لا دموع، فقط العناق الكاسر للظهر.

قبعتي العاجية كانت قد وقعت مني على المدخل المكسوّ بالحصى ولورا وطئت عليها. سمعت صوت الطقطقة، وشهيق ريتشارد. لم أقل شيئاً. ففي تلك اللحظة ما عاد يهمني أمر القبعة.

صعدنا أنا ولورا درجات مدخل البيت الأماميّة، كلٌّ تطوّق الأخرى بذراعها. لمحت ريناي عند باب المطبخ الأمامي نهاية الرواق، لكنها كانت أدرى باحتياجي وشقيقتي للانفراد ببعضنا. أتوقعها قد حوّلت اهتمامها صوب ريتشارد– إلهائه بكأس شراب أو ما شابه. وعلى أي حال، هو أراد الاطلاع على الملكية والتجول في أنحائها، بما أنه الآن قد ورثها عن طريقي.

صعدنا مباشرةً إلى غرفة لورا وجلسنا على سريرها. تشبثنا بأيدي بعضنا – اليسرى في اليمنى، اليمنى في اليسرى. لورا لم تكن تبكي، ليس كما كان حالها في المكالمة. بل كانت هادئة مثل لوحٍ من خشب.

"كان في البريج. كان قد أغلق على نفسه الباب".

"لطالما فعل ذلك".

"لكن هذه المرة لم يخرج منه. ريناي كانت قد تركت له صواني وجباته خارج الباب كما المعتاد، لكنه لم يأكل أي شيء، وكذلك لم يشرب أي شيء – حسب ما نعرف. لذا كان علينا أن نحطّمِ الباب".

"أنت وريناي؟"

"رفيق ريناي – رون هينكز – الرجل الذي ستتزوجه. هو من حطم الباب. أبي كان مستلقياً على الأرض. لا بد وأنه بقي على هذه الحال على الأقل ليومين، هذا ما قاله الطبيب. كم بدا رهيباً".

لم أدر أن رون هينكز كان قد أصبح رفيق ريناي – بل حتى خطيبها. منذ متى؟ وكيف فاتني الأمر؟

"كان ميتاً، أهذا ما تقصدينه؟"

"لم أظنه ميتاً بادئ الأمر، لأن عيناه كانتا مفتوحتين. لكنه كان ميتاً. بدا ... لا أدري كيف أصفه لك. وكأنه كان يرهف السمع إلى صوتٍ ما، صوتٍ ما جفله. بدا يقظاً".

"هل مات بطلقة رصاص؟" لا أدري لمَ سألتها ذلك.

"لا، كان ميتاً وحسب. الصحف أعلنوا عن الخبر بوصف موته وفاةً لأسباب طبيعية – فجأةً ولأسباب طبيعية، بتلك العبارة – وريناي أخبرت السيدة هيلكوت أنه فعلاً توفي لأسباب طبيعية، فالشّرب كان طبيعةً في أبي، وبالحكم على عدد القناني الفارغة فقد تجرّع أبي من الشراب ما يكفي لقتل حصان".

"لقد شرب حدَّ الموت". لم يكن ما قلته سؤالاً.

"حدث ذلك مباشرةً بعد الإعلان عن الإغلاق الدائم للمصانع. هذا ما قتله، أعلم ذلك!"

"ماذا؟ أي إغلاقٍ دائم؟ وأي مصانع؟"

"كلها. كل مصانعنا. كل ما نملكه في البلدة. ظننتك تعرفين الأمر".

"لم أعرف".

"لقد اندمجت مع مصانع ريتشارد. كل شيءٍ نُقلَ إلى تورنتو. أصبحت تحمل اسم مصانع غريفين–تشايس الملكيّة". إذاً ما عاد هناك وأبناؤه. ريتشارد كان قد اكتسح وفاز بكل شيء.

"إذاً ما عاد هناك من وظائف. ما عاد من شيءٍ هنا. كلها انتهت. كلها انمحت".

"برّروا الأمر بأنها مسألة تكلفة. قالوا إن تكلفة ترميم مصنع الأزرار بعد احتراقه ستكون عالية".

"ومن هم؟"

"لا أدري. ألم يكن ريتشارد؟"

"ليس هذا ما اتفقنا عليه". المسكين أبي - وضع ثقته في المصافحة وكلمة الشرف وافتراض حسن النية. بدا جلياً لي أن التجارة ما عادت تعتمد على تلك الأمور. وربما ما اعتمدت يوماً عليها.

"أي اتفاق؟"

"لا تحفلي للأمر".

إذن فقد تزوّجتُ ريتشارد هدراً - لم أنقذ المصانع، وبالتأكيد لم أنقذ أبي. لكن لورا كانت لا تزال معي؛ لم تكن مرمية في الشارع. كان عليّ أن أركز تفكيري عليها.

"هل ترك شيئاً - رسالة، ملحوظة؟"

"لا".

"هل بحثت؟"

"ريناي بحثت". أجابتني لورا بصوتٍ خافت؛ ما يعني أنها لم تقوَ على فعل ذلك بنفسها.

قلت في نفسي، بالطبع. ريناي كانت ستبحث. وإن عثرت حقاً على شيءٍ من هذا القبيل، لكانت أحرقته بكل تأكيد.

مسلوب العقل

لا أظن أنَّ أبي قد خلّف وراءه أي رسالة. فقد كان واعياً بعواقب ترك شيءٍ كهذا. ما كان ليفتح الباب أمام حكمٍ عليه بالموت انتحاراً، إذ كما تبين لاحقاً، فقد أمّن أبي على حياته: ظل يدفع أقساط التأمين على مدى أعوام، كي لا يتهمه أحد بترتيب الأمر قبيل انتحاره. كان قد شدَّ الوثاق على المال – أوصى بأن يوضع المال حال وفاته مباشرةً في وديعة، ولورا فقط من يحق لها الاستفادة منها، وفقط ما إن تبلغ الحادية والعشرين من عمرها. لا بد وأنه قد فقد ثقته في ريتشارد، واستنبط أن ترك أي مالٍ لي لن ينفعني بشيء. فقد كنت ما أزال قاصراً، وزوجة ريتشارد. القوانين كانت مختلفة آنذاك. كل ما أملكه كان ملكه، بكل معنى الكلمة.

وكما أسلفت، فقد ورثت من أبي نياشينه. علام نالها؟ الشجاعة، الإقدام أمام نيران العدو، التضحية النبيلة بالنفس. أظنه توقّع منيّ أن أعيش وفقاً لهذه المبادئ.

كل من في البلدة حضر الجنازة. كذا قالت ريناي. حسنٌ، معظم أهل البلدة، فمرارة الإغلاق كانت لا تزال تجيش في صدور بعض الناس، بيد أنّ الجميع أظهر له الاحترام، وكانوا قد أدركوا حينها أنّ الإغلاق لم يكن من صنع يديه ولا بمشيئته – ما كان قادراً حتى على إيقافه. أصحاب المصالح الكبرى هم من دمروه.

كل من في البلدة شعر بالأسف على لورا، قالت لي ريناي. (ولم يشعر أحدهم بالأسف عليك كانت التتمة غير المنطوقة. ففي نظرهم، أنا من حظي بكل الغنائم. وقد كانت غنائم بحق).

ها هي الترتيبات التي قررها ريتشارد:

لورا ستنتقل للعيش معنا. بالطبع ستنتقل ولا مناص: فلا يمكنها البقاء وحدها في آفيليون، فهي لا تبلغ من عمرها سوى خمسة عشر عامًا.

ردّت عليه لورا: "أستطيع البقاء مع ريناي". لكن ريتشارد أجابها بأنه لن يقبل بذلك. فريناي على وشك الزواج؛ ولن تملك الوقت للاعتناء بلورا. فأجابته لورا بأنها لا تحتاج لمن يعتني بها، ريتشارد اكتفى بالابتسام.

"بإمكان ريناي أن تنتقل معي إلى تورنتو". قالت له لورا، لكن ريتشارد أجابها بأن ريناي لا تود الانتقال. (ريتشارد هو من لم يردها في بيته. هو ووينيفريد كانا قد أعدّا ما ارتأياه طاقم الخدمة المناسب لإدارة شؤون بيته – أناسًا يعرفون القواعد كما قال. وهو ما يعني أنهم يعرفون قواعده، وكذلك قواعد وينيفريد).

ريتشارد أخبرنا إنه قد ناقش الأمور مع ريناي، وقد وصلا إلى ترتيبٍ مُرضٍ للطرفين. ريناي وزوجها الجديد سيكونان القيّمَين نيابةً عنا وسيقفان على عمليات الترميم – فآفيليون كانت تنهار، وتتطلب الكثير من عمليات الترميم، بدايةً بالسقف – وبهذا سيكونا عوناً لنا في إعداد البيت متى ما احتجنا للإقامة فيه، إذ سيكون بيتنا الصيفي. أخبرنا أننا سننزل في آفيليون صيفاً حيث سنمارس الإبحار وما شابه، أخبرنا بكل ذلك بنبرة العمّ المتساهل مع بنات أخيه. وبذلك لن نحرَم أنا ولورا من بيت أسلافنا. قال بيت أسلافنا مبتسماً. أو لن نود ذلك؟

لورا لم تشكره. أخذت تحدق في جبهته، بتلك النظرة الشاخصة الجامدة المصقولة التي استخدمتها فيما مضى مع السيد إرسكن، ورأيت لحظتها أننا مُقبلون على متاعب.

تابع ريتشارد سرد ترتيباته علينا، أنا وإيّاه سنعود إلى تورنتو بالسيارة ما إن تترتب الأمور. فهو يحتاج أولاً للاجتماع بمحامي أبي، اجتماع لا حاجة لنا بحضوره: فسيكون أمراً مرعباً لنا مع كل ما حدث مؤخراً، وأراد أن يعفي كلتينا من هذه المعاناة. ثمّة محامٍ لأبي كان قريباً لنا من جهة والدتنا – هذا ما أخبرتنا به ريناي على انفراد – زوج قريبةٍ لها من الدرجة الثانية – لذا من المؤكد سيحرص على مصالحنا.

لورا ستبقى في آفيليون إلى أن توضب مع ريناي كل متاعها؛ ثمّ ستأتي إلى المدينة على متن القطار وسنصطحبها من المحطة. ستعيش معنا في بيتنا – فهناك غرفة إضافية مثالية لها وستناسبها ما إن يعاد تصميمها. وستلتحق – أخيراً – بمدرسةٍ ملائمة. القديسة سيسيليا هي المدرسة التي وقع اختياره عليها، بالتشاور مع وينيفريد، العالمة بتلك الأمور. لورا قد تحتاج إلى دروس إضافية، لكن في النهاية كل الأمور ستجري على ما يرام. "فبهذا ستُحصد الفوائد، مزايا..."

"أي مزايا؟" سألته لورا مقاطعةً.

"مزايا مرتبتك الاجتماعية".

"لكن لا أرى نفسي ذات مرتبة اجتماعية".

"وما الذي تعنينه بذلك؟" سألها ريتشارد بنبرةٍ أقل تسامحاً.

"آيريس من تملك المرتبة الاجتماعية. هي السيدة غريفين، أنا مجرد ملحقٍ إضافي". فأجابها بنبرةٍ جافة، "أنا مدرك لانزعاجك ومتفهم له. إن أخذنا بالاعتبار ما تعرضت له مؤخراً من ظروف صعبة، والتي كانت صعبة على الجميع، لكن لا داعي لأسلوبك البغيض. لم يكن سهلاً عليّ ولا على آيريس. كل ما أفعله هنا هو بذل أقصى جهدي اتجاهك".

"يظنني سأقف في الطريق". قالت لي لورا ذاك المساء، في المطبخ، إلى حيث لجأنا للابتعاد عن ريتشارد. أزعجتنا رؤيته يعدّ قوائم ترتيباته – ما الذي سيرمي به، ما الذي سيرمّمه، ما الذي سيستبدله. أن نشاهده يفعل ذلك ونلتزم الصمت. علّقت ريناي ساخطةً يظن نفسه صاحب البيت. لكنت رددت عليها لكنه صاحبه.

"في طريق ماذا؟" سألتها، "أنا على يقين أنه لم يعن ذلك".

"في طريقه، في طريقكما".

"كل شيءٍ سيجري على ما يرام". قالت ريناي في نبرةٍ آلية. صوتها كان مرهقاً، يفتقر إلى الاقتناع، ورأيت على ملامحها أن علينا ألا نتوقع أي مساعدةٍ منها منذ الآن فصاعداً. بدت كهلة تلك الليلة في المطبخ، وسمينة بعض الشيء، ومهزومة. إذ سرعان ما سيتضح أنها حامل بميرا. سمحت له أن يسحب البساط من تحت قدميها.

اعتادت أن تقول القذارة هي ما سنجده تحت البساط. ومصيرها الرمي في سلة المهملات، لكن ها هي قد خرقت كل قواعدها. لا بد وأن عقلها كان مشغولاً في أمور أخرى، إن كانت ستسير نحو المذبح. وإن لم تسِر، فما سيكون مصيرها؟ مصيرٌ سيء ولا شك. فلم يكن هناك حينها من جدارٍ يفصل الكفاية عن الكارثة، إن زلقت فستقعين حتماً، وإن وقعت فستتخبطين في الأرض ويُلقى بك تحت الأقدام كي تدوسك. سيصعب عليها حد الاستحالة خلق فرصةٍ جديدة لها، فحتى إن أنجبَت الطّفل ووهبَته، فستسري الأقاويل عنها، وأهل البلدة لن ينسوا شيئاً كهذا. ولن يصنع فرقاً إن علّقت لافتةً على بيتها: فطابورٌ من الرّجال سيصطفُّ في الشارع على أيّ حال. فمتى ما فلتت المرأة، ستظل فالتةً مدى الدهر. لمَ عساك تشتري البقرة إن كنت ستشرب حليبها مجاناً، أتوقّع أن هذا ما كان يدور في بالها.

لذا تخلّت عنّا، سلّمتنا إلى يدٍ أخرى. فلأعوام طويلة بذلت أقصى جهدها لنا، والآن ما عادِ لها من قوة.

في تورنتو انتظرت وصول لورا. موجة الحر لم تزَل على حالها. الطقس الحار المتقد، الجباه الرطبة، الاستحمام قبل كأس الجن والتونيك في الشرفة الخلفية المطلة على الحديقة الذابلة. النسيم كان يهب كما النار الرطبة؛ كل شيءٍ بدا إمّا مهلهلاً أو مُصفرًّا. كانت هناك مروحة معلّقة على سقف حجرة النوم، صوتها بدا كصوت رجلٍ مسنّ يصعد درجات السلّم بقدمٍ خشبيّة: صفيرٌ متقطع الأنفاس، قرقرة، صفير. قضيت تلك الليالي الخانقة الجرداء من النجوم أحدق في السقف ريثما يقضي ريتشارد وطره مني.

كان مسلوب العقل بي، كذا قال. مسلوب العقل – كأنه ثمل. كأنما شعوره اتجاهي ما كان ليراوده لو أنّه صاحٍ، لو كان في تمام عقله.

نظرت إلى نفسي في المرآة وتساءلت، يا ترى ما الذي يراه فيّ؟ ما الذي يراه فيّ يسلب العقل؟ المرآة كانت كاملة الطول: وفيها حاولت جاهدةً رؤية جسدي من الخلف، لكن بالتأكيد يستحيل عليك هذا. يستحيل عليك رؤية نفسك كما قد

يراك شخصٌ آخر – كما يراك الرجل، من الخلف، في غفلةٍ منك – لأن في المرآة رأسك ستكون دائماً متمعجة للخلف فوق كتفك. وضعيةٌ خجولة تغوي بحيائها. بوسعك حمل مرآةٍ أخرى كي تري نفسك من الخلف، لكن ما سترينه حينها هو ما يعشق الفنانون رسمه – امرأةٌ تنظر إلى نفسها في المرآة – رمز الخيلاء في قواميسهم. بيد أني لا أراها رمزاً للخيلاء، لكني أراها العكس منها: بحثاً عن العيوب. ما الذي فيّ يسلب العقل؟ من السهل تأويلها ما الخطب بي؟

ريتشارد أخبرني أن النساء صنفان: تفاحٌ وكمثرى، وفقاً لأردافهن. أخبرني أني كمثرى، لكن ثمرة كمثرى لم تنضج بعد. وهذا ما أعجبه فيّ – عدم نضوجي، قسوتي. أظنه كان يعني الجزء السفلي مني، لكن من المرجح أنه كان يصفني كلّي.

كنت قد غدوت حريصة من بعد كل استحمام، من بعد انتزاع الشعر والهلب، التسريح والتمشيط، على إزالة كل أثرٍ للشعر عن الأرض. كنت أرفع لفائف الشعر الصغيرة من مصرف حوض الاستحمام والمغسلة وألقي بها في المرحاض وأسحب الماء عليها، لأن ريتشارد كان قد ذكر عرضاً أن النساء دائماً ما يخلفن شعراً وراءهن. يطرحن وبرهن مثل الحيوانات، كذا كان المعنى الضمني في ملاحظته.

وكيف عساه عرف؟ كيف عساه عرف بالتفاح والكمثرى والشعر المطروح؟ من كنَّ تلك النسوة، تلك النسوة الأخريات؟ عدا كون تلك الأسئلة كانت نابعة عن فضولٍ سطحي، فلم أكترث حقاً.

حاولت تجنّب التفكير في أبي، في الطريقة التي مات فيها، ما كان ينوي عليه قبل موته، إحساسه حينها، وكل ما عرف به ريتشارد عنه ولم يجد من الملائم إعلامي به.

وينيفريد كانت النحلة المشغولة على الدوام. رغم موجة الحر فقد بدت دوماً منتعشة، ملتفّة في أرديةٍ خفيفة وكأنها محاكاةٌ ساخرة لشخصية الجنية العرابة. ريتشارد ما فتئ يثني على عملها المذهل وكمّ الجهد والعمل الذي تولته بنفسها وأعفتني منه، لكن وجودها تحوم في البيت ما فتئ يرهق أعصابي. تدخل وتخرج من البيت أي وقتٍ تشاء؛ ففي أي لحظة، قد أفاجأ بها، تدفع برأسها من خلف

الباب بابتسامتها المنعشة. ملاذي الوحيد كان الحمّام، المكان الوحيد حيث تسنى لي قفل الباب على نفسي دون أن أبدو وقحةً دون داع. كانت تشرف على إتمام تصميم ديكورات البيت، تطلب الأثاث لغرفة لورا. (طاولة زينة بحاشيةٍ مزركشة، موشاة بورود زهرية، ستائر بيضاء وملاءات سرير متطابقة. المرآة كانت ملتفة وإطارها ذهبي. الاختيار المناسب تماماً للورا، ألا توافقيني الرأي؟ بالطبع لم أوافقها الرأي، لكن ما الجدوى من الكلام).

كانت قد تولّت أيضاً تصميم الحديقة؛ أعدّت عدّة تصاميم بنفسها - مجرد أفكار بسيطة، كذا كانت تقول كلما دفعت بتلك التصاميم عليّ ثم تعود وتتناولها بسرعة مني، تعيدها بأناةٍ إلى محفظة أوراقها المنتفخة أساساً بكل أفكارها البسيطة. النافورة ستكون إضافةً جميلة - من الطراز الفرنسي، لكن علينا أن نتيقن من أصالتها. ألا أتفق معها؟

تمنيت لو أن لورا تسارع في القدوم. فموعد قدومها قد تأجل ثلاث مرات - لم توضب متاعها بعد، أصيبت بنزلة برد، أضاعت التذكرة. كنت قد تحدثت إليها عبر الهاتف الأبيض؛ صوتها بدا مكبوتاً، آتيًا من بعيد.

الخادمان المعيّنان كانا قد بدآ العمل في البيت، طاهية ومدبرة منزل نكدة، مع رجل عريض الفك عيّنوه بستانياً وسائقاً. كانا يحملان اسم العائلة مرغترويد، وقيل إنهما رجلٌ وزوجته، وإن بديا لي أخاً وأخته. تعاملا معي بانعدام ثقة، وهو ذات الشعور الذي بادلتهما إياه. في النهار، وبينما ريتشارد في مكتبه ووينيفريد تحوم في كل مكان، اعتدت مغادرة البيت كلما تسنت لي الفرصة. كنت سأتعذر برغبتي في قضاء الوقت أتسوق في وسط المدينة، وهو ما كان مقبولاً لديهما وما يجدر بي فعله في نظرهما. كنت آمر السائق بإيصالي إلى متجر سيمبسونز الفاخر، قائلةً له أني سأعود إلى البيت في سيارة أجرة. ثم أدخل المتجر، أشتري غرضاً بسرعة: الجوارب النسائية والقفازات كانتا دائماً الدليل المقنع على حماستي للتسوق. من بعدها أقطع سيراً كامل المتجر وأغادره من الباب الخلفي.

كنت قد استأنفت هواياتي القديمة - عدت أهيم على وجهي، أتفحص واجهات

المتاجر، أتأمل ملصقات أفلام السينما. حتى أني دخلت قاعات السينما، وحدي؛ فما عدت عرضةً للتلمس والتحسس بعد أن فقد الرجال هالتهم الشيطانية، الآن وقد عرفت تماماً ما يريدون الوصول إليه. لم أكن مهتمة بمزيدٍ من التحسس والتلمس الهوسي. أبقِ يديك لنفسك وإلا سأصرخ كان تهديداً كفيلاً بصدهم إن كنت مستعدة لتنفيذه. وبدا أنهم أدركوا استعدادي لتنفيذه. جوان كروفورد كانت نجمتي المفضلة آنذاك. عيناها المجروحتان، فمها السفَّاك.

أحياناً كنت أتوجه إلى متحف أونتاريو الملكي. كنت أتأمل الدروع، الحيوانات المحشوة، الآلات الموسيقية العتيقة. لم أجد فيه ما يدفعني للاستمرار. فصرتُ أذهب إلى حلويات ديانا لاحتساء صودا أو فنجان قهوة؛ كانت قاعة شايٍ أنيقة تقع مقابل المتاجر الكبيرة ومعروفة بزبائنها من السيدات، لذا ما كنت عرضةً للإزعاج هناك على يد الرجال الهائمين. أو كنت سأتمشى في حديقة كوينز بخطىً سريعة ومقصودة. فإن سرت الهوينا فرجلٌ ما ولا ريب سيظهر أمامي. ورقة ذباب كذا كان النعت الذي اعتادت ريناي أن تطلقه على شابةٍ يافعة أو أخرى. عليها أن تكشط الرجال عنها. مرةً، كشف رجلٌ عن عضوه أمامي، رأيته على مستوى نظري (كنت قد ارتكبت خطأ الجلوس على مقعدٍ منعزل في حديقةٍ تابعة للجامعة). لم يكن مشرداً حتى، بل كان حسن الهندام. "آسفة، لكني لست مهتمة". بدا خائب الأمل لدى سماعه إجابتي. من المرجح أنه تمنى رؤيتي يغمى عليّ.

نظرياً، كان متاحاً لي التجول في أي مكانٍ أريد، أما عملياً فكانت هناك عوائق خفية. كنت قد التزمت التجول في الشوارع الرئيسية، الأنحاء الأكثر ازدهاراً: وحتى في تخوم تلك الأنحاء لم يكن هناك الكثير من الأماكن التي يسعني التجول فيها دون قيود. أخذت أراقب الناس – لا الرجال، بل النساء. هل هن متزوجات؟ وإلى أين يذهبن؟ أعندهن وظائف؟ لم يتسنَّ لي معرفة الكثير عنهن بمجرد النظر إليهن، عدا ثمن أحذيتهن.

شعرت وكأن أحدهم قد حملني من مكاني ثم أجلسني في بلدٍ غريبة، حيث الجميع يتحدث بلغةٍ أجنبية.

أحياناً كنت أرى زوجين، الذراع في الذراع – يضحكان، سعيدين، غارقين في الحب. ضحيّتا عملية نصبٍ مهولة، وهما المحتالان فيها، أو هكذا شعرت. كنت أحدق فيهما بكل حقدٍ وضغينة.

وإذ بيومٍ ما – كان يوم خميس – رأيت أليكس توماس. كان على الجانب الآخر من الشارع، ينتظر تبدل الإشارة. كان شارع كوين في يونغ. كان رث الملابس – قميصه أزرق كما قميص العامل، قبعته بالية – بيد أنه كان حقاً هو. بدا متوهجاً، وكأن شعاعاً من ضياء انسكب عليه من مصدرٍ خفي، فصيّره جلياً بشكلٍ مخيف. إذ بالتأكيد أعين كل من في الشارع كانت مسلطة عليه كما هي حال عينيّ – وبالتأكيد كلهم قد سمعوا به! وفي أي لحظةٍ الآن سيتعرفون عليه، سيصرخون منادِين اسمَه وينطلقون في مطاردته.

ردة فعلي الأولى كانت أن أحذّره. لكني أدركت حينها أن التحذير يجدر أن يكون لكلينا، فأيًّا كانت المشكلة الواقع فيها فأنا أيضاً – وفجأةً – قد وقعت فيها.

كان بوسعي ألا أدير بالاً له. كان بوسعي أن أستدير مبتعدةً عنه. لكان تصرفاً حكيمًا. بيد أني افتقرت وقتئذٍ إلى حكمةٍ كهذه.

نزلت عن الرصيف وبدأت أقطع الشارع اتجاهه. إشارة المرور تبدلت: وجدت نفسي عالقةً في وسط الشارع. السيارات تصيح عليّ بالمزامير؛ الرجال يصرخون عليّ؛ الشارع ازدحم. لم أعرف إن كان عليّ العودة من حيث أتيت أو المضي قدماً. في تلك الوهلة استدار، لم أكن متيقنة إن كان قد تعرف عليّ. مددت له يدي، مثل غريقٍ يستغيث النجاة. في تلك الوهلة، في قلبي، كنت قد ارتكبت خطيئة الخيانة.

أكانت خيانة، أم شجاعة؟ ربما الاثنان. فلا صنيع منهما نفعله عن عمد، ولا عن تدبّر في العواقب: أمور كهذه تقع في لحظة، بطرفة عين. تقع فقط لأننا تمرنا عليها بأنفسنا، مرةً تلو الأخرى، بصمتٍ وفي الظلمة؛ في صمتٍ رهيب، وفي ظلمةٍ قاتمة، إلى حدٍّ نجهل معه أننا غارقون فيهما. عمياناً لكن واثقي الخطى، نتقدم إلى الأمام، إلى رقصةٍ وكأنما هي ذكرى.

سَني سايد

بعد ثلاثة أيام، حلّ موعد قدوم لورا. استقللت السيارة إلى محطة يونيون كي أستقبل القطار، لكنها لم تكن على متنه. وكذلك لم تكن في آفيليون: اتصلت على ريناي كي أتأكد، وهو ما أثار نوبة هيجان لديها: لطالما عرفت أن شيئاً من هذا القبيل سيقع لها، لأن تلك هي طبيعة لورا. كانت قد اصطحبت لورا بنفسها إلى المحطة، شحنت صندوق أمتعتها ونفذت كافة التعليمات، وأخذت كافة الاحتياطات. كان يجدر بها أن تستقل القطار معها وتصحبها طوال الرحلة. لكن سبق السيف العذل! وها هي قد خُطفت على يد تاجر رقيقٍ أبيض!

صندوق أمتعة لورا وصل في الموعد المحدد، لكن لورا نفسها بدا وكأنها اختفت. ريتشارد كان منزعجاً أكثر مما توقعت. كان يخشى أن قوىً مجهولة – جماعةً ينوون تدميره – قد اختطفوها. ربما الحُمر، أو منافسٌ معدوم الضمير: فعالم الأعمال لا يخلو من رجالٍ كهولاء. ألمح إلى أن منافسين له هم من تلك الطينة – رجالٌ لا يعيقهم أي شيء في سبيل فرض سلطتهم عليه، خصوصاً مع اتساع دائرة علاقاته السياسية. لن يستغرب إن وصلته رسالة ابتزاز.

في ذاك الصيف، في شهر أغسطس، كان الشك قد أخذ يعتريه اتجاه الكثير من الأمور. أخبرني أن علينا أن نلتزم الحرص الشديد. ففي شهر يوليو، شهدَت أوتاوا مسيرةً كبيرة – شارك فيها الآلاف، بل عشرات الآلاف من الرجال الذين ادعوا أنهم عاطلون عن العمل، يطالبون بوظائف وأجورٍ عادلة، بتحريضٍ من ثلة مخربين

يدفعون نحو الإطاحة بالحكومة.

"أراهنك أن ذاك الشاب –أياً كان اسمه – له يدٌ فيما يحدث". قال لي ريتشارد بينما يرمقني بعينيه.

سألته، "أي شاب؟"، كنت أتأمل خارج النافذة.

"انتبهي إلى ما أقول حبيبتي. صديق لورا. الأسمر. قاطع الطريق الذي حرق مصنع أبيك وساواه بالتراب".

"لم يساوِه بالتراب. فقد أنقذوا المصنع في الوقت المناسب. وعلى أي حال، فالتهمة لم تثبت عليه".

"لأنه فرّ مذعوراً من المكان كما الأرنب. فراره يكفيني دليلاً على جريمته".

المتظاهرون في أوتاوا كانوا قد علقوا في الشرك، في حيلةٍ بارعة هو من اقترحها بنفسه – كما ادعى ريتشارد – الذي صعد نجمه مؤخراً في الدوائر السياسية العليا. قائدو المسيرة قد خُدعوا بالمجيء إلى أوتاوا للدخول في "مفاوضات رسمية"، أما المسيرة بمن فيها فقد علقت في ريجينا. المفاوضات لم يسفر عنها أي شيء، كما كان مخططاً له، لكن الأمور تصاعدت إلى أحداث شغب: المخرّبون هيجوا الناس، وسرعان ما خرجت الحشود عن السيطرة، منهم من قتل ومنهم من جرح. الشيوعيون هم المسؤولون عما جرى، لأن لهم يداً في كل فطيرةٍ مسمومة، ومن له أن يقول إن اختفاء لورا ليست بفطيرة مسمومة أخرى من صنع أيديهم؟

رأيت أن ريتشارد قد بالغ في القلق دون داعٍ. كنت قلقة أنا أيضاً، لكني اعتقدت أن لورا ولا بد قد هامت على وجهها، شيءٌ ما قد شتت انتباهها. فهذا من طبيعتها. ربما نزلت في محطةٍ أخرى، نسيت رقم هاتفنا، أضاعت طريقها.

وينيفريد اقترحت أن نتحقق من المستشفيات: ربما مرضت أو تعرضت لحادث. لكن لم نجدها في أي مستشفى.

بعد يومين من القلق أبلغنا الشرطة، وبعيد إبلاغنا، ورغم كل الاحتياطات التي اتخذها ريتشارد، فقد وصل الخبر إلى الصحف. الصحفيون طوقوا الرصيف

خارج بيتنا. التقطوا الصور، وإن اقتصرت صورهم على الأبواب والنوافذ: اتصلوا، يتوسلون إجراء مقابلة. ما سعوا إليه هو الفضيحة. "طالبةٌ مدرسية من فتيات المجتمع الراقي غارقةٌ في عشٍّ غرامي" و"محطة يونيون، موقع البقايا الرهيبة". أرادوا أن يسمعوا منا إقراراً بفرار لورا من البيت برفقة رجل متزوج، أو تعرضها للخطف على يد مثيري الفوضى، أو العثور عليها ميتةً في حقيبة سفر موشاة بنقوشٍ مربعة في غرفة الأمتعة. الجنس أو الموت، أو كلاهما – هذا جلُّ ما كانوا يسعون إليه.

ريتشارد قال إنّ علينا التزام الكياسة والتهذيب مع الصحفيين، وفي ذات الوقت علينا أن نبقى متحفظين. أخبرني ألا داعي لاستفزاز الصحف واستعدائها، فالصحفيون طفيليات حقودة تحمل الضغينة في قلبها لأعوام وستنتقم منك لاحقاً، في غفلةٍ منك. أخبرني أنه سيتولى الأمور.

نشر أولاً إشاعة عني، أني على وشك الانهيار، وطلب من الجميع احترام خصوصيتي والوضع الواهن لصحتي؛ مما دفع بالصحفيين إلى التراجع بعض الشيء. فقد افترضوا بالطبع أني حامل، آنذاك كان الحمل يُعتدّ به حدثاً مهماً، ورأى الناس فيه سبباً وراء التشوّش في عقل المرأة. من بعدها حرص على أن يعلم الجميع بعرضه مكافأة مالية لمن يدلي بأي معلومات، وإن لم يحدّد المبلغ. وفي اليوم الثامن وصلنا اتصال من مجهول: لورا ليست ميتة، بل تعمل في كشك لبيع الوافل في حديقة ملاهي سَني سايد[132]. المتصل ادعى أنه تعرف عليها من أوصافها المعروضة في كل الصحف.

تقرر أن أذهب وريتشارد بالسيارة إلى الحديقة لاستعادتها. وينيفريد أشارت إلى أن لورا كانت على الأغلب في حال صدمة متأخرة بعد وفاة أبي المفاجئة بتلك الطريقة وعثورها على الجثة. أي شخصٍ في مكانها كان سيضطرب بعد محنةٍ كهذه، ولورا في طبيعتها فتاةٌ عصبية قلقة. فهي على الأرجح بالكاد كانت تعي ما تقول وتفعل. ما إن نحضرها إلى البيت، فعلينا أن نحقنها بمسكن قوي ونحملها إلى الطبيب.

(132) سني سايد – Sunnyside: الجانب المشرق، وتعود المتلازمة اللفظية إلى أغنية أمريكية الزم الجانب المشرق – Keep on the Sunny Side كتبت عام 1899 وتقول في مذهبها: هناك جانبٌ مظلم ومقلق للحياة، بيد أن هناك جانبٌ مشرقٌ لها، لذا الزم دائماً الجانب المشرق من الحياة.

لكن أهم شيء، كما قالت وينيفريد، ألا تتسرّب كلمة واحدة مما حدث خارج البيت. فتاةٌ في الخامسة عشرة تفر من البيت بتلك الطريقة – سينعكس بشكلٍ سيء على صورة العائلة. فالناس قد تظن أنها تعرضت لسوء معاملة، ومن شأن أمرٍ كهذا أن يغدو عائقاً حقيقياً؛ ما كانت تعنيه، عائقاً أمام مستقبل ريتشارد السياسي.

حديقة ملاهي سني سايد آنذاك كانت وجهة الناس في الصيف. كل الناس عدا نوعية ريتشارد ووينيفريد – فالملاهي في نظرهم فظّة ومتعرّقة. دوّامة الخيل، النقانق، البيرة، أروقة الرمي، مسابقات الجمال، السباحة العمومية: أي باختصار، إلهاءٌ سوقيّ للعوام. ريتشارد ووينيفريد ما كانا ليرغبا في وجودهما على مقربة شديدة من آباط الآخرين، أو من أولئك الذين يحسبون نقودهم بالسنت. أقول هذا عنهما ولا أدري لماذا أتصرف وكأني التقيّة بينهما، فأنا الأخرى ما كنت لأرغب بشيءٍ كهذا.

كل ما في سَني سايد الآن قد ذهب مع الريح – اكتسحها طريقٌ سريع مسفلت من اثنتي عشرة حارة في عقد الخمسينيات. الملاهي تفككت كما تفكك كثيرٌ غيرها. لكن في شهر أغسطس من ذاك العام، كانت الملاهي في أوج ذروتها. كنا قد توجهنا هناك بسيارة ريتشارد الكوبيه، لكن كان علينا تركها على مسافةٍ بعيدة بسبب الازدحام، بسبب الحشود المتدافعة على الأرصفة والطرق المغبرة.

كان يوماً كريهاً، حاراً وضبابيًّا، أحرَّ من مفاصل جهنم، كما يصف والتر أياماً كتلك. كان هناك ضبابٌ خفي يعلو شاطئ البحيرة، خَفيّ لكن محسوس، ضبابٌ من العطر البائت والزّيت المتصاعد عن الأكتاف العارية المسفوعة، ممزوج بالأبخرة المتصاعدة عن أكشاك السجق والرائحة النفاذة لغزل البنات. السّير اتجاه الحشود بدا مثل الغرق في قدر اليخنة – تغدين مكوّنًا من مكوّنات القِدر، تكتسيك نكهةٌ مميزة. حتى جبهة ريتشارد أضحت رطبة من أسفل حافة قبّعته البانامية.

من الأعلى دوى الصّريف الحاد لاحتكاك المعدن بالمعدن، القعقعة المنذرة بالشؤم، الكورال الموسيقي لصيحات النساء: الأفعوانية. لم يكن قد سبق لي ركوب أفعوانية من قبل، فمي ظل فاغراً إلى أن نبهني ريتشارد، "أغلقي فمك حبيبتي، ستلتقطين

الذباب". كنت قد سمعت لاحقاً قصةً غريبة – ممّن؟ وينيفريد بالتأكيد؛ فقد كانت تهوى سرد قصص كهذه كي ترينا أنها تعرف ما يجري حقاً في العالم الحقيقي، العالم الفقير، خلف الكواليس. القصة هي أن الفتيات متى ما ورطن أنفسهن في مصيبة – مصطلح وينيفريد، وكأن الفتيات قد تدبرن إيقاع أنفسهن في المصيبة دون مساعدة من أحد – فتلك الفتيات المكروبات يصعدن الأفعوانية في سَني سايد على أمل أن يحفزن الإجهاض. وينيفريد ضحكت: بالتأكيد لن ينفع، وإن كان ينفع فكيف كن سيتصرفن؟ أعني مع كل تلك الدماء؟ تنسكب في الهواء هكذا؟ تخيلي!

ما تخيلته لدى سماعي القصة من وينيفريد هي تلك القصاصات الحمراء الطويلة التي يرمون بها عن متن بواخر المحيط لحظة الإبحار، تتشلشل على رؤوس المتفرجين في الأسفل؛ أو سلسلة خيوطٍ، حمراء غليظة، تندفع كلفائف الورق عن الأفعوانية، من أجساد الفتيات، كما الطلاء يرمى من الدلو، مثل خربشةٍ طويلة من السحاب القرمزي، مثل الكتابة على السماء.

ويخطر لي الآن: إن كانت حقاً كتابة، فيا ترى ستصنف تحت أي نوعٍ أدبي: المذكرات، الروايات، السير الذاتية؟ أو ستصنف بكل بساطة على أنها فن غرافيتي: ماري أحبت جون. لكن جون لا يحب ماري، ليس كفايةً. ليس بالقدر الكافي كي ينقذها من تفريغ جسدها بهذه الطريقة، بالخربشة على أجساد الجميع، في حروفٍ حمراء كالدم.

قصةٌ قديمة قدم الدهر.

لكن في ذاك اليوم من أغسطس عام 1935 لم أكن قد سمعت بعد بالإجهاض. وإن قيلت الكلمة في وجودي، وهو ما لم يحدث، لما كنت قد أدركت معناها على الإطلاق. ولا حتى ريناي ذكرتها: أقرب ما فعلته في ذكر الموضوع إلقاءها التلميحات المظلمة عن جزّاري طاولات المطابخ، أنا ولورا، حين كنا نتنصّت عليها مختبئتين على السلم الخلفي – ظنناها تتحدث عن آكلي لحوم البشر، وهو ما رأيناه مثيراً للاهتمام.

الأفعوانية صاحت ملء رئتيها، أروقة الرمي تفقّعت مثل الفشار. ضحكات الناس

تصدح في الأجواء. وجدت نفسي جائعة، لكن ما كنت لأقترح تناول أي طعام: لما كان طلباً لائقاً آنذاك، ونوعية الأطعمة هناك جدّ رديئة. ريتشارد كان مكفهراً كما القدَر؛ طوال مسيرنا كان يمسك بي من مرفقي، يقودني عبر الحشود. يده الأخرى كانت في جيبه إذ قال لي: "المكان ولا بد يعج بالنشّالين".

كنا قد وصلنا إلى كشك الوافل. لم نر لورا، لكن ريتشارد لم يرغب في الحديث معها أولاً. هو أدرى من أن يفعل شيئاً كهذا. كان يعتمد أسلوب الإصلاح من الرأس ونزولاً، متى ما أمكن. لذا طلب التحادث على انفراد مع صاحب كشك الوافل، كان رجلاً أسمر بذقنٍ ضخم ينضح برائحة الزبد البائت. ما إن وقعت عينا الرجل على ريتشارد عرف لحظتها سبب قدومه. غادر كشكه، يختلس نظرةً للخلف من فوق كتفيه.

سأل ريتشارد صاحب الكشك إن كان على علم أنه يؤوي فتاةً قاصرًا فارة من بيتها؟ فأجابه الرجل مذعوراً: يشهد الرب أني لم أعرف. لورا هي من أتت إليه – مدّعيةً أنها في التاسعة عشر من عمرها. بيد أنها كانت عاملة مجتهدة، تجدّ في العمل كما الحصان، حافظت على نظافة الكشك، قدّمَت يد العون في إعداد الوافل ساعة الازدحام. وأين كانت تقضي ليلتها؟ الرجل كان مبهماً في إجابته. أحدهم هنا أمّن لها سريراً، لم يكن هو ذاك الشخص. ولم تقع أي أمور مريبة للفتاة، على الأقل لا أمور هو على دراية بها، لم يكن لدينا من خيار سوى الأخذ بكلمته. كانت فتاةً طيّبة وهو رجلٌ متزوج سعيد، على خلاف حال بعض الرجال هنا. كان قد أشفق عليها – إذ اعتقد أنها في ورطةٍ ما. كان حنوناً اتجاه الفتيات اللطيفات من عمرها. وفي واقع الأمر، هو من أجرى الاتصال، وليس فقط لأجل المكافأة؛ بل لأنه أدرك أنها ستكون أفضل حالاً متى ما عادت إلى أحضان عائلتها، أليس كذلك؟

رمق الرجل ريتشارد بنظرة من يتوقّع مكافأته. الأيدي تبادلت المال، رغم أني أظنه قد توقّع مبلغاً أكبر. ثم ذهب واستدعى لورا. لم تعترض. ألقت نظرة واحدة علينا وقررت ألا تفعل شيئاً. صافحت صاحب الكشك قائلةً، "على أي حال، شكراً لك على كل شيء". غير مدركة أنه التو قد كسب مالاً من ورائها.

سارت بيننا. كلانا، أنا وريتشارد، يمسك بمرفقٍ من مرفقيها؛ وغادرنا ملاهي سَني سايد. شعرتُ كأني خائنة. ريتشارد أدخلها السيارة، أجلسها بيننا. طوّقتُ كتفها بذراعي. كنت غاضبة منها، لكني عرفت أن عليّ أن أطمئنها. كانت تفوح منها روائح الفانيلا، شراب الفاكهة الحلو، والشعر غير المغسول.

ما إن أحضرناها إلى البيت، استدعى ريتشارد السيدة مرغترويد وأمرها بإحضار كأس شايٍ مثلج إلى لورا. بيد أنها لم تشربه؛ اكتفت بالجلوس في منتصف الأريكة، ركبتاها متلاصقتان، متجهمة، قاسية الملامح، عيناها كما الصخر الأردوازي.

ألديها أي فكرة عن القلق والجلبة التي تسببت بها؟ سألها ريتشارد. كلا. هل اكترثت البتة؟ لا إجابة منها. بالتأكيد تمنى عليها ألا تكرر تلك الفعلة مرةً أخرى. لا إجابة منها. لأنه الآن في محل والدها، ويحمل مسؤولية اتجاهها، أياً كان ما سيكلفه تحمّل مسؤوليتها. وبما أن لا شيء في هذا الدنيا يسير في اتجاهٍ واحد، فقد توقع منها في المقابل أن تدرك مسؤوليتها اتجاهه – اتجاهنا. مضيفاً لحظتها – مسؤولية التزام حسن التصرّف، تنفيذ ما تؤمر به، ضمن المنطق. هل فهمت ما قاله التو؟

"نعم،" أجابته لورا،" أفهم تماماً ما تعنيه".

"أرجو ذلك، أرجو أنّك تعِين حقاً ما قلت أيتها السيدة الصغيرة".

وصْفه لها بالسيدة الصغيرة أقلقني. فقد قالها في نبرة توبيخ، وكأن هناك ما يعيب كَون المرأة صغيرة، وفي كونها سيدة. إن كان هذا حقاً ما يراه، فالتوبيخ يشملني، "وما الذي أكلته هناك؟" سألتها من باب الإلهاء.

أجابتني لورا، "حلوى التفاح، والدونات من داوني فليك دونات، كانت أرخص في اليوم التالي. الناس هناك كانوا حقاً لطفاء معي. ونقانق".

"أوه عزيزتي" قلت لها مع ابتسامةٍ واهنة ومستهجنة اتجاه ريتشارد.

"هذا ما يتناوله الناس الآخرون،" قالت لورا، "في العالم الحقيقي". وهنا بدأتُ أعي، قليلاً، ما وجدَته لورا جاذباً في سَني سايد. الناس الآخرون – أولئك الناس الذين كانوا وسيظلون دائماً الآخر في عيني لورا. كم كانت تتوق إلى خدمتهم، الناس الآخرون. كانت تتوق، بطريقةٍ ما، إلى الانضمام إليهم. لكنها ما كانت لتنجح في ذلك

أبداً. هي حاولت إحياء تجربتها في مطبخ الحساء في بورت تيكونديروغا من جديد.

"لِمَ فعلت ذلك لورا؟" سألتها ما إن تمكنت من الانفراد بها. ما كان من داعٍ لأسالها كيف فعلتها؟ فالسؤال إجابته بسيطة: نزلت عن القطار في محطة لندن وبدلت تذكرتها بتذكرة قطارٍ لاحق. على الأقل لم تذهب إلى مدينةٍ أخرى: ربما ما كنا لنجدها أبداً.

"ريتشارد قتل أبي. فكيف لي أن أعيش في بيته. وجودي سيكون خطيئة".

"من الظلم أن تقولي ذلك. فأبي مات جراء تعرضه لسلسلة أحداثٍ مؤسفة".

خجلت من نفسي لقولي هذا: بدا كلاماً قد يقوله ريتشارد.

"ربما من الظلم أن أذكر ذلك، لكن تبقى هي الحقيقة. في عمق كل ما جرى، تلك هي الحقيقة. وعلى أي حال، كنت في حاجة إلى وظيفة"

"لكن لماذا؟"

"كي أثبت للجميع أني وأنت – كي أثبت أني أستطيع. أني، أننا، لا حاجة بنا إلى ..".

أشاحت بوجهها عني، وأخذت تقضم إصبعها.

"في حاجةٍ إلى ماذا؟"

"أنت تدرين. كل هذا!" لوحت بيدها مشيرةً إلى طاولة التبرج المزركشة، الستائر الموشاة بنقوش الزهور المطابقة لها. " توجهت إلى الراهبات أولاً. ذهبت إلى دير نجمة البحر".

يا إلهي، قلت في نفسي، ليس موضوع الراهبات مرةً أخرى. ظننت أننا قد أغلقنا الباب عليهن. "وما الذي قلنه لك؟" سألتها في نبرةٍ لطيفة لا مبالية.

"ما كان لينفع. كن لطيفات جداً معي. لكنهن رفضن طلبي الالتحاق بهن. ليس فقط لأني لست بكاثوليكية، بل أخبرنني أن لا نداء لدي ألبيه، ما أردته حقاً هو تفادي واجباتي. أخبرنني أني إن أردت فعلاً خدمة الرب، فعليّ أن أفعل ذلك في الحياة التي اختارها لي". صمتت لوهلة ثم صاحت، "لكن أي حياة؟ فلا حياة لي!"

بدأت تجهش في البكاء، فطوقتها بذراعيّ، هي ذاتها البادرة البالية مذ كانت طفلةً

صغيرة. كفي عن العواء. ولو كان في يدي قطعة سكر سمراء لمنحتها اياها، لكننا تجاوزنا مرحلة السكر الأسمر. قطع السكر ما عادت تحمل لنا السلوان.

"كيف لي أن أخرج من هنا؟ قبل فوات الأوان؟" سألتني في غمرة عويلها. على الأقل كانت تتحلى بالبصيرة كي تذعر؛ تحلت بمنطقٍ يفوق ما كان لدي. لكني ظننتها ترهات درامية لمراهقة. "قبل فوات الأوان على ماذا؟" سألتها بحنان. نفسٌ عميق، كل ما كنا نحتاجه هو نفسٌ عميق؛ فرصةٌ للهدوء والتقاط الأنفاس، فرصةٌ للتقييم، ما كان هناك من داعٍ للذعر.

ظننتني قادرة على التكيف مع ريتشارد، مع وينيفريد. ظننتني قادرة على مواصلة حياتي كما الفأر في قلعة النمور، بالانسلال خلسةً بين الجدران؛ بالتزام الصمت؛ بإبقاء رأسي منكساً وعينَيّ في الأرض. لا، أنا أعزو إلى نفسي فضلاً لا أستحقه. فأنا لم أر حينها أي خطرٍ على الإطلاق. لم أكن أدرك حتى أنهما نمران. والأسوأ: لم أدرك أنِّي قد أضحو نمراً. لم أدرك أن لورا قد تضحي نمراً، متى ما تسنت لها الظروف. أظن أي شخصٍ بيده أن يضحي نمراً، متى ما اضطر.

"انظري إلى الجانب المشرق". قلت لها في نبرةٍ مواسية علّي أهدئ من روعها. ربتُّ على ظهرها. "سأحضر لك كوباً من الحليب الدافئ ومن بعدها سأتركك تخلدين في نومٍ عميق. وغداً سيتحسن شعورك". لكنها بكت وبكت، وما كان لأي شيءٍ أن يواسيها.

زانادو

ليلة البارحة حلمت أني أرتدي زي التنكر من حفلة زانادو الراقصة. كان يفترض بي أن أكون عذراء حبشية – أميرة تعزف آلة القانون. كان من الساتان الأخضر، ذاك الزي: سترة بوليرو مع زركشة من الترتر الذهبي اللماع، يكشف عن شق النهدين وأوسط الجذع؛ مع سروالٍ داخلي قصير من الساتان الأخضر، وبنطال شفّاني. الكثير من القطع النقدية الذهبية الزائفة، تُرتدى كقلائد وتطوّق الجبهة. عمامةٌ صغيرة أنيقة مع بروشٍ هلاليّ، ونقاب. مفهوم مصمم أزياء سيرك عن الشرق.

قلت في نفسي كم أبدو رائعةً فيه، إلى أن أدركت، بالنظر إلى بطني المتدلي، مفاصل أصابع يدي الزرقاء المتضخمة، ذراعيّ الذابلتين، أني لا أرتديه في عمري الذي ارتديته فيه أول مرة، بل في عمري اليوم.

بيد أني لم أكن في الحفلة الراقصة. بل كنت وحدي، أو هكذا بدا لي، في الدفيئة الزجاجية الخربة في آفيليون. الأصائص الفخارية الخالية كانت منثورة هنا وهناك؛ وأصائص أخرى، ليست بخالية، كانت ملأى بالتراب الجاف والنباتات الميتة. أحد تمثالي أبي الهول كان ملقىً على الأرض، مرمياً على جانبه، مشوّهًا بالقلم السحري – أسماء، أحرف أولى، رسوم بذيئة. كان هناك ثقبٌ في السقف الزجاجي. المكان منتن برائحة القطط.

البيت خلفي كان مظلماً، مهجوراً، كل من فيه قد رحلوا، ذهبوا وخلفوني وراءهم هنا وحيدةً في هذا الزي السخيف. كان ليلاً، وصورة القمر كما الأظفر. تحت ضوئه كان بوسعي أن أرى نبتةً وحيدة لا تزال بعد على قيد الحياة: شجيرة لامعة، مع وردةٍ

بيضاء واحدة. همست منادية لورا. ومن خلف الظلال، رجلٌ أخذ يضحك.
قد تقولين في نفسك، ليس بالكابوس المرعب. انتظري حتى تراودك كوابيس كهذه.
أفقت مفجوعةً من منامي.
لم العقل يفعل بنا أمورًا كهذه؟ ينقلب ضدنا، يمزقنا، ينشب مخالبه فينا. يقولون إن جعت حدَّ الفاقة، فستنتزع قلبك وتلتهمه. أظن هذا ما يحصل للعقل.
لا، تلك مجرد تفاهات. المسألة كيميائية بحتة. عليّ أن آخذ الخطوة المناسبة لحلها، فيما يخص تلك الأحلام. لا بد وأن هناك من حبة دواء.
المزيد من الثلوج هطلت اليوم. مجرد النظر إليها خارج النافذة يؤلم أصابعي. أكتب على طاولة المطبخ، ببطء شديد وكأني أنقش في الحجر. القلم ثقيل، يصعب عليّ دفعه، وكأنه مسمارٌ أخربش به على لوحٍ من الإسمنت.

خريف عام 1935. موجة الحر تراجعت، وموجة البرد تقدمت. الصقيع بدأ يكسو الأوراق المتساقطة، ثم الأوراق التي لا تزال على أغصانها عالقة. ثم أخذ يكسو النوافذ. كنت أستمتع كثيراً بتأمل تلك التفاصيل. كنت أهوى استنشاقها. فالمساحة في رئتي كانت كلها ملكي.
في غضون ذلك، الحياة استمرت.
ما أسمته وينيفريد "مغامرة لورا الطائشة" قد عُتِّمَ عليها بأقصى درجةٍ ممكنة. ريتشارد حذر لورا من مغبة الحديث في الموضوع مع أي شخصٍ آخر، خصوصاً في مدرستها، وأنها إن فعلت فسيعرف بفعلتها لا محالة وسيرى الأمر إهانة مباشرة له، ومحاولة تخريبٍ منها. كان قد رتب الأمور مع الصحافة: تم تأمين حجة غياب من قبل الزوجين نيوتن دوبز – صديقاه من علية القوم – السيد دوبز كان يحتل منصباً عالياً في إحدى شركات السكك الحديدية – والذي كان مستعداً للإدلاء بقسمه أن لورا كانت في صحبته وزوجته في مقر إقامتهما في موسكوكا طوال فترة غيابها. الطرفان كانا قد أعدا ترتيب الإجازة في اللحظة الأخيرة، لورا ظنت أن الزوجين نيوتن دوبز قد اتصلا بنا، والزوجان نيوتن دوبز ظنا أن لورا اتصلت بنا،

لذا فالمسألة برمتها لا تعدو كونها سوء تفاهم، ولم يدركا أن لورا اعتُبرت مفقودة لأنهما وقت الإجازة لا يطّلعان أبداً على الصحف.
بدت القصة محتملة. بيد أن الناس صدقتها، أو ادعوا تصديقها. أظن أنَّ الزوجين نيوتن دوبز أخذا ينشران القصة الحقيقية في الحلقة الضيقة لأصدقائهما العشرين، اكتم على الخبر، بيني وبينك فقط، وهو ما كانت وينيفريد ستفعله بكل تأكيد في مكانهما، فالنميمة مثلها مثل أي بضاعة. لكن على الأقل، القصة لم تبلغ الصحف أبداً.

أما لورا، فأجبروها على ارتداء التنورة الكَلتيّة المثيرة للحكة وربطة العنق البليدية وبعثوا بها إلى مدرسة القديسة سيسيليا. لم تُخفِ بغضها للمدرسة. أخبرتني ألا داعيَ لذهابها إلى هناك؛ بما أنها تمكّنت من الحصول على وظيفة، فبيدها الحصول على أخرى. كانت تقول لي كل تلك الأشياء في وجود ريتشارد. لكنها ما كانت لتوجه حديثها مباشرةً إليه.
كانت تقضم أصابعها، ما كانت تأكل كفاية، باتت هزيلة جداً. غدوت قلقة جداً عليها، كما كان متوقعاً مني، وهو من باب الحق، ما كان ينبغي عليّ. لكن ريتشارد رد عليها قائلاً إنه سئم من ترهاتها الهستيرية، وفيما يخص الوظيفة، فلا يريد الاستماع إلى كلمةٍ زائدة في الموضوع. لورا كانت يافعة جداً للاعتماد على نفسها؛ لكانت تورطت في أمور بغيضة لا أخلاقية، لأن الغابات ملأى بالرجال الكامنين للانقضاض على فتياتٍ سخيفاتٍ مثلها. إن لم تكن راضية عن مدرستها، سينقلها إلى مدرسةٍ أخرى، بعيداً جداً، في مدينةٍ أخرى، وإن هربت من تلك المدرسة فسيودعها في **بيت الفتيات الجانحات** مع كل تلك الأخريات المنحرفات، وإن لم ينفع معها الأمر، فهناك دائماً العيادة. عيادة خاصة، مع قضبان على نوافذها: إن كانت تهوى السخام وارتداء المِسْح[133] فستجد ضالتها هناك. هي قاصر، وهو صاحب السلطة، فإياها وأن تنسى ذلك، وهو مستعدٌ لتنفيذ وعيده هذا. وكما

(133) المِسْح: كساءٌ من وبر الإبل يلبس حداداً أو ندماً.

كانت تعرف، والجميع يعرف، فريتشارد رجلٌ يفي بكلمته.

اعتادت عيناه أن تجحظا كلما غضب، وكانتا تجحظان حينها، لكن نبرة حديثه كانت هادئة قابلة للتصديق، ولورا صدقته، وانتابتها الرهبة منه. حاولتُ التدخل بينهما – أخبرته أن تلك التهديدات جد قاسية، فهو لا يفهم طبيعة لورا وكيف لها أن تأخذ الأمور بحرفيتها – لكنه أمرني بالبقاء خارج الموضوع، قائلاً إنَّ ما تحتاج إليه لورا هي يدٌ صارمة. فقد تدللت بما فيه الكفاية. وآن الأوان كي يقوى عصبها.

على مر الأسابيع، تدبرت إبقاء حال الهدنة المتقلقلة بينهما. حاولت ترتيب الأمور في البيت بحيث لا يتصادم الاثنان. سفينتان في عتمة الليل، هذا ما كنت آمله.

وينيفريد بالطبع كانت قد دست أنفها في الموضوع. لا بد وأنها من أخبر ريتشارد بضرورة أخذ موقفٍ حازم، لأن لورا كانت من نوعية الفتيات اللواتي يعضضن اليد التي تطعمهن ما لم يُشكمن بالقيد والرسن.

ريتشارد كان يستشير وينيفريد في كل شؤون حياته، لأنها تتعاطف معه، تشجعه وتشد من أزره. هي من دفعت به للارتقاء على السلم الاجتماعي، وهي من روجت لمصالحه في الدوائر المناسبة من وجهة نظرها. ومتى سيترشح لعضوية البرلمان؟ ليس بعد، تهمس بجوابها في أي أذنٍ تنحني لها – الوقت المناسب لم يزف بعد – لكن قريباً. كلاهما كان قد قرر أن ريتشارد هو رجل المستقبل، وأن المرأة التي تقف وراءه – أَوَليس وراء كل رجلٍ عظيمٍ امرأة – ما هي إلا وينيفريد.

فبالتأكيد تلك المرأة لم تكن أنا. فالاختلاف بين موقعينا في حياة ريتشارد كان قد أصبح جلياً الآن ولطالما كان جلياً لها، لكنه بات مع الأيام جلياً لي. وجودها في حياة ريتشارد ضرورة، أما أنا في الجهة الأخرى فقابلة للاستبدال. دوري في حياته اقتصر على فشخ ساقيّ وإغلاق فمي.

إن بدا وصفي قاسياً، فلأنها الحقيقة. لكن تلك كانت طبيعة الحال في تلك الأيام. وينيفريد رأت أن عليها إبقائي مشغولةً في ساعات النهار: لم ترغب في رؤيتي أتخبط من الملل، لم ترغب في رؤيتي أفقد عقلي. لذا كرست وقتها في إعداد مهام تافهة لي كي

أؤديها، ثم تعيد ترتيب وقتي ومكاني كي أتفرغ لأداء تلك المهام. لم تتطلب تلك المهام أي دقة في التنفيذ، لأنها ما فتأت تخبر الجميع برأيها عني، أني لست سوى أرنبٍ غبي، وبدوري حرصت ألا أفعل أي شيء قد يناقض رأيها ذاك عني.

وهنا يأتي الحفل الخيري الراقص لصالح دعم **حضانة مركز المدينة للأطفال اللقطاء**، وكانت وينيفريد المنظمة الرئيسية للحدث. كانت قد وضعت اسمي ضمن لجنة المنظمين، ليس فقط من باب إشغالي بالوثب هنا وهناك، بل لأن وجود اسمي في اللجنة سينعكس إيجابياً على ريتشارد. أما بالنسبة لها، فوجودي ضمن "المنظمين" لا يعدو كونه مزحة، فهي لا تراني قادرة أصلاً على ربط شريط حذائي، فما المهمة الوضيعة التي كان لها أن توليني إيّاها؟ توجيه الدعوات. ذاك كان قرارها، وكانت مصيبةً فيه، فقد كان بوسعي تنفيذ تلك المهمة، بل وأجدتها. لم تتطلب مني أي تفكير، لذا تسنى لي أن أستغل قدرتي العقلية في أمرٍ آخر. كان لي أن أتصورها تقول لصديقاتها من أمثال بيلي وتشارلي على طاولة البريدج شكراً للرب أنها تملك موهبة واحدة. أوه نسيت - موهبتين! فينفجرن ضحكاً.

حضانة وسط المدينة للأطفال اللقطاء، المؤسسة الداعمة لأطفال أحياء الفقراء، كان أفضل خيارٍ أخذته وينيفريد، أو على الأقل اختيارها لثيمة الحفل الخيري. فقد تقرر أن يكون حفلاً تنكرياً - الموضة التي راجت مؤخراً في الحفلات، لأن الناس في ذاك الوقت قد تولعوا بالأزياء التنكرية. أحبوا ارتداءها بقدر ما أحبوا ارتداء أزيائهم الرسمية. ربما لأن كلا الزيّين حققا ذات الغاية: تفادي من تكون عليه حقاً، والادعاء بأنك شخص آخر. لك أن تبدو أضخم وأكثر قوة، أو أكثر غموضاً وفتنة، متى ما ارتديت تلك الأزياء الغريبة المثيرة. حسنٌ، هناك شيءٌ من الصحة في ذلك.

وينيفريد كانت قد خصصت لجنة لتنظيم أمور الحفل، لكن الجميع كان على علم بأنها هي من تتخذ كل القرارات المهمة بنفسها ودون العودة لأحد، هي من أمسكت بالحلقات، والآخرون قفزوا فيها. هي من اختارت ثيمة الحفل لعام 1936 - "زانادو". فثيمة حفل **الفنون المعمارية** المنافس لحفلها كان "تيمورلنك في سمرقند"، وقد نال الحفل نجاحاً باهراً. فالمواضيع الاستشراقية دائماً تُصيب ولا تخيّب الرجاء، ومن

المؤكد أن الكل قد حفظ في المدرسة قصيدة "كوبلا خان"، حتى المحامين والأطباء – حتى رجال المصارف كانوا سيعرفون ما هي "زانادو". وبطبيعة الحال زوجاتهم.

في زانادو شيّد كوبلا خان قبّةَ بهجةٍ جليلة
حيث النهر المقدَّس ألِف
يتدفق في كهوف ما سبرها رجلٌ قط
فينصب في مياه اليم الحالكة العميقة.

وينيفريد كانت قد أعدت نسخاً مطبوعة للقصيدة بالكامل ووزعتها على أعضاء لجنتنا – كي نستوحي الأفكار منها– وأنها ترحب بأي اقتراحٍ لدينا، رغم علمنا جميعاً أنها قد خططت للحفل بأسره مقدماً. القصيدة كانت ستطبع كذلك على الدعوات المنقوشة – بأحرف ذهبية مع إطارٍ لازوردي ذهبي من الكتابة العربية. وهل سيفهم أيٌّ من الضيوف ما المكتوب بالعربية؟ لا، لكنها بدت جميلة.

حضور تلك الحفلات ما كان يتأتى إلا بدعوةٍ رسمية. تستلم دعوتك وتدفع دم قلبك، لكن حلقة المدعوّين لطالما كانت ضيقة. الكل كان يرتقب بقلق ورود اسمه على القائمة، ليس الكل، فقط من ساورهم الشك في موقعهم الاجتماعي. فتوقع ورود اسمك على القائمة ثمّ عدم حصولك عليها كانت تعد دلالة على تطهيرِ مستقبلي. أتوقع أن دموعاً كثيرة قد انهمرت على أمور كهذه، لكن في الخفاء – ففي ذاك العالم عليك ألا تبدي اهتمامًا على الإطلاق.

الجمال الكامن في "زانادو" كما قالت وينيفريد بعد إلقائها القصيدة علينا بصوتها الويسكيّ – أعترف بأنها ألقتها بإبداع – الجمال فيها أن مع ثيمةٍ كهذه يتسنى لك أن تختاري ما ترغبين بارتدائه: إما زياً ساتراً أو كاشفاً. البدينة لها أن تلف جسدها بأردية البروكاد المترفة، والهيفاء لها أن تتنكر كجارية أو راقصة فارسية وتكشف عن كل شيء ما عدا "مغسلة المطبخ". تنانير شفافة، أساور، خلاخل لامعة – الخيارات لا حدَّ لها، أما الرجال فبالطبع سيرتدون زيهم المفضل، زي

الباشا، ويتظاهرون بامتلاكهم الحرملك. بيد أنها شكّت إن كان بوسعها إقناع أي من الرجال بلعب دور الخصيّ، أردفت قائلةً على مسامع عضوات اللجنة اللواتي رددن عليها بضحكاتهن المُهْلسة.

لورا كانت يافعة جداً على حضور حفلٍ كهذا. وينيفريد كانت قد بدأت التخطيط لحفلها الأول، طقس عبورها الاجتماعي، لكن قبل أن يأخذ حفل تعريفها مجراه، فلن تكون مؤهلة لحضور الحفلات. وعلى كلٍّ فقد أظهرت لورا اهتماماً شديداً في ترتيبات الحفل. اطمأن قلبي لرؤيتها تظهر اهتماماً في أمرٍ ما. فبالتأكيد لم تظهر أي اهتمامٍ في واجباتها المدرسية: درجاتها كانت في الحضيض.

تصحيح: لم تظهر اهتمامها في ترتيبات الحفل، بل في القصيدة. كنت أعرفها مسبقاً، من الآنسة فيولينس، من أيامنا في آفيليون، لكن لورا لم تبد أي اهتمامٍ بها آنذاك. والآن ما تنفك تقرأها المرة تلو الأخرى.

سألتني وما هو العشيق الشيطاني؟ ولمَ اليمّ حالك، ولمَ المحيط لا حياة فيه؟ ولم هناك كهوف جليدية في قبّة البهجة المشمسة؟ وما جبل أبورا، ولمَ العذراء الحبشية تتغنى فيها؟ ولمَ أصوات الأسلاف تنبئ بوقوع الحرب العظيمة؟

لم أعرف الإجابة على أسئلتها. لكني أعرفها الآن. لا أعني أجوبة ساموئيل تايلور كولريدج –لست متيقنة أن لديه ولو إجابة واحدة أصلاً فقد نظم القصيدة بأكملها منتشياً بالأفيون– لكنها أجوبتي أنا. وهأنذا أعرضها عليك بأفضل صورةٍ ممكنة:

النهر المقدس حيّ. يتدفق وينصب في محيطٍ غير ذي حياة لأن هذا مصير كل ما هو حي. العشيق عشيقٌ شيطاني لأنه غير موجود. قبة البهجة المشمسة فيها كهوف جليدية لأن تلك الكهوف هي جوهرها الحقيقي –بعد فترة ستغدو باردة جداً، وبعد ذلك تذوب، وما سيحلُّ بك بعدها؟ غارقة في مائك. جبل أبورا هو موطن العذراء الحبشية، وكانت تتغنى فيه لأنها لن تعود إليه أبدا. أصوات الأسلاف تنذر بالحرب العظيمة لأن أصوات الأسلاف لا تخرس أبدا، والأسلاف يكرهون كونهم على خطأ، والحرب قادمة لا محالة، عاجلاً أم آجلاً.

صحّحي تأويلي إن كنت مخطئة.

تساقط الثلج، في البدء تساقط خفيفاً، ثم انهمر قذائفَ متجمدة تلسع الجلد كما وخز الإبر. الشمس أخذت تأفل بعد الظهيرة، السماء بدّلت لون كسائها من الأحمر الباهت إلى اللون القشدي. الدخان أخذ يتصاعد كثيفاً من المداخن، من الأفران الموقدة بالفحم. أحصنة عربات الخبز خلفت وراءها كعكاتها البنية الحارة على الشوارع والتي سرعان ما ستتجمد. الأطفال اعتادوا رميها بعضهم على بعض. الساعات دقت معلنةً حلول منتصف الليل، ليلةً تلو ليلة، كل منتصف ليل قبةٌ زرقاء غامقة مخرّمة بالنجوم، قمرها أبيضٌ عاجي. كنت أطل من نافذة غرفة النوم، أتأمل الرصيف، عبر أغصان شجرة الكستناء. ثم أطفئ الأنوار.

كان مقرراً أن يعقد حفل "زانادو" ليلة السبت الثاني من شهر يناير. الزي الذي اخترته كان قد وصلني ذاك النهار، في صندوقٍ مليءٍ بالمناديل الورقية. التصرف الذكي آنذاك كان استئجار الزي التنكري من مالابار، فتصميم زيٍّ خاص بك كان دلالةً على مبالغتك في إظهار اهتمامك. كنت في غمرة ارتدائي الزيّ حين كادت الساعة السادسة أن تحل. لورا كانت في غرفتي: لطالما أدت وظائفها المدرسية عندي، أو بالأحرى تظاهرت بذلك. سألتني: "ومن يُفترض بك أن تكوني؟"

"العذراء الحبشية". لم أكن متأكدة ما الذي سأفعله بشأن القانون. ربما إن أحضرت بانجو وزينته بشرائط مزركشة. ثم تذكرت أن البانجو الوحيد المتوفر موجودٌ في آفيليون، في العلية، بقي هناك أثراً من حياة عمّيَّ الميتين. لا مناص من التخلي عن فكرة القانون.

لم أتوقع من لورا أن تقول لي "كم تبدين رائعة" أو حتى "جميلة". لم تقلها ولا مرةً واحدة في حياتها: "رائعة"، و"جميلة" ليست بالنعوت التي لها أي معنى لديها. هذه المرة قالت لي، "لا تبدين لي حبشية، فالحبشيات لسن شقراوات".

"شعري الأشقر ليس ذنبي. في الواقع الخطأ يقع على وينيفريد، كان يجدر بها أن تختار لي زياً من أزياء الفايكنغ أو ما شابه".

"ولمَ الجميع يخافون منه؟" سألتني لورا.

"يخافون ممّن؟" (فأنا لم أشعر بأي عاطفة خوفٍ في القصيدة، فقط البهجة. قبة

البهجة بكل ملذاتها، هناك حيث كنت أعيش الآن – حيث ذاتي الحقيقية أخذت تتجلى، مجهولةً لأعين كل من حولي، مسوّرة بالأبراج من كل الجهات كي لا يتسنى لأحدٍ الدخول فيها غيري).

"اسمعي". وألقت على مسامعي القصيدة، عيناها كانتا مغلقتين:

أميرةٌ مع قانون
في رؤيا أبصرتها ذات يوم:
كانت عذراء حبشية،
وعلى قانونها راحت تعزف أغنية،
تتغنى في جبل أبورا.
هل لي أن أبعث من جديد،
لحنها وأغنيتها،
كي تبتهج بها روحي،
فأشيّد على وقع لحنها الصادح المديد
تلك القبة في الأعالي؟
تلك القبة المشمسة! تلك الكهوف من الجليد!
وكل من سمع لحنها سيراهما معاً،
والكل سيصرخ احذري! احذري!
عينيه المتقدتين، شعره الطليق!
طوّقيه ثلاثاً بدائرة،
وأغلقي عينيك في رهبةٍ مقدسة،
فهو قد طعِمَ من قطْرِ العسل
وارتوى من حليب الجنة.

"أرأيت؟ هم مذعورون منه. لكن لماذا؟ لماذا احذري؟"

"حقاً لورا لا فكرة لديّ. هي قصيدة وحسب. وليس بيدك دائماً أن تفهمي المغزى من القصائد. ربما ظنّوه مجنوناً".

"بل لأنه سعيد، سعيدٌ جداً". أجابتني لورا، "فقد ارتوى من حليب الجنة. والناس تذعر لدى رؤيتك منتشية بالسعادة. ألا ترين أن هذا هو السبب؟"

"لورا رجاءً كفي عن إزعاجي. وما أدراني، فأنا لست بأستاذ جامعي".

لورا كانت تجلس على الأرض، في تنورتها الكلتية. كانت تمصّ براجم أصابعها، تحدق بي خائبة الأمل. كنت قد خيبت أملها كثيراً في الآونة الأخيرة. ثم قالت لي، "لقد رأيت أليكس توماس قبل عدة أيام".

استدرت سريعاً صوب المرآة وعدلت وضعية النقاب على وجهي. كان النقاب من الساتان الأخضر ويفتقر إلى التأثير المطلوب: بدا وكأنه يعود إلى زي مصاصة دماء عالقة في الصحراء في فيلمٍ ما. كنت قد طمأنت نفسي أن أزياء الجميع ستبدو ضعيفة التنفيذ بطريقةٍ أو أخرى. "أليكس توماس؟ حقا؟" لم أبد متفاجئةً كما كان يجدر بي.

"إذن، ألست سعيدة؟"

"سعيدة بماذا؟"

"سعيدة لبقائه حياً. سعيدة أنهم لم يقبضوا عليه".

"بالطبع أنا سعيدة، لكن لا تخبري أحداً فقد يعودوا إلى مطاردته من جديد".

"لا حاجة بك كي تخبريني بذلك. فأنا لست طفلة. لذلك لم ألوّح له".

"وهل رآك؟"

"لا. كان يمشي في الشارع. ياقة معطفه كانت مرفوعة للأعلى والوشاح يغطي ذقنه، لكني عرفته. يداه كانتا في جيبيه".

لدى ذكرها اليدين في جيبيه، وقع قلبي. "وفي أي شارعٍ رأيته؟"

"في شارعنا. كان على الرصيف المقابل، يتأمل البيوت. أظنه يبحث عنا. لا بد وأنه قد عرف أننا نسكن في الجوار".

"لورا، ألا تزالين مولعة بأليكس توماس؟ لأنك إن كنت حقاً مولعة، فعليك أن

تحاولي تجاوز الأمر".

"لست مولعة به". أجابتني بازدراء، "لم أولع به يوماً. الولع كلمةٌ فظيعة. نتنة حقاً". كان ورعها قد قلّ منذ دخولها المدرسة، ولغتها أضحت أقوى. نتنة كانت مجرد البداية.

فقلت لها بحنان، "أيا كان ما تسمي به شعورك اتجاهه، فعليك أن تتخلي عنه. فمن المستحيل أن يتحقق. ولن يصيبك من ورائه سوى التعاسة".

ضمت لورا ركبيتها قائلةً، "التعاسة؟ بحق السماء، وما أدراك أنت بالتعاسة؟"

VIII

السفّاح الأعمى: قصصٌ مفترسة

عاد وانتقل مرةً أخرى، وخيرٌ له أنه فعل. فقد كرهت ذاك المكان عند التقاطع. لم يرُق لها الذهاب هناك. وعلى كل حال فالمكان كان بعيداً جداً، والبرد كان قارساً آنذاك: أسنانها تصطك كلّما ذهبت إليه. كانت تمقت تلك الغرفة الضيقة الكئيبة، ونتانة السجائر القديمة لأن مصراع النافذة عالق، ومقصورة الاستحمام الصغيرة القذرة في الزاوية، وتلك المرأة التي كانت ستصادفها على السلم – امرأة تبدو مثل فلاحةٍ مضطهدة في روايةٍ بالية، لكانت توقّعت رؤيتها يوماً تحمل حزمة عصيٍّ على ظهرها. النظرة الوقحة النكدة التي كانت ترمقها بها، وكأنها تتخيّل لحظتها ما سيقع خلف الباب ما إن يوصد. نظرة حسد، ونكاية أيضاً.

إلى نار جهنم بكل هذا.

الثلج قد ذاب، بيد أن لطخاتٍ رمادية منه لا تزال كامنة في الظلال. الشمس دافئة، والأجواء عبقة برائحة الأرض الرطبة والجذور المنبثقة وآثار صحف الشتاء الماضي المخضلة، مغبشة وغير مقروءة. الأقحوان بدأ يزهر في الأنحاء الأفضل من المدينة، وفي حدائق البيوت الأمامية، حيث لا ظلل، نبتت أزهار التوليب، حمراء وبرتقالية. بشارة أمل، كما وصفها كاتب عمود البستنة؛ بيد أن حتى آنذاك، في أواخر أبريل، كانت الثلوج قد هطلت بغزارة – رقائق بيضاء ضخمة موحلة، كانت عاصفةً ثلجية عجيبة.

كانت قد أخفت شعرها تحت الحجاب، ارتدت معطفاً كحلياً، أكثر معطفٍ رأته كئيباً، إذ أخبرها أنّه من الأفضل ألا ترتدي أي شيءٍ يلفت الانتباه. تلك الأنحاء

والزوايا تفوح برائحة القطط والقيء، بنتانة أقفاص الدجاج. غائط الأحصنة على مدى الشارع، من أحصنة خيّالة الشرطة المنتشرين هناك، ليس بصدد مراقبة اللصوص بل مراقبة المحرّضين - عشش الحُمر الأجانب، حيث يتهامسون كما الفئران في أكوام القش، كل ستةٍ منهم يتشاركون الرقود في فراشٍ واحد، يتبادلون نساءهم، يرقدون على مؤامراتهم الملتوية المعقدة في انتظار ساعة فقسها. يقال إنَّ إيما غولدمان، التي نُفيَت من الولايات المتحدة آنذاك، كانت تعيش في مكانٍ مجاور. دمٌ على الرصيف، رجلٌ يحمل دلواً وفرشاة. تطأ الرصيف بحذر محاولةً تفادي البركة الزهرية. شارع الجزارين اليهود؛ وكذلك الخياطين، بائعي الفراء بالجملة. ومحال السخرة ولا شك. صفوفٌ من المهاجرات أكتافهن محدودبة على الآلات، رئاتهن مشبعة بنسيل الكتان.

مرّةً قال لها، "الملابس التي على ظهرك هي مِن كدْحِ ظهرِ امرأةٍ أخرى". فأجابته باستخفاف: "أدري. لكني أبدو أجمل فيها". ثم أردفت غاضبةً، "وما الذي تتوقّعه منّيَ؟ ما الذي تتوقع مني فعله؟ أتظنني حقاً أملك أيّ سلطة؟"

تقف عند بقالة، تشتري ثلاث تفاحات. ليست بالتفاح الجيد، من الموسم الماضي، قشرتها ناعمة ومجعدة، لكنها شعرت بحاجتها إلى تقدمة سلام. المرأة تتناول تفّاحة من يدها، تشير إلى البقعة البنية المهترئة، وتبدلها بثمرةٍ أفضل. دون أن تنبس إحداهما بكلمة. إيماءاتٌ مفهومة وابتساماتٌ عريضة.

الرجال في معاطفهم السوداء الطويلة، قبعاتهم السوداء العريضة، النسوة بنظراتهن السريعة. الشالات، التنانير الطويلة. تصاريف الأفعال المكسورة. لا ينظرن مباشرةً إليك لكن لا يفوتهن الكثير. يا له من لباسٍ منافٍ للأخلاق، يا لها من عملاقة. ساقاها جليتان للعيان.

وها هو متجر الأزرار، تماماً حيث قال. تقف لحظةً عنده تتأمّل المعروض في واجهته. أزرارٌ أنيقة، شرائط ساتان، شرائط زينة مجدولة، الهدب المزركشة، الترتر - المواد الخام لصناعة التقليد على أرض الأحلام. أنامل امرأةٍ ما، من تلك النسوة هنا، لا بد وأنها من خاطت حاشية الفراء على ردائها المسائي من الشيفون. فالتضاد

بين الخمار الرقيق وإهاب الفراء لحيوانٍ نتن هو ما يروق السّادة الكرام. الجسد الناعم أولاً، ثمّ الدغل.

غرفته الجديدة تقع فوق مخبز، على الزاوية أعلى السلالم في سديمٍ من رائحةٍ تروق لها. رائحةٌ ثقيلة، طاغية، للعجين المتخمر، انتشت على إثرها وكأنه غاز هيليوم. كان قد مضى وقتٌ طويل مذ رأته آخر مرة. لمَ يا ترى حرمت نفسها منه طوال تلك المدة؟

ها هو ذا، يفتح لها الباب.

"أحضرتُ لك بعضًا من التفاح".

مع مضي الوقت تعود معالم الأشياء من حولها تتضح. ها هي آلته الكاتبة، متقلقلة على حامل المغسلة الصغير. الحقيبة الزرقاء إلى جانبها، مع حوض المغسلة فوقها، في غير محلّها. القميص ملقىً على الأرض، مجعداً. لماذا الملابس المجعّدة ترمز دوماً للرغبة؟ بأشكالها المتمعجة ووضعياتها الطائشة. ألسنة اللّهب في اللوحات تبدو تماماً مثلها– ألسنة قماشٍ برتقالي، ملقاة ومرشوقة.

يستلقيان على السرير، سريرٍ ضخم مصنوعٍ من خشب الماهوجني ويحتل معظم مساحة الغرفة. كان يوماً ما جهاز زفاف، من مكانٍ بعيدٍ جداً، بِنيّة بقائه مدى الحياة. مدى الحياة، كم هي عبارةٌ غبية؛ قوة التحمل، ميزةٌ عبثية. تقطع له شرائح التفاح بسكين جيبه وتطعمه.

"لو لم أعرفك جيداً لقلت إنك تحاولين إغوائي".

"لا – أنا فقط أبقيك على قيد الحياة. أريدك أن تسمن قبل أن ألتهمك".

"يا لها من فكرة منحرفة، سيدتي الصغيرة".

"الفكرة منحرفة – وهي فكرتك وليست فكرتي، أم تراك نسيت أمر النسوة الأموات بشعورهن اللازوردية ومحاجر أعينهن الملأى بالأفاعي؟ لَكُنَّ التهمنك على الإفطار".

"فقط لو تركت الأمر لهن". يعود ويضمها إليه. "لمَ ابتعدت عني كل تلك الفترة؟ فقد مضت أسابيع".

"حسنٌ. انتظر. عليّ أن أخبرك بأمرٍ ما".
"وهل الأمر مستعجل؟"
"نعم. ليس حقاً. لا".

الشمس تأفل، ظلال السّتائر تتموّج على الفراش. خارجاً، الأصوات في الشارع تتحدث لغات مجهولة. تقول في نفسها، سأتذكر دوماً هذه اللحظات. ثم تسأل نفسها: ولمَ أفكّر بالذاكرة الآن؟ فاللحظة لم تغد ذكرى بعد، هي اللحظة التي أعيشها الآن. واللحظة لم تنقضِ بعد.

تقول له، "لقد فكّرتُ بالقصّة. وتخيّلتُ الجزء التالي لها".
"أوه؟ وهل لك أفكارك الخاصّة؟"
"لطالما كان لي أفكاري الخاصة".
فيجيبها بابتسامةٍ عريضة، "فلنستمع إليها إذن".
"حسنٌ. آخر ما وصلنا إليه، أن الفتاة والشاب الأعمى قد اقتيدا إلى لقاء خادم الابتهاج، قائد الغزاة الهمَج الذين يدعونهم الناس بقوم الخراب، لأن الفرقة الاستطلاعية ظنتهما رسولين إلهيّين. صحّح لي إن كنت مخطئة".
" أصِدقاً كنت تنتبهين إلى سردي؟" يسألها متعجباً، "أحقاً تذكرين تلك الأحداث؟"
"بالطبع كنت متنبهة. وأذكر كل كلمةٍ قلتها. الاثنان يصلان مخيم الهمَج، وما إن يلتقي السفّاح الأعمى بخادم الابتهاج يُبلغه بحمله رسالة له من القهّار، لكن عليه أن يبلغه الرسالة على انفراد، بوجود الفتاة. طلب منه حضورها كي يُبقي عينيه عليها".
"لكنه لا يرى. هو أعمى. أتذكرين؟"
"أنت تعرف ما أعني. فيردّ عليه خادم الابتهاج، حسنٌ لا بأس".
"ما كان خادم الابتهاج ليقول حسنٌ لا بأس. لكان ألقى خطاباً".
"تلك الجزئيات ليست من اختصاصي. الثلاثة يتوجهون إلى خيمةٍ منفصلة بعيداً عن الجميع، وهنا يقول له السفّاح الأعمى: حسنٌ، هذه هي الخطّة. سيُعلمهم بكيفية الدخول إلى مدينة ساكيل نورن دون أيّ حصار ولا خسارةٍ في الأرواح، أعني

أرواح الهمَج بالطبع. عليهم أن يرسلوا باثنين من الرّجال، سيمنحهما كلمة السر للبوابة – فهو على علم بكلمات السرّ، أتذكر؟ – وما إن يدخلا، فعلى الرجلين أن يتوجها إلى القناة ويلقون بحبلٍ طافٍ فيه، من تحت القنطرة. عليهم أن يوثقوا نهاية الحبل بشيءٍ ما – عمودٍ حجري أو ما شابه – ثمّ، في عتمة الليل، فرقةٌ من الجنود تتسلل إلى داخل المدينة فرداً فرداً متمسكين بالحبل من تحت الماء، ثمّ ينقضون على الحارس ويشرعون البوابات الثمان، بنغو".

"بنغو؟" يقول لها ضاحكاً، "لا أظنها مفردة زيكرونية صحيحة".

"إذاً فلنقل مثل شربة ماء، أيرضيك؟ وما إن تفتح البوابات، لهم أن يقتلوا أهل المدينة عن بكرة أبيهم كما يحلو لقلبهم. إن كان هذا ما يريدونه".

"خدعةٌ ذكية. حيلةٌ متقنة".

"نعم هي ذلك. من تاريخ هيرودوتس أو كتابٍ من ذاك القبيل. أظنها من سقوط بابل".

"تملكين قدراً مفاجئاً من الطرائف في رأسك. لكني أفترض وجود مقايضةٍ ما كي تنجح الخطة، أليس كذلك؟ فصديقانا اليافعان لا يسعهما مواصلة تمثيل دور الرسولين الإلهيين. الأمر محفوفٌ بالمخاطر، عاجلاً أم آجلاً سيزلّان، سيقعان، ولحظتها سيقتلان. عليهما الفرار من هناك".

"افتراضك في محلّه. وقد فكّرتُ في الأمر. فقبل أن يمنحهم كلمة السر وإرشادات الدخول، سيخبرهم السفّاح الأعمى أن على الهمَج أولاً اصطحاب كليهما إلى التلّ السفحي أسفل سلسلة الجبال الغربية، مع مؤونةٍ وافرة من الطعام وما شابه. سيخبرهم أن عليهما الحج إلى هناك – حيث سيتسلقا الجبل ويستقبلان الوحي الإلهي. حينئذٍ سيزوّدهم ببضاعته، بكلمة السر. وهكذا، إن حدث وفشل الغزو على المدينة، فكلاهما سيكونان في مأمن، في مكانٍ لن يخطر على بال أيّ من مواطني ساكيل نورن مطاردتهما فيه".

"لكن الذئاب ستقتلهما، وإن لم تقتلهما الذئاب، فستقتلهما النسوة الأموات ذوات الانحناءات المثيرة والشفاه الحمراء الياقوتية. أو بالأحرى سيقتلن الفتاة، أما

الفتى فسيجبرنه على تلبية رغباتهن المنحرفة صبحاً وعشية إلى أبد الآبدين، الفتى المسكين".

"لا. لن يحدث هذا".

"أوه لا؟ ومن يقول؟"

"لا تقل لي أوه لا. وأنا من تقول. اسمع – هذا ما سيحدث. السفّاح الأعمى كان قد سمع بكل الإشاعات، لذا فهو على دراية بحقيقة أولئك النسوة. في الواقع هن لسن بأموات على الإطلاق. هن قد أشعن تلك القصص عنهن كي يتركهن العالم في سلام. منهن عبداتٌ فارات، وأخريات فررن لتفادي أن يبيعهن آباؤهن وأزواجهن. ولسن كلهن بنساء – هناك ثلّة رجال، لكنهم لطفاء وحسنو المعشر. الكل يسكن الكهوف ويرعى الأغنام، ولهم حدائقهم حيث يزرعون الخضراوات. النسوة يتناوبن التربص حول الأضرحة وإخافة الرحالة – يعوين في وجوههم، وما شابه – كي يبقين على الأسطورة حقيقية. كما أن الذئاب ليسوا حقاً بذئاب، بل هم كلاب الرعي وقد دُرّبوا على تقمّص الذئاب. في واقع الأمر هم حيواناتٌ أليفة، ومخلصة جداً. تلك الجماعة ستستقبل الهاربين، وما إن يسمعوا قصتهما الحزينة سيحسنون استقبالهما. وبهذا سيتسنى للسفاح الأعمى والفتاة مقطوعة اللسان أن يعيشا معاً في كهفٍ من الكهوف، وعاجلاً أم آجلاً سيرزقان بأولاد يبصرون ويتكلمون، وسيعيشان في سعادةٍ لا توصف".

"وبينما يعيشان في سعادةٍ لا توصف، يُسفَك شعبهما عن بكرة أبيه؟" سألها مبتسماً لها ابتسامته العريضة. "أتراك تدعمين خيانة الوطن؟ هل قايضت المصلحة العامة لإخوتك في الوطن مقابل رضاك الذاتي؟"

"أليس الشعب من سعى إلى قتلهما، أولئك الإخوة في الوطن؟"

"ثلةٌ منهم وحسب نووا قتلهم، علّية القوم، الأوراق أعلى بيت الورق. فهل تُراكِ حكمت على الجميع بذات العقوبة، الصالح في حكم الطالح؟ هل جعلت من صديقينا خائنين لشعبهما؟ تلك أنانية منك".

"لست أنا، بل التاريخ. ففي غزو المكسيك – ما كان اسمه غزوَ كورتيز – فإن الشي

نفسه فعلَته العشيقة الأزتيكية. والإنجيل كذلك، فالبغيّ رحاب فعلت ذات الصنيع، في سقوط بيت لحم. ساعدت رجال يشوع، وفي المقابل عفا عن حياتها وحياة عائلتها.

"معك حق. لكنك كسرت القواعد. ليس بوسعك تحويل النسوة الأموات إلى جماعةٍ فولكلورية من راعيات الغنم هكذا بنزوة!"

"لكنك لم تسرد أي شيءٍ عنهن ضمن الحكاية، ليس بشكلٍ مباشر. أنت سردت إشاعات عنهن. والإشاعات قد تكون كاذبة".

ضاحكاً يوافقها، "الحق معك. والآن فلأسرد عليك نسختي. في مخيم قوم البهجة، كل شيءٍ يقع كما ذكرت، لكن مع خطاباتٍ أفضل. صديقانا اليافعان سيُنقلان إلى التل السفحي لسلسلة الجبال الغربية ويُتركان هناك بين الأضرحة، ويتابع الهمَج مسيرهم نحو المدينة وسيتسلّلون إليها كما اتفق، سينهبونها ويدمرونها ويسفكون دماء كل أهلها. لا أحد منهم سينجو. الملك سيشنق ويعلق على شجرة، سينتزعون أحشاء الكاهنة الأعلى، رجل البلاط المتآمر سيهلك كما هلك الآخرون. العبيد الأطفال الأبرياء، نقابة السفاحين العميان، فتيات القرابين في المعبد – الكل سيهلك. حضارةٌ بأكملها ستباد وتمحى عن الوجود. ما عاد من أحدٍ على قيد الحياة يعرف كيف ينسج ذاك السجاد المبهر، أمرٌ لا بد وأن نقرّ أنه مؤسف.

في غضون ذلك، صديقانا اليافعان، يتجولان يداً بيد، في خطىً متمهلة، يسلكان طريقهما المنعزل عبر سلسلة الجبال الغربية. يغمرهما الأمان لمعرفتهما بأن الجماعة طيبة القلب من بستانيّي حدائق الخضراوات ستستقبلهما. لكن، وكما أسلفت، فالإشاعات قد تكون كاذبة، وثمّة احتمال أن يكون السفّاح الأعمى قد صدّقَ الإشاعة الخطأ. فالنسوة الأموات هن حقاً أموات. ليس ذلك فحسب، بل الذئاب حقاً ذئاب، والنسوة الأموات يستدعين ذئابهن بالصفير. وبذا سينتهي المصير ببطلينا الرومانسيين غداءً للذئاب حتى قبل أن تطرف عينك".

"بحق أنت متشائمٌ لا علاج لك".

"لي علاج. لكني أحب قصصي أن تحاكي واقع الحياة، ما يعني حتمية تضمينها

الذئاب، بصورةٍ أو بأخرى".

"وكيف لقصتك أن تحاكي واقع الحياة؟" تنهض عنه وتستلقي على ظهرها، تحدق في السقف. فقد شعرت بالغيظ لأن نسخته تفوّقت على نسختها.

"كل القصص هي عن الذئاب. كل القصص التي تستحق تكرار سردها. أي قصةٍ أخرى لا تعدو كونها هراءً عاطفياً".

"كلها؟"

"بالتأكيد. فكري بالأمر. هناك الهروب من الذئاب، مصارعة الذئاب، اصطياد الذئاب، ترويض الذئاب. الرمي بك إلى قطيع الذئاب، رميك أحدهم إلى قطيع الذئاب كي تلتهمه عوضاً عنك. الجري مع قطيع الذئاب. التحول إلى ذئب. والقصة التي تتفوق عليهم جميعاً: التحول إلى قائدٍ للذئاب. لا قصص أخرى هناك تستحق عناء السرد".

"بل هناك. فالقصة التي تروي لي فيها قصةً عن الذئاب هي ليست بقصةٍ عن الذئاب".

"لا تراهني على ذلك. فهناك ذئبٌ كامنٌ فيّ. تعالي هنا".

"انتظر. لا بد أن أسألك عن شيء أولاً".

"حسنٌ، تفضلي". يرد عليها كسِلاً. يغلق عينيه مرةً أخرى، يمرر يده على جسدها.

"هل سبق وأن خنتني؟"

"خنتك؟ يا له من وصفٍ عتيق".

"لا تأبه لمفرداتي، هل خنتني؟"

"ليس بما يفوق خيانتك لي". يتريث لهنيهة ثم يقول، "لا أراها خيانةً".

"وما عساك تراها إذن؟" تسأله في نبرةٍ باردة.

"بالنسبة إليك أراها شرود ذهن. تغلقين عينيك وتنسين أين أنت".

"وبالنسبة إليك؟"

"فلنقل إنك على رأس القائمة".

"وغد".

"أنا فقط أقول لك الحقيقة".

"ربما ما كان يجدر بك".

"لا تثوري في وجهي، أنا أمزح معك. ما كنت لأطيق لمس امرأةٍ أخرى عداك. لو فعلتُ لتقيّأت".

كلاهما يصمت لبرهة. تقبّله، ثم تنهض عنه. "عليّ أن أذهب في رحلة". تقول له في نبرةٍ يشوبها الحذر. "لا بد أن أبلغك بهذا، فلا أريدك أن تقلق عليّ".

"وإلى أين أنت راحلة؟ ولأجل ماذا؟"

"سننطلق على متن الرحلة الأولى. جميعنا، الحاشية بأسرها. قد أُخبرنا بضرورة حضورها إذ يستحيل تفويت حدثٍ كهذا، حدث القرن".

"لم يمر علينا سوى ثلث القرن. ومع هذا، كنت سأفترض أن حدث القرن تحتله الحرب العظيمة. احتساء الشمبانيا على ضوء القمر بالكاد ينافس موت الملايين في الخنادق، أو ماذا عن وباء الانفلونزا، أو..."

"يعني اجتماعياً".

"أوه، اعذريني سيدتي، الخطأ خطأي".

"ما الأمر؟ سأغيب لشهر – حوالي الشهر وبعض الأيام. يعتمد على الترتيبات".

لا يقول لها شيئاً.

"ليس الأمر وكأني أريد الذهاب".

"لا، لا أظنك تريدين. قوائم الطعام من سبع وجبات، الرقص طوال الليل. فتاةٌ مثلك ستنهك".

"لا تتصرف هكذا".

"إياك أن تخبريني كيف أتصرف! إياك أن تنضمي إلى جوقة من يملكون خططاً في سبيل تحسيني. قد سئمت من كل هذا القرف. فأنا من أنا".

"أنا آسفة. سامحني. سامحني. سامحني".

"كم أمقت تذلّلك لي. لكن بحق الرب كم تتقنين التمرّغ. أراهن أنك تنالين التدريب الكافي في البيت".

" ربما يجدر بي أن أذهب".

"ارحلي إن أردت". يستدير عنها. ظهره لها. "افعلي ما شئت. لست بقيّم عليك. لا داع لك للركوع والنواح والتوسل وهز ذيلك لي".

"أنت لا تفهم. أنت لا تحاول حتى أن تفهم. لا تفهم مطلقاً حقيقة الوضع. ليس الأمر وكأني أستمتع به".

"صدّقتك!"

"ماي فير"، يوليو، 1936

في البحث عن الصفة المناسبة

بقلم جي. هربرت هودجنز

... ما مخرت عباب البحار سفينةٌ أجمل منها قط. تضارع في جمال هيكلها الخارجي رشاقة وانسيابية الكلبَ السّلوقي، أما تصميمها الداخلي فتتجلى فيها العناية الفائقة بأدق التفاصيل واختيار أفخم الديكورات ما يجعلها تحفةً في الراحة، والفعالية والترف. السفينة الجديدة هي فندق والدورف آستوريا الطّافي على البحر.

ما أفتأ أبحث عن صفةٍ مناسبة. وصفوها بالأعجوبة، المثيرة، والمهيبة، والفخمة، والجليلة، والملكيّة، والرائعة. هناك صحةٌ في كل تلك النعوت. لكن كل نعتٍ منها، في حد ذاته، يعجز عن إيفاء "أعظم إنجازٍ في تاريخ بناء السفن البريطانية" لها الحقّ. فالملكة ماري عصيةٌ على الوصف: لا بد أن تُرى، لا بد أن تُحس، لا بد أن تعيش العالم الفريد على متنها.

... كل أمسيةٍ شهدت حفلاً راقصاً، في الردهة الرئيسية، وكم كان من الصعب التخيل حينها أننا في البحر. الموسيقى، قاعة الرقص، الحشد المتأنق الذي لا تراه إلا في قاعات رقص الفنادق في صفوة عواصم العالم. كنت سترى كل تلك الفساتين الجديدة التي أرسلوا في طلبها من باريس ولندن، أنيقةً وحديثة أخرجوها التو من علبها. كنت سترى أيضاً آخر صرعات الموضة في الإكسسوار: حقائب اليد الفاتنة؛ دفقٌ من أردية السهرة تتهادى في تصاميم مختلفة أنيقة تبرز ألوان الفساتين؛ دثرٌ مترفة و"كابات[134]" فروية. الفساتين المنتفخة احتلت مرتبة الشرف، سواء كانت من التفتة أو الدانتيل. أما الفستان المقلّم فكان التصميم المفضل، ينسدل عليه رداء التّونيك من التّفتة أو السّاتان الموشّى. أردية الشيفون تعددت وتمايزت.

(134) "الكاب" – capelet: رداءٌ خارجي دون كمين يطرح على الكتفين.

بيد أنّ جميعها تدلت في انسيابٍ عن الأكتاف كما الأردية العسكرية. شابةٌ يافعة جميلة ذات وجهٍ خزفي كما آنية دريسدن، اعتمرت زينة شعرٍ بيضاء وانسدل رداؤها الشيفون الليلكي متهدلاً على فستانها الرمادي. شابةٌ شقراء طويلة في فستانها الوردي اللحمي، رداؤها كان من الشيفون الأبيض المزركش بأذيال فروية.

السفّاح الأعمى: نساء آع الخوخيّات

أمسياتٌ راقصة، الرقص الانسيابي المتّقد على أرضية القاعة الزلقة. الإغراء العارم في الانغماس في المرح الصاخب: إغراءٌ ما كان بيدها مقاومته. من حولها، وميض مصابيح الكاميرات تفرقع: لا تدرك أبداً إلى أي جهةٍ تسدّد الكاميرات وجهتها، أو أي صورةٍ ستظهر لها على الصحف، رأسها مرتدٌ للخلف، فاغرةً فاهها كاشفةً عن كل أسنانها.

في الصباحات قدماها متقرحتان.

في المساءات تلوذ إلى الذاكرة، مستلقيةً على كرسيّ السّفينة، محتجبةً خلف نظارتها الشمسية. ترفض القفز في المسبح، المشاركة في لعبة الكت[135]، والبادمنتون، وغيرها من الألعاب التي لا طائل منها. تمضية الوقت في التسلية يعني أن تمضي وقتك فيما يسليك، وهي لها تسليتها.

الكلاب تحوم وتحوم حولها على سطح السفينة، منقادة بالرسن الذي يمسك بنهايته مُنَزّهو كلابٍ من الدرجة الأولى. هي تتظاهر بقضاء وقتها في القراءة.

بعض الناس يكتبون الرسائل في المكتبة. أما بالنسبة إليها فلا طائل من كتابة الرسائل. حتى إن كتبت وبعثت بواحدة، فهو دائماً يتنقل من مكانٍ لآخر وعلى الأرجح أنه لن يستلم رسالتها. بل سيستلمها شخصٌ آخر.

في الأيام الهادئة تفعل الأمواج ما خلقت له. تهدهد. يقولون لها – أوه كم ينفعك نسيم البحر العليل. فقط خذي نفساً عميقاً. استرخي. وارمي بهمومك في البحر.

---

(135) لعبة الكت – quoits: لعبة قوامها قذف حلقات الرمي.

"ما بالك تروي لي تلك الحكايات الحزينة؟" سألته قبل عدة أشهر. كانا يستلقيان متدثرين بمعطف فروها، الفرو للأعلى، استجابةً لطلبه. الهواء البارد يهب عليهما من النافذة المشروخة، عربات الترام تصلصل في الشارع. "تمهل" تقول له، "هناك زرٌ يضغط على ظهري".

"تلك هي الحكايات التي أعرفها. الحكايا الحزينة. وعلى أي حال، إن نظرنا إلى الحكايا بمنظورٍ منطقي فكل حكايةٍ هي حكاية حزينة، لأن في النهاية الكل سيموت. المولد، المضاجعة، ثم الموت. لا استثناء، عدا أولئك الذين يقفزون إلى الموت متجاوزين المضاجعة. فهناك فتيانٌ لا يتسنى لهم بلوغها، أولئك المساكين".

"لكن لا بد من وجود مراحل سعيدة في المنتصف، أعني بين المولد والموت – أليس كذلك؟ لكن إن كنت مؤمناً بالجنة فأظن أنّ تلك ستكون حكاية سعيدة – أعني حتى وإن انتهت بالموت. فجوقةٌ من الملائكة ستغني لك في مرقد روحك وهلمّ جرا".

"آه. بيتٌ في الجنة للصابرين. لا شكراً".

"ومع ذلك، هناك أحداثٌ سعيدة. أو أكثر من تلك التي تضمّنها حكاياتك. حتى أنك لا تضمّنها الكثير من الأساس".

"تعنين الحدث الذي نتزوج فيه ونستقر في كوخٍ صغير ونرزق بطفلين؟ أتعنين حدثاً كهذا؟"

"تلك قسوةٌ منك".

"حسنٌ، تريدين حكايةً سعيدة. لي أن أرى أنك لن تتركيني في حالي إلا إن حظيتِ مني بواحدة. وها هي الحكاية تبدأ:

كان العام التاسع والتسعين من الحرب التي ستعُرف في التاريخ بحرب "المائة عام"، أو "الحروب الزينورية". الكوكب زينور، الواقع في بعدٍ آخر من الفضاء، كان مأهولاً بعِرقٍ خارق الذكاء لكن شديد القسوة، وهذا العرق كان يدعى "الرجال السحالي"، وإن بدوا تماماً عكس ما يصفون به أنفسهم. كانوا ضخاماً يبلغ طول الواحد منهم مترين ونصف، حرشفيّين ورماديين. أعينهم مقدودة كما أعين القطط والأفاعي.

بيئتهم جد قاسية حدّ عدم ارتدائهم لأي ملابس، ما عدا السروال الداخلي القصير المصنوع من "كارِكنيل" وهو معدنٌ أحمر مرن مجهولٌ للأرض. تلك السراويل كانت تحمي أعضاءهم الذكورية، والتي كانت أيضاً حرشفية، ولا داع لأذكر أنها كانت هي الأخرى ضخمة جداً، لكنها في ذات الوقت حساسة وسريعة التأثر".

قاطعته ضاحكةً، "حمداً للسماء أنها كذلك".

"كنت أعلم أن تلك المعلومة ستروق لك، على أي حال، خطتهم كانت تقضي سَبْيَ عددٍ كبير من نساء الأرض واستيلاد عرقٍ خارق، نصفه بشري ونصفه من عِرق الرجال السحالي، الذين بدورهم سيكونون مهيئين أكثر للحياة في الكواكب الأخرى المأهولة في الكون – قادرين على التكيف مع كل تلك البيئات الغريبة، وتناول مختلف ضروب الطعام، مقاومة أي أمراض، وهكذا دواليك – وسيحظى الجيل الجديد كذلك بقوة وذكاء الزنوريين. هذا العرق الخارق سينتشر في الفضاء ويغزوه، وفي الطريق سيلتهمون سكان تلك الكواكب المأهولة، لأن الرجال السحالي في حاجة إلى التوسع الاستيطاني، وفي حاجة كذلك إلى مصدرٍ جديدٍ للبروتين.

أسطول الرجال السحالي أطلق غارته الأولى على كوكب الأرض عام 1967، مدمراً المدن الرئيسية حيث هلك الملايين. وفي غمرة الذعر، أقام الرجال السحالي مستعمرات استعباد في أوراسيا وأمريكا الجنوبية، حيث جمعوا النساء اليافعات اللواتي سبوهن لأجل تجارب الاستيلاد الجهنمية، وحيث دفنوا كذلك جثث الرجال في وهادٍ ضخمة، بعد أن التهموا الأعضاء البشرية التي يفضلونها. كانوا يستمتعون بتناول المخ، والقلب بشكلٍ خاص، كذلك الكلى، بعد شواءٍ خفيفٍ على النار.

لكن خطّ إمدادات الزنوريين قد انقطع نتيجة قذائف صاروخية من قاعدةٍ عسكرية خفية في كوكب الأرض، وبذلك حرموا الرجال السحالي من المكونات الحيوية لصناعة مسدسات الموت الإشعاعية، فوقتئذٍ كان رجال الأرض قد وحّدوا صفوفهم وانخرطوا في المقاومة – لم يعتمدوا وحسب على قواهم العسكرية، لكن كذلك على سحب الغاز التي استخلصوا مادتها السميّة من الضفادع القزحية النادرة، والتي استخدمها قوم الناكرود من كوكب يولينث فيما مضى في مسح

رؤوس سهامهم، إذ اكتشف علماء الأرض أن الزنوريين سريعو التأثر بها، وبذلك تساوت كفتا الميزان بين الطرفين.

كذلك فسراويل "الكاركنيل" كانت قابلة للاشتعال، فإن أطلقت القذيفة عليها سيشتعل الرجل السحلية بأكمله. قناصو الأرض البارعون في التصويب، مع مسدسات الرصاص الفوسفوريّ طويل المدى، كانوا هم أبطال تلك الحرب دون منازع، رغم أن العمليات الانتقامية التي لقوها على يد الرجال السحالي كانت مبرحة، إذ تضمنت جلسات تعذيبٍ كهربائي لم يعرف لها مثيل من قبل، ومؤلمة بما يفوق الوصف. فرجال السحالي لم يتقبلوا إشعال النار في أعضائهم، وهو ما نتفهمه بالطبع.

الآن، ومع حلول عام 2066، تقهقر عِرق الرجال السحالي إلى بُعدٍ آخر في الفضاء، حيث ظلّ الطيارون المقاتلون من الأرض يطاردونهم في مراكبهم الفضائية الصغيرة التي تتسع لراكبين. الهدف من تلك المطاردة كان مسح العرق الزنوري عن وجه الكون، والإبقاء فقط على ثلةٍ منهم بهدف العرض في حدائق الحيوانات المحصنة والمعدة خصيصاً لهم، مع نوافذ من الزجاج الصلب. ومع ذلك فالزنوريون ما كانوا ليستسلموا دون المقاومة حتى الموت. إذ كان لا يزال لديهم أسطولٌ حيوي، وبعض الخدع المخبأة في أكمامهم".

"كانت لهم أكمام؟ ظننتهم عراة الصدر".

"بحق يهوذا. لا داع لأن تكوني نيّقة. فأنت تدركين ما أعني".

ويل وبويد كانا صديقين قديمين – طيارين متمرسين عاشا ويلات المعارك في مركبتهما الفضائية على مدار ثلاث سنين. كانت تعد فترةً طويلة للخدمة في المركبات الفضائية، والتي تنال النصيب الأعلى من الخسائر في الأرواح. القيادة رأت أن شجاعتهما تفوق صواب الرأي لديهما، بيد أنهما تمكنا كل تلك الفترة من الإفلات بقراراتهما الطائشة، غارةً جريئة تلو غارة.

لكن حكايتنا تستهل مع مركبةٍ فضائية زنورية تنقض عليهما، قصفتهما وتسببت بأذىً بالغ للمركبة التي أخذت تطير مترنّحة. فالشعاع الزوركي قد ثقب صهريج

الوقود، وقطع دائرة الاتصال بقاعدة التحكم في كوكب الأرض، وصهرت جهاز التوجيه في مقصورة القيادة، وعلى إثره أصيب بويد بجرحٍ عميق في فروة رأسه، أما ويل فأخذ ينزف على بذلته الفضائية من مكانٍ مجهول في جذعه الأوسط.

"يبدو أننا قد بلغنا نهايتنا". قال بويد. "قضي علينا، انتهى أمرنا، وانقضى عمرنا. فهذه المركبة ستنفجر في وجهنا في أيّ لحظة الآن. كل ما أتمناه لو أتيحت لنا الفرصة لتفجير بضعة مئاتٍ آخرين من أبناء العاهرة الحرشفيّين إلى أن تقوم القيامة، هذا ما كنت أتمناه ولا شيء غيره".

"وأنا كذلك يا صاحبي. فلنرفع كأسَي النبيذ في صحتك صديقي القديم. هأنذا أرى النبيذ يقطر منك – نبيذاً أحمر، ويقطر كذلك من أصابع قدميك. ها، ها".

"ها، ها". ضحك بويد، وجهه منقبض من الألم. "يا لها من مزحة. لطالما كان حسّ الفكاهة لديك ثقيلاً".

وقبل أن يرد ويل عليه، إذ بالمركبة تخرج عن السيطرة وتدور في دوامة لولبية مثيرة للدوار. إذ وقعت تحت تأثير حقل الجاذبية لكوكبٍ آخر، لكن أي كوكبٍ يا ترى؟ لم يحملا أي فكرة عن موقعهما. فنظام الجاذبية الاصطناعي في المركبة قد تعطل، وإذ ذاك يغمى على صديقينا.

لدى استيقاظهما لم يصدقا عينيهما. ما عادا في المركبة الفضائية، وما عادا في بدلتيهما المعدنيتين الفضائيتين الضيقتين. بل كانا متدثرين بأرديةٍ فضفاضة من نسيجٍ أخضر لامع، متكئين على أرائك ذهبية ناعمة في ظلل متعرشة. جراحهما اندملت، وإصبع ويل الثالث في يده اليسرى الذي قُطع في غارة سابقة، ها قد عاد من جديد. شعرا وكأنهما مضرّجين بموفور الصحة والعافية".

تهمهم قائلةً، "مضرجين، عجبي!

"أوه نحن الرجال نحب أن نلقي بوصفٍ بلاغي بين الفينة والأخرى". يقول لها من طرف فمه محاكياً رجال العصابات في الأفلام، "يضفي شيئاً من الرقي على هذا الخان الرديء".

"أتصور ذلك".

فلنكمل إذن.

قال بويد "لا أفهم ما جرى. أتظننا ميتين؟ فأجابه ويل: "إن كنا حقاً ميتين، فلن أمانع البقاء ميتاً. أنا راضٍ بما أرى، راضٍ تمام الرضا".

"معك كل الحق".

وإذا بويل يصفّر همساً. امرأتان خوخيتان لم يسبق لهما أن رأيا مثيلاً لحسنهما قد قدمتا صوبهما. الشعر الكستنائي الصفصافي منسدلٌ على أكتافهما. كانتا ترتديان ثوبين طويلين من الديباج الأرجواني الضارب للزُّرقة، حفيف ملامسة طياته الصغيرة الأرض يُسْمع كلما تحركتا. فتذكّر ويل تلك الأكياس الورقية ذات الطيات كما التنورة والتي اعتاد البقّالون المتشامخون في المتاجر الفاخرة وضع الفاكهة فيها. كانتا عاريتي الذراعين وحافيتي القدمين، كل منهما اعتمرت زينةً غريبة من الدانتيل الأحمر. بشرتهما كانت ذهبيةً ريّانة ونضرة. كانتا تتهادان متموجتين، وكأنهما مغموستان في شراب السّكر.

"يا مرحبًا بضيفينا من كوكب الأرض". قالت الأولى.

"يا مرحبا بكما". قالت الثانية. "قد توقعنا حضوركما منذ أمدٍ طويل. فقد تابعنا تقدمكما بكاميرتنا البيكوْكبية".

"وأين نحن الآن؟" سألها ويل.

"أنتما في كوكب آع". أجابته الأولى. اسم الكوكب بدا وكأنه التنهّدُ بعد التُّخمة، مع لهاثٍ في وسطه كما اللهاث الصادر عن الطفل الرضيع متى ما تقلب في نومه. بدا كذلك كما النفس الأخير للميت.

"وكيف وصلنا هنا؟" سألها ويل. بويد كان عاجزاً عن الكلام. أخذ يروم الانحناءات الشهيّة الريانة المتجلية أمام ناظريه، قائلاً في نفسه، لو أني أقضمها.

"لقد سقطتما من السماء، في مركبتكما الفضائية". أجابته الأولى. "للأسف تدمّرت مركبتكما. وستبقيان معنا".

"لن يصعب عليّ القبول بهذا". أجابها ويل.

"سنتولى رعايتكما. هذا ثوابكما الذي استحققْتماه نظير دفاعكما عن كوكب

الأرض ضد الزينوريين. فبدفاعكما عن كوكبكما، فقد كنتما كذلك تدافعان عن كوكبنا".

والآن علينا أن نسدل خمار الحياء على ما سيحدث لبطلينا.

"هل من الضروري؟"

"سأوضح لك في دقيقة. طبعاً لا داعيَ للقول إن بويد وويل هما الرجلان الوحيدان في كوكب آع، ما يعني أن كل النسوة في الكوكب عذراوات. لكنهن يملكن القدرة على قراءة الأفكار. وكل واحدةٍ منهن لها أن تتوقع مسبقاً ما يشتهيه الرجلان. لذا وبأسرع من لمح البصر تحققت كل خيالاتهما الفاحشة.

من بعدها أُعدّت لهما مائدة شهية من الرحيق، والذي قيل للرجلين، إنه يدرأ عنهما التقدم في العمر والموت؛ ثم ذهبا في نزهةٍ عبر الرّياض النضرة المفعمة بما لا يتخيله عقل من جنائن الأزهار، ثم اقتيدا إلى حجرةٍ أكبر تضم كل أنواع أنابيب الغليون، وكان لهما أن يختارا منها ما يشاءان".

"أنابيب الغليون؟ النوع الذي تدخنه؟"

"ومعه الخفّ الملائم لأرديتهما".

"أنا مَن جنيت على نفسي".

"جزاء يديك". قال لها مبتسماً ابتسامته العريضة.

"الوضع أخذ يتحسن. فإحدى الفتاتين كانت لعوبةً مثيرة، أما الأخرى فأكثر جديةً منها وتهوى النقاش الأدبي والفني والفلسفي وحتى اللاهوتي. وبدا أن الفتاتين تعرفان تماماً ما المتوقع منهما في أي وهلة، وبذا تبادلتا دوريهما اعتماداً على مزاج وميول كلٍّ من ويل وبويد.

وهكذا مضى الوقت عليهما في سلامٍ ووئام. الزمن ينقضي يوماً مثالياً تلو يومٍ مثالي، وفي غضون ذلك تعلم الرجلان أموراً أكثر عن كوكب آع. أولا، يُحرم تناول اللحوم فيها، ولا وجود فيها لحيواناتٍ ضاريةٍ لاحمة، لكن الكوكب زاخرٌ بالفراشات والعصافير المغردة. وهل من داعٍ كي أشير إلى أن الإله المعبود في آع يأخذ هيئة يقطينةٍ ضخمة؟

ثانياً، لا وجود للولادة هناك. فتلك النسوة تثمرهن الأشجار، قمم رؤوسهن معلقة على أطراف السويقات، تلتقطهن النسوة السابقات متى ما غدون ناضجات. ثالثاً، لم يكن هناك من موت. متى ما أزف الوقت، كل امرأةٍ خوخية – فلندْعُهن بالاسم الذي أطلقاه ويل وبويد عليهن – تعمَد إلى تفكيك جزيئاتها ثمّ تنغمس في الشجرة حيث يعاد تحويلها إلى امرأةٍ ناضجة جديدة. لذلك فكل امرأةٍ منهن هي نسخةٌ طبق الأصل، قلباً وقالباً، عن المرأة الأولى.

"وكيف لهن أن يعرفن أن وقتهن قد أزف؟ الوقت المناسب لتفكيك جزيئاتهن؟"

"أوّل دلالة هي ظهور التجاعيد الصغيرة على بشرتهن المخملية متى ما بدأت تذبل. أما الدلالة الثانية فهي الذباب".

"الذباب؟"

"ذباب الفاكهة الذي سيحوم أسرابًا حول عمْراتهنّ من الدانتيل الأحمر".

"هذا مفهومك للحكاية السعيدة؟"

"تمهّلي، ففي جعبتي المزيد. فبعد مضي زمنٍ على وجودهما في الكوكب، ورغم روعة حياتهما هناك، فقد بدأت تلك الحياة تضجرهما بمللها وتخمتها. فمن جهة، تلك النسوة ما برحن يطمَئننَّ عليهما ويحرصنَ على سعادتهما. والرجل منا يسأم تلك التصرفات. كذلك لم يكن هناك من شيء لا ترتدع تلك النسوة عن فعله. كن قد خلعن برقع الحياء، أو لم يكن لديهن برقع حياء من الأساس. وبالإشارة، الواحدة منهن كانت على كامل الاستعداد لارتكاب أفحش التصرفات. وصفهن بالداعرات لا يفيهن حقهن. أو قد ينقلبن إلى نساء خجولات وحييّات، متملقات متذللات، محتشمات متواضعات؛ كما قد ينقلبن إلى باكيات صارخات – كلها كانت مدرجة ضمن قائمة الطلبات.

في بادئ الأمر ويل وبويد وجدا الأمر مثيراً، لكن بعد فترة أضحى الوضع مستفزاً. متى ما ضربا الواحدة منهن، لا تنزف دماً، بل عصيراً. وإن سددا لهن ضرباتٍ أقوى ذبن كما لب الفاكهة الحلو المهروس، والذي سرعان ما كان يتحول إلى امرأةٍ خوخية جديدة. لم يبد عليهن أنهن يشعرن بالألم. وبدأ ويل وبويد يتساءلان إن كن تلك

النسوة يختبرن النشوة حقاً، أم إنه مجرد عرض؟

لدى إبداء سؤالهما عن مسألة النشوة، اكتفت الصبايا بالابتسام والمراوغة. استحال عليهما الحصول على إجابةٍ منهن.

"أتدري أكثر ما أرغب به الآن؟" قال ويل يومًا.

"أراهن أنه نفس ما أرغب به". أجابه بويد.

"قطعة ستيك مشوية كبيرة، شبه نيئة، الدم يقطر منها. وكومة كبيرة من البطاطس المقلية. وبيرة باردة".

"وأنا كذلك. ثم ننخرط في نزالٍ شرس كما كلاب الشوارع مع أبناء العاهرة الحرشفيّين من زينور".

"ها أنت قلتها".

قررا أن يستكشفا الكوكب. ورغم أن نساء آع قد أخبرن الرجلين بأنهما سيجدان ذات الشيء في كل أنحاء المعمورة، أنهما لن يجدا سوى مزيدٍ من الأشجار والظلل المعرشة والعصافير والفراشات والمزيد المزيد من النساء الشهيات، فقد قررا التوجه غرباً. بعد فترةٍ طويلة لم يعيشا فيها أي مغامرة، اصطدما بجدارٍ خفي. كان زلقاً، مثل الزجاج، بيد أنه كان ناعماً ومطواعاً متى ما ضغطت عليه. وما إن ترفع يدك عنه يرتد إلى هيئته الأصلية التي كان عليها. ارتفاعه كان عالياً جداً فما أمكن لهما تسلقه. وجدا نفسيهما وكأنهما في فقاعةٍ كريستالية ضخمة.

"أظننا حُبسنا في نهدٍ عارمٍ شفاف". قال بويد.

جلسا معاً أسفل الجدار، يغمرهما يأسٌ عميق.

"هذه الحظيرة هي مرقد السلام وراحة البال والوفرة،" قال ويل، "هي الفِراش الوثير في الليل وهي الحلم السعيد، هي أزهار التوليب على مائدة الفطور المشمسة، وهي المرأة اليافعة تعدّ لك القهوة. هي كل المضاجعة التي حلمت بها بكل شكلٍ وصورة. هي كل ما يظن الرجل منا أنه يتمناه وهو في معمعة المعركة، يقاتل في بعدٍ آخر في الفضاء. هي الحياة التي لأجلها ضحّى أولئك الرجال بأرواحهم. ألست محقاً؟"

"كلامك درر". أجابه بويد.

"لكني أراه مثالياً حد الاستحالة، لا بد وأنه فخ. ربما هي أداة شيطانية للتلاعب العقلي اخترعها الزينوريون، كي يبقونا بعيداً عن أرض المعركة. هي الجنة، لكن لا سبيل للخروج منها، وأي مكانٍ لا سبيل للخروج منه فما هو إلا جهنم".

"لكنها ليست بجهنم. هي السعادة". قالت لهما امرأةٌ خوخية قد تجلّت التو من غصن شجرةٍ قريبة. "لن تغادرا المكان. لذا استرخيا. استمتعا بالحياة هنا. في النهاية ستعتادان عليها".

وهنا تنتهي حكايتنا.

"هذه هي النهاية؟ ستُبقي على الرجلين حبيسين في القنّ إلى الأبد؟"

"فعلتُ تماماً ما طلبته مني. أنت أردت السعادة. بيدي أن أبقيهما وبيدي أن أخرجهما، القرار يعود لك".

"دعهما يخرجان".

"لكن في الخارج الموت يتربص بهما. أتذكرين؟"

"أوه. فهمت". تضطجع على جانبها، تسحب معطف الفرو وتتدثر به، تطوق صدره بذراعها. "بيد أنك مخطئٌ فيما يخص النساء الخوخيات. فهن لسن ما تتصوّره عنهن".

"مخطئٌ كيف؟"

"مخطئٌ وحسب".

"ذا ميل آند إمباير"، سبتمبر 19، 1936

غريفين يحذّر من الحُمر في إسبانيا

في تقرير خاص لصحيفة "ذا ميل آند إمباير"

في خطابٍ حماسيّ في نادي إمباير الخميس الماضي، حذّر الوجيه الصناعي ريتشارد إي. غريفين، صاحب مجموعة غريفين تشايس المدمجة، من المخاطر الكامنة التي تواجه النظام العالمي وتهدد سير خط التجارة الدولية السلمي نتيجة الصراع المحلي الدائر في إسبانيا. فالجمهوريون، كما قال، يتلقون أوامرهم من الحُمر، وهو ما ظهر جلياً في مصادرتهم الممتلكات، وسفك دماء المدنيّين الأبرياء، والفظائع الشنيعة التي ارتكبوها بحق الدين. فالكثير من الكنائس قد تعرّضت للتدنيس والحرق، وقتل الراهبات والقساوسة غدا حدثاً يومياً.

تدخّل الوطنيين بقيادة الجنرال فرانكو ما هو إلا ردة الفعل المتوقعة. فالإسبان الناقمون والشجعان من كل طبقة اجتماعية قد احتشدوا للدفاع عن تقاليدهم والنظام المدني، والعالم سيترقّب بقلق النتائج المترتبة عن النزاع. فانتصار الجمهوريين سيقوّي من شوكة روسيا، ودول صغيرة ستجد نفسها تحت نَير التهديد الروسي. أما الدول القارّية، ألمانيا وفرنسا وإلى حدٍّ ما إيطاليا فهي الوحيدة القوية كفاية للصمود في وجه الموج الشيوعي المتصاعد.

وقد حثَّ السيد غريفين كندا على اتّباع حذو كلٍّ من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، أي أن تنأى بنفسها عن هذا الصراع. فسياسة عدم التدخل هي الخيار الحصيف ويجب العمل به فوراً. فلا يجدر بالحكومة أن تطالب المواطنين الكنديين بالتضحية بأرواحهم في نزاعٍ أجنبي. وعلى كلٍّ، فها هي خلايا الشيوعيين المتطرفين تتدفق من خارج قارتنا متجهةً إلى إسبانيا، ورغم أن القانون مطالبٌ

بإيقافهم، فالدولة عليها أن تكون شاكرة أن فرصةً كهذه قد سنحت لها لتطهير نفسها من العناصر المقلقلة لنظامها دون أي تكلفة على دافعي الضرائب.

وقد قوبل خطاب السيد غريفين بالتصفيق والاستحسان من كل الحضور.

السفّاح الأعمى: مطعم القبّعة الرسميّة للشواء

لافتة مطعم القبعة الرسمية للشواء هي من النيون، قُبّعةٌ حمراء يرفعها قفّازٌ أزرق. ها هي القبعة تظهر، ها هي القبعة تظهر مرةً أخرى، دائماً مرفوعة، لن تحطّ أبداً على الرأس.

بيد أن لا رأس أسفلها، فقط عينٌ واحدة، تغمز، عين رجل، تفتح، تنغلق؛ عين مشعوذٍ يستحضر الأرواح؛ مزحةٌ ماكرة مقطوعة الرأس.

القبعة الرسمية هي أرقى ما ستجده في مطعم القبعة الرسمية للشواء. ومع ذلك فها هما، يجلسان في مقصورةٍ داخلها، في العلن مثل بقيّة الناس، كل واحدٍ منهما يتناول شطيرة اللحم البقري الحار، اللحم رمادي في خبزٍ أبيض ناعم دون نكهة مثل ردفيْ ملاك، أما المرق فبنيٌّ سميك من كثرة الطحين. الفاصولياء المعلّبة على الجانب، خضراء رمادية هشّة؛ البطاطس المقلية دهنيّة مهلهلة. في المقصورات الأخرى يجلس رجالٌ متوحدون مسحوقو الفؤاد، أعينهم زهرية تناشد السماح، قمصانهم مسخمة بعض الشيء وربطات عنقهم تلمع كما ربطات عنق المحاسبين، وهناك الأزواج المسحوقون على يد الحياة يحاولون أقصى جهدهم خلق متعةٍ ما ليلة الجمعة بما لديهم من مال، وهناك الفِرَق الثلاثية من بائعات الهوى يقضين وقتهن خارج ساعات الدوام.

تسأل نفسها، أتساءل إن كان يرافق أيًّا من تلك العاهرات، في غيابي. لكن كيف لي أن أعرف أنهن حقاً بائعات هوى؟

"أفضل ما ستجدينه في الأنحاء مقابل ما لدي من مال". يقصد شطائر اللحم.
"هل جرّبت شيئاً آخر؟"
"لا، لكن حدسي أنبأني ألا أفعل".
"أراه حقاً جيّدًا، فريداً من نوعه".
"أعفني من إتيكيت الحفلات". يقول لها لكن ليس بنبرةٍ فظة جداً. ليس دمثاً تماماً، بل يبدو متوتّر الأعصاب. وكأنه ينوي على شيء.
لم يكن على تلك الحال لدى عودتها من رحلاتها. اعتاد أن يكون حاقداً صموتاً.
"لم نلتق منذ أمدٍ بعيد. أجئت من أجل الجرعة المعتادة؟"
"الجرعة المعتادة من ماذا؟"
"الجرعة المعتادة من الوام بام".
"ما الداعي كي تتصرف معي بهذه الفجاجة؟"
"اللوم يقع على رفقة السوء".

ما تودّ حقاً معرفته في تلك اللحظة هو السبب وراء تناولهما الطعام خارجاً. لماذا هما ليسا في غرفته. لم عساه يرمي بالحيطة في مهب الريح. ومن أين له المال؟
أجاب سؤالها الأخير أولاً، وإن لم يسمعها تطرحه عليه.
"شطيرة اللحم البقري أمامك هي برعاية الرجال السحالي من كوكب زينور. فلنرفع النخب لهم، في صحة تلك الوحوش الحرشفية الوضيعة، وكل المال الذي يتأتى منهم". يرفع كأس الكوكا كولا؛ كان قد أضاف جرعةً من الرّم إليها، من قارورته. ("أخشى ألا قائمة لمشروبات الكوكتيل المُسكرة هنا،" كذا قال لدى فتحه باب المطعم لها، "هذا المجرور القذر جافٌّ مثل فرج ساحرةٍ شمطاء").
ترفع كأسها هي الأخرى. "الرجال السحالي من كوكب زينور؟ السحالي ذاتها؟"
"بحراشفهم ولحمهم. كتبتُ القصّة على ورق وأرسلتها قبل أسبوعين، وسرعان ما تلقفوها. الشّيْك الماليّ وصل البارحة".
لا بد أنه توجه إلى مكتب البريد بنفسه، وصرف الشيك أيضاً، أخذ يفعل ذلك

مؤخراً. لا خيار آخر أمامه، فقد غابت عنه فترةً طويلة.

"هل أنت سعيدٌ بها؟ تبدو سعيداً".

"نعم، أكيد... هي رائعة أدبية. مفعمة بالأحداث، زاخرة بالدم المسفوك على الأرض. بالنساء الجميلات". يبتسم لها ابتسامته العريضة. "من عساه يقاوم قصةً كهذه؟"

"وهل النساء الخوخيات فيها؟"

"لا. لا نساء خوخيات في هذه القصة. الحبكة مختلفة تماماً".

يتساءل في نفسه، ما الذي سيحدث متى ما أخبرتها؟ اللعبة انتهت أم عهود البقاء معاً إلى الأبد، وأيهما أسوأ؟ هي ترتدي وشاحاً، من نسيجٍ متطايرٍ رفيع، لونه زهري ضاربٌ إلى البرتقالي. يدعون درجة اللون هذه "اللحمي". اللحم النضر الحلو الذائب في الفم. يذكر أول مرةٍ وقعت عيناه عليها. كل ما تصوره مغموراً في فستانها هو السديم.

"ما خطبك؟" تسأله، "تبدو لي ... أكنت تشرب؟"

"لا. ليس بالكثير". يدفع بحبات البازلاء الرمادية الباهتة على طبقه، ثم يقول لها: " أخيراً حصل. أنا في طريقي. الجواز وكل الترتيبات".

"أوه. بكل بساطة". تحاول الإبقاء على نبرة صوتها هادئة، دون أي جزع.

"بكل بساطة. الرفاق تواصلوا معي. الجماعة قررت أني سأقدّم عوناً أكبر لهم هناك من وجودي هنا. وعلى أي حال، بعد كل تلك المماطلة اللانهائية، فجأةً تأمّن كل شيء ولا يطيقون الانتظار حتى مغادرتي البلد. شوكةٌ أخرى ينتزعونها من مؤخرتهم".

"لكنك ستكون في مأمن، لدى سفرك؟ فقد ظننت..."

"أكثر أماناً من بقائي هنا. الأقاويل تشير إلى أن عملية البحث عني لم تعد جديّة كما السابق. يراودني إحساسٌ أن الطرف الآخر كذلك يودّ رؤيتي أغادر البلد حالاً. هكذا يغدو الأمر أقل تعقيداً عليهم. بيد أني لن أخبر أحداً أي قطارٍ سأستقل. فلا نية لدي في الموت مدفوعاً خارج القطار مع ثقبٍ في رأسي وسكينٍ مغروزٍ في ظهري".

"وماذا عن قطع الحدود؟ فلطالما قلت..."

"الحدود الآن أرق من المنديل الورقي، طبعاً أعني بالنسبة للمغادرين. فرجال الجمارك على علمٍ تماماً بما يجري، هم مدركون لوجود خط أنابيب يُنصَب مباشرةً من هنا إلى نيويورك، ومن نيويورك إلى باريس. كل شيءٍ قد ترتب، وكلنا في أعينهم سواء. قد أعطوا أوامرهم للشرطة، غضّوا الطرف، هذه هي أوامرهم. وهم أدرى من أين تؤكل الكتف، لذا لن يكترثوا البتة بمن يخرج".

"ليت بوسعي الرحيل معك".

إذاً هذا هو السبب وراء تناولهما العشاء خارجاً. أراد أن ينقل لها الخبر في مكانٍ عام حيث لن يسعها التعبير عن ردة فعلها. كان يأمل ألا تطلق العنان لمشاعرها علناً. تنوح وتنتحب وتشد شعرها. كان يعتمد على حس قواعد الإتيكيت لديها.

"أجل، وأنا كذلك. لكن ليس بوسعك الرحيل معي، فالوضع قاسٍ هناك". يدندن في رأسه:

الجو عاصف
ولا أدري لم،
ما عاد من أزرار ولا سحّاب على طية بنطالي[١٣٦]

تماسك، يقول في نفسه. يشعر بالدم في رأسه يفور، مثل بيرة الزنجبيل. الدم في سائر جسده يفور. وكأن به يطير في السماء، وها هو ينظر إليها من علّ. وجهها الجميل المكروب يرتعش مثل انعكاسٍ على صفحة بركةٍ قُذف فيها حجر؛ وها هي صورتها تذوب وسرعان ما ستغدو دموعاً. لكن رغم أساها، فإنّه لم يسبق له أن رآها شهيّةً مثيرة كما هي الآن. هالةٌ حليبية متوهجة تحيط بها، لحم ذراعها، حيث يمسك بها، مشدودٌ ومكتنز. كم يتوق إلى الإمساك بها الآن، جرّها وراءه إلى غرفته ومضاجعتها بقوة وبكل وضعية، وكأن من شأن ذلك أن يبقيها لديه مدى العمر.

"سأنتظرك،" تقول له، "متى ما عدت سأخرج لك من الباب الأمامي، وحينها سنرحل معاً".

---

(136) الدندنة مستوحاة من أغنية Stormy Weather والمقطع الأصلي يقول الجو عاصف، ولا أدر لم، ما عادت الشمس تشرق من جديد ، منذ أن افترقنا أنا وحبيبي.

"وهل ستفعلين ذلك حقاً؟ هل سترحلين عنه؟"

"نعم. لأجلك سأفعل، إن أردتني. سأرحل وأترك كل شيءٍ ورائي".

شذراتٌ من ضوء النيون تنسل عبر النافذة أعلاهما، حمراء، زرقاء، حمراء. تتخيله جريحاً. وإن كان جريحاً فلن يغادر إلى أي مكان. ستحبسه لديها، تشد وثاقه، تبقيه لها وحدها.

"اتركيه الآن".

"الآن؟"

عيناها تتسعان. "تعني الآن، في هذه اللحظة، ولماذا؟"

"لأني لا أطيق وجودك معه. لا أطيق حتى فكرة وجودك معه".

"لكنه لا يعني لي أي شيء".

"لكنه يعنيني. خصوصاً متى ما غادرت، إلى حيث سأحرم من رؤيتك. سيقودني الأمر إلى الجنون كلما فكّرت به".

"لكن وقتها لن أملك أي مال،" تقول له في نبرةٍ منشدهة. "وأين عساي أعيش؟ في غرفةٍ مستأجرة، وحدي؟" مثلك أنت، تقول في نفسها. "ومن أين لي بمالٍ أعيش منه؟"

"احصلي على وظيفة،" يجيبها يائساً. "أو سأبعث لك أنا بالمال".

"لكن لا مال لديك، ولا حتى القليل منه. ولا يسعني فعل أي شيء. لا أجيد الخياطة، ولا الطباعة". وهناك سببٌ آخر أيضاً، تقول في نفسها، لكن لن يسعني إعلامه به الآن.

"لا بد وأن هناك من طريقةٍ ما". لكنه يتوانى عن الضغط عليها. فربما ليست بالفكرة الذكية من الأساس، وجودها في العالم الخارجي وحدها. هناك في العالم الكبير الشرس، حيث كل رجلٍ من هنا إلى الصين ستراوده فكرة الانقضاض عليها. إن وقع لها أي مكروه، فلن يلقي باللوم على أحدٍ سواه.

"أرى أن عليّ البقاء، ألا توافقني؟ هذا هو القرار الصائب، إلى أن تعود. ستعود إليّ، أليس كذلك؟ ستعود إليّ سالماً؟"

"بالتأكيد".

"لأنك إن لم تعد إليّ، فلا أدري ما الذي سأصنعه بنفسي. إن قتلت أو تعرضت لمكروه فسأنهار إلى أشلاء". تقول في نفسها: ها أنا أتكلم مثل بطلات الأفلام. لكنْ كيف لي أن أتكلم؟ فقد نسينا كل ما عداه من كلام.

تباً، يقول في نفسه. ها قد بدأت تجزع. والآن ستجهش في البكاء. ستبكي وسأجلس هنا مثل المغفل، فما إن تبدأ المرأة بالبكاء فلا سبيل لإيقاف السيل المنهمر.

"هيا انهضي، سأحضر معطفك،" يقول لها متجهماً، "ما عاد ممتعاً البقاء هنا، ولا مزيد من الوقت أمامنا. فلنعد إلى الغرفة".

IX

ملابس الغسيل

وأخيراً، ها قد حلَّ علينا شهر مارس، وإن ضنّ علينا ببشائر الربيع. الأشجار لا تزال عارية عن الأوراق، البراعم لا تزال صلبةً، متشرنقة، لكن حيثما الشّمس تسطع بأشعتها، فالثلج عن المرج قد ذاب. غائط الكلاب المتجمد أخذ يذوب وينحسر، تخريماته الجليدية شاحبة إثر البول العتيق. ألواحٌ من المروج تنقشع، موحلة ومنثورة. لا بد وأن اليمبوس(137) يأخذ هذه الهيئة.

اليوم تناولت وجبةً مختلفة على الفطور. نوعٌ جديد من رقائق الذرة، أحضرته لي ميرا كي تبث فيّ النشاط: فهي مولعة بقراءة المعلومات المدونة على ظهور العلب. تلك الرقائق، كما هو مكتوبٌ بأحرف نزيهة ملونة بألوان حلوى اللولي-بوب، وزغبة مثل بدلات الجري القطنية، ليست مصنوعة من قمحٍ تجاري وذُرةٍ فاسدة، بل من نوع حبوب ذي اسمٍ يصعب نطقه – قديمٍ وطقوسي. أعيد اكتشاف بذورها في أضرحة ما قبل العهد الكولومبي وفي الأهرامات المصرية؛ المعلومة موثوقٌ بها، بيد أنك إن فكرت حقاً في شأنها، فأمر تلك الحبوب غير مطمْئن. فتلك الرقائق لن تعيد إليك طاقتك التي فقدتها كما الفُرشاة التي تعيد اللمعان للقِدر من جديد، بل ستبعث فيك روحاً جديدة من الحيوية، الشباب الذي لا يفنى، تعدك في همسها بالخلود الأبدي. ظهرُ العلبة مفسطنٌ بشرائط لدنية وزهرية كما الأمعاء؛ أما واجهتها فمرسومٌ عليه وجهٌ فسيفسائي من اليشم، وجهٌ دون عينين، وأتوقع أن مسؤولي التسويق في الشركة المصنعة لا فكرة لديهم أن شعارهم ما هو إلا قناع الدفن لدى الآزتيك.

---

(137) اليمبوس: موطن الأرواح التي تحرم دخول الجنة لغير ذنبٍ اقترفته كأرواح الأطفال غير المعمدين.

وفي شرف هذه الرقائق الجديدة فقد أجبرتُ نفسي على الجلوس إلى طاولة المطبخ كما تقتضي آداب المائدة، مع وضع الآنية في ترتيبها الصحيح، طقم المائدة كاملاً حتى مع المناديل الورقية. فأولئك من يعيشون وحدهم يسهل عليهم الانزلاق إلى عادة تناول الطعام عمودياً: فلماذا تتعنين التأنق إن لم يكن لديك من أحدٍ تشاركينه وجبتك أو تخشين نقده لك؟ لكن التساهل في جانبٍ ما قد يقود بك إلى جنون الفوضى في كل مكان.

البارحة كنت قد قررت غسل ملابسي، قررت أن أبهّم[138] في وجه الرب بإنجازي عملاً يوم الأحد. وإن كنت لا أظنه يكترث أصلاً لأي يومٍ من الأسبوع نحن: ففي الجنة، وحتى في اللاوعي كما قيل لنا - فلا وجود للوقت. مَن أردتُ أن أبهّم في وجهه حقاً هي ميرا. لا يجدر بي أن أعدّ فراشي، تقول لي ميرا، لا يجدر بي حمل سلةٍ ثقيلة من ملابسي القذرة الملطخة وأنزل بها أسفل السلم المتقلقل المؤدي إلى القبو، حيث الغسالة المسعورة العتيقة.
إذاً من يتولى غسل ملابسي؟ حكماً هي ميرا. طالما أنا هنا فلم لا أقحم حمولةً من ملابسك في الغسالة. وهكذا كلتانا تدّعي أن ميرا ليست المسؤولة حقاً عن غسل ملابسي. نتآمر على مواصلة هذا السرد - والذي غدا يوماً بعد يوم خيالاً في حد ذاته - أن بوسعي حقاً الاعتناء بنفسي. لكن عبء ادّعائنا هذا قد أخذ يثقل عاتق ميرا. فقد باتت تعاني من آلامٍ في ظهرها. والآن تريد أن ترتب لي مسألة إحضار امرأةٍ تعتني بشؤون بيتي، امرأةٍ متطفلة غريبة تقتحم عليّ حياتي. حجتها هو ما آل إليه حال قلبي. فقد اكتشفت الأمر بطريقةٍ ما، عن الطبيب وتنبؤاته وعقاره السحري الذي لا يتأتى منه أي شيء - أظنها عرفت عن طريق ممرضته، تلك المرأة ذات الشعر الأحمر المصبوغ وفمها الذي لا تطبقه البتة. لا سر ينجو في غربال هذه البلدة.
أخبرت ميرا أن ما أفعله بملابسي القذرة هو شأنٌ يخصني أنا وحسب: سأظل أدفع عني تلك المرأة أطول وقتٍ ممكن. كم سيكون الأمر محرجاً لي حينها؟ كثيراً. فلا

(138) يبهِّم: يضع إبهامه على أنفه ويبسط سائر أصابعه استهزاءً وتحدياً.

أريد لشخصٍ آخر أن ينقّب في عيوبي، في بقعي وروائحي. لا بأس إن فعلت ميرا ذلك، فأنا أعرفها وهي تعرفني. أنا صليبها الذي تحمله على ظهرها: أنا من يصنع منها شخصاً طيباً جداً في أعين الآخرين. كل ما عليها فعله هو ذكر اسمي بينما تقلب عينيها، وإذ بهم يمدون إليها يد التساهل والغفران، إن لم تفعلها الملائكة، فعلى الأقل الجيران، فالجيران الملعونون أصعب إرضاءً بكثير.

لا تسيئي فهمي. أنا لا أهزأ من الطيبة، وهي ما أراه أصعب تفسيراً من الشر، وإن كانت تماثله تعقيداً. لكن أحياناً من الصعب لي أن أطيقها.

لذا وبعد قراري غسلَ ملابسي - متوقعةً ثغاء ميرا القلق لدى اكتشافها كومة المناشف المغسولة والمطوية، لدى رؤيتها لي معتدةً بنفسي وتكشيرة عريضة ترتسم على وجهي - مع تلك الصورة في خيالي شددت الرحال إلى مغامرتي في غسيل ملابسي. نقبت في السّبَت، بالكاد أنقذت نفسي من الوقوع فيه رأساً على عقب، والتقطت ما رأيتني قادرةً على حمله، متفاديةً الاستغراق في الحنين إلى ثيابي الداخلية من الماضي السحيق. كم كانت رائعة! ما عادوا يصنعون مثلها هذه الأيام، ليس مع ذات الأزرار المخفية، المطرزة يدوياً. أو ربما لا يزالون يصنعونها، لكني لم أر شيئاً منها، وعلى كلٍّ لم أعد أطيق تكلفتها، وما عادت تليق بي. ثيابٌ كهذه تتطلب خصراً أهيفَ.

رميت باختياراتي في السلة البلاستيكية، وانطلقت في المسير، خطوةً خطوة، جانبياً أسفل السلم، مثل ليلى ذات الرداء الأحمر في طريقها إلى كوخ جدتها عبر العالم السفلي. عدا أني أنا الجدة، وفيّ يكمن ذئبي الشرير. يقضمني لقمةً، لقمة.

نجحت في بلوغ الطابق الأرضي. واصلت مسيري في الرواق نحو المطبخ، وها قد أنرت القبو وسأغطس مرتعشةً في قاعه الرطب. وما إن خطوت على أول درجة انتابني الذعر. أرجاء البيت الذي كنت قادرة على إيجاد سبيلي فيه بكل سهولةٍ ويسر ها قد غدا مكامن غادرة. أطر النوافذ منصوبةٌ كما الشراك، مستعدة للوقوع على يديّ، مسند القدمين يتوعد بالانهيار تحتي، أرفف الخزائن العلوية مفخخة بالآنية الزجاجية المتقلقلة. وفي منتصف طريقي أسفل سلم القبو أدركت العبث من قراري. فزاوية انحدار السلم شديدة، الأخيلة كثيفة معتمة، الرائحة المنبعثة من

الأسفل آثمة، وكأن أحدهم قد صب إسمنتاً التوّ كي يخفي جثة شريك حياته الذي سمّمه بكل براعة. على الأرض، في القاع، رأيت بركةً من الظلام، عميقة ومترأرئة ورطبة مثل بركة ماءٍ حقيقية. ربما هي بركة حقيقية؛ فربما النهر قد انبجس عن الأرض، كما رأيت مرةً على قناة الطقس. فأي عنصرٍ من عناصر الطبيعة الأربعة قد ينزاح عن موقعه أي لحظة: النار قد تندلع من الأرض، الأرض قد تذوب من تحت قدميك فتهوي، الريح قد تعصف بك كما الصخر، تقتلع السقف من أعلى رأسك. فلم لا يكون فيضاناً؟

تناهى إلى مسامعي لحظتها صوت قرقرة، قد تكون أو لا تكون صادرةً عن أحشائي؛ شعرت بقلبي ينقبض مذعوراً في صدري. كنت أعرف أن الماء مراوغ، قد يفاجئك على حين غفلة، لذا فالأفضل ألا أتابع الهبوط. رميت عني بسلة الغسيل على سلم القبو، هجرتُها هناك. ربما من الأجدر بي أن أعود لاحقاً كي ألتقطها، وربما من الأجدر بي ألا أفعل. شخصٌ آخر سيلتقطها. ميرا ستفعل ذلك، بشفتين مزمومتين. ها قد جنيتُ على نفسي، منحت ميرا العذر كي تدفع بتلك المرأة في حلقي. استدرت، كدت أقع، لكني تمسكت بالدرابزين، وسحبت نفسي صعوداً إلى الأعلى، درجةً درجة، إلى النسيم العليل لضوء النهار في المطبخ.

كانت الأجواء رمادية خارج النافذة، كما الزي الرمادي عديم الروح، والسماء مسامية كما الثلج الذائب البالي. أوصلت قبس غلاية الشاي؛ وسرعان ما استهلت تهويدتها البخارية. ستدركين أن أمور حالك قد استفحلت إلى حدٍّ بعيد متى ما شعرت بأن آنيتك هي من أخذت تعتني بك لا العكس. ومع ذلك، فقد طمأنت قلبي بتهويدتها.

كنت قد أعددت لنفسي كوباً من الشاي. شربته، ثم غسلت الكوب. كنت ما أزال قادرة على غسل صحوني، مهما كانت حالتي. ثم وضعت الكوب جانباً، على الرف مع غيره من الأكواب، أكواب جدتي آديليا الموشاة بالنقوش المرسومة يدوياً، الزنابق مع الزنابق، زهور البنفسج مع البنفسج، كل آنيةٍ برفقة مثيلاتها. على الأقل خزائني لم تفقد عقلها بعد. لكن صورة ملابس الغسيل المرمية على سلم القبو أخذت

تزعجني. كل تلك الخرق، كل تلك الشظايا المجعدة، بدت كما الإهاب الأبيض المطروح عن الجسد. بيد أن الإهاب لم يكن أبيض بالكامل. فقد كان البيّنة: البينة على أن تلك الملابس البيضاء هي الورق الذي يخربش عليها جسدي، مخلفاً فيها الدلائل المشفرة على انقلابه البطيء، وإن الحتمي، على نفسه.

ربما عليّ أن أحاول التقاط تلك الملابس لاحقاً، ثم إقحامها بعيداً في السَّبَت، ولن يعرف أحدٌ بما جرى، الأحد الذي أعنيه هو ميرا.

يبدو أن توقاً للترتيب قد غمرني مؤخراً.

خيرٌ لك أن تأتي متأخراً من ألّا تأتي أبدا. كذا اعتادت ريناي أن تقول.

أوه ريناي. كم أتمنى لو كنتِ هنا. عودي إليّ واعتني بي!

بيد أنها لن تعود. عليّ أن أعتني أنا بنفسي. بنفسي وبلورا، فكذا كان العهد المغلّظ الذي أخذته على نفسي.

متأخرة خيرٌ من أبدا.

أين كنت؟ كان شتاءً. لا، لقد فرغت من الشتاء.

كان ربيعاً. ربيع عام 1936. هو ذاك العام حيث بدأت الأمور تتداعى. بمعنى أنها واصلت التداعي، لكن في صورةٍ أبلغ جدية ووضوحاً.

الملك إدوارد كان قد تنازل عن العرش في ذاك العام؛ اختار الحب على الطموح. لا. اختار طموح دوقة ويندسور على طموحه. هذا هو الحدث الذي يذكره الناس. والحرب الأهلية في إسبانيا كانت قد اندلعت. لكن تلك الأحداث لن تقع إلا بعد شهور. إذن ما الحدث الذي تميّز به مارس؟ هناك حدثٌ ما. ريتشارد يخشخش صحيفته على مائدة الفطور، قائلاً، ها هو قد فعلها.

كنا نحن الاثنان فقط على المائدة يومها. فلورا ما كانت تتناول فطورها معنا، عدا نهاية الأسبوع، ثم أخذت تتحاشى مشاركتنا المائدة معظم الأيام متظاهرةً بالنوم حتى وقتٍ متأخر. أخذت تتناول فطورها أيام الأسبوع وحدها في المطبخ لأن عليها الذهاب إلى المدرسة. أو بالأحرى لم تكن وحدها: السيدة مرغترويد كانت حاضرة

معها. ثم يقود بها السيد مرغترويد إلى المدرسة، ويقلّها من هناك في طريق العودة، فمسألة ذهاب لورا مشياً إلى المدرسة لم ترق لريتشارد. ما لم يرق له حقاً هو احتمال شرودها.

كانت تتناول الغداء في المدرسة، وتأخذ دروس العزف على الفلوت يومي الثلاثاء والخميس، لأن تعلم العزف على آلة موسيقية كان مادةً إجبارية. جرّبت البيانو ولم تنسَق معه، وذات الشيء مع التشيلو. قيل لنا إن لورا تنفر من التمارين، رغم أنها لم تمانع مشاركتنا في الأمسيات بعضاً من النحيب الحزين الناشز للفلوت. النغمات الناشزة بدت متعمدة.

"سأتحدث معها". قال ريتشارد.

"ليس لنا حقٌ في إبداء أي شكوى، فهي تنفذ ما طلبته أنت".

عَودة إلى الصحيفة الصباحية. بما أن ريتشارد كان يحملها بيني وبينه فقد تمكنت من قراءة العنوان الرئيسي. هو عنى به هتلر، والذي زحف بقواته إلى الراين لاند. كان قد خرق القواعد، اجتاز الخط الأحمر، ارتكب الإثم المحرم. حسنٌ، قال ريتشارد، الأعمى كان سيرى الأمر واقعاً لا محالة. أما البقية فقد أخذهم هتلر على حين غرة. وها هو يبهّم في وجوههم. رجلٌ ذكي. لمح ثغرةً في الجدار، رأى الفرصة وانتهزها. لا بد أن تسلمي له بذكائه.

اتفقت معه، بيد أني لم أكن منصتة إليه. عدم الإنصات كان السبيل الوحيد أمامي في تلك الشهور للإبقاء على توازني. كان عليّ أن أحجب كل الأصوات المحيطة بي: مثل السائر على حبل التوازن فوق شلالات نياجرا، ما كان في وسعي التلفت حولي، خوفاً من الانزلاق. فما بيدك أن تفعليه إن كان كل ما يشغل بالك في كل ثانية من نهارك بعيداً جداً عن الحياة التي يفترض بأنك تعيشينها؟ بعيداً جداً عما هو على الطاولة في ذاك الصباح، عن مزهرية الوردة، الوردة هي زهرة نرجسٍ بيضاء، من زبدية الزهور المتكلفة التي أرسلتها لنا وينيفريد. كم هي رائعة تلك الزهور في هذا الوقت من العام. شذاها نَفسٌ من الأمل.

وينيفريد ظنت أني تافهة لا ضرر مني. بمعنى آخر، ظنّتني غبية. لاحقاً – بعد عشرة أعوامٍ في المستقبل –ستقول لي، عبر الهاتف لأننا ما عدنا نلتقي شخصياً، "ظننتك غبية، لكنك في الحقيقة الشيطان نفسه. لطالما كرهتِني وريتشارد لأن والدك جنى على نفسه وأفلس وأحرق مصنعه بيديه، لذا حقدتِ علينا".

"أبي لم يحرق مصنعه،" كنت سأجيبها. "ريتشارد هو من دبّر حرقه".

"تلك كذبة خبيثة. والدك كان مفلساً لا يملك سنتاً، ولولا مبلغ التأمين على المصنع لما طقتم شراء حبة فاصولياء! نحن من انتشلناكما من المستنقع، أنت وشقيقتك البليدة! لولانا، لغدوتما بغيّتا شارع عوضاً عن الجلوس على مؤخرتيكما مثل مدللتين مولودتين مع ملعقة من ذهب. لطالما منحناك كل شيءٍ على طبقٍ من فضة، لم تضطري إلى بذل أي مجهود، لم تظهري لحظة امتنانٍ واحدة لريتشارد. لم ترفعي إصبعاً كي تساعديه، ولا مرةً واحدة، أبداً".

"نفذت ما كان مطلوباً مني. أبقيت على فمي مغلقاً. أبقيت على ابتسامتي مرسومة. أديت دوري تمثالاً للعرض على الواجهة. لكن ما ارتكبه كان تجاوزاً لكل الحدود. كان عليه أن يبقي لورا خارج الأمر".

"أكاذيب، أكاذيب، أكاذيب! فعلت ذلك نكايةً بأخي، لم تطيقي حقيقة أنك تدينين لنا بكل شيء. كان عليك أن تردي له الصاع صاعين! أنتما الاثنتان قتلتماه بكيدكما، كأنك من وضع المسدس على رأسه وأطلقت الرصاصة".

"ومن قتل لورا إذن؟"

"لورا قتلت نفسها، كما تعرفين جيداً".

"وذات الأمر ينطبق على ريتشارد".

"افتراءٌ وقذف. على أي حال لورا كانت مجنونة ومغفلة. لا أدري كيف لك أن صدقت أي كلمةٍ نطقت بها، عن ريتشارد أو أي أمرٍ آخر. فلا أحد عاقل كان سيأخذ بكلامها!"

لم أطق سماع كلمةٍ أخرى، لذا أقفلت السماعة في وجهها. فقد كنت معدومة القوى أمامها، لأنها في ذاك الوقت كانت تمسك برهينة. ابنتي آيمي.

على أي حال، في عام 1936، كانت وينيفريد لا تزال دمثة معي كفاية، وكنت ما أزال تحت جناحها. ما برحت تجرني معها من حدثٍ اجتماعي إلى آخر – اجتماعات رابطة الصغار، المآدب السياسية النسائية، اللجان التنظيمية لهذا الحدث أو ذاك – تتركني على الكراسي والزوايا، بينما تقضي وقتها في عقد شبكة علاقاتها الاجتماعية. كنت قد أدركت آنذاك أنها لم تكن محبوبة على الإطلاق لدى مجتمعها، بل بالكاد كانت تطاق، احتملنها بداع أموالها، وطاقتها العارمة: فمعظم السيدات في تلك الدوائر العليا كن قد رضين بترك نصيب الأسد من الجهد لها في أي حدثٍ يشاركن فيه.

بين وقتٍ وآخر، إحدى تلك السيدات كانت تنسل إليّ خفيةً وتشير إلى أنها عرفت جدتي – وإن كانت السيدة أصغر في العمر، فستشاركني تمنيها لو أنها التقت بها، في ذاك العصر الذهبي قبل الحرب العظيمة، حيث الأناقة الحقيقية كانت لا تزال موجودة. تلك كانت كلمة السر لديهن: وينيفريد ما هي إلا محدثة نعمة – وصولية، وقحة ورعاعية – وأنّ عليّ أن أجسّد قيماً أخرى عن قيمها. فأرد عليهن بابتسامةٍ مبهمة، وأجيبهن أن جدتي قد ماتت قبل مولدي بزمنٍ طويل. أي بمعنى آخر، لا يحق لهن توقع أي معارضةٍ مني لوينيفريد.

وكيف حال زوجك الذكي؟ اعتدن كذلك أن يقلن لي. ومتى نتوقع سماع الإعلان الكبير؟ الإعلان الكبير هو دخول ريتشارد المعترك السياسي، لم يكن قد خاضه رسمياً بعد، لكنه غدا أمراً محتوماً.

فأجيبهن مبتسمةً، أوه. أظنني سأكون أول من يعرف. لم أصدق ذلك للحظة: توقعت أن أكون الأخيرة.

حياتنا – أنا وريتشارد – كانت قد استقرت على ما افترضته حينها المنوال الذي ستسير عليه حياتي للأبد. أو بالأحرى، كانت لنا حياتان، واحدة في النهار والأخرى في الليل: كانتا متمايزتين عن بعضهما، لكن ثابتتين على حالهما. الرزانة والوقار والنظام وكل شيءٍ ثابتٌ في مكانه، وفي الأعماق، أسفل كل هذا، العنف المحتشم

المصدَّق عليه يسري مثل نقر حذاءٍ إيقاعي ثقيلٍ وحشيّ على أرضيةٍ مكسوة بالسجاد. كنت أستحم كل صباح، كي أتخلص من آثار الليل؛ كي أغسل عن جسدي كل تلك الأشياء التي يدهن بها ريتشارد شعره – كريم عطري باهظ الثمن – فتعلق على سائر أنحاء جلدي.

هل ضايقَته لا مبالاتي بأنشطته الليلية، أو حتى نفوري منها؟ لا، على الإطلاق. فقد كان رجلاً يفضل الغزو على الاتفاق، في كل مصارف الحياة.

أحياناً – وبصورةٍ مطردة مع مضي الوقت – أخذت تظهر عليّ علامات رضوض، بنفسجية، زرقاء، ثم صفراء. كان عجيباً كيف لجسدي أن يرتض بهذه السهولة، كذا علَّق ريتشارد مبتسماً، أرتضُّ من أرق لمسة. لم يسبق له أن كان مع امرأةٍ سريعة التعرض للرضوض هكذا. رأى الأمر يعود إلى كوني حساسة ويافعة.

فخذاي كانا مكانه المفضل، حيث لا أحد سيرى. فأي رضةٍ ظاهرة للعيان كانت ستقف عائقاً أمام طموحه.

أحياناً كان يراودني الإحساس أن تلك الرضوض على جسدي ما هي إلا رموز شفرةٍ ما، تتبرعم على جلدي، ثم تتلاشى، مثل حبرٍ خفي لا يتجلى إلا على نور شمعة. لكن إن كانت حقاً شفرة، فمن ذا الذي يملك مفتاحها؟

كنتُ رملاً، كنتُ ثلجاً – يكتبون عليّ، يعيدون الكتابة عليّ، يمحون كتابتهم عني.

المرمدة

كنت قد زرت الطبيب مرةً أخرى. ميرا قادت بي إلى هناك: بسبب الجليد الأسود والذي تشكل إثر تجمده من بعد ذوبانه، فثلجٌ كهذا زلقٌ جداً بالنسبة لي، كذا أخبرتني ميرا.

الطبيب نقر أضلعي وتنصت على قلبي، عبس ثم ألغى عبوسه، ثم – بعد أن قرر مسبقاً في عقله ما الخطب بي – سألني عن شعوري. أظنه قد صنع شيئاً بشعره؛ إذ لاحظت سابقاً انحساره عن قمة رأسه. هل دلل نفسه بصمغ خصل من الشعر على فروة رأسه؟ أو الأسوأ، زرعه؟ آها، قلت في نفسي. رغم هرولتك الصباحية وساقيك المشعرين فها هو حذاء التقدم في السن أخذ يقرصك ويضيق عليك، وسرعان ما ستندم على كل الاسمرار الذي عرّضت نفسك له. سرعان ما سيبدو وجهك مثل خصيتيك.

ومع ذلك فقد وجدته مزوحاً إلى حدٍّ كريه. على الأقل لا يقول لي، وكيف حالنا اليوم؟لم يشر إليّ مرةً واحدة بصيغة الجمع كما يحلو لغيره من الأطباء: فهو يعي أهمية ضمير المخاطب المفرد.

"النوم يجافيني،" قلت له. "الأحلام تطاردني".

"بما أن الأحلام تطاردك فأنت نائمة". قالها لي بنية إبداء ملاحظةٍ ساخرة.

"أنت تعرف ما أعنيه،" رددت عليه بحدة. "تلك الأحلام توقظني".

"هل كنت تشربين القهوة؟"

"لا". تلك كانت كذبة.

"إذاً لا بد أنه تأنيب الضمير". كان يكتب وصفةً طبية، لا شك أنه قد وصف لي عقاراً لا يضر ولا ينفع. كان يزقزق بينه وبين نفسه: يظن نفسه مضحكاً. على ما يبدو ففي نقطةٍ ما، نحن من بأفعالنا قد نهبنا الحياة، تنقلب وجوهنا السوداء بيضاء؛ ندّعي البراءة مع تقدمنا في السن، على الأقل في أذهان الآخرين. ما يراه الطبيب لدى رؤيته اياي هي امرأةٌ عجوز لا تملك من أمرها شيئاً، وعليه فلا ذنب هناك قد ارتكبته بيديها.

ميرا جلست تقرأ المجلات القديمة في غرفة الانتظار بينما أنا في الحرم المقدس. كانت قد مزقت مقالاً عن التكيف مع التوتر، ومقالاً آخر عن فوائد الكرنب النيء. المقالان لي، كما قالت، وكم كانت راضية باللقية التي عثرت عليها. فهي دائما ما تشخصني. فقد رأت نفسها الوصي على صحتي الجسدية وكذلك الوصية على صحتي الروحية: ودائماً ما ينصب اهتمامها بالذات على حال حركتي المعوية.

كنت قد أخبرتها أني بالكاد أعاني من أي توتر، إذ من أين لي التوتر وأنا أعيش وحدي في الخلاء. أما ما يخص الكرنب النيء فالكرنب ينفخني مثل جيفة بقرة، لذا سأتنازل عن قطف فوائده. أخبرتها ألا نية لي في قضاء حياتي، أو ما تبقى منها، نتنة مثل برميل كَرْوت[139] وأمعائي تقرع مثل زمور شاحنة.

إشاراتي الفجة إلى الوظائف الجسدية لطالما وضعت حدًّا لميرا. قادت بي صامتة بقية الطريق، مع ابتسامةٍ جاسئة على وجهها كما الجبس.

أحياناً أخجل من نفسي.

عودة إلى المهمة في يدي. في يدي هي خير وصفٍ لما أفعل: فأحياناً يبدو لي وكأن يدي هي وحدها من تتولى مهمة الكتابة، لا أنا، أنَّ يدي قد اعتنقت حياةً لها وحدها، وستواصل الحياة على منوالها حتى وإن قطعت عن سائر جسدي، يدٌ محنطة

(139) الكَرْوت – sauerkraut: كرنب مفروم يملح ويخمّر.

مسحورة مثل فتش[140] فرعوني أو كما مخلب الأرنب الذي يعلقه الرجال عن مرايا سياراتهم الأمامية لأجل الحظ. فرغم التهاب المفاصل في أصابعي، فتلك اليد، يدي، قد أظهرت مؤخراً طاقةً مرحة لا مثيل لها، وكأنها رمت بالحيطة بعيداً كي تلتهمها الكلاب. ويقيناً قد بدأت تكتب أموراً ما كنت سآذن بتدوينها لو كانت يدي خاضعة إلى حصافة حكمي.

أقلب الصفحات، أقلب الصفحات. أين أنا الآن؟ أبريل 1936.

في أبريل كنا قد تلقينا اتصالاً من ناظرة مدرسة القديسة سيسيليا، حيث لورا كانت طالبة. أخبرتنا أن الموضوع يتعلق بسلوك لورا. لم يكن موضوعاً يمكن نقاشه على الهاتف.

ريتشارد كان مرتبطاً بشؤون عمله. كان قد اقترح عليّ اصطحاب وينيفريد، لكني أخبرته أن الموضوع بالتأكيد لن يستحق، وأنّ في وسعي تدبر المسألة، وسأعلمه بالأمر إن كان مهماً. كنت قد رتبت موعداً للالتقاء بناظرة المدرسة، والتي نسيت اسمها. كنت قد ارتديت ملابسي على منوالٍ أملت أن يرهبها، أو على الأقل يذكرها بموقع ريتشارد ونفوذه: أظنني ارتديت معطفاً من الكشمير حاشيته من فرو العرس - كان دافئاً بالنسبة للأجواء، لكن بدا مذهلاً - قبعةً مع طائر تُدْرج ميتٍ عليها، أو على الأقل جزء منه. الجناحان، الذيل، والرأس، عيناه الصغيرتان استبدلتا بحبتيْ خرز حمراوين زجاجيتين.

الناظرة كانت امرأةً كهلة هيئتها مثل مشجب ملابس خشبي - عظامها قصمة وتنسدل عليها لفائف نسيجٍ تبدو رطبة. كانت جالسة في حجرتها، متمترسة خلف مكتبها السندياني، كتفاها مرفوعتان حتى أذنيها ذعراً. قبل عام لكنت أنا من سيذعر منها كما هي مذعورة مني الآن، أو بالأحرى مذعورة مما أمثله: أكداسٌ ضخمة من المال. لكني حينها كنت قد اكتسبت ثقةً بنفسي. فقد شهدت تصرفات وينيفريد، وتمرنت عليها. كنت قد احترفت رفع كل حاجبٍ على حِدَته.

(140) الفتَش: شيءٌ كانت الشعوب تنسب إليه قدرةً سحرية على حماية صاحبه أو مساعدته.

ابتسمت لي بعصبية، فبانت لي أسنانها الصفراء السميكة الغاطسة في لثتها مثل حبوب الذرة المتبقية على كوز ذرةٍ نصف مأكولة. تساءلت عما فعلته لورا: لا بد وأنها قد ارتكبت أمراً جدياً مما استدعى إجبار الناظرة على مواجهة ريتشارد الغائب ونفوذه الخفي. "أخشى أن لورا لن يتسنى لها متابعة تعليمها في المدرسة، فقد فعلنا كل ما في وسعنا، ونحن مدركون للظروف المخففة، لكن إن وضعنا كل شيءٍ في الاعتبار فعلينا أيضاً أن نفعل ما هو في صالح بقية طالباتنا، إذ أخشى أن لورا وبكل بساطة هي عامل فوضى".

كنت قد تعلمت آنذاك، قيمة ترك الآخرين يبررون أنفسهم. "عذراً، لكني لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه،" قلت لها بينما بالكاد أحرك شفتيّ. "أي ظروفٍ مخففة؟ وأي عامل فوضى؟" كنت قد أبقيت على يديّ في حجري، ورأسي مرفوعاً مع زاوية ميلٍ بسيط يتناسب مع قبعة طائر التدرج. كنت آمل أن ترى أربع أعينٍ تحدق بها بدلاً عن عينين. ورغم أني ملكت أفضلية الثراء، فهي ملكت أفضلية العمر والخبرة. كان الجو حاراً في المكتب. كنت قد رميت بمعطفي على ظهر الكرسي، ومع ذلك ظللت أتصبب عرقاً كما العتّال.

"قد وضعت الرب في موضع الشك،" قالت لي، "في حصة **المعرفة الدينية**، وهي الحصة التي عليّ أن أقول إنها الحصة الوحيدة التي تثير اهتمامها. لكنها تجاوزت الحدود بكتابة مقالٍ عنوانه "وهل يكذب الرب؟" كان أمراً مقلقاً لبقية زميلاتها في الفصل".

"وما النتيجة التي وصلت إليها؟" سألتها، "بخصوص الرب؟" كنت قد فوجئت بما قالته، بيد أني لم أظهر لها تفاجئي: فقد ظننت أن لورا قد توانت عن الخوض في مسألة الرب، ليس على ما يبدو.

"بالإيجاب". أطرقت رأسها تنظر إلى صفحات مقال لورا المفرودة على المكتب. "تقتبس هنا – فها هو مذكورٌ في سفر الملوك الأول، الفصل الثاني والعشرين – الفقرة حيث يخدع الرب الملك آحاب[141]. "والآن فقد جعل الربُّ روح كذبٍ في

(141) وفقاً للقصة الإنجيلية في سفر الملوك الأول، فقد أراد الرب أن يدخل آحاب – ملك إسرائيل – في حربٍ ضد ملك آرام، حربٍ سيهزم فيها، لذا بث روح الكذب في أنبياء بني إسرائيل كي يتنبؤوا له

أفواه جميع أنبيائك هؤلاء، والربُّ تكلّم عليك بشرّ"، وتواصل لورا قائلةً إن كان الرب قد كذب مرةً واحدة فكيف لنا أن نعرف أنه لم يكرر صنيعه هذا أكثر من مرة، وكيف لنا أن نميز النبوءات الصادقة عن الكاذبة؟"

"أراه استنباطاً منطقياً، على كل الأصعدة،" قلت لها، "فلورا تعرف إنجيلها".

"أراني أجرؤ على الإشارة إلى أن الشيطان ذاته قد يقتبس النص المقدس بما يخدم مصالحه،" قالت لي الناظرة بنبرةٍ ساخطة، "وتتابع مقالها مشيرةً إلى أن الرب، وإن كذب، فهو ليس بمخادع – إذ دائماً ما يبعث بنبيٍّ صادق، لكن الناس هم من لا يصغون. في رأيها فإن الرب هو برج إرسال ونحن أجهزة الراديو العطبة، مقارنة أراها، على الأقل، عديمة الاحترام".

"لورا لم تقصد أن تبدو عديمة الاحترام، ليس اتجاه الرب، ولا بأي شكل".

الناظرة تجاهلت ما قلت. "الأمر لا يكمن فقط في حججها الخادعة، بل في واقع ارتياحها لطرح السؤال من الأساس".

"لطالما سعت لورا إلى البحث عن الأجوبة، إلى معرفة الأجوبة على المسائل المهمة. وأظنك تتفقين معي أن الرب مسألةٌ مهمة. ولا أرى أين عامل الفوضى فيما أخبرتني به".

"هي عامل فوضى بالنسبة للطالبات الأخريات. فهن يعتقدن أنها – تستعرض عليهن. تتحدى سلطة المؤسسات".

"أوليس هذا ما فعله المسيح، أو على الأقل هذا ما ظنه الناس حينها".

لم تتذرع بالحجة الجاهزة بأن تصرفاً كهذا وإن كان يليق بالمسيح فلا يعني أنه يليق بفتاةٍ في السادسة عشر من عمرها. "أخشى أنك لا تعين ما أقصد،" قالت لي بينما تلوي يديها المتشابكتين، تصرفٌ راقبته عن كثب إذ لم يسبق لي رؤيته من قبل. "زميلاتها يعتقدنها – يعتقدنها مضحكة. أو على الأقل بعضهن يرينها هكذا. وهناك أخريات يعتقدن أنها بولشفية. أما البقية فيرينها غريبة الأطوار. على أي حال هي تجذب الانتباه للأسباب الخاطئة".

بالانتصار متى ما استشارهم في دخولها، كلهم ما عدا نبياً صادقاً واحداً هو ميخا بن يملة، صاحب الاقتباس أعلاه والذي أنبأ آحاب بكذب نبوءة بقية الأنبياء.

كنت قد بدأت أرى وجهة نظرها. "لا أظن لورا تتعمد غرابة الأطوار".

"لكن من الصعب تبين ذلك معها!" أخذنا نحدق في بعضنا أعلى المكتب في لحظة صمت. "لها أتباعها، أتدرين،" قالت لي الناظرة في نبرةٍ من حسد. انتظرتني أعي ما قالته، ثم واصلت. "كذلك يتعلق الأمر بغيابها المتكرر. أدرك أنها تعاني من مشاكل صحية، لكن ..."

"وأي مشاكل تعنين؟ لورا لا تعاني من أي شيء".

"حسنٌ، افترضتها تعاني من مشاكل مع كل مواعيد الأطباء ..."

"أي مواعيد أطباء؟"

"ألم تأذني لها؟" وناولتني حزمةً من الرسائل. كنت قد تعرفت على ورق الملاحظات الموسوم باسمي. تصفحتها، لم أكن قد كتبت أياً منها، لكنها تحمل توقيعي.

"حسنٌ،" قلت لها بينما تناولت معطفي العرسيّ وحقيبة يدي. "عليّ أن أتكلم مع لورا. شكراً على وقتك". صافحت أطراف أصابعها. وبالطبع لم يكن من داعٍ للقول أنَّ لورا ما عادت طالبةً في المدرسة.

"لقد بذلنا أقصى جهدنا،" قالت لي المرأة المسكينة. كانت حرفياً على وشك الانتحاب. آنسة فيولينس أخرى، كادحةٌ مأجورة، نيتها صافية لكن عديمة الفائدة. ليست نداً للورا.

في ذاك المساء، لدى سؤال ريتشارد عن سير المقابلة، أخبرته كيف كانت لورا عامل فوضى وذات تأثيرٍ سلبي على زميلاتها. توقعته أن يغضب لكنه في الواقع استمتع بالأمر، حد الإعجاب. أخبرني أن لورا قوية الشكيمة. أن قدراً من الثورة دليلٌ على العزم والطاقة والإبداع. هو نفسه كره المدرسة وصعّب الأمور على معلميه. لم أر أن هذا كان دافع لورا وراء تصرفاتها، لكني لم أقل شيئاً.

لم أذكر له مسألة تزويرها توقيعي على أذونات زيارة الطبيب: فمن شأن ذلك أن يفلت غضبه. فإزعاج المعلمين شيء، والتلاعب شيءٌ آخر. فالتلاعب ينضح برائحة الجنوح.

"ما كان يجدر بك تزوير خط يدي". قلت للورا على انفراد.

"ما كان بوسعي تزوير خط يد ريتشارد. فخطه مختلفٌ تماماً عنّا، لكن خطك أقرب إليّ وأسهل".

"خط اليد أمرٌ شخصي. وكأنك سرقت مني".

بدت مغمومةً للحظة، ثم قالت، "آسفة. كنت فقط أستعيره منك. لم أعتقد أنك ستمانعين".

"أفترض ألا داع لسؤالك عن سبب غيابك عن المدرسة؟"

"لم أطلب أبداً الذهاب إلى تلك المدرسة. لا أنا رقت لهم ولا هم راقوا لي. لم يأخذوني على محمل الجد. ليسوا بأناسٍ جديين. إن كان لزاماً عليّ البقاء هناك طوال الوقت، كنت سأمرض دون شك".

"وكيف قضيت وقتك؟ متى كنت خارج المدرسة؟ ما الذي كنت تفعلينه؟" كنت قلقة إذ ربما كانت تلتقي بشخصٍ ما – رجلٍ ما. فقد كادت تبلغ العمر لأمور كهذه.

"أوه، هنا وهناك،" أجابتني لورا. "إما أقضي وقتي في وسط المدينة، أو أجلس على مقعد حديقة وما شابه. أو أجول في الأرجاء. رأيتك، عدة مرات، لكنك لم تريني. أظنك كنت تتسوقين وقتها". شعرت بالدم يفور في قلبي، ثم انقبض، مذعوراً، وكأن يداً اخترقت صدري وقبضت عليه. لا بد أن لوني قد شحب.

"ما بالك؟" سألتني لورا. "ألست على ما يرام؟"

في شهر مايو من ذاك العام قطعنا المحيط إلى إنجلترا على متن بيرينجيريا، ثم عدنا إلى نيويورك على متن الرحلة الأولى للملكة ماري. الملكة كانت الأضخم والأفخم رفاهيةً من بين مثيلاتها من بواخر المحيط، أو كذا كتبوا عنها في كل الكتيبات. كانت حدث العصر كما وصفها ريتشارد.

وينيفريد قدمت معنا. وكذلك لورا. فرحلة كهذه ستفيدها كثيراً، هذا ما قاله ريتشارد: فقد بدت ذابلة وشديدة النحول، لا شيء يشغلها منذ خروجها المفاجئ من المدرسة. الرحلة كانت ستمثل تجربة تثقيفية لها، تجربة من النوع الذي فعلاً ستستفيد منه فتاةٌ مثلها. وفي كل الأحوال ما كان بيدنا تركها وحدها في البيت.

العامة ما كانت لتكتفي من الحديث عن الملكة ماري. فقد خنقوها تصويراً

ووصفاً، تماماً كما خنقوها بديكورات تصميمها، مسارات الإنارة على سقوفها، الصفائح البلاستيكية الرقيقة التي كسوها بها، الأعمدة المحززة وحواف خشب القيقب – طبقات الحماية الباهظة في كل مكان. ورغم كل هذا وذاك فقد أبحرت كما الخنزير المتمرغ في الوحل، والأدهى أنَّ مصطبة ركاب الدرجة الثانية كانت تطل على مصطبة ركاب الدرجة الأولى، لذا ما كان بوسعك التجول فيها دون أن تضحي عرضةً لأعين المعدمين المتزاحمين على الدرابزون يتفرسون النظر فيك.

أصبت بدوار البحر في اليوم الأول، لكني تحسنت بعد ذلك. كان هناك الكثير من الرقص. كنت قد تعلمت الرقص آنذاك؛ بما يكفي، لكن ليس حد الإتقان. (إياك أن تنقني فعل أي شيء، قالت لي وينيفريد، إذ ستبدين يائسة). رقصتُ مع رجالٍ غير ريتشارد – رجالٍ عرفهم من خلال عمله، رجالٍ عرّفني بهم. اعتن لي بأبريس، اعتاد أن يقول لكل رجلٍ من هؤلاء، مبتسماً، مربتاً على ذراعه. وأحياناً كان يتوجه هو للرقص مع نساء أخريات، زوجات الرجال الذين عرفهم. وأحياناً كان يغادر المكان كي يدخن سيجارة أو يجول في المصطبة، أو هذا ما اعتاد قوله لي. كنت أظنه قد غادر حرداناً أو متململاً. فكلما غادر كان يغيب عن ناظري لأكثر من ساعة. ثم يعود، يجلس على طاولتنا، يراقبني أرقص جيداً بما فيه الكفاية، فأتساءل أين كان طوال تلك المدة.

كنت قد قررت أنه ساخط، لأن الرحلة لم تسر كما يشتهي. فقد عجز عن تأمين حجوزات العشاء التي كان يريدها في فيراندا غريل، لم يتسنَّ له الالتقاء بالشخصيات التي أراد الالتقاء بها. ففي أرضه كان حبة بطاطس كبيرة، لكن على متن الملكة ماري فما كان سوى حبة بطاطس صغيرة جداً. ووينيفريد كذلك كانت بطاطس صغيرة: كل حيويتها قد ذهبت سدىً. فأكثر من مرة وقعت عيناي عليها تتعرض للصد على يد سيدات حاولت التقرب منهن. ثم تعود تجر أذيال الخيبة إلى ما تدعوه "حشدنا"، يحدوها الأمل ألا أحد قد لاحظ ما جرى لها.

لورا لم ترقص. لم تعرف كيف ترقص، وما كان لها أي اهتمامٍ فيه؛ وعلى أي حال فقد كانت يافعة جداً. اعتادت أن تنغلق على نفسها في مقصورتها من بعد تناول

العشاء؛ قالت لي إنها تقرأ. في اليوم الثالث من الرحلة، على مائدة الفطور، عيناها كانتا محتقنتين وحمراوين.

في منتصف النهار ذهبت بحثاً عنها. وجدتها على كرسي من كراسي المصطبة متدثرةً حتى عنقها بلحافٍ بليدي، تراقب كسلى مباراة في لعبة الكُتّ. جلست جانبها. امرأةٌ سمراء يافعة أخذت تذرع المكان تنزه سبعةً من الكلاب، كل كلبٍ منها مقيد برسنه الخاص؛ كانت ترتدي بنطالاً قصيراً رغم برودة الجو، لها ساقان سمراوان مسفوعتان.

"بوسعي الحصول على وظيفةٍ كهذه،" قالت لورا.

"أي وظيفة؟"

"اصطحاب الكلاب للتنزه. كلاب أناسٍ آخرين. فأنا أحب الكلاب".

"لكن ما كنت لتحبين مالكيها".

"أنا لن أنزه مالكيها". كانت ترتدي نظارتها الشمسية، بيد أنها كانت ترتعش.

سألتها، "أهناك خطبٌ ما؟"

"لا".

"تبدين باردة. أظنك ستصابين بمرضٍ ما".

"لا خطب بي. كفي عن مضايقتي".

" أنا قلقة عليك، بطبيعة الحال".

"لا داع كي تقلقي. أنا في السادسة عشر. أستطيع معرفة إن كنت سأصاب بالمرض أم لا".

"لقد وعدت أبي أن أرعاك،" قلت لها في نبرةٍ جافة. "ووعدت أمي كذلك".

"كان غباءً منك".

"بلا شك. لكني كنت يافعة، فكيف كان لي أن أعرف، هذا ما يعنيه أن تكوني يافعة".

خلعت لورا نظارتها الشمسية، لكنها لم تنظر إليّ. "وعود الآخرين ليست ذنبي، أبي رمى بي عليك. لم يعرف حقاً ما يجدر أن يفعله بي – بنا. لكنه مات الآن، كلاهما ماتا، لذا لا بأس. أعفيك من وعدك لهما. ما عدتِ مطالبة بشيء".

"لورا ما الأمر؟"

"لا شيء. لكن كلما حاولت أن أفكر – كلما حاولت ترتيب شؤون حياتي – تأتين وتقررين أني مريضة وتبدئين بإزعاجي. تصرفك هذا يفقدني عقلي".

"ليس منصفاً ما قلته التو. لقد حاولت وحاولت. لطالما منحتك أفضلية الشك، منحتك أقصى ما لدي..."

"فلندع الأمر هنا. انظري، يا لها من لعبةٍ سخيفة! أتساءل لمَ يُطلقون عليها اسم الكت؟"

عزوت حالتها إلى حزنها العتيق – إلى حدادها، على آفيليون وعلى كل ما حدث هناك. أم تراها كانت لا تزال مولعة بأليكس توماس؟ كان عليّ أن أسألها، أن أصر على أخذ إجابةٍ وافية منها، لكني أشك إن فعلت كانت ستبوح لي بحقيقة ما يزعجها.

أوضح ما أذكره عن تلك الرحلة، عدا لورا، هو النهب الذي وقع، في كل أرجاء السفينة، يوم رست في الميناء. كل شيءٍ يحمل وسم الملكة ماري انتهى به المآل إلى حقيبة يدٍ أو حقيبة سفر – أوراق الكتابة، الفضيّات، المناشف، حاملات الصابون، النثريات – أي شيءٍ ليس موثقاً بالأرضيات. حتى أن هناك من فكّ مقابض الحنفيات، المرايا الصغيرة، مقابض الأبواب. ركاب الدرجة الأولى كانوا الأسوأ من بين الجميع؛ لكن لم الاستغراب، فلطالما كان هوس السرقة داء الأغنياء.

فما المنطق إذن وراء كل النهب الذي وقع؟ التذكارات. فقد احتاج هؤلاء الناس إلى شيءٍ يذكرهم بأنفسهم. كم أمرها غريب، اقتناص التذكارات: الآن تغدو آنذاك حتى في آنيّة وقوعها. إذ لا تصدقين فعلاً أنك هناك، لذا تنهبين الدليل على وجودك، أو ما تظنينه خطأً الدليل.

فأنا عن نفسي، نهبتُ مرمدة.

الرجل ذو الرأس المشتعل

ليلة البارحة تناولت حبةً من تلك الحبوب التي وصفها لي الطبيب. خلدت للنوم على الفور، لكني حلمت، وهذا الحلم لم يطرأ عليه أي تحسن عن أي حلمٍ راودني قبل انتفاعي بالطب الحديث.

كنت واقفة على رصيف القارب في آفيليون، قطع الجليد المتكسر المخضر الطافية على النهر ترنُّ حوالي كما الأجراس، لكني لم أكن أرتدي معطفاً شتوياً – بل فستاناً قطنياً موشى بالفراشات. وكذلك قبعةً من زهورٍ بلاستيكية ألوانها شنيعة – حمراء فاقعة وأرجوانية شاحبة – مضاءة من الداخل بمصابيح جداً صغيرة.

وأين قبعتي؟ سمعت لورا تقول لي، في صوتها الطفولي حين كانت في الخامسة من عمرها. نظرت للأسفل اتجاهها، لكن ما عدنا طفلتين. فلورا قد تقدم بها العمر، مثلي؛ عيناها كانتا حبتيْ زبيبٍ مجفف. ارتعبت، واستيقظت من منامي.

كانت الثالثة صباحاً. انتظرت إلى أن توقف قلبي عن الاعتراض، ثم تلمست طريقي أسفل السلم وأعددت لنفسي كوب حليبٍ دافئ. كان عليّ أن أدرك أن الحبوب لن تنفعني بشيء. فليس بيدك شراء اللاوعي بثمنٍ زهيد.

ومع ذلك فلنتابع.

ما إن غادرنا الملكة ماري، أمضت العائلة ثلاثة أيامٍ في نيويورك، ريتشارد أراد أن ينهي عملاً له هناك؛ واقترح على بقيتنا قضاء الوقت في ارتياد المعالم السياحية.

لورا لم تشأ الذهاب إلى الروكيتس، أو الصعود إلى قمة تمثال الحرية أو الإمباير

ستَيت. ولا أرادت التسوق كذلك. كل ما أرادت فعله، كما قالت، هو التجول في الشوارع وتأمل ما فيها، لكن ريتشارد رأى خطورةً في تجولها وحدها، لذا رافقتها. لم تكن لورا بالرفقة المتحمسة – وهو ما كان مبعث راحةٍ لي من بعد وينيفريد، والتي دائماً ما أصرت أن تبدو بكامل حيويتها ونشاطها بما يفوق قدرة أي امرأةٍ طبيعية.

بعد ذلك قضينا عدة أسابيع في تورنتو، بينما ريتشارد يتابع أعماله. ثم توجهنا إلى آفيليون. كنا سنبحر هناك، أخبرنا ريتشارد. نبرته كانت توحي وكأن الإبحار هو الشيء الوحيد الذي يصلح القيام به في ذاك المكان، كما وكانت توحي بكونه سعيداً أيضاً بالتضحية بوقته الثمين كي يلبي نزواتنا. أو، بأسلوبٍ ألطف، يرضينا – يرضيني، لكن يرضي لورا أيضاً.

بدا لي وكأنه بات يرى لورا لغزاً، لغزاً من شأنه هو أن يحله. كنت قد وقعت عليه يختلس النظر إليها في لحظات غريبة، ذات النظرة التي تعلوه متى اطلع على صفحات سوق الأسهم – باحثاً عن المقبض، الليّة، المسكة، الوتد، طريقه للدخول. فوفقاً لوجهة نظره عن الحياة، فلكل شيءٍ مقبضٌ أو ليّة. إما ذاك، أو أن له سعر. أراد لورا طوع بنانه، أراد عنقها تحت حذائه، بألطف صورةٍ ممكنة. لكن لورا لم يكن لها من عنق. لذا بعد كل محاولة من محاولاته، كان يُترك واقفاً مع ساقٍ واحدة مرفوعة في الهواء، مثل صياد دببة يتموضع للصورة بيد أن الدب المذبوح قد تلاشى.

كيف فعلتها لورا؟ ليس بمعارضته، إذ ما عادت تعارضه: وقتذاك كانت قد أخذت تتحاشى الاصطدام به. بل فعلتها بالتراجع للوراء، الاستدارة، ومغادرة المكان تاركةً إيّاه فاقداً توازنه. كان دائماً ما يندفع نحوها، دائماً ما يحاول الإمساك بها، ودائماً ما ينتهي به الأمر قابضاً على هواء.

ما سعى إليه هو رضاها عنه، بل حتى نيل إعجابها. أو ربما ببساطة أراد امتنانها. شيئاً من هذا القبيل. مع فتاةٍ يافعة أخرى لربما جرب إهداءها قلادة من اللؤلؤ أو سترة من الكشمير – تلك الأشياء التي يفترض بالفتيات في عمر السادسة عشر أن يتقن إليها. لكنه كان أدرى بألا طائل من الاحتيال على لورا بإهدائها أياً من تلك الهدايا.

قلت في نفسي، الحجر سيتفجر دماً قبل أن يصل مأربه. لن يفك لغزها أبداً. ولورا لا سعر لها، لأنه لا يملك أي شيءٍ تريده. وفي صراع الإرادة، ضد أي شخصٍ كان، فرهاني دائماً ما كان على لورا. فبطريقتها الخاصة كانت عنيدة، عصيةً على الخضوع لأحد.

ظننتها ستتلهف لقضاء بعض الوقت في آفيليون – فقد كانت كارهة لمغادرته – لكن حين أتى ذكر خطة ذهابنا إلى هناك، بدت غير مكترثة. ما كانت لتمنح ريتشارد الفضل في أي شيء، أو تلك كانت قراءتي للوضع حينها. "على الأقل سنرى ريناي،" كان التعليق الوحيد الذي أدلت به.

"أخشى أن ريناي ما عادت تعمل لدينا،" أخبرنا ريتشارد، " فقد طلبنا منها المغادرة". متى حدث هذا؟ مؤخراً. قبل شهر، عدة أشهر؟ ريتشارد كان مبهماً في إجابته. كما أخبرنا فالمسألة تتعلق بزوج ريناي، والذي أسرف في الشراب حد الثمالة معظم الوقت. لذا فأعمال الترميم في البيت لم تكتمل على النحو المطلوب والمرضي، وريتشارد لم ير أي فائدة في صرف المال على الكسل، على ما يمكن أن يعتبره حتى عمل عصيان.

"لم يرد لريناي أن تكون موجودة هنا متى ما قدمنا،" قالت لي لورا. "فقد عرف أنها ستنحاز إلى طرف ضد طرف".

كنا نتجول في الطابق الأرضي لآفيليون. البيت نفسه بدا متقلصاً، الأثاث مغطى بالملاءات، أو ما تبقى من الأثاث – فبعض قطع الأثاث الضخمة، الغامقة، كانت قد أزيلت، أفترض استجابةً لأوامر ريتشارد. كان لي أن أتصور وينيفريد تقول إنها لا تتوقع من أحد أن يتعايش مع بوفيه مفسطن بعناقيد عنب غليظة خشبية مكتنزة لا تسر الناظرين. الكتب المجلدة كانت لا تزال في المكتبة، لكن راودني الإحساس أنها لن تبقى لأمدٍ أطول. صور رؤساء الوزراء مع جدي بنجامين كانت قد أزيلت: أحدهم، لا بد وأنه ريتشارد، قد انتبه أخيراً إلى وجوههم الملونة.

فيما مضى تحلّت آفيليون بالاستقرار حد الصلابة والعناد – جلمودٌ مجحدرٌ

ضخم وارتمى في وسط تيار الزمن، رافضاً التزحزح لأي شخصٍ كان – بيد أنها غدت رثة الآن، نادمة، وكأنها ستنهار على نفسها. ما عادت تتحلى بشجاعة الحفاظ على خيلائها.

"كم محبطٌ وضعها،" قالت وينيفريد، "الغبار في كل مكان، وهناك فئرانٌ في المطبخ". فقد رأت غائطها منتثراً، وكذلك رأت لاحسات السكّر. لكن الزوجين مرغرترويد سيصلان لاحقاً على القطار، وبرفقتهما خادمان آخران، خدمٌ جدد، سينضمون إلى حاشيتنا، ولدى وصولهم ستترتب كل الأمور ونغدو جاهزين للإبحار، عدا طبعاً (قالتها ضاحكةً) السفينة بحد ذاتها، تعني حورية الماء. ريتشارد كان في بيت القارب يتفحصها. كان من المفترض أن يكشطوا الحورية ويعيدوا طلاءها تحت إشراف ريناي ورون هيكنز. لكنه أمرٌ آخر فشلا في إنجازه. وينيفريد عجزت عن رؤية ما يريده ريتشارد بالحوض القديم ذاك – إن كان ريتشارد يتوق حقاً للإبحار، فيجدر به حرق الديناصور القديم وإغراقه واستبداله بقاربٍ جديد.

"أظنه رأى قيمته العاطفية،" أجبتها، "لنا أعني – لي ولورا".

"وهل يحمل قيمة عاطفية لكما؟" سألتنا وينيفريد بابتسامتها المتسلية.

"لا،" أجابتها لورا. "ولم عساه يحمل قيمةً عاطفية لنا؟ فأبي لم يصطحبنا للإبحار عليه مرةً واحدة. اصطحب فقط كالي فيتسيمونز". كنا في حجرة الطعام حينها: على الأقل أبقوا على المائدة الطويلة. تساءلت حينها عما سيقرره ريتشارد، أو بالأحرى، وينيفريد، بخصوص تريستان وإيزوليت وحكايتهما الرومانسية الزجاجية العتيقة.

"كالي فيتسيمونز حضرت الجنازة،" أخبرتني لورا. كنا وحدنا آنذاك، وينيفريد كانت قد صعدت إلى الأعلى كي تنال ما تسميه "قسط الجمال". تضع على عينيها كمادات قطنية مغمسة بزيت عشبة بندق الساحرة، وتغطي وجهها بقناعٍ طينيٍ أخضر باهظ الثمن.

"أوه؟ لم تخبريني بذلك".

"نسيت. ريناي كانت مستشيطة غضباً منها".

"لحضورها الجنازة؟"

"لعدم حضورها في وقتٍ أبكر. كانت وقحة جداً معها، قالت لها، `قد سبق السيف العذل، لا قيمة لمجيئك الآن هنا´".

"لكنها لطالما كرهت كالي! لطالما كرهت بقاءها في البيت! اعتبرتها عاهرة!"

"أظنها لم تكن عاهرة بما فيه الكفاية في نظر ريناي، فقد تكاسلت في أدائها، فشلت في تنفيذ كامل متطلبات عملها".

" تقصد عملها كعاهرة؟"

"حسنٌ، ريناي رأت أنها طالما بدأت علاقتها مع أبي فقد كان من الأجدر بها أن تواصل حتى النهاية. على الأقل لو كانت هناك، لدى مرور أبي بكل تلك الأوقات الصعبة، لربما شغلت باله عن تلك الأوقات".

"ريناي قالت كل هذا؟"

"ليس حرفياً، لكن المعنى بين الأسطر كان جلياً".

"وما الذي فعلته كالي؟"

"ادعت أنها لم تفهم شيئاً. من بعدها تصرفت كما يتصرف الجميع في الجنازات. أخذت تبكي وتلقي الأكاذيب".

"أي أكاذيب؟"

"قالت إنها حتى وإن لم تتفق مع أبي في وجهات النظر السياسية، فأبي كان رجلاً صالحاً، صالحاً حقاً. ريناي علقت قائلةً العاهرة تلوم السياسة، لكن من وراء ظهرها".

"أظنه حاول أن يكون ذلك. أعني، رجلاً صالحاً".

" عدا أنه لم يبذل أقصى جهده. أتذكرين ما اعتاد أن يقوله لنا؟ أننا تُرِكنا على يديه، وكأننا لطخةٌ ما".

"لقد بذل أقصى جهده".

"أتذكرين ليلة الكريسماس حين تنكر على هيئة سانتا كلوز؟ كان قبل وفاة أمي. كنت التو قد بلغت الخامسة من العمر".

"نعم أذكر. وهذا ما أعنيه. فقد حاول".

"كم كرهت ما فعل تلك الليلة، لطالما كرهت ذاك النوع من المفاجآت".

قيل لنا ليلتها أن ننتظر في حجرة المعاطف. الباب المزدوج المؤدي إلى الرواق انسدلت عليه ستائر شفافة من الداخل، لذا ما كان بوسعنا النظر نحو الرواق الأمامي المربع، حيث يوجد مستوقد، على الطراز القديم؛ هناك في الرواق نصبوا شجرة الكريسماس. جثمنا جالستين على الأريكة في حجرة المعاطف، مع مرآة مستطيلة خلفنا. المعاطف كانت معلقة على المنصب الطويل – معاطف أبي، معاطف أمي، وكذلك قبعاتهما، موضوعة أعلى المعاطف – قبعاتها ذات ريشٍ طويل، قبعاته ذات ريشٍ قصير. رائحة الجراميق المطاطية كانت تفوح في الحجرة، كذلك رائحة راتنج الصنوبر وخشب الأرز المنبعثة من الأكاليل المضفرة على درابزين السلم الأمامي، ورائحة الشمع تصاعدت عن ألواح الأرضية الدافئة، لأن الفرن حينها كان مشتعلاً: أنابيب المشعاع كانت تهس وتصلصل. ومن أسفل عتبة النافذة هب علينا تيار هواءٍ بارد، حاملاً معه الرائحة المشجعة عديمة الشفقة للثلج المنهمر.

من السقف تدلت إنارة وحيدة؛ ظلتها من الحرير الأصفر. كان لي أن أرانا منعكستين على الباب الزجاجي المزدوج: ثوبينا المخمليين باللون الأزرق الملكي بياقتيه المخرمتين، وجهينا الأبيضين، شعرنا الفاتح مفروقًا من المنتصف، أيدينا الشاحبة مطوية على حجرينا، جاربَينا الأبيضين، حذائيْ ماري جين الأسودين. كنا قد تعلمنا الجلوس مع قدمٍ مرفوعة فوق الأخرى – لا الركبة على الركبة أبداً – وهكذا كنا جالستين. المرآة المنصوبة خلفنا بدت وكأنها فقاعةٌ زجاجية انبجست من قمتي رأسينا. كان لي أن أسمع بوضوح صوت أنفاسنا، شهيقاً وزفيراً: صوت أنفاس الانتظار. بدا الصوت وكأنه أنفاس شخصٍ آخر – شخصٍ ضخم لكن خفي، مختبئ بين المعاطف ومكبوت الأنفاس.

وإذ فجأةً ينفتح الباب المزدوج على مصراعيه. رجلٌ أحمر، عملاقٌ أحمرٌ ضخم أخذ يصعد نحونا. من خلفه عتمة الليل، وشعلةٌ من لهب. وجهه مغمورٌ في الدخان

الأبيض. رأسه كان مشتعلاً. ترنح نحونا: ذراعاه ممدودتان. ومن خارج فمه تعالى صوت النعيب، أو ربما كان صراخاً.

للحظة جفلت لدى رؤيتي إياه، لكني كنت كبيرة بما فيه الكفاية لأعي ما كان مفترض به أن يكون. كان يفترض بالصوت أن يبدو قهقهة. لم يكن العملاق سوى أبي متنكراً بزي سانتا كلوز، ولم يكن مشتعلاً - بل كان تأثير الشجرة المضاءة خلفه، وإكليل الشموع الذي اعتمره على رأسه. كان يرتدي بدلته من البروكاد الأحمر، بالمقلوب، ولحيته كانت مصنوعة من حشوة القطن.

أمي اعتادت أن تقول عن أبي أنه لم يدرك أبداً مدى قوته: لم يدرك أبداً كم بدا ضخماً مقارنةً بكل شخصٍ عداه. ما كان ليدرك كم سيبدو مخيفاً. وقد كان بالتأكيد مخيفاً جداً للورا.

"صرختِ وصرختِ،" قلت لها الآن. "ما كنت لتفهمي أنه مجرد ادعاء".

"بل الأسوأ،" أجابتني لورا. "ظننته كان يدعي بقية الوقت".

"ما الذي تقصدينه؟"

"أنه في تلك اللحظة قد تجلى على حقيقته،" قالت في تؤدة، "أنه في أعماقه، كان يحترق، يحترق، طوال الوقت".

حورية الماء

هذا الصباح نمت حتى وقتٍ متأخر، مجهدة بعد ليلةٍ من التجوال في الظلام. قدماي متورمتان، وكأني قطعت مسافةً طويلة على أرضٍ صلبة؛ رأسي يرشح مثل إسفنجةٍ رطبة. كان قرع ميرا على الباب ما أيقظني. "الشمس أشرقت عصفورتي"، لَهجت عبر شق الرسائل في الباب. من باب المشاكسة، لم أفتح الباب لها. لربما ظننت أني ميتة – صريعةٌ في فراشي! لا شك أنها قد اختارت مسبقاً أي فستانٍ من فساتيني القطنية الموشاة بالزهور ستسجّيني فيه، وأعدت قائمة الطعام لمراسيم الاستقبال ما بعد الدفن. لن أسمي الاستقبال رِقْبة، فالرقبة طقسٌ همجي يقصد منه إيقاظك، فالأجدر بهم أن يتيقنوا من موتك حقاً قبل أن يكسوك بالمِهاد.

ابتسمت لما فعلت بميرا. لكني تذكرت أنها تملك مفتاحاً. راودتني الرغبة بسحب اللحاف فوق وجهي كي أعطيها على الأقل لحظةً من الرعب الممتع، لكني قررت ألا أفعل. استويت جالسةً على الفراش ثم نهضت عنه، تناولت ثوب البيت وارتديته على عجل.

"اكبحي جماحك". صرخت بها من أعلى بيت السلم. لكن ميرا كانت في الداخل، وبرفقتها المرأة: عاملة التنظيف. كانت امرأةً ضخمة ملامحها برتغالية: محالٌ الدفع بها خارجاً. كانت قد بدأت العمل ما إن وضعت ميرا المكنسة الكهربائية في يدها – فقد فكرتا مسبقاً في كل شيء – بينما أخذت أنا ألاحقهما أنوح مثل روح البانشي[142]، إياكما لمس هذا! دعا الغرض وحده! بوسعي فعل ذلك بنفسي! لن

---

(142) البانشي – banshee: مستوحاة من الفولكلور الإيرلندي ويقصد بها روح امرأةٍ تعول في أرجاء البيت، لا يراها ولا يسمعها سوى أبناء عائلتها، في دلالةٍ على أن أحدهم سيموت عن قريب.

أجد أي شيءٍ الآن! على الأقل كنت قد سبقتهما نحو المطبخ، وتمكنت من إقحام كومة الأوراق المخربشة في الفرن. فمن الأرجح أنهما لن تتعاملا مع الفرن في أول يوم تنظيف. وعلى أي حال فالفرن ليس قذراً جداً. فليس بوسعي خبز أي شيء.

"أرأيت،" قالت ميرا ما إن أنهت المرأة عملها، "ها كل شيءٍ قد غدا مرتباً ونظيفاً. ألا يشعرك حال البيت الآن بالتحسن؟"

كانت قد أحضرت لي نبتة زينةٍ نضرة من بيت الزنجبيل – أصيص باللون الزمردي الأخضر لنبتة زعفران، عدا أن الأصيص كان مشظىً قليلاً عند الحواف، على هيئة رأس فتاةٍ تبتسم على استحياء. يفترض بنبتة الزعفران أن تنمو عبر الثقوب أعلى رأسها وتتفتح مشكلةً هالةً من الأزهار، وصفها الحرفي لها. كل ما عليّ فعله هو سقيها بالماء، قالت لي ميرا، وعاجلاً ستتبرعم إلى نبتةٍ أنيقة.

الرب يصنع معجزاته بطُرق غامضة، كذا اعتادت ريناي أن تقول. أيا ترى ميرا هي ملاكي الحارس الذي أعده الرب لي؟ أم تراها عينة مسبقة لما سأراه من عذابٍ في المطهر[143]؟ وكيف لي أن أعرف الفرق؟

في يومنا الثاني في آفيليون، لورا وأنا توجهنا لرؤية ريناي. لم يصعب علينا معرفة عنوان سكنها الجديد: فكل من في البلدة كان يعلم به. أو على الأقل من يعمل في مَغدى بِتي، فقد غدت تعمل هناك الآن، ثلاثة أيامٍ في الأسبوع. لم نخبر ريتشارد ولا وينيفريد بوجهتنا، فما الداع لتعكير صفو مائدة الفطور أكثر مما هي عكرة؟ ما كانا ليمنعانا، لكن بالتأكيد كنا سننزعج لازدرائهما المكبوت.

اصطحبنا معنا دمية الدب التي اشتريتها لطفل ريناي، من متجر سيمبسونز في تورنتو. لم يكن بالدب المناسب للعناق – فقد كان قاسياً ومحشواً لآخره وجاسئاً. بدا مثل موظفٍ مدني بسيط، أو أحد الموظفين المدنيين هذه الأيام. لكن ما أدراني بما يبدون عليه الآن. على الأرجح جميعهم يرتدون بناطيل جينز.

ريناي وزوجها كانا يسكنان في إحدى تلك البيوت الصغيرة المصفوفة المبنية من

(143) المطهر: موطن تطهّر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذابٍ محدود.

الحجر الكلسي، والتي أعدت لعمال المصنع – من طابقين، ذات سقفٍ مدبب، وبيت مرحاضٍ خارجي نهاية الحديقة الضيقة – ليس بعيداً عن البيت الذي أقطن فيه اليوم. لم يكن لديهما هاتف، لذا لم نتمكن من إعلام ريناي بقدومنا. ما إن فتحت الباب ورأتنا واقفتين أمامها، ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ عريضة، ثمّ شرعت في البكاء. لحظة وشرعت لورا معها في البكاء أيضاً. أما أنا فوقفت أحضن دمية الدب، أشعر أني منبوذة من كليهما لأني لم أشرع في البكاء معهما.

"فليباركّما الرب،" قالت ريناي لكلتينا. "ادخلا كي تريا الرضيعة".

سرنا عبر الرواق المرصوف بألواح اللينوليوم إلى المطبخ. ريناي كانت قد صبغت الجدران باللون الأبيض وأضافت ستائر صفراء، ذات درجة اللون الأصفر لستائر المطبخ في آفيليون. كنت قد لاحظت مجموعةً من العلبيات الصغيرة، بيضاء هي الأخرى، مرَوْسمة بالاستنسل: طحين، سكر، قهوة، شاي. لم يكن من داعٍ كي يقول لي أحدهم أن ريناي هي من صنعت كل تلك الديكورات بنفسها، تلك الديكورات والستائر وأي شيءٍ وضعت يديها عليه. فقد كانت تبذل أقصى جهدها بما لديها.

الرضيعة – هذا أنتِ يا ميرا، فقد دخلتِ القصة الآن – كانت تستلقي في سلة ملابس الغسيل، تحدق نحونا بعينيها المستديرتين اللتين لم تطرفا مرةً واحدة، عينان زرقتهما أشد من زرقة عينيْ أي رضيعٍ آخر. عليّ القول إنها بدت مثل بودينغ من الخِلم، بيد أنَّ كل الرضع يبدون هكذا.

ريناي أصرّت على إعداد الشاي لنا. فنحن سيدتان الآن، قالت لنا؛ وآن لنا أن نحظى بشايٍ حقيقي، لا كوب حليبٍ مع نزرٍ من الشاي، وهو ما اعتدنا شربه. كانت قد اكتسبت وزناً؛ زنداها اللذان اعتادا أن يكونا قويين مشدودين، باتا مترهلين بعض الشيء، كانت تتهادى في سيرها اتجاه الفرن. يداها منتفختان، مفاصل أصابعها متغمزة.

"تأكلين عن اثنين ثم تنسين الكفّ عن ذلك. أرأيتن خاتم زفافي؟ لن يسعني خلعه إلا إن قطعوا إصبعي. عليّ أن أدفن به". قالت لنا في تنهيدة رضاً عن النفس. لحظتها بدأت الرضيعة تهتاج، لذا حملتها ريناي وأجلستها على ركبتها، ثم نظرت إلينا عبر

الطاولة بنظرة تحدٍ. (الطاولة بسيطة، مزدحمة بالأغراض، مغطاة بمفرشٍ من القماش الزيتي الموشى بزهور التوليب الصفراء) بدت هوةً عميقة – أنا وشقيقتي على أحد طرفيها، وعلى الطرف الآخر، بعيدةً كل البعد عنا الآن، ريناي ورضيعتها، دون أي ندم.

ندمٍ على ماذا؟ على تخليها عنّا. أو هذا ما بدا لي حينها.

كان هناك خطبٌ ما في تصرف ريناي، ليس اتجاه الرضيعة بل اتجاهنا أنا ولورا بالنسبة للرضيعة – وكأننا وقعنا عليها في الجرم المشهود. ولطالما تساءلت منذ ذاك – وعليك أن تعذريني على ذكر الموضوع ميرا، لكن ما كان يجدر بك قراءة هذا، والفضول قتلَ القطة – لطالما تساءلت منذ ذاك إن كان والد الرضيعة الحقيقي ليس برون هيكنز، بل أبي. إذ ها هي ريناي، الخادمة الوحيدة التي بقيت في آفيليون، بعد أن رحلتُ في شهر العسل، وكل الأبراج انهارت من حول أبي. أفليس من المحتمل أنها عرضت نفسها عليه كما تُعرض عليه كمّادة، بنفس الروحية التي تحمل له فيها طبق حساءٍ دافئ أو مطّارة ماءٍ حار؟ السلوى في وجه البرد والعتمة.

في تلك الحالة ميرا، فأنت شقيقتي. أو نصف شقيقتي. ليس كأننا سنعرف الحقيقة أبداً، أو بالأحرى أنا لن أعرفها أبداً. أفترض أن بوسعك نبشي وأخذ عينةٍ من شعري أو عظمي أو أيًا كان ما يحتاجونه، وإرسالها إلى معملٍ ما للتحليل. لكني أشك أنك ستقدمين على هذا الخيار. الخيار الآخر المتاح أمامك لاستخراج الدليل هي سابرينا – بوسعكما الاجتماع ببعض، مقارنة قصاصاتٍ من جسديكما. لكن كي يتحقق هذا، فعلى سابرينا أن تعود، والرب وحده يعلم إن كانت ستأتي يوماً ما. قد تكون موجودة في أي مكان. وربما هي ميتة. ربما هي في أعماق البحر.

أتساءل إن عرفت لورا بأمر ريناي وأبي، إن كان هناك حقاً من شيءٍ يستحق معرفته. أتساءل إن كان أمرهما من بين الأمور الكثيرة التي عرفتها، ولم تبح بها أبداً. فهذا الاحتمال جد وارد.

الأيام في آفيليون مرت متثاقلة. الجو كان لا يزال حاراً جداً، وشديد الرطوبة.

مستوى المياه في النهرين انخفض: حتى منحدرات لوفتو غدت راكدة، ورائحةٌ كريهة أخذت تنبعث من نهر جوغز.

قضيت معظم وقتي داخل البيت، جالسةً على المقعد الجلدي في مكتبة جدي رافعةً ساقيّ على ذراعه. قشور الذباب من الشتاء الماضي كانت لا تزال تغطي عتبات النوافذ: المكتبة لم تكن من ضمن أولويات السيدة مرغترويد. لوحة جدتي آديليا كانت لا تزال تترأس المكتبة.

قضيت فترات بعد الظهر أتصفح سجلاتها، قصاصاتها عن حفلات الشاي وزيارات الجماعة الفابيّة، رحلات المستكشفين وشرائحهم الضوئية يعرضون عليها نوادر وعادات قبائل السكان الأصليين. لا أدري لم يستغرب أحدهم متى ما عرف بتزيين السكان الأصليين لجماجم أسلافهم. فنحن أيضاً نفعل ذات الشيء.

أو كنت أقضي وقتي في تصفح المجلات الاجتماعية القديمة، أتذكر كيف انتابني الحسد اتجاه هؤلاء الناس يوماً ما، أو أنقب في كتب الشعر رقيقة الأوراق مذهبة الأطراف، عن القصائد التي أسرتني أيام الآنسة فيولينس، والتي ما إن وجدتها رأيتها مبالغاً فيها ومثيرة للغثيان. واحسرتاه! أنا ملك يمينك. عد إليّ. غيابك الموحش. قلبي الملتاع – اللغة العتيقة المهجورة للحب من طرفٍ واحد. كم أثارت غيظي تلك الكلمات، والتي صيّرت الحبيبين التَّعِسين – وهو ما أراه الآن – شبه سخيفين، تماماً مثل المسكينة التَّعسة الآنسة فيولينس. الأطراف الذابلة، المغشيّة، الرطبة، مثل كعكةٍ سقطت في الماء. ليست بشيءٍ تودين لمسه.

طفولتي كانت قد بدت لي حينها ماضٍ بعيدٍ جداً – من عهدٍ سحيق، باهتة بأيامها الحلوة المرة، مثل الأزهار المجففة. أكنت أشفق على نفسي من ضياعها، هل وددت العودة إليها؟ حتماً لا.

لورا لم تقض الوقت داخل البيت. بل قضت وقتها تهيم على وجهها في البلدة، كما اعتدنا أن نفعل حين كنا صغاراً. كانت ترتدي فستاني القطني الأصفر من الصيف ما قبل السابق، والقبعة التي تتلاءم معه. رؤيتي لها من الخلف أثار فيّ إحساساً غريباً، وكأني كنت أنظر إلى نفسي.

وينيفريد لم تُخفِ سرًّا أنها قد ملّت المكان حدَّ الموت. اعتادت الذهاب للسباحة كل يوم، على الشاطئ الصغير الخاص جانب بيت القارب، مع أنها لم تسبح في الجانب العميق: اكتفت فقط بطرطشة الماء في الجانب الضحل، مرتديةً قبعتها القش الماجنتية الكبيرة. أرادت مني ولورا أن ننضم إليها، بيد أننا رفضنا عرضها. فلا واحدة منا كانت تتقن السباحة، إضافةً إلى معرفتنا بنوع الأشياء التي كانت تطرح في النهر، وعلى الأرجح لا تزال تطرح فيها. وفي حال لم تكن وينيفريد تقضي وقتها في السباحة والاستحمام بالشمس، كانت تذهب وتتجول في أنحاء البيت تكتب ملاحظاتها وتعد تصاميمها، وقوائم العيوب – ورق الجدران على الرواق الأمامي يحتاج إلى أن يستبدل فوراً، وتحت السلالم هناك أثر عفنٍ جاف – أو كانت تقضي قيلولتها في غرفتها. بدا أن آفيليون قد امتصت طاقتها. وكم كان مطمئناً معرفة أن أمراً كهذا قد يقع لها.

ريتشارد قضى وقتاً طويلاً في التحدث عبر الهاتف، مكالمات طويلة المدى؛ أو اعتاد قضاء اليوم في تورنتو. أما بقية الوقت فقد أضاعه على حورية الماء، يشرف على سير أعمال التصليح. كان هدفه، كما قال، أن يطلق القارب للإبحار قبل مغادرتنا.

كان قد تدبر إرسال الصحف إليه كل صباح. "الحرب الأهلية في إسبانيا،" قال يوماً على مائدة الغداء. "حسنٌ، كان أمراً متوقعٌ حدوثه اليوم أو غداً".

"ليس بالخبر السار". قالت وينيفريد.

"سارٌ لنا،" أجابها ريتشارد. "طالما ننأى بأنفسنا عنها. دع الشيوعيين والنازيين يقتلون بعضهم – فسرعان ما سيقفز الطرفان في أتون النزاع الدائر هناك".

لورا لم تكن تشاركنا الغداء. كانت في الأسفل على رصيف القارب، وحدها، لا تحمل معها سوى فنجان قهوة. كانت قد اعتادت الذهاب هناك: ذهابها وتَّر أعصابي. كانت تستلقي على الرصيف، تدلي ذراعها في الماء، تنظر شاخصةً نحو النهر وكأن غرضاً قد وقع منها وذهبت تبحث عنه في الأعماق. بيد أن الماء كان معتماً جداً. ما كنتِ لترين الشيء الكثير. فقط اللمعان السريع لزمر سمك المنوة تتنقل بخفة مثل أصابع نشال.

"ومع ذلك،" قالت وينيفريد. "أتمنى لو أنها لم تقع. فالحرب كريهة".

"الحرب قد تنفعنا،" قال ريتشارد. "فربما ستنعش الاقتصاد – تضع حداً للكساد. أعرف بضعة رفاق ممن يعتمدون على اندلاع الحرب. بعضهم سيصنع ثرواتٍ منها". لم يطلعني أحدهما أبداً على وضع ريتشارد المالي، لكني كنت قد بدأت مؤخراً – من التلميحات والإشارات – أدرك أنه لم يملك الثروة التي تصورت أنه يملكها. أو على الأقل ما عاد يملكها. فقد توقفت عمليات ترميم آفيليون – تأجلت – لأن ريتشارد ما عاد يريد إنفاق المزيد من المال، وفقاً لريناي.

سألته: "ولماذا سيصنعون ثرواتٍ منها؟" كنت أعرف الإجابة جيداً، لكني كنت قد اكتسبت عادة طرح أسئلةٍ ساذجة فقط كي أرى ما الذي سيقولانه ريتشارد ووينيفريد. فانحدار معيارهما الأخلاقي في النظر لأمور الحياة دائماً ما شدّ انتباهي.

"لأن تلك هي طبيعة الحياة،" أجابتني وينيفريد بإيجاز. "وبالمناسبة، خمّني من ألقي القبض عليه؟"

"من؟" سألتها أسرع مما يجب.

"تلك المرأة كاليستا. عِشقُ أبيك القديم. تلك التي تظن نفسها فنانة".

ازدريت نبرتها، لكن لم أملك ما أقول رداً عليها. "كانت طيبة جداً معنا حين كنا طفلتين".

"بالطبع ستكون طيبة، أليس كذلك؟"

"كنت أستلطفها".

"لا شك. كانت قد تواصلت معي قبل عدة أشهر – تحاول بيعي بعضاً من لوحاتها البغيضة أو جدارية أو ما شابه – زمرة من النساء القبيحات في مآزرهن. ليست بالاختيار الأول لأي شخص قد يعلّق لوحةً على جدار حجرة الطعام".

"ولماذا ألقوا القبض عليها؟"

"الفرقة الحمراء، أثناء غارةٍ ما على تجمعٍ قرنفلي. كانت قد اتصلت على البيت هنا – كانت مذعورة جداً. أرادت التكلم معك. لم أر داعياً كي تتورطي في الأمر، لذا ريتشارد هو من تعنّى وذهب إلى المدينة وأخرجها بكفالة".

"ولم عساه يفعل ذلك؟ فهو بالكاد يعرفها".

"أوه، من طيبة قلبه،" قالت وينيفريد متبسمةً بعذوبة. "رغم رأيه الدائم عن أولئك الناس وكيف أنهم يثيرون المشاكل في السجون أكثر مما يفعلون خارجها، ألم تقل ذلك ريتشارد؟ ينبحون ملء رؤوسهم في الصحافة، نطالب بالعدل هنا، نطالب بالعدل هناك. ربما كان يؤدي معروفاً لرئيس الوزراء".

"أهناك المزيد من القهوة؟" قال ريتشارد. تلك كانت إشارته لوينيفريد كي تكف عن الخوض في الموضوع، لكنها واصلت الخوض فيه. "أو ربما شعر بأنه يدين بذلك لعائلتك. أظنه اعتبرها متاعاً عائلياً موروثاً، مثل جرةٍ تتوارثها الأيدي جيلاً بعد جيل".

"اليوم جميل، أرى أن أنضمّ إلى لورا على الرصيف".

ريتشارد كان يقرأ الصحيفة طوال نقاشي مع وينيفريد، لكنه في تلك اللحظة رفع عينيه سريعاً قائلاً: "لا، امكثي هنا، فأنت تشجعينها كثيراً. دعيها وحدها وستتجاوز الأمر".

سألته" "وأي أمر؟"

"أيًّا كان الذي يتآكلها،" أجابني ريتشارد. كان قد حوَّل وجهه كي ينظر إليها عبر النافذة، ولاحظت للمرة الأولى أن بقعةً صغيرة قد بدأت تظهر على مؤخر رأسه، دائرة زهرية من فروة الرأس بدأت تتجلى أسفل شعره البني. قريباً كان سيحظى بصلعة الراهب.

"الصيف القادم سنقضيه في موسكوكا،" قالت وينيفريد، "فلا يمكنني القول إن تجربة الإجازة الصغيرة هذه قد نجحت على الإطلاق".

مع اقترابنا من نهاية قضائنا الإجازة في آفيليون، قررت الصعود إلى العلية. انتظرت انشغال ريتشارد بالهاتف واستلقاء وينيفريد على كرسي الرصيف في الساحل الرملي الصغير مع منشفةٍ رطبة على عينيها. ثم فتحت باب سلم العلية، وأغلقته من خلفي، وصعدت درجاته بكل هدوء.

وجدت لورا هناك، جالسةً على أحد صناديق الثياب الكبيرة من خشب الأرز. كانت قد فتحت النافذة، وخيراً فعلت: وإلّا لبات الجوّ خانقاً. العلية كانت عبقة برائحة الملابس العتيقة وغائط الفئران.

استدارت برأسها إليّ، على مهل، إذ لم تجفل على وقع قدومي.

"مرحباً،" قالت لي. "يوجد وطاويط تسكن هنا".

"لن يفاجئني الأمر،" قلت لها. رأيت إلى جانبها كيس بقالة ورقي كبير. "وما الذي تحتفظين به في الكيس؟"

بدأت تتناول الأغراض منه – مجموعة متنوعة من الأشياء، من النثريات. إبريق الشاي الفضي الذي كان يعود لجدتي، ثلاث فناجين مع صحونها من الآنية الصيني المطلية يدوياً من دريسدن. عدة ملاعق موسومة. كسارة البندق على صورة تمساح، زر عرق لؤلؤ وحيد من زوج وثاق الكفة، المشط الذّبلي بأسنانه المفقودة، القداحة الفضية المكسورة، إبريق الزيت الزجاجي فاقداً توأمه إبريق الخل.

"وما تنوين فعله بكل هذا؟ لا يمكنك العودة بها إلى تورنتو!"

"أخبئها هنا. فلن أسمح لهم بتدمير كل شيء".

"ومن تقصدين؟"

"ريتشارد ووينيفريد. كانا سيرميان بها في كل الأحوال، فقد سمعتهما يتكلمان عن الخردة عديمة القيمة. سيكتسحان البيت ويتخلصان من كل ما فيه، عاجلاً أم آجلاً. لذا احتفظت لنا ببعض الأغراض. سأتركها هنا في أحد الصناديق. هنا ستكون في أمان، وسنعرف مكانها".

"وماذا إن انتبها؟"

"لن ينتبها. فلا شيء هنا ذو قيمة حقيقية لهما. انظري،" قالت لي، "ها قد عثرت على دفاتر التمارين المدرسية الرخيصة. كانت لا تزال هنا، في ذات المكان الذي تركناها فيه. أتذكرين حين أحضرناها للأعلى هنا؟ إليه؟"

في عيني لورا، ما كان من داعٍ ليحظى أليكس توماس باسم: دائماً ما أشارت إليه **هو، له، لأجله**. كنت قد اعتقدت منذ فترة أنها قد تجاوزت مشاعرها اتجاهه، أو

على الأقل يئست من تلك المشاعر ويئست منه، لكن كان من الواضح أنها لم تفعل.

"من الصعب التصديق أننا فعلناها،" قلت لها، "أننا خبأناه هنا، ولم يكتشف أحدهم أمرنا".

"كنا حذرتين،" قالت لورا. تأملت لهنيهة، ثم قالت مبتسمةً، "أنت لم تصدقيني حقاً، فيما يخص السيد إرسكن؟"

أظن كان ينبغي عليّ الكذب دون تردد. لكني ساومت. "لم أطقه. كان رجلاً فظيعاً".

"بيد أنَّ ريناي صدقتني. أين تظنينه الآن؟"

"السيد إرسكن؟"

"تعرفين من أقصد". تريَّثت، حولت وجهها مرةً أخرى نحو النافذة. "ألا تزال نسختك من الصورة لديك؟"

"لورا، لا أرى داعٍ لاستغراقك في التفكير فيه، لا أظنه سيظهر مرةً أخرى. لا أراه مكتوباً على صحائف القدر".

"لماذا؟ أتظنينه ميتاً؟"

"ولم سيكون ميتاً؟ لا أظنه ميتاً. فقط أظنه قد رحل إلى مكانٍ آخر".

"على أي حال لم يلقوا القبض عليه، وإلا لكنا سمعنا بالموضوع. لكانوا نشروا الخبر في الصحف". أخذت تجمع دفاتر التمارين القديمة وتدسها في الكيس الورقي.

كنا قد قضينا وقتاً في آفيليون أكثر مما تخيلناه، وبالتأكيد أكثر مما رغبت به: فقد شعرت وكأني مسمَّرة في البيت، مقفلٌ عليّ، عاجزة عن الحراك.

في اليوم السابق لموعد مغادرتنا آفيليون، نزلت كي أتناول الفطور، ولم أجد ريتشارد على المائدة؛ فقط وينيفريد، تتناول بيضة. "لقد فاتك الانطلاق الكبير،" قالت لي.

"أي انطلاقٍ كبير؟"

أشارت إليّ بالنظر نحو الإطلالة، والتي كانت لنهر لوفتو من جهة، ونهر جوغز من الجهة الأخرى. وكم فوجئت لدى رؤيتي لورا على متن حورية الماء، تبحر أسفل النهر. كانت جالسة على جؤجؤ القارب، مثل رأس تمثال، مديرةً ظهرها لنا. ريتشارد

كان جالساً وراء عجلة القيادة. يعتمر قبّعة بحّارٍ بيضاء سخيفة.
"على الأقل لم يغرقا،" قالت وينيفريد، في نبرةٍ لاذعة.
"ألم ترغبي بالذهاب معهما؟"
"لا، ليس حقاً". كانت هناك نبرة غريبة في صوتها، وهو ما ظننته خطأً حينها نبرة غيرة: فهي أحبت البقاء خلف الكواليس فيما يتعلق بأي مشروعٍ من مشاريع ريتشارد.
غمرني شعورٌ بالاطمئنان: فربما لورا ستلين بعض الشيء، ربما ستخفف من جفائها البارد المستميت. ربما ستبدأ بمعاملة ريتشارد وكأنه إنسان عوضاً عن شيءٍ دب زاحفاً من تحت صخرةٍ ما. ظننت أن من شأن ذلك أن يسهل حياتي. سيخفف من التوتر في الأجواء.
لكني كنت مخطئة. على العكس تماماً، فالتوتر قد استفحل، بيد أنَّ الوضع قد انقلب: الآن ريتشارد من بات يغادر الغرفة ما إن تدخلها لورا. وكأنما كان خائفاً منها.
"ما الذي قلته لريتشارد؟" سألتها ذات مساء بعد عودتنا إلى تورنتو.
"وما الذي تعنينه؟"
"في ذاك النهار يوم أبحرت معه، على متن حورية الماء".
"لم أقل له شيئًا" قالت لي، "ولمَ عساي أفعل؟"
"لا أدري".
"لا أقول له أي شيءٍ على الإطلاق، "أجابتني لورا، "لأن لا كلام لدي أقوله".

شجرة الكستناء

أتأمل ما كتبت حتى الآن، وأدري أنَّ ما فعلته كان خطأً، لا فيما دونت، بل فيما حذفت. فما ليس على الصفحات وجوده جليّ، مثله مثل غياب الضوء.
تبغين الحقيقة، بالطبع: تريدين مني أن أجمع اثنين باثنين. لكن اثنين زائد اثنين لا يساوي بالضرورة الحقيقة. اثنان زائد اثنين يساوي الصوت خارج النافذة. اثنان زائد اثنين يساوي الريح. الطائر الحي ليس بالفصيلة التي تنتمي إليها عظامه.

ليلة البارحة استفقت فجأةً من منامي، قلبي يخفق بشدة. تناهى إلى مسمعي صوت صلصلةٍ من خارج النافذة. أحدهم كان يرمي زجاج النافذة بالحصى. نهضت متثقلةً عن فراشي وتلمست طريقي نحو النافذة، رفعت إطارها للأعلى واتكأت خارجها. لم أكن أضع نظارتي، بيد أني كنت أرى بوضوح. القمر كان هناك، شبه مكتمل، معرّقٌ بآثار ندوبه القديمة المتحابكة مثل خيوط شبكة عنكبوت، ومن أسفله اكتنفت السماء بهالةٍ متوهجة من اللون البرتقالي الباهت والمنبعثة عن أعمدة إنارة الشارع. من أسفلي رأيت الرصيف، مرقعاً بالظلال ومتوارٍ جزئياً وراء شجرة الكستناء في الحديقة الأمامية.
كنت واعية أن شجرة الكستناء لا وجود لها هنا: تلك الشجرة انتمت إلى مكانٍ آخر، على بعد مئة ميل، خارج البيت الذي عشت فيه يوماً مع ريتشارد. ومع ذلك ها هي ذا، الشجرة، أغصانها ممتدة ومحتبكة مثل شبكة خيوطٍ صلبة، أزهارها العثية البيضاء تومض واهنة.

سمعت صلصلة الزجاج مرةً أخرى. كان هناك ظل، منحنٍ: رجلٌ، ينهب صناديق القمامة جمعاً للطعام، يعيّث بحثاً عن قناني النبيذ في محاولةٍ يائسة علّه يجد نزراً قليلاً من الشراب. سكير شارع، مكرهٌ مدفوعٌ بالعطش والفراغ. حركاته كانت مختلسة، متطفلة، وكأنما لم يكن يصطاد، بل يتجسس- يمحّص في مهملاتي المرمية عله يجد دليلاً ضدي.

من ثم استقام وتحرك خلسةً نحو بقعة الضوء، ورفع عينيه. كان لي أن أرى حاجبيه الداكنين، محجريْ عينيه الغائرين، ابتسامته البيضاء المقدودة على وجهه البيضاوي الأسمر، على جيده امتقاعٌ في اللون: كان قميصه. رفع يده، ملوحاً. تلويح ترحاب، وإلا فتلويح وداع.

وها قد سار بعيداً، وما كان بوسعي المناداة عليه. كان يعرف بأني أعجز عن مناداته. وها قد اختفى الآن.

شعرت بقبضةٍ خانقة تمسك بقلبي. لا. لا. لا. لا. أخذ صوتٌ يردد. الدموع كانت تسيل على وجهي.

لكني قلتها عالياً – بل صرختها، لأن ريتشارد كان قد استيقظ الآن. كان يقف في تلك اللحظة خلفي. كان على وشك أن يضع يده حول عنقي.

هنا في هذه اللحظة استيقظت فعلاً. وها أنا مستلقية، وجهي مبلل، عيناي مفتوحتان، تحدقان في الفراغ الرمادي للسقف، أنتظر قلبي أن يهدّئ من روعه. ما عدت أبكي، في يقظتي؛ فقط عدة قطراتٍ من الدموع الجافة بين الوقت والآخر. وكم تفاجأت لدى انهماري في البكاء.

في شبابك، تظنين أن كل ما تفعلينه هو أمر عرضي يسهل رميه. تتنقلين من الآن إلى الآن، تجعّدين الزمن في يديك وتطرحينه أرضاً. أنت سيارتك السريعة التي تقودينها. تظنين أن بإمكانك التخلص من الأشياء، ومن الأشخاص – تخلفينهم وراءك. لكنك لا تعرفين بعد عن العادة التي يكتسبونها، العودة ثانيةً إليك.

الزمن في الأحلام متجمد. يستحيل عليك الهروب من المكان الذي كنت فيه.

كان هناك بالفعل صوت صلصلة، زجاجٌ يقرع زجاجاً. نهضت مثقلة عن فراشي – فراشي الحقيقي، فراشي المفرد – وتلمست طريقي نحو النافذة. كان هناك حيوانا راكون ينشبان براثنهما في صندوق مهملات الجيران على الرصيف المقابل، يقلبون القناني والعلب. حيواناتٌ قمّامة، موطنها ساحات الخردة. رفعا رأسيهما إليّ، متنبهين، غير مذعورين، أقنعة اللصوص الصغيرة على وجهيهما بدت سوداء في ضوء القمر.

قلت في نفسي، حظاً طيباً لكما. خذا ما تقدران عليه، طالما تقدران. من يأبه إن كانت تنتمي إليكما أصلاً؟ فقط احرصا ألا يمسكوا بكما في الجرم المشهود.

عدت إلى فراشي واستلقيت في الظلمة الدامسة، أصغي إلى صوت النفس الذي أعرف أنه ليس بهنا.

X

السفّاح الأعمى: الرجال السحالي من كوكب زينور

لأسابيع تتصيد حوامل المجلات. تذهب إلى أقرب صيدلية، تشتري مبرد أظافر أو عود برتقال، غرضاً بسيطاً، ثم تجوب متمهلةً عند المجلات، لا تلمس أياً منها وحريصة كل الحرص ألا يراها أحد تتأملها، لكنها تقلّب عينيها سريعاً عناوين أغلفتها، باحثةً عن اسمه. أو اسمًا من أسمائه. فقد عرفتها جميعاً الآن، أو على الأقل معظمها: فقد اعتادت أن تصرف له الشيكات.

القصص العجيبة. الحكايا الغريبة. مذهلة. تتفحصها كلها. أخيراً تلتقط شيئاً. هي ولا بد: الرجال السحالي من كوكب زينور. الحلقة المثيرة الأولى من حوليّات الحروب الزكرونية. على الغلاف، شقراء في زيٍ شبه بابلي، رداءٍ أبيض موثق بسلسلةٍ ذهبية أسفل نهديها العارمين بما يفوق الحجم الطبيعي، جيدُها تطوقه جواهر لازوردية، هلالٌ فضي ينبجس من رأسها. شفتاها رطبتان، ثغرها فاغر، عيناها منشدهتان، في قبضة مخلوقيْن بمخالب من ثلاث أصابع ومقدوديْ الأعين. لا أحد منهما يرتدي شيئاً سوى بنطالٍ قصيرٍ أحمر. وجهاهما قرصان مسطّحان، الحراشف تغطي جلديهما، زرقاء ضاربة للخضرة. جسداهما صقيلان يلمعان كما اللحم المُطرّى بالزبدة؛ عضلاتهما ناتئة وبراقة من أسفل جلديهما الرمادي الأزرق. فماهما دون شفاه والأسنان العديدة فيهما حادة ومستدقة.

ما كانت لتتيه عنهم أبداً.

وكيف ستقتني نسخة؟ ليس من هذا المتجر، حيث يعرفونها. فلن ينفعها أن تقدح شرار الإشاعات بأي سلوكٍ غريب من أي نوعٍ كان. في رحلتها التالية للتسوّق تغيّر

وجهتها إلى محطة القطار وتقع عيناها على المجلة في كشك الصحف هناك. مقابل دايمٍ واحدٍ هزيل؛ تدفع، يداها في قفازيها، تطوي المجلة سريعاً، تخبئها في حقيبة يدها. بائع الصحف يرمقها بنظرةٍ غريبة، بيد أن تلك هي عادة الرجال.

تحضن المجلة إليها طوال طريق عودتها في سيارة الأجرة، تهربها صعوداً على السلالم، تقفل على نفسها والمجلة باب الحمام. تدرك أن يديها سترتعشان على إثر تقليبهما الصفحات. هي قصةٌ من النوع الذي يقرأها المتشردون في الشاحنات الصندوقية، الأولاد في عمر المدرسة أسفل مصابيحهم الضوئية. حراس المصانع يقرؤونها ليلاً كي تبقيهم يقظين؛ الباعة المتجولون في الفنادق الرخيصة إبان ترحالهم من بعد يومٍ عقيم، ربطة العنق مخلوعة، القميص مفتوح، القدمان مرفوعتان، والويسكي في كأس فرشاة الأسنان. يقرأها رجال الشرطة في الليالي الهادئة. لا أحد منهم سيعثر على الرسالة التي بالتأكيد قد خبأها طيّ المجلة. رسالةٌ موجهة إليها وحدها وحسب. الورق رقيقٌ جداً يكاد يتمزق بين يديها.

هنا في الحمام المقفل، منبسطةً على ركبتيها في الورق المطبوع، تتجلى ساكيل نورن، مدينة العجائب الألف، آلهتها، عاداتها، نسيج سجادها العجائبي، أطفالها المستعبدون المضطهدون، العذارى على مذبح القربان. بحارها السبع، أقمارها الخمس، وشموسها الثلاث؛ سلسلة جبالها الغربية وأضرحتها المشؤومة، حيث الذئاب تعوي ونساء الزومبي يتربصن. أذرعة الانقلاب في القصر تتمدد، الملك يأخذ وقته، يخمن هوية القوى المتآمرة ضده؛ الكاهنة الأعلى تملأ جيوبها بالرشاوى.

وها قد أزفت ليلة القربان؛ المختارة تنتظر على سرير الهلاك. لكن أين هو السفّاح الأعمى؟ ما الذي وقع له، وما حلّ بقصة حبه للفتاة البريئة؟ لا بد أنه أبقى عليها لوقتٍ لاحق، كذا تقرر في نفسها.

من ثمَّ، أسرع مما تتصور، الهمَج القساة يشنون هجومهم، مندفعين نحو الانتصار بقيادة زعيمهم الممسوس. لكن ما إن يجتازوا بوابات المدينة وإلا بمفاجأة في الانتظار: ثلاث مركبات فضائية تحط على السهل المنبسط شرقاً. المركبات تشبه البيض المقلي

أو كوكب ساتورن مقسوماً نصفين، وقد أتوا من زينور. ويندفع الرجال السحالي من داخل تلك المركبات بعضلاتهم الرمادية المترقرقة وبناطيل الاستحمام القصيرة المعدنية وأسلحتهم المتطورة، مدججين بمسدسات إشعاعية، وأوهاق كهربائية، ومركباتٍ طائرة لطيارٍ واحد. كل أنواع الآلات والإلكترونيات المبتكرة.

الغزو المفاجئ يبدل كل شيء بالنسبة للزكرونيين: الهمَج والمدنيّين، أصحاب المناصب والثوار، الأسياد والعبيد - الكل ينسى الفروقات ويتوحدون حول قضيةٍ واحدة. الفروقات الطبقية تتبدد - السنيلفاردز يطرحون ألقابهم العتيقة مع أقنعتهم، يشمرون عن أذرعتهم، يقاتلون خلف المتاريس جنباً إلى جنب مع الإيغنيرودز. الكل يحيّي الآخر بلقب ترِسْتوك، ما يعني تقريباً من قد تبادلت دمي معك. أي بمعنى الرفيق أو الأخ. يحملون بالنساء إلى المعبد ويقفلون عليهن حفاظاً على سلامتهن، والأطفال برفقتهن. الملك يتولى زمام القيادة. قوات الهمَج مرحبٌ بها في المدينة لأنهم معروفون ببسالتهم على أرض القتال. الملك يصافح يد خادم الابتهاج، ويقرران التشارك في القيادة. القبضة أقوى من أصابعها، يقول الملك مقتبساً قولاً مأثوراً. وفي اللحظة الحاسمة، توصد بوابات المدينة الثمان.

الرجال السحالي يحققون انتصاراً مبدئياً في السهول النائية بفضل عنصر المفاجأة. يأسرون عدة نساء فاتنات، ويرمون بهن في الأقفاص حيث يسيل عليهن لعاب عشرات جنود الرجال السحالي عبر القضبان. بيد أن الجيش الزينوري سرعان ما يعاني من نكسة: فالمسدسات الإشعاعية التي يعتمد عليها لا تعمل جيداً في كوكب زكرون بسبب الاختلاف في قوى الجاذبية، والأوهاق الكهربائية تنفع فقط ضمن مساحةٍ محدودة، وأهل ساكيل نورن هم الآن في الجانب الآخر من السور المنيع. الرجال السحالي لا يملكون العدد الكافي من مركبات الطيار الواحد لنقل قوةٍ كافية من الجند للإغارة على المدينة. وابلٌ من القذائف يرشق من خلف المتاريس على أي مجموعة من الرجال السحالي تحاول الاقتراب من السور: فقد اكتشف الزكرونيون أن بناطيل الزينوريين المعدنية هي سريعة الاشتعال متى ما تعرضت لدرجات حرارة عالية، لذا ها هم يرشقونهم بقذائف من القار المشتعل.

قائد السحالي يصرخ في نوبة غضبٍ عارمة، وعلى الفور خمسة من علماء السحالي يخرّون صرعى: على ما يبدو فنظام زينور ليس بالديمقراطي. ومن تبقى من العلماء على قيد الحياة أخذوا ينكبون على حل المشاكل التقنية. مع وقتٍ كافٍ والمعدات المناسبة، كما يدَّعون، فسيتمكنون من إذابة أسوار ساكيل نورن. وفي استطاعتهم كذلك تطوير غاز يفقد الزيكرونيين وعيهم. من بعدها سيتسنى للرجال السحالي تنفيذ مآربهم الشريرة متى ما يحلو لهم.

وهنا تنتهي أحداث الإصدار الأول. لكن ما الذي حل بقصة الحب؟ أين السفّاح الأعمى والفتاة مقطوعة اللسان؟ الفتاة نُسِي أمرها في غمرة المعمعة – شوهدت آخر مرة مختبئةً أسفل سرير البروكاد الأحمر – والرجل الأعمى لم يظهر على الإطلاق. تقلب الصفحات بأصابعها مسرعةً للوراء: ربما فاتها شيء. لكن لا، كلاهما اختفيا.

ربما ستظهر القصة في الحلقة المثيرة القادمة. ربما سيبعث لها بخبر.

هي تدرك أن توقعاتها هذه هي توقعات جنونية – فهو لن يبعث لها برسالة، وإن فعل، فلن تصل إليها بهذه الطريقة – لكنها عاجزة عن تحرير نفسها من هذا الجنون. فالأمل هو ما يغزل خيوط خيالاتها، السراب الذي تلاحقه هو صنيع التوق – الأمل دون أمل، التوق في قلب الخواء. ربما عقلها ينزلق، يحيد عن قضبان السكة، ربما هي تتخلخل. تتخلخل، مثل بابٍ مكسور، مثل سورٍ مدكوك، مثل حريزةٍ صدئة. ومتى ما كنت متخلخلاً، فما تكتمه في داخلك سيجد طريقه خارجاً، وما كنت تحمي نفسك منه سينفذ إليك. الأقفال تخسر قواها. الحراس يخلدون للنوم. كلمات السر لا تعود تجدي نفعاً.

تفكر في نفسها، لربما هجرني. يا لها من كلمةٍ مبتذلة، الهجران، لكنها تصف حرفياً محنتها. فهجرها ليس بالأمر المستبعد عليه. ففي نزوة قد يموت لأجلها، لكن أن يعيش لأجلها فذاك أمرٌ مختلفٌ تماماً. فهو لا يطيق الاستماع إلى نغمٍ يعزف على وتيرةٍ واحدة.

ومع ذلك تنتظر وتترقب، شهراً بعد شهر. تجوب الصيدليات، محطات القطار، وكل كشك مجلات تصادفه. بيد أن الحلقة المثيرة القادمة لا تظهر أبدا.

أوْجُ أقاويل تورنتو

بقلم يورك

وثب أبريل علينا هذا العام كما الحمل السعيد، وعلى وقع طفرته المرحة ودعوته للاستمتاع بالحياة، رفرف موسم الربيع زاخراً بالأمواج الزاهية للقادمين والمغادرين. السيد والسيدة هنري رديل قد عادا من محل قضائهما الشتاء في المكسيك، السيد والسيدة جونسون ريفز عادا بالسيارة من معتزلهما في فلوريدا في بالم بيتش، والسيد والسيدة ت. بيري غرانج قد عادا من رحلتهما البحرية عبر جزر الكاريبي المشمسة، بينما السيدة آر. ويسترفيلد وابنتها دافني شدا الرحال في زيارة إلى فرنسا، ثمّ إلى إيطاليا "برخصةٍ من موسوليني"، والسيد والسيدة مكليلاند انطلقا في رحلتهما إلى اليونان الأسطورية. دومونت فليتشرز قضوا موسماً مثيراً في لندن وها قد عادوا للانضمام إلينا على خشبة مسرحنا المحلي، في الوقت المناسب لعقد مهرجان دومينيون للدراما، حيث يشارك فيها السيد فليتشرز بصفته حكماً. في غضون ذلك، قدومٌ من نوعٍ آخر احتُفيَ به في الأجواء الليلكية والفضية للبلاط الأركادي ، حيث شوهدت السيدة ريتشارد غريفين (المعروفة سابقاً باسم الآنسة آيريس مونفورت تشايس) في حفل غداء نظمته أخت زوجها، السيدة وينيفريد "فريدي" غريفين بريور. السيدة غريفين اليافعة، جميلة على عهدنا بها وإحدى أهم عرائس الموسم الماضي، كانت ترتدي طقماً فاتناً من الحرير الأزرق السماوي مع قبعةٍ باللون الأخضر النيلي، وأخذت تتلقى التهاني على قدوم الابنة، آيمي آدليا. الأطلسيات[144] كن مأخوذات بالحماس على وقع قدوم نجمتهن الزائرة، الآنسة

(144) اللقب مستوحى من مجموعة النجوم السبع في العنقود النجمي الثريا، والتي نشأ اسمها من الأسطورة الإغريقية لبنات أطلس السبع وتحولهن إلى نجوم.

فرانسيس هومر، فنانة المونولوج القديرة، والتي قدَّمت مرةً أخرى على مسرح قاعة إيتون، سلسلتها من نساء المصير، والتي جسدت فيها نساءً من التاريخ وتأثيرهن البالغ على حيوات رجالٍ عظام من مثل نابليون، فرديناند ملك إسبانيا، هوراشيو نيلسون، وشكسبير. الآنسة هومر تألقت فطنةً وحيوية في نيل غوين؛ وكانت درامية كما إيزابيلا ملكة إسبانيا؛ وأداؤها لجوزفين جسد مشهداً مبهجاً، أما الليدي إيما هاملتون فقد جسدتها في أداءٍ تمثيليٍّ مبهر. العرض بأكمله كان ترفيهاً ساحراً يستحق الذكرى.

اختتمت الأمسية مع حفل عشاء على شرف الأطلسيات وضيوفهن في القاعة الدائرية، والذي أقامته ببذخ مضيفة الحفل السيدة وينيفريد غريفين بريور.

رسالة من بيلّا فيستا

مكتب المدير،
ملاذ بيلّا فيستا
آرنبريور، أونتاريو
مايو 12، 1937

السيد ريتشارد إي. غريفين،
رئيس وعضو مجلس إدارة
صناعات غريفين تشايس الملكية المدمجة المحدودة،
20 شارع كنج ويست
تورنتو، أونتاريو

عزيزي ريتشارد،

كان من دواعي سروري الالتقاء بك في شهر فبراير – رغم الظروف المؤسفة التي جمعتنا – ومصافحتك مرةً أخرى بعد كل تلك الأعوام العديدة. فقد فرقتنا الحياة وأخذتنا في اتجاهين مختلفين منذ "تلك الأيام الذهبية القديمة[145]".

لكن عودةً إلى موضوعنا الجدي، فيؤسفني إبلاغك أن وضع شقيقة زوجتكم اليافعة، الآنسة لورا تشايس، لم يطرأ عليه أي تحسن؛ بل ساء. فالأوهام التي

(145) Good old golden rule days: مقتبس عن أغنية أمريكية ذائعة الصيت تحمل عنوان School Days وصدرت عام 1907. موضوع الأغنية حنين صديقين بالغين إلى أيام طفولتهما.

تعاني منها راسخة في ذهنها. وفي رأينا، فهي لا تزال تشكل خطراً على نفسها ولا بد أن تبقى تحت المراقبة الدائمة، مع اللجوء للتخدير كلما تطلبت الضرورة. لم تهشم أي نوافذ أخرى، بيد أن حادثاً يتضمن مقصاً قد وقع؛ على أي حال، سنبذل أقصى جهودنا لمنع تكرار الحادثة.

نواصل بذل كل ما بوسعنا. هناك علاجات جديدة باتت متاحة الآن ونأمل أن يتأتى عن تطبيقها نتائج إيجابية، على الأخص "علاج الصدمات الكهربائية"، والذي سنتحصل قريباً على معداته. ومع إذنك، سنضيفه إلى جانب العلاج بالأنسولين. يحدونا أملٌ كبير في تحقيق تحسنٍ على وضعها، بيد أنه تشخيصنا أن الآنسة تشايس لن تستعيد أبداً كامل قواها.

ورغم أن طلبي مؤلمٌ لكما، فلا بد أن أحثكما أنت وزوجتك على الامتناع عن الزيارة أو حتى بعث أي رسالة إلى الآنسة تشايس في الوقت الحالي، إذ أن أي تواصلٍ مع أيٍّ منكما سيتأتى عنه ضررٌ كبير على تقدم العلاج. فكما أنت مدرك، أنت في حد ذاتك موضوع الهوس المرضي الدائم للآنسة تشايس.

سآتي إلى تورنتو هذا الأربعاء، وأتطلع إلى لقائك في حديثٍ خاص على انفراد – في مكتبك، إذ لا أرى من الملائم إزعاج زوجتك اليافعة بموضوعٍ مقلقٍ كهذا وقد أصبحت أماً جديدة. وفي اجتماعنا سأطلب منك توقيع الاستمارات المطلوبة فيما يخص منح إذنك في تطبيق العلاجات التي نقترحها.

أخذت على عاتقي إرفاق فاتورة الشهر السابق طي الرسالة آملاً الإسراع في الدفع.

المخلص لك،

دكتور جيرالد بي. ويذرسبون، المدير.

السفّاح الأعمى: البرج

تحس نفسها ثقيلة وملطخة، مثل كيسٍ مليء بملابس الغسيل. لكن في الآن نفسه مسطحة لا كنه لها. ورقةٌ بيضاء، على سطحها – بالكاد ترى – الطبعة عديمة اللون لتوقيعٍ ما – ليس بتوقيعها. أيُّ محققٍ سيستدل عليها، لكنها هي نفسها لا تبالي. لا يسعها أن تبالي.

لم تفقد الأمل، فقط طوته بعيداً: فالأمل ليس للاستعمال اليومي. وفي غضون ذلك لا بد للجسد أن يتلقى الرعاية. فلا فائدة ترجى من تجويع الذات. الأفضل لها أن تحافظ على رجاحة عقلها، والتغذية الجيدة تحقق المطلوب. المتع الصغيرة أيضاً: الزهور كملاذ، أول قطفةٍ من زهور التوليب على سبيل المثال. لا فائدة من تشتيت الذهن. الجري في الشوارع حافية القدمين، صارخةً حريق! فحقيقة ألا حريق هناك من المؤكد ستلفت إليها الانتباه.

خيرُ طريقةٍ للحفاظ على السر هي في الادعاء أنه ليس بسر. لطيفٌ منك دعوتي، تقول للهاتف. لكني جد آسفة. فلن يسعني الحضور يومها. فأنا مقيدة.

هناك أيام – خصوصاً الأيام الدافئة الصافية – تشعر وكأنها قد دفنت حية. أن السماء ما هي إلا قبةٌ صخرية زرقاء، الشمس ثقبٌ دائري فيها تنسل منه خيوط الضوء من النهار الحقيقي خارجها، وتتشعشع مضللةً الجميع بكنهها. الأناس الآخرون المدفونون معها لا يدركون حقيقة الوضع: هي وحدها تعرف. وإن صرحت يوماً بمعرفتها هذه، فسيقفلون عليها في مكانٍ بعيدٍ للأبد. فرصتها الوحيدة هي

مواصلة الحياة وكأن الأمور تسير بشكلٍ طبيعي، وفي غضون ذلك ستبقي عينها على السماء الزرقاء المسطحة، تترقب الصدع الكبير المحتَّم ظهوره. وما إن يتجلى الصدع، سيهبط عبره من الأعلى على سلمٍ من حبال. ستشق طريقها صاعدةً نحو السطح، وتقفز منه. السلم سيرتفع إلى الأعلى مع كليهما متشبثين به، متشبثين ببعضهما، متجاوزين البريجات والأبراج والناطحات المستدقة، خارجاً عبر الصدع على قبة السماء الزائفة، تاركيْن الآخرين وراءهما على المرج، يحدقون ببلاهة فاغرين أفواههم.

حبكةٌ ربانية وطفولية.

أسفل الصخرة الزرقاء يهطل المطر، الشمس تشرق، الرياح تهب، الأجواء تصفو. من المذهل كيف لكل تلك الظواهر الطبيعية أن تأخذ مجراها.

هناك رضيعٌ في الجوار. صراخه يصل مسامعها متقطعاً، وكأن الريح تحمله. الأبواب تفتح وتغلق، صوته بالغ الصغر، غضبٌ هائل ينمو وينمحق. من المذهل كيف للرضع أن يزأروا هكذا. أحياناً يدنو منها أزيز أنفاسه حد الالتصاق، الصوت جشٌّ ورقيق، يماثل مزق الحرير.

تستلقي على فراشها، الملاءات إما أسفلها أو أعلاها اعتماداً على ساعة النهار. هي تفضل الوسادة البيضاء، بيضاء كما الممرضة ومنشاة بعض الشيء. وسائد عدة كي تسند ظهرها عليها، كوب الشاي مرساةٌ في يدها تقيها من الانجراف. تمسك بالكوب بين يديها، فإن وقع الكوب على الأرض استيقظت. لم يحدث لها هذا كثيراً، فهي أبعد ما يكون عن الكسل.

بين تارةٍ وأخرى، أحلام اليقظة تقتحم عليها حياتها.

تتخيله يتخيلها. بذا تجد خلاصها.

روحها تجوب المدينة، تقتفي خيوط شبكتها، متاهاتها القذرة البالية: كل لقاء، كل موعد، كل بابٍ وكل سلم وكل فراش. ما قاله، ما قالته، ما فعلاه، ما فعلاه آنذاك. حتى أوقات خصامهما، تعاركهما، انفصالهما، عذاب فراقهما، لذة اجتماعهما.

كيف كان يحلو لهما جرح نفسيهما على جسد الآخر، وتذوق دمهما. كم كنا مدمَّرين معاً، تقول في نفسها. لكن كيف لنا أن نواصل حياتنا، في أيام كهذه، إلا في أطلال الدمار؟

أحياناً تراودها الرغبة في إشعاله بعود ثقاب، التخلص منه، وضع حدٍّ لهذا التوق العبثي اللانهائي. على كلٍّ، ساعات النهار وتحولات جسدها سيتكفلان بالأمر – سينهكانها، سيذبلانها، سيمحوان ذاك الحيز من عقلها. لكن كل محاولات طرد الأرواح الشريرة ما نفعت، ولا هي حاولت جاهدة. فطرد الأرواح الشريرة ليس ما تسعى إليه. هي تريد تلك النعمة المرعبة، كما السقوط عن طائرة بالخطأ. هي تريد جسده الجائع إليها.

آخر مرةٍ رأته، كانا قد عادا إلى غرفته – كان أشبه بالغرق: جرفتها لجة العتمة والهدير، بيد أنها في ذات الوقت كانت لجةً فضية، متمهلة، وصافية.

إذن هذا ما يعنيه، أن تُسْلَب منها إرادتها.

ربما يحمل في ذهنه صورةً لها، دائماً معه وكأنما يحملها في مدلاة؛ أو ربما ليس بصورةٍ لها، بل أقرب إلى مخطط. خريطة، خريطة كنز. ما سيحتاج إليه كي يستدل طريق عودته إليها.

أولاً هناك اليابسة، آلاف الأميال منها، تطوِّقها حلقةٌ من الصخور والجبال، مغطاة بالجليد، متصدعة ومتجعدة؛ ثم غابة متحابكة بسقْط ثمارها، تكتسي أرضها كما الإهاب، خشبٌ ميتٌ يتعفن تحت الطحالب؛ ثم الخلاء الغريب. ثم البراح والسُّهْب المذرّاة بالرياح والتلال الحمراء الجافة حيث الحرب تدور رحاها للأبد. ومن خلف الصخور، يربض المدافعون كامنين في الخانق المسفوع. تخصصهم القنص.

تالياً تأتي القرى، بأكواخها وزرائبها الحقيرة وقنافذها تنظر شزراً ونسائها يحملن حزم العصي على ظهورهن، الطرق الترابية ملطخة بمراغات الخنازير. ثم السكك الحديدية تقطع البلدات، بمحطاتها وأرصفتها، بمصانعها ومخازنها، بكنائسها وبنوكها المشيدة من رخام. ثم المدن، فسحٌ عظيمة مستطالة من النور والعتمة، برجٌ مشيدٌ فوق برج. الأبراج مغمدة في الأدمنت. لا: مغمدة في شيءٍ أكثر حداثة،

أكثر قابلية للتصديق. لكن بالتأكيد ليس بالزنك، فالزنك لأحواض استحمام النساء الفقيرات.

الأبراج مغمدة في الفولاذ. القنابل تصنع هناك، وهناك تلقى القنابل. لكنه يتجاوزها جميعاً، يتعداها دون خدش، طوال الطريق إلى هذه المدينة، المدينة التي تحتويها، بيوتها وأبراج كنائسها تطوقها من كل جانب حيث تجلس هي في قلب الدائرة، في البرج المشيد في نقطة مركزها، والذي لا يماثل حتى البرج. البرج مموه: معذورٌ من يظنه بيتاً. هي القلب المرتعش لكل ما يدور في البرج، مغطاة في فراشها الأبيض. مقفلٌ عليها اتقاءً لها من الخطر، لكنها المغزى من تشييد كل تلك البروج. المغزى يكمن في حمايتها. هذا ما يقضون وقتهم في فعله – حمايتها من كل شيءٍ آخر. تنظر عبر النافذة، ولا شيء يقوى على مسها، ولا هي تقوى على مس أي شيء.

هي الحرف "O"، هي الصّفر. هي المساحة المعلومة من العدم. لهذا لا يملكون الوصول إليها، وضع إصبعٍ عليها. لهذا لا يسعهم تثبيت شيءٍ عليها. لها ابتسامةٌ رائعة، لكن ما من وجودٍ لها خلفها.

يريد أن يتصورها منيعة. تقف خلف النافذة في غرفتها المضاءة، ومن خلفها بابٌ موصد. يريد أن يكون هناك، أسفل الشجرة، ينظر للأعلى. يستجمع شجاعته، يتسلق الجدار، يداً فوق يد متجاوزاً العريشة والإفريز، جذلاً كما اللص: يجثم، يرفع إطار النافذة، ينزل منها. على المذياع موسيقى راقصة تعلو وتخفت. تحجب وقع الأقدام. لا كلمة تقال بينهما، وها هما ينجرفان مرةً أخرى إلى كدِّهما في النهب الرقيق للجسد. أصواتهما مكبوتة، مترددة، ومعتمة، وكأنهما غارقان في أعماق الماء.

"قد عشتِ حياةً محصنة،" قال لها ذات مرة.

"لك أن تسميها هكذا،" أجابته.

لكن كيف لها أن تجد يوماً مخرجاً، مخرجاً من حياتها، إلا به؟

الثّأر الأحمر يجتاح برشلونة

باريس – تقرير خاص لصحيفة "ذا غلوب آند ميل"

رغم أن الاخبار الواردة من برشلونة تقع تحت الرقابة المشددة، فقد تسربت أخبار إلى مراسلنا في باريس تفيد بوقوع اشتباكات عنيفة بين الفصائل الجمهورية المتناحرة هناك. فقد أشيع عن الشيوعيين الذين يدعمهم ستالين، المزوّدين بالسلاح من روسيا، قيامهم بحملات تطهير ضد منافسيهم في حزب اتحاد العمال الماركسي، حيث تحالف المتطرفون التروتسكيون مع الفوضويين في نصرة القضية المشتركة. الأيام العنيفة الأولى للحكم الجمهوري قد أشاعت أجواءً من الترقب والخوف، إذ يتهم الشيوعيون اتحاد حزب العمال الماركسي بالخيانة ناعتين اياهم "بالطابور الخامس". وقد شهدت المدينة قتالاً مفتوحاً في الشوارع، مع وقوف الشرطة إلى جانب الشيوعيين. ويشاع أن العديد من أعضاء اتحاد حزب العمال إما ألقي القبض عليهم أو لاذوا بالفرار. عدة كنديين لقوا مصرعهم في عرض تبادل إطلاق النار، لكن تبقى تلك التقارير غير مؤكدة.

في مكانٍ آخر من إسبانيا، لا تزال مدريد تحت حكم الجمهوريين، بيد أن قوى الوطنيين تحت قيادة الجنرال فرانكو قد أخذت تحقق مكاسب ملحوظة.

السفّاح الأعمى: محطة القطار

تلوي عنقها، تريح جبهتها على طرف الطاولة. تتخيل قدومه.

هي ساعة الغسق، المحطة مُنارة، وجهه هزيلٌ في أضوائها. في مكانٍ ما بالجوار هناك ساحل، ما وراء البحار: يتناهى إلى مسامعه صيحات النوارس. يتأرجح داخلاً القطار عبر هسيس البخار، يقذف بكيسه الدفيلي على الرف؛ ثم يغوص في مقعده، يتناول الشطيرة التي اشتراها، يخلع عنها الورق المتجعد، يمزقه إرباً. بالكاد يقوى على تناول لقمة.

إلى جانبه امرأةٌ كبيرة السن تنسج شيئاً أحمر، كنزة. يعرف ما تنسج لأنها أخبرته، ولكانت أخبرته بكل شيء لو سمح لها بذلك، عن أطفالها، عن أحفادها؛ دون شك تحمل معها صوراً لهم، لكن قصتها ليست بقصة يود الاستماع إليها. لا يطيق التفكير في الأطفال، ليس بعد أن رأى العديد منهم أموات. الأطفال هم من يلاحقونه، أكثر من النساء، وأكثر من الرجال المسنين. فموتهم دائماً يحلّ فُجاء: العيون الناعسة، الأيادي الشمعية، الأصابع المرتخية، الدُّمية الرثة المتشربة بالدم.

يستدير عنها، يتأمل وجهه على نافذة الليل، العينان غائرتان، وجهه مؤطر بشعره الذي يبدو متبللاً، الجلد أسودٌ مخضر، مغشى بالسخام وأخيلة الأشجار الداكنة تندفع مسرعةً من خلف الزجاج.

ينهض صوب الممر متجاوزاً ركبتي المرأة العجوز بشق الأنفس، يقف بين عربات القطار، يدخن، يطرح عقب السيجارة، يتبول في الفراغ. ويشعر بنفسه ذاهباً في ذات الاتجاه – نحو العدم. بيده أن يسقط هنا ولن يعثر عليه أحد.

مدٌّ من الأراضي السبخة تلوح في الأفق المعتم. يعود إلى مقعده. القطار إمَّا باردٌ ورطب وإمَّا حارٌ ولثق؛ إمَّا يعرق وإمَّا يرتجف، وعلى الأرجح كليهما: يحترق ويتجمد، كما العاشق في غمرة الحب. التنجيد الخشن لظهر المقعد عفنٌ ومزعج، يقشط وجنته. أخيراً يخلد إلى النوم، فمه فاغر، الرأس ملقىً جانباً، على الزجاج القذر. في أذنيه ترن تكة إبر الحياكة، ومن الأسفل طقطقة العجلات على مدار السكة الحديد، مثل بندول إيقاعٍ لا يمل ولا يكل.

الآن تتصوره يحلم. تتصوره يحلم بها، مثلما تحلم هي به. يطيران نحو بعضهما، بأجنحتهما الخفية المظلمة، عبر سماءٍ بلون حجر الأردواز الرطب، يبحثان، يبحثان، يرتدان على عقبيهما، يدفعهما التوق والأمل، مرتبكين جراء الخوف. في أحلامهما يتلامسان، يتشابكان، وكأنهما اصطدما ببعضهما، وتلك نهاية الطيران. يهويان، مثل مظليّين معيبَيْن، ملاكين مقرَّحين ومُرمَّديْن، الحب ينساب من ورائهما كما الحرير الممزق. قوات العدو تتجه لملاقاتهما.

ينقضي يوم، ليلة، ويوم. في محطة الوقوف يخرج، يشتري تفاحة، كوكا كولا، نصف علبة سجائر، وصحيفة. كان يجدر به أن يجلب معه قنينة الويسكي الصغيرة أو حتى قارورةً بأكملها، لأجل النسيان المعبأ فيها. ينظر عبر النوافذ المغشاة بالمطر متأملا الحقول المسطحة الطويلة تنبسط كما السجاد الخشن، يتأمل كتل الأشجار؛ عيناه تحولاّن من النعس. مساءً المغيب يتريث، يتقهقر غرباً مع دنو ساعته، زهرياً يذوي إلى بنفسجيّ. الليل يحل متقطعاً، بين كل انطلاقٍ وتوقف، على وقع صراخ القطار الحديدي. من خلف عينيه احمرار، الاحمرار الصغير للنيران المندلعة، للقنابل المتفجرة في الهواء.

يستيقظ مع مستهل طلوع الصباح؛ له أن يميز الماء من جانب، مسطحاً وبلا شاطئ وفضي، ها قد بلغ أخيراً البحيرة. على الجانب الآخر من السكة بيوت صغيرة مُخبَطة، ملابس الغسيل تتدلى عن الحبال في ساحاتها. ثم مدخنة مسخمة آجرية، المدخنة الشاهقة لمصنعٍ جامد المشاعر؛ يليه مصنعٌ آخر، نوافذه العديدة تعكس أبهت درجات اللون الأزرق.

تتصوره يهبط في الصباح الباكر، يسير قاطعاً المحطة، عبر رواقها المقنطر الطويل المصفوف بالأعمدة، يطأ الأرض الرخام. الصدى يطفو في الهواء، الكلمات الصادرة عن مكبر الصوت مبهمة، رسائله باهتة. الهواء تنبعث منه رائحة الدخان – دخان السجائر، القطارات، المدينة ذاتها، دخانٌ أقرب إلى غبار. هي أيضاً تقطع الغبار أو الدخان؛ قد تموضعت فاتحةً ذراعيها، كي يرفعها بذراعيه في الهواء. البهجة تقبض على حنجرتها، البهجة والذعر سيّان. لا تستطيع رؤيته. شمس الفجر تسطع عبر نوافذ الرواق المقنطر الشاهقة، الهواء المفعم بالدخان يشتعل، الأرضية تومض. الآن هو في مدى نظرها، أقصى الرواق، كل تفصيلٍ فيه تراه جلياً – العين، الفم، اليد – رغم تجليها مرتعشة، مثل انعكاس صورة على سطح بركةٍ مترقرقة.

بيد أنّ عقلها عاجزٌ عن التشبث به، لا يسعها خلق ذكرى له في لحظتها. وكأنما النسيم يهب على وجه الماء وإذ بصورته تتشظى إلى ألوان، إلى تموجات؛ ثم يعود ويتشكل في بقعةٍ أخرى، عند العمود التالي، يتقمص صورة جسده المألوفة لديها. هالةٌ مترأرئة تحيط به.

الهالة المترأرئة هي غيابه، لكن بدت لها ضياءً. هي الضياء اليومي الذي ينير من حواليها كل شيء. كل صباحٍ وكل ليل، كل قفازٍ وكل حذاء، كل كرسيٍّ وكل طبق.

XI

الحجيرة

من الآن فصاعداً ستأخذ الأمور منحىً مظلماً، أكثر ظلمةً. بيد أنك تعرفين ذلك. عرفته، لأنك تعرفين مسبقاً ما حدث مع لورا.

طبعاً لورا نفسها لم تعرف. لم يكن لديها أي نية للعب دور البطلة الرومانسية المحكوم عليها بالهلاك. هي أصبحت ذلك لاحقاً، ضمن سياق النهاية التي رسمتها لنفسها وبذا في عقول معجبيها. أما في الحياة اليومية فقد كانت غالباً مستفزة، مثلها مثل أي شخصٍ آخر. أو مملة. أو مبتهجة، فهي أيضاً كانت تبتهج: إن واتتها الظروف الملائمة، والتي كانت سراً تحتفظ به لنفسها، انجرفت نحو نشوةٍ عارمة. لمحاتها الخاطفة من البهجة هي أكثر لحظاتها تأثيراً عليّ اليوم.

وهكذا تهيم لورا في الذاكرة تتنقل من فعلٍ دنيوي عادي إلى آخر، من يراها من الخارج لن يرى شيئاً غير اعتيادي – فتاة شقراء تسير صاعدةً التل، مستغرقة في أفكارها الخاصة. هناك العديد من تلك الفتيات الجميلات، الفتيات المستغرقات في أفكارهن، الأرض على وسع المدى مكتظة بهن، كل دقيقة تولد فتاةٌ منهن. معظم الوقت لا شيء خارج المألوف يقع لهن، لتلك الفتيات. يفعلن هذا وذاك وما عداه، ثمّ يتقدمن في العمر. لكن لورا اصطفيناها من بينهن، أنا وأنت والجميع. ترينها في لوحةٍ ما تجمع الزهور البرية، رغم أنها في واقع الحياة نادراً ما فعلت شيئاً كهذا. الرب بوجهه الأرضي يجثم متربصاً خلفها في ظل الغابة. نحن فقط من يتسنى لنا رؤيته. نحن فقط من نعرف أنه سينقض عليها.

أنظُر للوراء متأملةً ما كتبت حتى الآن، ويبدو لي غير وافٍ. ربما يتضمن الكثير من

الأمور التافهة، أو الكثير من الأمور التي ستؤخذ على أنها تافهة. العديد من الملابس، خطوط الموضة والألوان التي تعد قديمة الطراز الآن، أجنحةُ فراشاتٍ مطروحة. العديد من موائد العشاء، لم تسر كلها على ما يرام. موائد الفطور، نزهات، رحلات عبر المحيط، حفلاتٌ تنكرية، صحف، الإبحار بالقارب على النهر. أمورٌ كهذه لا تتجانس جيداً مع وقع المأساة. لكن في واقع الحياة، المأساة ليست بصرخةٍ طويلة واحدة. ففي طيّها تحمل كل ما قاد إليها. الساعة التافهة تلو الأخرى، اليوم تلو اليوم، العام بعد العام، ومن بعدها تنبثق اللحظة المفاجئة: طعنة السكين، القذيفة المتفجرة، السقوط المدوي للسيارة عن الجسر.

لقد حلَّ شهر أبريل الآن. الثلج يتساقط خفيفاً بين فترةٍ وأخرى، الزعفران قد أزهر. قريباً سأتمكن من العودة إلى مُقامي على الشرفة الخلفية، إلى طاولتي الخشبية العتيقة المحززة الفأرية، على الأقل متى ما أضحى الجو مشمساً. لا جليد على الأرصفة، وبذا عدت مرةً أخرى إلى التنزه سيراً. فقضائي شهور الشتاء في خمولٍ قد أوهن قواي؛ أتلمس نتائجه في ساقيّ. بيد أني مصرة على استرداد ملكية أرضي، على العودة والنهل من منابعي.

اليوم، وبمساعدة عكازي وتريثي الوقوفَ عدّة مراتٍ على الطريق، تدبرت الوصول إلى المقبرة. وها هما ملاكا تشايس، لا تبدوان على حالٍ أسوأ ولا باليتان أكثر مما كانتا عليه قبل قضائهما الشتاء تحت الثلوج؛ وها هي أسماء العائلة، مغبشة بدرجةٍ طفيفة يصعب معها قراءتها، لكن ربما عيناي هما المغبشتان. أمرر أصابعي على هذه الأسماء، على مدى أحرفها؛ ورغم صلابتها، محسوسيتها، فقد بدت وكأنها ترقّ على إثر لمسي لها، تبهت، ترتعش. الزمن كان قد انقضَّ عليها بأنيابه الحادة الخفية. أحدهم قد أزال عن قبر لورا الأوراق المتبللة المتساقطة منذ الخريف المنصرم. كانت هناك حزمة صغيرة من زهور النرجس البيضاء، بدأت تذوي، سيقانها ملفوفة بورق القصدير. غرفتها عن الأرض وطرحتها في أقرب صندوق مهملات. من يظنون يقدّر تلك التقدمات التي يتركونها، أولئك المولعون بلورا؟ بل الأصح، من يظنون ينظف

من ورائهم؟ هم ونفايات زهورهم، يوسخون الملكية بأمارات حزنهم الزائف؟ سأمنحك شيئاً تنوحين عليه. كذا اعتادت ريناي أن تقول. لو كنا حقاً طفلتيها لصفعتنا. وبما أننا لم نكن، فلم تصفعنا قط، لذلك لم نكتشف أبداً حقيقة الشيء الذي كانت تهددنا به.

في رحلة عودتي توقفت لدى متجر الدونات. لا بد وأن شعوري بالإرهاق كان بادياً عليّ، لأن نادلةً أسرعت اتجاهي. ففي العادة لا يخدم الندل على الطاولات، الزبون يقف لدى النضد ويحمل أغراضه بنفسه، لكن تلك الفتاة – ذات الوجه البيضاوي، داكنة الشعر، وعلى ما يبدو في زيٍّ رسميٍّ أسود – سألتني عما أريدها أن تحضر لي. فطلبت قهوةً، وعلى سبيل التغيير، مَفِن بالتوت البرّي. ثم رأيتها تحادث فتاةً أخرى، تلك الواقفة خلف النضد، وأدركت أنها ليست بنادلة على الإطلاق، بل زبونة، مثلي أنا: زيها الأسود لم يكن حتى زياً، فقط سترة وبنطالًا فضفاضًا. كان هناك بريقٌ فضي عليها في مكانٍ ما، ربما زمام سحّاب: فلا يسعني تمييز التفاصيل. وقبل أن يتسنى لي شكرها بالشكل اللائق كانت قد رحلت.
كم كان منعشاً، أن تجدي التهذيب والمراعاة لدى فتياتٍ في عمرها. فغالباً (كنت أفكر في سابرينا آنذاك) كل ما تأخذينه منهن هو الجحود والنكران. لكن الجحود والنكران هو الدرع الذي يحتمي به الشباب؛ هل من سواه؟ إذ كيف لهم أن يشقوا طريقهم في الحياة؟ الكبار يتمنون الخير للصغار، بيد أنهم يتمنون لهم السوء أيضاً: لن يتوانوا عن التهامهم أحياء، امتصاص حيويتهم، والبقاء خالدين بدورهم. فدون الحماية التي تؤمنها النكدية والطيش وتقلب المزاج، لانسحق كل الأطفال تحت ثقل الماضي – ماضي الآخرين، يحملون نيْره على أكتافهم. أنانيتهم هي نعمتهم الإلهية.
لكن بالطبع، إلى حدٍّ ما.
النادلة في المئزر الأزرق أحضرت لي القهوة. وكذلك المَفِن، والتي سرعان ما ندمت على طلبها. لم أعرف من أين أبدأ معها. فكل شيءٍ في المطاعم هذه الأيام غدا كبيراً جداً،

ثقيلاً جداً – العالم المادي يتجلى على هيئة كتلٍ ضخمة من العجين.

بعد أن ارتشفت قدر استطاعتي من القهوة، شددت الرحال إلى استرداد ملكيتي في الحمام، في الحجيرة الوسطى. الكتابات التي أذكرها من الخريف الماضي كانوا قد طلوا فوقها، لكن لحسن الحظ فالموسم الجديد قد بدأ. في الزاوية العليا اليمنى، مجموعة أحرفٍ أولى تصرح على حياء حبها لمجموعة أحرف أولى أخرى، كما هي عادة تلك المجاميع من الأحرف. ومن أسفلها، نقشٌ مكتوب بخطٍ جميل باللون الأزرق:

صواب الحكم على الأمور يتأتى عن الخبرة. الخبرة تتأتى عن سوء الحكم على الأمور.

ومن أسفلها، في قلم الحبر البنفسجي الجاف وبحروف متصلة: إن أردت فتاةً ذات خبرة اتصلي بأنيتا ذات الفم العظيم. سأصعد بكِ إلى الجنة. يليه رقم هاتف.

ومن أسفل ذلك، في حروف كبيرة منفصلة، بقلم التعليم الأحمر:

يوم الحساب قد دنا. أعدّي نفسك للقاء حتفك وأنت من أعني بكلامي أنيتا.

أحياناً أظن – لا، أحياناً أقلّب الفكرة في بالي – أن تلك الخربشات في الحمام هي في الواقع من صنع لورا، تتصرف، وإن عن بعد، من خلال أذرع وأياد الفتيات اللواتي يكتبنها. فكرةٌ غبية، بيد أنها مرضية، إلى أن أفكر ملياً وأستنبط الحقيقة المنطقية التالية وهي أن كل تلك الخربشات أنا المقصودة فيها، فمن غيري لا تزال تعرفه لورا في هذه البلدة؟ لكني إن كنت أنا المقصودة فيها، فما الذي تعنيه لورا بها؟ بالتأكيد ليس المعنى الحرفي.

في أوقات أخرى تنتابني رغبةٌ عارمة في المشاركة، في المساهمة؛ في وصل صوتي المرتعش بتلك الجوقة المجهولة من مقطوعات السرياند المختزلة، رسائل الحب المخربشة، الإعلانات البذيئة، الترانيم واللعنات.

الإصبع المتحرك يكتب، وبما أنه كتب،
سيمضي قدماً؛ لا تقواك ولا دهاؤك
سيغويانه للعودة وحذف نصف سطر،
ولا كل دموعك ستلطخ كلمةً من كلماته. (146)

ها! قلت في نفسي. من شأن هذا أن يدفعهن للوقوف والتهليل. يوماً ما متى ما تحسنت صحتي سأعود هناك وأكتب هذا. يجدر بهن أن يتهجن لدى قراءته، أفليس هذا ما يوددْن الحصول عليه؟ ما نود جميعاً الحصول عليه: ترك رسالةٍ خلفنا ذات تأثير، حتى وإن كان تأثيراً رهيباً؛ رسالةٌ لا أحد يملك حذفها.
لكن رسائل كهذه قد تكون خطرة. فكري مرتين قبل أن تتمني، خصوصاً إن كانت أمنيتك أن تضعي نفسك في يد القدر.
(فكري مرتين، قالت ريناي. فقالت لورا، ولم نكتفي بمرتين؟)

(146) رباعية من رباعيات عمر الخيام الترجمة عن النص الإنجليزي لإدوارد فيتزجيرالد.

الهريرة

حلّ شهر سبتمبر، ومن بعده أكتوبر. لورا عادت إلى المدرسة، مدرسةٍ أخرى. التنانير الكلتية رمادية وزرقاء عوضاً عن اللونين الكميت والأسود؛ عدا ذلك فهذه المدرسة ما اختلفت عن سابقتها في شيء، وفقاً لما رأيت.

في شهر نوفمبر، بعد أن بلغت السابعة عشرة، أعلنت لورا أن ريتشارد يهدر ماله. إن ظلّ مصرًّا فستواصل الذهاب إلى المدرسة، ستجلس على أي عتبة، لكنها لن تتعلم شيئاً مفيداً. صرحت برغبتها هذه بهدوء وبلا ضغينة، وقد فوجئتُ بإذعان ريتشارد لطلبها. "على أي حال فلا حاجة لها حقاً بالذهاب إلى المدرسة،" قال لي، "فهي لن تحتاج أبداً إلى العمل كي تؤمّن رزقها".

لكن كان لزاماً على لورا أن تنشغل في شيء، مثلي أنا. لذا تطوّعَت في إحدى قضايا وينيفريد الخيرية، منظمةٍ تطوعية تدعى ذا آبيغيلز، والمكرسة لعيادة المرضى في المستشفيات. ذا آبيغيلز كن مجموعة فتياتٍ متغطرسات أنيقات: من عوائل جيدة، يتمرنَّ على ما سيصيّرهن نسخاً من وينيفريد في مستقبلهن. كن يرتدين مريلة تشبه مريلة اللبّانة وموشاة بأبلكة[147] من زهور التوليب على الصدرة، ويسرن متثاقلات نحو أجنحة المستشفى حيث يفترض بهن محادثة المرضى، القراءة لهم ربما، إبهاجهم – كيف، لم يحدد لهن.

لورا أثبتت مهارتها في هذا المجال. غنيٌّ عن القول إنها لم تستسغ أيًّا من زميلاتها، لكنها اعتنقت المريلة. وكما كان متوقعاً منها، فقد انجذبت إلى أجنحة المرضى

(147) الأبلكة: زخرفة ملابس تتم بخياطة رسومٍ من قماش أو إلصاقها على قماشٍ آخر.

الفقراء، والتي تتحاشاها في العادة فتيات ذا آبيغيلز لنتانة المقيمين فيها وشناعتهم. تلك الأجنحة كانت مكتظة بالمشردين والأناس المنسيين: عجائز خرفات، محاربون قدامى معدومو اليد والحيلة، رجالٌ جدع الأنوف مصابون بالسفلس الثلاثي وما شابه. ذاك العالم من المستشفى كان يعاني من نقصٍ في الممرضات، وعاجلاً ما وضعت لورا يدها على المهام التي وبكل صراحة لم تكن من شأنها. على ما يبدو فالنونيات والقيء لم تصدمها، لا السباب والهذيان المهتاج ولا غيرها من المهام المنحطة قد أثبطت عزيمتها. تلك لم تكن نية وينيفريد، لكن سرعان ما تحول إلى واقعٍ علقنا فيه.

الممرضات رأين في لورا ملاكاً (أو بعضهن رأينها كذلك؛ فالأخريات رأين فيها عائقاً في الطريق). ووفقاً لوينيفريد، والتي حاولت أن تبقي عينها على الأمور وجنّدت جواسيسها لتلك الغاية، فقد بلغها أن لورا كانت بالذات جيدة مع الحالات الميؤوس منها. يبدو أنها لا تعي أنهم على فراش الموت، كذا قالت وينيفريد. فقد تعاملت مع تلك الحالات بشكلٍ اعتيادي، بل وطبيعي حتى، وهو – ما افترضته وينيفريد – كان مطمئناً لأولئك الناس من بعد أمدٍ من اليأس، رغم أن أيّ إنسانٍ عاقل ما كان ليطمئن. بالنسبة لوينيفريد، فتلك القدرة أو الموهبة التي تتمتع بها لورا كانت دلالةً أخرى على طبيعتها الغريبة المترسخة فيها.

"لا بد أن لها أعصاباً من جليد،" قالت وينيفريد. "فبالتأكيد ما كنت لأفعل شيئاً كهذا، ما كنت لأطيقه. تخيلي القذارة البائسة!"

في غضون ذلك كانت الخطط تجري على قدمٍ وساق لتنظيم حفل الظهور للورا. تلك الخطط لم تكن لورا على علمٍ بها: وقد مهدتُ لوينيفريد بأن ردة الفعل المتوقعة من لورا لن تكون إيجابية. في تلك الحال، كما قالت وينيفريد، نتابع تنظيم كل الأمور ثمّ نقيم الحفل ونفرضه أمراً واقعاً عليها؛ أو نلجأ حتى لخيارٍ أفضل، نتخلص من حفل الظهور بأكمله لأن الهدف الرئيسي منه سيتحقق مسبقاً، والهدف الرئيسي هو زواج استراتيجي.

كنا نتناول الغداء في البلاط الأركادي؛ وينيفريد كانت قد دعتني هناك، فقط نحن الاثنتان، كي نَكيد استراتيجية لأجل لورا، ذاك كان تعبيرها.

"استراتيجية؟" سألتها.

"تدرين ما أعني، ليست بالمأساة".

أفضل ما نأمله لأجل لورا، إن وضعنا كل شيءٍ في الاعتبار – واصلت وينيفريد – أن رجلاً غنياً لطيفاً سيعض على النواجذ ويتقدم إليها، ويسوقها إلى المذبح. وخيرٌ لها أن يكون رجلاً لطيفاً غنياً وغبياً، من لن يدرك حتى أنه يعض على النواجذ إلا بعد فوات الأوان.

"ونواجذ من وقع اختيارك عليها؟" سألتها. تساءلت إن كانت تلك هي المكيدة التي اتبعتها هي نفسها حين اصطادت لنفسها السيد بريور المتملص. هل حجبت طبيعتها المتطلبة للعض على النواجذ إلى أن حل شهر العسل وآنذاك فجرتها فجأةً في وجهه؟ ألهذا السبب لا أحد يراه، عدا في الصور؟

"عليك أن تعترفي،" واصلت وينيفريد حديثها، "أن لورا أكثر من مجرد غريبة أطوار". تريثت كي تبتسم اتجاه شخصٍ من خلف كتفيّ، وتهز أصابعها مرحبةً. أساورها الفضية أخذت تقعقع؛ كانت ترتدي العديد منها.

"وما الذي تعنينه؟" سألتها ببرود. فاستدراج الشروحات من وينيفريد باتت هوايتي الخبيثة.

وينيفريد زمّت شفتيها. أحمر شفاهها كان برتقالياً، شفتاها بدأتا تتجعدان في طيات. في يومنا هذا لعزونا السبب إلى كثرة التعرض للشمس، لكن الناس آنذاك ما كانوا قد ربطوا بين الأمرين بعد، ووينيفريد أحبّت التبرنُز. درجة الزنجار المعدني كانت المفضلة لديها. "هي لا تروق لذائقة الرجال عموماً. التصرفات والأقوال التي تصدر عنها غريبة. هي تفتقد – هي تفتقد الحذر".

وينيفريد كانت ترتدي حذاءها الأخضر من جلد التمساح، لكني ما عدت أراه أنيقاً؛ بل رأيته صارخاً عديم الذوق. أشياءٌ كثيرة فيما يخص وينيفريد والتي رأيتها فيما مضى غامضة ومغرية بتُّ أراها بكل وضوح، ببساطة لأني غدوت أعرف الكثير.

بريق شفتيها ما هو إلا طلاء مينا مجذذ، لمعة بشرتها ما هو إلا عمل الورنيش. كنت قد اطلعت على ما خلف الستار، رأيت الخيوط والبكرات، الأسلاك والمشدات. وكنت قد طورت ذائقتي الخاصة.

"مثل ماذا؟" سألتها، "أي تصرفات غريبة تعنين؟"

"البارحة أخبرتني أن الزواج ليس مهماً، فقط الحب. قالت إن المسيح يتفق معها".

"حسنٌ، تلك هي طبيعتها، هي لا تخفي أراءها. لكنها لا تعني الجنس. لا تعني "*eros*"(148)"

متى ما سمعت وينيفريد شيئاً عصيًّا عليها فهمه، إما تضحك أو تتجاهله. تلك الكلمة تجاهلتها. "كلهن يعنين الجنس، بقصدٍ أو لا. وموقفٌ كهذا قد يعرض فتاةً مثلها للكثير من المتاعب".

"مع الوقت ستنضج وتنسى الأمر" قلت لها رغم أني لم أظن ذلك.

"ليس في وقتٍ قريب. فالفتيات المحلقات فوق الغيوم هن الأسوأ على الإطلاق – والرجال يقتنصون الفرص. كل ما نحتاج إليه هو روميو بشعرٍ دهني. من شأن ذلك أن يحطم جناحيها".

"فما الذي تقترحينه إذن؟" قلت لها محدقةً بنظرةٍ جوفاء. كنت قد اعتدت على استخدام تلك النظرة كلما أردت حجب ضيقي وحتى غضبي، بيد أنها حثت وينيفريد على الاستمرار.

"كما قلت، نزوجها لرجلٍ لطيف لا يعرف الكوع من الكرسوع. ثمّ فلتفعل ما يحلو لها في أمور الحب لاحقاً، إن كان هذا ما تريد. طالما تفعله في السُّكّيت فلن يستهجن أحد".

أخذت أخوض في بقايا فطيرة الدجاج. كانت وينيفريد قد بدأت في الآونة الأخيرة تكثر من استخدام الأمثال والكلمات العامية، أظنها رأت تلك التعابير عصرية: إذ بلغت السن الذي أضحى فيه التماهي مع العصر مصدر قلقٍ لها.

كان من الواضح أنها لا تعرف لورا. ففكرة قيام لورا بفعلٍ كهذا في السُّكّيت كان

(148) eros: كلمة لاتينية يقصد بها الشهوة الجنسية.

صعباً عليّ ابتلاعها. قيامها به على الرصيف المقابل للبيت في وضح النهار كان أقرب إلى الواقع. كانت ستسعى إلى تحدينا، إلى تمريغ أنوفنا في التراب. لكانت فرّت مع عشيقها، أو فعلت أي أمرٍ آخر ذي طبيعةٍ ميلودرامية. لأثبتت لبقيتنا كم نحن ثلةٌ منافقة.

"لورا ستحصل على المال متى ما بلغت الحادية والعشرين،" قلت لها.

"ليس كافياً".

"ربما هو كافٍ للورا. ربما كل ما تسعى إليه هو قضاء حياتها كما تريد".

"حياتها! تخيلي فقط ما ستفعله بها!"

لم يكن هناك من فائدة ترجى في إقناع وينيفريد بالتراجع. فقد كانت مثل ساطورٍ معلق في الهواء. "وهل من مرشحين لديك؟" سألتها.

"لا أحد نهائي، لكني أعمل على الأمر،" قالت وينيفريد متحمسة،" هناك عدة أشخاص لن يمانعوا الظفر بعلاقات ريتشارد".

"لا تجهدي نفسك،" دمدمت متذمرة.

"أوه، لكني إن لم أجهد نفسي،" قالت وينيفريد مبتهجة،" فمن تراه سيفعل؟"

"سمعت بأنك تستفزين وينيفريد،" قلت للورا. "تثيرين أعصابها. تغيظينها بكلامك عن حرية الحب".

"لم أقل شيئاً عن حرية الحب،" أجابتني لورا، "كل ما قلته إن الزواج مؤسسة بالية. وإن الزواج لا علاقة له بالحب. الحب عطاء، أما الزواج فهو بيعٌ وشراء. لا يسعك أن تضعي الحب بنداً في عقد. ثم أخبرتها بأنَّ لا زواج هناك في الجنة".

"نحن لسنا في الجنة في حال لم تلاحظي. على أي حال، فقد أطلقت العنان لها بكلامك هذا".

"كنت فقط أقول الحقيقة،" كانت تدفع الجلد الميت من حول أظافرها بعود البرتقال العائد لي. "أظنها ستبدأ الآن في تعريفي على أناسٍ من اختيارها. فدائماً ما تدس أنفها في شؤون الآخرين".

"هي تخشى عليك من تدميرك حياتك، أعني، إن سلكت طريق الحب".
"وهل زواجك حافظ على حياتك من الدمار؟ أو من المبكر الحكم على ذلك؟"
تجاهلت نبرتها. "وما رأيك فيما قالت؟"
"لديك عطرٌ جديد. هل ريتشارد من أهداك إياه؟"
"أعني، حديثها عن الزواج؟"
"لا شيء". بدأت تمشط شعرها الأشقر الطويل، بفرشاة شعري، جالسةً إلى طاولة زينتي. كانت قد أخذت تبدي اهتماماً أكبر بمظهرها الشخصي، ترتدي ملابسها بأناقة، ملابسها وملابسي.
"أتعنين، إنك لا تحفلين للأمر؟" سألتها.
"لا. لا أفكر به بتاتاً".
"ربما يجدر بك أن تفعلي،" قلت لها. "ربما عليك أن تمنحي التفكير في مستقبلك دقيقةً من وقتك. فلن تقضي حياتك بأكملها تهيمين هكذا، دون ..." أردتُ أن أقول دون فعل شيء، لكنتُ ارتكبت خطأً إن فعلت.
"المستقبل لا وجود له،" أجابتني لورا. كانت قد اكتسبت عادة التحدث معي وكأني الشقيقة الصغرى وهي الكبرى، كأن عليها أن تفسر الأمور لي كي أفهمها. ثم قالت شيئاً من أقوالها الغريبة "إن كنت بهلواناً يسير مربوط العينين على سلكٍ أعلى شلالات نياجرا، فمن ستولين جل اهتمامك – الجموع المحتشدة في الطرف البعيد، أم قدميك؟"
"قدميّ، على ما أظن. أتمنى عليك ألا تستخدمي فرشاة شعري. ليست بعادة صحية".
"لكن إن أوليت اهتماماً أعظم لقدميك، ستهوين، وإن أوليت اهتماماً أعظم للجموع، ستهوين كذلك".
"إذن ما الجواب الصحيح؟"
"إن كنت ميتة، فهل فرشاة الشعر ستبقى ملكاً لك؟" سألتني ناظرةً بطرفي عينيها إلى صورتها الجانبية على المرآة. انعكاس صورتها أضفى عليها ملامح خبيثة، ملامح

ليست من طبيعتها. "هل للأموات أن يملكوا الأشياء؟ وإن لا، فما الذي يجعل غرضًا ما "ملكك" الآن؟ أحرف اسمك الأولى الموسومة عليه؟ أم جراثيمك؟"

"لورا، كفي عن مضايقتي!"

"أنا لا أحاول مضايقتك،" أجابتني لورا واضعةً الفرشاة على الطاولة. "أنا أتفكر وحسب. ما كان بوسعك أبداً أن تميزي الفرق. ولا أدري لم تصغين إلى أي كلامٍ تتفوه به وينيفريد. فالاستماع لها كما الاستماع إلى مصيدة فئران". ثم أردفت قائلةً، "مصيدة لا فأر فيها".

كانت قد تغيرت مؤخراً: أضحت نزقة، لا مبالية، متهورة لكن على غير تهورها المعهود. ما عادت تصرِّح بتحديها. شككتُ في تدخينها السجائر من خلف ظهري: كنت قد شممت رائحة التبغ عليها مرةً أو مرتين. التبغ، وشيءٍ آخر: رائحة عتيقة، مألوفة جداً. كان يجدر بي أن أكون أكثر يقظة للتغيرات التي طرأت عليها، لكن بالي كان مشغولاً أصلاً بأمور عديدة.

انتظرت حتى نهاية أكتوبر كي أخبر ريتشارد بحملي. أخبرته أني انتظرت إلى أن أتأكد. عبّر لي عن فرحته بالأسلوب التقليدي وقبّل جبهتي قائلاً، "فتاةٌ صالحة". كنت أفعل فقط ما كان متوقعاً مني.

الفائدة التي تأتّت من حملي كانت تركه لي إبان الليل من باب حرصه. أخبرني أنه لا يود أن يتسبب لي بأي ضرر. وأجبته بأن قراره ينم عن مراعاته لي. "ومن الآن فصاعداً ستتناولين طعامك بمقادير صغيرة، فلن أسمح بأي شقاوة،" قال لي هازًّا إصبعه في وجهي بأسلوبٍ وجدته خبيثاً. فقد كنت أهابه في لحظات خِفَّته أكثر من أي وقتٍ آخر؛ وكأني أراقب سحليةً قد تطفر في وجهي أيَّ لحظة. "سنحظى بأفضل طبيب،" ثم أردف قائلاً، "أيًّا كانت التكلفة". وضعه الأمور ضمن الإطار التجاري كان مطمئناً لكلينا. فمع وجود المال في الصورة، عرفت موقعي: أنا الحامل ببضاعة باهظة جداً، بكل بساطة ووضوح.

وينيفريد، بعد صرخة الذعر الحقيقي الصغيرة التي أبدتها، أخذت تثير جلبةً

غير صادقة. فقد كانت حقاً مذعورة. فقد خمنت وتخمينها في محله أن كوني أم الولد الوريث، أو حتى أي وريث، كان سيمنحني مقاماً أعلى لدى ريتشارد، وأكثر مما أستحقه في وجهة نظرها. المزيد لي، والأقل لها. كانت ستسلك كل الطرق كي تحجمني: توقعتها أن تظهر في أي لحظة مع خطط مفصلة لتصميم حجرة نوم الطفل.

"ومتى نتوقع الحدث المبارك؟" سألتني، وأدركت حينها أني سأضطر لابتلاع جرعةٍ زائدة من تعابيرها المصطنعة. ستشير إلى الطفل بالقادم الجديد، هدية اللقلق، والغريب الصغير، وهكذا دواليك. فمتى ما اضطرت وينيفريد للتعامل مع موضوعٍ يوترها تغدو نيّقة وخبيثة.

"في أبريل، على ما أظن،" أجبتها. " أو في مارس. فلم أزر طبيباً بعد".

"لكن لا بد أنك تعرفين،" قالت لي مقوسةً حاجبيها للأعلى.

"ليس الأمر وكأني فعلتها من قبل، " رددت عليها بفظاظة. "ليس الأمر وكأني توقعت حدوثه. لم أعر أي اهتمامٍ له".

توجهت إلى حجرة لورا ذات مساء كي أنقل لها نفس الخبر. طرقت على الباب؛ وحين لم تجب، فتحته برفق معتقدةً أنها لربما نائمة. بيد أنها لم تكن. كانت راكعة جانب سريرها، في قميص نومها الأزرق، منكسةً رأسها وشعرها الأشقر منتشر وكأنما ريحاً ساكنة بعثرته، ذراعاها مرميان أمامها وكأنما أحدهم قد طرحها أرضاً. في البداية ظننتها تصلي، لكنها لم تكن تصلي، أو على الأقل لم أسمعها تصلي. ما إن لاحظتني أخيراً، نهضت، بصورةٍ طبيعية وكأنما كانت التو تنفض الغبار، وجلست على مقعدها المزركش لطاولة زينتها.

كلما رأيتها في حجرتها، صدمتني العلاقة بينها وبين محيطها، المحيط الذي اختارته لها وينيفريد – الطبعات المنمنمة، شرائط براعم الورد، أقمشة الأورغندي، الهدب المكشكشة – ولورا ذاتها. أيُّ صورةٍ فوتوغرافية لأوحت بالتناغم بين الفتاة وحجرتها. بيد أن التنافر كان جلياً لي، أشبه بالسريالي. لورا كانت حجر صوانٍ في

عشٍّ زغبي.

أقول حجر صوان لا صخرة: فالنار تقدح من قلب الصوان.

"لورا، أردت أن أخبرك بأني سأنجب طفلاً".

استدارت نحوي، وجهها أملس وأبيض مثل صحنٍ من الخزف الصيني، محكم الإغلاق على التعبير في قلبه. لكنها لم تبد متفاجئةً. ولا حتى باركت لي. عوضاً عن ذلك قالت، "أتذكرين الهريرة؟"

"أي هريرة؟"

"الهريرة التي أنجبتها أمي. تلك التي قتلتها".

"لورا، لم تكن بهريرة".

فقالت، "أدري".

منظرٌ جميل

ريناي عادت. ليست براضية عني على الإطلاق. حسنٌ سيدتي الصغيرة، ما الذي ستقولينه دفاعاً عن نفسك؟ ما الذي فعلته بلورا؟ ألا تتعلمين أبداً؟

لا إجابة هناك على أسئلةٍ كهذه. فالإجابات متشابكة بالأسئلة، معقودةٌ ومجدولة حدَّ لا تعود فيه أجوبةً على الإطلاق.

أنا من يتعرض للمحاكمة هنا. أدري. وأدري بما ستفكرين به الآن. فهو ذات الأمر الذي أفكر به: أكان ينبغي عليّ أن أتصرف بشكلٍ مختلف؟ لا بد أنك تعتقدين ذلك، لكن هل كان من خيارٍ لدي؟ لكانت الخيارات أمامي الآن، بيد أن الآن ليس آنذاك.

هل كان ينبغي عليّ أن أقرأ أفكار لورا؟ هل كان ينبغي عليّ أن أتنبه إلى ما يجري من حولي؟ هل كان ينبغي عليّ أن أرى ما سيقع؟ أحارسةٌ لأختي أنا[149]؟

هل كان ينبغي ما هو إلا سؤالٌ عبثي. سؤالٌ عمّا لم يحدث. إجابته تنتمي إلى كونٍ موازٍ. تنتمي إلى بعدٍ آخر في الفضاء.

في يوم أربعاء من شهر فبراير، نزلت إلى الطابق السفلي بعد قيلولة منتصف الظهيرة. كنت قد قضيت معظم وقتي آنذاك أخلد إلى قيلولة: كنت في الشهر السابع من حملي، وأعاني من مشاكل في النوم إبان الليل. كان هناك قلق بخصوص

(149) في إشارة إلى الآية 4: 9 من سفر التكوين إذ يخاطب الرب قابيل بعد قتله لأخيه هابيل: "فقال الرب لقابيل `أين هابيل أخوك؟´ قال `لا أعلم. أحارسٌ لأخي أنا؟´"

ضغط الدم لدي؛ كاحلاي كانا منتفخين. وقد قيل لي أن أستلقي على ظهري رافعة قدميّ قدر المستطاع. شعرت وكأني حبة عنب ضخمة، متورمة ومنتفخة بالسكر والعصارة البنفسجية؛ شعرت بأني قبيحة وثقيلة.

السماء كانت تثلج في ذاك اليوم، أذكر ذلك، هطولٌ غزيرٌ لرقائق الثلج الناعمة الرطبة: كنت قد نظرت من النافذة بعد أن انتشلت نفسي عن السرير ووقفت على قدميّ، ورأيت شجرة الكستناء، كلها بيضاء، مثل مرجانٍ عملاق.

وينيفريد كانت هناك، في غرفة الجلوس المطلية بلون السحب. لم يكن من غير الاعتيادي وجودها هناك – فهي كانت تأتي وتذهب كما يحلو لها وكأنها تملك البيت – لكن ريتشارد كان هناك أيضاً. وقد كان من المعتاد في هذا الوقت من النهار أن يتواجد في مكتبه. كل واحدٍ منهما كان يحمل كأساً في يده. كل منهما بدا نكد المزاج.

"ما الأمر؟" سألتهما، "ما خطبكما؟"

"اجلسي،" قال ريتشارد، "هنا، إلى جانبي،" كان يربت بيده على الأريكة.

"ما سنقوله لك سيصدمك،" قالت لي وينيفريد، "وكم أنا آسفة على وقوعه في ظرفٍ دقيقٍ كهذا".

هي من تولت الكلام. ريتشارد أمسك بيدي وأطرق رأسه للأرض. كان يهز رأسه بين الوهلة والأخرى، وكأنما وجد قصة وينيفريد إما غير قابلة أبداً للتصديق أو متوقعة تماماً.

وها هي خلاصة ما قالته:

وأخيراً لورا انهارت. عقلها فرقع، حسب وصف وينيفريد، وكأن لورا حبة فاصولياء. "كان يجدر بنا تأمين المساعدة لها في وقت أبكر، لكننا اعتقدنا أن أمورها بدأت تستقر". على أي حال، اليوم في المستشفى حيث كانت تؤدي مهام زياراتها التطوعية، خرجت فجأةً عن السيطرة. لحسن الحظ طبيبٌ كان متواجداً هناك، وطبيبٌ آخر – مختص – تم استدعاؤه. خلاصة الحديث أن الطبيب أعلن أن لورا تشكل خطراً على نفسها والآخرين، وللأسف الشديد فريتشارد بات مجبراً على إيداعها في مؤسسة.

"ما الذي تقولينه لي؟ ما الذي فعلته لورا؟"

وينيفريد كانت ترمقني بنظرة الشفقة الزائفة. "لقد هددت بإيذاء نفسها. وكذلك تفوهت بأمور– حسنٌ، من الجلي أنها تعاني من الأوهام".

"ما الذي قالته؟"

"لا أظن أن عليّ إخبارك".

"لورا هي شقيقتي، من حقي أن أعرف".

"اتهمت ريتشارد بمحاولة قتلك".

"تلك كانت كلماتها حرفياً؟"

"كان من الواضح أن هذا ما تعنيه".

"لا، رجاءً أخبريني بما قالته بالضبط".

"نعتته بالكاذب، بائع الرقيق الخائن، والوحش المنحط عابد مامون[150]".

"أدري أن لها آراء متطرفة أحياناً، وترنو إلى التعبير عن نفسها بشكلٍ مباشر. لكن لا يحق لك إيداع شخص في مستشفى المجانين فقط لأنه تفوه بأمور كهذه".

"هناك المزيد". قالت لي وينيفريد في نبرةٍ مظلمة.

ريتشارد، محاولاً تهدئة روعي، أخبرني أن المؤسسة التي أودع فيها لورا ليست بمؤسسة اعتيادية – ليست على النهج الفيكتوري. بل عيادة خاصة. وعيادة جيدة جداً، إحدى أفضل العيادات. عيادة بيلّا فيستا. سيولونها أفضل أنواع الرعاية هناك.

"وما هو المنظر؟"

"عذراً؟"

"بيلّا فيستا. تعني المنظر الجميل. فما هو المنظر؟ ما الذي ستراه لورا متى ما نظرت من النافذة؟"

"أتمنى ألا تكون مزحةً منك،" قالت وينيفريد.

"لا. بل سؤالٌ مهمٌ جداً. هل المنظر لمرج، حديقة، نافورة، أم ماذا؟ أو زقاقٍ خلفي قذر؟"

---

(150) مامون – Mammom: شيطان الطمع كما مذكور في أسفار العهد الجديد.

لا أحد منهما كان يملك إجابةً على سؤالي. ريتشارد أخبرني أنه متيقن من أنه منظرٌ طبيعي من نوعٍ ما. فعيادة بيلّا فيستا تقع خارج المدينة، حيث الريف والمروج.
"وهل ذهبت هناك؟"
"أدري أنك مستاءة، عزيزتي، ربما يجدر بك الخلود إلى قيلولة".
"استيقظت التو من قيلولة. رجاءً أخبرني".
"لا، لم يسبق لي الذهاب هناك. بالطبع لم يسبق لي".
"إذاً كيف لك أن تعرف؟"
"بحقك آيريس، وما المهم في الموضوع؟" قالت وينيفريد.
"أريد رؤيتها". كنت أعاني من صعوبة في استيعاب انهيار لورا المفاجئ إلى أشلاء، بيد أني كنت قد بتّ معتادة على غرابة أطوار لورا حدًّ لم أعد أجد بها أي شيءٍ غريب. لكان من السهل عليّ غض الطرف عن زلاتها – الدلالات المشيرة إلى هشاشة وضعها العقلي، أياً كانت تلك الدلالات.
وفقاً لوينيفريد، فالأطباء قد نصحونا بالامتناع عن رؤية لورا في الوقت الحالي. وقد كانوا حازمين جداً بشأن ذلك. فعقلها كان مشوشاً جداً، ليس هذا وحسب، بل باتت عنيفة. وكذلكِ كان لا بد من الأخذ بالاعتبار وضعي الحالي.
شرعت في البكاء. ريتشارد ناولني منديله. كان منشًّى بعض الشيء، تفوح منه رائحة الكولونيا.
"هناك أمرٌ آخر علينا إبلاغك به،" قالت وينيفريد، "أمرٌ مؤلم".
"ربما علينا أن نؤجل الحديث في ذاك الأمر إلى وقتٍ لاحق، "قال ريتشارد في نبرةٍ ملطفة.
"مؤلمٌ جداً، " قالت وينيفريد في نبرة معارضةٍ زائفة. لذا بالتأكيد أصررتُ على معرفة الأمر في التو والحال.
"الفتاة المسكينة تدعي أنها حبلى، مثلك تماماً".
توقفت عن البكاء. "حسنٌ؟ هل هي حبلى؟"
"بالطبع لا،" قالت وينيفريد. "وكيف لها أن تحبل؟"

"ومن هو الأب؟" إذ لم أستطع تصور لورا تختلق أمراً كهذا من لا شيء. أعني، من كانت تتخيله أب طفلها؟

"ترفض الإفصاح عنه،" أجابني ريتشارد.

"بالطبع كانت هستيرية،" قالت وينيفريد، "لذا كل ما قالته كان مشوّشًا. بدت مصدقةً أنَّ الطفل الذي ستحظين به هو في الحقيقة طفلها، بطريقةٍ لم يسعها تفسيرها. بالطبع كانت تهذي".

ريتشارد هز رأسه. "من المحزن جداً،" أخذ يدمدم، في النبرة الخافتة المهيبة لحفار القبور: مكتومة، مثل سجادٍ كميتيٍّ سميك.

"المختص – الطبيب العقلي المختص – أخبرنا أن لورا ولا بد تشعر بغيرةٍ جنونية منك،" قالت وينيفريد. "تغار من كل شيءٍ يخصك – تريد حياتك، تريد أن تكون أنت، وهكذا تجلت غيرتها. أخبرنا أنَّ علينا إبعادك عن طريق الأذى". كانت قد احتست رشفةً صغيرة من شرابها. "ألم تساورك أي شكوكٍ بشأنها؟"

لك أن تريْ كم كانت وينيفريد امرأةً ذكية.

آيمي وُلدت في بداية أبريل. في تلك الأيام اعتادوا استخدام الإثير للتخدير، لذا لم أكن واعية إبان الولادة. ما إن تنشقته حتى غبت عن الوعي، ولدى استيقاظي وجدت نفسي أوهَن ومنسطحة. الرضيع لم يكن هناك. كان في الحضّانة، مع بقيتهم. كان فتاة.

"لا تعاني من أي خطب، أليس كذلك؟" سألت المرضة. فقد كنت قلقةً جداً بشأن صحتها.

"عشر أصابع في اليدين، عشر أصابع في القدمين،" أجابتني متحمسة، "ولا شيء زائد في غير محله".

أحضروا الرضيعة لاحقاً بعد الظهيرة، متدثرة في لحافٍ زهري. كنت قد سبق وأسميتها بيني وبين نفسي. آيمي والتي تعني المحبوب، وكم كنت آمل حقاً أنها ستكون محبوبة، من شخصٍ ما. فقد راودتني الشكوك في قدرتي على حبها، على

منحها الحب الذي تحتاجه مني. فقد جف نبع الحب والعاطفة لديّ: ما كنت أظن أنَّ قدراً كافٍ من الحب قد تبقى فيّ.

آيمي بدت مثل أي رضيعٍ آخر – كان لها ذاك الوجه المهروس، وكأنها اصطدمت بجدار في سرعةٍ بالغة. شعر رأسها طويلٌ وداكن. كانت تنظر شزراً إليّ بعينيها شبه المغلقتين، نظرة انعدام الثقة. قلت في نفسي يا لها من ضربةٍ قاصمة نتلقاها ساعة ولادتنا؛ يا لها من مفاجأةٍ غير سارة نتلقاها في تلك الوهلة الأولى، ذاك الصدام القاسي بالهواء الخارجي. شعرت فعلاً بالأسف على تلك المخلوقة الصغيرة؛ وأخذت عهداً على نفسي أن أبذل أقصى استطاعتي في حمايتها.

وبينما كنا نتفحص بعضنا، إذ بوينيفريد وريتشارد يقدمان علينا. للوهلة الأولى ظنتهما الممرضة والديّ. "لا، هذا بابا الفخور" قالت وينيفريد، والجميع أخذ يضحك. كلاهما كان يحمل في يده باقة ورد، وأغراض من كسوة الوليد بكل تفاصيله الدقيقة، الكروشيه الأنيق وشرائط الساتان البيضاء.

"يا لها من فاتنة!" قالت وينيفريد. "لكن يا إلهي، قد توقعنا فتاةً شقراء. لكنها داكنة. انظروا إلى شعرها!"

"أنا آسفة،" قلت لريتشارد. "أعلم أنك أردت صبياً".

"المرة القادمة عزيزتي". لم تبدُ أمارات القلق عليه.

"هذا شعر الولادة وحسب،" قالت الممرضة لوينيفريد. "الكثير منهم يولدون به، وأحياناً يمتد على الظهر بأكمله. لكن سرعان ما يطرحونه والشعر الحقيقي ينمو محله. عليك أن تشكري السماء أنها لم تولد بأسنانٍ أو بذيل، فهناك من يولد هكذا".

"جدّي بنجامين كان داكن الشعر،" قلت لهما، "قبل أن يبيض شعره، وكذلك جدتي آدليا، وأبي بالطبع، بيد أني لا أدري بخصوص أخويه. فالجانب الأشقر من العائلة ورثناه عن أمي". كذا قلت لهما في نبرة الحديث الاعتيادي، وكم ارتحت لرؤيتي ريتشارد لا يعير اهتماماً لما أقول.

هل كنت ممتنة لغياب لورا؟ أُقفلَ عليها في مكانٍ ما بعيدٍ جداً، حيث لا يسعني

الوصول إليها؟ وحيث لا يسعها الوصول إلي؛ حيث لا يتسنى لها الوقوف جانب فراشي مثل الجنية غير المدعوة إلى حفل التعميد قائلةً، ما الذي تتحدثين عنه؟ لكانت عرفَت، بالطبع. لكانت عرفت في تلك اللحظة.

وسَطع القمر بهيًّا

ليلة البارحة شاهدت امرأةً يافعة تشعل النار في جسدها: امرأة يافعة نحيلة، في أرديةٍ شفافة قابلة للاشتعال. فعلت ذلك اعتراضاً على ظلمٍ ما أو أمرٍ آخر: لكن لماذا ظنّت أن النار التي أوقدتها في نفسها ستحل أي مشكلة؟ أردت أن أقول لها أوه. لا. إياك أن تفعلي ذلك. لا تشعلي النار في حياتك. أيًا كان الأمر، فلا يستحق منك ذلك. لكن كان جلياً أن الأمر، في نظرها، يستحق.

يا ترى ما الذي يتلبسهن، أولئك الفتيات اليافعات من يملكن موهبة تقديم أنفسهن قرباناً؟ أيفعلن ذلك كي يثبتن أنَّ حتى الفتيات يملكن الشجاعة، بيدهن أن يفعلن ما هو أكثر من العويل والبكاء، أنهن أيضاً يملكن الشجاعة على مواجهة الموت في تحدٍ واختيال؟ ومن أين ينبثق الحافز الذي يدفعهن لذلك؟ هل ينبثق من التحدي، وإن كان الأمر كذلك، فما عساهن يتحدَّين؟ هل يتحدَّين النظام الفولاذي الخانق، عربة الشمس بدواليبها المُسمَّرة، الطغاة العميان، الآلهة العمياء؟ هل هن متهورات أو متغطرسات حدَّ الاعتقاد أنّ بأيديهن إيقاف تلك الأمور عن مواصلة مجراها إن هن عرضن أنفسهن قرباناً على مذبحٍ نظريّ، أم هل هي نوعٌ من الشهادة؟ حَريَّةٌ بالإعجاب، إن كان الهوس يعجبك. وتنم كذلك عن شجاعةٍ كبيرة. لكن لا فائدة ترجى منها على الإطلاق.

يعتريني القلق بشأن سابرينا، فيما يخص تلك الميول. ما الذي تنوي فعله، هناك في أقصى بقاع الأرض؟ هل عضتها المسيحية، أم البوذية، أم هناك خفاشٌ آخر يستوطن برج معبدها؟ ما فعلتموه بأحد إخوتي الأصاغر، فبي فعلتم. أترى تلك

هي الكلمات المدونة على جواز عبورها إلى العبث؟ أتريد أن تكفر عن خطايا عائلتها الثرية الجشعة، المحطَّمة، الباعثة على الشفقة؟ آمل حقاً ألا تفعل.

حتى آيمي كان قد تملَّكها شيءٌ من ذاك الهوس، لكنه تجسّد بهيئةٍ أكثر بطأً ومكراً. لورا هوت عن الجسر لدى بلوغ آيمي الثامنة، ريتشارد توفي لدى بلوغها العاشرة. تلك الأحداث ولا بد قد تركت أثرًا بالغاً فيها. ثم لاحقاً، بيني وبين وينيفريد، كنا قد مزقناها إرباً. وينيفريد ما كانت لتفوز بالمعركة اليوم، لكنها فازت بها آنذاك. سرقت آيمي وأخذتها بعيداً عني، ورغم كل ما بذلته، عجزت تماماً عن استعادتها.
لا غرابة إذن في قفز آيمي عن السفينة متى ما بلغت السن الذي وضعت فيه يدها على إرثها من أبيها، في لجوئها إلى مختلف أنواع المواد الكيميائية بحثاً عن عزاءٍ لها، في جَلدها ذاتها برجُلٍ تلو الآخر. (فمثلاً، من هو والد سابرينا؟ من الصّعب القول، وآيمي لم تقل. دوّري القنينة واختاري، كذا أجابت).
حاولت البقاء على تواصلٍ معها. ظللت آمل في التصالح معها – فرغم كل شيء تظل ابنتي، وقد انتابني الإحساس بالذنب اتجاهها، وأردت تعويضها – أردت تعويضها عن المستنقع الذي غدت عليه طفولتها. بيد أنها كانت قد انقلبت ضدي آنذاك – وضد وينيفريد، وهو ما وجدت فيه على الأقل عزاءً لي. ما كانت لتسمح لأيٍّ منا بالاقتراب منها، أو من سابرينا – خصوصاً سابرينا. فلم ترد لسابرينا أن تتلوث بأيٍّ منا.
كانت تتنقل بين البيوت على نحوٍ مستمر، على نحوٍ مضطرب. أكثر من مرة ألقوا بها في الشارع لعدم دفعها الإيجار؛ كما وألقي القبض عليها للتسبب بالإزعاج. أودعت المستشفى أكثر من مرة، لك أن تقولي إنها غدت مدمنة كحول، رغم أني أكره المصطلح. كانت تملك ما يكفي من المال لذا لم تضطر يوماً للحصول على وظيفة، وهو ما كان خيراً لها لأنها ما كانت لتستطيع الاحتفاظ بواحدة. أو ربما لم يكن خيراً لها. فلربما كانت الأمور ستأخذ منحىً مختلفاً لو لم يتح لها المجال للانجراف؛ إن كان عليها التركيز على وجبتها التالية، عوضاً عن الاستغراق في الجراح التي شعرت بأننا قد تسببنا بها لها. فمدخولٌ غير مكتسب يشجع الشفقة على الذات لدى

هؤلاء الميالين إليها.

آخر مرة ذهبت فيها لرؤية آيمي، كانت تعيش في بيتٍ قذر من تلك البيوت المصفوفة جانب شارع بارليمينت، في تورنتو. كانت هناك طفلة، خمنت أنها ولا بد سابرينا، تجلس مقرفصة في مربعٍ ترابي جانب المدخل الأمامي – بدت صعلوكاً رثَّ الثياب بكتلة شعرٍ كثيفة قذرة يرتدي بنطالاً قصيراً لكن دون قميص. كانت تمسك بوعاء تنكٍ قديم وتجرف الرمل الخشن بملعقةٍ معقوفة وتهيله في الوعاء. كانت مخلوقةً صغيرة واسعة الحيلة: طلبت مني ربع دولار. هل منحتها الربع؟ على الأرجح فعلت. "أنا جدتك،" قلت لها، وأخذت هي تحدق بي وكأني مخبولة. دون شك لم تكن قد سمعت قط بوجود شخصٍ كهذا.

في تلك المرة توجه لي أحد الجيران. بدوا أناساً لطفاء، أو لطفاء إلى الحد الذي يطعمون فيه سابرينا متى ما نسيت آيمي العودة إلى منزلها. أظنّ اسم عائلتهم كان كيلي. فهم من اتصل بالشرطة يوم عثر على آيمي في قاع السلم بعنقٍ مكسور. سقطت أو قفزت أو دفع بها أحد، لن نعرف أبداً.

كان ينبغي عليّ أن أنتشل سابرينا يومها، والهروب بها. لكنا فررنا إلى المكسيك. لكنت فعلت ذلك لو عرفت بما سيجري – أنَّ وينيفريد ستعتقلها وتقفل عليها بعيداً عني، كما فعلت بآيمي.

هل كانت الأمور ستأخذ منحىً أفضل لو أنَّ سابرينا عاشت معي بدلاً عن وينيفريد؟ يا ترى ما الحياة التي عاشتها هناك، في بيت عجوزٍ ثرية حقودة متقرحة؟ بدلاً عن الحياة التي كانت ستعيشها في بيت عجوزٍ فقيرة حقودة متقرحة، أنا. بيد أني كنت سأحبها. وأشك أن وينيفريد قد أحبتها يوماً. هي فقط تشبثت بسابرينا نكايةً بي؛ كي تعاقبني؛ كي تريني أنها انتصرت عليّ.

لكني لم أنتشل طفلاً يومها. طرقت على الباب، ولدى عدم سماعي لإجابة فتحته ودخلت، ثم صعدت السلم الضيق، المظلم، الحدر إلى الطابق الثاني حيث شقة آيمي. آيمي كانت في المطبخ، جالسة إلى طاولتها الصغيرة الدائرية، تتأمل يديها، تحملان كوب قهوة عليه صورة وجهٍ مبتسم. كانت قد رفعت الكوب حتى عينيها

تديره هذا الاتجاه وذاك. وجهها بدا شاحباً، شعرها مبعثر. لا يسعني القول إني وجدتها جذابة جداً. كانت تدخن سيجارة. على الأرجح أنها كانت تحت تأثير مخدرٍ ما أو آخر، ممزوجٍ مع الكحول؛ كان لي أن أشم رائحته في الغرفة، مع رائحة الدخان القديم، حوض المغسلة القذر، سطل المهملات الوسخ.

حاولت التكلم معها. بدأت برفق، لكنها لم تكن في مزاجٍ للإصغاء. قالت إنها قد سئمت من الأمر برمته، منا جميعاً. وأكثر ما سئمت منه هو إحساسها بأننا أخفينا أموراً عنها. فالعائلة قد غطت الأمر؛ ولا أحد يقبل بقول الحقيقة لها؛ أفواهنا تفتح وتغلق والكلمات تخرج منها، لكنها ليست بالكلمات التي تؤدي إلى أي شيء.

وعلى كلٍّ فهي قد خمنت الحقيقة. فنحن سطونا عليها، جردناها من إرثها، لأني لم أكن بوالدتها الحقيقية ولا ريتشارد بوالدها الحقيقي. الحقيقة كلها كانت مذكورة في كتاب لورا، كما قالت لي.

سألتها بحق السماء ما الذي عنته بكلامها هذا. فأخبرتني أنه من الجلي لها أن لورا هي أمها الحقيقية، ووالدها الحقيقي هو ذاك الرجل، الرجل في السفّاح الأعمى. الخالة لورا قد وقعت في غرامه، لكننا وقفنا في طريقها – وتخلصنا من ذاك العشيق المجهول بطريقةٍ ما. أخفناه، رشوناه، قتلناه، أيًّا كان ما فعلناه به؛ فقد عاشت في بيت وينيفريد بما يكفي لتعرف كيف تدار الأمور من قبل أناسٍ مثلنا. ولدى اكتشافنا أن لورا حبلى منه، أرسلنا بها بعيداً كي نغطي على الفضيحة، ولدى وفاة طفلي في الولادة، سرقنا طفل لورا وتبنيناه، وتظاهرنا بأنه طفلنا. كلامها لم يكن مترابطاً، لكن تلك هي خلاصته. ترين كم راق الأمر لها، تعلقها بتلك القصة المتخيَّلة؛ فمن منّا لا يريد مخلوقاً أسطورياً أُمًّا له، عوضاً عن النوع الحقيقي من الأمهات التالفات؟ إن سنحت لنا الفرصة.

أخبرتها بأنها مخطئة تماماً، أنَّ الأمور قد تشوشت عليها، لكنها ما كانت لتسمعني. قالت لي ألا عجب أنها لم تشعر يوماً بالسعادة معي ومع ريتشارد، لأننا في الحقيقة لم نكن بوالديها الحقيقيين. ولا عجب أن الخالة لورا هوت بنفسها عن الجسر – فقد حطمنا قلبها. وعلى الأرجح فقد خلَّفت وراءها رسالةً إلى آيمي تفسر فيها

الحقيقة لها، كي تقرأها متى ما كبرت، لكن لا بد أني وريتشارد قد حرقناها.

لا عجب أني كنت أماً فظيعة، أردفَت قائلةً لي. لا عجب أني لم أحبها أبداً. فلو كنت فعلاً أحبها، لكنت قدَّمت مصلحتها على كل ما عداها. لكنت أخذت مشاعرها في الاعتبار. لما كنتُ هجرتُ ريتشارد.

"ربما لم أكن بالأم المثالية،" قلت لها. "أنا مستعدة للاعتراف بذلك. لكني فعلت أقصى استطاعتي في ظل الظروف – الظروف التي في الواقع لا تعرفين منها إلا النزر القليل". ثم وبختها بشأن سابرينا. كيف لها أن تتركها تجوب الأنحاء خارج البيت دون ملابس، قذرة كما المتسولين؛ كان إهمالاً منها، الطفل قد يختفي في أي لحظة، الأطفال يختفون طوال الوقت. أخبرتها أني جدة سابرينا، وأنا على أتم الاستعداد لتولي رعايتها، و..."

"أنت لست بجدتها،" صاحت بي باكيةً. "الخالة لورا هي جدتها. أو كانت جدتها. هي ميتة الآن، وأنت من قتلها!"

"لا تكوني غبية،" رددت عليها. وذاك كان الرد الخاطئ: فكلما اشتد نكرانك لأمور كتلك كلما ترسخت في الأذهان. لكن غالباً ما يصدر عنك ردة الفعل الخاطئة متى ما كنت مرتعبة، وآيمي قد أرعبتني.

وما إن نطقت بكلمة غبية، انهالت عليّ بالصراخ. أخذت تصيح قائلةً أنّي أنا الغبية، وغبية إلى حدٍّ خطير، غبية إلى الحد الذي لم أعِ معه كم كنت غبية. نطقت بكلمات ونعوت أخرى لن أكررها هنا، ثم رفعت كوب القهوة ذي الوجه المبتسم ورمت به عليّ. ثم نهضت فجأةً عن كرسيها تتأهب للانقضاض، كانت مترنحة، كانت تعوي، عواؤها الباكي يقطع نياط القلب. كانت قد مدت ذراعيها اتجاهي، رأيت فيهما تهديداً لي. كنت منزعجة، مصدومة. تقهقرت إلى الوراء، أتشبث بالدرابزين، أتفادى الأغراض الأخرى التي أخذت ترمي بها عليّ – حذاء، صحن، فنجان. ما إن بلغت الباب الأمامي فررتُ مذعورةً من هناك.

ربما كان ينبغي عليّ أن أمد ذراعيّ اتجاهها. كان ينبغي عليّ أن أعانقها. كان ينبغي عليّ أن أبكي معها. ثم كان ينبغي عليّ أن أجلس معها وأخبرها القصة التي أخبرك

إياها الآن. لكني لم أفعل ذلك. أضعت الفرصة، وكم أندم عليها بمرارة.

وقعت آيمي على السلم بعد ثلاثة أسابيع من لقائنا. وقد ندبتها، بالتأكيد. فقد كانت ابنتي. لكن عليّ أن أعترف أني ندبت الابنة التي كانت في عمر أبكر بكثير من حياتها. ندبت المرأة التي كانت بوسعها أن تكون؛ ندبت فرصها الضائعة. وأكثر من أي شيءٍ آخر، ندبت فشلي معها.

بعد أن توفيّت آيمي، نشبت وينيفريد مخالبها في سابرينا. التملك تسعة أعشار القانون، وهي من حضر موقع الوفاة أولاً. انتشلت سابرينا وحملتها إلى بيتها الفخم المبهرج في روزدايل، وبطرفة عين تدبرت إعلان نفسها الوصية القانونية عليها. فكرت بمقاومتها، لكن لكنت أعدت التجربة المريرة لمعركتنا حول آيمي - معركة هزيمتي فيها كانت محتومة.

لدى تولي وينيفريد مسؤولية سابرينا لم أكن قد تجاوزت الستين من عمري بعد؛ كنت ما أزال أقود السيارة. ومن وقتٍ لآخر كنت أقطع الطريق إلى تورنتو وأراقب سابرينا وكأني ظلها، مثل محققٍ خاص من قصص الجرائم القديمة. اعتدت أن أحوم في الأرجاء خارج مدرستها الابتدائية - مدرستها الابتدائية الجديدة، مدرستها الابتدائية الجديدة النخبوية - فقط كي ألمحها، كي أطمئن نفسي أنها ورغم كل شيء فقد كانت على ما يرام.

مرةً كنت في المتجر الكبير، نهار اصطحبتها وينيفريد إلى متجر إيتون كي تشتري لها حذاء حفلاتٍ ما، بعد مضي عدة أشهر على استحواذها عليها. لا شك أنها اشترت لسابرينا كل الملابس الأخرى دون استشارتها - فذاك هو أسلوبها - لكن الأحذية يجب أن تقاس، ولسببٍ ما لم تأمن وينيفريد لأحد مخدوميها بتنفيذ تلك المهمة.

كان موسم أعياد الكريسماس - الأعمدة في المتجر كانت ملفوفة بالبهشية الزائفة، أكاليل أكواز الصنوبر المطلية بالذهب وعقد الشرائط المخملية الحمراء كانت معلقة على المداخل وبدت مثل هالاتٍ شائكة - ورأيت وينيفريد تعلق في وسط غناءٍ جماعي لترانيم العيد مما أغاظها كثيراً. كنت في الممر المجاور. ملابسي ما عادت

كما السابق – كنت أرتدي معطفاً قديماً من التويد مع منديلٍ ربطته حول رأسي وأسدلته على جبيني – ورغم أنها نظرت إليّ مباشرةً لكنها لم ترني. لربما ظنتني عاملة التنظيف، أو مهاجرة أتصيد التنزيلات.

كانت متأنقة بشكلٍ مبالغ فيه كعادتها، بيد أنها بدت متصدعةً وبالية. فقد كانت ولا بد على عتبة السبعين، وبعد عمرٍ معين فأسلوبها في وضع الماكياج أخذ يوحي وكأنها محنطة. ما كان عليها أن تبقى على أحمر شفاهها البرتقالي، إذ بدا فاقعاً جداً عليها.

كان لي أن أرى الغضون العميقة الساخطة المبودرة بين حاجبيها، العضلات المشدودة لفكها المحمر. كانت تجر سابرينا وراءها بذراعٍ واحدة، تحاول شق طريقها عبر جوقة الزبائن الضخام المتدثرين بالمعاطف الثقيلة؛ لا بد وأنها كرهت الأجواء الحماسية العفوية للغناء.

أما سابرينا فقد أرادت الاستماع إلى الموسيقى. أخذت تسير متباطئةً، تجعل من نفسها وزناً ثقيلاً كما يفعل الأطفال – اللجوء إلى المقاومة دون إظهارها. ذراعها كانت منتصبةً للأعلى، مثل طالبةٍ نجيبة تجيب أسئلة معلمتها في المدرسة، لكنها كانت عبوساً مثل عفريتٍ صغير. لا بد وأنه كان مؤلماً، ما كانت تفعل. تأخذ موقفاً، تصرح عن رغبة، تثبت على رأي.

الترنيمة كانت "الملك الصالح وينسيسلاس". سابرينا كانت تعرف الكلمات: فقد رأيتُ فمها الصغير يهمهما. "وسطع القمر بهيًا تلك الليلة، رغم الصقيع القاسي. فإذ يلمح الملك فقيراً قادماً من بعيد يجمع مؤونة الشتاء". هي ترنيمةٌ عن الجوع، وبدا جلياً لي أنّ سابرينا تفهم مغزاها – فلا بد وأنها كانت لا تزال تتذكره، ذاك الشعور بالجوع. وينيفريد نخزت ذراعها، وأخذت تتلفت حولها بعصبية. هي لم ترني، لكنها أحست بوجودي، كما تستشعر البقرة المحمية في حقلٍ مسيَّج وجود الذئب في الأرجاء. ومع ذلك، فالبقر لا تتصرف كالحيوانات البرية، فهي معتادة على الحياة المحصنة. وينيفريد كانت عصبية، لكنها لم تكن مذعورة. إن كنتُ قد خطرت على بالها على الإطلاق، فلا ريب أنها اعتقدت أني بعيدةٌ جداً عنها، ومن رحمة السماء أني

بعيدةٌ عن ناظرها، في الظلام الخارجي الذي حكمت به عليّ.

انتابتني رغبةٌ عارمة في انتشال سابرينا بذراعيّ والفرار بها من هناك. تخيلت عويل وينيفريد المتهدِّج وأنا أقتحم جوقة المترنّمين متبلّدي الحس يصيحون بكل أريحية عن مرارة الشتاء.

لكنتُ تشبثت بها بكل قوتي، ولما تعثرت، ولما تركتها تقع من بين ذراعيّ. لكني أيضاً ما كنت لأفر بها بعيداً. كانوا سيلحقون بي في لحظة.

يومها خرجت إلى الشارع وحيدة، أخذت أسير وأسير، رأسي منكس، الياقة مرفوعة، على مدى أرصفة وسط المدينة. الريح كانت تهب من البحيرة والثلج كان يهطل في دوامات. كان نهاراً، لكن مع السماء المحتجبة بالسحب وهطول الثلج، فالضوء كان معتماً؛ السيارات كانت متراصة في الشوارع غير المجروفة، تتحرك ببطءٍ وسائقوها مهتاجون، أضواء ذيولها الحمراء ترتد عني مثل أعين وحوشٍ محدودبة الظهر تجري خلفيًّا.

كنت متشبثة بعلبة – نسيت ما اشتريته ذاك النهار – ولم أكن أرتدي قفازيّ. لا بد وأني أوقعتهما في المتجر، تحت أقدام حشد الزبائن. بالكاد كنت قد لاحظت فقداني لهما. فيما مضى كان بوسعي أن أسير عبر عاصفةٍ ثلجية بيدين عاريتين وما كنت لأشعر بفقداني لهما. إما الحب أو الكره أو الرعب، أو الغضب المعترم، ينسيك الشعور بيديك.

اعتدت على الاستغراق في حلم يقظةٍ عني – وفي الحقيقة، فلا يزال يراودني. حلم يقظة سخيف، بيد أن الصور التي نراها في أحلام يقظتنا هي في الغالب ما تشكل مصائرنا. (لا بد وأنك قد لاحظت كم يسهل عليّ أن أرنو إلى استخدام اللغة الطنانة مثل تشكل مصائرنا، متى ما انجرفت في هذا الاتجاه. لكن لا تحفلي للأمر).

في هذا الحلم، وينيفريد وصديقاتها، يعتمرن أكاليل من الأموال، يجتمعن حول سابرينا بينما هي نائمة في سريرها الأبيض المزركش بالهدب، يتناقشن الهدايا التي سيهبنها إياها. فقد سبق وأهدينها الكوب الفضي المنقوش من تصميم بيركز،

ورق الجدران الصوفيّ الموشى برسوم الدببة المروَّضة على حواف جدران غرفتها، حبات اللآلئ لنظم عقدها اللؤلؤي المفرد، وكل تلك الهدايا الذهبية الأخرى، "*comme il faut*"[151]، والتي سرعان ما ستغدو فحماً ما إن تبزغ الشمس. أما اليوم فيخططن لتقويم الأسنان ودروس التنس ودروس البيانو ودروس الرقص ومخيمات الصيف النخبوية. فما الأمل الذي تبقى لها؟

في تلك اللحظة، أظهرُ فجأةً في وميضِ كبريتي ونفحةٍ من دخان بجناحيَّ الجلديين المسخَّمين، العرابة العاصية غير المدعوة. أنا أيضاً لدي ما أهبها إياه. لي الحق في ذلك.

وينيفريد وطاقمها يضحكن ويشرن إليّ باستهزاء. أنت؟ قد نبذناك منذ زمنٍ بعيد. هل نظرت إلى نفسك مؤخراً في المرآة؟ لقد أهملت نفسك. تبدين بعمرِ المائة واثنين. عودي إلى كهفك القذر القديم! فما الذي بيدك أن تهديها أصلاً؟

سأهبها الحقيقة، أقول لهن. فأنا آخر من بيده أن يهبها إياها. هي الشيء الوحيد الذي سيبقى في هذه الغرفة متى ما أشرقت الشمس.

(151) كل ما هو ملائم.

مَغدى بِتي

مضت الأسابيع، ولورا لم تعد. أردت أن أكتب لها، أن أتصل بها، لكن ريتشارد كان قد أخبرني أن من شأن ذلك أن يفاقم من حالتها. فمن الضروري ألا يقاطعها صوتٌ من الماضي. عليها أن تركز انتباهها على وضعها الحالي – على التجاوب مع العلاج المقدم لها. هذا ما أخبروه به. أما بالنسبة لطبيعة العلاج، فهو ليس بطبيب، ولن يدعي فهم تلك الأمور. وبالطبع كان من الأفضل ترك الأمر ليد الخبراء.

كنت قد عذبت نفسي برؤىً عنها، مسجونة، تصارع، عالقة في شرك وهمها المؤلم من صنع يديها، أو عالقة في شرك وهمٍ آخر، مؤلمٍ بذات القدر، والذي لم يكن من صنع يديها بل من صنع أيادي الآخرين من حولها. ومتى غدا أحدهما الآخر؟ أين هي العتبة، بين العالم الداخلي والعالم الخارجي؟ جميعنا نعبر ذاك المدخل بين العالمين كل يوم، نستخدم كلمات السر المحبوكة من قواعد الصرف – أنا أقول، أنت تقول، هو وهي يقولان، ذاك الشيء، من جهةٍ أخرى، ليس مذكوراً – ندفع ثمن امتياز سلامتنا العقلية بالعملة المشتركة، بالمعاني التي اتفقنا عليها.

بيد أنَّ لورا، مذ كانت طفلة، لم توافق كلياً على هذا الاتفاق المشترك. أهنا كانت تكمن المشكلة؟ أنها تشبثت بقول لا حين كان المطلوب منها نعم؟ والعكس بالعكس، العكس بالعكس.

قيل لي إنَّ لورا كانت تتحسن: إنها أظهرت تقدماً ملحوظاً. ثم ما عادت تتحسن، فقد انتكست. فيم أظهرت تقدماً ملموساً؟ وكيف انتكست؟ ما كان يجدر بي الخوض في هذا الحديث، إذ سيكون مزعجاً ومؤلماً لي، وكان من المهم بالنسبة لي أن

أحافظ على طاقتي كما يجدر بكل أمٍّ يافعة أن تفعل. "سنعيدك إلى كامل صحتك في أسرع وقت،" قال لي ريتشارد مربتاً على ذراعي.

"لكني لست مريضة حقاً".

"تدرين ما أعني،" ثم أردف قائلاً،" العودة بالأمور إلى سابق عهدها". ارتسمت على وجهه ابتسامة مولعة، خبيثة حتى. كانت عيناه قد أخذتا تضيقان، إما هذا أو أن اللحم بدأ يتكدس حولهما، مما أضفى عليه ملامح ماكرة. كان يعني العودة إلى العهد الذي يحتل فيه مكانه الطبيعي: جاثماً فوقي. تخيلته يكبت على أنفاسي. فقد أخذ وزنه يزداد؛ بات يأكل كثيراً خارج البيت؛ كان يلقي الخطابات، في النوادي، في تجمعات أصحاب النفوذ، الأثرياء الوجهاء من أصحاب النفوذ. تجمعات ثقيلة مملة حيث التقى الرجال النافذون الأثرياء ببعضهم البعض وأخذوا يتفكرون، لأن – كما شك الجميع – فعاصفةٌ هوجاء كانت تلوح في الأفق القريب.

من شأن إلقاء كل تلك الخطابات أن تنفخ الرجل. فقد رأيت تأثيرها أكثر من مرة. هي تلك النوعية من الكلمات، النوعية التي يستخدمونها في خطاباتهم. كلماتٌ تختمر في عقولهم. لك أن تريها على شاشة التلفاز، أثناء بث الأخبار السياسية – الكلمات تخرج من أفواههم مثل فقاعات الغاز.

قررت أن أتمارض لأطول فترةٍ ممكنة.

موضوع لورا أخذ يتآكلني ويتآكلني. قلّبت قصة وينيفريد عنها في هذا الاتجاه وذاك، أتفحص الأمر من كل زاوية. فقد صعب عليّ تصديقه، كما صعب عليّ كذلك تكذيبه.

فلورا دائماً ما تمتعت بقدرةٍ عنيفة: القدرة على كسر الأشياء دون قصد. كذلك هي لم تحترم يوماً حدود الملكيّات. ما كان لي اعتبرته لها: قلمي الفاونتن، عطري، ثوبي الصيفي، قبعتي، فرشاة شعري. هل امتدت هذه اللائحة لتشمل طفلي غير المولود؟ من جهةٍ أخرى، إن كانت فعلاً تعاني من الأوهام – إن كانت فعلاً تختلق الأمور – فما الذي دفعها لاختلاق أمرٍ كهذا بالذات؟

لكن بافتراض أنَّ وينيفريد كانت كاذبة. بافتراض أنَّ لورا كانت عاقلة بقدر ما كانت دوماً عليه. في تلك الحال فلورا كانت تقول الحقيقة. وإن كانت لورا تقول الحقيقة، فلورا إذاً حامل. وإن كان هناك حقاً من طفل، فإلام سيؤول مصيره؟ ولماذا لم تخبرني عنه، عوضاً عن إخبار طبيبٍ ما، غريبٍ ما؟ لماذا لم تطلب مساعدتي؟ أخذت أتفكر في ذلك لبعض الوقت. قد يكون هناك الكثير من الأسباب. وضعي الصحي الدقيق قد يكون من بينها.

أما بالنسبة للأب، متخيَّلا كان أم حقيقيًا فلا يوجد سوى رجلٍ واحد محتمل ولا أحد سواه. لا بد وأنه أليكس توماس.

لكن من المستحيل. لا يعقل!

ما عدت أعرف كيف كانت لورا ستجيبني على تلك الأسئلة. فقد باتت مجهولةً لي، مجهولةً مثل باطن قفازك متى ما كانت يدك فيه. كانت برفقتي طوال الوقت، لكني عجزت عن رؤيتها. كنت فقط قادرة على تلمس شكل وجودها: شكلٍ أجوف، مليءٍ بخيالاتي عنها.

مضت الشهور. حلَّ يونيو، من بعده يوليو، ثمّ أغسطس. وينيفريد أخبرتني أني بدوت شاحبة ومستنزفة. أنَّ عليّ قضاء وقتٍ أكثر في الخارج. فإن لم أشأ لعب التنس أو الغولف، إذ ما فتئت تقترح عليّ ذلك – فقد تحل مشكلة كرشي الصغير والذي يجب معالجته قبل أن يتحول إلى مشكلة مزمنة – على الأقل فلأعمل على حديقتي الصخرية. فتلك هواية تتلاءم مع الأمومة.

لم أكن مولعة بحديقتي الصخرية، والتي كانت لي بالاسم وحسب، مثلها مثل سواها. (مثل "طفلتي" إن تأملت الأمر: لا بد وأنهم استبدلوها، لا بد وأنها رضيعة الغجر، تركوها وراءهم؛ من المؤكد أن طفلتي الحقيقية – الطفلة الأقل بكاءً، الأكثر ابتساماً، والأقل تصديعاً للرأس – قد خطفت). الحديقة الصخرية لم تقل عنها عناداً في مقاومة رعايتي وخدمتي؛ فلا شيء فعلته قد أرضاها على الإطلاق. الصخور أضفت شكلاً جميلاً على الحديقة – فقد كان هناك الكثير من الغرانيت الزهري، مع صخورٍ من الحجر الكلسي – لكني عجزت عن زراعة أي شيءٍ فيها.

لذا اكتفيت باللجوء إلى الكتب – نباتاتٌ معمرة لأجل الحديقة الصخرية، نباتات الصبار لأجل المناخات الشمالية، وما ماثلها. تفحصت تلك الكتب، أعدّ القوائم – قوائم بما سأزرع، أو قوائم بما زرعت مسبقاً؛ ما كان يجدر به أن ينمو، غير أنه لم ينمُ. دم التنين، الثلج على قمة الجبل، الديك والدجاج. راقت لي الأسماء، لكني لم أكترث للنباتات في حد ذاتها.

"يدي لا بركة فيها،" قلت لوينيفريد، "على عكس يدك". تظاهُري بافتقار الكفاءة كان قد تطبّع فيّ، ما عدت حتى أفكر مسبقاً بادعائه. أما وينيفريد فما عادت ترى في عجزي عن تدبير الأمور مسألةً مواتية.

"لكن عليك أن تبذلي جهداً ما،" كانت تقول لي. وعلى وقع كلامها أتناول قوائمي التي أعددتها بمسؤولية وأردد على مسامعها أسماء النباتات الميتة.

"الصخور جميلة،" قلت لها. "لم لا نسميها منحوتة وننتهي من الأمر؟"

فكّرت في شدّ الرّحال وحدي لرؤية لورا. كنت أستطيع ترك آيمي في رعاية الحاضنة الجديدة، التي اعتبرتها هي الأخرى السيدة مرغترويد – ففي عينيّ كل خدمنا كانوا مرغترويد، كلهم متواطؤون. لكن لا، الحاضنة كانت ستنبهّ وينيفريد. كان بيدي أن أتحداهم جميعاً؛ كان بيدي أن أتسلل خارجةً صباح يومٍ ما وأصطحب آيمي معي؛ ونستقل القطار. لكن نستقل القطار إلى أين؟ فلم أعرف أين كانت لورا – في أيّ مكانٍ خبّؤوها بعيداً. فقد قيل لي إنَّ عيادة بيلّا فيستا هي في الشمال، لكن الشمال تغطي منطقةً هائلة. نقبت في مكتب ريتشارد، الموجود في البيت، لكني لم أعثر على أي رسالة من العيادة. لا بد وأنه كان يحتفظ بالرسائل في مكتبه خارجاً.

يوماً ما عاد ريتشارد إلى البيت باكراً. بدا منزعجاً جداً. أخبرني أنّ لورا ما عادت في بيلّا فيستا.

"وكيف يعقل؟"

أخبرني أنَّ رجلاً ما قد قدم إلى العيادة. وذاك الرجل ادّعى أنّه محامي لورا، أو يمثّلها.

فقد أخبرهم أنه الوصيّ – الوصيّ على وديعة الآنسة تشايس. وقد دفع بعدم قانونية إيداعها في بيلّا فيستا. وهدّد باللجوء إلى الإجراءات القانونية. هل كنتُ على علمٍ بتلك الإجراءات؟ لا، لم أعلم. (أبقيت على يديَّ مطويتين في حجري. عبّرتُ عن تفاجئي، واهتمامي البارد. لم أعبر عن طربي لسماع خبره). فسألته، "وما حدث؟"

مدير بيلّا فيستا كان غائباً، والموظفون ارتبكوا. كان عليهم إخلاء سبيلها، في وصاية الرجل. فقد رأوا أنَّ العائلة لن ترغب بفضيحةٍ علنية لا داع لها. (فقد هدد المحامي باللجوء إلى أمرٍ كهذا).

"حسنٌ،" قلت له، "أظنهم أخذوا القرار الصحيح".

"نعم،" أجابني ريتشارد، "بلا شك". لكن ماذا عن سلامة عقل لورا؟ لأجل مصلحتها، لأجل حمايتها، علينا على الأقل أن نتيقن من وضعها. فرغم أنَّ لورا، في ظاهر الأمور، قد باتت أكثر هدوءً، إلا أن العاملين في بيلّا فيستا كانت لهم شكوكهم. فمن يدري ما الخطر الذي ستتسبب به لنفسها أو للآخرين إن أتيح لها حرية التنقل والتصرف كما تشاء؟

لا يصدف أني على علمٍ بمكانها الآن؟

"لا علم لي".

لم أسمع أي خبرٍ عنها.

"لم أسمع".

ما كنت لأتردد في إعلامه، في حال وصلني خبر؟

"ما كنت لأتردد". تلك كانت كلماتي حرفياً. جملةٌ دون شبه جملة، ولذلك لم تكن تقنياً بكذبة.

ارتأيت أن أترك وقتاً ملائماً يمضي، ثم شددت رحالي إلى بورت تيكونديروغا على القطار كي ألتقي ريناي. كنت قد اختلقت مكالمةً هاتفية: شرحت لريتشارد أن ريناي لم تكن في صحةٍ جيدة، وأنها طلبت رؤيتي ثانيةً قبل أن يقع لها أي مكروه. كنت

قد أوحيت له بالانطباع أن ريناي على فراش الموت. وقلت له إنها ستقدّر الحصول على صورةٍ لآيمي، وإنها تودّ الحديث عن أيامنا الخوالي. ذاك أقلّ ما يجب عليّ فعله اتجاهها. ففي النهاية هي من ربتنا، ربتني، صححّتُ قائلةً، كي أصرف انتباه ريتشارد بعيداً عن التفكير في لورا.

كنت قد رتبت للقاء ريناي في مَغدى بِتي. (كانت تحمل هاتفاً آنذاك، كانت تثبت موقعها في البلدة). "من الأفضل أن نلتقي هناك،" قالت لي. كانت لا تزال تعمل في المغدى، في دوامٍ جزئي، لكن كان لنا أن نلتقي بعد انتهاء ساعات عملها. أخبرتني بأن بِتي أضحى له مُلّاك جدد؛ فالمُلّاك السابقون ما كانوا ليقبلوا بجلوسها في المغدى مثلها مثل الزبون الذي يدفع، حتى وإن كانت ستدفع، لكن الملاك الجدد رأوا أنهم في حاجة إلى وضع يدهم على كل زبونٍ يدفع.

وضع بِتي كان قد تدهور. الظلة المقلّمة اختفت، المقصورات الداكنة بدت مخدوشة ورخيصة. ما عادت تفوح فيه رائحة الفانيلا الطازجة، بل رائحة الشحم الزنخة. أدركت أني قد بالغت في ملابسي. ما كان يجدر بي ارتداء طوق العنق من فرو الثعلب الأبيض. فما كان الداعي وراء الاستعراض إن أخذنا الظروف في الاعتبار؟

لم أرتح للهيئة التي بدت عليها ريناي: فقد كانت منتفخة جداً، صفراء شاحبة، وتنفسها ثقيل. لربما كانت فعلاً معتلة الصحة: تساءلت إن كان يجدر بي سؤالها.

"من الجيد أن أريح قدميّ من الثقل الرازح عليهما،" قالت لي بينما أخذت تستقر داخل المقصورة في المقعد المقابل.

ميرا – كم كان عمرك حينذاك؟ لا بد وأنك كنت في الثالثة أو الرابعة، فما عدت أحسب السنوات – ميرا كانت برفقتها. وجنتاها كانتا محمرتين من الحماس، عيناها كانتا مستديرتين وجاحظتين قليلاً، وكأن أحدهم كان يخنقها برفق.

"أخبرتها كل شيءٍ عنك، " قالت لي ريناي بحنان. "عنكما". عليّ أن أقول إن ميرا لم تكن مهتمةً بي، لكن الثعالب حول عنقي أثارت اهتمامها. فالأطفال في تلك السن يحبون الحيوانات ذات الفراء، حتى الميتة منها.

"هل رأيت لورا،" سألتها، "أو تحدثت معها؟"

"كلما قلّ الحديث في الأمر كلما التأم الجرح أسرع". أجابتني ريناي متلفتةً حولها، وكأن الجدران هنا قد يكون لها آذان. لم أر أيّ داعٍ لحذرها.

"أظنك من رتب موضوع المحامي؟" سألتها. ريناي بدت حكيمةً. "لم أفعل سوى واجبي،" أجابتني. "وعلى أي حال فالمحامي هو زوج ابنة خالة أمك، أي يمكن اعتباره من العائلة. لذا فقد تفهّم الوضع، ما إن أخذتُ علماً بما يجري".

"وكيف عرفت؟" كنت أحتفظ بسؤالي وما الذي تعرفينه؟ إلى وقتٍ لاحق.

"أرسلت إليّ. وأخبرتني أنها أرسلت إليك، لكنك لم تجيبي على رسائلها. لم يكن مسموحاً لها بإرسال الرسائل، لكن الطاهية ساعدتها. لورا بعثت لها بالمال لاحقاً مقابل مساعدتها مع مبلغٍ زائد".

"لم تصلني أي رسالة".

"هذا ما خمّنتُه. هي خمنت أنهما حرصا على ألا تصلك".

كنت أعرف من تعني بهما. "أظنها أتت هنا". قلت لريناي.

"وإلى أين عساها تذهب؟ المخلوقة المسكينة. بعد كل ما عانته".

"وما الذي عانته؟" بقدر ما كنت متلهفة لمعرفة الإجابة، بقدر ما خشيت سماعها. قلت في نفسي، لورا قد تختلق الأمور، لورا قد تعاني من الأوهام. ليس بالاحتمال الذي علينا تجاهله.

بيد أنَّ ريناي تجاهلته: أياً كانت القصة التي أخبرتها بها لورا، فقد صدقتها. أشك أنها ذات القصة التي سمعتها. وبالأخص شككت بوجود طفلٍ فيها، بأي شكلٍ من الأشكال. "لن أخوض في الأمر، فبرفقتنا طفلة". وأومأت نحو ميرا، والتي كانت تزدرد قطعةً من الكعك الزهري الشنيع محدقةً بي وكأنها تريد لعقي. "إن أخبرتك بكل ما مرت به فالكوابيس ستحرمك النوم. العزاء الوحيد أنَّ لا يد لك في الأمر. هذا ما قالته".

"هذا ما قالته؟" غمرني الارتياح لسماع ذلك. ريتشارد ووينيفريد وحسب من أسند إليهما دور الوحشين، أما أنا فقد أعفيت من الدور – بداعي قلة حيلتي ولا ريب. لكن كان من الجليّ لي أنَّ ريناي لم تغفر لي إهمالي وتركي الأمور تتفاقم إلى هذا

الحد. (ما إن هوت لورا من الجسر، انحسر غفرانها لي. ففي نظرها كان ولا بد أن لي يدًا فيما حصل. من بعد الحادث غدت فاترة في تعاملها معي. ماتت غاضبةً عليّ).

"ما كان يجب إيداعها في مكانٍ كهذا على الإطلاق، فتاة يافعة مثلها. أيًّا كان السبب. الرجال هناك يحومون في المكان بيناطيلهم المفكوكة، كل تلك الأمور الشائنة. يا للعار".

"هل تعض؟" سألتني ميرا، تحاول لمس ثعالبي.

"إياك أن تلمسيها بأصابعك الدبقة الصغيرة،" نهرتها ريناي.

"لا،" أجبتها. "هي ليست حقيقية. انظري، أعينها زجاجية. هي فقط تعض أذيالها".

"أخبرتني، لو كنت فقط على دراية بما حدث لها، لما تركتها أبداً هناك". قالت ريناي، ثم أردفت، "على افتراض أنك كنت ستدرين. إذ قالت إنك قد تكوني أي شيء، إلا عديمة القلب". قطّبت ريناي شزراً، اتجاه كأس الماء. كانت لها شكوكها في الأمر. "أخبرتني بأنّ جل ما تناولوه من طعام هناك هو البطاطس، مسلوقة ومهروسة. كانوا مقترين في الطعام، يسلبون الخبز من أفواه المجانين والمخابيل. إن سألتني، فقد كانوا يجنون المال من وراء بيع طعامهم".

"وإلى أين ذهبت؟ أين هي الآن؟"

"الأمر يبقى بيني وبينك وبين عتبة الباب، أخبرتني أن من الأفضل ألا أقول لك".

"هل بدت – هل كانت..." هل بدت مجنونة، هذ ما حاولت سؤالها.

"بدت كما بدت دائماً، لا أكثر ولا أقل. لم تكن مخبولة، إن كان هذا ما تعنين. لكنها بدت أنحف – تحتاج إلى استعادة اللحم على عظامها – وأن تقلل من حديثها عن الرب. آمل فقط أن يقف معها هذه المرة، على سبيل التغيير".

"شكراً ريناي، شكراً لكل ما فعلته".

"لا داعي لشكري،" قالت ريناي بنبرةٍ جافة. "فقد فعلت الصواب وحسب". بمعنى أني لم أفعل. "هل بإمكاني الكتابة إليها؟" كنت أبحث مرتبكةً عن منديلي. فقد أوشكت على البكاء. شعرت وكأني مجرمة.

"قالت لي إنّه من الأفضل ألا تفعلي. لكنها أرادت مني إبلاغك بأنها قد تركت لك

رسالة".

"رسالة؟"

"تركتها قبل أن يلقوا بها في ذاك المكان. أخبرتني أنك ستعرفين أين خبأتها".

"أهذا منديلك؟ هل أنت مصابة بالزكام؟" قالت ميرا ما إن لاحظت تنشقي باهتمام.

"إن سألت أسئلةً كثيرة سيقع لسانك عن فمك،" نهرتها ريناي.

"لا، لن يقع،" أجابتها ميرا باطمئنان. كانت قد بدأت تدندن بنشاز، تركل ركبتيّ بساقيها السمينتين، من تحت الطاولة. بدا لي أنها تتمتع بثقةٍ مبهجة، ولم يكن من السهل إخافتها – صفاتٌ فيها وجدتها على الغالب مثيرةً للاستفزاز، لكني بدأت أمتنّ لها. (قد تفاجَئين بمعرفة رأيي، ميرا. تقبّليه كإطراء طالما الفرصة متاحة لك. فالفرص المماثلة شحيحة).

"اعتقدت أنك ستودين رؤية صورة لآيمي،" قلت لريناي. على الأقل كنت أملك هذا الإنجاز الوحيد الذي بيدي مشاركته، كي أكفّر عن ذنبي أمامها.

تناولت ريناي الصورة. "عجبي، يا لها من مخلوقٍ صغيرٍ داكن، أليس كذلك؟ لا أحد يعرف أياً من الأبوين سيختار الطفل التشبّه به".

"أريد أن أرى،" صاحت ميرا محاولةً الإمساك بالصورة ببراثنها المغطاة بالسكر.

"عجّلي إذن، ولنرحل من هنا. فقد تأخرنا على أبيك".

"لا،" قالت ميرا.

"مهما كان متواضعاً، فلا مكان مثل البيت، " أخذت ريناي تغني، تكشط السكر الزهري عن خطم ميرا الصغير بمنديلٍ ورقي.

"أريد البقاء هنا،" اعترضت ميرا، لكن ريناي كانت قد ألبستها معطفها، وغطت رأسها حتى أذنيها بقبعتها الصوفية، وجرتها خارج المقصورة.

"اعتني بنفسك،" قالت لي ريناي. لم تقبّلني. أردت أن أرمي بذراعيّ حولها، أنوح وأعوي، أردتها أن تواسيني. أردت أن أكون أنا من تصطحبني معها إلى البيت.

"لا مكان مثل البيت،" لورا قالت لي في يومٍ من الأيام، حين كانت في الحادية أو الثانية

عشر. "ريناي تغني تلك الكلمات. أظنها غبية".

"وما الذي تعنينه؟" سألتها.

"انظري". كتبتها كما تكتب معادلة. لا مكان = البيت. ما يعني، البيت = لا مكان. لذا فالبيت لا وجود له.

البيت حيث القلب، آمنتُ بذلك وأنا أجمع شتات نفسي في مَغدى بِتي. بيد أنّه لم يعد لي من قلب، فقد انفطر؛ أو لم ينفطر، بل بكل بساطة لم يعد هناك. فقد غُرِف بإتقانٍ منّي مثلما يُغرَف الصفار من البيضة المسلوقة، تاركاً بقيتي شاحباً ومتخثراً وأجوف.

قلت في نفسي، أنا عديمة القلب. لذا فلا بيت لي.

الرسالة

البارحة كنت جد مرهقة فاكتفيت بالاستلقاء على الأريكة، أمارس هوايتي القذرة التي اكتسبتها مؤخراً، مشاهدة برامج الحوار النهارية، تلك التي يفضح فيها الناس المستور. فقد أضحت الموضة الآن، فضح المستور: الناس تفضح أسرارها وأسرار أناسٍ آخرين، يرفعون الغطاء عن كل سرٍّ مستور يعود لهم، وحتى تلك الأسرار التي لا تعود لهم. يفعلون ذلك من باب الإحساس بالذنب، أو الكرب، أو لمتعتهم الخاصة، لكن في الأغلب يفعلون ذلك كي يستعرضوا أنفسهم، والآخرون يريدون رؤيتهم يفعلون ذلك. أنا لا أعفي نفسي: فأنا أتلذذ بتلك الخطايا الصغيرة القذرة، تلك الخيوط العائلية الحقيرة المتشابكة، تلك التجارب المؤلمة المكبوتة. أستمتع بذاك الإحساس الحماسي المصاحب لنزع الغطاء عن علبة الدود وكأنها هدية عيد ميلادٍ مذهلة، ثم خيبة الأمل لدى مشاهدة الوجوه: الدموع المصطنعة والشحيحة، الشفقة الشامتة، التصفيق الإجباري مع إشارة المخرج. لا بد وأنهم يقولون في أنفسهم أهذا كل شيء؟ أما كان من الأفضل لو كان أقل اعتياديةً. أشد حقارة، ملحمياً أكثر، مروعاً حقاً. ذاك الجرح الغائر فيك؟ هلمّ أخبرنا بالمزيد! هل لنا من بعد إذنك أن نلوي السكين؟

أتساءل أيهما أفضل – أن تمشي طوال حياتك منتفخةً بأسرارك إلى أن تنفجري من وقع ضغطها، أو تجدي أحداً يقتلعها من جوفك، كل فقرة، كل جملة، وكل كلمة، إلى أن ينتهي بك الحال مستنفدةً من كل ما كان عزيزاً عليك كما الذهب المكتنز، أقرب إليك من جلدك – كل ما كان يحمل أهميةً بالغة لديك، كل شيءٍ

أخضعك للذل كي تخفيه، كل شيءٍ اعتاد أن يكون ملكك أنت وحسب – فتجدي نفسك مجبرة على قضاء بقية حياتك مثل كيسٍ فارغ يرفرف في الهواء، كيسٍ فارغ معلّم بقلمٍ فلوريّ فاقع كي يعرف الجميع ما نوع السر الذي كنت يوماً تحملين في أحشائك.

لا أفضّل خياراً على آخر، فالنتيجتان سواء.

الألسنة الفالتة تغرق السفن، تلك كانت العبارة المطبوعة على ملصقات الحرب. بالطبع السفن كلها ستغرق على أي حال، عاجلاً أم آجلاً.

بعد الانغماس في ملذتي، سرت هائمةً حتى المطبخ، تناولت نصف موزة مسودة وقطعتيْ بسكويت صودا هشة. تساءلت إن كان هناك شيء – بقايا طعامٍ ما – واقعة خلف صندوق المهملات – فقد فاحت رائحة لحمية من المكان – لكن تفحّصي السريع لم يكشف عن شيء. ربما تلك الرائحة كانت تنبعث مني أنا. فلا يسعني إنكار فكرة أنّ جسدي قد باتت رائحته كما رائحة طعام القطط، رغم العطر الآسن الذي رششت به جسدي هذا الصباح – أكان عطر توسكا أو ماغريف، أو ربما جي-ريفيز؟ لا زلت أحتفظ ببعض القوارير من تلك العطور في مكانٍ ما. اغتنمي الأكياس الخضراء ميرا، متى ما بلغت تلك المرحلة.

ريتشارد اعتاد أن يهديني العطور، متى ما اعتقد أني بحاجة إلى تهدئة أعصابي. عطور، أوشحة حريرية، مشابك صغيرة من المجوهرات على هيئة حيوانات أليفة، طيور في أقفاصها، سمكاتٌ ذهبية. كانت ذوق وينيفريد، ليس لها بل لي.

على متن القطار العائد من بورت تيكونديروغا، ولأسابيع بعدها، تفكرت مستغرقةً في رسالة لورا، الرسالة التي أخبرتني ريناي أنها قد تركتها لي. لا بد أنها عرفت، آنذاك، أنَّ أيًّا ما كانت تنوي قوله للطبيب الغريب في المستشفى فقد تتأتى عنه نتائج عكسية. لا بد وأنها عرفت بالمخاطرة التي أخذتها، لذا أخذت احتياطاتها. بطريقةٍ ما، في مكانٍ ما، كانت قد تركت لي كلمةً، دليلاً، مثل منديلٍ مرميّ أو أثرٍ من

الصخور البيضاء في الغابة.

تخيلتها تكتب الرسالة، بطريقتها المعتادة. لا شك أنها كتبتها بقلم الرصاص، قلمٍ طرفه العلوي ممضوغ. فغالباً ما مضغت أقلامها؛ أيام كانت طفلة اعتادت أن تفوح من فمها رائحة خشب الأرز، وإن كان قلم رصاصٍ ملون لاصطبغت شفاهها بالأزرق أو الأخضر أو الأرجواني. كانت تكتب على مهل؛ خطها طفوليّ، بأحرف العلة الدائرية وحروف "O" المغلقة، بالسيقان المتمايلة لأحرف "g" و"y". النقط على رؤوس "i" و"j" ترسمها دوائر أقصى اليمين من أعلى الحرف، وكأنما النقطة بالونٌ أسودٌ صغير مقيّدٌ بطوْلٍ خفي؛ الخط الأفقي للصليب على حرف "t" منزاحٌ إلى جانبٍ واحد. جلستُ جانبها روحاً، كي أرى ما الخطوة التالية التي ستأخذها.

وها قد بلغَت نهاية الرسالة، أودعتها الظرف وأحكمت إغلاقه، ثم أخفته، كما اعتادت أن تخفي صررها من القصاصات والأشياء في آفيليون. لكن أين عساها خبأت هذا الظرف؟ ليس في آفيليون: فلم تقرب البيت قبل أن يأخذوها بعيداً.

لا، لا بد وأن الظرف موجودٌ في البيت في تورنتو. في مكانٍ لا أحد آخر سينظر فيه – لا ريتشارد، ولا وينيفريد، ولا أحد من جماعة المرغترويد. كنت قد بحثت في أماكن عديدة – في قاع الجوارير، خلف الخزائن، جيوب معاطفي الشتوية، حقائب يدي، قفازات المتّين حتى – لكن لم أعثر على شيء.

من ثم تذكرت دخولي عليها يوماً، في مكتب جدي، حين كانت في العاشرة أو الحادية عشر. إنجيل العائلة كان منبسطاً على الأرض أمامها، بدا وحشاً جلديًّا هائلاً، وأخذت تقص قصاصات منه بمقص خياطة والدتي القديم.

"لورا، ما الذي تفعلينه؟ هذا الإنجيل!"

"أقص منه الأجزاء التي لا تروق لي".

فردتُ الصفحات المجعدة المرمية في سلة المهملات: لفائف من سفر الأخبار، صفحات وصفحات من سفر اللاويين. قصاصة صغيرة من سفر متّى حيث يلعن المسيح شجرة التين العاقر. تذكرت كم كانت لورا ناقمة على قصة شجرة التين أيام كنا في مدرسة الأحد. فقد اغتاظت من كون المسيح حاقداً على شجرة. كلنا لنا

أيامنا السيئة، كذا علقت ريناي، بينما كانت تخفِق بِهِمّة بياض البيض في الوعاء الأصفر.

نهرتها قائلةً، "لا يجدر بك فعل هذا".

"لكنها مجرد أوراق،" قالت لورا مواصلةً القص. "الأوراق ليست مهمة. الكلمات عليها هي المهمة".

"ستقعين في ورطةٍ كبيرة".

"لا، لن أقع، فلا أحد يفتحه على الإطلاق. لا يفتحونه سوى على الصفحة الأمامية حيث تواريخ الميلاد والزواج والموت".

وقد كانت محقة. فلا أحد عرف بما فعلَته أبداً.

تلك الذكرى هي ما قادتني إلى تناول ألبوم صور زفافي، حيث الصور محفوظة منذ ذاك اليوم. لم يحمل الألبوم أي قيمة تُذكَر لوينيفريد، ولا عُثِر على ريتشارد يوماً يتصفح الألبوم بحب. لورا ولا بد كانت قد لاحظت ذلك، لا بد وأنها عرفت أن من الآمن لها ترك رسالتها في قلبه. لكن – ما الذي دعاها إلى الظن – أني سأفتحه يوماً وأتأمل بنفسي الصور فيه؟

إن كنت أبحث عن لورا، لفعلت. وهي قد أدركت ذلك. فقد كان لها العديد من الصور فيه، ملصقة على الصفحات البنية ذات الزوايا المثلثة السوداء؛ صورٌ لها تعبس وتتأمل قدميها، مرتديةً فستان الإشبينات.

عثرت على الرسالة، بيد أنها لم تتألف من كلمات. فلورا كانت قد أطلقت العنان لنفسها في ذكريات زفافي بألوان التظليل اليدوي، تلك الأنابيب الصغيرة من الألوان التي نهبتها خلسةً من مكتب صحيفة إلوود موراي في بورت تيكونديروغا. لا بد وأنها قد ادّخرتها طوال تلك الفترة. بالنسبة إلى شخصٍ يدّعي زهده العالم المادي، فقد كانت سيئة جداً في التخلص من الأشياء.

كانت قد غيّرت صورتين وحسب. الأولى كانت صورةً جماعية لحضور الحفل. في تلك الصورة، كست الإشبينات والأشابين بطبقةٍ سميكة من اللون النيلي – أقصتهم جميعاً عن الصورة. فما تبقى إلا أنا، وريتشارد، ولورا، ووينيفريد، والتي

كانت وصيفة الشرف. كانت قد ظللت وينيفريد باللون الأخضر المتقع، وكذلك الحال مع ريتشارد. أما أنا فغشتني باللون الأزرق المائي. لورا نفسها تظللت باللون الأصفر المشع، ليس فستانها وحسب، بل وجهها ويداها كذلك. ما الذي عنته، بذاك الوهج؟ فقد كان وهجاً، وكأن لورا تتوهج من داخلها، مثل مصباحٍ زجاجي أو فتاةٍ مخلوقة من الفوسفور. لم تنظر أمامها مباشرةً، بل شزراً، وكأن موضع تركيزها لم يكن في التقاط الصورة على الإطلاق.

الصورة الثانية كانت الصورة الرسمية للعروس والعريس، التُقطَت أمام مدخل الكنيسة. وجه ريتشارد كان مظللاً باللون الرمادي، رماديّ غامق حدّ الاقتراب من طمس ملامحه. يداه كانتا حمراوين، وكذا الحال مع اللهب المشتعلة حول رأسه وكأنها تندلع من داخله، كأنّ ناراً شبّت في جمجمته. فستان زفافي، قفازاي، خماري، باقة الزهور، الجَلُّ بأسره لم تأبه له لورا. ظلّلَت وجهي وحسب - بيَّضته حدَّ بدت فيه عيناي وأنفي وفمي مغبشة ضبابية، مثل نافذةٍ في يومٍ بارد ورطب. الخلفية، وحتى درجات الكنيسة أسفل قدمينا ظللتها كلها بالأسود القاتم، تاركةً هيئتينا تطفوان في الهواء، في أعمق وأحلك الليالي.

XII

غريفين يثني على معاهدة ميونخ

في تقرير خاص لصحيفة "ذا غلوب آند ميل"

في خطابٍ حماسيّ قوي بعنوان "الاهتمام بشؤوننا"، ألقاه السيد ريتشارد إي. غريفين، رئيس مجلس إدارة صناعات غريفين تشايس الملكية المدمجة المحدودة في اجتماع الأربعاء في نادي إمباير في تورنتو، أثنى غريفين على جهود رئيس مجلس وزراء بريطانيا، السيد نيفيل تشامبرلاين، والتي نتج عنها توقيع معاهدة ميونخ الأسبوع الماضي. وأشار السيد غريفين إلى أهمية مغزى ترحيب كل الأحزاب في مجلس العموم البريطاني بالخبر، وتمنى أن ترحب به بالمثل كل أحزاب كندا، فتلك المعاهدة ستضع حداً للكساد وتعلن قدوم "عهدٍ ذهبي" من السلام والرفاه. كما تؤكد المعاهدة أهمية الدور الذي تلعبه حنكة رجال الدولة في السياسة والدبلوماسية، وتدل كذلك على أهمية التفكير الإيجابي والاعتماد على الحس التجاري الصرف قائلاً: "إن أعطى كل طرفٍ القليل، فكل الأطراف سيحصدون الكثير".

وفي إجابةٍ على سؤال بخصوص وضع تشيكوسلوفاكيا وفقاً لبنود المعاهدة، فقد صرّح برأيه قائلاً إنَّ مواطني تلك الدولة قد مُنِحوا ضمانات كافية بما يحفظ أمنهم القومي. وأردف مصرحاً أن وجود ألمانيا قوية ومعافاة هو في صالح الغرب، والتجارة بشكلٍ عام، وسيخدم في "الإبقاء على الجماعات البولشفية خارج حدودنا، بعيداً عن اقتصادنا". والخطوة التالية التي يجب أن تكرس الجهود لأجلها هي عقد معاهدةٍ ثنائية، وقد تلقى تطميناً بخصوص المضي في ذاك الاتجاه. والآن سيتسنى لنا تحويل الاهتمام من ميدان قرع السيوف إلى ميدان تأمين البضائع للمستهلك، وبذا نخلق وظائف جديدة ونعيد الازدهار إلى المناطق التي هي في أمس الحاجة إليها – "في ساحة بيتنا". فالسنوات السبع العجاف قد ولت، وها هي الأعوام السمان

ستأتينا، ولنا أن نرى الآفاق الذهبية ممتدة على مد عقد الأربعينيّات.

يقال إن السيد غريفين في تشاور مع أعضاء من قيادة الحزب المحافظ، وأنه يطمح إلى قيادة الحزب. وقد نال خطابه التصفيق والاستحسان من الجميع.

"ماي فير"، يونيو 1939

أناقةٌ ملكيَّة
في حفل الحديقة الملكيّ

بقلم سنثيا فيرفس

خمسة آلاف مدعوٍ موقَّر من ضيوف معالي سعادة الحاكم وحرمه، اللورد والليدي تويدسمور، وقفوا منبهرين على مدّ مجازات الحديقة إبان حفل عيد ميلاد جلالته المقام في مقر الحاكم في أوتاوا ضمن الجولة الكريمة لصاحبَيْ الجلالة.

في الرابعة والنصف أطلَّ صاحبا الجلالة على الضيوف من الشرفة الصينية لمقر الحاكم. الملك كان مرتدياً بدلته النهارية؛ بينما وقع اختيار الملكة على فستانٍ بلون البيج، مع فراءٍ ناعم ولآلئ وقبعة كبيرة مائلة للأعلى، وجنتاها كانتا متوردتين برقَّة، وعيناها الزرقاوان تبتسمان. الجميع كان مفتوناً بأناقتها.

وسار صاحبا الجلالة يتبعهما سعادة الحاكم العام والليدي تويدسمور، وقد كان سعادته مضيفاً كريماً ولبقاً، وسعادتها كانت جميلة ووقورة. طقم فستانها الأبيض، المعزز بالفراء البيضاء لثعالب شمال كندا القطبية، قد تزين برشاشٍ من اللون الفيروزي لقبعتها. وقد تقدَّم إلى صاحبيْ الجلالة الكولونيل وحرمه إف. فيلان من مونتريال؛ والتي ارتدت حريراً موشى ببراعم الزهور المشرقة، وقبعتها الأنيقة المحفوفة بالسيلوفان. العقيد وحرمه دبليو. إتش. إل. إلكنز وابنتهما الآنسة جوان إلكنز، والسيد والسيدة غلادستون موراي كانوا قد نالوا ذات الشرف.

السيد والسيدة غريفين لم يشملهما التقديم؛ السيدة غريفين ارتدت "الكاب" المصنوع من فرو الثعلب الفضي، الفراء انسدل على الشيفون الأسود كما الشعاع، فوق فستانٍ أرجوانيٍّ زاه. السيدة دوغلاس واتس ارتدت فستاناً من الشيفون الشرتروزيّ مع سترةٍ مخملية بنية، السيدة إف. ريد كانت أنيقة وفاتنة في فستانها

الأورغندي من التخريم الفلنسينيّ.

لم يُسمَع همسة لاحتساء الشاي إلا بعد تلويح صاحبيْ الجلالة مودِّعيْن، وطقطقة الكاميرات، وتعالي كل الأصوات منشدةً فليحفظ الرب الملك. بعدها وُضعت قوالب كعك عيد الميلاد في قلب المنصة ... كعكات بيضاء ضخمة، تكسوها طبقةٌ سكرية ثلجية. الكعكة التي قدمت للملك داخل المقر لم تكن مزينة وحسب بالزهور، النّفل، والنباتات الشوكية، بل تزينت كذلك بأسرابٍ من الحمام السكري الصغير تحمل في مناقيرها راياتٍ مثلثية بيضاء، رمزاً للأمل والسلام.

السفّاح الأعمى: قاعة الروبات

هي ساعة ما بعد الظهيرة، متلبدة بالغيوم ورطبة، كل شيءٍ دبق: قفازاها القطنيان الأبيضان قد تلطخا بمجرد إمساكها بالدرابزون. العالم كئيب، وزنٌ ثقيلٌ صلد؛ قلبها يشق طريقه فيه وكأنما يشق في حجر. الجو الوَمِد يقف سداً منيعاً أمامها. لا شيء يتزحزح قيد أنملة.

لكن إذ بالقطار يصل، وتنتظر عند البوابة كما هو مطلوبٌ منها، ومثل وعدٍ يوفى به ها هو يعبرها. يراها، يسير اتجاهها، يلمسان بعضهما على عجل، ثم يتصافحان وكأن قرابة عائلية بعيدة تجمع بينهما. تقبّل وجنته قبلةً خفيفة، لأن المكان عام ولا تعرف أبدًا من سيراها هناك، ويسيران أعلى المنحدر المائل اتجاه المحطة الرخامية. ينتابها إحساسٌ جديد برفقته، القلق؛ لم يتسنَّ لها إلقاء نظرةٍ عليه. من المؤكد أنه أنحف. يا ترى ما الذي تغير أيضاً؟

"عانيتُ الأمرّين في طريق عودتي إلى هنا. لم أملك مالاً كافياً. عبرت بالباخرة والقطار مثل المشردين".

"لكنتُ أرسلت إليك بعض المال".

"أدري. لكن لا عنوان لي".

يترك كيسه الدفيلي عند خزائن الحقائب في المحطة ويكتفي بحمل حقيبة السفر الصغيرة. أخبرها أنه سيستلمها لاحقاً، إذ لا يريد أن يتزعج بها. الناس تجيء وتذهب من حواليهما، وقع الأقدام والأصوات؛ يقفان مترددين؛ إذ لا يعرفان إلى أين عليهما الذهاب. كان يجب عليها أن تفكر في الأمر مسبقاً، كان يجب عليها أن ترتب شيئاً،

لأنه بالطبع لا سكن لديه، ليس بعد. على الأقل هي أحضرت معها قنينة الويسكي، دسّتها في حقيبة يدها. على الأقل تذكرت إحضارها.

عليهما أن يذهبا إلى مكان لذا يتوجهان إلى فندق، فندقٍ رخيص يذكره. هي المرة الأولى التي يفعلان بها ذلك وهي مخاطرة، لكن ما إن تقع عيناها على الفندق تدرك ألا أحد فيه سيتوقع أن يكونا متزوجين، وإن كانا متزوجين، فليس لأحدهما الآخر. كانت ترتدي معطف مطر صيفي من موسمين سابقين، وغطت رأسها بالوشاح. الوشاح حريري بيد أنه أسوأ ما تسنى لها العثور عليه. ربما سيظنون أنه يدفع لها. هي تأمل ذلك. فهكذا لن تبدو مميزة.

على مد الرصيف خارجاً تنتشر شظايا الزجاج والقيء، وما يبدو أنها بقع دماء أخذت تجف. "لا تطئي فيها،" يقول لها منبهاً.

هناك حانة في الطابق الأرضي، وإن كانت تدعى قاعة المشروبات: للسادة والسيدات والمرافقين. هناك لافتة من النيون خارجاً، الأحرف عمودية، وسهمٌ أحمر رأسه للأسفل ومتعرّج يشير نحو الباب. حرفان من الأحرف ضوؤهما مطفيّ لذا تُقرأ "قاعة الروبات". اللمبات الصغيرة تومض وتخفت كما لمبات أنوار عيد الميلاد، تدبّ حول اللافتة كما يدب النمل على أنبوب تصريف المياه.

حتى في تلك الساعة هناك رجالٌ يحومون في المكان، ينتظرون الحانة تفتح أبوابها. يقودها من مرفقها بينما يتجاوزان الرجال، معجلاً إياها. من خلفهما أحد الرجال يموء مثل قطٍّ مهتاج.

أما القسم الخاص بالفندق فقد كان له بابٌ منفصل. سطح المدخل المقرمد الفسيفسائي باللونين الأبيض والأسود يحيط بما يحتمل أنه كان يوماً ما أسداً أحمر، لكن الأسد بات ممضوغاً وكأن عثاً آكلاً للحجارة قد انقض عليه، لذا يبدو اليوم أقرب إلى بوْلب[152] مبتور. أرضية اللينوليوم الصفراء البرتقالية لم تكشط لفترةٍ طويلة، بقعٌ قذرة تبرعمت عليها كما الزهور الرمادية المكبوسة.

يوقّع على السجل، يدفع؛ وبينما يفعل ذلك هي تقف، آملةً أن تبدو ضجرة، تبقي

(152) البولب – polyp: حيوانٌ مائي بدائي من شعبة اللاحشويات.

على وجهها خالياً من المشاعر، عيناها شاخصتان أعلى موظف الاستقبال الكالح، تترقب ساعة الجدار. الساعة بسيطة، حازمة، لا تدعي الجمال والفضيلة، مثلها مثل ساعة محطة القطار: منفعيّة. هذا هو الوقت، تقول الساعة، هو ما تراه في ظاهره أمام عينيك، ولا باطن له.

المفتاح في يده الآن. الطابق الثاني. هناك مصعدٌ كما التابوت الصغير لكنها لا تطيق فكرة الصعود فيه، فهي مدركة لما ستكون عليه رائحته، الجوارب القذرة والأسنان المتعفنة، لن تطيق الوقوف فيه وجهاً لوجه معه، قريبين جداً من بعضهما في غمرة تلك الرائحة. لذا يصعدان السلم. سجاد، أزرقَ غامقاً كان فيما مضى وأحمر. طريقٌ منثورٌ عليه الزهور، وها هي الزهور قد ذبلت وبليّت.

"أنا آسف،" يقول لها، "كان من الممكن الحصول على أفضل منها".

"ما تحصل عليه هو ما تدفع مقابله،" تقول له بنيّة التذاكي المرح؛ بيد أنه الرد الخاطئ، فقد يظنها تعلق على افتقاره المال. "تمويهٌ ذكي،" أردفت محاولةً تصحيح خطئها. لا يجيبها. فهي تثرثر، لها أن تسمع نفسها، وما تقوله ليس بالمسلي ولا الساحر. هل غدت مختلفةً عما يذكرها، أتغيرت إلى هذه الدرجة؟

هناك ورق جدران على الرواق، ما عادت تحمل أي لون. الأبواب خشبية داكنة، محززة ومخدوشة ومعالجة بالجص. يعثر على رقم الغرفة، القفل يفتح. المفتاح طويلٌ معرّش من الطراز القديم، مثل مفتاح حريزةٍ عتيقة. الغرفة أسوأ من أي غرفةٍ مؤثثة قضيا وقتاً فيها؛ على الأقل تلك الغرف ادّعت النظافة. فراشٌ مزدوج مغطى بملاءات زلقة، من الساتان الرخيص المقلد، باللون الأصفر الهريّ كما أسفل كعب القدم. هناك مقعد، تنجيده ممزق وكأنما حشوه بالغبار. مرمدة من الزجاج البني المشظى. عبق دخان السجائر، بيرة مسكوبة، ومن أسفل تلك الروائح رائحةٌ تفوقها إزعاجاً، كأنما هي رائحة ملابس تحتية لم تغسل لأمدٍ طويل. هناك لِجاف[153] أعلى الباب، زجاجها الوعر مطليٌّ بالأبيض.

تنزع عنها قفازيها، تلقي بهما على المقعد مع معطفها ووشاحها، تنتشل القنينة من

(153) اللجّاف: نافذة فوق الباب.

حقيبة يدها. لا ترى أي كؤوس، عليهما أن يتجرعاها.
"هل النافذة تفتح؟" تسأله. "سينفعنا الهواء المنعش".
يتجه صوب النافذة، ويرفع إطارها. نسيمٌ مفعم بالأدخنة والغبار يهب للداخل. في الخارج، عربة ترام تطحن مواصلةً طريقها. يستدير صوبها، لا يزال واقفاً لدى النافذة، يتكئ بظهره عليها، يداه خلفه على عتبتها. واقفاً هكذا، والضوء يشع من خلفه، كل ما تراه منه هي خطوط ظله المعتم. قد يكون أي رجلٍ في العالم.
"حسنٌ،" يقول لها، "ها قد عدنا". يبدو متعباً حدَّ الإرهاق. يخطُر لها أنه قد لا يفعل شيئاً في هذه الغرفة سوى الخلود إلى النوم.
تسير صوبه، تدس ذراعيها حول خصره قائلةً، "لقد عثرت على القصة".
"أي قصة؟"
"الرجال السحالي من كوكب زينور. لقد بحثت عنها في كل مكان، ليتك رأيتني أنقب عنها في أكشاك الصحف والمجلات، لا بد وأنهم ظنوني مجنونة. كم بحثت وبحثت".
"أوه، ذاك الشيء". يجيبها. "وهل حقًّا قرأت تلك التفاهة؟ كنت قد نسيت أمرها". لن يراها مكروبة، مثل تلك النسوة المكروبات. لن تظهر احتياجها الشديد له. لن تقول له أن القصة كانت دليلاً يثبت وجوده؛ أياً يكن الدليل، مهما كان واهناً لا معنى له.
"بالطبع قرأتها. بقيت أنتظر الحلقة المقبلة".
"لم أكتبها، فقد انشغلت بإطلاقهم الرصاص عليّ، من كلا الطرفين. جماعتنا علقت في الوسط. كنت فاراً من الرجال الصالحين. يا لها من فوضى تخضبت بالدماء".
الآن فقط يطوقها بذراعيه. تنبعث منه رائحة شبيهة بالحليب الملّت. يريح رأسه على كتفها، شعر ذقنه الخشن يحك جانب عنقها. ها هي تضمه آمناً بين ذراعيها، للوقت الحالي على الأقل.
"إلهي كم أنا في حاجة إلى شراب".

"لا تخلد للنوم،" تقول له. "لا تخلد للنوم بعد. تعال معي للفراش".

نام ثلاث ساعات. الشمس تأفل، النور يخبو. هي تعرف أن عليها الرحيل الآن، لكن لا قلب لها على الرحيل، ولا على إيقاظه. ما الحجة التي ستقدمها لهم، متى ما عادت؟ تختلق امرأةً عجوز تعثرت على السلّم، امرأةً عجوز في حاجة لمن ينقذها؛ تختلق سيارة أجرة، رحلةً إلى المستشفى. كيف لها أن تترك المرأة لحالها، تلك المرأة المسكينة العجوز؟ ملقاةً على الرصيف دون أي صديقٍ في العالم. ستقول إنها مدركة لضرورة اتصالها، لكن لم يكن هناك من هاتف في الأرجاء، والمرأة العجوز كانت تعاني من ألمٍ مبرح. تعد نفسها للمحاضرة التي ستتلقاها، عن ضرورة الاهتمام بشؤونها وحسب؛ هزة الرأس، فما بيدهم أن يصنعوا بها؟ متى ستتعلم ترك الأمور وشأنها؟

الساعة في الأسفل تعلن مضي الدقائق مع كل تكة. هناك أصواتٌ في الرواق، صوت خطىً مستعجلة، وقعٌ سريع للأحذية. المكوث هنا ما هو إلا دخولٌ وخروج. تستلقي مستيقظةً إلى جانبه، تصغي إليه نائماً، متسائلة إلى أين ذهب الآن. وتتساءل كذلك بالقدر الذي عليها أن تخبره به – إن كان عليها أن تخبره بكل ما حصل. إن طلب منها الرحيل معه، فعليها إذاً أن تخبره. عدا ذلك فالأفضل ألا تفعل. ليس بعد.

يستيقظ ويطلب منها جرعة شرابٍ أخرى، وسيجارة.

"أظن علينا ألا نفعل ذلك،" تقول له، "التدخين في الفراش. فقد تندلع فينا النيران. قد نحرق نفسينا".

لا يقول شيئاً.

"كيف كان الوضع هناك؟ قد قرأت الصحف، لكن الواقع مختلف".

"مختلف، مختلف تماماً".

"كنت قلقة جداً عليك، خشيت أن تُقتل".

"كدت أُقتل. الغريب أن الوضع هناك هو الجحيم بعينه، لكني اعتدت عليه، والآن لا أدري كيف أعتاد على هذا الوضع. يبدو أن وزنك قد ازداد بعض الشيء".

"أوه، هل أنا سمينة؟"

"كلا. يروق لي جسدك الآن، شيءٌ أتمسك به".

المساء معتمٌ الآن. من أسفل النافذة، حيث قاعة المشروبات تفرغ في الشارع زبائنها المغادرين، تتناهى إلى مسامعهما نتفٌ من أغانٍ تؤدى بنشاز، صيحات، ضحكات عالية؛ ثم صوت حطام الزجاج. أحدهم قد هشم قارورة. امرأةٌ تصرخ.

"يا له من احتفالٍ في الأسفل".

"وما الذي يحتفلون به؟"

"قدوم الحرب".

"لكن لا حرب هناك. الحرب انتهت".

"يحتفلون بالحرب القادمة،" يقول لها، "فهي في طريقها إليهم. كل المخابيل هناك في عالم الأحلام وفوق سحب الخيال ينكر قدومها، لكن هنا على أرض الواقع لك حتى أن تشمي رائحتها. الآن بعد أن تمرنوا جهد أيمانهم على إسبانيا، الحرب الجدية ستنطلق على أيديهم عن قريب. مثل الرعد في السماء، وهم متحمسون لها. لذلك القوارير تهشم وتتحطم. يريدون استباق وقوعها".

"لا، بالتأكيد لا. من المستحيل أن تقع حربٌ أخرى. فقد وقّعوا المعاهدات وكل ما سواه".

"السلام في وقتنا هذا". يقول لها هازئًا. "هراءٌ لعين. ما يأملونه حقاً هو أن ينقض العَمّان جو وأدولف على بعضهما ويمزقان بعضهما إرباً، وضمن الصفقة يتخلصان لهم من اليهود، بينما يجلسون على مؤخراتهم ويصنعون الثروات".

"لا زلت متشائماً كما عهدتك".

"ولا زلت ساذجة كما عهدتك".

"ليس تماماً،" تقول له. "دعنا لا نختصم. فالقرار لا يعود لنا". هو أقرب إلى طبيعته، أشبه بما كان عليه، لذا يتحسن شعورها قليلاً.

" أنت على حق. القرار لن يعود لنا. فنحن البطاطس الصغيرة".

"لكنك ستذهب على أي حال،" تقول له،" متى ما اندلعت مرةً أخرى، سواء كنت

بطاطس صغيرة أم لا".

ينعم النظر فيها. "وما عساي أن أفعل؟"

لا يدري علامَ تبكي. هي تحاول ألا تبكي. "أتمنى لو كنتَ مصاباً،" تقول له، "على الأقل كنت ستبقى معي".

"وهو ما كان سينفعك كثيراً، تعالي هنا".

تغادر، وبالكاد ترى الطريق. تسير وحدها لبرهة، كي تهدأ، لكن الليل مظلم وهناك الكثير من الرجال على الرصيف، لذا تستقل سيارة أجرة. جالسةً في المقعد الخلفي، تعيد وضع أحمر شفاهها، أحمر الخدود على وجنتيها. ما إن تقف بها السيارة، تنقب في محفظتها، وتدفع لسائق الأجرة، تصعد الدرجات الحجرية وتعبر المدخل المقنطر، تغلق من خلفها الباب الثقيل من خشب السنديان. في رأسها تراجع ما ستقول: آسفة على تأخري، لكنك لن تصدق ما حدث لي. يا لها من مغامرةٍ صغيرة.

السفّاح الأعمى: الستائر الصفراء

كيف انسلت الحرب خلسةً؟ كيف جمعت شتات نفسها؟ وممَّ هي مصنوعة؟ أي أسرارٍ، أكاذيب، خيانات؟ أي حبٍّ وأي كراهية؟ كم من المال، وكم من المعادن؟ الأمل يلقي ساتراً دخانياً. يذر الرماد في عينيك لذا لا أحد مستعدٌ لها، وإذ فجأةً ها هي ذا، مثل نارٍ في الهشيم - مثل الجريمة، بيد أنها جريمةٌ متضاعفة. فيضانٌ من الدم.

الحرب تدور رحاها باللونين الأبيض والأسود. هي كذا بالنسبة لأولئك الواقفين على الخطوط الجانبية. أما أولئك في ساحتها فهناك الكثير من الألوان، تضج بالألوان، ألوانٍ براقة، حمراء وبرتقالية فاقعة، سائلة وساطعة، أما بالنسبة للآخرين فالحرب شريطٌ إخباري - مُحبَّب، ملطخ، مع أصوات متقطعة وجموعٍ ضخمة من الأناس ذوي البشرة الرمادية إما يتدافعون أو يمشون متثاقلين أو يخروا صرعى على الأرض، كل شيءٍ يقع في مكانٍ آخر.
تتوجه إلى مشاهدة الأخبار في السينما. تقرأ الصحف. تعرف أنها في رحمة نوائب القدر، بيد أنها باتت تعرف الآن أنّ النوائب لا ترحم.

قد أخذت قرارها. هي عازمة على تنفيذه الآن، ستضحّي بكل شيء وبكل الناس. لا شيء ولا أحد سيقف في طريقها.
هذا ما ستفعله. فقد خطّطت للأمر برمته. ستغادر المنزل مثلما كانت تغادره في أي

يومٍ آخر. سيكون لديها مال، مالٌ ما. تلك هي الجزئية الغامضة حتى الآن، لكن من المؤكد أنها ستتمكن من تأمينه. ما الذي يفعله الناس عادةً؟ يذهبون إلى المَرْهن، وهي ستحذو حذوهم. ستؤمن المال برهن الأغراض: ساعة ذهبية، ملعقة فضية، معطف فرو. أي غرضٍ صغير من هنا أو هناك. سترهنها شيئاً فشيئاً ولن يلاحظ أحد اختفاءها.

لن يكون بالمال الكافي لكن يجب أن تتدبر أمرها بما لديها. ستستأجر غرفةً، غرفة إيجارها منخفض، لكن لن تكون غرفةً رثة وقذرة، بل غرفة يكفيها طلاء جديد كي تغدو مبهجة. ستكتب رسالة تقول فيها إنها لن تعود أبداً. سيبعثون لها بالرسل، السفراء، ومن بعدهم المحامين، سيهددون، سيتوعدون بالعقاب الشديد، وستكون خائفة طوال الوقت لكنها ستثبت على موقفها. ستحرق كل جسورها عدا الجسر الذي يربطها به، حتى وإن كان الجسر المؤدي إليه واهٍ. سأعود، قال لها، لكن كيف له أن يكون متأكداً؟ كيف له أن يضمن أمراً كهذا؟

ستقتات على التفاح وبسكويت الصودا، على أكواب الشاي وكؤوس الحليب، على علب الفاصولياء المطبوخة واللحم المملح. كذلك على البيض المسلوق متى ما توفر، وشرائح الخبز، والتي ستأكلها في المقهى عند الزاوية حيث يأكل موزعو الصحف الفتيان وسكارى الصباح. المحاربون القدامى سيتناولون طعامهم هناك أيضاً، المزيد والمزيد منهم على مرّ الأشهر: رجالٌ دون أيدي، دون أذرع، دون سيقان، دون آذان، دون أعين. ستتمنى لو يتسنى لها تبادل الحديث معهم، بيد أنها لن تفعل لأن إظهار أي اهتمامٍ من قبلها سيساء فهمه بالتأكيد. جسدها على عادته سيقف في وجه ممارستها حرية الحديث. لذا ستكتفي بالتنصت على أحاديثهم.

في المقهى ستدور الأحاديث حول نهاية الحرب، والتي يعرف الجميع أنها باتت وشيكة. سيقولون إنها مسألة وقتٍ وحسب، قبل أن تُطْمر بقايا الحرب وتعود البواخر بالشباب. الرجال الذين سيتبادلون هذا الحديث هم غرباء عن بعضهم، بيد أنهم سيتبادلونه على أي حال، لأن الأمل بالانتصار سيدفعهم للكلام. ستحوم في الأجواء مشاعر مختلفة، مزيجٌ من التفاؤل والخوف. في أي يومٍ الآن الباخرة

ستصل، لكن من عساه يقول ما الذي أحضرته على متنها؟

شقتها ستعلو متجر بقالة، مع نضد مطبخ وحمامٍ صغير. ستشتري نبتةً منزلية – بغونية، أو سرخس. ستتذكر سقي تلك النبتة ولن تموت على يديها. المرأة التي تدير شؤون البقالة ستكون امرأةً داكنة الشعر وريانة ورؤومة، وستشير إلى نحولها وحاجتها إلى تناول المزيد من الطعام، وعما يجب فعله لعلاج نزلة رئوية. على الأرجح ستكون يونانية؛ يونانية أو شيئاً من هذا القبيل، مع ذراعين كبيرتين وفرْقٍ في شعرها، الشعر معقودٌ للخلف في كعكة. زوجها وابنها سيخدمان في الحرب؛ وسيكون لديها صورٌ لهما، مؤطرة بخشبٍ مطلي، ومظللة يدوياً، جانب ماكينة الصراف.

كلتاهما – هي وتلك المرأة – ستقضيان وقتاً كثيراً في رهف أذنيهما: إلى وقع الأقدام، إلى رنة الهاتف، إلى طرقٍ على الباب. من الصعب النوم في ظروف كهذه: لذا ستتناقشان حول أفضل العلاجات للأرق. ومن وقتٍ لآخر ستدس المرأة تفاحةً في يدها، أو حلوى خضراء من إحدى تلك الأوعية على النضد. هدايا كهذه ستمنحها سلواناً أكثر مما يوحي به سعرها الزهيد.

وكيف له أن يعرف من أين يستعيدها؟ بعد أن أحرقت كل جسورها. بيد أنه سيعرف. بطريقةٍ ما سيعرف، لأن الرحلة تنتهي بالتقاء الحبيبين. يجب عليهما أن يلتقيا، لا بد لهما وأن يلتقيا.

ستخيط ستائر للنوافذ، ستائر صفراء، بلون الكناري أو صفار البيض. ستائر مبهجة، مثل أشعة الشمس. لن تكترث لجهلها بالخياطة، لأن المرأة في الأسفل ستساعدها. ستنشي تلك الستائر وتعلقها. ستجثو على ركبتيها مع مقشة وتتخلص من غائط الفئران والذباب الميت أسفل حوض مغسلة المطبخ. ستطلي مجموعة علبٍ صغيرة وجدتها في متجر خردة، وسترسم عليها بالاستنسل: **شاي، قهوة، سكر، طحين.** ستؤدي كل تلك الأعمال على وقع دندنتها لنفسها. ستشتري منشفة جديدة، بل طقماً كاملاً من المناشف الجديدة. وكذلك ملاءات، الملاءات جد مهمة، وأغطية وسائد. ستمشط شعرها كثيراً.

تلك هي الأمور المبهجة التي ستفعلها، بينما تنتظر عودته.

ستشتري مذياعاً، مذياعاً صغيراً رخيصاً مستعملاً، من المرهن: ستستمع إلى الأخبار، كي تبقى مطلعة على كل المستجدات. كذلك ستحصل على هاتف: الهاتف سيضحو مهماً على المدى الطويل، رغم أنّ لا أحد سيتصل بها عليه، ليس بعد. أحياناً سترفع السماعة فقط كي تستمع للهاتف يخرخر. أو ستجد أصواتاً أخرى، تتبادل الحديث على الخط الجماعي. في الغالب سيكن نساء، يتبادلن تفاصيل الوجبات والطقس والخصومات والأطفال، وتفاصيل الرجال المتواجدين في مكانٍ آخر.

بالطبع، ولا حدثاً من تلك الأحداث يقع. أو تقع بالفعل، لكن ليس على حدِّ علمك. هي تقع في بُعدٍ آخر في الفضاء.

السفّاح الأعمى: البرقية

البرقية قد سلموها بالطريقة المعتادة، على يد رجلٍ في زيٍّ رسميٍّ داكن وذي ملامح وجهٍ لا تبشر بأي خير. حين يعيّنون هؤلاء الرجال لأداء تلك المهمة يدربونهم على تلك الملامح، نائية لكن حزينة، مثل جرسٍ داكن لا ملامح له، كما التابوت المغلق.
البرقية تصل في مغلفٍ أصفر مع نافذةٍ مستطيلة من الزّجاجين، ومدونٌ عليها ذات الكلمات المدونة على برقيات كتلك – الكلمات بعيدة، مثل كلمات رجلٍ غريب، متطفل، يقف أقصى غرفةٍ طويلة فارغة. القليل من الكلمات، بيد أنّ كل كلمةٍ منها جلية: نُعْلم، خسارة، أسف. كلماتٌ حذرة، دقيقة، محايدة، مع سؤالٍ خفيّ يتوارى خلفها: ما الذي توقعته؟

"ما قصة البرقية؟ ومن هذا؟" تقول لهم. "أوه تذكرت. هو ذاك، ذاك الرجل. لكن لمَ بعثوا بالبرقية لي، فأنا بالكاد قريبة عائلية بعيدة!"

"قريبة؟" يقول أحدهم بقصد السخرية، "وهل كان له من أقرباء؟"

تجيبه ضاحكةً، "لا علاقة لهذه البرقية بي". تجعد البرقية، مفترضةً أنهم سبق وقرؤوها خلسةً قبل أن يمرروها إليها. فهم يقرؤون كل البريد المرسل إليها، فذاك أمرٌ مفروغٌ منه. تجلس، على نحوٍ مفاجئ أكثر مما ينبغي. "آسفة. شعورٌ غريبٌ انتابني فجأة".

"هاكِ. سترفع معنوياتك. اشربيها، وستتولى الأمر".

"شكراً. لا علاقة للبرقية بي، لكن لا تزال صدمة. كأن شخصاً قد وطأ على قبري".

جسدها يرتجف.

"هوّني عليك. تبدين شاحبة بعض الشيء. لا تأخذي الأمر على محملٍ شخصي. ربما كان مجرد التباس. ربما اختلطت عليهم العناوين".

"ربما. أو ربما هو من صنع يده، ربما هي فكرته عن مزحةٍ سمجة. فقد كان غريب الأطوار، كما أذكر".

"أغرب مما نظن. يا له من أمرٍ مقيت! لو كان حياً لأمكنك مقاضاته على التسبب بالأذى"

"ربما كان يحاول إشعارك بالذنب. فذاك هو ديدنهم، تلك النوعية. حقودون، جميعهم. كلابٌ سائبة. لا تدعي الأمر يقلقك".

"على كلٍّ، ليس بالتصرف اللطيف، أياً كانت الزاوية التي تنظر منها".

"لطيف؟ ولم يكون لطيفاً؟ فلم يكن أبداً بالرجل الذي تصفينه باللطيف".

"أظن بإمكاني مراسلة الضابط المسؤول. المطالبة بتفسير".

"ولم عساه سيعرف شيئاً عن الموضوع؟ لن يكون خطأ الضابط، بل خطأ موظفٍ هنا في هذه الجهة من العالم. هم يعتمدون على المعلومات المذكورة في السجلات. سيقول لك إن لخبطة ما وقعت، ومما أسمعه، أؤكد لك أنها ليست بالمرة الأولى".

"على أي حال، لا فائدة من إثارة أي جلبة. ستجذبين الاهتمام وحسب، ومهما فعلت فلن تعرفي أبداً لم فعل شيئاً كهذا".

"إلا إن سار الموتى على أقدامهم". أعينهما تبرق، ينظران إليها، متيقظيْن. ما الذي يخافانه؟ ما الذي يخشيان قيامها به؟

"أتمنى ألا تستخدمي تلك الكلمة،" ترد متبرّمة.

"أي كلمة؟ أوه. هي تعني الموتى. فلنسمي الرفش رفشاً، فلا طائل من تسمية الأشياء على غير.. ما بالك؟"

"لا أحب الرفش. لا أحب ما يستخدمونه لأجله – حفر القبور في الأرض".

"لا تكوني كئيبة".

"أحضري لها منديلاً. ليس بالوقت المناسب لإزعاجها. عليها أن تذهب للأعلى، تحظى بشيءٍ من الراحة. ثمّ ستصحو مشرقةً كما الشمس".

"لا تدعي الأمر يعكر مزاجك".

"لا تأخذيه على محمل الجد".

"انسيه برمته".

السفّاح الأعمى: هلاك ساكيل نورن

في الليل تستيقظ فجأةً، قلبها يخفق بقوة. تنسل عن السرير وتتجه بصمت نحو النافذة، ترفع الإطار للأعلى وتتكئ خارجاً. القمر هناك، شبه مكتمل، معرّقٌ بآثار ندوبه القديمة المتحابكة مثل خيوط شبكة عنكبوت، ومن أسفله السماء مكتنفة بهالةٍ متوهجة من اللون البرتقالي الباهت والمنبعثة عن أعمدة إنارة الشارع. أسفل نافذتها يوجد الرصيف، مرقعٌ بالظلال ومتوارٍ جزئياً خلف شجرة الكستناء في الحديقة، أغصانها ممتدة ومحتبكة مثل خيوط شبكةٍ صلبة، أزهارها العثية البيضاء تومض واهنة.

هناك رجل، ينظر للأعلى. لها أن ترى حاجبيه الداكنين، محجريْ عينيه الغائرين، ابتسامته البيضاء المقدودة على وجهه البيضاوي، على جيده امتقاعٌ في اللون: قميصه. يرفع يده، ملوحاً: يريدها أن تنضم إليه – يريدها أن تنسل خارج النافذة، تتسلق الشجرة نزولاً. بيد أنها خائفة. خائفة من السقوط.

الآن هو على عتبة نافذتها، الآن هو في الغرفة. زهور شجرة الكستناء تتوهج: في ضوئها الأبيض ترى وجهه، البشرة رمادية، شبه معتمة؛ ثنائية الأبعاد، مثل صورةٍ ما، لكن ملطخة. هناك رائحة لحمٍ محروق. هو لا ينظر إليها، ليس إليها تحديداً؛ بل كأنما هي ظلها وهو ينظر إليه، نحو عيني ظلها لو كان لظلها أن يبصر.

تتوق إلى لمسه، لكنها تتردد: بالتأكيد متى ما ضمته بين ذراعيها سيبهت، ثم سيتلاشى، إلى خرق، إلى دخان، إلى جزيئات، إلى ذرات. يداها ستخترقانه ولا بد.

"قلت لك إني سأعود".

"وما الذي جرى لك؟ ما خطبك؟"

"ألا تعرفين؟"

بعد ذاك يقفان خارجاً، على سقفٍ ما كما يبدو، يطلان على المدينة أسفلهما، لكنها ليست بمدينةٍ رأتها من قبل. وكأن قنبلةً ضخمة قد هوت عليها، النار قد اندلعت فيها بأسرها، كل شيءٍ يحترق – البيوت، الشوارع، القصور، النوافير والمعابد – انفجاراتٌ هائلة، تتفجر كما الألعاب النارية. دون أي صوت. المدينة تحترق في صمت، وكأنما في فيلم – بيضاء، صفراء، حمراء وبرتقالية. لا صراخ. لا أناس فيها؛ فالناس ولا بد قد هلكوا جميعاً. يقف إلى جانبها، يخفق على وقع الأنوار المتقطعة.

"لا شيء سيتبقى منها،" يقول لها، "سوى ركامٍ من أنقاض، وكلماتٍ قديمة معدودات. فقد اندثرت الآن، محيت عن الوجود. لا أحد سيذكرها".

"لكنها كانت جميلة!" تقول له. والآن تبدو لها المدينة مكاناً مألوفاً؛ وقد عرفتها جيداً، تعرفها مثل ظاهر يدها. في السماء تبزغ ثلاثة أقمار. هي زكرون، تقول في نفسها. كوكبي الحبيب، موطن قلبي. حيث عشت، منذ أمدٍ بعيد، في سعادة. ها هي اندثرت، ها هي هلكت. لا تطيق النظر إلى لهب النيران.

"كانت جميلة في أعين البعض وحسب،" يقول لها. "لطالما كانت تلك هي المشكلة".

"ما الذي وقع لها؟ من فعل بها ذلك؟"

"المرأة العجوز".

"ماذا؟"

"L'histoire, cette vielle dame exaltée et menteuse" (154)

يلمع كما القصدير. عيناه مقدودتان. هو ليس من تذكر. كل تفصيلٍ مميزٍ فيه قد احترق. "لا تحزني. سيعيدون بناءها من جديد. هذا ديدنهم".

الآن هي خائفة منه. "لقد تغيرت كثيراً".

"الوضع كان حرجاً. كان علينا أن نحارب النار بالنار".

---

(154) التاريخ، تلك العجوز رفيعة المقام الكاذبة.

"بيد أنكم انتصرتم. أعرف أنكم انتصرتم".

"لا أحد انتصر".

هل التبس الأمر عليها؟ فمن المؤكد أنها سمعت بخبر النصر. "لقد أقاموا مسيرة، سمعت بها، وكذلك أحضروا الفرقة النحاسية".

"انظري إليّ".

لكن ليس بيدها أن تنظر. ليس بوسعها التركيز عليه، فهو لن يقف ساكناً. لن يثبت على هيئة، يخفق متذبذباً كما نور الشمعة، بيد أنه نورٌ معتم. ليس بيدها أن ترى عينيه.

هو ميت. بالطبع هو ميت، أفلم تتلق البرقية؟ بيد أنّ الأمر مجرد بدعةٍ وحسب، كل هذا. ليس سوى بعدٍ آخر في الفضاء. فعلام إذاً كل هذا الأسى؟

يمضي بعيداً عنها الآن، وليس بوسعها أن تنادي عليه، حنجرتها عاجزة عن إصدار أي صوت. والآن اختفى.

تشعر بقبضةٍ خانقة تمسك بقلبها. لا، لا، لا، لا صوتٌ يردد في رأسها. الدموع تسيل على وجهها.

في تلك اللحظة تستيقظ فعلاً.

XIII

القفازان

اليوم ماطر، مطر الديمة في بواكر أبريل. العُنْصُل الأزرق ها قد بدأ يزهر، النرجس البري قد دفعت بخطمها فوق الأرض، الحشائش السائبة التي لا تنتظر غرساً ولا تتطلب تذكيراً فها هي تنسل وتشق طريقها، تتأهب لاحتكار الضوء لنفسها. ها هي قد حلّت – سنةٌ نباتية جديدة من شقِّ الأرض والتدافع بالمناكب. لا يبدو عليها أنها سئمت من دورة حياتها هذه: لأن النباتات لا ذاكرة لها. فلا يسعها تذكر كم من المرات قد سبق لها وأن فعلت كل ذلك.

لا بد أن أعترف أنّي متفاجئة لوجودي هنا حتى الآن، أواصل حديثي معك. أفضّل تصوّر الأمر على أنه حديث، وإن لم يكن بالطبع حديثاً: فأنا لا أقول شيئاً، وأنت لا تسمعين شيئاً. الرابط الوحيد بيننا هو هذا السطر الأسود: خيطٌ مرميٌّ في الصفحة البيضاء، في العدم.

جليد الشتاء على أخدود نهر لوفتو قد ذاب تقريباً، حتى الجليد على الشقوق العميقة للجرف قد ذاب. الماء، أسودٌ ثم أبيض، يتدفق مندفعاً عبر الصدوع الكلسية وفوق صخور الجلمود، دون أن يبذل أي جهد، كما هي عادته دوماً. صوته عنيف، لكن مسكّن، مغرٍ حتى. ولك أن تريْ لم الناس تنجذب إليه. إلى الشلالات، إلى القمم المرتفعة، إلى الصحاري والبحيرات العميقة – الأماكن التي لا عودة منها.

هذا العام لم يجرف النهر سوى جثةً واحدة: امرأة شابة مدمنة مخدرات من تورنتو. فتاةٌ أخرى متعجلة. هدرٌ آخر للوقت، وقتها. لها أقارب هنا، عمٌّ وعمة. وسرعان ما أضحى الناس ينظرون إليهما شزراً، وكأن لهما يداً فيما حصل؛ وسرعان

ما تقمصا الهيئة الغاضبة المحاصَرة لمن يدعي البراءة. أنا متيقنة من أن اللوم لا يقع عليهما، بيد أنهما لا يزالان على قيد الحياة، ومن يبقى على قيد الحياة، أياً يكن، فاللوم يقع عليه. تلك هي القاعدة المتبعة في أمور كهذه. قاعدةٌ ظالمة، لكن ما بيدنا فعله؟

صباح الأمس قدم والتر إلى البيت، كي يرى ما يجب فعله بخصوص الدَّوزنة الربيعية. هذا هو التعبير الذي يستخدمه في وصف صيانته الدورية للبيت، كل عام، يتولى أمرها نيابةً عني. كان قد أحضر معه صندوق معداته، منشاره اليدوي الكهربائي، مفك البراغي الكهربائي: لا يهوى شيئاً أكثر من أزيز عمله اليدوي وكأنه قطعةٌ من محركٍ ما.

وضع كل تلك المعدات في الشرفة الخلفية، ثم أخذ يدوس بخطاه الثقيلة حول البيت. حين عاد اعتلت ملامحه سيماء رضاً وسرور. "بوابة الحديقة ينقصها قدّة، بوسعي تركيب واحدة جديدة اليوم وطلاؤها متى ما توقف المطر".

"أوه، لا تكترث لها،" أقول له، كما أقول كل عام، "كل شيءٍ من حولي يتداعى، ومع ذلك سيعيش عمراً أطول مني".

والتر يتجاهل ردي هذا، كما يفعل كل عام. "الدرجات الأمامية أيضاً في حاجة إلى طلاءٍ جديد. إحدى الدرجات ستنخلع في أي لحظة – لذا سأركب درجة جديدة. إن أهملتها فترةً طويلة، فالمياه ستتسرب إليها ومن هنا يأتي العفن. وأظن أن الشرفة أيضاً في حاجة إلى طلاءٍ جديد، كي يحمي الخشب. بإمكاننا أن نطلي حواف الدرجات بلونٍ مغاير كي يراها الناس بصورةٍ أفضل. فعلى الوضع الحالي قد تزلق أقدامهم عنها ويؤذون أنفسهم". يستخدم صيغة الجمع في الإشارة إلى نفسه من باب الكياسة، أما "الناس" فيعني بهم أنا. "سأركب تلك الدرجة الجديدة لاحقاً اليوم".

"لكنك ستتبلل، فقناة الطقس تقول إنَّ مطراً أكثر سينهمر".

"لا. السماء حينئذٍ ستصفو". لم ينظر حتى إلى السماء.

والتر غادر لإحضار الأدوات المطلوبة – عدة ألواحٍ خشبية على ما أظن – وقضيت فترة انتظاري له مضطجعةً على أريكة الردهة، مثل بطلة رواية ضبابية نسوا أمرها وتركوها في صفحات كتابها تتعفن وتصفر وتتجعد بعيداً عن الأنظار، حالها من حال كتابها نفسه.

"يا لها من صورةٍ كئيبة،" لقالت ميرا.

ولكان ردي عليها، "وما الصورة الأخرى التي تقترحينها عليّ؟"

الواقع أنَّ قلبي قد عاد إلى مشاغبته. مشاغبة، يا لها من كلمةٍ غريبة. هذا ما يقوله الناس كي يخففوا من خطورة وضعهم. توحي وكأن الطرف الآخر (القلب، المعدة، الكبد)، وغيره هو طفلٌ مزعجٌ شكس، يسهل شكمه بصفعة أو كلمةٍ قاسية. في الوقت ذاته، فتلك الأعراض – تلك الآلام والرعشات، تلك الخفقات المتسارعة – ما هي إلا حركاتٌ مسرحية، وأنَّ العضو سرعان ما سيدع عنه حماقته واستعراض نفسه، وسيستكين إلى وجوده الهادئ خارج خشبة المسرح.

الطبيب ليس راضياً عن وضعي. أخذ يبربر عن فحوصات وأشعة، عن رحلاتٍ إلى تورنتو حيث يتوارى الأطباء الاختصاصيون، أولئك القلة الذين لم يفروا بعد إلى المراعي الأكثر اخضراراً. كان قد بدّل أدويتي، أضاف حبةً جديدة إلى عتاد أسلحتي. حتى أنه اقترح عليّ إجراء عملية. سألته عما سيتطلبه الأمر، وما الفائدة المرجوة منه. الكثير بالنسبة للشق الأول، وليس بالكافي بالنسبة للشق الثاني. يرى ألا خيار أنجع من استبدال الوحدة بأكملها – ذاك هو المصطلح الذي استخدمه، وكأننا نتناقش حول غسالة صحون. كما أن عليّ أن أقف في الطابور، في انتظار وحدة شخصٍ آخر، شخصٍ لم يعد في حاجة إليها. وكي لا ننمق الكلام أكثر، قلب إنسانٍ آخر، مقتلع من أضلع شابٍ ما: فلن ترغبي بتركيب قلبٍ متداعٍ ذاوٍ مثل القلب الذي تنوين الرمي به خارجاً. ما تريدينه هو قلبٌ طازجٌ وعُصاريّ.

لكن من يدري من أين يأتون بها؟ تخميني أنا، من أطفال الشوارع في أمريكا اللاتينية؛ على الأقل وفقاً لأكثر الشائعات ارتياباً. القلوب المسروقة، سوق القلوب السوداء، منتزعة من بين الأضلع المكسورة، حارة ودامية، تقدم قرباناً إلى الأوثان.

ومن هي الأوثان؟ نحن. نحن وأموالنا. هذا ما كانت لورا ستقوله. أما ريناي فكانت ستقول، إياك وأن تلمسي ذاك المال. فلا تدرين من أين جاء.
وهل كنت سأطيق الحياة مدركةً أني أحمل في صدري قلب طفلٍ ميت؟
لكن إن لم أفعل، فما الخيار الآخر لديّ؟
رجاءً لا تأخذي هذياني القلق هذا من باب الرواقية[155]. فأنا أتناول حبوبي، وأواصل نزه السير المتقطعة، لكن لا شيء بيدي فعله كي أخفف من فزعي.

بعد تناول الغداء – قطعة جبنٍ جامدة، وكأسٍ من الحليب المريب، وجزرة رخوة، فقد قصرّت ميرا هذا الأسبوع في مهمتها التي أوكلتها لنفسها في تموين ثلاجتي – عاد والتر. كان قد أخذ قياساته، استخدم منشاره، استخدم مطرقته، ثم طرق على الباب الخلفي كي يتأسف لي عن الإزعاج وأن كل شيءٍ قد تصلّح.
"لقد أعددت لك القهوة". فهذا هو طقسنا السنوي مع كل بداية أبريل. هل حرقتها هذه المرة؟ لا يهم. فهو معتادٌ على قهوة ميرا.
"لا مانع لدي". نزع عنه فردتي جزمته المطاطية بتأنٍ وتركهما على الشرفة الخلفية – ميرا قد أحسنت تدريبه، فليس بالمسموح له أن يخلف أثراً مما تسميه قذارته على ما تسميه سجادها – ثم مشى على أصابع قدميه في جوربيه العملاقين على أرضية مطبخي؛ الأرضية التي أضحت زلقة وغادرة مثل نهر الجليد بفضل الفرك النشط والصقل الحثيث على يدي المرأة التي أحضرتها ميرا. ففيما مضى كانت تعلوها طبقة مفيدة من الجلد اللاصق جراء تراكم الغبار والسخام، تكسوها كما الطبقة الرقيقة من الغراء، لكنها اختفت الآن. عليّ أن أنثر عليها بعض الرمل الخشن، وإلا سأزلق عليها وأتسبب بالأذى لنفسي.
مشاهدة والتر يسير على رؤوس أصابع قدميه كانت تسليةً في حد ذاتها – فيلٌ يمشي على بيض. بلغ طاولة المطبخ، واضعاً قفازي عمله الأصفرين الجلديين عليها،

(155) الرواقية: نظرية أخلاقية ترتكز على الجهد والسعي وراء الخير، وترى أن الحكمة هي امتلاك الفضيلة، وتنادي بحرية الحكيم المنتصر على أهوائه وآلامه وحتى على الموت باعتماده الانتحار.

مسجيان كما البراثن العملاقة الإضافية.

"زوجٌ جديد،" قلت له، فقد كانا جديدين حد اللمعان. لا خدش على أيٍّ منهما.

"ميرا أحضرته لي. فهناك رجل يبعد عنا ثلاث شوراع، قطع أصابع يده بمنشار الزخرفة وقد اهتاجت لدى سماعها بالأمر قلقاً من تعريض نفسي لأمرٍ مشابه أو أسوأ. لكن الرجل مخبول انتقل التو من تورنتو، اعذري بذاءة لساني، ورجل كهذا لا يجدر به أن يلهو بالمناشير، لكان قطع رأسه أيضاً بالمرة، وما كان العالم ليفقد برحيله شيئاً. قلت لها أني سأكون في منتهى الغباء إن حاولت فعل شيءٍ كهذا، وعلى أي حال فأنا لا أملك منشار زخرفة. لكنها تجبرني على حمل هذين القفازين اللعينين معي إلى أي مكان أقصده. كل مرةٍ أصل الباب، تنادي عليّ **بووو هووو، هاك قفازيك**".

"بإمكانك إضاعتهما".

"وستشتري لي زوجاً آخر". أجابني مكفهرًّا.

"إذاً دعهما لديّ. أخبرها أنك نسيتهما هنا وستمر لأخذهما لاحقاً. عدا أنك لن تعود وتأخذهما". كنت قد تصورت نفسي، في تلك الليالي الموحشة، أحضن إحدى يدي والتر الجلديتين الخاويتين: كنت سآنس برفقتها. كم أنا مثيرة للشفقة. ربما عليّ أن أقتني قطة، أو كلباً صغيراً. شيءٌ ما دافئ وفروي ومساير – مخلوقٌ أنيس، يساعدني على قضاء ساعات المراقبة الليلية. نحن في حاجة إلى عناق مخلوقات ثديّة: فالعزلة الكاملة مضرة بالبصر. لكن إن اقتنيت إحداها فعلى الأرجح سأتعثر بها وأكسر عنقي.

فم والتر ارتعش، كاشفاً أطراف أسنانه العلوية: تلك كانت ابتسامته العريضة. "العقول العظيمة أفكارها متماثلة، إيه؟" قال لي، "وربما ستلقين بهما في القمامة، عن غير قصد بالتأكيد".

"والتر، يا لك من وغد". ابتسامته عرضت، أضاف خمس ملاعق سكر في القهوة وتجرعها، ثم وضع راحتيْ يديه على الطاولة ورفع نفسه عالياً، بدا مثل مسلّةٍ

يرفعونها بالحبال. لدى رؤيتي إياه في تلك اللحظة تنبّأت فجأةً بما سيكون تصرفه الأخير معي، اتجاهي: سيرفع أحد طرفيْ نعشي.

هو الآخر مدركٌ لذلك. هو على أتم الاستعداد. هو ليس بالمصلّح عبثاً. لن يثير أي جلبة، لن يوقعني، سيتيقن من ترحالي مستقيمةً متوازنة آمنة في رحلتي الأخيرة القصيرة هذه. "فلنرفعها،" سيقول بينما يحملني للأعلى. وإلى الأعلى سأرتفع.

حديثٌ كئيب. أدري؛ وعاطفيٌّ كذلك. لكن رجاءً احتمليني. فمن يشارف على الموت يسمح له بالتصرف على هواه، كما الطفل في حفل ميلاده.

نار البيت الموقدة

ليلة البارحة شاهدت الأخبار على التلفاز. ما كان ينبغي عليّ مشاهدتها، إذ تسبب عسر الهضم. هناك حربٌ أخرى في مكانٍ ما، حرب من تلك التي يطلقون عليها حروب صغيرة، لكن بالطبع لن تكون صغيرة في عينيْ من يعلق في رحاها. لها سماتٌ مشتركة، تلك الحروب – الرجال في عتاد وملابس التمويه مع أوشحة تغطي أنوفهم وأفواههم، سفى الدخان، المباني الكئيبة المهجورة، المدنيون المحطمون الباكون. حشدٌ لا ينتهي من الأمهات، يحملن حشداً لا ينتهي من الأطفال المنهكين، وجوههم ملطخة بالدماء؛ حشدٌ لا ينتهي من كبار السن المشدوهين. يجرّون الشباب ويقتلونهم، بنية تفادي عمليات الانتقام، كما فعل الإغريق في طروادة. وكما أذكر، تلك كانت حجة هتلر في قتله الرضّع اليهود.

الحروب تندلع وتضع أوزارها، بيد أنها تخلف وراءها ناراً تأكل الأخضر واليابس. البيوت تفقس كما البيض، إما يشعلون فيها النيران، ينهبون محتوياتها، أو يسحقونها في انتقامٍ تحت أقدامهم؛ يقصفون اللاجئين الفارين منها بالقنابل. في الأقبية، أبناء العائلات المالكة يواجهون فرق الرمي بالرصاص؛ الجواهر المرصعة بها ثيابهم لن تنقذهم. قوات هيرودس تنشر عساعسها في ألف شارع، في البيت المجاور نابليون ينهب الفضيات. في صبيحة الغزو، أي غزو، الخنادق والحفر تكتظ بالنساء المغتصَبات. وكي نكون عادلين، بالرجال المُغتَصَبين أيضاً. أطفالٌ مُغتَصَبون، ومعهم كلاب وقطط مغتصَبة. إذ سرعان ما يفلت الوضع عن السيطرة.

لكن ليس هنا؛ ليس في هذا المنعزل الوديع المضجر؛ ليس في بورت تيكونديروغا،

رغم ثلة المدمنين في الحدائق، رغم حوادث السطو العرضي، رغم الجثث العرضية الطافية حول دوامات الدردور. نظل رابضين هنا، نحتسي مشروب ما قبل النوم، نقضم وجبتنا الخفيفة قبل النوم، ننعم النظر إلى العالم وكأننا ننظر إليه من نافذةٍ سرية، ومتى ما سئمنا من مشاهدته نغلق النافذة. نقول لأنفسنا، ها قد انتهينا من القرن العشرين، على وقع صعودنا درجات السلم للطابق العلوي. بيد أنَّ هديراً يُسْمع من بعيد، كما الموجة العارمة المندفعة اتجاه الشاطئ. وها قد أزف القرن الحادي والعشرون، يندفع مكتسحاً فوق الرؤوس مثل سفينةٍ فضائية مكتظة بالرجال الفضائيين مقدودي الأعين كالسحالي أو كما الزواحف المجنحة الآلية. عاجلاً أم آجلاً ستلتقط رائحتنا، وستقلع سقوفنا الواهنة عن جحورنا بمخالبها الحديدية، وحينها سنضحو عراةً جائعين موبوئين وبائسين مثلنا مثل البقية.

اعذري استطرادي. ففي عمري هذا يحلو لي الاستغراق في رؤى القيامة. تقولين في نفسك، نهاية العالم قد دنت. ثم تكذبين على نفسك قائلةً – كم أنا سعيدة لأني لن أشهد وقوعها – بينما في الواقع تتلهفين لمشاهدتها، طالما يتسنى لك مشاهدتها من نافذةٍ صغيرة سرية، طالما لن تكوني طرفاً فيها.

لكن لم الاكتراث لنهاية العالم؟ فنهاية العالم تقع كل يوم، بالنسبة إلى شخصٍ ما. الوقت يتصاعد ويتصاعد وما إن يبلغ عينيك تغرقين.

ما الذي وقع لاحقاً؟ للحظة أضعت خيطي، فمن الصعب عليّ التذكر، لكني أذكر. كانت الحرب بالطبع. لم نكن مستعدين لها، لكن في ذات الوقت كنا قد خبرناها من قبل. هي ذات القشعريرة التي تسري في الأوصال، قشعريرة تتجلى مغبشة كالضباب، القشعريرة التي ولدتُ أنا فيها. وكما الحرب الماضية، رعشة القلق اكتست كل شيء – الكراسي، الطاولات، الشوارع وأعمدة الإنارة، السماء، الهواء. بين ليلةٍ وضحاها، كل ما اعتبرناه واقعاً مسلماً به كان قد تلاشى. هذا ما يحدث لدى وقوع الحرب.

لكنك يافعة لتذكّر أي حربٍ أعني. فكل حربٍ هي الحرب للجيل الذي عاصرها. الحرب التي أعنيها اندلعت في أوائل سبتمبر من عام 1939، واستمرت حتى ... على كلٍّ، العام موجود في كتب التاريخ. لك أن تبحثي فيها.

أبقين على النار موقدة في بيوتكن[156]، تقول إحدى شعارات الحرب القديمة. كلما سمعت بها، أتصور حشوداً من النساء شعورهن طليقة وأعينهن براقة، يشققن طريقهن خلسةً، فرادى أو أزواج، تحت ضوء القمر، يشببن حريقاً في بيوتهن.

قبل اندلاع الحرب بشهور قليلة، زواجي من ريتشارد كان قد بدأ يتداعى، وإن كان لي أن أقول إن زواجنا كان متداعياً من اللحظة الأولى. فقد أجهضت، ثم عدت وأجهضت مرةً أخرى. ريتشارد من جهته كان قد حظي لنفسه على عشيقة، ثم عاد وحظي بعشيقةٍ أخرى، أو هذا ما شككت به – فقد كان أمرًا محتوماً وقوعه، كذا ستقول وينيفريد لاحقاً إن وضعنا في الاعتبار صحتي الواهنة، ورغبات ريتشارد. ففي تلك الأيام، كانت الرغبة لدى الرجال ملحة؛ ويا لعددها الكبير، تلك الرغبات الملحة: تعيش في السر، تتربص في الزوايا والشقوق المظلمة، وبين فترةٍ وأخرى تحشد قواها وتهجم فجأةً مثل فئران الطاعون. تلك الرغبات كانت ماكرة وقوية، فكيف لأي رجلٍ حقيقي أن يقاومها ونتوقع منه الانتصار عليها؟ تلك كانت القاعدة آنذاك وفقاً لوينيفريد، وحتى نكون عادلين، كانت القاعدة لدى كثيرٍ من الناس.

افترضت آنذاك أنَّ عشيقات ريتشارد هن سكرتيراته – دائماً ما كان يوظفهن يافعات، جميلات، مهذبات. يوظفهن حديثات تخرج من أي معهدٍ أنتجهن. لفترةٍ كن سيتعاملن معي باستعلاء وعصبية، على الهاتف، متى ما اتصلتُ بالمكتب كي أحادثه. كذلك كان من عادته أن يرسلهن في مهمة شراء هدايا لي، طلب الزهور وإرسالها لي. فقد كان حريصاً على تذكيرهن بوضعي: أنا الزوجة الرسمية، ولا نية

---

(156) Keep the home fires burning: شعارٌ مستوحى من أغنية وطنية بريطانية صدرت عام 1914 إبان اندلاع الحرب العالمية الأولى وتحمل الشعار عنواناً لها، وتحث الأغنية النساء على إبقاء النار في بيوتهن موقدة حتى عودة رجالهن إليهن، أن يبقين على صمودهن واعتنائهن ببيوت رجالهن وأطفالهن وأرض الوطن رغم شوقهن وتوقهن وانكسار قلوبهن.

له بتاتاً على الطلاق. فالرجال المطلقون لا يعتلون سدة القيادة في أوطانهم، ليس آنذاك. هذا الوضع منحني هامشاً من النفوذ، بيد أنه نفوذٌ كان سيضيع مني متى ما مارسته. ففي الواقع كان نفوذاً فقط إن ادعيت عدم معرفتي بشيء. فالنفوذ تأتّى في إبقاء الرهبة في نفسه من احتمال معرفتي بما يجري؛ بفضحي ما هو سرٌّ مفضوح، وإطلاق العنان لكل الشرور.

هل اكترثت؟ نعم، إلى حدٍّ ما. فنصف رغيفٍ خيرٌ من عدمه، هذا ما كنت أقوله لنفسي، وريتشارد كان رغيفاً. كان الرغيف على المائدة، لآيمي ولي. تسامي فوق جراحك، كذا اعتادت ريناي أن تقول، وقد حاولت. حاولت التسامي فوقها، تساميت وتساميت حتى بلغت السماء، مثل البالون الفالت، وأحياناً كنت أنجح في التسامي.

علمت نفسي كيف أشغل وقتي. كنت قد اتخذت من البستنة هوايةً جدية، وكنت أحقق نتائج ملحوظة. فلم تمت كل النباتات في يدي. كنت أخطط تصميم حديقةٍ معمرة ظليلة.

ريتشارد حافظ على المظاهر. وكذلك أنا. كنا نحضر حفلات الكوكتيل والعشاء، كنا ندخل ونخرج معاً، يده على مرفقي. حرصنا على مشاركة الشراب قبل العشاء، كأساً أو كأسين، أو حتى ثلاث؛ فقد بدأت أتولع حينها بشرب الجن، أياً كان المزيج، لكني حرصت ألا أشرب حدَّ فقداني الإحساس بأصابع قدمي وإفلات لساني. فقد كنا لا نزال نتزلق على سطح الواقع – على طبقة الجليد الرقيقة للأصول، والتي تستر القرارة المظلمة تحتها: ما إن تذوب، ستغرقين فيها.

نصف حياة خيرٌ من عدمها.

كنت قد فشلت في استيعاب ريتشارد، بأي مفهومٍ عميق. فقد ظلَّ في نظري لوحةً كرتونية. أدرك ذلك. فلا يسعني حقيقةً وصفه، لا يسعني التركيز على ملامحه: إذ يبدو مغبَّشاً، مثل وجهٍ مبلل على صحيفةٍ مرمية. حتى في الأوقات التي بدا لي فيها صغير الشأن، وعظيم الشأن في ذات الآن. هذا التناقض تأتى من كونه يملك الكثير

من المال، الكثير من النفوذ في العالم – مما يغوي على توقع المزيد منه، وما كان اعتيادياً بشأنه غدا عيباً فيه. كان قاسي القلب، لكن ليس كما الأسد؛ بل كحيوانٍ قارضٍ ضخم. يحفر الأنفاق من تحت الأرض؛ يقتل الأشياء بقضم جذورها.

كان يملك الثروة التي تمكنه من العطاء الجزيل، من إبداء الكرم العظيم، بيد أنه ظل قابضاً على يديه. فقد أضحى تمثالاً منصوباً عن نفسه: ضخم، عام، مهيب، وخاوٍ.

لم يكن الحال وكأنه أعظم من صورته، بل على العكس، لم يرتقِ لها حقاً. هذا بكل اختصار.

ساعة اندلاع الحرب، وجد ريتشارد نفسه في موقفٍ حرج. فقد كان حميماً في تعاملاته التجارية مع الألمان، وكذلك معجباً بهم في خطاباته. مثله مثل العديد من أقرانه الذين غضوا الطرف عن كثيرٍ من تجاوزاتهم الوحشية للديمقراطية؛ الديمقراطية التي دائماً ما ينتقدها قادتنا بقسوة مدعين أنها غير عملية، لكن ها هم هبّوا يدافعون عنها بكل حماس.

كذلك تعرض ريتشارد لخسارة الكثير من أمواله إذ ما عاد مقبولاً التعامل مع من أصبح بين ليلةٍ وضحاها العدو. اضطر للجوء إلى التزلف والتملق؛ لم يرق له الأمر كثيراً، لكنه فعلها. ونجح في استعادة موقعه، والتسلق مرةً أخرى إلى نيل الحظوة – ففي النهاية لم يكن بالوحيد الذي تلطخت يداه، لذا ما كان للبقية أن تشير بأصابعها الملطخة إليه – وسرعان ما عادت مصانعه للعمل، تنتج بكامل طاقتها دعماً لجهود الحرب، ولا أحد فاقه وطنيةً. لذا لم يأخذها أحدٌ ضده لدى انضمام روسيا إلى قوات التحالف، حين غدا جوزيف ستالين فجأةً العم المحبوب لدى الجميع. أجل، ريتشارد كان قد أدلى بتصريحات كثيرة ضد الشيوعيين، لكن ذاك كان فيما مضى. كلها الآن كنست تحت السجاد، إذ أليس عدو عدوك بصديقك؟

في غضون ذلك، قطعتُ تلك الأيام متثاقلةً، ليس كما كانت العادة – فالعادة قد تغيرت – بل ببذل أقصى ما لدي. عازمة، تلك هي الكلمة التي سأصف بها وضعي

آنذاك. أو حتى منشدهة، تلك الصفة ستفي بالغرض أيضاً. فما عاد هناك من حفلات حدائق أضطر للتعامل معها، لا جوارب حريرية عدا تلك المباعة في السوق السوداء. اللحم والزبدة والسكر غدت مواد تموينية توزع على الجميع بالحصص: وإن أردت حصةً أكبر من البقية، فقد غدا مهماً بناء علاقات معينة. ما عاد هناك من رحلات أطلسية على البواخر المرفهة – فالملكة ماري غدت سفينةً حربية. المذياع ما عاد منصة موسيقى متنقلة بل غدا وسيطاً روحياً مسعوراً؛ كنت أديره كل مساء كي أسمع الأخبار والتي كانت في البداية كلها سيئة.

الحرب أخذت تمضي وتمضي، مثل عربةٍ لا تكل ولا تمل. كانت قد وترت أعصاب الناس حدَّ الهلاك بوقعها الكئيب الموحش. بدا الوضع مثل الاستماع إلى أحدهم يطحن أضراسه، من الغسق حتى الفجر، بينما تستلقين على فراشك يجافيك النوم ليلةً بعد ليلة بعد ليلة.

بيد أن شيئاً من النفع قد تأتى منها. فالسيد مرغترويد كان قد غادرنا للانضمام إلى الجيش. فتسنى لي تعلم القيادة. اتخذت لي سيارةً من سيارات ريتشارد، أظنها كانت سيارة البنتلي، وريتشارد سجلها باسمي – وبذا ازدادت حصتنا من البنزين. (البنزين أيضاً وُزّعَ على حصص، وإن لم تكن مطبقة بذات القدر مع أناسٍ مثل ريتشارد). القيادة منحتني حريةً أكبر، وإن ما عاد لي آنذاك من نفعٍ وراءها.

أصبت بالبرد، والذي تحول إلى التهاب شُعَبي – الكل أصيب بالبرد في ذاك الشتاء. وقد أخذ مني الأمر أشهر عديدة كي أتعافى منه بالكامل. قضيت الكثير من الوقت مستلقيةً في الفراش، يغمرني الحزن. سعلت وسعلت. ما عدت أذهب إلى صالات السينما لمشاهدة الشريط الإخباري – الخطابات، المعارك، القصف والدمار، الانتصارات، وحتى الغزوات. كانت أياماً حافلة، أو كذا قيل لنا، لكني فقدت حينها أي اهتمام.

نهاية الحرب دنت. أقرب وأقرب، ثم حلَّت. تذكرت الصمت الذي عقب إعلان نهاية الحرب السابقة، وقرع الأجراس الذي تلاه. كان شهر نوفمبر آنذاك، البرك كانت مكسوة بالجليد، أما هذه فقد وضعت أوزارها في الربيع. أطلقوا المسيرات، أطلقوا

البيانات، نفخوا في الأبواق.

لكن ما كان سهلاً وضع نهايةٍ للحرب. فالحرب نارٌ عظيمة؛ رمادها تسوقه الريح بعيداً، وتذروه ببطء، على أقل من مهلها.

حلويّات ديانا

اليوم تنزّهتُ سيراً وصولاً إلى جسر جبيلي، من بعده سِرتُ حتى متجر الدونات، حيث أكلت تقريباً ثلث مبرومةٍ برتقالية. كتلةٌ كبيرة من الطحين والدهن، تسري كما الطمي في شراييني.

ثم ذهبت إلى الحمام. إحداهن كانت في الحجيرة الوسطى، لذا انتظرت، متحاشيةً الوقوف أمام المرآة. العمر يرقق جلدك؛ لك أن تري العروق، أوتار العضل. والعمر كذلك يثخّنك. من الصعب العودة إلى ما كنت عليه سابقاً، حين كانت بشرتك خزفاً لا جلداً.

أخيراً فتح الباب وخرجت فتاة – فتاةٌ داكنة، في ثياب قاتمة، عيناها مطوَّقتان بالسخام. أطلقت صيحة، ثم ضحكة. "آسفة، لم أرك هناك، قد أخفتني". لهجتها كانت أجنبية، بيد أنها تنتمي إلى هنا: هي من حملة جنسية الشباب. أنا من هي الأجنبية الآن.

الرسالة الجديدة كتبت بقلم التعليم الذهبي: لن تصعد روحك إلى الجنة دون المسيح. بيد أنَّ المفسرات قد شمرن عن أذرعتهن: المسيح شُطِبت واستبدلت بالموت، مكتوبةً فوقها، بالقلم الأسود.

ومن أسفلها، باللون الأخضر: الجنة ذرة رمل. بلايك.

ومن أسفل تلك، باللون البرتقالي: الجنة على كوكب زينور. لورا تشايس.

اقتباسٌ آخر خاطئ.

الحرب انتهت رسمياً خلال أوّل أسبوعٍ من مايو – أعني الحرب في أوروبا. ساحة المعركة الوحيدة التي عنت لورا.

بعدها بأسبوع اتصلت. أجرت المكالمة في الصباح، بعد ساعةٍ من الفطور، إذ ولا بد كانت متيقنة من عدم وجود ريتشارد في البيت في تلك الساعة. لم أتعرف على صوتها، إذ كنت قد يئست من توقع أي اتصالٍ منها. في البداية ظننتها المرأة لدى خياطتي.

"هذه أنا،" قالت لي.

"وأين أنت؟" سألتها بحذر. فلا تنسيْ أنها قد باتت مع الوقت مجهولةً لي – استقرارها العقلي مشكوكٌ فيه.

"أنا هنا،" أخبرتني. "في المدينة". ما كانت لتفصح لي عن مكان إقامتها، لكنها أعطتني اسم تقاطع شارع كي أمر عليها وأصطحبها لاحقاً في فترة ما بعد الظهيرة. قلت لها، "سنحتسي الشاي إذن". متجر حلويات ديانا كان المكان الذي اعتزمت اصطحابها إليه. فقد كان آمناً، منعزلاً، ومعظم زبائنه من النساء؛ وأنا زبونة معتادة لديهم. أخبرتها أني سأصطحبها بسيارتي.

"أوه، هل تملكين سيارة؟"

"نوعاً ما". ووصفتها لها.

"تبدو معجّلة[157] رائعة". قالت بمرح.

لورا كانت واقفة على تقاطع شارعي كنج وسبادينا، تماماً حيث قالت. لم تكن بالمنطقة المرموقة، لكن لم يبد عليها الانزعاج من ذلك. زمَّرت، لوَّحت لي وسارت اتجاهي وصعدت السيارة. ملت نحوها وقبلتها على وجنتها. وشعرت لحظتها بأني غادرة[158].

"لا أصدق أنك حقاً هنا".

---

157 معجّلة – chariot: مركبة حربية قديمة ذات عجلتين تجرها الخيل، وهي كذلك المركبة التي تقودها الآلهة في الأساطير الإغريقية.

158 في إشارة إلى قبلة يهوذا على وجنة المسيح، دلالة غدره به وتسليمه إلى الجند الرومان.

"لكن هأنذا".

فجأةً أوشكتُ على البكاء؛ أما هي فلم تبد مبالية. بيد أن وجنتها كانت باردة جداً. باردة ورقيقة.

"آمل أنك لم تفصحي بشيء لريتشارد، أعني بخصوص وجودي، أو لوينيفريد،" ثم أردفت، "فلا فرق بينهما".

"ما كنت لأفعل ذلك،" قلت لها، في المقابل هي لم تقل شيئاً.

لأني أنا من توليت القيادة، فلم أتمكن من رؤيتها جيداً. كان عليّ الانتظار إلى أن ركنت السيارة، دخلنا حلويات ديانا، ثمّ جلسنا مقابل بعضنا. بذا أخيراً تسنى لي رؤيتها، إمعان نظري فيها بالكامل.

كانت هي لورا التي أذكرها، وكذلك لم تكن. كانت أكبر سناً بالطبع – كلتانا – لكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك. لباسها كان مهندماً، بسيطاً وحتى متقشفاً. صدّار قميص فستانها الأزرق الباهت كان ذي طيّات مع سلسلة أزرار صغيرة ممتدة في الأمام. شعرها كان مسحوباً للوراء في شنيون بسيط. بدت منكمشة، منطوية على نفسها، وكل الألوان قد ترشحت عنها، لكن في ذات الوقت بدت شفانيَّة – وكأنما رزَّاتٌ صغيرة من نور كانت مسمرة داخلها مخترقةً جلدها، كأنما أشواكٌ من نور كانت تنبثق عنها خالقةً سديماً شائكاً حولها، مثل زهرةٍ شوكية ترفعينها بيدك والشمس من خلفها. من الصعب عليّ وصف تأثير كهذا. (ولا أرى من المجدي أن تضفي أهميةً على ما قلت: فبصري كان قد بدأ يزيغ آنذاك، وكنت في حاجة إلى نظارات، بيد أني لم أكن أعرف بذلك وقتها. هالة النور المغبَّشة حول لورا كانت على الأرجح عيباً بصرياً).

طلبنا، أرادت قهوة عوضاً عن الشاي. حذرتها من أن القهوة سيئة الطعم – "ليس بإمكانك الحصول على قهوة جيدة هنا بسبب الحرب". لكنها أجابتني، "لا بأس، فقد اعتدت القهوة السيئة".

ساد الصمت بيننا. فلم أعرف من أين أبدأ. لم أكن مستعدة بعد لسؤالها عما تفعله هنا في تورنتو. لذا سألتها عن مكان وجودها طوال تلك الفترة، وما كانت تفعل.

"في البداية كنت في آفيليون".

"لكنها مغلقة!" قد كانت مغلقة، طوال الحرب. لم نعد إليها لسنوات. "وكيف دخلت؟"

"أوه، تعرفين. فلطالما عرفنا كيف ندخل إليها متى ما شئنا".

تذكرت مسقط الفحم، القفل المعيوب على باب أحد الأقبية. لكنهم أصلحوه، منذ زمنٍ طويل. "هل حطمت نافذة؟"

"لم أضطر لفعل ذلك. فريناي تملك نسخةً من المفتاح، لكن ابقي على الأمر سراً".

"لا بد وأنَّ الفرن لم يعمل، لكان من المستحيل وجود أي تدفئة في البيت".

"لم يكن من تدفئة، لكن كان هناك العديد من الفئران".

قهوتنا وصلت. طعمها طعم قشور الخبز المحروق والهندباء البرية المحمصة، لم أفاجأ بنكهتها فتلك هي مكوناتها. "أتريدين قطعة كعك أو شيئاً آخر؟ فالكعك هنا ليس بالسيء". فقد كانت هزيلةً جداً، شعرت بأنها في حاجة إلى تناول كعكة.

"لا، شكراً".

"وماذا فعلت بعدها؟"

"بعدها بلغت الحادية والعشرين، لذا ملكت شيئاً من المال، من أبي. لذا توجهت إلى هاليفاكس".

"هاليفاكس؟ ولماذا هاليفاكس؟"

"لأنها المكان الذي تصل إليه السفن".

لم أستطرد في متابعة سؤالها عن هاليفاكس. لا بد وقد كان لها أسبابها للتوجه هناك، تلك كانت الحال دائماً مع لورا؛ كان سبباً تجنبت سماعه. "لكن ما كنت تفعلينه هناك؟"

"هذا وذاك. جعلت من نفسي مفيدة". هذا كل ما كانت ستفصح عنه بخصوص الموضوع. أظنها عملت في مطبخ حساء أو ما شابه، تنظيف المراحيض في مستشفى ما، أو شيء من هذا القبيل. "ألم تصلك رسائلي؟ من بيلا فيستا؟ ريناي أخبرتني أنك لم تتلقي أيًّا منها؟"

"لا، لم أتلقَّ أي رسالة".

"أظنهما استوليا عليها. ولم يسمحا لك بالاتصال، أو القدوم لرؤيتي؟"

"أخبراني إن فعلت فسأضرُّ بك".

ضحكت ضحكةً صغيرة، " لكان أضرَّ بك". ثم أردفت، "لا يجدر بك حقاً البقاء هناك، في ذاك البيت. لا يجدر بك البقاء معه. فهو الشيطان بعينه".

"أعرف أن هذا كان شعورك دائماً اتجاهه، لكن ما عساي أن أفعل؟ فلن يمنحني الطلاق أبداً. ولا أملك أي مال".

"ليس بعذر".

"ربما ليس بعذرٍ لك. فأنت تملكين وديعة أبي، لكني لا أملك شيئاً كهذا. وماذا عن آيمي؟"

"اصطحبيها معك".

"يسهل قوله ويصعب تنفيذه. فقد لا تود المجيء معي. فهي متعلقة بريتشارد حالياً، إن أردت معرفة الوضع".

"ولماذا هي متعلقة به؟"

"يداهنها، يسبغ عليها الكثير من الهدايا".

"لقد أرسلت إليك برسائل من هاليفاكس،" قالت لورا محاولةً تغيير الموضوع.

"لم أستلم تلك الرسائل أيضاً".

"أتوقع ريتشارد يقرأ كل البريد المرسل إليك".

"أظنه يفعل ذلك". وجدت الحديث بيننا قد أخذ منعطفاً لم أتوقعه. ظننت أني أنا من سيواسي لورا وأرثي لحالها بينما أستمع إلى قصتها الحزينة، بيد أنها هي من أخذت تحاضرني. كم كان سهلاً الانزلاق مرةً أخرى إلى أدوارنا القديمة.

"وما الذي أخبرك به عني، عن إيداعي في ذاك المكان؟"

ها قد حانت اللحظة، ها هي المسألة قد طرحت على الطاولة ووجدت نفسي على مفترق الطرق: إما لورا قد فقدت عقلها، أو ريتشارد كان يكذب. فليس بوسعي تصديق كليهما معاً. "أخبرني بقصة،" قلت لها مراوغة.

"وأي قصةٍ تلك؟ لا تقلقي، لن أنزعج. أريد فقط معرفة الأمر".

"أخبرني أنك – حسنٌ، غير مستقرة عقلياً".

"بطبيعة الحال كان سيقول لك شيئاً كهذا. وما الذي قاله أيضاً؟"

"أنك ظننت أنك حبلى، لكن لم يكن الأمر سوى تهيؤات".

"كنت فعلاً حبلى. تلك هي المسألة برمتها – لذلك تعجلا في إبعادي. هو ووينيفريد – كلاهما شلَّهما الذعر. العار والفضيحة – لك أن تتصوري الضرر الذي تخيلاه سيلحق بفرَصه الكبيرة".

"أجل، لي أن أتصور ذلك". وفعلاً تصورت ردة فعلهما – المكالمة السرية من الطبيب، الذعر، التشاور المتعجل بينهما، خطتهما التي جاءت وليدة اللحظة. ثم إعداد النسخة الأخرى من الأحداث، النسخة الزائفة، لفقاها فقط لأجلي. لطالما اعتبراني طيّعة، لكن لا بد وأنهما أدركا أن خطأً أحمر لدي في مكانٍ ما. لا بد وأنهما خشيا ما سأفعل في حال تجاوزاه.

"على أي حال، لم أنجب الطفل. فتلك إحدى الأمور التي يفعلونها في بيلا فيستا".

"إحدى الأمور؟" شعرت بأني فعلاً غبية.

"إلى جانب البربرة أعني، الحبوب والأجهزة. هم كذلك يتولون الاقتلاع. يفقدونك وعيك بالإيثر، كما الحال لدى طبيب الأسنان. ثم يقتلعون الأطفال. بعدها يخبرونك بأنك لفقت الأمر برمته. ومتى ما اتهمتهم باقتلاع الطفل منك، يخبرونك بأنك تشكلين خطراً على نفسك والآخرين".

كانت هادئة جداً، بدت صادقة في رواية قصتها. "لورا، هل أنت متأكدة؟ أعني بخصوص الطفل. هل أنت متأكدة أنك فعلاً كنت حبلى؟"

"بالطبع أنا متأكدة، لم عساي ألفق شيئاً كهذا؟"

كان لا يزال لدي هامشٌ من الشك، لكن هذه المرة صدقت لورا. "وكيف حدث ذلك؟" سألتها هامسةً. "من كان الأب؟" أسئلةٌ كهذه لا تطرح إلا همساً.

"إن كنت لا تعرفين حتى الآن، فلا أظن بمقدوري إخبارك".

افترضت أنَّ أليكس توماس هو الأب وبلا ريب. فأليكس هو الرجل الوحيد الذي

أظهرت لورا أي اهتمامٍ به – هذا إلى جانب أبي، والرب. كرهت تقبل احتمالٍ كهذا، لكن لا احتمال آخر كان لدي. لا بد وأنهما التقيا في تلك الفترة التي تغيبت فيها عن مدرستها الأولى في تورنتو، ثمّ لاحقاً، حين ما عادت تذهب إلى المدرسة على الإطلاق؛ حين كان يفترض بها أن تبهج العجزة المساكين المتهالكين في المستشفى، مرتديةً المريلة المحتشمة المنافقة، وتكذب ملء فمها مدعيةً التقوى طوال ذاك الوقت. لا شك وقد شعر بإثارةٍ رخيصة من رؤيته المريلة، ذاك الوحي الشاذ من ادعاء الحشمة، لكان راق له ذلك. وربما لهذا السبب تركت المدرسة – كي تلتقي بأليكس. كم كان عمرها آنذاك – في الخامسة أو السادسة عشر؟ كيف له أن فعل شيئاً كهذا؟

سألتها، "وهل كنت مغرمة به؟"

"مغرمة؟ بمن؟"

"بـ... تدرين من أعني،" لم أحتمل نطق اسمه.

"أوه لا،" أجابتني لورا، "كلا على الإطلاق. كان أمراً مقيتاً، لكن وجب عليّ فعله. فقد وجب عليّ التضحية بنفسي. وجب عليّ تحمل الألم والمعاناة والاحتفاظ بهما لنفسي. فهذا ما وعدت الرب بفعله. وعرفت أني إن نفذت وعدي، فسيُنقذ أليكس".

"بحق السماء عمّ تتحدثين؟" إيماني الجديد بسلامة عقل لورا أخذ يتداعى: فها قد عدنا إلى عالم الغيبيات المخبولة التي تؤمن بها". "تنقذين أليكس من ماذا؟"

"من إلقاء القبض عليه. لكانوا أطلقوا عليه الرصاص. فكالي فيتسيمونز كانت تعرف بمكان وجوده، وكشفته. كشفته لريتشارد".

"لا أصدق ذلك".

"كالي كانت واشية، هذا ما قاله ريتشارد – أخبرني أن كالي قد أبقته مطلعاً. أتذكرين حين أودعوها السجن، وريتشارد أخرجها منه؟ لهذا السبب فعلها. فقد كان مديناً لها بذلك".

وجدت تلك الأحداث مذهلة، ووحشية كذلك، بيد أني شعرت بوجود احتمالٍ

ضئيل، ضئيلٍ جداً، في صحتها. لكن إن كانت فعلاً صحيحة، فكالي ولا بد كانت كاذبة. فكيف كان لها أن تعرف بمكان أليكس؟ فقد تنقّل كثيراً.

لا بد وأنه أبقى على اتصاله بكالي. ربما فعل. فقد كانت من الناس الذين قد يثق بهم.

"نفّذت طرفي من الصفقة، وقد نجع الأمر. فالرب لا يخدع. لكن أليكس عاد وذهب للحرب. أعني بعد عودته من إسبانيا. هذا ما قالته كالي – هي أخبرتني".

لم أستطع استيعاب أي شيءٍ مما قالته. انتابني الدوار.

"لورا، لم قدمت إلى هنا؟"

"لأن الحرب انتهت،" أجابتني لورا بتؤدة، "وأليكس سيعود قريباً. إن لم أتواجد هنا فلن يعرف كيف سيجدني، لن يعرف بما جرى لي في بيلا فيستا، لن يدري بذهابي إلى هاليفاكس. العنوان الوحيد الذي يملكه عني هو عنوانك. بطريقةٍ ما سيتمكن من إيصال رسالته لي". كانت تتكلم بتلك النبرة الفولاذية الواثقة المغيظة للمؤمن الحقّ.

انتابتني رغبةٌ عارمة في هزها. أغلقت عينيَّ للحظة. وتراءت لي البركة في آفيليون، الحورية الحجرية تغطس أصابع قدمها؛ رأيت الشمس الحارة تسطع على الأوراق الخضراء المطاطية، في ذاك اليوم عقب جنازة أمي. كنت أشعر بالغثيان إثر تناول الكثير من الكعك والسكر. لورا كانت جالسة على الصخور الناتئة جانبي، تدندن لنفسها برضاً، مطمئنة إلى إيمانها بأن كل شيءٍ على ما يرام وأن الملائكة تقف في صفها، لأنها عقدت صفقةً سرية مخبولة مع الرب.

أصابعي كانت تشتعل غيظاً. أعرف ما فعلت بها تالياً. دفعت بها على الأرض.

أبلغ الآن الجزء الذي لا يزال يطاردني. كان ينبغي عليّ أن أمسك لساني، كان ينبغي عليّ أن أبقي فمي مغلقاً. من باب الحب، كان ينبغي عليّ أن أكذب عليها، أو أقول لها أي شيءٍ آخر: أي شيءٍ عدا الحقيقة. إياك وأن تقاطعي سائراً في منامه، كذا اعتادت ريناي أن تقول، فمن شأن الصدمة أن تقتله.

"لورا، يؤسفني أن أخبرك بأنَّ أياً كان ما فعلته، فلم ينقذ أليكس. أليكس قد مات. قتل في الحرب، قبل ستة أشهر. في هولندا".

هالة النور حولها تلاشت. ابيضت وبدت كما الشمعة حين تبرد من بعد إطفاء شعلتها.

"وكيف عرفت؟"

"تلقيت البرقية. أرسلوها إليّ. فقد دوّن اسمي في السجلات على أني قريبته". وحتى آنذاك كان بيدي تغيير مجرى الأمور؛ كان لي أن أقول لها مثلاً، أن التباساً ولا بد قد وقع، فقد قصدك أنت. بيد أني لم أقلها. بل قلت، "كان تصرفاً طائشاً منه. ما كان يجدر به فعل ذلك، بسبب ريتشارد. لكن لم يكن لديه من عائلة، وقد كنا عشيقين كما ترين – في السر، لزمنٍ طويل – فمن كان له في الدنيا غيري؟"

لورا لم تقل شيئاً. اكتفت فقط بالنظر إليّ. اخترقتني بنظرتها. الرب وحده يعلم ما رأت. سفينة غارقة، مدينة بأسرها تحترق، طعنة في الظهر. بيد أني عرفت تلك النظرة: هي ذاتها النظرة التي اعتلتها ذاك اليوم حين كادت تغرق في نهر لوفتو، لحظة كاد يجرفها التيار – مذعورة، باردة، منتشية. تلمع كما الفولاذ.

لحظة ونهضت عن كرسيها، مالت فوق الطاولة وتناولت محفظتي، بسرعة وخفة، وكأنها تحتوي غرضاً هشاً. ثم استدارت وغادرت المطعم. لم أفعل شيئاً لإيقافها. فقد صدمتني بتصرفها، وما إن نهضت بدوري عن الكرسي، لورا كانت قد اختفت. وقع بعض الارتباك فيما يتعلق بدفع الفاتورة – فلم أملك مالاً سوى الذي أحتفظ به في محفظتي، والذي أخذته شقيقتي – كما شرحت لهم – بالخطأ. وعدتهم بتسديد الحساب اليوم التالي. ومن بعد ما تدبرت أمر الحساب، تقريباً جريت نحو المكان حيث ركنت سيارتي، فوجدت سيارتي قد اختفت. مفاتيح السيارة كانت أيضاً في محفظتي. لم أكن على علمٍ حينها بأن لورا قد تعلمت القيادة.

قطعتُ عدة شوارع سيراً، أعمل على تلفيق القصص. ما كان بوسعي إخبار ريتشارد ووينيفريد بحقيقة ما حصل لسيارتي: لاستخدماها دليلاً إضافياً ضد لورا. عوضاً عن ذلك كنت سأقول لهما إنّ السيارة قد تعطلت وقطروها إلى

المرآب، ثمّ استدعوا لي سيارة أجرة، وبعد صعودي السيارة وقطعي طريقاً طويلاً فيها تذكرت بأني نسيت محفظتي في سيارتي سهوًا. لا شيء يدعو للقلق، سأقول لهما. ستحلّ كل الأمور في الصباح.

من ثم استقللْتُ فعلاً سيارة أجرة. السيدة مرغترويد ستكون متواجدة في المنزل وتفتح الباب لي، وستتولى هي الدفع لسيارة الأجرة نيابةً عني.

ريتشارد لم يكن في المنزل لتناول العشاء. كان في نادٍ ما، يتناول عشاءً كريهاً آخر، يلقي خطاباً حماسياً آخر. كان يعمل بكامل طاقته الآن، فقد غدا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه. ذاك الهدف – أدرك الآن – لم يكن تحقيق المال والسلطة وحسب. ما أراده حقاً هو نيل الاحترام – الاحترام، رغم كونه محدث نعمة. كم تاق إليه، كم تعطَّش إليه؛ فقد تمنى فرض احترامه على الجميع، لا بالمطرقة بل بالصولجان. رغباتٌ كتلك ليست في حدّ ذاتها برغباتٍ خسيسة.

ذاك النادي كان مخصصاً للرجال وحسب؛ وإلا لتواجدت معه هناك، أجلس في الخلف، مبتسمة، أصفق في الختام. في مناسبات كهذه اعتدت أن أمنح حاضنة آيمي إجازة لليلة وأتولى بنفسي ساعة نومها. أشرفت على استحمام آيمي، قرأت لها، ثم غطيتها في فراشها. في تلك الليلة تباطأت على غير عادتها في الخلود إلى النوم: لا بد وأنها قد استشعرت قلقي حول أمرٍ ما. جلست جانبها، أمسك بيدها وأمسد جبينها وأنظر من النافذة، إلى أن نعست.

إلى أين يا ترى ذهبت لورا، وأين كانت تقيم، وما الذي فعلته بسيارتي؟ كيف كان لي أن أتواصل معها، وما كان عساي قوله كي أصلح الأمور بيننا وأعيدها إلى نصابها؟

خنفساء يونيو أخذت ترفرف مضطربةً خارج النافذة اتجاه الضوء الذي يجذبها. اصطدمت بالزجاج بشكلٍ قبيح. بدا الصوت غاضباً، محبطاً، وكذلك بائساً.

المَهْوى

اليوم اصطدم عقلي فجأةً بجدار، الثلج انهار على كل ما فيه والرؤية انعدمت. لم يكن ما اختفى هو اسمُ شخصٍ ما – وعلى كلٍّ فهذا أمرٌ طبيعي – بل كلمة، كلمة قلبت نفسها بطناً على ظهر وأفرغت محتواها من المعنى مثل كوب قهوة ورقي حملته الريح بعيداً.

تلك الكلمة كانت المهوى. يا ترى لماذا تجلَّت لي؟ المهوى، المهوى، أخذتُ أرددها، وربما بصوتٍ عالٍ، لكن لا صورة بانت لي. أهي غرضٌ ما، أهي نشاط، أهي حالة عقلية، أهي عيبٌ جسدي؟

لا شيء. تشويشٌ كامل. ترنحتُ مرتجفةً على الحافة، أتشبث بالهواء. في النهاية استعنت بالقاموس. المهوى: منحدرٌ أمام حصن، أو جرفٌ شديد الانحدار.

في البدء كانت الكلمة، هذا ما آمنا به يوماً. هل كان الرب يعلم كم الكلمة مهلهلة؟ كم هي رقيقة وواهية، كم يسهل عرَضًا محوها؟

ربما هذا ما حدث للورا – ما دفعها حرفياً عن حافة الجرف. الكلمات التي اعتمدت عليها، بنت عليها بيتها من الورق، مؤمنةً بأنها صلبة، ثم انقلبت وأظهرت لها فراغها الأجوف، وانتثرت بعيداً عنها كما أوراق المهملات.

الرب. الثقة. التضحية. العدالة.

الإيمان. الأمل. الحب.

دون أن ننسى طبعاً الأخت. أجل. فدائماً ما سنجدها هناك.

الصباح التالي للقائي بلورا في حلويات ديانا قضيته أحوم حول الهاتف. الساعات مضت: ولا كلمة. كان لي موعد غداءٍ في البلاط الأركادي مع وينيفريد واثنتين من عضوات لجنتها. كان من الأفضل دائماً الحفاظ على مواعيدي مع وينيفريد – وإلا سينتابها الفضول، لذا ذهبت.

أبلغتنا وينيفريد بمغامرتها الأخيرة، حفل كباريه لصالح إعانة المحاربين الجرحى. كان الحفل سيتضمن غناءً ورقصاً وبعض الفتيات سيؤدين وَصْلة كان-كان، لذا كان علينا جميعاً أن نشمر عن أذرعتنا ونساهم، في بيع التذاكر. هل كانت ستشارك وينيفريد بنفسها في وصلة الرقص قافزةً في تنورةٍ تحتية نسائية وجوارب سوداء حريرية؟ أملت فعلاً ألا تفعل. ففي ذاك الوقت كانت قد قطعت الحد الفاصل بين الهيفاء والضامرة الهزيلة.

"تبدين شاحبة بعض الشيء، آيريس،" قالت لي وينيفريد، رأسها تميل إلى جانب.

"حقاً؟" أجبتها بلطف. فقد أخذت تكرر عليّ مؤخراً أني لم أبد بكامل حيويتي. ما كانت تعنيه أني لم أكن أفعل كل ما بوسعي في دعم ريتشارد، أو دفعه قدماً في درب تحقيقه للمجد.

"نعم، تبدين باهتة. هل يرهقك ريتشارد؟ يا للطاقة التي يمتلكها هذا الرجل!" كانت في مزاجٍ عال. فخططها – خططها لريتشارد – لا بد وقد كانت تسير على ما يرام، رغم إهمالي.

لكن لم يسعني إبداء الاهتمام بها؛ فقد كنت قلقة جداً على لورا. فما الذي كنت سأفعله في حال لم تظهر قريباً؟ ما كان بيدي طبعاً الإبلاغ عن سرقة سيارتي: فلم أرد أن يلقى القبض عليها. ولا كان ريتشارد ليريد ذلك أيضاً. فلم يكن من مصلحة أحد.

عدت إلى البيت، لأجد السيدة مرغترويد تبلغني بأن لورا قد حضرت في غيابي. لم تقرع الجرس – بل صادفتها السيدة مرغترويد عرضاً في الرواق الأمامي. رؤية لورا لحماً ودماً بعد كل تلك الأعوام قد صدمتها بقوة، وكأنها رأت شبحاً. لا، لم تترك أي عنوان. بيد أنها قالت شيئاً. أبلغي آيريس أني سأكلمها لاحقاً. شيئاً من هذا

القبيل. كانت قد تركت مفاتيح البيت على صينية الرسائل؛ قالت إنها قد أخذتها بالخطأ. من الغريب أن يؤخذ مفتاحٌ بالخطأ، قالت السيدة مرغترويد، والتي التقط أنفُها -أنفَ البلدغ- رائحةً مريبة. ما عادت تصدّق قصّتي عن المرآب.
غمرني الارتياح: رغم ما جرى، فقد تنتهي الأمور إلى خير. فلورا كانت لا تزال في المدينة، وكانت ستكلمني لاحقاً.
وقد كلمتني، فعلاً، بيد أنها تميل إلى تكرار نفسها، كما هي عادة الأموات. يخبرونك بكل ما سبق وقالوه لك في حياتهم؛ نادراً ما يفصحون لك عن أمرٍ جديد.

كنت أبدل ملابسي من بعد موعد الغداء لدى وصول الشرطي، حاملاً معه خبر الحادث. لورا كانت قد اخترقت حاجز الخطر، هوت عن جسر سانت كلير آفينيوز نحو الوهد العميق. كان حادثاً مروعاً، قال لي هازًّا رأسه بحزن. كانت تقود سيارتي: وقد تتبعوا رقم اللوحة. في البداية ظنوا – بطبيعة الحال – أن المرأة المحترقة التي عثر عليها في الحطام هي أنا.
لو حدث لكان ذاك عنواناً رئيسيًّا.

من بعد مغادرة الشرطي حاولت التوقف عن الارتعاش. احتجت إلى التزام الهدوء، إلى لملمة نفسي واستعادة رباطة جأشي. عليك أن تواجهي الموسيقى، كذا اعتادت ريناي أن تقول، لكن أي نوعٍ من الموسيقى كانت تتصورها؟ ليس بالموسيقى الراقصة. بل فرقة آلات نحاسية صاخبة، مسيرة من نوعٍ ما، مع حشود من الناس مصطفة على الجانبين، تؤشر وتسخر. الجلاد يقف منتظراً في نهاية الطريق، على أحر من الجمر.
بالتأكيد كنت سأواجه تحقيقاً من ريتشارد. قصتي عن السيارة والمرآب كانت لا تزال قابلة للتصديق إن أضفت إليها مسألة التقائي بلورا على كوب شاي في ذاك اليوم، وأني لم أخبره لأني لم أرد إزعاجه بأمرٍ لا طائل منه قبل إلقائه خطابه المهم. (كل خطاباته باتت مهمة الآن، فقد كان يقترب شيئاً فشيئاً من الرئاسة).

كنت سأقول له إن لورا كانت برفقتي في السيارة لدى تعطلها، وقد رافقتني إلى المرآب. حين تركت محفظتي في السيارة، لا بد وأنها أخذتها لي، وقد كان تصرفاً طائشاً منها استعادة السيارة من المرآب وتزوير توقيعي على الشيك الذي دفعت به أجرة التصليح من دفتر الشيكات الخاص بي. وكنت سأمزق شيكاً من الدفتر كي أدعم قصتي. وفي حال ضغط عليّ كي أعطيه اسم المرآب، كنت سأخبره بأني نسيت. وإن ضغط عليّ أكثر، كنت سأنهار باكية. فكيف كان له أن يتوقع مني تذكر تفصيلٍ تافه كهذا في هذا الوقت العصيب؟

صعدت إلى الأعلى كي أبدل ملابسي. كي أزور المشرحة كنت سأحتاج إلى قفازين، وقبعة بخمار. فقد يتواجد صحفيون هناك. كنت سأقود إلى هناك، ثم تذكرت أن سيارتي قد غدت حطامًا. كان عليّ أن أتصل بسيارة أجرة.

كذلك كان يجدر بي أن أحذر ريتشارد، في مكتبه: فما إن يصل الخبر فذباب الجثث ستحاصره وتمطره بالأسئلة. فقد كان شخصيةً وجيهة، لذا ما كان الخبر ليمر مرور الكرام. كان سيحرص أن يكون مستعداً ببيان عزاء.

أجريت المكالمة. السكرتيرة اليافعة التي عينها ريتشارد مؤخراً هي من أجابتني. أخبرتها بأن الأمر طارئ، لا، لن أتركه لديها كي تنقله. عليّ أن أحادث ريتشارد شخصياً.

برهة وأجاب ريتشارد. "ما الخطب؟" لم يحبذ أبداً الاتصال به في المكتب.

"لقد وقع حادثٌ رهيب. الحادث يتعلق بلورا، فقد هوت بالسيارة عن جسر".

لم يقل شيئاً.

"كانت سيارتي".

لم يقل شيئاً.

"أخشى أنها ماتت".

"يا إلهي". تريث ثم قال، "وأين كانت طوال تلك المدة؟ ولماذا عادت؟ وما الذي كانت تفعله بسيارتك؟"

"ظننتك سترغب في معرفة الأمر حالاً، قبل أن يصل الخبر إلى الصحف".

"أجل، كان تصرفاً حكيماً منك".

"الآن عليّ الذهاب إلى المشرحة".
"المشرحة؟ مشرحة المدينة؟ ولماذا بحق السماء؟"
"أودعوها هناك".
"حسنٌ، أخرجيها من هناك، خذيها إلى مكانٍ ملائم، مكانٍ أكثر.."
"خصوصية. نعم سأفعل ذلك. عليّ أن أخبرك بأن هناك تلميحاً بأن – فقد أتاني أحد أفراد الشرطة – وقد ألمح إلى أن..."
"إلى ماذا؟ وما الذي أخبرتهم به؟" بدا مذعوراً.
"أنها فعلتها عن عمد".
"هراء. لا بد وأنه قد كان حادثاً. آمل أنك أخبرتهم بذلك".
"بالطبع. لكن هناك شهود، وقد رأوها..."
"هل تركت وراءها رسالة؟ إن تركت فاحرقيها".
"اثنان من الشهود، محامٍ وموظف مصرفي. كانت ترتدي قفازين أبيضين. رأياها تدير المقود".
"خدعة بصرية، إما هذا أو كانا ثملين. سأتصل بالمحامي. سأتولى الأمر".
وضعت سماعة الهاتف. ذهبت إلى غرفة تبديل الملابس: سأحتاج إلى ثوبٍ أسود، وكذلك إلى منديل. عليّ إبلاغ آيمي. سأخبرها بأن الجسر هو السبب. سأخبرها بأن الجسر قد تحطم.
فتحت الجارور حيث أحتفظ بجواربي الحريرية، وهناك عثرت على دفاتر التمارين – خمسةً منها، دفاتر التمارين المدرسية الرخيصة من أيام السيد إرسكن، مربوطةً ببعضها بخيط طهي. اسم لورا كان مكتوباً أعلى أغلفتها، بالرصاص – بخط يدها الطفولي. ومن أسفله: الرياضيات. كم كرهت لورا الرياضيات.
قلت في نفسي، دفاتر الحصص. لا: كانت دفاتر حل الواجبات. ولم عساها تركتها لي؟

كان بإمكاني التوقف آنذاك. كان بإمكاني اختيار الجهل، لكني فعلت ما كنت

ستفعلينه أنت – ما فعلته أصلاً – إن واصلت القراءة حتى هذه الصفحة.
اخترتُ المعرفة.

معظمنا سيأخذ هذا الخيار. سنختار المعرفة مهما كان الثمن، وسنجدع أنفسنا في المقابل، سنقحم أيدينا في اللهب إن تطلب الأمر. والفضول لن يكون بدافعنا الوحيد: الحب، الفاجعة، اليأس أو الكراهية هي ما ستدفع بنا. سنتجسس دون كلل ولا ملل على الأموات: سنفتح رسائلهم، سنقرأ مذكراتهم، سنتفحص مهملاتهم، آملين العثور على دليلٍ ما، كلمة أخيرة، تفسير، من هؤلاء الذين هجرونا – من تركونا وراءهم حاملين الحقيبة، بيد أن الحقيبة بالكاد تحوي شيئاً ذا أهمية كما ظننا.

لكن ماذا عن أولئك الذين يتركون وراءهم أدلة، من أجلنا كي نتعثَّر بها؟ لم عساهم يكترثون؟ هل من باب الأنا؟ الشفقة؟ الانتقام؟ أم هي مطالبة بترسيخ وجودهم، مثل خربشة حروف اسمك الأولى على جدار حمام. ذاك المزيج من الحضور والغياب – اعترافٌ دون تكفير، حقيقةٌ دون عواقب – أعترف أن لها جاذبيتها. أن تغسلي الدم عن يديك، بطريقةٍ أو بأخرى.

أولئك من يخلفون الأدلة وراءهم لا حق لهم في الشكوى إن جاء الغرباء من بعدهم ودسّوا أنوفهم في كل تفصيلٍ كان يوماً شخصيًّا وليس من شأنهم. ليس الغرباء وحسب: العشاق، الأصدقاء، المعارف. فكلنا متلصصون، جميعنا. لماذا نفترض أن أي حدثٍ قد وقع في الماضي هو مشاعٌ يحق لنا اغتنامه، فقط لأننا نحن من عثر عليه؟ كلنا ناهبو قبور، ما إن نفتح الباب الذي أوصده الآخرون بالقفل والمزلاج.
بيد أن الباب وحسب هو الموصد. أما الغرفة وما تحويه فلم تمس، تُرِكت محفوظةً على ما هي عليه. لو شاء صاحبها حقاً أن يهويَ في النسيان، لكان أحرقها بيديه.

XIV

خصلة الشعر الذهبية

عليّ أن أتعجَّل الآن. أرى النهاية تلوح أمام ناظريّ، وكأنها نزلٌ رخيص على جانب الطريق، في ليلةٍ مظلمة، في ليلةٍ ماطرة. نزل الفرصة–الأخيرة من طراز ما بعد الحرب، حيث لا أسئلة تسأل ولا اسم حقيقي مدون على سجل الاستقبال في المكتب الأمامي، حيث الدفع نقداً ومسبقاً. أنوار إضاءة شجرة كريسماس قديمة معلقة في أرجاء المكتب؛ ومن خلفه أجمةٌ من الغرف المظلمة، رائحة العفن تفوح من وسائدها. مضخة الوقود خارجاً أمام النزل، رأسها دائري مسطح كما وجه القمر. بيد أن لا وقود فيها، فقد نفد منها منذ عقود عديدة. فها هنا محطتك الأخيرة.

النهاية، ملاذٌ آمنٌ دافئ. مرقد الراحة. بيد أني لم أبلغها بعد، وأنا امرأةٌ عجوز ومرهقة، أسير على قدميّ، أعرج. ضائعة في الغابات، ولا حجارة بيضاء تدلني على الطريق، والأرض التي أقطعها غادرة.

أيتها الذئاب، أناشدك! أيتها النسوة الأموات ذوات الشعر اللازوردي، يا مَنْ أعينكن حفرٌ ملأى بالأفاعي، أستدعيكن! قفن إلى جانبي الآن، بينما ندنو من نهايتنا! أرشدن أصابعي المرتجفة بمفاصلها الملتهبة، أمسكن بقلمي الحبر الجاف البالي؛ ابقين على سفينة قلبي الغارقة طافية على الماء لأيام قليلة، إلى أن أضع الأمور كلها في نصابها. كن رفيقات دربي، كن صديقاتي ويد العون لي؛ مرةً أخرى، أقول لكن، أفلم نكن رفيقات في الماضي؟

كل شيءٍ وله مكانه، كذا اعتادت ريناي أن تقول؛ أو في سياقٍ نتن، كما قالتها

للسيدة هيلكوت، لا أزهار دون غائط. والسيد إرسكن قد علمني بضع حيل مفيدة، فاستدعاء بلاغي متقن لأرواح النسوة المنتقمات قد يأتي بنفع، متى ما تطلبت الحاجة. متى ما كانت الحاجة هي في الأساس مسألة انتقام.

في بادئ الأمر آمنت حقاً أني أسعى إلى العدالة وحسب. ظننت أن قلبي كان نقياً. إذ يحلو لنا النظر بإيجابية إلى دوافعنا متى ما كنا على وشك التسبب بالأذى، لشخصٍ آخر. بيد أن السيد إرسكن قد أشار إلى أن الإله إيروس بقوسه وسهامه ليس بالإله الوحيد الأعمى. فإلهة العدالة عمياء هي الأخرى. آلهةٌ خرقاء مع أسلحة مشحوذة: إلهة العدالة تحمل سيفاً، الرباط يغطي عينيها، تلك وصفةٌ ممتازة لجرح نفسها.

بالطبع ستودّين معرفة ما حوته دفاتر لورا. ها هي موجودة كما تركتها هي بنفسها، مربوطة بذات حبل الطهي المدوَّد، محفوظةً لك في صندوق أمتعة السفر مع كل شيءٍ آخر. لم أبدل فيها أي شيء. لك أن تري بنفسك. الصفحات الممزقة لم تمزق على يديّ.

ما الذي توقعته، في ذاك اليوم المروع من مايو 1945؟ اعترافات، توبيخ، عتاب؟ أو مذكّرات، مدوّنٌ فيها تفاصيل اللقاءات الغرامية بين لورا وأليكس توماس؟ لا ريب، لا ريب. كنت قد هيأت نفسي لتلقّي طعنة في القلب. وقد حدث، لكن ليس بالطريقة التي تخيلتها.

قطعت الخيط، هوّيت الدفاتر. كان هناك خمسة منها: الرياضيات، الجغرافيا، الفرنسية، التاريخ، واللاتينية. كتب المعرفة الخمسة.

تكتب كما الملاك، هذا ما قيل عن لورا على الغلاف الخلفي لطبعةٍ ما من طبعات السفّاح الأعمى. طبعة أمريكية، على ما أذكر، مع زخرفة ذهبية ملولبة على الغلاف: كم يؤمنون بالملائكة في تلك الأرجاء. بيد أن في واقع الأمر، الملائكة لا تكتب كثيراً. هي تدوّن الخطايا وأسماء الطالحين والصالحين، أو تتجلى على هيئة أيادٍ مبتورة تخربش التحذيرات على الجدران. أو تسلم الرسائل، القليل منها وحسب بالخبر الجيد: فليكن الرب معك ليست دوماً بالنعمة الإلهية.

مع وضع كل ما أسلفت في الاعتبار، أجل: لورا كتبت كما الملاك. أي ليس بالكثير، تطرقت مباشرةً لصلب الموضوع.

اللاتينية كان الدفتر الذي فتحته أولاً. معظم الصفحات المتبقية فيه كانت خالية؛ وأطراف مثلمة لصفحات ولا بد كانت لتمارين مدرسية قديمة مزقتها لورا. بيد أنها تركت فقرة واحدة وحسب، ترجمة كانت قد دونتها - بمساعدتي، وكذلك بمساعدة المكتبة في آفيليون - للأسطر الختامية من الكتاب الرابع من الإنيادة لفيرجيل. ديدو كانت قد طعنت نفسها على المحرقة أو المذبح الذي صنعته من كل الأغراض التي تعود إلى حبيبها المختفي، إنياس، والذي أبحر بعيداً كي يحقق قدره بالمشاركة في الحرب. ورغم نزيفها الحاد كما الخنزير المطعون في حنجرته، فقد شقَّ على ديدو الموت، فأخذت تذوي وتذوي دون خلاص. كما أذكر، فالسيد إرسكن قد تلذذ برواية ذاك الجزء.
أذكر اليوم الذي دونت فيه لورا تلك الفقرة. نور الشمس الآفلة كانت تنساب من نافذة غرفة نومي. لورا كانت مستلقية على الأرض، ترفس بقدميها في الهواء، تجدُّ في نسخ خربشتنا التي تشاركنا كتابتها إلى دفترها. كانت تنبعث منها رائحة صابون العاج، ونجارة بري أقلام الرصاص.

> ثمّ شعرَ الجبار جونو بالأسف على عذابها الطويل ورحلتها القاسية، وبعث آيريس من أولمبيا كي تفصل الروح المعذبة عن الجسد الذي ما زال متشبثاً بها. كان أمراً لا بد منه، إذ إن ديدو لم تكن تموت ميتةً طبيعية أو على يد أحدٍ آخر، بل في يأس، مدفوعة إليه في لحظة جنون. على أي حال بروسيربابن لم يكن قد قطع خصلة الشعر الذهبية عن رأسها ولا بعث بها إلى العالم السفلي.
> وهبطت إذ ذاك آيريس، سديمية، أجنحتها صفراء كما

الزعفران، ذيلٌ من ألف قوس قزح لامعة الألوان تقتفي أثرها
في ضوء الشمس، فتحوم حول ديدو قائلةً:
كما أُمِرتُ أن أفعل، سآخذ تلك الخصلة المقدسة التي تعود
إلى إله الموت؛ وبدَاً أحررك من جسدك.
وإذ بالدفء ينقطع فجأةً، وحياتها تتلاشى إلى ذرات في
الهواء.

"لمَ وجبَ عليها قصّ خصلةٍ من شعرها؟ آيريس تلك،" سألتني لورا.

لم أكن أملك أي فكرة. "كان أمراً عليها فعله وحسب، كما تقديم القربان". كنت سعيدة لاكتشافي أن شخصيةً ما في قصة تحمل اسمي، وأن اسمي لم يأت فقط تيمّناً بزهرة، كما ظننت دوماً. فعائلة أمي اعتمدت كثيراً على اختيار أسماء الزهور لبناتها.

"قد ساعد ديدو على مغادرة جسدها، فما عادت تريد أن تعيش. قد وضعت حدًّا لعذابها، لذا تصرفها كان بالتصرف الصحيح، أليس كذلك؟" سألتني لورا.

"أظن". فلم أُبدِ أيّ اهتمام بتلك الدلالات الأخلاقية. فدوماً ما تقع أمور غريبة في القصائد. لذا لم أجد فائدة ترجى من محاولة فهمها. بيد أني تساءلت إن كانت ديدو شقراء؛ فقد بدت لي أقرب إلى امرأةٍ سمراء طوال قراءتي لقصتها.

"ومن هو إله الموت؟ ولماذا يريد خصلةً من شعرها؟"

"كفى حديثاً عن شَعرها. ها قد أنجزنا واجب اللاتينية. فلننتهِ الآن من الفرنسية. فقد أعطانا السيد إرسكن واجبات كثيرة كما هي عادته. الآن فلنترجم التالي: *"Il ne faut pas toucher aux idoles: la dorure en reste aux mains"*

"حسنٌ، ماذا عن: إيّاك أن تعبث مع الأوثان، وإلا ستتلطخ يداك بالطلاء الذهبي؟"

"لكن لا ذكر في الجملة عن الطلاء".

"لكن هذا ما تعنيه".

"أنت تعرفين السيد إرسكن. لا يكترث للمعنى الضمني".

"كم أكره السيد إرسكن. أتمنى أن تعود الآنسة فيولينس إلينا".

"وكذلك أنا. أتمنى لو أمّنا تعود إلينا".

"وكذلك أنا".

السيد إرسكن لم ير في ترجمة لورا اللاتينية أي قيمة. كان قد شرط بقلمه الأحمر الصفحة بأكملها.

وكيف لي أن أصف لك الآن يمَّ الفاجعة الذي هويتُ فيه؟ لا قدرة لي على الوصف، لذا لن أحاول.

قلّبتُ صفحات الدفاتر الأخرى. التاريخ كان فارغاً، ما عدا من الصورة الفوتوغرافية التي ألصقتها لورا فيه – صورتها هي وأليكس توماس في نزهة مصنع الأزرار، كلاهما غدا مظلّلاً باللون الأصفر الفاتح، مع يدي المبتورة الزرقاء تزحف اتجاههما على المرج. الجغرافيا لم تتضمن شيئاً سوى وصفٍ قصير عن بورت تيكونديروغا الذي كان واجباً أعطاه إلينا السيد إرسكن. "تلك البلدة متوسطة الحجم تقع في تقاطع نهرَي لوفتو وجوغز، إنها مشهورة بحجارتها وأمور أخرى،" تلك كانت الجملة الاستهلالية التي كتبتها لورا. دفتر الفرنسية كان قد مُزِّق عنه كل تمارين الفرنسية. عوضاً عنها، تضمن الدفتر قوائم الكلمات الغريبة التي تركها أليكس توماس خلفه في عليّتنا، والتي – بتّ أعرف – أن لورا لم تحرقها. آنكورين، بيريل، كاركنيل، ديامايت، إيبونورت ... هي فعلاً لغةٌ أجنبية، بيد أنها لغةٌ تعلّمت استيعابها، أكثر مما استوعبت الفرنسية.

دفتر الرياضيات تضمن أعمدة طويلة من الأرقام، مع كلمات مقابل بعضها. استغرقني الأمر عدة دقائق كي أعي ما كانت عليه تلك الأرقام. كانت تواريخ. أوّل تاريخٍ صادف يوم قدومي من أوروبا، والأخير عاد إلى ثلاثة أشهر قبل مغادرة لورا إلى بيلا فيستا. وتلك كانت الكلمات:

آفيليون، لا. لا. لا. سَني سايد. لا. زانادو، لا. لا. الملكة ماري، لا، لا. نيويورك، لا.

آفيليون. ليس في البدء.

حورية الماء، X. "مسلوب العقل".

تورنتو مرّةً أخرى. X.

X.X.X.X

O.

تلك كانت الحكاية بأكملها. كل شيءٍ انكشف. أحداثها كانت تدور أمام عينيّ. كيف لي أن كنت عمياء إلى هذا الحد؟

إذاً لم يكن بأليكس توماس. أبداً لم يكن بأليكس. ففي حياة لورا، أليكس انتمى إلى بُعدٍ آخر في الفضاء.

يومٌ لك ويومٌ عليك

بعد اطلاعي على دفاتر لورا، أعدتها مرةً أخرى إلى جارور جواربي الحريرية. كل شيءٍ كان قد انكشف وبان، لكن لا دليل ملموس على وقوعه. هذا كان واقع الأمر.
بيد أن هناك أكثر من طريقة لسلخ القطة، كذا اعتادت ريناي أن تقول. إن عجزت عن سلوك الطريق المستقيم، اسلك الطريق الملتف.
انتظرت إلى ما بعد الجنازة، ثمّ انتظرت أسبوعاً. لم أرد أن أتهوّر. السلامة خيرٌ من الندامة، اعتادت ريناي أن تقول. مثَلٌ يثير التساؤل: فغالباً ما ينتهي بك الحال بالإثنين.
ريتشارد كان قد غادر في رحلةٍ إلى أوتاوا، رحلةٍ مهمّة إلى أوتاوا. رجالٌ من أصحاب النفوذ مِن عِلّيّة القوم قد يعرضون عليه مبتغاه، هذا ما ألمح إليه؛ وإن لا، ففي القريب العاجل. قلت له، وكذلك لوينيفريد، إني سأنتهز الفرصة للذهاب إلى بورت تيكونديروغا مصطحبةً معي رماد لورا المحفوظ في العلبة الفضية، وإنَّ عليّ نثر الرماد والإشراف على نقش اسمها على مكعب نصب عائلة تشايس. الاثنان وجداه أمراً ملائماً.
"لا تلومي نفسك،" قالت لي وينيفريد آملةً أن أفعل تماماً ذلك – فإن لمت نفسي بما فيه الكفاية، فلن يتسنى لي أن ألوم أحداً آخر. "هناك أمور لا طائل من الاستغراق فيها". ومع ذلك نفعل، رغماً عنّا.
لدى مغادرة ريتشارد في رحلاته، اعتدت منح الخدم إجازة لليلة، قائلةً "سأحكم زمام الأمور هنا". كنت قد فعلت ذلك أكثر من مرة مؤخراً – فقد أحببت البقاء في

البيت وحدي، برفقة آيمي، متى ما خلدت للنوم – لذا حتى السيدة مرغترويد لم يساورها الشك. ما إن غدا البر آمناً، تصرفت بسرعة. كنت قد اتخذت خطوات استباقية، الحزم السري للحقائب – صندوق مجوهراتي، صوري، النباتات المعمرة للحديقة الصخرية – والآن انكببت على حزم ما تبقى. ملابسي، بالتأكيد ليس بجميعها، وأغراض أخرى لآيمي، والتي بالتأكيد لم تكن بجميعها. وضبت ما استطعت في صندوق أمتعة السفر، ذاته الذي حمل يوماً جهاز عرسي، وفي حقيبة السفر المطابقة. الرجال من محطة القطار قدموا لاستلام الأمتعة كما خططت.

وهكذا، في اليوم التالي، كان من السهل عليّ المغادرة إلى محطة يونيون برفقة آيمي في سيارة الأجرة، كل واحدةٍ منا تحمل حقيبة سفر صغيرة تكفي لقضاء ليلة، ولا أحد اشتبه بالأمر.

كنت قد تركت رسالة إلى ريتشارد. قلت فيها إنَّه في ضوء ما ارتكب – ما بتّ أعرف الآن أنه قد ارتكبه – فلا أريد رؤية وجهه مرةً أخرى. ومراعاةً لطموحه السياسي فلن أطلب الطلاق، رغم أني أملك دليلاً دامغاً على تصرفاته الخسيسة مدوّنة في دفاتر لورا، والتي – قلت كاذبةً – أحتفظ بها في صندوق إيداع لدى البنك، وفي حال خطرت له أيّ رغبة في وضع يديه القذرتين على آيمي، فعليه أن يتخلى عنها، لأني حينها سأخلق فضيحةً كبرى، وسأخلقها كذلك في حال لم يلبِّ طلباتي المالية. لم تكن بالطلبات الكبيرة: كل ما أردته هو مبلغ كافٍ لشراء بيتٍ صغير في بورت تيكونديروغا، وما يلبي متطلبات الاعتناء بآيمي. أما متطلباتي الشخصية فسألبيها بطرق أخرى.

ذيلت الرسالة بأصدق التحيات، ثمّ لعقت لسان الظرف متسائلةً إن كنت قد تهجأت خسيسة بطريقةٍ صحيحة.

قبل أيام من مغادرتي تورنتو، ذهبت للالتقاء بكاليستا فيتزسيمونز. كانت قد تخلت عن النحت، وأصبحت رسامة جداريات. وجدتها في شركة تأمين – المقر الرئيسي – حيث نالت تفويضاً. الثيمة كانت مساهمة المرأة في جهود الحرب – ثيمة عتيقة، مع وضع الحرب أوزارها (ومع أن كلتينا لم تدرك ذلك حينها، فسرعان ما كانوا

سيطلون على جداريتها بالطلاء المطمئن المهدئ بلون التّوبيه).

كانوا قد منحوها عرض جدار. ثلاث نساء من عاملات المصانع، في أرديتهن السروالية وابتساماتهن الشجاعة، ينتجن القنابل؛ فتاةٌ تقود سيارة إسعاف؛ مزارعتان مع مجرفتيهما وسلة طماطم؛ امرأة في زيٍّ رسمي، تطبع على الآلة الكاتبة بتمكُّن؛ وفي الزاوية، مدفوعة بعيداً عن البقية، أمٌّ في مئزرها تحمل رغيف خبزٍ من الفرن، مع طفلين ينظران برضا إليها.

كالي تفاجأت برؤيتي. إذ لم أنبهّا إلى قدومي: فلم تكن لي أي رغبة في منحها الفرصة لتفادي لقائي. كانت تشرف على عمال الطلاء، شعرها مرفوعٌ في باندانا، ترتدي بنطالاً فضفاضاً بلون الكاكي وحذاء تنس، وتذرع المكان بخطىً واسعة، يداها في جيبيها وسيجارة ملتصقة بشفتها السفلى.

كانت قد سمعت بوفاة لورا، قرأت الخبر في الصحف – كم كانت فتاةً لطيفة، غريبة الأطوار منذ طفولتها، ولمن المؤسف جداً فقدانها. وبعد كل تلك التمهيدات، شرحت لها ما قالته لورا لي، وسألتها عن صحته.

كالي كانت ساخطة. تلفظت هراء لعين مراتٍ عدة. فعلاً، ريتشارد كان قد قدَّم يد العون لها لدى إلقاء الفرقة الحمراء القبض عليها بتهمة التحريض، بيد أنها اعتقدت أن صنيعه هذا جاء من باب احترامه للأيام الخوالي مع العائلة. أنكرت تماماً إخبارها ريتشارد بأي شيء، عن أليكس أو أي قرنفلي أو رفيقٍ آخر. يا له من هراءٍ لعين! أولئك كانوا أصدقاءها! أما بخصوص أليكس، فأجل، هي ساعدته في البداية، لدى وقوعه في تلك الورطة الكبيرة، بيد أنه اختفى، وفي واقع الأمر كان مديناً لها بالمال، ثم سمعت بذهابه إلى إسبانيا. فكيف كان لها أن تشي بعنوان إقامته إن لم تكن هي نفسها على علمٍ به؟

لم أكسب شيئاً. ربما ريتشارد كذب بهذا الشأن على لورا، كما كذب عليّ في أمور عدة. ومن جهة أخرى، ربما كالي هي من كانت تكذب. لكن حقاً، ما الذي توقعت منها قوله؟

آيمي لم يعجبها الوضع في بورت تيكونديروغا. أرادت والدها، أرادت الحياة المألوفة لديها، كما هي حال كل الأطفال. تمنت العودة إلى غرفة نومها. أوه، ألا نتمنى كلنا ذلك؟

شرحت لها أن علينا البقاء لفترةٍ وجيزة. لا يجدر بي قول شرحت، لأن لا شرح قدمته لها. فما كان عساي أن أقول بحيث يبدو منطقياً لطفلة في الثامنة من عمرها؟

بورت تيكونديروغا غدت مختلفة؛ فالحرب كان لها أثرٌ بالغ عليها. عدة مصانع أعيد فتحها، إبان المعارك – النساء في أرديتهن السروالية أمسكن بالصمامات الكهربائية – لكن تلك المصانع عادت وأقفلت. ربما كانت ستتحول إلى إنتاج بضائع وقت السلام، متى ما قرر الرجال العائدون ما هي البضائع التي يحتاجون إليها، لأجل البيوت والأسر التي باتوا ينوون دون شك تأسيسها. في غضون ذلك كانت البطالة منتشرة، الكل وقف منتظراً.

كانت هناك شواغر. إلوود موراي ما عاد يدير الصحيفة: إذ سرعان ما كان سيغدو اسمًا لامعًا جديدًا على النصب التذكاري، فقد انضم إلى البحرية وتسبب بموته يوم انفجرت فيه قذيفة. من المثير للاهتمام ملاحظة مَن مِن رجال البلدة يصفون موته بأنه قُتل، ومن يصفون موته بأنه قد تسبب بالموت لنفسه وكأن ذاك الرجل مات على يد تصرفٍ أخرق ارتكبه أو حتى تصرفٍ صغير متعمد – شراءٌ في غير محله، أو قصة شعر سيئة. جلب البلاء على نفسه كان المصطلح المحلي المستخدم آنذاك، كقاعدة بين الرجال. بيد أن عليك أن تتساءلي من ظنوه حقاً باعث البلاء.

رون هيكنز، زوج ريناي، لم يكن مصنفاً ضمن الرجال الذين جلبوا عرَضاً البلاء على أنفسهم. قيل عنه وبكل وقار إنه قتل في صقلية، مع ثلة رجالٍ آخرين من بورت تيكونديروغا ممن انضموا إلى الكتيبة الملكية الكندية. ريناي كانت قد حصلت على المعاش الحكومي، بيد أنه لم يكن بالكافي، فأجرت غرفةً في بيتها الصغير؛ وكذلك أبقت على عملها في مَغدى بِتي، رغم قولها أنَّ ألم ظهرها كان يقتلها.

لكن لم يكن ظهرها ما قتلها، كما كنت سأكتشف قريباً. بل كانت كليتاها، وقد قضيا عليها بعد ستة أشهر من عودتي. إن كنت تقرئين هذا ميرا، فأريدك أن تعرفي

كم كانت وفاة أمك ضربةً قاصمة لي، فقد كنت أعتمد على وجودها مرةً أخرى في حياتي – أفلم تكن دائماً هناك؟ – والآن، فجأةً، ما عادت. ثم عادت وبقوة، فصوت من أسمع كلما أردت تعليقاً؟

بالطبع ذهبت إلى آفيليون. كانت زيارةً شاقة. الملكية كانت مهجورة، الحدائق مهملة؛ الدفيئة محطمة، ألواح الزجاج مكسورة والنباتات جافة، لا تزال بعد في أصائصها الفخارية. حسنٌ، تلك كانت حالها حتى لدى وجودنا. تمثالا أبي الهول الحارسين غطّتهما العديد من الكتابات من فئة جون يحب ماري؛ أحدهما كان مقلوباً. بركة الزنابق حيث الحورية الحجرية كانت مختنقة بالعشب الميت والحشائش. الحورية نفسها كانت لا تزال صامدة، بيد أنها فقدت عدة أصابع. كانت لا تزال محافظةً على ابتسامتها: نائية، سرية، ولا مبالية.
لم يكن من حاجة إلى دخولي البيت عنوةً: فريناي كانت لا تزال حية آنذاك، ولا تزال تحتفظ بمفتاحها السري. البيت كان في حالٍ يرثى لها: الغبار وغائط الفئران قد عمّا المكان، أرضية الباركيه التي كانت جديدة قد تلطخت نتيجة تسريبٍ ما. تريستان وإيزوليت كانا لا يزالان يشرفان على حجرة الطعام الشاغرة، بيد أن قيثار إيزوليت كان قد تعرض للأذى، وطائر سنونو أو اثنان قررا بناء أعشاشهما على النافذة الوسطى. لكن البيت لم يتعرض لأعمال تخريب: فريح اسم عائلة تشايس كانت لا تزال تهب حول البيت، رغم بهتانها، ولا بد أن هالة المال والسطوة كانت لا تزال عالقة في الأجواء.
تجولت في كافة أرجاء البيت. رائحة العفن كانت طاغية. تفحصت المكتبة حيث رأس ميدوزا كانت لا تزال تقف حامية أعلى الموقد. جدتي آدليا أيضاً كانت لا تزال في محلها، بيد أنها قد بدأت تفقد وهجها: وجهها باتت تكتسيه ملامح ماكرة مبتهجة ومكبوتة. قلت لها في نفسي، أراهن أنك عبثت بدورك أنت أيضاً. أراهن أنك قد حظيت بحياة سرية. أراهن أن هذا ما أبقاك قادرة على المضي قدماً.
نقبت في الكتب، فتحت الأدراج. في أحدها وجدت علبةً تحوي نماذج لأزرار صنعت

في عهد جدي بينجامين: تلك الدوائر البيضاء العظمية التي تحولت ذهباً على يديه، وبقيت ذهباً لأعوام عديدة، وها قد عادت الآن عظاماً رميماً.
في العلية عثرت على العش الذي ولا بد قد أعدته لورا لنفسها، بعد مغادرتها بيلا فيستا: الألحفة من صناديق التخزين، البطاطين من غرفتها في الأسفل – تصرفٌ طائش كان سيفضح أمر وجودها في البيت لو بحث أحد عنها. وجدت قشور برتقال جافة، ولب تفاح. كما هي عادتها فلم تفكر بترتيب المكان. وفي الخزانة ذات الحواشي المزخرفة وجدت كيس النثريات التي خبأتها، في ذاك الصيف الذي شهد حورية الماء: إبريق الشاي الفضي، الآنية الصيني وصحون الفناجين، الملاعق الموسومة. كسارة البندق على صورة تمساح، زر عرق اللؤلؤ الوحيد من زوج وثاق الكفة، القداحة المكسورة، إبريق الزيت الزجاجي فاقداً توأمه إبريق الخل.
قلت لنفسي، سآتي لاحقاً وآخذ المزيد.

ريتشارد لم يقابلني شخصياً، وهو (ما اعتبرته) دليلاً على ذنبه. عوضاً عن ذلك بعث بوينيفريد. "هل فقدت عقلك؟" كانت جملتها الافتتاحية. (حديثنا دار في مَغدى بِتي: إذ لم أرغب بوجودها في بيتي المستأجر الصغير، لم أرغب بتواجدها مطلقاً مع آيمي).
"كلا،" أجبتها، "ولا لورا كذلك. وليس الأمر كما ادعيتما أنت وريتشارد. فأنا على درايةٍ بما فعل".
"لا أدري عمّ تتكلمين،" أجابتني وينيفريد. كانت متلفعة ببطرشيل من فرو المنك بأذيال لامعة، تنتزع القفازين عن يديها.
"أظنه اعتقد أن بزواجه مني سيحصل على صفقة – اثنتان بسعر واحدة. اشترانا بسعر أغنية".
"لا تكوني سخيفة،" قالت وينيفريد، بيد أنها بدت مهزوزة. "يدا ريتشارد نظيفتان تماماً، أياً كان ما قالته لورا. دوافعه كانت بيضاء كما الثلج. لقد أسأت الحكم عليه. ويريد مني إبلاغك بأنه مستعد لتجاهل ما وقع، انحرافك هذا عن جادة الصواب.

إن عدت إلى البيت، فهو مستعدٌ تماماً للصفح والنسيان".
"وأنا لست مستعدة. قد تكون دوافعه بيضاء، لكن بالتأكيد ليس كما الثلج، بل كشيءٍ آخر مختلف تماماً".
"أخفضي صوتك،" هسَّت قائلةً لي، "فأعين الناس علينا".
"أعين الناس ستكون علينا في كل الأحوال، مع مجيئك هنا تبدين مثل حصان الليدي آستور. أتدرين، تلك الدرجة من اللون الأخضر لا تلائمك بتاتاً، خصوصاً في سنك. وفي الحقيقة لم يلائمك يوماً، يجعلك تبدين صفراوية".
تلك الملاحظة مسَّت وترها الحساس. وينيفريد وجدت من الصعب عليها مواصلة حديثها معي: فلم تكن معتادة على لساني الجديد الذي يقطر سمًّا. "وما الذي تريدينه بالضبط؟ ليس أن ريتشارد قد ارتكب أي خطأ على الإطلاق، هو فقط لا يريد إثارة أي جلبة".
"لقد أخبرته بالضبط ما الذي أريده، بكل وضوح. والآن أريد الشيك".
"لقد طلب رؤية آيمي".
"لن أسمح له أبداً، لن أسمح بشيءٍ كهذا. فهو يشتهي الفتيات الصغيرات. أنت كنت على دراية بذلك، ولطالما عرفت. حتى مع بلوغي الثامنة عشرة كنتُ قريبةً من الحد الأقصى. وجود لورا في ذات البيت كان إغواءً لم يقدر على مقاومته، أرى ذلك الآن. كان عاجزاً عن إبعاد يديه عنها. لكن لن أسمح له بوضع إصبع من أصابعه على آيمي".
"يا له من كلامٍ مقرف". كان الغضب قد تملك وينيفريد: وجهها بدا مبقَّعاً تحت مكياجها. "آيمي ابنته".
كنت على وشك أن أقول، "لا هي ليست بابنته،" لكني عرفت أني إن فعلت، فسأرتكب خطأً تكتيكيًّا. فقانوناً هي ابنته؛ وما كان لدي من دليل لإثبات العكس، فلم يكن قد اخترعوا آنذاك كل تلك الفحوصات الجينية، ليس بعد. وإن عرف ريتشارد بالحقيقة، فسيتحمس أكثر لاقتلاع آيمي وأخذها بعيداً عني. كان سيمسك بها رهينة، وكنت سأخسر كل المكاسب التي حصلت عليها. كانت لعبة

شطرنج قذرة. "لن يقف عند أي حد، ولا حتى عند آيمي. ثم سيشحن بها إلى مزرعة إجهاض متخفية، كما صنع بلورا".

"أرى ألا فائدة من متابعة هذا الحديث،" قالت وينيفريد بينما أخذت تتناول قفازيها وبرطشيلها ومحفظتها الحرشفيّة.

الحياة تبدّلت بعد الحرب. كانوا قد بدلوا مظهرنا. الألوان الرمادية المحبَّبة الباهتة والداكنة اختفت. واستبدلوها بالألوان الساطعة – مبهرجة، أوليَّة، حادة. الزهري الفاقع، الأزرق الصارخ، الأبيض والأحمر لكرات الشاطئ، الأخضر المُشعّ للعشب البلاستيكي، الشمس المتوهجة سلطت ضياءها علينا كما إضاءة المسرح.

وحوالي البلدات والمدن، اهتاجت الجرافات، واقتلعت الأشجار؛ حفرٌ عظيمة في الأرض غُرف منها التراب وكأن قنابل سقطت فيها. الشوارع غدت مرصوفة بالحصى والوحل. مروجٌ عارية ظهرت، كسوها بالشجيرات الوشيعة التي غرسوها فيها: شجرة البتولا الباكية كانت الأكثر شعبية. فالسماء بوسع مداها ما كانت تطاق.

وكان هناك لحم، قطعٌ كبيرة وشرائح وفيرة منه تتلألأ على واجهات الجزارين. كان هناك ثمار البرتقال والليمون براقةً كما شروق الشمس، وأكوامٌ من السكر وجبالٌ من الزبدة الصفراء. الكل أخذ يأكل ويأكل ويأكل. حشوا أنفسهم باللحم الملون وكل أصناف الطعام الملونة، وكأن الشمس لن تشرق، وكأن الغد لن يأتي أبدا.

بيد أنَّ الشمس ستشرق، ولا شيء سيأتينا سوى الغد. الأمس هو من قد تلاشى للأبد.

كنت قد ملكت ما يكفي من المال، من ريتشارد ومن ملكية لورا. كنت قد اشتريت بيتي الصغير. آيمي كانت لا تزال ممتعضة مني على جرِّها معي بعيداً عن حياتها السابقة الموسرة والمرفهة، لكنها بدت وكأنها أخذت تستقر، بيد أني كنت ألمح بين فترةٍ وأخرى نظرةً باردة اتجاهي: كانت قد قررت أني قد قصّرتُ معها كأم. أما ريتشارد فقد حصد ثمار المسافة البعيدة، ما أضفى عليه هالةً براقة في عينيها، خصوصاً

وأنه ما عاد حاضراً. لكن مع الوقت، سيل الهدايا التي اعتاد أن يبعث بها إليها أخذ يشح، لذا لم تملك أي خيارٍ آخر سوى تقبل الواقع. أخشى أني توقعتها أكثر رواقية مما كانت عليه.

في غضون ذلك، ريتشارد كان يعدّ نفسه للوقوف على منصة القيادة – إذ كما قالت الصحف – قد بات الأمر في متناول يديه. أجل، كنت عائقاً، لكن شائعات الانفصال سرعان ما طمروها. قيل إني كنت "أقضي أيامي في الريف،" ولا بأس في ذلك إلى حدٍّ ما، طالما كنت مستعدة لقضاء أيامي كلها هناك.

لكن من وراء ظهري، سرت شائعات أخرى: أني لست مستقرة عقلياً؛ أن ريتشارد يؤمّن احتياجاتي المالية، رغم جنوني؛ ريتشارد كان قديساً. لا ضرر يتأتى عن زوجةٍ مجنونة، إن تعاملت جيداً مع وضعها: فمن شأن ذلك أن يضفي على الزوج صاحب السلطة هالةً إنسانية تثير التعاطف مع قضاياه.

عشت حياةً هادئة في بورت تيكونديروغا. متى ما غادرت البيت، كنت أقطع طريقي في بحرٍ من همسٍ ينم عن التقدير والاحترام، تلك الأصوات التي تصمت متى ما اقتربت من السمع، ثم تستهل حديثها مرةً أخرى ما إن أغادر. كان متفقاً عليه أن أياً كان ما جرى بيني وبين ريتشارد، فلا بد أني الطرف المظلوم. فقد غادرت الزواج خاسرة، لكن بما أن لا عدالة هناك، فقط نزرٌ قليلٌ من الرحمة، فما كنت أملك فعل أي شيء. طبعاً كان هذا قبل ظهور الكتاب.

الوقت مضى. مارست البستنة، قرأت، وهكذا دواليك. كنت قد بدأت حينها – وإن بشكلٍ متواضع مع قطع المجوهرات على صور الحيوانات التي أهداني إياها ريتشارد – المتاجرة في المقتنيات الفنية المستعملة، والتي تبين لاحقاً، أنها ستعود بالنفع لي مالياً على مدى العقود المقبلة. كنت قد أسست شبه حياة طبيعية لي.

لكن الدموع المكبوتة قد تفسد قلبك. وكذلك الذكرى. وكذلك العضُّ على لسانك. الليالي الرهيبة كانت قد بدأت آنذاك. ما كان ليغمض لي جفن.

رسمياً، تم التعمية على ما وقع فعلاً للورا. أعوامٌ قليلة وكان سيطويها النسيان

وكأنما لم تولد يوماً. قلت في نفسي، ما كان ينبغي عليّ أن آخذ عهداً على نفسي بالصمت. قلت في نفسي، وما الذي أريده حقاً؟ ليس بالكثير. فقط نصبٌ تذكاري من نوعٍ ما. لكن ما النصب التذكاري إن تأمّلتِ حقيقته سوى تخليد ذكرى الجراح المصبور عليها؟ كل ذاك الصبر، كل ذاك الاستياء. دون الذكرى، لا سبيل إلى الانتقام.

كي لا ننسى. اذكروني. من أيدينا الواهنة إلى أيديكم
تلك هي تضرعات الأشباح العطشى.

لا شيء أصعب من فهم الموتى، هذا ما اكتشفته؛ بيد أن لا شيء أخطر من تجاهلهم.

ركام الأنقاض

أرسلتُ الكتاب. تلقيت رسالة الرد في الوقت المحدد. أجبت عليها. وبدأت الأمور تأخذ مجراها.

استلمت نسخ المؤلف، مقدّماً قبل النّشر، على طية الغلاف الورقي الداخلي للكتاب نبذةٌ ذاتية مؤثرة:

> لورا تشايس كتبت السفّاح الأعمى قبل بلوغها الخامسة والعشرين من عمرها. كان عملها الأول؛ وللأسف، سيكون الأخير، إذ توفيت في حادث سيارة مأساوي عام ١٩٤٥. نحن فخورون بتقديم عمل هذه الروائية اليافعة والموهوبة في باكورة إبداعها المذهل.

أعلى النبذة صورةٌ للورا، كانت نسخة سيئة: فقد بدت وكأنما منقطة بالوَنيم. مع ذلك فقد وفت بالمطلوب.

لدى إصدار الكتاب، لم يتلقَّ أي ردة فعل. فقد كان كتاباً صغيراً ومحتواه بالكاد يرقى إلى نوعية الكتب على قوائم أفضل المبيعات؛ ورغم أن الكتاب قد حاز على إعجاب النقّاد ضمن الحلقات الأدبية في نيويورك ولندن، فلم ينتبه إليه أحد هنا، ليس في البدء. ثم استمسك به الوعاظ والأخلاقيون وعجائز البلدات انضممن إلى الجوقة، وإذ بالصخب يعلو. وما إن أدرك ذباب الجثث الرابط – أن لورا هي

شقيقة زوجة ريتشارد غريفين – انكبوا على القصة كما الطفح الجلدي. ففي ذاك الوقت ريتشارد كان قد خلق نصيبه من العداوات السياسية. وطوفان التلميحات أخذ ينهمر.

قصة انتحار لورا، والتي تم التعمية عليها آنذاك باحتراف، عادت وطفت على السطح مرةً أخرى. أخذت تتنقل على ألسنة الناس، لا في بورت تيكونديروغا وحسب، بل في الدوائر المهمة. فإن انتحرت فعلاً، فما السبب؟ أحدهم كان قد أجرى اتصالاً مجهولاً – ومن عساه يكون يا ترى؟ – وإذ بعيادة بيلا فيستا تدخل الصورة. شهادة موظفٍ سابق (قيل إن إحدى الصحف قد دفعت له مبلغاً جزيلاً) قد قادت إلى إجراء تحقيقٍ شامل للممارسات القذرة التي شهدتها العيادة، وعلى إثره تم حفر الساحة الخلفية والعيادة بأكملها أغلقت. كنت قد تفحصت الصور المنشورة عن العيادة بدقة: كانت قصر أحد أقطاب تجارة الخشب قبل أن تتحول إلى عيادة، وقيل إنها تضمنت نوافذ معشقة جميلة في حجرة الطعام، بيد أنها ليست على قدر جمال النوافذ المعشقة في آفيليون.

كانت هناك مراسلات بين ريتشارد ومدير العيادة، تلك بالذات كان تأثيرها مدمّرًا.

بين الفينة والأخرى يتجلى لي ريتشارد، في عين خيالي أو في المنام. يبدو رمادياً، لكن مع لمعةٍ متقزّحة، كما بقعة الزيت على سطح بركة موحلة. يرمقني بنظرةٍ باردة. شبحٌ لوّامٌ آخر.

قبيل إعلان الصحف خبر تقاعده عن العمل السياسي الرسمي، تلقيت اتصالاً منه، الاتصال الأول منذ رحيلي. كان حانقاً، وكذلك مسعوراً. فقد قيل له إن ترشيحه لقيادة الحزب ما عاد مطروحاً إثر الفضيحة التي تعرض لها، وإن أصحاب النفوذ ما عادوا يجيبون مكالماته. باتوا يحادثونه بجفاء. غدا منبوذاً. قال لي إني فعلت ذلك به عن عمد، كي أدمره.

"وما الذي فعلته؟ فها أنت لا تزال ثرياً جداً، لست مدمَّراً".

"ذاك الكتاب! لقد دمرتني! كم من المال دفعت لهم كي ينشروه؟ فلا أصدق أن لورا

كتبت تلك البذاءة – تلك القصة القذرة!"

"أنت ترفض التصديق، لأنك كنت مسلوب العقل بها. لا تقوى على مواجهة حقيقة أنَّ طوال انغماسك في علاقتك القذرة بها، فلا بد وأنها قد انسلت داخلاً وخارجاً من فراش رجلٍ آخر – رجلٍ أحبته – عكسك تماماً. أو أظن هذا ما يوحي به الكتاب – أليس كذلك؟"

"هو ذاك القرنفلي، أليس كذلك؟ ذاك اللقيط اللعين – من النزهة!" ريتشارد ولا ريب كان منزعجاً جداً: فهو، كقاعدة، نادراً ما يشتم.

"وكيف لي أن أعرف؟ فأنا لم أتجسس عليها. لكني أتفق معك، أظن علاقتهما بدأت في النزهة". لم أخبره بأن هناك نزهتين تتعلقان بأليكس: الأولى مع لورا، والأخرى، بعد عامٍ من الأولى دون لورا، بعد أن صادفت أليكس ذاك النهار في شارع كوين. النزهة مع البيض المسلوق.

"فعلتها نكايةً بي. كانت ترد لي الصاع صاعين".

"ما كنت لأفاجأ. فلا بد وأنها كرهتك. ولم لا تكرهك؟ فما فعلته بها لا يقل عن اغتصاب".

"ليس صحيحاً! لم أفعل شيئاً دون رضاها!"

"رضاها؟ أهذا ما تدعوه؟ أنا أدعوه ابتزازاً".

أقفل السماعة في وجهي. كانت عادة عائلية. فحين اتصلت وينيفريد بي قبيل اتصاله كي تنهال عليّ بالسباب، كانت قد فعلت ذات الشيء.

ثم اختفى ريتشارد، ثم عثروا عليه في حورية الماء – حسنٌ أنت على دراية بالتفاصيل. لا بد وأنه قد انسل خلسةً إلى البلدة، انسل خلسةً إلى ملكية آفيليون، انسل خلسةً إلى القارب، والذي بالمناسبة، كان في بيت القارب لا موثقاً بالرصيف كما هو مذكورٌ بصورة خاطئة في الصحف. تلك كانت تعمية: فجثةٌ في قارب على النهر أمرٌ طبيعي، أما في بيت القارب لأمرٌ يثير الشك. وينيفريد لم تشأ لأحد أن يظن أن ريتشارد كان محبطاً.

إذاً ما الذي وقع بالفعل؟ لست متأكدة. فما إن عثروا عليه، تولت وينيفريد زمام الأمور، وعملت جاهدة على تلطيف الأمر. سكتة دماغية، تلك كانت قصتها. بيد أنه عُثر عليه ميتاً والكتاب عند مرفقه. هذا ما أعرفه لأن وينيفريد اتصلت بي في حالٍ هستيرية وأخبرتني بذلك. "كيف فعلت به هذا؟ لقد دمرت مستقبله السياسي ثم دمرت ذكرياته عن لورا. فقد عشقها! هام بها! لم يطق تحمل وفاتها!"

"أنا سعيدة لمعرفة أنه أحس بشيءٍ من الندم،" قلت لها بنبرةٍ باردة. "ليس أني قد لاحظت أي ندمٍ عليه حينها".

طبعاً وينيفريد ألقت باللوم عليّ. ومن بعد ذلك، أعلنت الحرب. وفعلت بي أسوأ ما يمكن فعله. أخذت آيمي مني.

أظنها لقنتك التاريخ وفقاً لوجهة نظرها. ففي نسختها أنا الأم السكيرة المتسكعة الفاسقة السيئة. ومع مضي الوقت، وبلا شك، أخذت تشير إليّ بالحيزبون الرثة، الخفاش العجوز المجنونة، البائعة المتجولة للخردة القديمة الملوثة بغائط الفئران. بيد أني أشك أنها أخبرتك يوماً بأني قتلت ريتشارد. لأنها إن فعلت، لكانت اضطرت إلى شرح السبب وراء اعتقادها هذا.

الخردة لكانت وصمة عارٍ حينها. أجل، كنت أشتري الرخيص وأبيعه بالغالي، لكن أليس هذا عصب تجارة الأثريّات؟ – بيد أن لي عيناً ثاقبة ولم ألوِ يوماً ذراع أحد. كانت هناك فترة من الشرب المفرط – أعترف بذلك – بيد أني انجرفت له بعد رحيل آيمي. أما بالنسبة للرجال، فقد حظيت برفقة عدد منهم. لم تكن أبداً مسألة حب، بل أقرب إلى استشفاءٍ دوري. فقد تقطعت بي الحبال، ما كنت قادرة على مد يدي لأحد، ولا لمس أحد؛ وفي ذات الآن شعرت كما الحيوان المسلوخ جلده. تقت إلى نيل الدفء في حضن جسدٍ آخر.

كنت قد تجنبت أي رجلٍ من الدوائر الاجتماعية من حياتي السابقة، وما أكثرهم، أخذوا يظهرون في حياتي كما ذباب الفاكهة، ما إن التقطوا رائحة عزلتي وربما حالي السيئة. رجالٌ كهؤلاء لربما كانوا مدسوسين من قبل وينيفريد، ولا شك لدي

أنها فعلت. لذا التزمتُ بالغرباء، ألتقطهم في جولاتي عبر البلدات والمدن المجاورة بحثاً عما يسمونه اليوم المقتنيات. لم أفصح لهم أبداً عن اسمي الحقيقي. لكن وينيفريد ما كانت لتيأس من ملاحقتي. كل ما احتاجته هو رجلٌ واحد، وهذا ما حصلت عليه. صور باب غرفة الفندق، داخلة، خارجة؛ التوقيع المزور على سجل الاستقبال؛ شهادة المالك، الذي سعد بالمبلغ الذي تلقاه. بإمكانك تفنيد الموضوع في المحكمة، أخبرني المحامي، لكنني أنصح ألا تفعلي. سنحاول الحصول لك على حقوق الزيارة، هذا كل ما عليك أن تأملي الحصول عليه. فقد سلمتهم الذخيرة بيديك واستعملوها ضدك. حتى هو خاب أمله مني، ليس لفساد أخلاقي، بل لحماقتي.

ريتشارد كان قد عيّن وينيفريد في وصيته الوصيَّة القانونية على آيمي، وكذلك الوصيَّة الوحيدة على وديعة آيمي والتي لم تكن بالصغيرة. وهو ما انصب كذلك في صالحها.

أما بالنسبة للكتاب، فلورا لم تكتب كلمةً واحدة منه. لكن ولا بد أنك قد أدركت ذلك الآن. لقد كتبته بنفسي، في الأمسيات الطويلة التي قضيتها وحدي، لدى انتظاري عودة أليكس، ولاحقاً، لدى معرفتي بأنه لن يأتي. لم أتصور الأمر كتابةً – بل مجرد تدوين. ما أذكره، وما تخيلته كذلك، والذي كان أيضاً الحقيقة. تصورت نفسي مؤرخة، يدًا مبتورة، تخربش على جدار.

أردت نصباً تذكارياً. هكذا بدأ الأمر. لأليكس، وكذلك لي.

تسمية لورا مؤلفةً للكتاب لم تكن بالقفزة الكبيرة. ربما ستقررين أنَّ الجبن هو ما ألهمني تسميتها، أو ذعر اللحظة الأخيرة – فأنا لم أكن أبداً مولعة بتسليط الأضواء عليّ. أو ربما كان تعقلاً مني: فوجود اسمي كان سيضمن فقداني آيمي، والتي فقدتها على أي حال. لكن لدى تدبر الأمر فستجدين أنَّ تسميتها كان ببساطة التصرف الصحيح العادل اتجاهها، لأني لا أستطيع الادعاء أن لورا لم تكتب كلمةً من الكتاب، تقنياً هي لم تفعل، لكن بمعنىً آخر – ما كانت ستسميه لورا بالمعنى

الروحي – فلك أن تقولي أنّها شريكتي في التأليف. المؤلف الحقيقي ليس بإحدانا: القبضة أقوى من أصابعها.

أتذكر لورا، حين كانت في العاشرة أو الحادية عشرة، جالسةً إلى مكتب جدي بنجامين، في المكتبة في آفيليون. كانت هناك ورقةٌ مفرودة على سطح المكتب ولورا مستغرقة في تدبّر نظام ترتيب المقاعد في الجنة. "المسيح يجلس على يمين الرب،" قالت لورا،" فمن الجالس إذن على يساره؟"

"ربما الرب ليس له من يدٍ يسرى،" قلت لها كي أغيظها. "فاليد اليسرى يفترض بها أن تكون الطالحة، لذا ربما لا يد يسرى لديه، أو ربما قُطعت يده في حربٍ ما".

"لكننا خلقنا على صورة الرب، ولنا يدٌ يسرى، لذا فالرّب دون ريب له يدٌ يسرى مثلنا". أجابتني لورا بينما أخذت تراجع رسمها البياني، تمضغ طرف قلمها الرصاص.

"عرفت! الطاولة ولا بد مستديرة! وبذا فالكل جالسٌ على يمين الآخر، على مدار الطاولة،" قالت لي.

"والعكس صحيح". قلت لها.

لورا كانت يدي اليسرى، وأنا كنت يدها اليسرى. كتبنا الكتاب معاً. هو كتابٌ أعسر. لهذا السبب ترين إحدانا وحسب في الصورة، من أي زاويةٍ تنظرين منها.

حين بدأتُ أروي حياة لورا – حياتي – لم أملك فكرة عن السبب وراء تدويني، ولا توقعاًلمن سيقرؤها ما إن أنتهي منها. بيد أنه أضحى جلياًلي الآن. كنت أكتبها لأجلك، عزيزة قلبي سابرينا، لأنك أنت، أنت ولا أحد غيرك – مَن بحاجة إلى قراءتها.

وبما أنَّ لورا ما عادت المرأة التي تظنين، فأنت أيضاً ما عدتِ المرأة التي تظنين. قد يكون صدمةً لك، بيد أنه قد يكون مبعث ارتياح. فمثلاً، لا تربطك أي علاقة على الإطلاق بوينيفريد، ولا بريتشارد. لا تسري في عروقك ذرةٌ واحدة من دم غريفين: لذا يداك نظيفتان من جهتهما. جدك الحقيقي هو أليكس توماس، أما عن هوية أبيه، فحدودك السماء. قد يكون رجلاً غنياً، فقيراً، متسوّلاً، قديساً، عددٌ لا حصر له من البلدان والأصول، عشرات الخرائط المحوّة من الوجود، ومئات القرى

الهالكة – مُدّي يدك واختاري أيّ حَجَرٍ منها. فإرثك منه هو الملكوت اللامتناهي من الخيال. أنتِ حُرّة. لكِ الآن أن تعيدي خلق نفسك كما تشائين.

XV

الخاتمة: اليد الأخرى

تملك صورةً واحدة له، نسخة باللونين الأبيض والأسود. تحتفظ بها وتوليها كل العناية، لأنها تقريباً الأثر الوحيد المتبقي منه. الصورة لهما معاً، هي وهذا الرجل، في نزهة. نزهة هي الكلمة المكتوبة على ظهر الصورة – لا اسمه ولا اسمها. نزهة وحسب. هي تعرف الاسمين، ولا داعيَ لكتابتهما.

هما جالسان أسفل شجرة؛ لا بد وقد كانت شجرة تفاح. تنورتها الواسعة مندسة حول ركبتيها. كان يوماً حاراً. تتلمس وجه الصورة بيدها، لا تزال تشعر بالحرارة تنبعث منها.

هو يرتدي قبعةً فاتحة اللون، تواري وجهه إلى حدٍّ ما. هي مستديرة نحوه نصف استدارة، تبتسم له ابتسامةً لا تذكر أنها ابتسمتها لأحدٍ آخر من بعد. تبدو يافعة جداً في الصورة. هو الآخر يبتسم، بيد أنَّ يده مرفوعة بينه وبين الكاميرا، وكأنما يحاول صدها عنه. وكأنما يحاول صدها هي عنه، في المستقبل، متى ما عادت وتأمّلتهما في الصورة. وكأنما يحميها. بين أصابعه عقب سيجارة.

تستعيد الصّورة متى ما تكون وحيدة، وتسجّيها على الطاولة وتحدّق أسفلَ فيها. تتفحص كل تفصيل: أصابعه المبقعة بالدخان، الطيات المبيضة من ملابسهما، التفاح غير الناضج المتدلي من الشجرة، العشب الذّاوي المنبسط أمامها. وجهها المبتسم.

الصورة قد قُصَّت؛ ثلثها قد قُصَّ عنها. في الزاوية اليسرى السفلية هناك يد، مقصوصة من حول المعصم، متكئةً على العشب. هي يد تلك الأخرى، تلك التي دائماً لها وجودٌ في الصورة سواءً كانت تُرى أم لا. اليد التي ستضع الأمور في نصابها.

كيف لي أن كنتُ جاهلةً إلى هذا الحد؟ تقول في نفسها. غبيةً، عمياء، غافلةً حد الإهمال. لكن دون جهلٍ كهذا، دون غفلةٍ كهذه، فكيف لنا أن نعيش؟ إن كنت على علم بما سيجري، إن كنت على علم بكل ما سيقع لاحقاً – إن عرفت مقدماً عواقب أفعالك – فأنت هالكٌ لا محالة. ستغدو حطاماً كما الرّب. ستتحجّر. لن تأكل ولن تشرب ولن تضحك ولن تنهض عن فراشك صباحاً. لن تعشق أبداً، أبداً مرةً أخرى. لن تجرؤ على حب أحد.

كلها غرقت الآن – ومعها الشجرة، السماء، الريح والسحب. كلُّ ما تبقى لديها هي الصورة. والقصة وراء الصورة.

الصورة تجسد السّعادة، بيد أنَّ القصّة لا. السعادة هي حديقةٌ مسوَّرة بالزجاج: لا منفذ لدخولها ولا للخروج منها. لا قصص هناك في الجنة، إذ لا رحلة فيها نقطعها. الخسارة والندم والتعاسة والتوق هي التي تدفع بالقصة قدماً، على مسالكها المتمعجة.

"بورت تيكونديروغا هيرالد آند بانر"، مايو 29، 1999

آيريس تشايس غريفين، امرأةٌ استثنائية

بقلم ميرا سترغيس

السيدة آيريس تشايس غريفين توفيت فجأةً الأربعاء الماضي عن عمرٍ يناهز الثالثة والثمانين، في بيتها هنا في بورت تيكونديروغا. "رحلت عنّا في سلام، بينما كانت جالسةً في حديقتها الخلفية،" صرّحت الصديقة المقرّبة من العائلة السيّدة ميرا سترغيس. "لم تكن وفاتها مفاجئة نظراً إلى وضع قلبها الصحي. كانت شخصيةً فريدة من نوعها وعلماً تاريخياً، ورائعة بالنسبة لامرأةٍ في سنها. كلنا سنفتقدها وبالتأكيد ستعيش في ذاكرتنا لأمدٍ طويل".

السيدة غريفين كانت شقيقة الروائية المحلية ذائعة الصيت لورا تشايس. كذلك كانت ابنة النقيب نورفال تشايس الخالد في ذاكرة البلدة، وحفيدة بنجامين تشايس، مؤسس صناعات تشايس التي بدأت مع مصنع الأزرار ثمّ غيرها من المصانع. كذلك كانت زوجة الصناعي المرموق والشخصية السياسية ريتشارد إي. غريفين، وأخت السيدة وينيفريد غريفين بريور بالمصاهرة، سيدة الأعمال الخيرية

من تورنتو التي توفيت العام الماضي واهبةً ثانويتنا ميراثاً كريماً. وقد توفيت السيدة تشايس عن حفيدتها سابرينا غريفين، التي عادت التوّ من الخارج ويتوقع زيارتها البلدة عن قريب كي تنظر في أمور جدّتها. أنا واثقة أنها ستتلقى ترحيباً حاراً وسنمدّ لها جميعاً يد العون والمساعدة.

تنفيذاً لرغبة السيدة تشايس فالدفن سيقام في مراسم خصوصية، مع دفن الرماد في نصب عائلة تشايس في مقبرة ماونت هوب. بيد أن مراسم تأبين عامة ستقام في معبد دار جوردان للخدمات الجنائزية الثلاثاء المقبل الساعة الثالثة بعد الظهر، احتفاءً بإسهامات عائلة تشايس العديدة على مر العقود، ومن بعدها ستقدم المرطبات في بيت ميرا ووالتر سترغيس، الكل مرحبٌ به.

العتبة

اليوم ماطر، مطر الربيع الدافئ. النسيم نديٌّ بقُطَيراته. الصوت الصادر عن المنحدرات يتدفق على الجرف – يتدفق كما الريح، بيد أنه ساكن، مثل موجةٍ تركت أثرها على رمل شاطئ.

أجلس هنا إلى طاولتي الخشبية على شرفتي الخلفية، أستظلُّ بطُنُفِها، أتأمّل حديقتي المتناثرة المهملة منذ أمدٍ طويل. الغسق يدنو. الفلوكس البري يزهر، أو أظنها زهور الفلوكس؛ فلا أراها بوضوح. شيءٌ ما أزرق، يلوح وميضه هناك آخر الحديقة، هو ذات اللون الفسفوري للثلج في الظل. في مساكب الأزهار جموع الطلع تشق طريقها للأعلى، تبدو مثل أقلام التلوين الشمعيّة، أرجوانية، مائية، حمراء. شذى التربة الرطبة والحياة المنبثقة منها تغمرني، زلقة كما الماء، مع مذاقٍ لاذع كما لحاء الشجر. تلك رائحة الشباب التي تفوح منها؛ رائحة القلب المنفطر.

تدثّرتُ بشال: المساء دافئ في هذا الموسم من العام، لكني لا أشعر بدفئه، أشعر فقط بغياب البرد. أرى العالم جليًّا من هنا – أعني بهنا المنظر الذي تلمحينه من قمّة موجة، قبل أن تأتي الموجة التالية وتبتلعك: يا لها من سماءٍ زرقاء، يا له من بحرٍ أخضر، ويا له من مشهدٍ نهائي.

جانب مرفقي كومةٌ من الأوراق التي انكببت على كتابتها وتجميعها دون كلل ولا ملل، شهراً بعد شهر. متى ما أنتهي منها – لدى كتابتي الصفحة الأخيرة – سأنتزع نفسي من هذا الكرسي وأتلمس طريقي إلى المطبخ، وأبحث في أرجائه عن رباطٍ

مطاطي أو فتلة خيط أو شريطٍ عتيق. سأربط الأوراق في حزمة وأرفع الغطاء عن صندوق أمتعة السفر وأدسُّ هذه الحزمة فيه أعلى كل ما يوجد في قلبه. وستبقى هناك إلى حين عودتك من ترحالك، إن عدت يوماً. المحامي يملك المفتاح، والأوامر.

لا بد أن أعترف بأن حلم يقظة يراودني عنك.

في مساءٍ ما سأسمع طرقاً على الباب وسيكون القادم أنت. ستكونين مرتديةً ملابس سوداء، تحملين معك حقيبة الظهر التي أخذت محل حقيبة اليد لدى كل الفتيات. سيكون الجو ماطراً، كما هذا المساء، لكن لا مظلة لديك، فأنت تزدرين المظلات؛ فالشباب يحبون تعريض رؤوسهم لظروف الطقس، يرونه منعشاً. ستكونين واقفة على الشرفة، في سديمٍ من الضوء الرطب؛ شعرك الداكن اللامع سيكون مخضَّلاً، ملابسك السوداء ستكون مبتلة، قطرات المطر ستلمع على وجهك وملابسك كما نثار الترتر.

ستطرقين الباب. سأسمعك، وسأجرُّ قدميَّ جرًّا عبر الرواق، وسأفتح الباب. قلبي سيقفز ويطير فرحاً؛ سأمعن النظر فيك، ثم سأتعرف عليك: قرة عيني، منيتي الأخيرة. سأقول في نفسي إني لم أر أحداً بجمالك، بيد أني لن أقولها؛ ما كنت لأود أن تريني مخبولة. ثم سأرحب بك، سأمد ذراعيَّ لك، سأقبلك على وجنتيك، سأضنُّ بقبلاتي عليك، فمن غير اللائق أن أستسلم لمشاعري. سأذرف القليل من الدمع، قليلاً وحسب، فعين المسنِّ مجدبة.

سأدعوك للدخول. ستدخلين. ما كنت لأنصح فتاةً يافعة بفعل ذلك، تجاوز عتبة مكانٍ مثل مكاني، مع شخصٍ مثلي يقطنه – امرأة كبيرة، امرأة أكبر في السن، تعيش وحيدة في كوخها الأحفوري، مع شعرٍ مثل شبكة العنكبوت المشتعلة وحديقةٍ موبوءة بالحشائش وغيرها مما الرب وحده يعلم بها. المخلوقات مثلي ينبعث منها نفحٌ كبريتي: قد ينتابك شيءٌ من الذعر لدى رؤيتي. لكنك أيضاً طائشة بعض الشيء، حالك من حال كل نساء عائلتنا، لذا ستدخلين أياً كانت العاقبة. ستنادينني جدتي؛ ومع تلك الكلمة الواحدة لن أعود منبوذة، لن أشعر بأن الكلَّ قد تبرأ مني.

سأجلسك إلى طاولتي، بين الملاعق الخشبية وأكاليل الأملود والشمعة التي لم تُضأ أبداً. سترتجفين، وسأعطيك منشفة، وسأدثرك ببطانية، وسأعد لك كوباً من شراب الكاكاو.

من ثم سأروي لك قصة. سأروي لك هذه القصة: كيف أنك جئت إلى هنا، تجلسين في مطبخي، تستمعين إلى القصة التي قد أخذت أرويها لك. إن حدثت معجزةٌ ما وتحقق حلمي هذا، فلن يكون من داعٍ لكل تلك الكومة الكبيرة المتداخلة من الورق. وما الذي سأريده منك؟ لا الحب: سيكون طلباً مبالغاً فيه. ولا الغفران، إذ لا يعود إليك منحه. ربما ما أريد هو مستمعٌ واحد؛ مستمعٌ حقاً يراني. وأياً كان ما ستفعلينه اتجاهي، إياك وأن تجمّليني: فلا رغبة لي أن أغدو جمجمة زينةٍ مزخرفة. لكني أودعُ نفسي بين يديك. إذ ما الخيار الذي أملكه؟ فما إن تقرئي هذه الصفحة الأخيرة، فأين سأكون – من بين كلِّ الأماكن – إلا بين يديكِ.

كلمة شكر

أودُّ أن أعبر عن شكري وعرفاني إلى كلٍّ من الأشخاص والجهات التالية: إلى مساعدتي التي لا غنى لي عنها، سارة كوبر؛ إلى الباحثين، آى. إس. هول وسارة ويبستر؛ بروفيسور تيم ستانلي؛ أمينة الأرشيف شارون ماكسويل، شركة كونارد لاين، مكتبة سانت جيمس العامة في لندن؛ إلى المدير التنفيذي لمجمع أونتاريو التاريخي دوروثي دنكان؛ قسم الأرشيف لدى شركة هدسون باي/سيمبسونز، وينيبغ؛ إلى فيونا لوكاس من متحف سبادينا هاوس التراثي في تورنتو؛ فريد كيرنر؛ تيرانس كوكس؛ كاثرين آشينبرغ؛ جوناثان إف. فانس؛ ماري سيمز؛ جوان غايل؛ دون هتشينسون؛ رون بيرنستين؛ لورنا توولس وطاقم العاملين على مشروع ميريل لأرشفة أعمال الخيال العلمي – النظرية والخيال – التابع لمكتبة تورنتو العامة، وإلى جانيت إنكسيتر من متجر آنيكس للكتب. كذلك الشكر موصول للقراء الأوائل إلينور كوك، رامزي كوك، زاندرا بنغلي، جيس آى. غيبسون، وروزالي آبيلا. وإلى وكيلاتي، فيبي لارمور، فيفيان شوستر، وديانا ماكاي؛ وإلى المحررات، إلين سيليمن، هيثر سانغستر، نان آى. تالس، وليز كالدر. كما أشكر آرثر غيلغوت، مايكل برادلي، بوب كلارك، جين غولدبيرغ، وروز تورناتو. وإلى غرايم غيبسون وعائلتي، دائماً وأبداً.

كذلك أوجه الشكر والامتنان إلى الجهات التالية لمنحنا الإذن في طباعة مواد منشورة مسبقاً:

عبارات الاقتباس مستهل الكتاب:

ريتشارد كابوشينسكي، ملك الملوك: © 1982، ريتشارد كابوشينسكي، ترجمة ويليام آر. براند وكاتارتشنا مروكتشوسكا-براند. هاركورت بريس جوفانوفتش، 1985. إعادة النشر بإذن من المؤلف.

النقش القرطاجي على جرة دفن الموتى يعود إلى زشتار، سيدة نبيلة من الطبقة الوسطى (210 ق.م – 185 ق.م) وقد أورده الدكتور إميل إف. سواردسوارد في "كِسَر من شواهد القبور القرطاجية"، موجز البحث منشور في دورية "النقوش الأثرية"، السلسلة السابعة، العدد التاسع، عام 1963.

شيلا واتسون: مقتبس عن "وهد الوادي العميق" ©1992، شيلا واتسون. إعادة النشر بإذن من دار مكليلاند وستوارت للنشر.

النصوص العاميّة للأغاني مستوحاة من الأغاني الأصلية:

«The Smoke Goes Up the Chimney Just the Same»: أغنية فولكلورية.

«Smokey Moon» كلمات جي. داموردا. ألحان كراد شيلي. الحقوق الفكرية © 1934 محفوظة لشركة ستيكس وسكاي لارك للموسيقى. تم تجديد الحقوق عام 1968 لصالح شركة شاغاز للموسيقى الممثلة للكاتب والملحن. تم نيل الإذن لاستخدام الأغنية.

«Stormy Weather» كلمات تيد كوهلر. ألحان هارولد آرلن. الحقوق الفكرية ©1933 محفوظة لشركة ميلز للموسيقى / أس. آى. للموسيقى/ تيد كوهلر للموسيقى/ إي إم آي ميلز للموسيقى/ ردوود للموسيقى. تم تجديد الحقوق عام 1961 لصالح آركو للموسيقى. منح حقوق استخدام الأغنية داخل الولايات المتحدة الأمريكية تدار من قبل شركة فريد آليرت للموسيقى ممثلةً تيد كوهلر للموسيقى، ومن قبل أس. آى. للموسيقى نيابةً عن هارولد آرلن للموسيقى. حقوق استخدام الأغنية خارج الولايات المتحدة الأمريكية تدار من قبل إي أم آي ميلز للموسيقى. كل الحقوق المناطة بمصالح تيد كوهلر في كندا ودول الكومنولث تديرها مؤسسة بينستوك للنشر لصالح ردوود للموسيقى. تم تأمين الحقوق الفكرية العالمية. كل الحقوق محفوظة. تم نيل الإذن لاستخدام الأغنية.

المقتطف الخاص بالرحلة الأولى على متن الملكة ماري مقتبس عن:
"في البحث عن الصفة المناسبة" بقلم جي. هيربرت هودجنز. مجلة ماي فير، يوليو 1936. (ماكلاين هنتر، مونتريال). لم نستدل على هوية المالك الأصلي للحقوق الفكرية. تم إعادة الطبع بإذن من شركة روجرز ميديا وساوثام.



إيمان أسعد، روائية أردنية مقيمة في الكويت، صدر لها رواية «زينب والخيط الذهبي» عام 2014. حاصلة على شهادة الماجستير في الدراسات الأمريكية من الجامعة الأردنية عام 2005، وعلى شهادة البكالوريوس في تخصّصي علم الحاسب الآلي والأدب الإنجليزي من جامعة الكويت عام 2003. صدر لها عن دار روايات الترجمة العربية لرواية غراهام سويفت «الطلب الأخير» عام 2017.



مارغريت آتوود، التي تُرجمت أعمالها إلى خمس وثلاثين لغة حول العالم، ألّفت ما يربو عن الأربعين كتابًا بين الرواية والشّعر والمقالة. إضافة إلى روايتها الأشهر «حكاية الخادمة» هناك «عين القطّة» التي نافست في نهائيات جائزة البوكر عام 1989؛ و«آلياس غريس» الحائزة على جائزة Giller في كندا و Premio Mondello في إيطاليا؛ و«أوريكس وكريك» التي وصلت نهائيات البوكر عام 2003. أيضًا «سنة الفيضان» و«مادادام». فازت بأكثر من 55 جائزة وتكريمًا، بينها درجات علميّة تشريفيّة من جامعات كامبردج وأوكسفورد والسّربون. تعيش في تورنتو، كندا.

السفّاح الأعمى

تنسج مارغريت آتوود في (السفّاح الأعمى) خيوطًا من السّرد القوطي الغامض، بالرومانسيّة، بالدستوبيا، في رواية فاتنة عنيفة. تبدأ القصّة بموتٍ غامض -شُبهة انتحار- تعرّضت له شابّة تدعى لورا تشايس عام 1945. بعد ذلك بسنوات، تستعيد أختها آيريس ذكريات طفولتهما معًا، والوفيّات الدراميّة التي تمفصل حولها تاريخ عائلتهما الغنيّة غريبة الأطوار. تتداخل معها فصول من رواية لورا الفضائحية التي جعلتها كاتبة معروفة -وقد نُشرَت بعد موتها- عن عشيقين هاربَين، يروي أحدهما للآخر فصولًا أخرى من حكاية سفّاح أعمى تجري في كوكب آخر وبُعدٍ زمانيّ مختلف. هذه الحكايات المتداخلة والمتوالدة في آن تكشف تدريجيًا الأسرار التي جهدت عائلة تشايس على إخفاءها. وكل ذلك ينتهي بمنعطف في القصّة صادم، ما يجعل أثرها في النّفس باقٍ لا يزول.

من بين أفضل 100 رواية في القرن العشرين حسب تصنيف مجلّة Time

«ساحرة.. رواية قاتلة. كتبتها آتوود بجُمَل هشّة لكن بواقعية فولاذيّة أيضًا» *The Christian Science Monitor*

«آتوود شاعرة، وناسجة خيال بالقدر نفسه»
The New Yorker



Designer: Nathan Burton / Photo by: Alfred Johnston

ISBN 978-9948-24-174-4

روايات
REWAYAT